الألف
كتاب
(ثاني)
٢٥٩

إدوارد جيبون

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثاني



اضمحلال
الامبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثانى

تأليف
إدوارد جيبون

ترجمة
د. محمد سليم سالم

مراجعة وتقديم
أحمد نجيب هاشم

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لمختصر كتاب :

DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

EDWARD GIBBON'S

الذى اعــــده

D. M. Low

فهرس

الموضـــــع | الصفحة

الاصلاح الوثنى المضـــاد

عودة المسيحية الى مكان الحظوة

الموضوع	الصفحة

الإصلاح الوثني المضاد



الفصل الثانى والعشرون
(٣٦١ - ٣٦٣)

اعتلاء جوليان العرش • أخلاق جوليان

فى سنة ٣٦١ بعد الميلاد ، وبعد حكم اتسم بالطغيان ، مات قسطنطيوس فى مطلع حرب أهلية ضد جوليان الذى أصبح نتيجة لهذا الامبراطور الأوحد • ولقد تحكم فى جوليان خلال فترة حكمه القصيرة ، دافعان استمدهما من دراساته الباكرة • وكان الدافع الأول هو تحقيق المثل الأعلى للملك الفيلسوف ، ولقد مزج هذا باصلاحات عملية وتوفير فى النفقات كما حاول أن يغير الروح الشرقية التى سادت بلاط سلفه ويدخل بدلا منها بساطة أساليب الحياة القديمة • أما الدافع الثانى فهو أنه كان طموحا الى التشبه بالاسكندر الأكبر فى الفتوحات الشرقية • وكانت أهميته الخاصة بالنسبة للأجيال القادمة أنه نبذ المسيحية ، وحاول اصلاح الوثنية وارساء قواعدها من جديد •

اعتلاء جوليان العرش

كان جوليان يتحرق شوقا لزيارة المكان الذى ولد فيه والذى أصبح العاصمة الجديدة للامبراطورية ، فتقدم من نايسوس مخترقا جبال هيموس ومدائن تراقيا • وعندما وصل الى هرقليا ، على بعد ستين ميلا من القسطنطينية ، خرجت العاصمة كلها لاستقباله ، ودخلها دخول الظافرين وسط تهاليل الولاء الواجبة الصادرة من الجنود والشعب وأعضاء السناتو • واندفعت نحوه الجماهير التى لا تعد وأحاطت به فى احترام ولهفة ، وربما خاب أملهم عندما شاهدوا الرجل بقامته القصيرة وفى ردائه البسيط ، وهو البطل الذى قهر برابرة الألمان وهو لا يزال شابا تنقصه التجربة ، والذى عبر الآن كل قارة أوربا فى مسيرة ظافرة ، من شواطئ الأطلنطى الى شواطئ البسفور • وبعد ذلك بأيام قليلة ،

عندما وصل جثمان الامبراطور الراحل الى المرفأ ، صفق رعايا جوليان لما أظهره مليكهم من انسانية حقيقية أو مصطنعة · وسار الامبراطور على قدميه ، دون تاج على رأســه ، مرتديا ملابس الحداد ، ورافق موكب الجنازة حتى كنيسة « الرسل المقدسون » ، حيث دفن الجثمان · واذا كانت آيات الاحترام هذه يمكن تفسيرها بأنها ضريبة يدفعها الامبراطور بحافز الأنانية اجلالا لمنبت قريبه الامبراطور ورفعة مقامه ، فان الدموع التى سكبها أظهرت للعالم أنه نسى الاساءات التى أصابته من قسطنطيوس ، ولم يذكر الا التزاماته نحوه · وما أن تأكلت فيالق أكويليا Aquileia من وفاة الامبراطور حتى فتحت أبواب المدينة ، وقتلت قوادها المذنبين ، وبهذا غنمت عفوا سهلا من الامبراطور جوليان ، اما حكمة منه أو لينا وتساهلا · وهكذا أصبح جوليان ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره حاكما على الامبراطورية الرومانية ، لا ينازعه منازع ·

وقد تعلم جوليان من الفلسفة أن يفرق بين مزايا العمل والجهاد وبين مزايا الركود والانزواء ، غير أن ســمو أرومته والحوادث التى اعتورت حياته لم تترك له أبدا حرية الاختيار · وربما كان يفضل فى اخلاص بساتين الأكاديمية الأثينية والمجتمع الأثينى ، غير أن مشيئة قسطنطيوس أولا ثم ظلمه بعد ذلك أجبراه على تعريض شخصه وسمعته الى أخطار المجد الامبراطورى ، والى تحمل مسئولية سعادة الملايين أمام العــالم وأمام الأجيال القادمة · وتذكر جوليان فى فزع ورهبة ملاحظة أستاذه أفلاطون أن حكم الرعية ينبغى أن يلتزم به أناس من نوع رفيع ، وأن قيادة الأمم تحتاج بل وتستحق قوة الآلهة أو قدرة العباقرة · ولقد كان محقاً فى أن ينتهى من هذا كله الى أن الرجل الذى يأخذ على عاتقه الحكم ، يجب أن يتطلع الى كمال الطبيعة الالهية ، وأن ينقى نفسه من جانبها الدنيوى الفــانى ، وأن يكبت شهواته ، ويثقف عقله ، وينظم أهواءه ، ويكبح جماح ذلك الوحش الكاسر الرابض فى دخيلة نفسه والذى قلما يعجز عن ارتقاء عرش الحاكم المطلق ، على حد التشبيه الحى الذى قاله أرسطو · ولقد جعل جوليــان من العرش الوطيــد الذى اســتقل به بعد وفاة قسطنطيوس ، مقاما للتفكير السليم ، وملاذا للفضيلة ، وربما كان فيه أيضا مجال للغرور · فكان يحتقر أمجاد وامتيازات مقامه السامى ، وينبذ ملذاته ، ويؤدى ما يلقيه عليه مركزه الرفيع هذا من تبعات فى جد ودأب دائمين · وقلة من أبناء شعبه كان يمكن أن ترضى باراحته من ثقل تاجه لو أنها أجبرت على اخضاع أوقاتها وأعمالها لتلك القوانين الصارمة التى فرضها الامبراطور الفيلســوف على نفســه · ولقد ذكر واحد من أقرب أصدقائه اليه ، طالما شاركه مائدته البسيطة الخالية من الترف والبذخ ،

أن أكلته الخفيفة الضعيفة (التى كانت من النوع النباتى عادة) ، كانت تتيح لعقله وجسمه تلك الحرية وذلك النشاط اللازمين للعمل المنوع الهام الذى كان يقوم به كمؤلف ، وحبر أعظم ، وقاض ، وقائد وحاكم . وكان فى اليوم الواحد يستقبل العديد من السفراء ، ويكتب أو يملى عددا كبيرا من الرسائل الموجهة الى قواده ، وحكامه المدنيين ، وخاصة أصدقائه ، ومختلف مدائن البلدان التابعة له . وكان الى جانب ذلك يستمع الى المذكرات التى يتلقاها ، ويدرس مواضيع الملتمسات ، ويصدر قراراته فيها بأسرع مما كان يمكن لأمناء سره أن يختزلوا كتابتها رغم جدهم ودأبهم . وكان على درجة من مرونة التفكير وقوة الانتباه تمكنه من استخدام يده فى الكتابة ، وأذنه فى الاصغاء ، وصوته فى الاملاء ، ومن أن يتابع فى وقت واحد ثلاث سلاسل من أفكار مختلفة ، دون تردد أو خطأ .

وعندما كان وزراؤه يركنون الى الراحة ، كان الملك ينتقل فى خفة ونشاط من عمل الى عمل ، وبعد أن يتناول غداء سريعا ، كان يأوى الى مكتبته حتى تدعوه المهام العامة التى خصص لها أمسيته فتقطع عليه متابعة دراساته . وكان عشاء الامبراطور أخف من وجبة غدائه ، ومن ثم فان نومه كان هادئا لا يزعجه سوء الهضم . وكان زواج الامبراطور قصير الأمد ، دفعته اليه السياسة ، أكثر من أن يكون مبعثه الحب ، وفيما عدا هذا الزواج لم يقتسم جوليان العفيف فراشه مع واحدة أخرى من بنات حواء . ومن ثم فان الامبراطور سرعان ما كان يستيقظ من نومه بدخول أمناء سر آخرين من أولئك الذين أخذوا قسطهم من النوم فى اليوم السابق ، وكان على وصفائه أن يتبادلوا السهر بينما يظل سيدهم ، الذى لا يمل العمل أو يعتريه التعب ، ساهرا لا يكاد يرفه عن نفسه الا بتغيير نوع العمل . وكان أسلافه الأباطرة ـ عمه وأخوه وابن عمه ، يشبعون هوايتهم الصبيانية بألعاب « السيرك » ، مدعين فى تبرير ذلك أنهم انما يتمشون مع رغبات الشعب ، وكثيرا ما كانوا يقضون الجزء الأكبر من النهار نظارة عاطلين ، أو يكونون جزءا من المشهد الرائع ، حتى تتم الأشواط الأربعة والعشرون تماما . أما جوليان ، فقد كان يشعر ، على غير عادة العصر ، بكراهية لتلك الملذات الطائشة التافهة ويجهر بذلك ، ومن ثم فقد كان فى الاحتفالات الهامة يتنازل بحضور السيرك ، وبعد أن يلقى نظرة عابرة فى غير اهتمام على خمسة أو ستة أشواط ، كان ينسحب سريعا فى ملل الفيلسوف الذى يعتبر أن كل لحظة لا يكرسها لخير الشعب أو لتهذيب عقله كأنها لحظة ضاعت هباء . ويبدو أنه بهذا الحرص الشديد على الوقت كان يطيل فترة حكمه القصيرة ، ولو لم نكن على ثقة من دقة التواريخ لما صدقنا أن ستة عشر شهرا فقط هى التى

انقضت بين موت قسطنطنيوس وبين رحيل خلفه جوليـــان الى الحرب الفارسية • ولا شك فى أن أعمال هذا الامبراطور لا يمكن أن يخلدها الا حرص المؤرخ واهتمامه ، غير أن ذلك الجزء من كتاباته الضخمة الذى ما يزال باقيا ، انما يظل أثرا يشهد له بالمثابرة والعبقرية • فلقد ألف « الميزوبوجون » (رسالة يرد فيها على من سخروا من فلسفته من انطاكيين) و « القياصرة » ، وكثيرا من الخطب التى ألقاها ، وكتابه الفذ ضد الديانة المسيحية ، فى الليالى الطويلة من فصلى شتاء قضى أحدهما فى القسطنطينية والآخر فى أنطاكية •

أخلاق جوليـــان

كانت الادارة المجهدة للشئون العسكرية والمدنية ، التى ازدادت باتساع رقعة الامبراطورية ، هى الميدان الذى مارس فيه جوليان قدراته • غير أنه كثيرا ما كان يقوم بدور الخطيب ودور القــاضى ، وهما دوران لا وجود لهما تقريبا فى حياة ملوك أوربا الحديثين • ولقد كان القياصرة الأولون يتقنون فنون الاقناع ، غير أن خلفــاءهم من جهلة العسكريين المتسمين بالغطرسة الآسيوية أهملوا تلك الفنون ، واذا حدث أنهم كانوا يتنــازلون بالتحدث الى الجنود الذين كانوا يرهبــونهم ، فانهم كانوا يعاملون أعضــاء السناتو ، الذين كانوا موضــع احتقارهم ، فى ازدراء صــامت • أما جوليان فقد كان يعتبر اجتماعات السناتو التى تحاشاها قسطنطيوس ، مكانا يستطيع أن يعرض فيه ، بأعظم قدر من الليـــاقة والكياسة ، مبادىء الرجل الجمهورى ومواهب صاحب الفصاحة والبيان • فكان يمارس فى تلك الاجتماعات ، كما لو كان فى مدرســة للخطابة ، مختلف أساليب المدح والتقريع والنصح والتحذير ، مرة هذا ومرة ذاك • ولقد ذكر صديقه ليبانيوس أن دراسة هوميروس علمته أن يقلد بساطة أســلوب مينلاوس وايجازه ، أو يحاكى غزارة أســلوب نسطور Nestor الذى كانت كلماته تتساقط كرقائق ثلج الشتاء ، أو فصاحة يولسيس Ulysses التى تثير الشجون وتتفجر منها القوة • أما القضاء بين الناس ، وهو مهمة لا تتفق أحيانا مع مهام الحاكم ، فقد كان جوليان يمارســه لا كواجب فحسب ، بل من قبيل التسلية • ورغم أنه كان يثق فى نزاهة ولاته البريتوريين وحسن تقديرهم وفطنتهم ، الا أنه كثيرا ما كان يجلس الى جوارهم على منصة الحكم • وكان يلذ له أن يستغل قريحته النفاذة فى كشف وهزيمة حيل المحامين الذين كانوا يعملون جاهدين على اخفاء الحقائق الصادقة وتحوير معنى القوانين • وكان فى بعض الأحيان ينسى مهابة مقامه ويسأل أسئلة طائشة أو غير مناسبة ، ويفصح بصوته الجهورى

واهتزاز جسمه ، عن حماسه الجدى فى التمسك بآرائه ضد القضاة وضد المحامين وموكليهم • غير أن معرفته بطباعه كانت تدفعه الى تشجيع ، بل والتماس النقد من أصـــدقائه ووزرائه ، وعندما كان هؤلاء يجدون فى أنفسهم الجرأة على معارضة نزوات أهوائه الشـاذة ، كان فى مقدور المشاهدين أن يلحظوا ما كان يعترى مليكهم من خجل ، وما كان يبدو عليه من عرفان للجميل • وكانت قرارات جوليان تقوم دائما على أساس من مبادىء العدالة ، وكان لديه من الحزم ما يمكنه من مقاومة اغراءين هما أخطر المغريات التى تهدد محكمة الحاكم والتى تتمثل له فى صورة زائفة من الشفقة والانصاف ، فكان يحدد ما تستأهله القضـــية دون اعتبار لظروف أطرافها • ورغم نزوعه الى مساعدة الفقراء ، الا أنه كان يدينهم اذا كانت فى ذلك استجابة للمطالب العادلة التى يطالب بها خصومهم من النبلاء والأغنياء • وكان يفرق فى عناية بين مهمة القاضى ومهمة المشرع ورغم أنه كان يفكر فى ضرورة اصلاح التشريع الرومانى ، الا أنه كان ينطق بالحكم وفق التفسير الحرفى الدقيق لتلك القوانين التى كان يتحتم على الحكام تنفيذها ، ويتحتم على الرعية طاعتها •

والمعروف أن أكثرية الملوك ، لو أنهم جردوا من أردية الملك ، وألقى بهم عراة فى غمار هذا العالم لهبطوا على الفور الى أدنى مراتب المجتمع دون أمل فى النهوض من وهدتهم • غير أن الفضائل الشخصية التى كان يتصف بها جوليان كانت الى درجة ما مستقلة عن حظه فى الحياة • ومهما كان اختياره لطريق حياته ، فان شجاعته التى لا تتهاوى أو تتزعزع ، وذكاءه الوقاد ، ومثابرته القوية ، كانت كلها كفيلة بأن ترقى به الى أسمى مراتب مهنته ، أو تجعله أهلا لتلك المكانة على أقل تقدير • وكان فى مقدور جوليان أن يرتفع الى مركز الوزارة أو القيادة فى الدولة التى ولد فيها مواطنا بعيدا عن الأضواء • ولو أن تقلبات السلطة الحاقدة قد خيبت آماله ، أو لو أنه شـاء عن حـكمة وحرص أن ينبذ مسالك العظمة ، لاستطاع باستخدام هذه المواهب نفسها فى الدراسة ، بمعزل عن الناس ، أن يجعل من سـعادته الحالية وشهرته الخالدة شيئا يقصر عن نواله الملوك • واذا نحن حللنا شخصية جوليان بامعان دقيق ، أو ربما اذا كان مقصدنا من ذلك التحليل سيئا ، لبدت لنا الصورة كلها ، فى جمالها وكمالها ، مفتقرة الى شىء ما • فلقد كانت عبقريته أقل سموا وقوة من عبقرية قيصر ، كما أنه لم يتسم بما كان يتحلى به أغسطس Augustus من حكمة بلغ منها الذروة • وكذلك كانت فضائل تراجان أكثر ثباتا وأقرب الى الطبيعة ، أما فلسفة ماركوس فقد كانت أكثر بساطة واتساقا • ومع هذا كله فقد كان جوليان يجابه العسر فى ثبات ، ويقابل اليسر فى

اعتدال · وبعد مائة وعشرين عاما من موت الاسكندر سفيروس ، شاهد الرومان امبراطورا كان لا يفرق بين واجباته ومسراته ، ويعمل جاهدا على التخفيف من محن رعاياه وعلى انعاش روحهم ، ويحاول دائما أن يربط السلطة بالجدارة ، والسعادة بالفضيلة · بل ان الحزبية ، والحزبية الدينية ، اضطرت الى الاعتراف بسمو عبقريته فى السلم وفى الحرب سواء بسواء ، والى التسليم فى أسف ، بأن جوليان المرتد عن دينه ، كان محبا لبلاده ، وبأنه جدير بأن يتربع على عرش امبراطورية العالم أجمع ·

الفصل الثالث والعشرون
(٣٦١ ـ ٣٦٣)

ديانة جوليان • تعصبه • اعادته للوثنية واصلاحه لهـا • مسلكه نحو اليهود • ظلمه للمسيحيين • معبد دافني والبستان المقدس • سانت جورج • جوليان واثناسيوس

أساءت صفة « المرتد » الى سمعة جوليان ، كما أن الحماس الذى طغى على فضائله وألقى عليه ظلا كان من شأنه أن يجسم ضخامة أخطائه الحقيقيه أو الظاهرة • وان جهلنا الجزئى به قد يصوره لنا ملكا فيلسوفا ، يهدف الى بسط حمايته فى مساواة على الأحزاب الدينية القـائمة فى الامبراطورية ، والى تخفيف الحمى الدينية التى ألهبت عقول الناس ، منذ صدور مراسيم دقلديانوس الى نفى اثناسيوس • غير أن من يدرس فى دقة أكثر أخلاق جوليان وسلوكه ، سوف يتخلى عن هذا التحيز الى جانب ملك لم يستطع النجاة من عدوى أمراض ذلك العصر • ونحن فى هذا الشأن ننفرد بميزة وحيدة وهى أننا نستطيع أن نعقد مقارنة بين الصور التى رسمها له أشد المعجبين به وتلك التى رسمها ألد أعدائه • أما أعماله وتصرفاته فقد وصفها وصفا أمينا مؤرخ منصف سليم الحكم ، كان شاهدا غير متحيز شاهده فى حياته وفى موته • وتؤكد التصريحات الخاصة والعامة التى أدلى بها الامبراطور نفسه تلك الأقوال التى صدرت عن معاصريه بصورة اجتماعية • كما أن كتاباته المختلفة انما تعبر عن الطابع الواحد الذى اتسمت به أحاسيسه الدينية التى كان يجوز للسياسة أن تدفعه الى اخفائها لا الى اصطناعها • وكان تعلق جوليان فى صـدق واخلاص بآلهة أثينا وروما ، هو الذى يشكل العاطفة الغالبة عليه ، ومن ثم فان تأثير التحيز للخرافات كان يفسد عليه قدرات قريحته المستنيرة كما كان للأوهام التى لا وجود لها الا فى عقل الامبراطور تأثيرها الحقيقى الهدام على حكومة الامبراطورية • وقد احتقر المسيحيون عبادة تلك الآلهة

الخرافية وحطموا مذابحهـا ، وهذا الحماس المشتعل من جانبهم جعل ولاءهم لدينهم يتجه نحو العـداء العنيد لطائفة كبيرة العدد جـدا من رعاياه ، وكانت رغبته فى الفوز والانتصـــار ، أو خجله من حـدوث نكسة ، من الأمور التى تدفعه أحيانا الى خرق قوانين الحكمة بل وقوانين العدالة • وكان فوز الفريق الذى هجره جوليان وعمل على مقاومته ، شيئا ألحق باسمه وصمة عار لا تزول ولا تمحى ، ثم انصب سيل من الاتهامات الصادرة عن ورع أصحابها وتقواهم ، على الامبراطور المرتد المخذول ، وكان الأسقف جريجورى نازيانزن هو الذى رفع صوتا مدويا ايذانا بذلك الهجوم • ولقد ازدحمت الفترة القصيرة التى حكمها هذا الامبراطور النشيط بأحداث هامة شائقة تستحق أن تروى رواية منصفة مفصله ، وسوف نتناول فى هذا الفصل أعماله وآراءه ودوافعه ، بقدر ارتباطها بتاريخ الديانة •

وفى مقدورنا أن نعرف السبب فى ارتداده عن الديانة المسيحية بالرجوع الى الفترة البـاكرة من حياته عندما ترك يتيما فى أيدى قتلة أسرته • فلقد ارتبط فى مخيلته الفتية اسم المسيح باسم قسطنطيوس ، كما ارتبطت فكرة العبودية بفكرة الدين ، حين كانت تلك المخيلة أكثر ما يكون احساسا بما ينطبع عليها • ولقد كفله ابان طفولته يوسيبيوس أسقف نيقوميديا ، الذى كان قريبا له من ناحية أمه • وحتى بلغ جوليان العشرين من عمره كان يتلقى من معلميه المسيحيين تعليما يليق بالقديسين لا بالأبطال ، وكان الامبراطور أقل غيرة على التاج السـماوى منه على التاج الأرضى ومن ثم فقد قنع بشخصية طالب المعمودية ، وهى شخصية غير كاملة بينما منح ابنى شقيق قسطنطين (جاللوس وجوليان) مزية المعمودية ذاتهـا • بل ان الاثنين سمح لهما بالدخول فى سلك المراكز الصغيرة من الرتب الكنسية ، فكان جوليان يقرأ الانجيل المقدس على شعب كنيسة نيقوميديا • وكان يبدو أن دراسة الدين التى ثابرا على تعلمها قد آتت أحسن ثمار الايمان والورع ، فكانا يقيمان الصـلاة ، ويصـــومان ويتصـدقان على الفقراء ، ويقدمان الهدايا لرجال الدين ، ويوزعان القرابين فى مقابر الشهداء ، وعندما أقيم التمثال الرائع للقديس « ماماس » فى مدينة قيصرية ، اشـترك جاللوس وجوليـان فى بنـائه أو على الأقل فى الاشراف على اقامتـه • وكانا يتحدثان فى احترام الى الأسـاقفة الذين اشتهروا بسمو قداستهم ، ويلتمسان البركة من الرهبان والنسـاك الذين كانوا ، فى « كبادوكيا » مثالا لتحمل المصـاعب التى تنطوى عليها حياة التقشف • وعندما تقدم الأميران نحو مرحلة الرجولة ، اكتشفا فى أحاسيسهما الدينية ذلك الفرق القائم بين أخلاقهما • فلقد كان

جاللوس جامد الذهن بطىء الفهم يتقبل مبادىء المسيحية فى حماس وتسليم ، دون أن تؤثر هذه المبادىء فى سلوكه أو تلطف من اهوائه ، أما أخوه الأصغر ، فكانت طباعه أكثر رقة وأقل مجافاة لتعاليم الانجيل ، كما أن حبه الزائد للاستطلاع والمعرفة كان يمكن أن يشبعه نظام لاهوتى يفسر الجوهر الغامض للاله ، ويفتح أمام المرء أملا لا حدود له فى العالم المقبل غير المنظور · غير أن روح الاستقلال التى كان يتمتع بها جوليان كانت تأبى عليه أن يسلم بما يتطلبه رجال الكنيسة المتغطرسون باسم الدين من خضوع سلبى لا يثير اعتراضا أو يبدى مقاومة · وكانت آراؤهم الفلسفية تفرض على الناس على أنها قوانين قطعية يحميها ارهاب العقوبات الأبدية · ولكن بينما كانوا يرسمون للأمير الشـــاب قواعد جامدة صارمة تحدد أفكاره وكلماته وأعماله ، وبينما كانوا يخرسون اعتراضاته ويكبتون حرية الاستفسار عنده فى شدة وقسوة كانت عبقريته الطموحة المتحرقة للمعرفة تدفعه سرا الى نبذ سلطان مرشديه الدينيين · وقد تلقى تعليمه فى آسيا الصغرى حيث شاهد فضائح الجدل الآريوسى · وكانت النزاعات الوحشية بين الأساقفة الشرقيين ، وتغييرهم المستمر لعقائدهم ، والدوافع الدنيئة التى كان يبدو أنها تحدد مسلكهم ، كل أولئك قوى لدى جوليان ، دون أن يشعر ، ما كان يعتقده فيهم من أنهم لا يفهمون الديانة التى يصـــارعون من أجلها بمثل هذه القسوة ، بل ولا يؤمنون بها · وبدلا من أن يصغى الى أدلة المسيحية بما يناسب ذلك من انتباه يقوى أكثر الأدلة احتراما ، كان يستمع فى شك وريبة الى المبادىء التى كان يكن لها نفورا لا يستطيع التغلب عليه ، ويتحداها فى عناد وحدة · وكلما كان يطلب الى الأمراء ان يدلوا بآرائهم فى موضوع الخصومات السائدة ، كان جوليان يعلن دائما أنه نصير الوثنية ، مدعيا فى تبرير ذلك أنه ، فى الدفاع عن القضية الأضعف ، يستطيع أن يمارس ويظهر علمه وبراعته بصورة أنفع وأجدى ·

وما أن تسلم جاللوس مقاليد الملك حتى أتيح لجوليان أن يستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بالأدب وبالوثنية · وكان جمهور السفسطائيين الذين أعجبهم ذوق تلميذهم الملكى وتحرره قد عقدوا صـــلة وثيقة بين علم اليونان وبين ديانتها · وبعد أن كانت أشعار هوميروس موضـــع الاعجاب على أساس أنها انتـــاج أصيل للعبقرية الانسانية ، أصبحوا ينسبونها فى جدية الى الوحى السماوى الصـــادر من الاله أبولو وآلهة الشعر والفنون · ولا شك فى أن آلهة أوليمبوس ، كما يصورها الشاعر الخالد هوميروس ، يمكن أن تنطبـــع على العقـــول التى تكون أبعد ما يكون عن تصديق الخرافات : ويبدو أننا عندما نألف معرفة أسمائهم

وشخصياتهم وصفاتهم وأشكالهم ، فان ذلك يضفى على تلك المخلوقات الخيالية وجودا ماديا حقيقيا ، وهذا الافتتان الشهى يغرى مخيلة المرء على أن تتقبل بصفة مؤقتة وبصورة معيبة تلك الأساطير التى تنفر منها عقولنا وتجاربنا • وفى عصر جوليان أسهمت كل الظروف فى استمرار تدعيم تلك الخيالات واطالة فترة تصديق الناس لها ـ كالمعابد الرائعة فى اليونان وآسيا ، وما أنتجه الفنانون الذين عبروا بالتصوير والنحت عن أفكار الشاعر ، وفخامة الاحتفالات وتقديم القرابين ، وفنون التكهن بالغيب المزدهرة ، والتقاليد الشعبية منذ ألفى سنة • ومع أن عبادة الآلهة المتعددة كان لها ضعفها ، الا أن الناس التمسوا لهذا الضعف بعض العذر لأن مطالب تلك الديانة كانت معتدلة ، ومن ثم فان ولاء الوثنيين كان شيئا يمكن أن ينمشى مع أشد ألوان التشكك تطرفا • وبدلا من أن يكون هناك نظام دينى رتيب لا يقبل التجزئة ، ويشغل نطاق العقل المؤمن كله ، فان الميثولوجيا اليونانية كانت تتألف من آلاف الأجزاء المفككة المطاطة ، وكان المتعبد للآلهة حرا فى تحديد مدى ايمانه الدينى وقدره • ولقد اتخذ جوليان لنفسه عقيدة لها أوسع الأبعاد ، وازدرى فى تناقض عجيب ، ذلك الخضوع النافع للانجيل ، بينما قدم عقله بمحض اختياره قربانا على مذبح الاله جوبيتر والاله أبولو ، ووقف احدى خطبه على تمجيد الهة الطبيعة « كيبلى » Cepele التى طلبت من كهانها المخنثين ذبيحة دموية كتلك التى قدمها الصبى من أهل « فريجيا » فى جنون وتهور • ويتنازل الامبراطور التقى فيقص فى جدية ودون خجل ، رحلة الالهة من شواطئ برجاموس Pergamus الى مصب نهر التيبر ويحكى تلك المعجزة المذهلة التى أقنعت السناتو وأهل روما بأن كتلة الطين التى نقلها سفراؤها عبر البحار كانت تنبض بالحياة والأحاسيس والقوة الالهية • ويلتمس من الآثار العامة فى المدينة أن تثبت صدق هذه المعجزة ، ويلوم فى شئ من الحدة والخشونة ذلك الذوق المريض الذى اتصف به أولئك الرجال الذين كانوا يسخرون فى وقاحة من تقاليد أجدادهم المقدسة •

غير أن الفيلسوف الورع الذى اعتنق فى اخلاص خرافات الشعب ، وشجعها فى حرارة ، احتفظ لنفسه بميزة تفسيرها تفسيرا متحررا ، وكان ينسحب فى صمت من عتبات الهيكل الى محراب المعبد • وكانت الأساطير اليونانية المتسمة بالتطرف والمغالاة تقرر فى صوت جلى مسموع أن الرجل التقى الذى يسعى وراء المعرفة ، يجدر به ألا يكتفى بالمعنى الحرفى لما يقرأ ، أو يقبل أن يتضح جهله ، بل ينبغى عليه أن يعمل جاهدا على كشف الحكمة الغامضة التى حرص الأقدمون على

اخفائها تحت ستار من الحماقة والخرافة (١) ولقد كان فلاسفة المدرسة الأفلاطونية ـ بلوتينوس ، يورفيرى ـ أيامبليخوس المقدس Iamblichus ـ موضع الاعجاب ، على اعتبار أنهم أمهر أساتذة علم المجاز الذى عمل على تخفيف وتنسيق ما فى الوثنية من قسمات مشوهة · وكان جوليان نفسه ، الذى تلقى التوجيه فى تلك الدراسة الغامضة على يد ايديسيوس المبجل ، خليفة ايامبليخوس ، يتطلع من وراء ذلك الى امتلاك كنز كان يفوق فى نظره ملك العالم أجمع ، اذا كان لنا أن نصدق فى هذا الشأن تصريحاته الجدية · وفى الحق أنه كان كنزا يستمد قيمته من رأى الانسان فقط ، وكل فنان أطرى نفسه بأنه قد استخلص المعدن النفيس من الصدأ المحيط به كان يدعى لنفسه الحق فى أن يطلق على ما يكتشفه ذلك الاسم الذى يلذ لخياله ، أو يصوره بالصورة التى تشبع هذا الخيال · فخرافة آتيس وكيبيلى كان يورفيرى قد وضع لها تفسيرا ، غير أن اجتهاده فى هذا التفسير لم يكن له من أثر على جوليان التقى المثابر سوى أنه دفعه الى المحاولة من جانبه ، فابتكر تفسيره الخاص لتلك القصة القديمة الغامضة وتولى نشره · غير أن حرية التفسير هذه ، التى أرضت كبرياء الأفلاطونيين ، كانت كفيلة بأن تظهر عبث فنهم ، فأصبح القارىء الحديث عاجزا ، بغير الدخول فى تفاصيل مضنية ، عن تكوين فكرة صائبة سليمة ، عن المجازات الغريبة ، والاشتقاقات القسرية ، والهراء المحمول محمل الجد ، والغموض الذى لا يستطاع النفاذ اليه ، وما الى ذلك من أشياء أوردها أولئك الحكماء الذين كانوا ينادون بأنهم أماطوا اللثام عن نظام الكون · وبما أن الأساطير الوثنية قد تناولتها مختلف القصص ، فان المفسرين المقدسين كانوا أحرارا فى اختيار أنسب الظروف والملابسات التى تلائم تفسيراتهم ، وبما أنهم كانوا يفسرون أشياء أشبه ما تكون بالألغاز ، فقد كان فى مقدورهم أن يستخلصوا من أية خرافة أى معنى يلائم النظام الدينى والفلسفى الذى يحبونه · فكانوا يمسخون قصة التمثال الشهوانى العارى للالهة فينوس ، ويكتشفون منها درسا أخلاقيا ، أو حقيقة مادية ، كما استخلصوا

---

(١) ارجع الى مبادىء المجاز التى وضعها جوليان · ولقد كان تفكيره فى هذا المجال اقل سخفا من تفكير بعض اللاهوتيين الحديثين ، الذين يقررون أن المذهب الذى ينطوى على مغالاة أو تناقض ، لابد أن يكون الهيا ، لأنه لا يمكن أن يكون ابتكارا فكريا من أى انسان حى ·

من قصة خصي آتيس تفسيرا لدورة الشمس بين المدارين ، أو لانتزاع النفس البشرية من الخطأ والرذيلة (١) ٠

ويبدو أن مذهب جوليان اللاهوتي كان يشتمل على المبادىء السامية الهامة للديانة الطبيعية ، ولكن بما أن الايمان الذى لا يقوم على الوحي والالهام يظل مفتقرا الى الرسوخ والثبات فان تمليذ أفلاطون ارتد فى غير حرص أو فطنة الى عادات الخرافة المبتذلة ، وبدت الفكرة الشائعة الفلسفية لالاله ، فكرة مهوشة ، فى أعمال جوليان وفى كتاباته بل وفى عقله ٠ وكان الامبراطور الورع يعترف « بالخالق الأزلى » الذى خلق الكون ، ويعبده ، وينسب اليه كل صفات الكمال التى لا حدود لها ، وهى صفات لا تراها العين ولا يرقى اليها فهم الانسان الضعيف الصائر الى الفناء ٠ وهذا الاله الأسمى هو الذى خلق ، أو فى لغة أفلاطون ، هو الذى أوجد سلسلة متدرجة تتألف من أرواح ، وآلهة ، وشياطين ، وأبطال ورجال ، وكل مخلوق استمد وجوده مباشرة من « الخالق الأول » ، منح هبة الخلود الكامنة فيه ، وبما أن الخالق شاء ألا تمنح هذه الميزة الغالية الا لمن يستحقها فقد وكل الى مهارة وقدرة الآلهة الأقل مرتبة مهمة تكوين الجسم الانسانى ، وتدبير الاتساق الجميل بين مملكة الحيوان ومملكة النبات ومملكة الجماد ٠ وكلف هؤلاء الوزراء السماويين بأن يتولوا الحكم الدنيوى لهذا العالم الأدنى ، غير أن حكمهم المفتقر الى الكمال ليس معصوما من التنافر أو الزلل ٠ ولقد قسمت بينهم الأرض ومن عليها ، وفى مقدورنا أن نتتبع بصورة واضحة طابع مارس (اله الحرب) أو طابع مينرفا (الهة الحكمة والفنون) ، وطابع مركورى (رسول الآلهة المشرف على التجارة) أو طابع فينوس (الهة العشق والجمال) ، فى القوانين والأساليب التى ابتدعها كل منهم فى النطاق الذى خصص له ٠ وطالما بقيت أرواحنا الخالدة حبيسة فى سجن أجسامنا الفانية ، فانه من مصلحتنا ، بل ومن واجبنا أن نلتمس رضاء القوات السماوية ، ونستعيذ من غضبها ، وهى قوات يشبع ولاء الناس كبرياءها ، كما أن جوانب القسوة والغلظة فيها من المفروض أنها تستمد بعض غذائها من دخان الذبائح التى تقدم لها ٠ وقد تتنازل هذه الآلهة أحيانا فتبعث الحياة فى التماثيل التى أقيمت لتمجيدها ، وتأوى الى المعابد التى شيدت

---

(١) انظر الخطاب الخامس الذى ألقاه جوليان ٠ غير أن كل المجازات التى صدرت من المدرسة الأفلاطونية لا تساوى المقطوعة الشعرية القصيرة التى ألفها « كاتوللوس » فى هذا الموضوع الغريب نفسه ، وفيها ترى وصفا لهذا الرجل « آتيس » وقد انتقل من أشد الحماس الى الشكوى الحزينة مما لحق به من خسارة لا تعوض ، وهو وصف يثير الشفقة فى نفس الرجل ويبعث اليأس فى نفس الخصى ٠

وخصصت لتكريمها • وقد تزور الأرض بين الحين والحين ، غير أن السموات هى العرش اللائق بمجدها ، وهى رمز هذا المجد • وسرعان ما تقبل جوليان النظام الثابت المتمثل فى الشمس والقمر والنجوم دليلا على دوامها الأبدى ، كما أن أبديتها هذه كانت دليلا كافيا على أنها من صنع الاله القادر على كل شىء ، وليست من صنع اله أقل مرتبة منه • وفى مذهب الأفلاطونيين كانت المرئيات مثالا للعالم غير المرئى ، وبما أن الأجرام السماوية قد شكلتها روح الهية ففى مقدورنا اعتبارها أكثر الأشياء أهلا للعبادة الدينية • وهكذا نرى أن الشمس التى يسرى تأثيرها المنعش فى الكون ويدعمه قد استحقت أن يعبدها الناس على أساس أنها تمثل كلمة الله Logos أى الصورة الحية الرشيدة الخيرة للآب العاقل •

تعصب جوليـــان

عندما يفتقر أى عصر من العصور الى الالهام الأصيل ، فان الناس يعوضـــون هذا النقص بالتعلق بالأوهــام القوية التى تثير حماسهم ، وبفنون الدجل الزائفة • واذا كان الكهنة الوثنيون فى عهد جوليان هم وحدهم الذين مارسوا تلك الفنون تأييدا لقضية زائلة منتهية ، فربما جاز لنا أن نتغاضى عن ذلك الشىء على أســاس أن الطابع الكهنوتي كان ينحو هذا النحو من حيث العادات ومن حيث المصلحة • غير أن الذى يبدو غريبا مشينا أن يسهم الفلاسفة أنفسهم فى اساءة استغلال تصدير النـــاس للخرافات (١) • وأن يستخدم الأفلاطونيون الحديثون ضروب الشعوذة أو استخارة الآلهة فى مساندة الأسرار والغوامض اليونانية • فقد زعموا فى زهو وخيلاء أنهم يتحكمون فى نظام الطبيعة ، ويكشفون أسرار المستقبل ، ويستخدمون الأرواح السفلية ، ويتمتعون برؤية الآلهة العليــا والتحدث اليهم ، وبأنهم يستطيعون تحرير النفس من قيودهــا المادية ، وبذلك يعيدون احكام الصلة بين هذه الذرة الخالدة وبين الروح الالهية اللانهائية •

ولقد كان جوليان تقيا ومحبا للاستطلاع دون أن يخشى فى ذلك شيئا ، وأغرق كل هذا فلاسفة عصره على أن يأملوا فى غزو ســـهل

---

(١) قام سفسطائيو « يونابيوس » بقدر من المعجزات لا يقل عن ذلك الذى قام به قديسو الصحراء والشىء الوحيد الذى ميز معجزاتهم هذه أنها كانت من طابع أقل كآبة • ولم يعمد أيامبليخوس الى استحضار الشياطين ذوى القرون والذيل ، ولكنه استحضر روح الحب أيروس وروح الحب أنتيروس من نافورتين مجاورتين • فخرج صبيان جميلان من الماء واحتضناه كوالدهما ، ثم انصرفا عندما طلب منهما ذلك •

ميسور يستطيعون به أن يحققوا أخطر النتائج ، بحكم مركز ذلك المرتد الشاب • ولقد تلقى جوليان أول مبادىء المذاهب الأفلاطونية من فم ايديسيوس ، الذى أقام فى مدينة برجاموس مدرسته الجوالة المضطهدة • غير أن ذلك الحكيم الوقور كان يعانى تدهورا فى صحته لا يمكنه من أن يشبع حماس تلميذه ، ولا جده ودأبه ، ولا سرعة ادراكه وتفهمه للأمور ، ومن ثم فقد كلف جوليان اثنين من أعلم تلاميذه بأن يأخذوا مكان أستاذهم العجوز ، وهما كريسانتيس ويوسيبيوس • ويبدو أن هذين الفيلسوفين قد دبرا ووزعا فيما بينهما الدور الذى سوف يقوم كل منهما به ، وحاولا فى دهاء ، بالتلميحات المريبة ، وبالمجادلات المفتعلة أن يثيرا الآمال المتلهفة فى تلميذهما المتطلع الطموح ، حتى ألقيا به فى يد زميلهم مكسيموس ، الذى كان أجرأ وأمهر أستاذ لعلم المعجزات • وعندما بلغ جوليان العشرين من عمره رسمه مكسيموس سرا فى مدينة افيسوس عضوا فى مدرسته الفلسفية ، كما أن اقامته فى أثينا ثبتت هذه الصلة غير الطبيعية بين الفلسفة والخرافات • ثم حصل على ميزة معرفة الأسرار الاليوزية التى ظلت تحتفظ ببعض قدسيتها الأولى وسط التدهور العام الذى اعتور العبادة اليونانية • وبلغ به الحماس درجة جعلته يدعو الحبر الاليوزى فيما بعد الى بلاط الغال مستهدفا فى ذلك غرضا واحدا هو أن يكمل هذا الحبر ، بتقديم القرابين وأداء الشعائر السرية ، عملية التقديس العظيمة التى أرادها لنفسه • وبما أن تلك الاحتفالات أقيمت فى أعماق الكهوف فى سكون الليل ، وبما أن جوليان الذى أقيمت هذه الاحتفالات من أجله ، قد احتفظ لنفسه بأسرار الغوامض التى حدثت ، على اعتبار أنها أسرار لا يمكن البوح بها ، فانى لن أخوض فى وصف الأصوات المزعجة التى سمعها بأذنيه والأشباح النارية التى رآها بعينيه ، أو التى خيل اليه أنه سمعها وأبصرها ، وهو المتطلع الطموح الذى يصدق كل شىء (١) ، حتى بدت عليه علائم الراحة والمعرفة فى وهج من نور سماوى • وفى كهوف افيسوس واليوزيا نفذ الى عقل جوليان حماس صادق عميق لا يعتريه التغير ، رغم ما كان يظهره فى بعض الأحيان من تقلبات الخداع والنفاق التى يتسم بها المتدينون ، والتى يمكن ملاحظتها ، أو على الأقل يمكن الارتياب فى وجودها ، فى أخلاق من يستبد بهم التعصب • ومنذ تلك اللحظة وقف حياته على خدمة الآلهة • ورغم أن

---

(١) عندما رسم جوليان علامة الصليب ، فى لحظة ذعر مؤقتة ، اختفت الارواح على الفور • ويعتقد جريجورى أنها خافت . غير أن الكهنة أعلنوا أنها استاءت وغضبت وللقارىء أن يقرر فى هذه المسألة العويصة ما يراه على قدر ايمانه •

مشاغل الحرب والحكم والدراسة كان يبدو أنها تشغل كل أوقاته ، الا أنه كان يخصص جزءا محددا لا يحيد عنه من ساعات الليل لممارسة عبادته الخاصة · وكان ما في خلقه من اعتدال جمل به السلوك العنيف الذى يتسم به الجندى والفيلسوف ، متصلا بقواعد صارمة قليلة الوزن من التقشف الدينى ، فكان فى أيام معينة ، وتكريما للاله بان أو الاله مركورى أو للاله هكيت أو للالهة ايزيس ، يحرم نفسه من تناول طعام بعينه قد لا ترضى عنه الالهة الوصية عليه · وبهذه الصيامات الاختياريه كان يهيىء ادراكه للزيارات الكثيرة المألوفة التى تشرفه بهـــا القـــوى السماوية · ورغم أن جوليان قد أخذ نفسه بالصمت المتواضع ، الا أننا نعلم من صديقه المخلص « ليبانيوس الخطيب » ، أنه كان على اتصال دائم بالآلهة ، وأن هؤلاء الآلهة كانوا يهبطون الى الأرض للتمتع بحديث بطلهم المفضل ، فانهم كانوا يقطعون عليه نومه فى لين ورقة ويلمسون يده أو شعره ، وأنهم كانوا يحذرونه من كل خطر محدق به ، ويرشدونه بحكمتهم المعصومة من الخطأ فى كل عمل من أعمال حياته ، وأنه اكتسب من المعرفة الوثيقة بضيوفه السماويين ما كان يمكنه من التمييز بين صوت جوبيتر وصوت مينرفا ، وبين شكل أبولو وشكل هرقول ولا شك فى أن كل رؤى النوم أو اليقظة هذه ، وهى نتيجة عادية للتعصب والتقشف ، يمكن أن تهبط بالامبراطور الى مســتوى راهب من رهبـــان مصر ، غير أن أنطونيـوس وباخـوميوس قد استنفدا حياتهما التافهة فى مثـل هذه الاهتمامات الباطلة ، وكان فى مقدور جوليـــان أن يصحو من أحـــلام الخرافة ليجهز نفسه للمعركة ، وبعد أن يقهر فى ساحة الحرب أعداء روما ، كان ينسحب فى هدوء الى خيمته ليملى القوانين الحكيمة النافعة التى كان يسنهـا للامبراطورية ، أو ليوجـه عبقريته الى متابعـة الأدب والفلسفة متابعة يرتاح لها وينشرح لها صدره ·

وكان ارتداد جوليان الى الوثنية سرا خطيرا لم يعرفه الا المخلصون من رفاقه فى الأسرار الذين ارتبط بهم برباط الدين والصداقة المقدس · وسرت هذه الاشاعة السارة فى حذر وحرص بين أنصار العبادة القديمة ، وأصبح ما ينتظره من عظمة ومجد موضـــع آمال الوثنيين وصـــلواتهم وتكهناتهم فى كل ولاية من ولايات امبراطوريته · وكانوا جميعا يتحرقون الى البرء من كل سوء واستعادة كل خـير على يد ذلك المهدى الملكى · ولم يبد جوليان أى اعتراض على حماس رغباتهم الورعة ، بل اعترف فى براعة ومهارة بأنه يطمع فى بلوغ مركز يسمح له بأن يكون نافعا لبلاده ولدينه · غير أن خليفة قسطنطين كان ينظر نظرة عدائية الى ذلك الدين ، وكانت أهواؤه المتقلبة تنقذ حياته تارة وتهددها تارة أخرى ·

وكانت فنون السحر والكهانة محظورة كل الحظر تحت حكومة استبدادية لم تتعال عن التصريح بأنها كانت تخشاها ، واذا كانت هذه الحكومة قد سمحت للوثنيين ، على غير رغبة منها ، بممارسة خرافاتهم ، فان مكانة جوليان كانت لا تتيح له التمتع بهذا التسامح ، وسرعان ما أصبح جوليان ولى العهد المنتظر للملكة ، ولم يكن ثمة شيء آخر يهدىء من روع المسيحيين ومن مخاوفهم التي كانوا محقين فيها سوى موت هذا الرجل · غير أن الأمير الشاب ، الذى كان يتطلع الى بلوغ مجد البطولة لا مجد الاستشهاد ، توخى لنفسه الأمان بالمراءاة فى دينه ، وسمح له يسر الوثنية وتساهلها بأن يشترك جهارا فى عبادة الطائفة الأخرى التى كان يحتقرها فى دخيلة نفسه ، وكان ليبانيوس يعتبر نفاق صديقه هذا موضع المديح لا موضع النقد والتجريح · يقول ذلك الخطيب :

« كما أن تماثيل الآلهة التى لطختها الأقذار تقام ثانية فى معبد فخم ، كذلك أعيد جمال الحق الى عقل جوليان بعد أن تطهر من أخطاء وحماقات تعليمه · ولقد تغيرت أحاسيسه فعلا ، غير أن خطورة تصريحه بتلك الأحاسيس أرغمته على ابقاء مسلكه كما كان دون تغير · وهو لم يفعل كما فعل الحمار فى قصة ايسوب الذى أخفى نفسه فى جلد الأسد . بل ان أسدنا قد اضطر الى اخفاء نفسه فى جلد حمار ، ورغم أنه آمن بما أملاه عليه عقله ، الا أنه رضخ لقوانين الحرص والضرورة · ولقد ظل جوليان على ريائه هذا أكثر من عشر سنوات ، منذ أن أدخل فى زمرة عارفى الأسرار فى مدينة أفيسوس ، حتى بدأت الحرب الأهلية ، وعند ذاك أعلن أنه عدو لدود للمسيح وعدو لقسطنطيوس ســواء بسواء · ولا شك فى أن حالة الكبت هذه كان من شأنها أن تلهب ولاءه للعقيدة الجديدة ، ومن ثم فانه ما كان يفرغ من الوفاء بالتزامه حضور اجتماعات المسيحيين فى بعض الاحتفالات الرسمية ، حتى كان يعود ، فى لهفة المحب الولهان ، الى حرق البخور حرا مختارا فى معابد جوبيتر ومركورى القائمة فى قصره · غير أن كل عمل من أعمال الرياء هو بالضرورة شيء يؤلم الروح البشرية الصادقة ، ومن ثم فان ادعاءه المسيحية زاده كراهية لديانة تكبت حرية عقله وتضطره الى التمسك بمسلك تنفر منه أنبل صفات الطبيعة البشرية ، صفة الاخلاص وصفة الشجاعة ·

وكان جوليان بطبيعة ميوله يفضل آلهة هوميروس وآلهة سكيبيوس على الديانة الجديدة التى أقامها عمه فى الامبراطورية الرومانية ، والتى بذر لها هو نفسه بسر المعمودية · غير أنه كان من المحتم عليه ، كفيلسوف، أن يبرر انشقاقه عن المسيحية التى تؤيدها كثرة عدد معتنقيها وسلسلة من النبوءات ، وروعة المعجزات ، والأدلة التى لها وزنها ، ومن ثم فقد

ضمن كتابه الفذ الذى ألفه وسط الاستعدادات للحرب الفارسية جوهر تلك الحجج التى طالما دارت فى عقله زمنا طويلا • ولقد نسخ خصمه المتوقد كيرلس أسقف الاسكندرية بعض أجزاء من هذا الكتاب واحتفظ بها ، وهي تبين خليطا عجيبا من الذكاء والعلم ، ومن السفسطة والتعصب • وكانت رشاقة أسلوب الكتاب ومكانة مؤلفه من العوامل التى جعلت كتاباته تشد اليها الانتباه العام ، وطغت شهرة جوليان وجدارته على جميع من وردت أسماؤهم فى قائمة أعداء المسيحية المارقين ، الى درجة أنها طمست اسم بورفيرى الذى كان فى هذا المجال واسع الشهرة ذائع الصيت • ولقد أثر هذا الكتاب على عقول المؤمنين بصور مختلفة ، فاستمال بعض العقول ، وأزعج البعض ، وصدم البعض الآخر • أما الوثنيون ، الذين كانوا فى بعض الأحيان يشتبكون فى النزاع غير المتكافىء ، فانهم كانوا يستمدون من ذلك الكتاب الذائع الذى ألفه مبشرهم الامبراطورى مادة لا ينضب معينها من الاعتراضات السفسطائية المليئة بالمغالطات • غير أن امبراطور الرومان ، فى موالاته لهذه الدراسات اللاهوتية ، تشرب بالتحيزات والأهواء المتزمتة التى يتسم بها معلمو الجدل والتزم التزاما لا رجعة فيه بالتمسك بآرائه الدينية والعمل على نشرها ، وبينما كان فى دخيلة نفسه يعجب بمهارته فى استخدام أسلحة الجدل ، فانه كان فى الوقت عينه يشك فى اخلاص خصومه أو يحتقر مداركهم وفهمهم ، لأنهم يقاومون فى عناد قوة العقل وقوة الفصاحة •

وكان المسيحيون يشاهدون ردة جوليان فى فزع وسخط ، ويخشون بطشه وقوته أكثر من خوفهم من حججه ، أما الوثنيون فقد كانوا يشعرون بحماسه المشتعل ويتوقعونه منه فى لهفة أن يشعل على الفور نار الاضطهاد ضد أعداء الآلهة ، وأن حقده الماكر الماهر سوف يبتكر ألوانا جديدة من أساليب التعذيب والقتل القاسية لم تكن معروفة لدى أجداده المتسمين بالفظاظة والمفتقرين الى الخبرة • غير أن ما كانت تعقده الأحزاب الدينية من آمال وما كان يساورها من مخاوف ، لم يتحقق ، لأن حاكم البلاد كان يتصف بانسانية حكيمة وبالحرص على سمعته ، وعلى السلام العام وعلى حقوق الانسان • ولقد تعلم من التاريخ والتفكير الفلسفي أن أمراض الجسم قد تعالج أحيانا بشىء من العنف المفيد ، غير أن الآراء الخاطئة التى يعتنقها العقل لا يمكن أن تستأصل بالحديد والنار ، فقد تجر الضحية كارهة مرغمة الى المذبح ، غير أن قلبها يظل ينبض بالنقمة والسخط على ذلك الرجس الذى تقترفه أيدى أعدائها • ولا شك فى أن الظلم يذكى نار العناد الدينى ويزيده صلابة ، وما أن تنحسر موجة الاضطهاد حتى يتوب الذين استكانوا واستسلموا ، ويرفع الذين استشهدوا فى سبيل دينهم الى مصاف القديسين والشهداء • ولقد أحس جوليان أنه اذا استخدم

الأساليب القاسية الفاشلة التى استخدمها دقلديانوس وزملاؤه فانه سوف يلطخ ذكراه باسم الطاغية ويضيف مجدا جديدا الى أمجاد الكنيسة الكاثوليكية التي استمدت من قسوة الحكام الوثنيين قوة ونموا ·
وبفعل هذه الدوافع التى تحكمت فى تصرفات جوليان ، وخوفا من ازعاج سكينة ذلك العهد غير المستقر فقد فاجأ العالم بمرسوم يليق برجل سياسى أو بفيلسوف ، منح بمقتضاه كل سكان العالم الرومانى مزايا التمتع بالتسامح الحر الذى لا يميز فيه واحد على الآخر ، ولم يقيد المسيحيين الا بقيد واحد هو أنه حرمهم من القدرة على تعذيب أولئك الرعايا من زملائهم الذين وصموهم بذلك اللقب الكريه الممقوت ، لقب الوثنيين والهراطقة ·
وتلقى الوثنيون اذنه الكريم ، أو قل أمره الصريح بفتح « كل » معابدهم · وبهذا أنقذهم على الفور من القوانين الظالمة والمضايقات التعسفية التى تحملوها تحت حكم قسطنطين وأبنائه · وفى الوقت عينه أعاد من المنفى أولئك الأساقفة ورجال الدين الذين كان الملك الآريوسى قد أبعدهم ، وهم أتباع دوناسيوس ، وأتباع نوفاسيانوس ، واليونوميون (المتطرفون من أتباع آريوس) والمقدونيون ، وأولئك الذين كانوا أسعد حظا وتمسكوا بعقيدة مجمع نيقيا ، أعاد هؤلاء جميعا ، كل الى كنيسته ، وبما أن جوليان كان يفهم خلافاتهم اللاهوتية ويسخر منها فقد دعا زعماء الطوائف المتخاصمة الى قصره حتى يستمتع بذلك المشهد الشائق ، مشهد صدامهم العنيف ، وفى بعض الأحيان كان ضجيج أصوات المتنازعين يدفع الامبراطور الى مخاطبتهم قائلا : « استمعوا الى ، لقد استمع الى الفرنجة ، وأصغى الى الجرمان » ، غير أنه سرعان ما كان يتبين أنه الآن أمام أعداء أشد حقدا وأكثر عنادا · ومع أنه استخدم قدرته الخطابية فى حثهم على أن يعيشوا فى وفاق ، أو على الأقل فى ، سلام ، الا أنه اقتنع كل الاقتناع ، قبل أن يأمرهم بالانصراف من مجلسه ، بأنه لم يعد هناك ما يخشاه من اتحاد المسيحيين · وهذا التسامح المصطنع من جانب جوليان ينسبه اميانوس فى غير تحيز أو محاباة الى رغبة الامبراطور فى اثارة الانقسامات الداخلية فى الكنيسة ، ويقرر أن الخطة الماكرة التى دبرها لتقويض أسس المسيحية ، كانت وثيقة الصلة بتحمسه الى اعادة الديانة القديمة للامبراطورية ·

جوليان يعيد الوثنية ويصلحها

ما أن ارتقى جوليان عرش الامبراطورية حتى اتخذ لنفسه ، وفق عادات أجداده ، لقب الحبر الأعظم ، لا على أساس أن هذا اللقب هو أشرف ألقاب العظمة الامبراطورية فحسب ، بل على أساس أن هذا المركز

هو أيضا مركز مقدس هام صمم جوليان على أداء واجباته فى جد وتقوى •
ولما كانت مشاغل الدولة تحول دون اشتراكه كل يوم فى العبادة العامة التى يقوم بها رعاياه ، فقد خصص فى قصره معبدا لاله الشمس الذى كان يتعبد له ، وكانت حدائقه مملوءة بالتماثيل وهياكل الآلهة ، كما أن كل جناح فى القصر كان يبدو عليه مظهر المعبد الفخم • وفى كل صباح كان الامبراطور ينحر ذبيحة تحية للشمس ربة النـــور ، وفى اللحظه التى تغرب فيها الشمس وراء الأفق كان ينحر ذبيحة أخـــرى كمـا أن القمر والنجوم وأرواح الليل ، كان كل منها يلقى التكريم اللائق به من جانب الامبراطور الذى لا يعتريه تعب من تعبده لتلك الآلهة • وكان فى الاحتفالات الدينية الرسمية يزور بصورة منتظمة معبد الاله أو الآلهة التى كرس لها اليوم ، ويحاول أن يثير فى الحكام وفى الشعب ذلك الحماس الدينى الذى يضرب لهم مثله بما يبديه هو من حماس • ولم يكن فى هذه المناسبات يبدو أمام الناس فى مظهر الملك الرفيع ولا فى رداء الملك الرائع المهيب ، يحف به الحراس فى دروعهم المذهبة ، بل كان بدلا من ذلك يقوم ، فى لهفة خاشعة ، بأحقر أعمال التعبد للآلهة فكان يندفع وسط جموع الكهنة الخليعين ذوى المراكز المقدسة ، ووسط رجال الدين الأقل منهم مرتبة ، ووسط الراقصات المكرسات لخدمة المعبد ، وكان عليه حينذاك أن يحضر الاخشاب ، وينفخ فى النار ، ويمسك بالسكين ، ويذبح الضحية ، ثم يدفع بيديه الملطخنين بالدماء داخل أحشاء الحيوان المذبوح ليخرج قلبه أو كبده ، ويقرأ فى مهارة العراف الكاملة تلك العلائم التى تدل على الأحداث المقبلة • غير أن الافراط فى هذه الخرافات الماجنة كان موضع نقد عقلاء الوثنيين ، لأنه لا يقيم وزنا للقيود والضوابط التى يفرضها التعقل والوقار ، ورغم أن هذا الملك كان يتوخى قواعد الاقتصاد الصارمة ، الا أن نفقات العبادة الدينية كانت تستهلك جزءا كبيرا جدا من الدخل ، فكانت أندر الطيور وأجملها تنقل من أجوائها البعيدة لتذبح على هياكل الآلهة وكثيرا ما كان جوليان ينحر مائة ثور قربانا للآلهة فى يوم واحد ، وسرعان ما أصبح الناس يتندرون بأنه اذا عاد جوليان من الحرب الفارسية ظافرا فان سلالة الماشية ذوات القرون كلها سوف تفنى ، ومع ذلك فان كل هذه النفقات تبدو تافهة هزيلة اذا قيست بالهدايا الفاخرة التى كان يمنحها الامبراطور بنفسه ، أو كانت تمنح بأمر منه ، الى كل أماكن العبادة الشهيرة فى العالم الرومانى أو اذا قورنت بالمبالغ التى خصصت لاصلاح وزخرفة المعابد القديمة التى نالت منها معاول الزمن ، أو التى امتدت اليها يد المسيحيين حديثا بالسلب والتدمير • وكان سخاء هذا الملك التقى والمثل الذى ضربه لشعبه وأساليب الاغراء التى اتبعهـــا ، كل أولئك كان مشــجعا للمدن

والأسرات على أن تمارس من جديد ما كانت قد أهملته من طقوس وشعائر • يقول ليبانيوس فى حماس التقى والورع : « كان كل جزء من أجزاء العالم يعبر ، دون خوف ودون تعرض للخطر ، عن نصرة الديانة وظفرها ، وكنت ترى فى كل مكان منظر الهياكل الموقدة البهيجة ، والضحايا التى تسيل منها الدماء ، والدخان المتصاعد من حرق البخور ، وطابورا من الكهنة والمتنبئين الخاشعين • وكانت أصوات الصلاة والموسيقى تتردد على قمم الجبال الشامخة ، وكان الثور نفسه ينحر قربانا للآلهة وغذاء لعبادها المهللين الفرحين » •

غير أن عبقرية جوليان وقوته لم تكونا على قدر المهمة التى اضطلع بها ، وهى اعادة ديانة تفتقر الى المبادىء اللاهوتية ، والقواعد الأخلاقية والنظام الكنسى ، ديانة تسير بخطوات سريعة الى التفكك والاضمحلال ، ولا تقبل أى اصلاح ثابت مكين • وكانت السلطة القضائية التى يمارسها الحبر الأعظم ، وخاصة بعد أن أصبح ذلك المنصب موكولا الى العظمه الامبراطورية ، تمتد الى جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية • وكان جوليان يعين فى مختلف الولايات أولئك القساوسة والفلاسفة الذين كان يرى أنهم أحسن من يتعاونون على تنفيذ خطته الكبرى • وكانت رسائله الكهنوتية ، اذا جاز لنا أن نستخدم هذا اللفظ ، ترسم صورة عجيبة لرغباته ومقاصده ، فهو يقرر فيها أن الطائفة الكهنوتية فى كل مدينة يجب أن تشكل من أكثر الأشخاص تميزا بحبهم للآلهة وللناس دون أى تفضيل للأصل أو الثروة • يقول جوليان : (فاذا صدر منهم أى سلوك معيب فان الحبر الأعظم هو الذى يوجه اليهم اللوم أو يخفض رتبتهم الكهنوتية ، ولكنهم طالما ظلوا شاغلين لمناصبهم فمن حقهم أن يتمتعوا باحترام الحكام والشعب • وينبغى أن يتمثل تواضعهم فى بساطة أرديتهم العادية ، وأن تتمثل هيبتهم فى فخامة أرديتهم الدينية • وعندما تستدعى جماعة منهم للخدمة أمام الهيكل ، فينبغى عليهم فى الأيام المقررة لذلك العمل ألا يغادروا حدود المعبد ، ويجب ألا يضيعوا يوما واحدا دون أن يقيموا الصلوات ويقدموا القرابين اللازمة لرفاهية الدولة وسعادة الأفراد • ان ممارسة مهامهم المقدسة تتطلب نقاء الجسم والعقل نقاء لا تشوبه شائبة ولا يمسه دنس ، وحتى عندما ينصرفون من المعبد لمباشرة أعمال حياتهم العادية ، فمن المحتم عليهم أن يبزوا بقية المواطنين وقارا وفضيلة • وينبغى ألا يشاهد كاهن الآلهة فى الملاهى والحانات وأن يكون حديثه طاهرا ، وطعامه معتدلا وأصدقاؤه ذوى سمعة شريفة • واذا قام بين حين وآخر بزيارة ساحة القضاء أو القصر ، فينبغى أن يسلك هناك مسلك المدافع عن أولئك الذين التمسوا العدالة أو الرحمة دون جدوى • ويجب أن تتلاءم دراساته مع

قدسية مهنته • أما مكتبته فلابد من أن تستبعد منها القصة الماجنة والملهاة الخليعة ، وكتب الهجو المتطرفة ، بحيث لا تشمل الا المؤلفات التاريخية القائمة على الحقيقة ، والكتابات الفلسفية المتعلقة بالدين • أما الآراء الضالة التى نادى بها الابيقوريون والمتشككون فينبغى ان تكون موضع كراهيته واحتقاره (١) ، غير أنه ينبغى عليه أن يثابر على دراسة آراء فيثاغورس وأفلاطون والرواقيين ، وهى تلك الآراء التى تقرر أن هناك آلهة ، وان هؤلاء الآلهة يدبرون شئون الدنيا بعنايتهم ، وأن احسانهم هو مصدر كل نعمة دنيوية ، وأنهم قد أعدوا للنفس الانسانية ما تستحقه فى المستقبل من ثواب أو عقاب » • ويشرح الحبر الامبراطورى فى أسلوب أعظم ما يكون اقناعا كل ما ينبغى أن يتضمنه الاحسان والكرم ويحث رجال الدين التابعين له على توصية الناس عامة بممارسة هذه الفضائل ، ويعدهم بأن يسد عوزهم من بيت المال ، ويعلن عن عزمه على انشاء المستشفيات فى كل مدينة حيث يعالج الفقراء دون تمييز لبلد من البلاد أو لدين من الأديان ، مما يثير الكراهية أو الحقد • وكان جوليان يرقب فى غيرة ما سنته الكنيسة المسيحية من قواعد انسانية حكيمة ، ويقرر فى صراحة أنه يعتزم حرمان المسيحيين من التأييد الذى حصلوا عليه والمزية التى اكتسبوها نتيجة انفرادهم دون الوثنيين بممارسة أعمال البر والاحسان (٢) • وكانت روح التقليد هذه كفيلة بأن تدفع الامبراطور الى الأخذ بعدة نظم كنسية كان نجاح أعدائه دليلا على فائدتها وأهميتها • غير أن خطط الاصلاح الخيالية هذه ، لو أنها تحققت ، لجاءت صورة ناقصة لا تطابق الأصل ، ولكانت أمرا يفرض على الناس فرضا ، بحيث لا تفيد الوثنية بقدر ما تشرف المسيحية • وكان الوثنيون يتبعون عادات أسلافهم فى هدوء وسلام ، ولا ينظرون الى ادخال الغريب عليهم من العادات نظرة الرضا بقدر ما ينظرون اليه بعين الدهشة • وكثيرا ما حدث من الظروف والمناسبات ما جعل جوليان فى فترة حكمه القصيرة يشكو من افتقار طائفته الى الحرارة والغيرة •

---

(١) اغتباط جوليان بان هذه الطوائف ، بل وكتاباتها ، قد اندثرت ، انما يتمشى مع خلق رجال الكهنوت ، غير أنه لا يجدر بالفيلسوف أن يكون راغبا فى أن يخفى عن معرفة الانسان أية آراء وحجج مهما كان قدر تعارضها ومجافاتها لآرائه الخاصة •

(٢) غير أنه يلمح الى أن المسيحيين ، تحت شعار من الاحساس ، كانوا يغرون الأطفال على [illegible] ـهم وآبائهم ، وينقلونهم على ظهور السفن الى بلدان أخرى بعيدة ، حيث يخصون ضحاياهم هؤلاء بحياة الفقر والعبودية •

ولو أن هذا الاتهام ثبتت صحته ، لكان من واجبه أن يعاقبهم لا أن يجعل أعمالهم موضع شكواه •

وكان حرص جوليان دافعا حفزه على أن يحتضن مريدى الاله جوبيتر كأصدقائه وأشقائه الشخصيين ، وفى الوقت الذى كان يغض فيه الطرف قليلا عن مزية الثبات والجند المسيحى ، كان يعجب بما اتصف به الوثنيون من مثابرة نبيلة على التمسك بآلهتهم جعلتهم يفضلون حظوة الآلهة على حظوة الامبراطور ، بل انه كان يكافئهم على ذلك • فاذا ما أخذوا بالأدب اليونانى مثل أخذهم بالديانة اليونانية ، كسبوا قدرا أكبر من صداقة الامبراطور الذى ضم آلهة الشعر والفنون الجميلة الى صفوف الآلهة التى يدين لها بالخضوع والطاعة • وكانت الديانة التى أخذ بها تعتبر التقوى والعلم صنوين ، ومن ثم فان جمهورا من الشعراء والفلاسفة وأرباب الخطابة والبيان سارعوا الى البلاط الامبراطورى لشغل الوظائف الشاغرة التى كان يشغلها الأساقفة الذين كانوا قد استحوذوا على ثقة قسطنطيوس • اما خلفه جوليان فكان يعتبر روابط الاشتراك فى الأسرار الدينية أكثر قدسية من روابط قرابة الدم ، ومن ثم فقد اختار المقربين اليه والمفضلين لديه من بين الحكماء الماهرين فى علوم السحر والكهانة الغامضة ، وكل محتال دجال يدعى القدرة على كشف أسرار المستقبل ، كان فى مقدوره أن يتمتع فى حاضره بما يغدقه عليه الامبراطور من تشريف وميسرة • ومن بين هؤلاء الفلاسفة كان مكسيموس يحتل أسمى مراتب الصداقة لدى تلميذه الملكى الذى كان يفضى اليه ، فى ثقة كاملة ، بأعماله وأحاسيسه وخططه الدينية ، ابان فترة القلق التى توقفت فيها الحرب الأهلية • وبمجرد أن استولى جوليان على قصر القسطنطينية ، بعث بدعوة كريمة عاجلة الى مكسيموس الذى كان اذ ذاك يقيم فى سارديس باقليم ليديا مع كريسانثيوس رفيق دراساته وزميل فنه ، ولقد كان هذا الرجل حريصا مؤمنا بالخرافات ، الأمر الذى جعله يرفض القيام برحلة أظهرت قواعد علم الغيب أنها تنذر بأشد الأخطار والمهالك • غير أن زميله مكسيموس كان أشد جرأة فى تعصبه ، فألحف فى السؤال والاستفسار حتى انتزع من الآلهة ما يبدو أنه موافقة على رغباته الخاصة ورغبات الامبراطور • وأظهرت رحلة مكسيموس الى القسطنطينية مارا بمدن آسيا أن الزهو بالفلسفة قد اكتسح الميدان ، فكان الولاة ينافس بعضهم بعضا فى استقبالات التكريم التى أعدوها لصديق مليكهم • وعندما علم جوليان بوصول مكسيموس ، وكان اذ ذاك يلقى خطابا أمام مجلس السناتو ، أوقف حديثه على الفور وتقدم للقائه ، وبعد أن عانقه عناقا رقيقا قاده بيده الى وسط الاجتماع حيث اعترف علانية بما اكتسبه من تعاليم الفيلسوف • وسرعان ما اكتسب مكسيموس ثقة جوليان وأصبح له نفوذه على مجالسه ، غير أن مغريات البلاط أفسدت خلقه دون أن يحس ، فازداد فخامة فى

ملبسه وتعاليا في مسلكه الى درجة أنه تعرض ، في العهد الذي تلا عهد جوليان ، الى تحقيق مشين سئل فيه عن الوسائل التي استطاع بها تلميذ أفلاطون أن يجمع في الفترة القصيرة التي نال فيها حظوة الامبراطور قدرا ضخما من المال يجلب الفضيحة على صاحبه • أما الفلاسفة والسفسطائيون الآخرون الذين دعاهم جوليان باختياره الى مقامه الامبراطوري ، أو الذين نجح مكسيموس في دعوتهم ، فان قلة منهم استطاعت أن تحتفظ ببراءتها أو بسمعتها ، ولم تستطع المنح السخية التي أغدقها عليهم الامبراطور ، من أموال وأراض وبيوت ، أن تشبع أطماعهم الجشعة ، وثار سخط الناس عليهم بحق عندما تذكروا حالة الفقر المدقع التي كان عليها هؤلاء الفلاسفة حين جاءوا ، وما يجب أن تتصف به مهنتهم من ترفع عن الأغراض • ولم يكن من السهل على بصيرة جوليان النفاذة أن تنخدع دائما بما كان يجرى أمامه ، غير أنه لم يكن راغبا في امتهان شخصيات أولئك الرجال الذين كانت مواهبهم موضع تقديره ، وكان يريد أن يتجنب لوما مزدوجا ، لوما على افتقاره الى التبصر ، ولوما على عدم ثباته على مبدأ واحد • كما أنه كان يخشى أن يحط من شرف الأدب والدين في نظر الدنيويين من الناس •

وكانت رعاية جوليان مقسمة قسمة متساوية بين الوثنيين الذين تمسكوا في صلابة بعبادة أجدادهم وبين المسيحيين الذين دفعهم الحرص الى اعتناق دين مليكهم • وكان اكتساب عدد جديد من المهتدين (١) الى الوثنية شيئا يشبع فيه أهواءه الغالية على نفسه ، كما يشبع فيه غروره وميله الى الخرافات ، وسمع عنه أنه قال في حماس المبشرين انه حتى لو استطاع أن يجعل كل فرد من الأفراد أكثر ثراء من الملك ميداس ، وكل مدينة أعظم من مدينة بابل ، لما اعتبر نفسه ولى نعمة الناس الا اذا استطاع في الوقت عينه أن يرد رعاياه عن ثورتهم الضالة على الآلهة الخالدة • وكان في مقدور هذا الملك ، الذي درس الطبيعة الانسانية ، وامتلك خزائن الامبراطورية الرومانية ، أن يشكل حججه ووعوده وهباته بما يناسب كل طائفة من الطوائف المسيحية ، ومن ثم فانه كان يعتبر الارتداد الى الوثنية ، لو أنه جاء في أوانه ، ميزة في المرتد تعوض عن

---

(١) في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، كان رعاياه من كل طبقة يتطلعون الى الحصول على اللقب المجيد ، لقب « الهادي » Convertisseur الذي يعبر عن حماسهم ونجاحهم في كسب المرتدين •

ولقد أصبحت هذه الكلمة والمعنى الذي تعبر عنه شيئا عتيقا في فرنسا ، ونرجو الا يدخلا انجلترا أبدا •

عيوبه ، بل وتكفر عن الجرائم التى ارتكبها لو أنه كان مجرما • ولما كان الجيش أقوى أداة للحكم المطلق ، فقد حرص جوليان حرصا خاصا على افساد ديانة قواته ، لأن عدم تعاونها معه كان كفيلا بأن يعرض كل اجراء يتخذه للخطر والفشل • وكان فوزه فى هذه المهمة أمرا سهلا بقدر ما كان أمرا هاما ، وذلك بفضل الخلق الطبيعى الذى كان يتصف به الجنود • وقد أخلصت فرق الجيش فى بلاد الغال لعقيدة قائدهم المظفر ولمصائره ، وحتى قبل موت قسطنطيوس كان جوليان يصرح لأصدقائه ، فى سرور ورضا ، بأن تلك القوات كانت تحضر فى ولاء حار وشــهية نهمة تلك الاحتفالات التى كان يقيمها فى معسكره وينحر فيها مئات الثيران السمينة• أما جيوش الشرق التى تــدربت تحت لواء الصليب ولواء قسطنطيوس ، فقد كانت فى حاجة الى أسلوب من الاغراء أشد دهاء وأكثر تكلفة • ففى أيام الاحتفالات الرســمية العــــامة ، كان الامبراطور يتلقى ولاء قواته ويكافئها على جدارتها • وفى هذه المناسبات كان يحيط عرش ملكه بأعلام روما الحربية وأعلام الجمهورية ، وأزال اســـم المسيح المقدس من علم قسطنطين الكبير (The Labarum) ، كما مزج شعارات الحرب والملك والخرافات الوثنية مزجا بارعا ، وكان من شأنه أن يجعل الجندى الذى يقــدم تحيــة الاجلال لشخص مليكه ، أو لصــورته ، يرتكب ذنب عبادة الأوثان • وكان الجنود يمرون فى العرض تباعا ، وقبل أن يتسلم الواحد منهم من يد جوليان منحة سخية تناسب رتبته وخدماته ، وكان يطلب منه أن يلقى حبات قليلة من البخور فى النار المشتعلة فوق الهيكل • وربما اعترض على ذلك بعض المسيحيين المعترفين ، وربما ندم على ذلك بعض آخر ، غير أن الأكثرية الكبرى كان يبهر نظرها الذهب ويرهبها وجــود الامبراطور ، فترتبط بهذا الارتباط الاجرامى • وترغم على المواظبة على عبادة الآلهة فى المستقبل بكل اعتبار من اعتبارات الواجب والمصلحة • وبكثرة تكرار هذه الحيل الماكرة ، وعلى حساب انفاق مبالغ ضخمة كانت تكفى لشراء خدمة نصف الأمم السكوذية ، استطاع جوليان أن يحصــــل لجنوده على الحماية الموهومة التى تمنحها الآلهة ، وأن يكتسب لنفسه ذلك التأييد القوى الفعال الذى أراده من القوات الرومانية • وفى الحق أنه من المحتمل ، بل ومن المحقق ، ان اعادة الوثنية وتشجيعها ، قد أظهر عددا كبيرا من أدعياء المسيحية الذين كانوا بدافع من النفع المؤقت ، قد اعتنقوا ديانة العهد السابق ، والذين عادوا بعد ذلك بنفس الضمائر المرنة المطاطة الى العقيدة التى اتخذها خلفاء جوليان •

جوليان واليهود

في الوقت الذي كان الملك التقي يعمل فيه دون انقطاع على ارجاع ديانة أسلافه ونشرها كان يدبر خطة عجيبة لاعادة بناء معبد أورشليم (بيت المقدس) • وفي رسالة عامة وجهها الى أمة المجتمع اليهودي المشتتة في ولايات الامبراطورية ، نراه يرثي لمحنهم ، ويدين ظالميهم ، ويمتدح ثباتهم ، ويعلن أنه حاميهم الكريم ، ويعبر عن أمله الورع في أنهم ، بعد عودته من الحرب الفارسية ، سوف يأذنون له بأن يوفي نذور الشكر « للرب القادر على كل شيء » في مدينة أورشليم المقدسة • ولا شك في أن التزمت الديني الأعمى الذي اتصف به هؤلاء المشردون البؤساء وعبوديتهم الوضيعة لابد أن يثيرا ازدراء امبراطور فيلسوف ، غير أنهم اكتسبوا صداقة جوليان بحكم كراهيتهم العاتية لاسم المسيح•وكانت معابد اليهود الفقيرة الجرداء تثير فيهم الكراهية والحقد نحو الكنائس الثائرة المليئة بالمتعبدين ، غير أن قوتهم لم تكن معادلة لحقدهم ، ومن ثم فان المتزمتين من رجال الدين عندهم كانوا يوافقون على اغتيال المرتد الى المسيحية سرا ، وكثيرا ما أثار صخبهم وضجيجهم المحرك للفتنة ثائرة الحكام الوثنيين النزاعين الى الهدوء • وفي عهد قسطنطين أصبح اليهود رعايا لأبنائهم الثائرين المرتدين الى المسيحية ، ولم يمض زمن طويل حتى شعروا بمرارة طغيان هؤلاء عليهم ، وألغى الملوك المسيحيون شيئا فشيئا تلك الحصانات المدنية التي منحها أو أكدها لهم سفيروس ، ثم قام يهود فلسطين بحركة شغب طائشة كانت فيما يبدو ، مبررا لشتى أساليب الاضطهاد الناجعة التي ابتكرها أساقفة قسطنطيوس وخصيانه ضدهم•أما الحاخام اليهودي، الذي كان لا يزال مسموحا له بممارسة سلطة قانونية مقلقلة ، فقد أقام في طبرية . وامتلأت مدائن فلسطين المجاورة ببقايا شعب ظل متمسكا في شغف بأرض الميعاد • غير أن مرسوم هادريان تجدد ونفذ ، وكان أبناء هذا الشعب يرقبون من بعيد أسوار المدينة المقدسة التي دنسها في نظرهم انتصار الصليب وولاء المسيحيين •

كانت أورشليم قائمة وسط أرض صخرية جرداء ، وكانت أسوارها تضم بينها جبلي صهيون وأكرا داخل رقعة بيضوية الشكل مساحتها ثلاثة أميال انجليزية ، وأقيم الجزء الأعلى من المدينة وحصن داود صوب الجنوب على السفح المرتفع من جبل صهيون • وعلى الجانب الشمالي كانت مباني المدينة السفلى تغطي القمة الفسيحة لجبل أكرا ، كما أن جزءا من التل المعروف باسم المرية ، مهدته وسوته أيدي الانسان ، كان يقوم عليه هيكل مهيب ضخم ، هو هيكل الأمة اليهودية • وبعد أن دمر تيتوس

وهادريان ذلك الهيكل تدميرا نهائيا رسم على الأرض المقدسة شكل يمثل سن المحراث علامة على أن المكان أصبح محرما تحريما دائما • وبعد ذلك هجر الناس جبل صهيون وامتلأت الرقعة الخالية من المدينة السفلى بالمباني الخاصة والعامة لمستعمرة « عيليا » The Aelian Colony ، وانتشرت هذه المباني فوق تل كلفاري Calvary المجاور لتلك المنطقة وكانت الآثار الوثنية تدنس تلك الأماكن المقدسة ، وكرس معبد من المعابد للالهة فينوس في المكان المقدس الذى حدث فيه موت المسيح وبعثه ، ولسنا نعلم اذا كان ذلك شيئا مقصودا أو أنه حدث مصادفة ، وبعد ثلاثمائة سنة تقريبا من تلك الأحداث العجيبة هدم معبد فينوس الدنس بأمر من قسطنطين ، وبعد أن أزيلت الأحجار والأتربة أبصر الناس ضريح المسيح المقدس • ثم أقام أول الأباطرة المسيحيين كنيسة فخمة في ذلك المكان المليء بالأسرار الغامضة المقدسة ، وكذلك امتدت أريحيته الورعة الى كل بقعة قدستها أقدام البطاركة وأقدام الأنبياء ، وأقدام ابن الله •

وقد جذبت أورشليم اليها جمهورا متلاحقا من الحجاج القادمين من شواطىء المحيط الأطلنطي ومن أقصى بلدان الشرق ، تتملكهم رغبة جامحة في رؤية الآثار القديمة الأصيلة التي يتمثل فيها فداؤهم وخلاصهم • محتذين في ورعهم وتقواهم حذو الامبراطورة هيلانة التي جمعت في كبر سنها بين سلامة الطوية وبين المشاعر الحارة التي يبعثها في الانسان ارتداد حديث الى الدين•ولقد اعترف الحكماء والأبطال الذين زاروا تلك الأماكن الشهيرة ، أماكن الحكمة والمجد ، اعترف هؤلاء جميعا بالالهام الذى تبعثه روعة المكان ، وكل مسيحي ركع أمام الضريح المقدس كان يعزو ايمانه الحي وولاءه الحار الى التأثير المباشر للروح الالهية • وكان حماس رجال الدين في أورشليم وربما طمعهم ونهمهم ، من العوامل التي عززت هذه الزيارات النافعة وزادتها • فكانوا يحددون بصورة تقليدية لا جدال فيها المكان الذى حدث فيه كل حدث مشهود ، ويعرضون الأدوات التي استخدمت في تعذيب المسيح ، كالمسامير والحربة التي اخترقت يديه ورجليه وجنبه، وتاج الشوك الذى وضع على رأسه ، والعمود الذى جلد الى جواره ، وأهم من ذلك كله كانوا يعرضون الصليب الذى تألم فوقه ، والذى استخرج من بطن الأرض في عهد أولئك الملوك الذين أدخلوا رمز المسيحية في أعلام الجيوش الرومانية • وانتشرت دون مقاومة أخبار المعجزات التي كان التحدث عنها لازما لتفسير ذلك الحدث الخارق ، حدث بقاء الصليب مدفونا لم يمسه سوء ، ثم الكشف عنه في الوقت المناسب • وكان هذا الصليب الأصيل في حراسة أسقف أورشليم ، يعرضه أمام الناس في جلال يوم أحد عيد القيامة ، وكان الأسقف وحده هو الذى يشبع ما في نفوس

الحجاج من ولاء عجيب بأن يمنحهم قطعا صغيرة من الصليب الخشبي يوشونها بالذهب أو الجواهر ويحملونها معهم الى بلادهم ظافرين · غير أن هذا النوع من التجارة المربحة كان لابد أن ينتهى سريعا بنفاد المادة التى تباع وتشترى ، ومن ثم فقد أصبح من الأمور المجدية أن يذاع أن الخشب العجيب له قوة غامضة على النمو ، وأن مادته ، رغم تناقصها المستمر ، ظلت كاملة غير منقوصة · وقد كان من المتوقع أن قدسية المكان واعتقاد الناس بالمعجزة الدائمة لا بد أن يكون لهما بعض التأثير النافع المفيد على أخلاق الناس وايمانهم · غير أن أكثر الكتاب الدينيين وقارا لم يسعهم الا الاعتراف بأن طرقات أورشليم كانت تضج بضوضاء التجارة وصخب الملذات · وأن كل ضروب الرذيلة من فسق وسرقة وعبادة أوثان وقتل وتسميم ،كانت شيئا مألوفا لدى أهل المدينة المقدسة · ولقد أثار ثراء كنيسة أورشليم ورفعة شأنها أطماع الراغبين فيها من آريوسيين وأرثوذكس ، وتجلت قدرات الأسقف كيرلس ، الذى أنعم عليه بعد موته بلقب « القديس » ، فى ممارسة منصبه الأسقفى الوقور أكثر من أن تتجلى فى حصوله على هذا المنصب (١) ·

وكان جوليان يتطلع الى استعادة المجد القديم الذى كان لهيكل أورشليم بدافع من الغرور والطموح اللذين اتسمت بهما عقليته · وبما أن المسيحيين كانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن صرح القانون الموسوى كله كان مقضيا عليه بالدمار الدائم ، فان الامبراطور السفسطائى كان يريد أن يجعل من نجاحه فى تلك المهمة حجة براقة ضد الايمان بالنبوءات وصدق الوحى والرؤيا (٢) · ولم يكن جوليان راضيا عن العبادة الروحية التى يمارسها المجتمع اليهودى ، غير أنه كان يحبذ أنظمة موسى الذى لم يترفع عن الأخذ بكثير من شعائر مصر وطقوسها · وكان الاله الذى يعبده اليهود سواء فى مجتمعاتهم المحلية او فى مجتمعهم القومى موضع اعجاب صادق من

---

(١) نبذ كيرلس رسامته الأرثوذكسية قسيسا وباشر أعمال الشماس ، ثم أعاد الآريوسيون رسامته قسيسا · غير أن كيرلس تغير مع الزمن · وكان من الحكمة بحيث اعتنق عقيدة « نيقيا » ·

ويجل « تلمونت » ذكراه ويتناولها فى لين ورفق ، ومن ثم فقد تحدث عن فضائله فى متن كتابه ، أما الأخطاء التى ارتكبها ، فقد أشار اليها اشارة عابرة فى المذكرات التى ذيل بها مؤلفه ·

(٢) كشف العالم المتعسف وربرتن Warburton أسقف جلوسستر الراحل ، عن نوايا جوليان الخفية · وقد تحدث فى ثقة العالم اللاهوتى عن مسلك الاله الأعلى ودوافعه ويتسم حديثه عن جوليان بكل الخصائص التى تنسب الى المدرسة الواربورتونية ·

امبراطور يدين بتعدد الآلهة ، ولا يرغب الا فى زيادة عددها . وكان هذا الرجل شديد النهم بالقرابين الدموية الى درجة أنه كان يريد أن يبز الملك سليمان فى تقواه وورعه حين نحر فى عيد التقدمة اثنين وعشرين ألف ثور ، ومائة وعشرين ألفا من الخراف . وربما كان لكل هذه الاعتبارات أثرها فى مخططاته ، غير أن الأمل فى تحقيق ميزة هامة عاجلة لم يسـمح للملك المتعجل للأمور بأن يصبر حتى تنتهى الحرب الفارسية ، وهى حدث بعيد وغير أكيد . ومن ثم فقد صمم على أن يشيد ، دون ابطاء ، فوق المرتفع الشامخ من جبل موريه ، معبـدا ضخما تتضاءل الى جانبه فخامة كنيسة القيامة القائمة على تل كلفارى المجاور ، وأن يشكل طائفة من الكهنة يكون لهم من الحماس لدينهم ما يمكنهم من كشف حيل منافسيهم المسيحيين ومن مقاومة أطماعهم ، وأن يدعو الى ذلك المكان جاليـة يهودية على درجة من التعصب الشديد تدفعها دائما الى تأييد الاجراءات العدوانية التى تستخدمها الحكومة الوثنية ، بل وتسبقها اليها . ولقد اتخذ الامبراطور لنفسـه صديقا فاضلا عالما ، هو أليبيوس Alipius ، خصه من بين أصدقائه (اذا أمكن أن تتمشى كلمة امبراطور مع كلمة صديق) بالمكانة الأولى . وقد جمع أليبيوس بين الحنان وبين العدالة الصـارمة والجلد اللائق بالرجال ، وبينما كان يمارس قدراته هذه فى الادارة المدنية فى بريطانيا ، كان ينظم المقطوعات الشعرية على نحو قصائد الشاعر اليونانى سافو فى رقتها وانسجامها . وكان جوليان يفضى الى هذا الوزير دون تحفظ بأشد حماقاته طيشا وبأخطر آرائه ، فكلفه بمهمة عجيبة غير عادية ، وهى أن يعيد بناء هيكل أورشليم فى جماله الأول الأصيل ، ولقى أليبيوس فى هذا العمل الذى باشره بجد ومثابرة تأييدا قويا من حاكم فلسطين ، اذ كان العمل فى حد ذاته يتطلب مثل هذا التأييد ، وعنـدما تلقى اليهود دعوة منقذهم العظيم جوليان الى أورشليم اجتمعوا من كل ولايات الامبراطورية فوق جبل أجدادهم المقـدس ، وأزعج انتصـارهم الفاجر سكان أورشليم المسيحيين ، بل وأثار سخطهم وغضبهم . ولقد كانت الرغبة فى اعادة بناء المعبد عاطفة تتملك أبناء اسرائيل فى كل العصور وفى تلك اللحظة الموفقة نسى الرجال جشعهم ، ونسى النسـاء رقتهن ، فتقدم الأغنياء المغرورون بمعاول وفؤوس من الفضة ، ونقلت الأتربة فى عباءات من الحرير . وأسهم كل انسان بأمواله فى كرم وسخاء ، وامتدت كل يد تطلب الاشتراك فى ذلك العمل الصالح ، ونفذ شعب بأسره فى حماس أوامر الملك العظيم .

ومع ذلك ، فان تضافر القوة والحماس فى مجهود مشترك لم يصب فى تلك المناسبة نجاحا ، وبقيت أرض الهيكل اليهودى ، التى يقوم عليها الآن مسجد اسلامى ، كما كانت عليه من قبل ، مشهدا للخراب والدمار ،

ومنهلا للعبر • وربما كان غياب الامبراطور ثم موته ، ومجيء عهد مسيحي بمبادئه الجديدة ، هما السبب الذى يفسر توقف عمل مجهد شاق باشره أصحابه فى الشهور الستة الأخيرة من حياة جوليان • غير أن المسيحيين كان يراودهم أمل طبيعي دينى فى حدوث معجزة خارقة تشد أزر شرفهم الدينى فى ذلك الصراع المشهود • وهناك من الأدلة المعاصرة الموثوق بها ما يؤيد ، فى قليل من الاختلاف ، حدوث زلزال ، وهبوب عاصفة هوجاء ، وثورة بركان عارمة ، دمرت الأسس الجديدة التى شادها اليهود للهيكل ، وطوحت بها فى جميع الأرجاء • ولقد جاء وصف هذا الحدث المشهود على لسان امبروز ، أسقف ميلان ، فى رسالة كتبها الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وهى رسالة لابد أن تثير على صاحبها أشد اللوم فى جانب اليهود • وذكره أيضا الحبر الألمعى كريسوستوم نقلا عمن كانوا يكبرونه سنا من رجال الدين فى انطاكية ، وتحدث عنه كذلك جريجورن نازيانزن الذى نشر قصة المعجزة قبل انصرام السنة نفسها • وقد أعلن هذا الكاتب الأخير فى جرأة وشجاعة أن الكفار لم يكذبوا هذا الحدث الخارق للطبيعة ، وهذا القول . على غرابته ، تؤيده شهادة دامغة أدلى بها أميانوس ماركلينوس • وهذا الجندى الفيلسوف ، الذى أحب فضائل سيده جوليان دون أن يأخذ بتعصبه وتحيزه ، قد ذكر فى التاريخ الصادق المنصف الذى كتبه عن العصر الذى عاش فيه ، تلك العقبات العجيبة غير العادية التى حالت دون اعادة بناء معبد أورشليم • يقول هذا الكاتب : « بينما كان الييبيوس ، بمعاونة حاكم الولاية ، يقوم بتنفيذ العمل فى قوة ومثابرة ، كانت تنفجر الى جوار البناء ، فى هجمات كثيرة متكررة ، كرات نارية رهيبة تلفح أجساد العمال وتحرقها ، وتجعل دخولهم الى المكان مستحيلا• واستمرت النار على هذا المنوال فى عناد وتصميم ، كما لو كانت عازمة على طردهم بعيدا ، حتى اضطر الناس الى التخلى عن المشروع بأكمله » • ولا شك فى أن مثل هذه الحجة الموثوق بها تلقى لدى العقل المؤمن قبولا ، ويدهش لها العقل الذى لا يصدق كل ما يقال • ومع ذلك فان الفيلسوف لابد أن يشعر بالحاجة الى الدليل الأصيل الذى يأتى به شهود عيان من الأذكياء الذين لا يحابون ولا يتحيزون • وفى مثل هذه الأزمة الخطيرة ، فان آية حادثة عجيبة من حوادث الطبيعة قد تبدو كأنها معجزة حقيقية ، ويكون لها من التأثير مثل تأثير المعجزة • ومن ثم فقد تناول رجال الدين فى أورشليم هذا الحدث الذى كان فيه خلاصهم بالتهويل والتهذيب ، مستخدمين فى ذلك فنونهم الدينية ، ومستغلين استعداد العالم المسيحى لتصديقه والايمان به • وبعد انقضاء عشرين سنة على هذا الحادث ، جاز

لمؤرخ رومانى لا يعبأ بالخلافات الدينية أن يزين مؤلفه بتلك المعجزة الرائعة المزعومة ٠

اضطهاد جوليان للمسيحيين

كانت رغبة جوليان فى اعادة بناء معبد اليهود مرتبطة خفية برغبته فى هدم الكنيسة المسيحية ، ولقد ظل جوليان محافظا على حرية العبادة الدينية دون أن يدرى اذا كان هذا التسامح العام صادرا عن عدالة أو عن دافع من الشفقة والرحمة ٠ وكان يدعى بأنه مشفق على المسيحيين التعساء الذين جانبهم الصواب فى أهم هدف من أهداف حياتهم ، غير أن شفقته هذه كانت مشوبة باحتقار للمسيحيين زادته مرارة كراهيته لهم ٠ وكان يعبر عن أحاسيسه هذه بأسلوب ذكى ساخر يصيب الضحية بجرح قاتل ، سيما اذا كان صادرا من شفاه مليك البلاد ٠ ولقد أدرك جوليـان أن المسيحيين يتفاخرون باسم المسيح ، مخلصهم وفاديهم ، ومن ثم فقد شجع استخدام اسم آخر أقل تشريفا لهم وهو « الجليليون » ، ان لم يكن قد أمر بذلك ٠ وأعلن أن حماقة الجليليين ، الذين وصفهم بأنهم طائفة من المتعصبين يحتقرون الناس وتمقتهم الآلهة ، قد دفعت الامبراطورية الى حافة الهلاك والدمار ، ولمح فى مرسوم عام أصـدره بأن المريض الثائر الذى لا يملك زمام نفسه قد يجدى فى علاجه العنف أحيانا ٠ وقد تملكت عقل جوليان وآراءه تفرقة ظالمة تتسم بالتعصب بين طائفتين من رعاياه ، تختلف كل منهما عن الأخرى فى مشاعرها الدينية ٠ وكان يرى أن واحدة منهما جديرة بحظوته وصداقته ، وأن الطائفة الأخرى لا تستحق الا المزايا العامة التى يأبى عليه عدله أن يحرم منها شعبا مطيعا ٠ وقد وضع جوليان مبدأ يفيض بالظلم والأذى ، نقل بمقتضاه الى أحبار ديانته هو حق التصرف فى المنح السخية التى كان قسطنطين التقى وأبناؤه قد أغدقوها من الخزانة العامة على الكنيسة المسيحية ، وقضى على ذلك النظام المجيد الذى كان يحدد مكانة رجال الكهنوت وحصاناتهم ، وهو النظام الذى وضع من قبل فى كثير من العناء والمهارة ٠ وكذلك سن من القوانين الصارمة ما هدم آمالهم فى الحصول على الهبات التى كان يوصى بهـا الناس لهم ٠ وهكذا أدخـل القساوسة المسيحيين فى زمرة أحقر طبقات الشعب وأقلهم شأنا ٠ ومما هو جدير بالذكر هنا أن ملكا أرثوذوكسيا حكيما جاء بعد جوليان ، سرعان ما انتقى من تلك القواعد التى وضعها ما رآه ضروريا لكبح أطماع رجال السياسة أو من التعصب والتزمت ، على أن تكون قاصرة على أولئك الكهنة الذين يسلمون بديانة الدولة ، غير أن مشيئة المشرع لم تكن فى هذا الشأن خلوا من التحيز والهوى ، وكان جوليان يهـدف بهذه السياسة

الماكرة الى أن يحرم المسيحيين من كل المزايا والأمجاد الدنيوية التى أكسبتهم اجلالا واحتراما فى أعين العالم ٠

ولقد وجه نقد شديد عادل الى القانون الذى سنه جوليان وحرم به على المسيحيين تعليم فنون النحو والبلاغة ٠ وكانت الدوافع التى ذكرها الامبراطور لتبرير هذا الاجراء الظالم المتحيز ، من النوع الذى يكفل تكميم أفواه العبيد واستحسان المتملقين ، طالما بقى الامبراطور على قيد الحياة ٠ ذلك أنه استغل استغلالا سيئا كلمة من الكلمات اليونانية مبهمة المعنى بحيث يمكن أن تعنى لغة اليونان ، كما يمكن أن تعنى ديانة اليونان ، وقال فى احتقار ان أولئك الذين لا يجهرون بالايمان بديانة اليونان ، لا يحق لهم أن يطالبوا أو يتمتعوا بمزايا العلم ، وأكد فى غـرور أنهم اذا رفضوا عبادة آلهة هوميروس وديموستين ، وجب عليهم أن يقنعوا بشرح انجيل لوقا وانجيل متى فى كنائس الجليليين ٠ وكان تعليم الشباب فى كل مدن العالم الرومانى موكولا الى أساتذة النحو والبلاغة الذين ينتخبهم الحكام ، وينفقون عليهـم من الأموال العـامة ، ويخصونهم بالكثير من الامتيـازات المشرفة المربحة ٠ ويبـدو أن مرسوم جوليان شمل الأطبـاء وأساتذة كل الفنون الحرة ٠ وبما أن الامبراطور قد احتفظ لنفسه بحق التصديق على طلبات مزاولة هذه المهن ، فقد أصـبح فى مقدوره بحـكم القوانين أن يعاقب أعلم المسيحيين على ثباتهم الدينى اذا ثبتوا ، أو يفسد هذا الثبات اذا ما أرغموا على التحول عن دينهم ٠ وقد ترتب على هذا الوضع أن استقال المعلمون الأكثر عنادا وصلابة ، وفتح المجال على مصراعيه أمام السفسطائيين الوثنيين الذين أصبحوا سادة الموقف دون منازع أو منافس ، وطلب جوليان من شباب الجيل الصاعد أن يتجهوا فى حرية الى المدارس العامة ، وكله ثقة فى أن عقولهم الغضة سوف تتلقى هناك انطباعات الأدب والوثنية ٠ فاذا تورع الجزء الأكبر من الشـباب المسيحى عن قبول هذا النوع الخطر من التعليم ، أو اذا رفض آباؤهم ذلك العرض ، فانهم سوف يحرمون ، فى الوقت عينه ، من مزايا التعليم الحر ٠ وكان جوليان على حق فى توقعه أن الكنيسة سوف تعود نتيجة لذلك الى حالتها البدائية البسيطة فى غضون سنوات قليلة ، وأن رجال الدين الذين كانـوا يملكون قدرا مناسبا من علم ذلك العصر وفصاحته ، سوف يخلفهم جيل من المتعصبين الجهلاء غير المتبصرين الذين لا يستطيعون الدفاع عن صـدق مبادئهـم أو التشهير بمختلف حماقات الوثنية ٠

ولا شك فى أن جوليان كان راغبا فى حرمان المسيحيين من مزايا الثروة والعلم ، وكان يرسم الخطة لذلك ٠ غير أن ابعادهم عن كل الوظائف

التي يكون صاحبها موضع الثقة ، والتي تدر عليه ربحا ، كان أجراء ظالما يبدو أنه جاء نتيجة سياسته العامة أكثر منه نتيجة لأي قانون وضعي . ورغم أن أصحاب الكفاية الممتازة كانوا يستحقون بعض الاستثناءات غير العادية ويحصلون عليها ، الا أن أكثرية الموظفين المسيحيين أبعدوا شيئا فشيئا عن وظائفهم في الدولة وفي الجيش وفي الولايات . كما أن آمال طلاب الوظائف في المستقبل تحطمت على يد حـــاكم يعلن على الملأ تحيزه ضدهم ، ويذكرهم في حقد وخبث أنه ليس من حق المسيحي أن يستخدم سيف القتال أو سيف العدالة ، ويعنى بحماية معسكرات الجيش وساحات القضاء بشعارات الوثنية . وقد سلم جوليان سلطات الحكم الى الوثنيين الذين أظهروا حماسا متقدا لديانة أسلافهم ، وبما أن اختيار الامبراطور كان في أكثر الأحيان نتيجة توجيه الكهان والعرافين فان أولئك المحظوظين الذين كان يفضلهم على أساس أنهم أكثر الناس قبولا لدى الآلهة لم يكونوا دائما موضع الرضا من الناس . ولهذا عانى المسيحيون كثيرا تحت حكم أعدائهم ، وكان ما يخشونه أكثر مما يعانون . ولم يكن جوليـــان ميالا بطبعه الى القسوة ، كما أنه كان يهتم بسمعته التي تتطلع اليهـــا عيون العالم ، وهذا كله جعله يتورع عن خرق قوانين العدالة والتســـامح التي وضعها بنفسه منذ وقت قريب . غير أن المنفذين لسلطته من حكام الولايات لم يكونوا محط الأبصار مثله ، وكانوا ، في ممارستهم لسلطتهم المطلقة ، يتلمسون رغبات مليكهم أكثر مما يتلقون أوامره ، ومن ثم فانهم وجدوا لديهم من الجرأة ما جعلهم يمارسبون طغيـــانهم السرى الكيدى على أبنـــاء تلك الطوائف الذين لم يكن مسموحا لهم بقتلهم ، حتى لا يكتسبوا بذلك شرف الاستشهاد . أما الامبراطور فقد تظاهر أطول مدة ممكنة بأنه لا يدرى شيئا عن أعمال الظلم التي كانت تمارس باسمه ، ولكنه كان يعبر عن شـــعوره الحقيقي تجـــاه مسلك موظفيه بالتأنيب الرقيق أو المكافآت السخية .

وكان أمضى ســـلاح من أسلحة الظلم والاضطهاد في أيديهم ، ذلك القانون الذي يحتم على المسيحيين أن يقدموا تعويضـــا كاملا مناسبا عن المعابد التي دمروها في العهد السابق . ولم تكن الكنيسة في ذلك الوقت السابق تنتظر موافقة السلطات العامة على هدم المعابد ، بل كثيرا ما كان الأساقفة ، وهم في مأمن من العقاب ، يسيرون على رأس طوائفهم لمهاجمة وتدمير حصون ملك الظلام . وكانت الأراضي الموقوفة على المعـــابد والتي آلت بعد هدم المعابد الى الملك أو الى رجال الدين ، محددة المعالم ومن السهل اعادتها الى أصحابها غير أن المسيحيين ، في كثير من الأحوال ، كانوا قد أقاموا صروحهم الدينية على هذه الأراضي وعلى أنقاض معـــابد الخـــرافة

الوثنية ، ولما كان من الضرورى أن تزال الكنيسة قبل أن يشاد المعبد من جديد ، فقد أشاد فريق الوثنيين بعدالة الامبراطور وتقواه ، بينما اعتبر الفريق المسيحى هذا العنف من جانبه تدنيسا للأماكن المقدسة ، وصبوا سخطهم ولعناتهم عليه • وبعد أن هدمت كنائس المسيحيين ومهدت الأرض ، أصبحت اعادة بناء معابد الوثنيين الضخمة التى كانت قد سويت بالتراب ، واسترداد الزخارف الثمينة التى حولها المسيحيون الى ما يستفيدون منه ، أصبح كل ذلك أمرا يتطلب نفقات ضخمة فى صورة تعويضات وديون • ولم يكن لدى المتسببين فى تلك الأضرار وهم المسيحيون ، قدرة ولا استعداد للوفاء بهذه المطالب المتراكمة ، ولو كان المشرع حكيما وغير متحيز ، لأظهر حكمته وعدم محاباته فى تسوية شكاوى ومطالب طرفى النزاع عن طريق تحكيم عادل معتدل • غير أن الامبراطورية كلها ، والشرق بنوع خاص ، كانت فى حالة ارتباك وفوضى من جراء المراسيم التى أصدرها جوليان فى تسرع وتهور ، كما أن حكام الولايات الوثنيين ، الملتهبين حماسة ورغبة فى الانتقام ، أساءوا استغلال الميزة القوية التى منحهم اياها القانون الرومانى ، وهى أن المدين الذى لا يستطيع الوفاء بديونه ، ويصبح من حق دائنه أن يتصرف فى شخصه سدادا للدين • وقد حدث فى العهد السابق أن الأسقف مرقس ، أسقف أرثوذا ، كان قد استخدم فى تحويل الناس الى المسيحية أساليب أشد فعالية من مجرد الاقناع ، ومن بين هذه الأساليب أنه ، فى حماس لا يقبل تساهلا أو تسامحا ، هدم أحد معابد الوثنيين ، ومن ثم فان حكام جوليان طالبوه بأن يدفع ثمن المعبد الذى هدمه كاملا • ولما كانوا على يقين من فقره ، فقد كانت رغبتهم الوحيدة أن يذلوا كبرياءه العنيدة بأن ينتزعوا منه وعدا بدفع أتفه تعويض • وكانوا يخشون الحبر العجوز • فجلدوه بطريقة وحشية ، ونتفوا ذقنه ، ثم طلوا جسده العارى بعسل النحل ، وعلقوه فى شبكة بين السماء والأرض عرضة للدغ الحشرات ولأشعة الشمس السورية • غير أن الأسقف مرقس ظل ، وهو معلق على هذه الصورة ، يفخر بالجريمة التى ارتكبها ، ويوجه الاهانات الى معذبيه العاجزين الغاضبين • ثم أنقذ فى نهاية الأمر من أيديهم ، وأصبح طليقا يستمتع بشرف نصره الالهى • وأخذ الآريوسيون يمجدون فضيلة راعيهم التقى ، ويطمع الكاثوليك فى تحالفه معهم • أما الوثنيون ، الذين ربما استشعروا الخزى والندم ، فقد أوقفهم ذلك عن تكرار مثل هذه القسوة عديمة الجدوى • ثم عفا عنه جوليان ، ومنحه حق الحياة ،غير أن أسقف أرثوذا كان هو الذى قد أظل طفولة جوليان بحمايته ، ومن ثم فان الجيل المقبل سوف يدين نكران الامبراطور للجميل بدلا من أن يمتدح شفقته •

معبد « دافني » وغابتها المقدسة

على بعد خمسة أميال من أنطاكية ، كان ملوك سوريا المقدونيون قد كرسوا للاله أبولو مكانا للعبادة يعتبر من أفخم أماكن العبادة فى العالم الوثنى ، وشادوا هناك معبدا رائعا تكريما لاله النور ، وأقاموا له فى المعبد تمثالا ضخما يكاد يملأ المحراب الفسيح ، زينوه بالذهب واللآلىء ، وتناوله مهرة الفنانين اليونان بالزركشة والزخــرفة • وتمثل الاله فى وضع منحن وهو يمسك بيده قدحا مذهبا يسكب منه على الأرض خمرا ، كما لو كان يتضرع الى الأم الوقور أن تعيد الى ذراعيه محبوبته الجميلة الفاترة « دافنى » • ولقد أضفت الأساطير على ذلك المكان رونقا وجلالا ، وكان خيال الشعراء السوريين قد نقل هذه القصة الغرامية من شواطىء بنيوس Peneus الى ضفاف نهر العاصى Orontes وظلت مستعمرة أنطاكية الملكية تقلد الشعائر القديمة التى كان يمارسها اليونان • وكانت تتدفق من النافورة « القسطالية » فى دافنى نبوءات تنافس فى صدقها وشهرتها تكهنات عرافة دلفى • وأقيم فى الحقول المجاورة ملعب كبير دفع ثمن التصريح ببنائه الى مدينة « ايلس » ، وكانت الألعــاب الأوليمبية يحتفل بها على نفقة المدينة ويصرف دخلها المقدر بثلاثين ألفا من الجنيهات الاسترلينية سنويا على ألوان اللهو العام • ونشأت الى جوار المعبد ، بصورة غير محسوسة ، قرية جميلة آهلة بالسكان هى قرية دافنى التى كانت تضارع فى فخامتها مدينة اقليمية دون أن يطلق عليها اسم المدينة ، وذلك نتيجــة لتدفق الحجاج والمشاهدين على المكان بصورة مستديمة • وكان المعبد والقرية قائمين فى حضن غابة كثيفة من أشجار الغار والسرو يمتد محيطهــا عشرة أميال ، ويجد فيها الناس فى أحــد أيام الصيف ظلا ظليلا رطبا لا تنفذ اليه أشعة الشمس • وتناثرت فى تلك البقعة آلاف الجداول التى تنساب فيها من كل تل أنقى الميــــاه وأصـــفاها ، فتحفظ للأرض خضرتها ، وللهواء حرارته الملطفة ، ولم يكن يسمع فى تلك الغابة الهادئة الساكنة الا الأصوات الجميلة المتناسبة ، كما لم يكن يفوح منها الا العبير العطرى ، ومن ثم فقد خصصت للصحة والمرح ، وللترف والحب • وكان الفتيان الممتلئون شبابا ينشدون هناك فتيات أحلامهم كما كان يفعل الاله أبولو ، أما العذارى الخجولات فقد وجدن فى مصــير العذراء « دافنى » ما يشجعهن على التخلى عن حماقة الحياء : وقد وجد الفلاسفة والجنود أنه من الحكمة ألا يعرضوا أنفسهم لاغــــراء تلك الجنة التى تفيض بما يثير الحواس ويستهوى الأجساد ، حيث تتخذ الملذات طابع الدين ، وتذيب فضيلة الرجولة دون أن يشعر الانسان • ورغم ذلك فقد ظلت غابات « دافنى » عصورا كثيرة تتمتع باحترام الوطنيين والأجانب ، كما أن كرم

الأباطرة المتعاقبين أغدق على المكان المقدس مزيدا من الامتيازات ، وكان كل جيل يضيف زخارف جديدة الى رونق المعبد وروعته ٠

وعندما سارع جوليان ، يوم الاحتفـــال السنوى ، الى التعبد للاله أبوللو فى معبد « دافنى » كانت حرارة الايمان قد ارتفعت فى صـــدره الى ذروتها تلهفا وولها ، وقد صور له خيـاله الملتهب أنه سوف يشاهد عظمة قرابين الشكر المقدمة للاله من ضحايا وخمور وبخور ، وموكبا طويلا من الفتيان والعذارى فى ثياب بيضاء ترمز الى طهارتهم ، وجمعا غفيرا من الناس يهللون ويكبرون ٠ غير أن حماس أنطاكية كان قد تحول منذ عهد المسيحية الى مجرى آخر ٠ فبدلا من الثيران السمينة العديدة التى كانت تنحرها قبائل المدينة الثرية قربانا لالههم الذى يتعبدون له ، فان الامبراطور لم يجد الا أوزة واحدة قدمها على نفقته الخاصة كاهن شاحب الوجه كان يعيش وحيدا فريدا فى ذلك المعبد المتهدم (١) ٠ وكان الهيكل مهجورا وصوت الوحى صامتا ، أما البقعة المقدسة فقد دنستها الشعائر الجنائزية المسيحية ٠ وكان قد حدث من قبل أن جثمان الأسقف بابيلاس (أحـــد أساقفة أنطاكية) ، الذى مات فى سجنه اثر حركة تعذيب أجراها ديسيوس بعد أن رقد قرابة مائة عام فى قبره ، نقل بأمر من القيصر جاللوس الى وسط غابة دافنى ٠ ثم أقيمت كنيسة رائعة فوق قبره ، واغتصب جزء من الأرض المقدسة ليعيش عليها رجـال الدين ، ولكى يدفن فيهـــا مسيحيو أنطاكية الذين كانوا يطمعون فى الرقاد تحت أقدام أسقفهم ، ومن ثم فقد انسحب كهنة أبوللو وغادروا المكان مع جمهور المتعبدين له ، وهم خائفون ساخطون ٠ وما أن بدت بوادر ثورة أخرى تهدف الى اعادة مجد الوثنية ، حتى هدمت كنيسة القديس بابيلاس ، وأضيفت مبان جديدة الى ذلك الصرح المتهدم الذى شاده ملوك سوريا الأتقياء ٠٠ غير أن جوليان وجه أول وأهم عنايته الى انقاذ الهه المظلوم من المسيحيين الذين أسكتوا صوت الحماس أو صوت الدجل والخداع ، اذ كان وجود الأحياء منهم والأموات شـــيئا كريها وممقوتا لديه ٠ ومن ثم فقد طهر المكان الموبوء ، واتبعت فى ذلك الطقوس القـــديمة ، فنقلت جثث الموتى فى احترام ، وسمح لقساوسة الكنيسة بأن ينقلوا رفات القديس بابيلاس الى موطنهم السابق داخل أسوار أنطاكية ٠ وقد تخلى المسيحيون فى حماسهم لهذا العمل عن مسلك التواضع الذى ربما كان كفيلا بتهدئة غيرة حكومة تناصبهم العداء ، فتجمعت

---

(١) يظهر جوليان فى كتابه « الميزوبوجون » (Misopogon) أخلاقه الشخصية فى تلك السذاجة ، والبساطة الطبيعية التى لا يحس بها صاحبها والتى تشكل دائما موضوعا للفكاهة ٠

جماهير من الناس لا يحصى عددهم ، سارت وراء العربة التى نقلت جثمان بابيلاس ، ولازمتها واستقبلتها وكانوا ينشدون فى أصوات مجلجلة مزامير داود التى تعبر أصدق التعبير عن احتقارهم للأوثان ومن يعبدونها • وكانت عودة جثمان القديس نصرا للمسيحيين ، وكان النصر اهانة لدين الامبراطور الذى تحامل على كبريائه • لكى يخفى استياءه • وخلال الليلة التى انتهى فيها هذا الموكب المتسم بالتهور ، أشعلت النـــار فى معبـد « دافنى » ، وأحرق تمثال أبوللو وتركت أسوار البناء أثرا عاريا يبعث الرهبة فى القلوب • ولقد أكد مسيحيو أنطاكية فى ثقة دينية أن قوة شفاعة القديس بابيلاس هى التى وجهت بروق الســماء الى السقف المقدس ، وأصبح جوليان أمام أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يؤمن بحدوث المعجزة ، أو يقرر أن فى المسألة جرما ، فاختار دون تردد ، ودون أى دليل لديه ، ولكن فى شيء من الاحتمال ، أن الجليليين هم الذين أشعلوا النار فى معبد دافنى ، بدافع من الانتقام • ولو أنه استطاع أن يثبت عليهم اقتراف ذلك الجرم ، اثبـاتا كافيا ، لكان هذا مبررا لما اتخذه فور ذلك من اجراء ثأرى نفذ بأمر منه ، وهو اغلاق أبواب كاتدرائية أنطاكية ومصادرة ثروتها • وفى سبيل اكتشاف المجرمين الذين أثاروا الشغب ، وأشعلوا النار ، وقاموا بتهريب نفائس الكنيسة ، عذب الكثيرون من رجال الدين وقطعت رقبة مطران اسمه تيودور Theodore بمقتضى حكم أصدره حاكم الشرق • غير أن هذا العمل السريع كان موضــع تأنيب الامبراطور ، الذى عبر عن أسفه الحقيقى • أو المصطنع ، لهذا الحادث ، قائلا ان وزراءه ، فى حماسهم المتهور ، سوف يصمون عهده بعار التعذيب والاضطهاد •

وسرعان ما كبت عبوس جوليان حماس وزرائه ، ولكن ، عندما يعلن أكبر الناس فى البلد أنه زعيم حزب ، فان انطلاقة الهياج الشعبى لا يمكن قمعها بسهولة ، ولا معاقبة أصحابهــا عقابا مناسبا • ولقد أشــاد جوليان علانية باخلاص مدن سوريا المقدسة وولائهــا ، تلك المدن التى حطم سكانها عند أول اشارة أضرحة الجليليين ، وشكا بصورة ضعيفة من أنهم انتقموا للاساءات التى لحقت بالآلهة بطريقة أقل اعتدالا مما كان يريد • وهــذا الاعتراف المعيب الذى عبر عنه كارها ، يبدو أنه يؤكد القصص الدينيــة التى تقول بأن الوثنيين ، فى مدن غزة ، وعسقلان ، وقيصرية ، وهليوبوليس ، وغيرها ، أساءوا استغلال لحظة انتصارهم ، دون حكمة أو تأنيب ضمير ، وأن التعساء الذين انصبت عليهــم قسوتهم لم يتخلصوا من العذاب الا بالموت ، وأن أجسادهم الممزقة ، بينما كانت تجر فى الطرقات ، كانت تطعن بأسياخ الطهاة ، وقرانيس النساء ، وأن أحشاء القساوسة المسيحيين والعذارى المسيحيات ، بعد أن كان يذوقها

أولئك المتعصبون المتعطشون للدماء ، كانت تخلط بالشعير ، وترمى فى احتقار الى الحيوانات القذرة فى المدينة • وهذه المشاهد ، التى تدل على الجنون الدينى ، انما تمثل الطبيعة البشرية فى أحط وأبشع صورها • غير أن مذبحة الاسكندرية تجذب قدرا أكبر من الانتباه ، من حيث ثبوت حقيقتها ، ومكانة ضحاياها ، وروعة عاصمة مصر •

القديس جـــورج

ولد جـورج فى ابيفانيـــا باقليم قيليقيا Cilicia فى حانوت أحد المنجدين ، وأطلق عليه والداه ، أو اكتسب من تعليمه ، لقب « الكبادوكى » (من اقليم كبادوكيا) • ومن هذا المنبت الحقير المغمور أمكنه أن يرفع نفسه بمواهب الانسان الطفيلى ، واستطاع أسياده الذين كان يتملقهم دون كلل أو ملل أن يحصلوا لتابعهم التافه الحقير على عقد تزويد الجيش بلحم الخنزير ، وهو عمل يدر عليه مالا وفيرا • وكان عمله هذا وضيعا تافها ، فجعله هو دنيئا مبتذلا ، وجمع المال بأحط وسائل الغش والفساد ، غير أن مسلكه المعيب هذا بلغ من الخسة حدا أرغمه على الفرار من العدالة • وبعد هذه الفضيحة الشائنة ، التى يبدو أنه أنقذ فيها ثروته على حساب شرفه ، اعتنق الدعوة الآريوسية ، فى حماس حقيقى ، أو حماس مصطنع • ويبدو أنه كان محبا للعلم أو للزهو به ، ومن ثم فقد جمع مكتبة قيمة من كتب التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت (١) ، واستطاع الكبادوكى أن يرقى الى كرسى الأسقفية الذى كان يشغله أثناسيوس ، بعد أن اختاره الحزب السائد فى ذلك الوقت لشغل ذلك المنصب • وكان مسلك الأسقف الجديد مسلك أحد الغزاة البرابرة ، فلوث كل لحظة من لحظات عهده بالقسوة والجشع ، وأصبح كاثوليك الاسكندرية ومصر تحت رحمة طاغية هيأته طبيعته وتعليمه لممارسة التعذيب والاضطهاد ، غير أن يد اضطهاده امتدت فى غير محاباة الى مختلف سكان أسقفيته الفسيحة سواء بسواء • واتخذ أسقف مصر مظهر العظمة والتسلط الذى يتفق مع مركزه الرفيع ، غير أن مسلكه كان ينم رغم ذلك عن ذلة ووضاعة أصله • فلقد أدى احتكاره

---

(١) بعد أن قتل جورج أرسل جوليان أوامره للاحتفاظ له بمكتبته ، ومعاقبة العبيد الذين يشتبه فى أنهم أخفوا شيئا من الكتب • ويشيد جوليان بهذه المجموعة القيمة من الكتب التى استعار منها الكثير من المخطوطات ونسخها عندما كان يتابع دراساته فى « كبادوكيا » • ومع أنه كان يرغب فى تضييع مؤلفات الجليليين ، غير أنه كان يريد أن يحتفظ بسجل لتلك الكتب اللاهوتية ، حتى لا تضيع معها مؤلفات أخرى أكثر قيمة •

الكلي الظالم للملح والورق ونترات البوتاس ودفن الموتى الى فقر تجار الاسكندرية ، كما أنه ، وهو الأب الروحي لشـــعب عظيم ، انحدر الى مستوى رجل ينقل أخبار الناس ويســـتخدم في ذلك مختلف الحيل الضارة الخسيسة ٠ ولم ينس أهل الاســـكندرية أو يصفحوا عن تلك الضريبة التي اقترحها على كل منازل المدينة ، مدعيا في ذلك ادعاء عقيما بأن الملك الذي أسس المدينة كان قد نقل الى خلفه من البطالمة والقياصرة حق الملكية الدائمة للأرض ٠ وكان الوثنيون قد انخدعوا بآمال التمتع بالحرية والتسامح في عهد ذلك الرجل ، غير أنهم أيضا أثاروا فيه جشعه الديني ، وتعرضت معابدهم الغنية في الاسكندرية للنهب أو الاهانة من جانب أسقف متشامخ كان يقول مهددا في صوت مسموع : « الى متى سوف يسمح لهذه الأضرحة بالبقاء ؟ » ٠ وفي عهد قسطنطيوس طرد الشعب هذا الأسقف من منصبه ، غضبا عليه ، أو اقتصاصا للعدالة منه ، ولم تستطع سلطات الدولة المدنية والعسكرية اعادة سلطانه اليه واشباع رغبته في الانتقام ، الا بعد كفاح عنيف مرير ٠ ثم جاء جوليان ، وأعلن رسول منه الى الاسكندرية خبر توليه العرش وعزل الأسقف في وقت واحد ، ثم اقتادت السلطات جورج واثنين من وزرائه الأذلاء ــ الكونت ديودوروس ، ودراكونتيوس المشرف على دار صـــك النقود ــ مكبلين بالأغلال الى السجن العام ، في صورة مخزية شائنة وبعد أربعة وعشرين يوما حطم جمهور من الوثنيين في غضبة عارمة أبواب السجن ، بعد أن ضاقوا ذرعا بشكليات الاجراءات القانونية المملة ٠ ومات أعداء الآلهة والناس متأثرين بما لحق بهم من الاهانات وأعمال القسوة ، وحملت جثث الأســـقف وزميليه على ظهر جمل طاف شـــوارع المدينة ٠ أما فريق أثناسيوس فقد ظل بعيدا عن تلك الحركة ، وكان هذا الهدوء من جانبه مثالا رائعـا للصـبر الذي تحدث عنه الانجيل ٠ ثم ألقيت جثث هؤلاء الأشقياء المذنبين في البحر ، وأعلن زعماء الثوار عن عزمهم على هدم آمال المسيحيين وتحطيم ولائهم للأسقف ، وعلى الحيلولة مستقبلا دون منح شرف الاستشهاد لأولئك الذين عوقبوا ، كما عوقب أسلافهم ، على أيدي أعداء دينهم ٠ وكان الوثنيون على حق فيما كانوا يخشـــونه ، كما أن احتياطاتهم كانت عديمة الجدوى ٠ ذلك أن الموت الذي استحقه الأسقف محا من ذاكرة الناس ما فعله في حياته ، وكان هذا المنافس لأثناسيوس عزيزا ومقدسا لدى الآريوسيين ، وترتب على إعتناق أبناء تلك الطائفة للمسيحية أن أصبح ذلك الأسقف شخصية مقدسة في قلب الكنيســـة الكاثوليكية ٠ وهكذا ترى ذلك الغريب الممقوت الذي شوه كل ظرف من ظروف الزمان والمكان ، وقد ألقى عليه بعد موته قناع الشهيد ، والقديس

والبطل المسيحي (١) ، وهكذا أيضا تحول (٢) ذلك الرجل الفاجر سيئ السمعة ، جورج الكابادوكي ، الى سانت جورج ، قديس انجلترا الشهير ، راعي الجنود والفروسية ، وصاحب وسام ربطة الساق (٣) ٠

وفي نفس الوقت الذي ابلغ فيه جوليـان بنبـأ اضـطرابات الاسكندرية ، تلقى نبأ من مدينة اذاسا (الرها) Edessa بأن رجال حزب الآريوسيين الثرى المتغطرس قد استهانوا بضعف الغنوصيين من أتباع فلنتينوس « The Valentinians » وأتوا من أعمال الشغب ما لا ينبغي أن تقبله دولة منظمة ، وتتركه دون عقـاب ٠ فلم ينتظر الملك الغاضب اجراءات العدالة البطيئة بل أرسل أمرا الى حكام اذاسا بمصادرة كل أملاك الكنيسـة ، فوزعت أموالها على الجنود ، وأضيفت الأراضي الى ممتلكات الحكومة ، وزاد من جور هذا الاجراء التعسفي قول الملك في سخرية أشد ما يكون عداء : « انى بهذا الاجراء انما أثبت انى صديق مخلص للجليليين ، ذلك أن شريعتهم (الرائعة) قد وعدت الفقراء بملكوت السماء ٠ ومن ثم فقد أزلت عن كواهلهم عبء الممتلكات الدنيوية حتى يسيروا في طريق الفضيلة والاخلاص بهمة أكثر » ٠ واستطرد يقول بلهجة أكثر جدية : « حذار اذن من أن تستنفدوا صبرى ومشـاعرى الانسانية ٠ واذا استمرت هذه الاضطرابات فسوف أنتقم من الحكام بسبب الجرائم التي يرتكبها الناس ، وسوف تلقون منى لا مجرد المصادرة والنفي فحسب ، بل النار والسيف » ٠ ولا شك في أن اضطرابات الاسكندرية كانت أكثر خطورة وفتكا غير أنها أسفرت عن مقتل أسقف مسيحي على

---

(١) كان الجريجوريون ، وقديسو كيادوكيا وبازل يجهلون زميلهم المقدس ، وقد وضعه البابا جيلاسيوس (٤٩٤ بعد الميلاد) ، وهو أول كاثوليكى يعترف بسانت جورج ، في مصاف الشهداء « الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس » ٠ ولم يصدق هذا البابا ما سجل من أعمال جورج ، بل اعتبرها من خلق الهراطقة ٠ وماتزال بعض هذه الأعمال التي سجلت عليه محفوظة ، ومن الجائز أنها ليست أقدم أعماله ٠ ومع ذلك فانه في مقدورنا أن نتبين تلك الحملة التي شنها سـانت جورج الكابادوكي ، في حضرة الملكة الكسندرا ، على « الشاعر أثناسيوس » ، من ثنايا قصة حياته ٠

(٢) ليس في مقدورنا أن نؤكد هذا التحول تأكيدا مطلقا ، ولكننا نورده هنـا من قبيل الاحتمال الشديد ٠

(٣) هناك تاريخ عجيب لتقديس سانت جورج منذ القرن السادس (وكان اذ ذاك مقدسا في فلسطين وأرمينيـا وروما وفي تريفرز ببـلاد الغـال) أورده دكتور هـيلن Dr. Heylin في كتابه « Hist. of St. George » وقد بدأت شهرته وشعبيته تظهر في أوروبا وخاصة في انجلترا منذ الحروب الصليبية ٠

أيدى الوثنيين ، وأنك لتجد فى الرسالة العلنية التى اصدرها جوليان ، دليلا حيا على روح المحاباة التى كانت مسيطرة على حكمه • فقد مزج فيها تأنيبه لمواطنى الاسكندرية بعبارات التقدير والعطف ، وأبدى أسفه لانهم فى تلك المناسبة قد تخلوا عن المسلك الرقيق الكريم الذى يدل على منبتهم اليونانى • ثم يلومهم بشدة على الاساءة التى ارتكبوها ضد قوانين العدالة والانسانية ، ولكنه يستعرض فى شيء من السرور الواضح تلك الاثارات غير المحتملة التى عانوها من جراء الطغيان الغاشم الذى اتصف به جورج الكبادوكى ثم يقرر جوليان ذلك المبدأ الذى يقضى بأن الحكومة العاقلة القوية ينبغى أن تعاقب المذنبين المسيئين ، غير أنه ، اكراما للاسكندر مؤسس الاسكندرية ، واكراما لالههم سرابيس Serapis قد أصدر عفوا كريما حرا عن المدينة المذنبة ، التى يشعر نحوها بمحبة الأخ لأخيه •

جوليان واثناسيوس

بعد أن هدأت اضطرابات الاسكندرية ، ارتقى اثناسيوس عرش الاسكندرية الأسقفى الذى نبذ منه منافسه الوضيع نبذ النواة ، وسط تهليل الشعب وتكبيره • ولما كانت حكمة الأسقف عاملا فى وجود زعيم شعبى جرىء على رأس المدينة الهائجة المضطربة ، وانك لترى فى اللغة التى عبر بها عن استيائه ما يبين رأيه فى شجاعة اثناسيوس وقدراته • ذلك أن أكديكيوس Ecdicius والى مصر ، أجل تنفيذ الحكم الصادر من جوليان بنفى اثناسيوس ، حرصا منه أو اهمالا ، وأخيرا وجه اليه الامبراطور رسالة لوم شديدة اللهجة أيقظته من سباته ، وقال فيها : « اذا كنت تهمل الكتابة لى عن أى موضوع آخر ، فان من واجبك على الأقل أن تحيطنى علما بما فعلته مع اثناسيوس عدو الآلهة • ولقد أخبرتك عن نواياى منذ مدة طويلة ، وانى أقسم بالاله العظيم سيرابيس أنه اذا لم يرحل اثناسيوس عن الاسكندرية ، بل عن مصر كلها ، قبل حلول شهر ديسمبر ، فان موظفى حكومتك سوف يدفعون غرامة قدرها مائة رطل من الذهب ، وانك لتعرف طباعى جيدا فأنا بطىء فى اصدار حكمى ، ولكنى أكثر بطئا فى تسامحى وصفحى » • وعزز الامبراطور هذه الرسالة بملاحظة قصيرة كتبها بخط يده فى نهاية الرسالة ، وقال فيها : « ان ما يوجه الى الآلهة من ازدراء واحتقار انما يملأ قلبى حزنا وسخطا ، وليس هناك ما يلذ لى رؤيته أو سماعه أكثر من طرد اثناسيوس من مصر كلها • يا له من شقى كريه بغيض ! ، لقد كان من نتائج وسائل الاضطهاد التى اتبعها أن قبلت المعمودية كثيرات من أرقى السيدات اليونانيات وأرفعهن قدرا » •

ولم يأمر الامبراطور بقتل اثناسيوس صراحه ، غير أن والى مصر أدرك انه لكى يضمن أمانا أكثر يجب عليه ألا يمهل أوامر مليكه الثائر ، بل يبالغ فى تنفيذها • ومن ثم فقد لجأ الأسقف فى حرص الى أديرة الصحراء ، وأفلت بمهارته المعتادة من شراك عدوه ، وعاش ليشهد انتصاره على رفات حاكم أعلن فى كلمات مخيفة فى معناها أن كافة سموم المدرسة الجليلية قد تجسدت فى شخص اثناسيوس وحده •

لقد حاولت مخلصا أن أرسم صورة للطريقة الماكرة التى أراد بها جوليان أن يحصل على نتائج الاضطهاد ، دون أن يرمى بذنب الاضطهاد أو يلام على اقترافه • ولكن اذا كانت روح التعصب القاتلة قد أفسدت قلب حاكم فاضل وضللت تفكيرة ، فينبغى فى الوقت عينه أن نعترف بأن الحماس الدينى والأهواء البشرية هى التى ضخمت آلام المسـيحيين وزادتها حدة • ذلك أن صفات الدعة والاستسلام والصبر التى تميز بها حواريو الانجيل الأوائل ، قد أصبحت موضع استحسان خلفهم دون أن تكون مثلا يحتذونه • وانك لترى المسيحيين ، بعد أن انقضى عليهم الآن أكثر من أربعين عاما وهم مسـيطرون على الحكم المدنى والدينى فى الامبراطورية ، قد أصيبوا بعدوى الرفاهية والنقائص المعيبة ، وسيطر عليهم الاعتقاد بأن القديسين وحدهم هم أصحاب الحق فى حكم الأرض • وما أن ناصبهم جوليان العداء ، وحرم رجال الدين من تلك الامتيازات التى أغدقها عليهم قسطنطين ، حتى جأروا بالشكوى من أنه يضطهدهم أقسى الاضطهاد ، وأصبح تسامحه مع الوثنيين والهراطقة أمرا شـائنا يدعو الى الحزن والأسى فى نظر الفريق الأرثوذوكسى • ومع أن الحكام أقلعوا عن أعمال العنف ولم يعودوا يحبذونها ، الا أن حماس الناس ظل يدفعهم الى ممارستها ، ففى بسينوس Pessinus قلب الناس هيكل الالهة كيبيلى Cybele ، وكاد ذلك أن يكون فى حضرة الامبراطور . وفى مدينـة قيصرية باقليم كبادوكيا ، دمر معبد « الحظ » Fortune وهو مكان العبادة الوحيد الذى تبقى للوثنيين ، فى ثورة شعبية عارمة • وفى تلك المناسبات لم يشأ الملك ، وهو الذى يحترم شرف الآلهة ، أن يعترض طريق العدالة ، بل انه استشاط غضبا عندما علم أن المتعصبين الذين عوقبوا على اشعالهم الحرائق ، وكانوا يستحقون هذا العقاب ، قد كوفئوا بما يكافأ به الشهداء • وكان رعايا جوليان من المسـيحيين يعلمون حق العلم بالخطط العدوانية التى كان يرسمها مليكهم ، وكانت كل واقعة من وقائع حكمه تدعوهم الى التذمر والشك وتثير فيهم مشاعر الخوف والغيرة • وكان أمرا طبيعيا أن يسفر التطبيق العادى للقوانين

عن ادانة كثير من المسيحيين الذين كانوا يشـــكلون جزءا كبيرا من الشعب ، غير أن اخوتهم فى المسيحية كانوا يقررون ، بدافع من التساهل ، ودون أن يبحثوا القضية ، أنهم أبرياء ، ويصدقون دعواهم ، وينسبون صرامة قاضيهم الى حقد المحاباة الذى يتسم به الاضطهاد الدينى • وهذه المحن الحالية ، رغم أنها كانت تبـــدو محنا لا يمكن تحملهـــا ، كان المسيحيون يصورونها على أنها مقدمة بسيطة لما ينتظرهم من كوارث • وكان جوليان فى نظرهم طاغية واسع الحيلة قاسى القلب ، أوقف تنفيذ انتقامه حتى يعود ظافرا من الحرب الفارســـية ، وكانوا يتوقعون أنه بمجرد أن ينتصر على أعداء روما من الأجانب ، سوف ينزع عن وجهه قناع التظاهر المضنى وأن المدرجات سوف تسيل عليها دماء النســـاك والأساقفة ، وأن المسيحيين الذين مازالوا مصرين على الجهر بعقيدتهم ، سوف يحرمون من المزايا العامة التى يتمتعون بها بحكم الطبيعة وبحكم المجتمع • ومن ثم فقد كان خصومه المسيحيون يصدقون كل وشـــاية تجرح سمعة جوليان « المرتد » خوفا منه وكراهية له ، ولا شك فى أن صخبهم وضجيجهم الأحمق أثارا غضب مليكهم الذى كان من واجبهم أن يحترموه ، ومن مصلحتهم أن يتملقوه • ولكنهم ظلوا يجهرون بأن صلواتهم ودموعهم هى سلاحهم الوحيد ضد الطاغية الزنديق ، الذى أساء الى الله ، وأنه لا يسعهم الا ترك أمر قصاصه الى عدالة السماء ، غير أنهم قالوا فى عزم وتصميم ان خضوعهم لم يعد نتيجة ضعفهم ، وانه مادامت الفضيلة البشرية تفتقر الى الكمال ، فان الصبر المستند الى المبدأ انما يســـتنفده الاضطهاد • وليس فى مقدورنا أن نحدد مدى تغلب حماس جوليان على حكمته وانسانيته ، غير أننا اذا أخذنا فى اعتبارنا الجدى قـوة الكنيسة وروحها ، فاننا سوف نقتنع بأن الامبراطور ، قبل أن يستطيع القضاء على ديانة المسيح ، لابد أن يكون قد أوقع بلاده فى فظائع حرب أهلية •

الفصل الرابع والعشرون
(٣٦٣)

انتخاب جوفيان • تأملات فى موت جوليان

بدأ جوليان الحرب ضد الفرس فى شىء من النجاح • غير أنه مع ذلك أرغم على الانسحاب ، وأصيب بجرح مميت فى معركة حاسمة فيما وراء نهر دجلة • ومات يوم ٢٦ يونية سنة ٣٦٣ •

انتخاب جوفيــان

فى مقدورنا أن نعزو انتصـــار المســـيحية والكوارث التى حلت بالامبراطورية الى جوليان نفســـه لأنه لم يرشح فى الوقت المناسب ، وبطريقة فطنة حكيمة زميلا يخلفه بعد موته ، ويعتبر هذا اهمالا منه فى ضمان تنفيذ مخططاته المستقبلة • غير أن سلالة قسطنطيوس كلوروس الملكية لم يتبق منها الا هو ، واذا كان قد فكر جديا فى أن يرشح لتولى العرش أجدر من يستحقه من بين الرومان فان صعوبة الاختيار ، وغيرته على السلطة ، وخوفه من نكران الجميل ، وغرور الصحة والشـــباب والرفاهية ، كل أولئك كان كفيلا بأن يثنيه عن عزمه • ولقد ترتب على موته الفجائى أن أصبح عرش الامبراطورية شاغرا ، لا وريث له ، وفى حالة من الارتباك والخطر لم تتعرض لها خلال السنوات الثمانين التى انصرمت منذ انتخاب دقلديانوس • وفى حكومة كادت أن تنسى رفعة الدم النقى النبيل ، أصبح ســمو المنبت شيئا قليل الأهمية ، وغدت حقوق المنصب الرسمى مزعزعة تعتمد على الصدفة ، أما أولئك الذين كان من المحتمل أن يتطلعوا الى ارتقاء العرش الشاغر ، فلم يكن لهم من سند سوى شعورهم بما يتصفون به من فضائل شخصية ، أو آمالهم فى نوال حظوة شعبية • غير أن موقف الجيش الذى كان يتضور جوعا ، وقد أحدقت به جحافل البرابرة من كل جــانب ، لم يترك الكثير من

الوقت للحزن والتدبير • وفى وسـط مشاهد الفزع والمحنة هذه حنط جثمان الملك الراحل فى اجلال واحترام ، بناء على توجيهاته الخاصة ، وعند مطلع الفجر عقد القواد مجلســا حربيا دعوا اليه قواد الفيالق وضباط الفرسان والمشاة • ولم تكن قد انقضت ثلاث أو أربع ساعات من الليل دون أن تدبر بعض المؤامرات ، وعندما قدم اقتراح انتخاب الامبراطور ، بدأت روح الحزبية تثير الاضطراب فى الاجتماع • فالتف الباقون من بلاط قسطنطيوس حول « فيكتور » و « ارنثيوس » وتجمع أصدقاء جوليان حول زعيمى بلاد الغال « داجاليفوس » و « نفيتا » ، وخشى الجميع تلك النتائج المهينة التى لابد أن يسفر عنها تنازع حزبين ، كل منهما يناقض الآخر من حيث الأخلاق والمصلحة وقواعد الحكم ، وربما من حيث المبادىء الدينية • ولم يستطع ضم صفوفهم وتوحيد آرائهم الا الحاكم « سالوست » Sallust ، بفضل ما كان يتصف به من فضائل سامية ، وكان من الممكن على الفور أن ينصب هذا الحاكم الوقور خليفة لجوليان لو أنه لم يصرح فى اخلاص وفى حزم وديع بأن كبر سنه واعتلال صحته لا يتحملان ثقل التاج الامبراطورى • وقد دهش القواد لرفضه ، وتملكتهم الحيرة ، وبدا عليهم الميل الى الأخذ بنصيحة مجدية تقدم بها أحد صغار الضباط ، وهى أنه ينبغى عليهم أن يتصرفوا الآن كما كان لزاما عليهم أن يفعلوا لو كان الامبراطور غائبا عنهم ، وأنه يجب عليهم أن يبذلوا كل ما فى مقدورهم لانقاذ الجيش من محنته الحالية ، فاذا ما وفقهم الحظ الى بلوغ حدود العراق ، بدءوا عملية انتخاب الملك الشرعى مستعينين بآراء موحدة حازمة • وبينما كانوا يتناقشــون ، ارتفعت بعض الأصوات بتحية « جوفيان » Jovian ملقبة اياه باسم امبراطور وباسم أغسطس ، مع أنه لم يكن سوى رئيس الحجاب • وسرعان ما ردد الحراس المحيطون بالخيمة ذلك الهتاف الصاخب ، ثم سرى الهتاف فى لحظات قصيرة الى نهاية صفوف الجنود ، ودهش الملك الجــديد لذلك الحظ الذى هبط عليه ، وسرعان ما ألبســوه الأردية الامبراطورية المزركشة ، وأدى القواد أمامه يمين الولاء ، ثم طلب اليهم جوفيان فى نهاية الأمر أن يمنحوه ودهم وحمايتهم • ولقد كانت أقوى تزكية لجوفيان أن والده ، الكونت فارونيان ، كان رجلا فاضلا يعيش فى عزلة شريفة ، متمتعا بثمار خدماته الطويلة • وكان الابن يشغل منصبا غير رسمى يتمتع فيه بحريته بعيدا عن العيون ، ويشبع رغبته فى الخمر والنساء ، الا أنه كان يتصف عن جدارة بأخلاق الرجل المسيحى وأخلاق الجندى • ولم يكن متميزا بأية صفة من صفات الطموح التى تثير اعجاب الناس وحسدهم ، غير أن طلعته الجميلة ، وطباعه المرحة ، وما اشتهر

به من ذكاء ، كل أولئك أكسبه محبة رفاقه الجنود ، ووافق قواد كل من الحزبين على ذلك الإنتخاب الذى أجرى دون أن تستخدم فيه ألاعيب أعدائهم • ولقد خفف من زهو الامبراطور الجديد بهذه الرفعة غير المتوقعة ما كان يخشاه من أن ذلك اليوم نفسه قد يكون نهاية حياته ونهاية حكمه ، ولم يكن فى خوفه هذا بعيدا عن الحقيقة ، ومن ثم فقد أطاع صوت الضرورة الملحة دون ابطاء ، وكانت أول أوامر أصدرها جوفيان بعد انقضاء ساعات قليلة من وفاة سلفه هو أن يشن هجوما على العدو ، اذ لم يكن هناك من سبيل لانقاذ الرومان من محنتهم الحالية غير ذلك •

ان مخاوف العدو هى التى تعبر أصدق تعبير عن قدره وقوته ، ويمكن أن يقاس مدى هذا الخوف قياســا دقيقا بما يظهره من فرح لنجاته • ولقد نقل أحد جنــود الرومان الهاربين خبر وفاة جوليان الى معسكر سابور Sapor ، وأوحى هذا الخبر السعيد الى الملك اليائس الجزوع بثقة فجائية من أنه سوف ينتصر على الرومان • فأرسل على الفور الفرســان الملكية ، التى ربمــا كــان قوامهــا عشرة آلاف من « الخالدين » ، لتقوية ومساعدة جيشه الذى كان يطارد العدو ورمى بكل ثقل قواته المتحــدة على مؤخرة الرومان ، فحلت بها الفوضى ، وتحطمت الفيالق الشهيرة التى استمدت اسمها من دقلديانوس ورفاقه المحاربين الأشــداء ، ثم وطأتهم أقدام الفيلة ، وهلك ثلاثة قواد فى محاولة منع جنودهم من الفرار • وأخــيرا استطاع الرومان بشجاعتهم وصــمودهم أن يملكوا زمــام المعركة ، فصــدوا الفرس وكبدوهم خسارة كبيرة فى الأرواح ، وقتلوا الكثير من الفيلة ، وبعد أن قضى الجيش يوما طويلا من أيام الصيف فى القتال والتقدم ، وصل فى المساء الى مدينة سامرا (سر من رأى) على شاطىء الدجلة ، وفوق « المدائن » Ctesiphon بما يقرب من مائة ميل • وفى اليوم التالى لم يحاول المتبربرون عرقلة تقدم الجيش ، ولكنهم ، بدلا من ذلك ، هاجموا معسكر جوفيان الذى كان قائما فى واد عميق منعزل ، وبدأ رماة السهام الفرس يوجهون سهامهم الى القوات المجهدة ، واستطاعت قوة من الفرسان أن تخترق فى شجاعة مستميتة بوابة موقع الحرس الامبراطورى ، ولكنها أبيدت عن آخرها بعد صدام متأرجح بالقرب من خيمة الامبراطور • وفى الليلة التالية كان معســكر كارش Carche فى موقع تحصــنه شواطىء النهر المرتفعة . أما الجيش الرومانى ، فرغم أنه كان معرضا بصورة مستمرة الى ملاحقة القوات العربية ملاحقة تزعجه وتضايقه الا أنه ضرب خيامه بالقرب من مدينة ، « ديورا » بعد أربعة أيام من موت جوليان • وكان نهر الدجلة الى يسارهم ، وقد كادت آمالهم أن تنهار ، وكادت مؤنهم أن تنفد ، أما الجنود

فقد عيل صبرهم ، وكانوا يعللون النفس بأن حدود الامبراطوريه لم تعد بعيدة عنهم ، فطلبوا من مليكهم الجديد أن يسمح لهم بالمغامرة بعبور النهر • غير أن جوفيان ، بمعاونة أعقل ضباطه ، حاول أن يثنيهم عن ذلك التهور قائلا لهم انهم حتى اذا كان لديهم من المهارة والقدرة ما يمكنهم من مواجهة تيار نهر عميق جارف ، فانهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من تسليم أنفسهم عراة عاجزين الى المتبربرين الذين احتلوا الضفة المقابلة • وأخيرا رضخ الى الحاحهم الصاخب ، ووافق مكرها على أن يقوم بالمخاطرة الجريئة خمسمائة من الغاليين والجرمان الذين درجوا منذ نعومة أظفارهم على السباحة في مياه نهر الراين ونهر الدانوب ، على أن تكون تلك المخاطرة مشجعا أو نذيرا لبقية الجيش • وفي سكون الليل ، عبر الرجال نهر الدجلة ، وفاجأوا مركزا من مراكز العدو كان متروكا بغير حراسة ، وعند مطلع الفجر أعطوا لبقية الجيش علامة تدل على توفيقهم فيما عقدوا العزم عليه • وكان نجاح تلك المحاولة مشجعا للامبراطور على الاصغاء الى وعود مهندسيه الذين اقترحوا أن يقيموا قنطرة عائمة من جلود الخراف والثيران والماعز ، ينفخـــونها ثم يغطونها بالحطب والتراب • وانقضى يومان في هذا العمل المجهد غير المجدى ، وبدأ الرومان يعانون آلام الجوع ، وأخذوا ينظرون نظرة اليأس الى نهر الدجلة والى البرابرة الذين ازداد عددهم واشـــتد عنادهم ، بينما كان الجيش الامبراطورى فى محنتــه •

وبينما كان الرومان فى هذا الموقف اليائس ، دوى صوت يبشر بالسلام أنعش فيهم روحهم المنهارة • ذلك أن الغرور العابر الذى كان يملأ سابور كان قد زال ، وأخذ الملك الفارسى يلاحظ فى جزع شديد أن المعارك المتكررة التى خاضها دون نتيجة أكيدة قد افقدته أصدق وأجرأ نبلائه ، وأشجع قواته ، والجزء الأكبر من قطيع الفيلة الذى يملكه • وخشى الملك المحنك أن يثير فى أعدائه مقاومة اليأس ، ويعرض نفسه لتقلبات الخطر ، ولقوى الامبراطورية الرومانية المجهدة التى قد تتقدم لانقاذ خليفة جوليان ، أو للانتقام له • وذهب « السوروناس » نفسـه (لقب أحد كبار قواد الفرس) فى صحبة أحد كبار حكام الولايات الى معسكر جوفيان ، حيث أعلن أن شفقة مليكه لا تمنعه من تحديد الشروط التى يرتضيها فى مقابل افساح الطريق أمام القيصر وبقايا جيشه الأسير المحاصر ، ولان عناد الرومان واصرارهم أمام الأمل فى النجاة ، واضطر الامبراطور ، عملا بنصيحة مجلسه واستجابة لهتافات الجنود ، الى قبول عروض السلام ، وأرسل على الفور الوالى « سالوست » ومعه القائد « آرينثيوس » لمعرفة ما يطلبه الملك المعظم • غير أن ملك الفرس الداهية

أخـذ يماطل ، بشـتى الأعذار والادعاءات ، فى ابرام الاتفاق • فأثار المصاعب ، وطلب الايضاحات ، واقترح الوسائل والسبل ، وتراجع عما كان قد منحه ، وتغالى فى مطالبه ، وضـيع أربعـة أيام فى فنون المفاوضة ، حتى استنفد مخزون المؤن التى تبقت فى معسكر الرومان • ولو أن جوفيان استطاع أن يتخذ اجراء جريئا حكيما لواصل سيره بجد ودأب لا يفتر فى وقت توقفت فيه هجمات البرابرة بحكم وجود الاتفاق على ايقاف القتال ، ولاستطاع قبل انتهاء اليوم الرابع أن يصل فى أمان الى مقاطعة كوردوين Corduene الغنية على بعـد مائة ميـل فقط من معسكره • غير أن الامبراطور المتردد ، بدلا من أن يخترق شباك العدو . أخذ ينتظر مصيره فى استسلام وصبر ، وقبل شروط الصلح المذلة التى لم يعد فى مقدوره أن يرفضها • وبمقتضى تلك الشروط استعاد الملك الفارسى الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة ، والتى كان جد سابور قد تخلى عنها للرومان ، وحصل بمقتضى مادة واحدة على مدينة نصيبين Nisibis المنيعة التى حاصرهـا ثـلاث مرات متوالية صمدت فيها أمام أسلحته وقواته • وكذلك اقتطعت من الامبراطورية مدينة سنجار Singara وقلعة المغـاربة ، وهى من أقـوى معاقل العراق ، واعتبر من قبيل التساهل أن سكان تلك المعاقل قد سمح لهم بالانسحاب منها بأمتعتهم ومقتنياتهم ، غير أن الملك المنتصر أصر فى عناد وصرامة على أن يتخلى الرومان الى الأبد عن مملكة أرمينيا وملكها • وعقد اتفاق صلح . أو قل هدنة طويلة ، لمدة ثلاثين عاما بين الأمتين المتخاصمتين ، وأقسم الطرفان على احترام المعاهدة قسما جادا عززته الاحتفالات الدينية وتبادلا رهائن تتألف من شخصيات رفيعة المقام ضمانا لتنفيذ الشروط •

أما السفسطائى الأنطاكى ، الذى كان يرقب فى غضب وسـخط صولجان بطله فى يد خليفة مسيحى ضعيف ، فقد جهر باعجابه باعتدال سابور وقبوله لمثل هذا الجزء الصـغير من الامبراطورية الرومانيـة • يقول ليبانيوس ان ملك الفرس ، لو أنه مد أطماعه الى نهر الفرات ، لكان من الأمور المؤكدة أن طلبه لن يقابل بالرفض ، ولو أنه قرر أن تكون حدود فارس هى أنهـار العاصى وكيدنوس وسنجاريوس ، بل وبسـفور تراقيـا . لما افتقر بلاط جوفيان الى بعض المتملقين الذين يستطيعون اقناع الملك الهياب بأن ما تبقى له من ولايات يمكن أن يشبع فيه شهوة السلطان والترف على أحسن ما يكون الاشباع • ولسنا نريد أن نقبل هذا التلميح الخبيث بكل ما يحمله من معنى غير أنه لا يسعنا الا الاعتراف بأن أطماع جوفيان الشخصية هى التى سهلت ابرام مثل تلك المعاهدة الشائنة • ذلك أن هذا الشخص المغمور الذى كان يعمل

حاجبا فى قصر الملك ثم ارتفع الى العرش لا عن جدارة فيه بل برمية من رميات الحظ ، كان يتحرق الى الخلاص من أيدي الفرس حتى يحبط خطط بروكوبيوس ، قائد جيش العراق ، ويوطد حكمه المزعزع على فرق الجيش والولايات التي كانت لا تزال تجهل ما حدث في معسكر ملك فارس وراء نهر دجلة ، وتسرع الامبراطور في قبول المعاهدة ، وما اقترن بذلك من هرج واضطراب ·

وفى منطقة النهر نفسه ، وعلى مسـافة ليست بالكبيرة من موقع مدينة ديورا Dura المشئومة ، تركت الفرقة اليونانية المكونة من عشرة آلاف رجل ، دون قائد ودون أدلاء ودون مؤن ، على بعد أكثر من ألف ومائتى ميل من وطنهم ، وظلت كذلك معرضة لما يوقعه بها ملك غاضب منتصر · غير أن سلوك هؤلاء الرجال ونجاحهم يرجع أساسا الى أخلاقهم أكثر مما يرجع الى حالتهم · فبدلا من أن يستسلموا فى خنوع وخوف الى المداولات السرية التى يقوم بها شخص واحد ، والى آرائه الخاصة ، فقد عقدوا فيما بينهم مجالس متحدة الكلمـة تستمد الهامها من طابع الاجتماع الشعبى الذى يمتلىء عقل كل مواطن فيه بحب المجد ، والزهو بالحرية واحتقار الموت · وكانوا يدركون أنهم متفوقون على البرابرة فى السلاح والنظام ، ومن ثم فقد استنكفوا الخضـوع ورفضوا الاستسلام وتغلبوا على كل عقبة بالصبر والشجاعة والمهارة العسكرية ، ونجحوا فى تقهقـرهم بصـورة أظهـرت ضعف الملكيـة الفارسـية ، وكانت سبة واهانة لها ·

وربما كان حريا بالامبراطور أن يشترط ، في مقـابل الامتيـازات الشائنة التى منحها للفرس ، أن يزود معسكر الرومان الجائعين بالوفير من المؤن ، وأن يسـمح له بعبور نهر دجلة على القنطرة التى بناهـا الفرس ، غير أن جوفيان لم يشترط شيئا من هذا ، واذا كان قد زعم أنه التمس هذه الشروط العادلة ، فقد رفضها فى جفاء وقسوة طاغيـة الشرق المتشامخ ، الذى دفعته رحمته الى الصـفح عن غزاة بـلاده · وكان العرب فى بعض الأحيان يعترضون سبيل المتخلفين من جيش الرومان ، غير أن قواد سابور وقوأته احترموا شروط ايقـاف القتـال ، وسمحوا لجوفيـان بأن يبحث عن أنسب مكان لعبور النهر ، وأدت أعظم خدمة للرومان تلك القوارب الصغيرة التى نجت من حريق الأسطول · فقد حملت أول ما حملت الامبراطور وبطانته ، ثم نقلت بعـد ذلك ، فى رحلات كثيرة متعاقبة ، جزءا كبيرا من الجيش · غير أن كل رجل كان يتحرق الى النجاة بنفسه ، ويخشى أن يتركه الجيش على شاطىء الأعداء ، ومن ثم فان الجنود الذين لم يكن لديهم من الصبر ما يعينهم على انتظار

عودة القوارب البطيئة ، غامروا في جرأة بالقاء أنفسهم على أطواف خفيفة أو على جلود منفوخة ، وسحبوا خيولهم وراءهم ، محاولين عبور النهر · ولم يكن النجاح نصيب الجميع فى تلك المحاولات ، فقد أبتلعت الأمواج كثيرا من هؤلاء المغامرين ، واندفع كثيرون غيرهم مع التيار العاتي بعيدا عن مواقعهم فوقعوا فريسة سهلة لجشع الأعراب الهمج أو لقسوتهم · ولم تكن خسارة الجيش في عملية عبور نهر دجلة أقل من خسارته في معركة يوم كامل · وبمجرد أن وصل الرومان الى شاطىء النهر الغربي · أصبحوا في مأمن من ملاحقة أعدائهم البرابرة ، غير أنهم قطعوا فى مسيرة مجهدة مسافة مائتى ميل عبر سهول العراق ، عانوا فيها أشد درجات الجوع والعطش · فقد اضطروا الى اختراق صحراء رملية لم يجدو في سبعين ميلا منها عودا واحدا من العشب الأخضر أو عينا واحدة من الماء العذب ، أما بقية البيداء القفراء الموحشة فقد كانت أرضا لم تطأها قدم عدو أو صديق · وعندما كان يكتشف في المعسكر قدر ضئيل من الدقيق ، كان الجنود يتكالبون على شرائه بعشر قطع من الذهب ولقد ذبحت دواب الحمل والتهم لحمها ، وتناثرت في الصحراء أسلحة جنود الرومان ، وأمتعتهم وكانت أرديتهم الممزقة المهلهلة ، ووجوههم النحيلة الشاحبة دليلا على آلامهم السابقة ومحنتهم الحالية · وقد تقدمت قافلة تحمل المؤن لمقابلة الجيش حتى بلغت قلعة أور Ur ، وكان ذلك اعلانا بالولاء من القائدين سيباستيان وبروكوبيوس ، ودليلا على عرفانهما بالجميل وفي مدينة تلثافاتا Thilsaphata ، تلطف الإمبراطور بمقابلة قواد العراق ، وفى نهاية المطاف هجعت الشراذم التى تبقت من جيش كان فى يوم من الأيام جيشا مظفرا تحت أسوار نصيبين ·

وكان رسل جوفيان قد أعلنوا بكلمات الزلفي والملق ما كان من أمر انتخابه ومعاهداته وعودته الى بلاده · وكان الملك الجديد قد اتخذ من الاجراءات أجداها وأقواها لضمان ولاء جيوش أوروبا وولاياتها ، وذلك بأن وضع القيادة العسكرية فى أيدي أولئك الضباط الذين يؤيدون قضية ولى نعمتهم ، مدفوعين الى ذلك بدافع من مصلحتهم أو من ميولهم ·

وكان أصدقاء الامبراطور جوليان قد أعلنوا فى ثقة نجاح حملته ، وأصبحوا يعللون النفس بأن معابد الآلهة سوف تزدان بغنائم الجيش من الشرق ، وأن مملكة فارس سوف تنحط مكانتها وتغدو ولاية تابعة تدين لقوانين روما ولحاكمها ، وأن البرابرة سوف يلبسون أزياء غزاتهم ويتكلمون لغتهم ويأخذون عاداتهم وطرائقهم ، وأن شباب سوسا واكباتانا سوف يدرسون فن البلاغة على أيدى أساتذة اليونان · وقد ترتب على تقدم جيوش جوليان أن انقطع اتصاله بالامبراطورية ، ومنذ اللحظة التى

عبر فيها نهر دجلة ، أصبح شعبه المخلص يجهل مصير مليكه وتقلبات حظه • ثم سرت اشاعة موته الحزينة فأزعجت صور الانتصارات الخيالية التي كانت تملأ عقولهم ، وأصروا على الشك في صحة ذلك الحدث المفجع بعد أن عجزوا عن تكذيبه أو انكاره • ثم جاء رسل جوفيان ليعلنوا القصة الملفقة التي تحكي أن الصلح كان أمرا ضروريا حكيما • غير أن صوت الأحداث التي وقعت ، وهو أعلى وأصدق من أصواتهم ، قد أماط اللثام عن خزي الامبراطور وعن شروط المعاهدة الشائنة • فامتلأت عقول الناس بالحزن والدهشة وبالسخط والفزع ، عندما علموا أن خليفة جوليان التافه الهزيل قد تخلى عن الولايات الخمس التي ظفر بها جاليريوس Galerius ، وأنه سلم الى البرابرة في خسة وعار مدينة نصيبين الهامة ، وهي أثبت حصن يحمي ولايات الشرق ، وانطلقت ألسنة الناس تسأل في حرية سؤالا خطيرا عويصا عن مدى وجوب التمسك بالعهد اذا ما تعارض ذلك مع الأمن القومي ، وراود الناس بعض الأمل في أن الامبراطور قد يصحح مسلكه الشائن بأن ينقض عهده مع ملك الفرس ، وهو عمل يعتبر عملا وطنيا • ولقد كان مجلس السناتو الروماني ، بروحه التي لا تنثني ولا تلين ، قد رفض الشروط غير المتكافئة التي أمليت على جيوش روما الأسيرة حين كانت في محنتها • واذا استلزم الأمر ، ارضاء للشرف القومي ، أن يسلم القائد المذنب الى أيدي البرابرة ، فان الجزء الأكبر من رعايا جوفيان كان في هذه الحالة يقبل في ارتياح اتباع السابقة التي كان معمولا بها في العصور القديمة •

غير أن الامبراطور ، رغم كل القيود المفروضة على سلطته الدستورية ، كان السيد المطلق لقوانين الدولة وجيوشها ، وكانت الدوافع التي أرغمته على توقيع معاهدة الصلح ، هي نفسها التي تدفعه الآن الى تنفيذها ، فلقد كان يتحرق شوقا الى ضمان حكم امبراطورية بأكملها على حساب عدد قليل من الولايات ، أما الألفاظ المبجلة التي كان يتشدق بها جوفيان ، من دين وشرف ، فلم تكن الا ستارا يخفي وراءه مخاوفه وأطماعه الشخصية • ورغم ما قدمه السكان الى الامبراطور من التماسات تليق بمقامه لكي يقيم في قصر نصيبين ، فان اللياقة والحكمة منعتاه من أن يفعل ذلك • غير أنه حدث في صباح اليوم التالي لوصوله الى المدينة أن دخل المدينة سفير الفرس بينسيس Benesis ، ورفع على القلعة علم الملك المعظم ، وأعلن باسمه أن السكان ليس أمامهم الا الطرد من المدينة أو الخضوع والاستكانة • أما كبار القوم في المدينة ، وكانوا حتى تلك اللحظة الحاسمة الخطيرة يثقون في قدرة مليكهم على حمايتهم ، فقد ارتموا تحت قدميه ، واستحلفوه ألا يتخلى عنهم ، أو على الأقل ،

ألا يسلم مستعمرة مخلصة الى طاغية بربرى ثائر يمتلىء قلبه غيظا وحنقا من جراء الهزائم الثلاث المتتالية التى منى بها تحت أسوار نصيبين ، وقالوا انهم ما زالوا يملكون الأسلحة والشجاعة التى تمكنهم من صد الغزاة عن بلادهم ، والتمسوا منه أن يسمح لهم فقط باستخدامهـا فى الدفاع عن أنفسهم وبمجرد أن يحققوا استقلالهم فانهم سوف يلتمسون منه أن يتعطف بقبـولهم ثانية فى عـداد رعاياه · غـير أن حججهم ، وفصاحتهم ، ودموعهم ، ذهبت جميعا أدراج الرياح ، وردد جوفيـان فى شيء من الارتباك أن العهود لها قدسيتها ، ثم قبل كارها تاجا من الذهب قدمه له المواطنون ، وكان هذا المسلك من جانبه دليلا أقنع المواطنين بأن موقفهم قد وصـــل الى حالة اليـأس ، الأمر الذى دفـــع المحامى سلفانوس الى مخاطبة الامبراطور قائلا : « مولاى الامبراطور ! انا لنرجو أن تتوج كما توجت الآن فى جميع مدائن ملكك » · أما جوفيان ، الذى اكتسب فى أسابيع قليلة عادات الملوك ، فقد كان لا يرتاح للحرية ويستاء من الحق ، ولما كان يعتقد أن تذمر الناس قد يدفعهم الى الخضوع للحكومة الفارسية ، وكان محقا فى اعتقاده هذا ، فقد أصدر مرسوما يحتم على الناس مغـادرة المدينة فى مدى ثلاثة أيام ، والا كان الموت نصيبهم · ولقد رسم اميانوس Ammianus صورة حية لمشهد اليأس الشـامل الذى يبـدو أنه شاهده بقلب يفيض شفقة ورثاء · فقد ترك الشبان المحاربون فى حزن مشفوع بالغضب والاحتقار أسوار المدينة التى طالما دافعوا عنها دفاعا مجيدا ، وسكب الحزانى المعذبون اليائسون دمعة أخيرة على قبور الأبناء والأزواج التى ستدنسها سريعا يد الحاكم البربرى ، وقبل المواطنون الطاعنون فى العمر أعتاب دورهم ، وتشبثوا بأبوابها ، تلك الدور التى قضوا فيها أوقات طفولتهم فى مرح ولهو · وازدحمت الطرقات بجماهير واجلة مرتجفة ، وزال وسط هذه الكارثة الشاملة كل تقدير للمركز أو الجنس أو العمر · وحاول كل انسان أن يحمل معه بقية من حطام متاعه ، ولما كانوا عاجزين عن الحصول مباشرة على العدد المناسب من الخيول أو العربات ، فقد اضطروا الى ترك الجزء الأكبر من ثمين مقتنياتهم ، ويبدو أن قسوة جوفيان الوحشية قد زادت محنة هؤلاء الشاردين · ورغم ذلك فقد خصص لاقامتهم حى جديد البناء من مدينة أميدا Amida · أما هــذه المدينة النامية ، فبعـد أن انضمت اليها ودعمتهـا

(★) قام جوفيان فى نصيبين بعمل من أعمال الملك · فقد كان هنـاك ضابط شجاع يحمل نفس الاسم ، وكان جديرا بأن يصبح ملكا · وأمر جوفيان بانتزاع هذا الضابط من مائدة عشائه ، وألقى به فى بئر ، ورجم بالحجارة حتى مات ، دون أية محاكمة ، ودون دليل على ارتكاب أى ذنب ·

مستعمرة كبيرة ، سرعان ما استعادت فخامتها القديمة وأصبحت عاصمة العراق . وقد أصدر الامبراطور أوامر أخرى باخلاء مدينة سنجار وقلعه المغاربة ورد الولايات الخمس الواقعة فيما وراء نهر دجلة . وتمتع سابور بمجد انتصاره وثمرته ، ويعتبر هذا الصلح الشائن المهين بحق فترة مشهودة فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها . لقد تخلى أجداد جوفيان فى بعض الأزمنة عن حكم ولايات نائية لا نفع منها ، غير أنه منذ تأسيس مدينة روما ، فان راعيها ، الاله ترمينوس Terminus ، الذى كان يذود عن حدود الجمهورية ، لم يتراجع قط أمام سيف عدو منتصر .

تأملات فى موت جوليان

بعد أن وفى جوفيان بتلك العهود التى كان من المحتمل أن يغريه صوت شعبه على الاخلال بها ، أسرع فى السير بعيدا عن مشهد خزيه وعاره ، وبدأ يتمتع هو وجميع حاشيته بحياة الترف فى أنطاكية . ولم يأبه بما يمليه الحماس الدينى ، بل ذهب ، بدافع من الانسانية وعرفان الجميل ، يودع رفات مليكه الراحل وداعه الأخير اجلالا وتكريما . أما بروكوبيوس ، الذى كان ينعى فى صدق واخلاص خسارة قريبه الراحل ، فقد أبعده الامبراطور عن قيادة الجيش ، مدعيا فى تبرير ذلك ادعاء مهذبا بأنه سوف يتولى تشييع الجنازة . ونقل جثمان جوليان من نصيبين الى طرسوس فى مسيرة بطيئة استغرقت خمسة عشر يوما ، وعندما كانت تمر فى مدن الشرق كانت تقابل من مختلف الأحزاب المعادية بالعويل والنحيب ، وبالاهانات الصاخبة . فالوثنيون رفعوا بطلهم المحبوب الى مصاف تلك الآلهة التى أعاد عبادتها ، بينما كان المسيحيون يشيعون باللعنات روح ذلك المرتد الى الجحيم ، وجثمانه الى القبر . فريق يرثى لما سوف يحيق بهياكله من خراب قريب ، وفريق يحتفل بخلاص الكنيسة ذلك الخلاص العجيب . ولقد هلل المسيحيون بأصوات عالية مهوشة لرمية الانتقام الالهى الذى ظل معلقا أمدا طويلا فوق رأس جوليان المذنب ، وقالوا ان موت الطاغية قد تجلى لقديسى مصر وسوريا وكبادوكيا فى اللحظة التى انتهت فيها حياته ، وصورت لهم جهالتهم أنه لم يمت بنبال الفرس ، وانما كان موته عملا بطوليا قامت به يد خفية من أيدى حماة العقيدة المسيحية ، وقد تكون يد انسان فان ، أو يد العناية الالهية الخالدة . وسرعان ما أخذ خصومهم بهذه الأقوال الحمقاء ، تصديقا لكلامهم أو حقدا عليهم ، وأخذوا يقولون فى غموض ، أو يؤكدون فى ثقة أن حكام الكنيسة هم الذين أثاروا على الامبراطور تعصب أحد رجال الحاشية ، وحرضوه على اغتياله . وبعد أكثر من ستة عشر عاما

من موت جوليان أثار ليبانيوس هذا الاتهام فى عنف وجدية ، فى خطاب عام وجهه الى الامبراطور ثيودوسيوس ، وان لم يدعم شكوكه هذه بحقائق أو حجج ، ونحن لا يســـعنا الا أن نقدر فى الســفسطائى الأنطاكى ، ليبانيوس ، ما كان يشعر به من حماس كريم نحو تلك الرفات الباردة المهملة التى تبقت من صديقه جوليان ٠

ولقد كان من عادات الرومان القديمة ، فى المآتم أو فى الاحتفالات بالنصر ، أن صـــوت الاطراء والمدح ينبغى أن يمتزج بشئ من القدح والسخرية ، وأنه فى ثنايا العرض الرائع لعظمة الأحياء أو الأموات ، ينبغى ألا تخفى نقائصهم عن أعين العالم ٠ ولقد روعيت هذه العادة فى مأتم جوليان ٠ فانبرى الممثلون الهزليون ، الذين كانوا يكرهون فيــه احتقاره ومقته للمسرح ، يعرضون أخطاء وحماقات الامبراطور الراحــل عرضا شائقا مبالغـا فيه ، ويلقون من جمهور النظارة المسيحيين تصفيقا واستحسانا ٠ وأصبحت شخصيته المتقلبة وعاداته العجيبة مجالا فسيحا للدعابة والسخرية ، فقيل عنه انه فى ممارسة مواهبة الفذة كثيرا ما نزل الى مرتبة دون جلال مركزه ، وأن شخصية الاســكندر الأكبر فيه قد تحولت الى شخصية الفيلسوف ديوجين ثم تدلى الفيلسوف الى مرتبـة قسيس ٠ وقيل أيضا ان نقاء فضيلته كان يشوبها غروره الزائد وان خرافاته أزعجت أمن الامبراطورية العاتية وهددت سلامتها ، وان نزواته الشاذة لم تتجه نحو كثير من التسامح ، اذ يبدو أنها كانت نزوات عقل خبيث ماكر ، أو قل نزوات مبعثهـا التحيز والمحاباة ٠ ودفن جثمـان جوليان فى طرسوس باقليم قيليقيا ، غير أن ضريحه الفخم الذى شيد فى تلك المدينة على ضفاف نهر كيدنوس (Cydnus) لم يرض أصدقاءه المخلصين الذين أحبوا ذلك الرجل غير العادى ٠ فالفلاسفة منهم كانوا محقين فى التعبير عن رغبتهم فى أن تلميذ أفلاطون كان جديرا بأن يرقد وسط الغابات المحيطة بالأكاديمية ، أما رجال الحرب فقد جهروا فى لغة أقوى بأن رفات جوليان كان ينبغى أن تختلط برفات قيصر فى ساحة مارس اله الحرب ، وبين الآثار القديمة التى تنطق بفضائل الرومان ، وذلك لأن تاريخ الملوك لا يجود كثيرا بمثل هذا المنافس الخطير ٠

عودة المسيحية إلى مكان الحظوة!

الفصل الخامس والعشرون
(٣٦٣ ـ ٣٨٤)

المسيحية فى عهد جوفيان

كان موت جوليان قد ترك شئون الامبراطورية العامة فى موقف خطير مبهم • فقد أنقذ الجيش الرومانى بمعاهدة مخجلة ، بل ربما كانت معاهدة أملتها الضرورة (١) ، وكرس جوفيان الورع الفترة الأولى من السلم لاعادة الهدوء الداخلى للكنيسة والدولة • ذلك أن سلفه جوليان ، بدلا من أن يهدىء الحرب الدينية ، فقد أذكى نارها بحماقته ومكره ، أما التوازن الذى اصطنع تحقيقه بين الأحزاب المتناجزة ، فلم يترتب عليه الا دوام الصراع بينها بدافع من الآمال والمخاوف التى كان يشعر بها المتنافسون ، الذين كان بعضهم يدعى لنفسه سيطرة قديمة ، بينما يدعى البعض الآخر حظوة حالية • وقد نسى المسيحيون روح الانجيل ، وتشرب الوثنيون بروح الكنيسة • وفى محيط الأسر الخاصة قضت ثورة الحماس والانتقام العمياء على المشاعر والأحاسيس الطبيعية ، أما جلال القوانين فقد انتهكت حرمته أو أسىء استغلاله ، ولطخت مدائن الشرق بالدماء ، وأصبح أعداء الرومان الألداء فى قلب البلاد • وقد تعلم جوفيان عقيدة المسيحية ، وعندما تقدم من نصيبين الى أنطاكية رفع علم الصليب (علم قسطنطين الامبراطورى) مرة ثانية على رأس قواته ، اعلانا منه للناس عن عقيدة امبراطورهم الجديد • وما أن ارتقى العرش حتى بعث برسالة دورية الى كل حكام ولاياته يعترف فيها بالحقيقة الالهية ويضمنها

---

(١) نياشين جوفيان تزينه بالانتصارات ، وأكاليل الغار ، والأسرى المنبطحين تحت أقدامه • والملق نوع من الانتحار الأحمق يدمر نفسه بيده •

الاقرار الشرعي بالديانة المسيحية ، ثم ألغى المراسيم الخبيثة التى أصدرها جوليان ، وأعاد الحصانات الكنسية ووسع نطاقها وتنازل بابداء أسفه على اضطراره الى تضييق نطاق احساناته بحكم المحنة التى تعرضت لها البلاد فى ذلك الوقت • وهلل المسيحيون جميعا تهليلا مخلصا مسموعا لخليفة جوليان التقى ، غير أنهم كانوا لا يزالون يجهلون نوع العقيدة الارثوذكسية التى سوف يعتنقها أو نوع المجمع الذى سوف يختار الانضمام الى مذهبه ، وسرعان ما اعتورت هدوء الكنيسة تلك النزاعات الحامية التى كانت قد توقفت خلال فترة الاضطهاد ، وسارع الزعماء الدينيون للطوائف المتناجزة الى بلاط اذاسا أو بلاط أنطاكية ، لأن التجربة علمتهم أن مصيرهم يتوقف الى حد كبير على أول الانطباعات التى يتأثر بها عقل جندى لم يصب من التعليم شيئا ، وازدحمت طرقات الشرق بالهوموجيين (الذين يقولون بمساواة الآب والابن فى الجوهر) وبالآريوسيين ، وأشباه الآريوسيين ، وأساقفة اليونوميين ، الذين كان ينافس بعضهم بعضا فى كسب ذلك السباق المقدس ، وكانت غرف القصر تردد صدى صخبهم وضجيجهم ويطرق آذان الملك خليط ، ربما دهش له ، من الحجج الميتافيزيقية والسباب الغاضب ، وكان جوفيان رجلا معتدلا ، فأوصاهم بالوفاق والبر والمحبة ونصح المتجادلين بانتظار حكم مجلس سوف يعقد فى المستقبل ، وفسر هذا الاعتدال من جانبه بأنه دليل على عدم اكتراثه ، غير أن جوليان كشف فى نهاية الأمر عن تعلقه بعقيدة نيقيا ، وأفصح عنها بالاحترام الذى أبداه لما كان يتحلى به أثناسيوس العظيم من فضائل « سماوية » • وكان جندى الدين المحنك . أثناسيوس ، الذى بلغ السبعين من عمره ، قد خرج من عزلته عندما بلغه أول نبأ عن موت الطاغية جوليان • وقد أجلسه ترحيب الشعب وتهليله مرة ثانية على عرش الأسقفية ، وتقبل ، أو توقع ، عن حكمة دعوة جوفيان • وكانت مهابة شخصه ، وشجاعته الهادئة الرزينة وفصاحته المقنعة ، عاملا دعم الشهرة التى كان قد بلغها فى بلاط أربعة ملوك متعاقبين • وما أن كسب ثقة الامبراطور المسيحي ، واستحوذ على ايمانه به ، حتى عاد مظفرا الى أسقفيته ، وظل يدير شئون الدين فى الاسكندرية ومصر ، وفى الكنيسة الكاثوليكية عشر سنوات تالية ، بمشورات ناضجة وهمة لم يلحقها وهن • وقبل أن يرحل عن أنطاكية أكد لجوفيان أن ولاءه الأرثوذكسى سوف يكافأ عليه بحكم طويل تظلله السكينة والهدوء ، وكان أثناسيوس محقا فى أن يتوقع واحدا من أمرين ، فاما أن يكون له فضل النبوءة الصادقة ، أو يكون عذره فى دعوات شكر وامتنان لم تستجب •

***

مات جوفيان بعد حكم لم يدم أكثر من ثمانية شهور • وجاء بعده الامبراطور فالنتينيان الذى أشرك معه أخاه فالنز Valens ، وأصبحت الولايات الغربية والشرقية على هذا النحو مقسمة بصورة رسمية • وأقر فالنتينيان التسامح الدينى فى الغرب ، بينما اعتنق فالنز المذهب الآريوسى فى الشرق •

وكان ضغط البرابرة يشتد على مختلف الحدود ، الألمان والبرجنديون فى بلاد الغال ، والبكتيون ، والاسكتلنديون فى بريطانيا ، والقوط والسرماشيون Sarmatians على نهر الدانوب • وكانت قبائل الهون Huns تدفع تلك الشعوب أمامها ، ونتيجة لهذا الضغط سمح لقبائل القوط الغربيين باستيطان اقليم الدانوب ، غير أنهم ثاروا هناك وهددوا القسطنطينية • وقابلهم فالنز فى أدرنة ، ولكنه هزم وقتل فى معركة حاسمة أكدت فيها تكتيكات القتال تفوق الفرسان على المشاة تفوقا دام حتى موقعة كريسى Crecy وألحق برجال الجيش الرومانى وبمكانته خسارة لم يفق منها أبدا •

ووسط الكوارث العامة التى تلت ذلك ارتقى ثيودوسيوس عرش امبراطورية الشرق وكان هذا الحدث نقطة تحول فى الحكم الدنيوى والحكم الدينى • فقد هزم القوط ، وعقد معهم معاهدات ، تضمنت رغم ذلك استيطانات أخرى داخل الامبراطورية ، ثم حصل على لقب « ثيودوسيوس العظيم » باقراره مذهب الأرثوذكسية الكاثوليكية وبعد موت جراشيان وفالنتينيان الثانى ، ومغتصب للعرش اسمه يوجينيوس Eugenius أصبح الحاكم الأخير الأوحد للامبراطورية فى الغرب وفى الشرق •

كل هذه الأحداث ورد ذكرها فى بقية هذا الفصل وفى الفصل ٢٦ (١) •

---

(١) ناقش جيبون نشأة قبائل الهون فى الفصل ٢٦ ، غير أن نشأتهم هذه لا تزال غامضة • وأحسن وصف حديث لها هو ما ورد فى كتاب E. A. Thompson وعنوانه : Attila and the Huns (١٩٤٨)

الفصل السابع والعشرون
(٣٧٤ ـ ٣٩٧)

امبروز أسقف ميــلان • فضائل ثيودوسيــوس وأخطاؤه • فتنة انطاكيا ومذبحــة سالونيك • توبة ثيودوســيوس • شخصية فالنتينيان وموته • موت ثيودوسيوس

ظلت القسطنطينية أربعين عاما حصنا للمذهب الآريوسى • وكان ثيودوسيوس أول امبراطور يعمد على مذهب التثليث الأرثوذكسى • وفى ســـنة ٣٨٠ عين أســقف أرثوذكسى اســـمه جريجورى نازيانزن فى القسطنطينية ، وأبعد المذهب الآريوسى عن الشرق وفى مجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٣٨١ اكتمل مذهب التثليث اللاهوتى الذى كان قد اقره مجمع نيقيا • وبين ٣٨٠ ، ٣٩٤ أصدر ثيودوسيوس عدة مراسيم صارمة ضد الهراطقة •

وفى خلال تلك الفترة كان تراخى جراشيان ، امبراطور الغرب ، قد أثار التذمر بين القوات الرومانية • وثار عليه مكسيموس فى بريطانيا وقاد ضـــده حملة هزمته بالقرب من ليون قبل أن يخف ثيودوسيوس لنجدته • ثم اغتيل جراشيان وعقد ثيودوسيوس تحالفا مع مكسيموس أصبح مكسيموس بمقتضـاه حاكما للأقاليم الواقعة فيما وراء الألب ، وثبت فالنتينيان ملكا على ايطاليا •

« امبروز » اسقف ميلان

من بين رجال الدين الذين ازدان بهم عهد ثيودوســـيوس تميز جريجورى نازيانزن بمواهب الواعظ صاحب البيان ، أما مارتن أسقف مدينة تور فقد اشتهر بأنه أوتى القدرة على عمل المعجزات ، وقد أضاف ذلك وزنا وعزة الى فضائله الرهبانية • أما الأسقف الجرىء امبروز ، فقد حق له أن يدعى لنفسه شرف القوة والقدرة على الاضطلاع بالشئون

الكنسية · وكان سليل أسرة رومانية نبيلة ، وقد تولى والده منصبا خطيرا هو منصب الوالى البريتورى لاقليم الغال · أما الابن ، فبعد أن أتم دراسات الفنون الحرة ، وتدرج فى المناصب المدنية وصل الى منصب قنصل ليجوريا Liguria ، وهى ولاية كان يقوم فيها قصر ميلان الامبراطورى ، وفى الرابعة والثلاثين من عمره ، وقبل أن ينال سر المعمودية ، نقل من منصب الحاكم الى منصب الأسقف ، وكان ذلك مفاجأة له ومفاجأة للعالم · وقد حياه الشعب بأسره بلقب الأسقفية دون أن يكون فى الأمر أى مزيج من الدهاء أو الدس ، كما يقولون ، بل نسب اتفاق الناس واصرارهم على هذا الترحيب الى دافع فوق الطبيعى ، واضطر الحاكم كارها الى قبول منصب روحى لم يكن مهيأ له بحكم ما اعتاد فى حياته السابقة وبحكم المهن التى باشرها · غير أن عبقريته القوية الوثابة سرعان ما أهلته لأن يباشر ، فى حماس وفطنة ، مهام اختصاصاته الكنسية ، وبينما نبذ فى سرور وفرح زخارف العظمة الدنيوية الفخمة الباطلة ، فقد تكرم ، من أجل خير الكنيسة ، بتوجيه ضمير الأباطرة والتحكم فى ادارة الامبراطورية · وكان جراشيان يحبه ويحترمه كوالده ، وقد قصد الأسقف بالرسالة المتقنة التى كتبها عن عقيدة التثليث أن تكون درسا للملك الشاب · وبعد فاجعة موت جراشيان ، وعندما كانت الامبراطورة جستينا Justina ترتعد خوفا على سلامتها وعلى سلامة ابنها فالنتينيان Valentinian أوفد أسقف ميلان فى مهمتين مختلفتين الى بلاد تريفز Treves · واستخدم الأسقف هناك ما لشخصيته الروحية ولشخصيته السياسية من سلطات فى حزم ولباقة متساويين ، ومن الجائز أنه أسهم بنفوذه وفصاحته فى صد أطماع مكسيموس وحماية سلام ايطاليا · وقد كرس أمبروز حياته وقدراته لخدمة الكنيسة ، وكانت الثروة موضع احتقاره ، فنبذ الميراث الخاص الذى ورثه عن أبيه ، وباع الأوانى المقدسة دون تردد ليفدى بثمنها الأسرى · ولقد تعلق الشعب ورجال الدين فى ميلان بأسقفهم ، واستحق هذا الرجل تقدير ملوكه الضعفاء ، دون أن يلتمس حظوتهم أو يخشى غضبهم ·

ومن الطبيعى أن انتقل الى جستينا ، والدة الامبراطور ، حكم ايطاليا وحكم الامبراطور الشاب · وكانت جستينا امرأة ذات جمال وهمة ، ولكنها كانت لسوء حظها تدين بالهرطقة الآريوسية وسط شعب أرثوذكسى · وحاولت غرس عقيدتها فى عقل ابنها · وكانت جستينا مقتنعة بأن للامبراطور الرومانى أن يتطلب من الشعب فى محيط ملكه ممارسة ديانته ، واقترحت على الأسقف أمبروز أن يقبل تنازلا معتدلا وهو أن يتنازل لها عن استخدام كنيسة واحدة ، اما فى مدينة ميلان أو فى ضواحيها · غير أن سلوك أمبروز كان خاضعا لمبادىء أخرى تختلف

عن ذلك كل الاختلاف ، فقصور الأرض يمكن فى الحق أن تكون من شأن قيصر ، غير أن الكنائس هى بيوت الله ، وبوصف كونه الخليفة الشرعى للرسل ، فانه فى حدود أسقفيته ينبغى أن يكون النائب الأوحد عن الله • وكان يرى أن امتيازات المسيحية ، دنيوية أو روحية ، تقتصر على المؤمنين الصادقين ، وكان عقله مقتنعا بأن آراءه اللاهوتية الخاصة هى معيار الحق والأرثوذكسية (صحة المعتقد) • ولقد أبى الأسقف أن يعقد أية مداولة أو مفاوضـــة مع عملاء الشيطان ، وأعلن فى حزم متواضـــع أنه يعتزم الموت شهيدا! ولا ينحنى أمام الرجس والدنس • أما جستينا فقد ساءها رفض الأسقف واعتبرته وقاحة وتمردا ، ومن ثم فقد قررت فى عجلة أن تستخدم حقوق ابنها الامبراطورية • ولما كانت راغبة فى أداء الصلوات العامة فى يوم عيد القيامة ، فقد أمرت أمبروز بأن يمثل أمام المجلس ، وأطاع الأسقف هذا الأمر بالاحترام الواجب على فرد مخلص من أفراد الرعية ، غـير أن جمهـورا كبيرا من الناس سار وراءه ، دون موافقته واندفعوا فى حماس عنيف الى أبواب القصر • ولهذا فان وزراء فالنتينيان ، الذين تولاهم الهلع ، لم يستطيعوا اصدار حكم بالنفى على أسقف ميلان ، بل التمسوا منه فى خشوع وذلة أن يتوسط بنفوذه لحماية شخص الامبراطور واعادة الهدوء الى العاصمة • غير أن الوعود التى تلقاها أمبروز ثم أذاعها على الناس ، سرعان ما نقضها البلاط الغادر ، وخلال ستة من أقدس الأيام التى خصصها المسيحيون الأتقياء لممارسة شعائر الدين ، كانت المدينة فى حالة اضطراب من جراء هزات الشغب والتحمس الدينى التى اعتورتها • وصدر الأمر الى ضباط القصر بأن يجهزوا كنيسة « بورشـــيا » أولا ثم الكنيســـة الجديدة (The New Basilica) لاستقبال الامبراطور وأمه على الفور • ونظم المقعد الملكي بمظلته وستائره على الطريقة المعتـــادة ، غير أنه كان من الضرورى حمايته من تهجم الجمهور واهانته بحرس قوى • أما رجال الدين من الآريوسيين الذين تجاسروا على الظهور فى شوارع المدينة فقد تعرضت حياتهم لأشد الأخطار ، وكسب الأسقف الفضل وحسن السمعة لأنه حمى أعداءه من أيدى الجمهور الثائر •

ورغم أن الأسقف كان يعمل جاهدا على كبح جماح حماس الشعب ، الا أن الحرارة العاطفية التى اتسمت بها عظاته كانت تلهب مشاعر شعب ميلاد الغاضب المتمرد • ونعتت أم الامبراطور فى بذاءة بأنها مثل حواء ، ومثل زوجة أيوب ، ومثل ايزابيل ، ومثل هيروديا ، ووصفت رغبتها فى اقامة كنيسة للآريوسيين بأنها لا تقل عن أقسى الاضطهادات التى عانتها الكنيسة تحت حكم الوثنيين ، ولم يكن للاجراءات التى اتخذها البلاط

من جدوى اللهم الا أنها كشفت عن جسامة الاثم · وفرضت غرامة قدرها مائتان من الجنيهات الذهبية على جمهور التجار والصناع مجتمعين ، وصدر أمر باسم الامبراطور الى كل موظفى دور القضاء والقائمين على خدمتها بألا يغادروا منازلهم مطلقا طوال فترة الاضطرابات العامة : واعترف وزراء فالنتينيان دون حرص بأن أكثر مواطنى ميلان احتراما ، يؤيدون قضية أسقفهم · ثم التمسوا منه مرة ثانية أن يعيد الهدوء الى بلاده بأن يلبى مشيئة مليكه بصورة مؤقتة · وقد أجاب أمبروز على ذلك باجابة غلفها فى أكثر العبارات تواضعا واحتراما ومع ذلك فقد كانت عبارات يمكن اعتبارها اعلانا خطيرا بحرب أهلية · قال الأسقف : « ان حياته ومصيره فى يد الامبراطور ، ولكنه لن يخون أبدا كنيسة المسيح ، أو يحط من كرامة الشخصية الأسقفية · وأنه فى مثل هذه القضية على اســتعداد لتحمل ما يستطيع حقد الشيطان أن يوقعه به ، وانه لا يرغب فى أكثر من أن يموت بين رعيته الأمينة ، وأمام المذبح · وقال انه لم يكن « هو الذى أثار غضب الشعب ، وأن الله وحده هو الذى فى مقدوره أن يهدىء ذلك الغضب ، وأضاف أنه يستعيذ بالله من مشاهد الدم والفوضى التى يمكن أن تحدث وأنه يدعو فى صلواته الحارة ألا يعيش ليشهد خراب مدينة مزدهرة ، وربما دمار ايطاليـــا بأسرهـــا » · وكان من الممكن أن يؤدى التعصب العنيد الذى اتصفت به جستينا الى تعريض امبراطورية ابنها للخطر ، لو أنها استطاعت أن تعتمد فى صراعها هذا مع الكنيسة وأهل ميلان على طاعة قوات القصر طاعة ايجابية · وسار عدد كبير من جنود القوط لاحتلال كنيســـة البازيليكا الجـــديدة ، وهى التى كانت هدف النزاع · وكان المتوقع من المبادىء الآريوسية التى كان يعتنقها هؤلاء المرتزقة الأجانب ، ومن طرائقهم الهمجية أنهم لن يتورعوا عن تنفيذ أشد الأوامر الدموية · غير أن الأسقف قابلهم على العتبة المقدسة وأصـــدر عليهم فى صوت كالرعد حكما بالحرمان من عضوية الكنيسة ، وسألهم فى لهجة الوالد والسيد ما اذا كانوا قد التمسوا أن تظللهم الجمهورية بحمايتها الكريمة لكى يقتحموا بيت الله ؟ وأتاح توقف البرابرة بضع ساعات من الوقت لمفاوضة أجرى ، وتلقت الامبراطورة نصحا من أعقل مستشاريها بأن تترك كل كنائس ميلان فى حوزة الكاثوليك ، وبأن تغض الطرف وتخفى نوايا انتقامها حتى تواتيها فرصة أنسب · ولم تستطع أم فالنتينيان أن تصفح عن انتصار أمبروز ، أما الملك الشاب فقد أبدى عجبه قائلا فى انفعال ان خدمه كانوا على استعداد لخيانته ودفعه الى أيدى قسيس وقح ·

وكانت قوانين الامبراطورية ، التى كان بعضهـــا مبصوما باسم فالنتينيان ، لا تزال تدين الهرطقة الآريوسية ، وتبرر مقاومة الكاثوليك • ولهذا استخدمت الامبراطورة جستينا نفوذها واستصدرت مرسوما يقضي بالتسامح ، وجه الى كل الولايات الخاضعة لبلاط ميلان ومنح بمقتضاه كل معتنقي عقيدة ريمني The Faith of Rimini حق ممارسة دينهم وأعلن الامبراطور أن كل من يخرقون ذلك الدستور المقدس السليم ســوف يعتبرون أعداء للأمن العام ، وتوقع عليهم العقوبة العظمى • وجدير بالذكر أن أخلاق أسقف ميلان ولغته قد تبرر الشك فى أن مسلكه سرعان ما هيأ سندا معقولا ، أو على الأقل مبررا ظاهريا للوزراء الآريوسيين ، الذين كانوا يرقبون الفرصة لمفاجأته متلبسا بعصيان قانون كان غريبا منه أن يصفه بأنه قانون دموى طغياني • فصدر عليه حكم لين شريف بالنفى ، يفرض عليه أن يغادر ميلان دون ابطاء ، ويسمح له باختيار منفاه وعدد رفاقه • غير أن سلطة رجال الدين ، وهم الذين كانوا يعظون بمبادىء الولاء السلبى ويمارسونها ، كانت تبدو فى نظر أمبروز أقل أهمية من ذلك الخطر الهائل الملح الذى كان يهدد الكنيسة • ومن ثم فقد رفض فى جرأة أن يطيع الأمر ، ولقى فى هذا الرفض تأييدا اجماعيا من شعبه المخلص وتولى هذا الشعب حماية شخص الأسقف بالتناوب ، وحصنت أبواب الكاتدرائيــة والقصر الأسقفي تحصـينا قـويا ، وكانت القوات الامبراطورية التى تولت الحصار غير راغبة فى مهاجمة ذلك الحصن المنيع • أما الفقراء الذين كان أمبروز يغدق عليهم الخيرات ، فقد رحبوا بتلك الفرصة المواتية لاظهار حماسهم وامتنانهم • ولما خشى الأسقف احتمال نفاد صبر الجمـاهير من طول الســهر الليلى ووتيرته ، هدته حكمته الى أن يأخذ فى كنيسة ميلان بنظام كان له نفعه فى ذلك الوقت ، وهو أن تنشد الجماهير المزامير بصوت مسموع وبصورة منتظمة ، وبينما كان يواصل صراعه الشاق المضنى ، تلقى توجيها فى أحد أحلامه بأن يحفر الأرض فى مكان كانت قد دفنت فيه منذ أكثر من ثلاثمائة عام رفات شهيدين هما جرفاسيوس ، وبروتاسيوس • وما أن حفرت الأرض تحت أرضية الكنيسة حتى عثر على هيكلين آدميين كاملين ، فصلت رأساهما عن جسديهما ، وكانا غارقين فى الدماء • ثم عرضت تلك البقايا المقدسة فى جلال مهيب على الشعب الخاضع ، واستخدمت كل واقعة من وقائع ذلك الاكتشاف السعيد بطريقة تدعو الى الاعجاب لخدمة مخططات أمبروز • فقيل ان عظام الشهيدين ، ودماءهما ، وملابسهما لها القدرة على الشفاء من الأمراض ، وأن هذا التأثير الخارق للطبيعة يمكن أن يصل الى أبعد الأشياء دون أن يفقد أى جزء من ميزته الأصلية • وحدث أن رجلا أعمى استرد بصره بصورة غير عادية ، وشفى بعض أناس كان بهم مس من

الجن وانتزعت منهم اعترافات بذلك ، كل أولئك يبدو أنه أيد ايمان وقدسية أمبروز • وقد شهد أمبروز بصحة تلك المعجزات ، كما شهد بها أمين سره بولينوس ورجل آخر اهتدى على يديه ، هو أوغسطين الشهير الذى كان اذ ذاك يعلم فن البلاغة فى ميلان ـ ومن الجائز أن عقلية العصر الحاضر تؤيد الامبراطورة جستينا وبلاطها الآريوسى فى عدم تصديقهم لتلك الأحداث ، وفى سخريتهم من تلك الصور التمثيلية التى عرضت على الناس بفضل تحايل الأسقف ، ولحسابه • غير أن تأثير تلك الأحداث على عقول الناس كان سريعا لا يقاوم ، فوجد عاهل ايطاليا الضعيف نفسه عاجزا عن منازعة ولى الله • وكذلك توسطت قوى الأرض فى الدفاع عن أمبروز ، فتقدم ثيودوسيوس الى الامبراطور بنصيحة خالية من الأغراض ، وكانت نصيحته خالصة لتقواه وصداقته ، أما طاغية بلاد الغال فقد أخفى مقاصده العدوانية الطموحة تحت ستار من الغيرة الدينية•



وغزا مكسيموس ايطاليا فى سنة ٣٨٧ • وفر الامبراطور فالنتينيان وأمه الى ثيودوسيوس فى سالونيك • وتزوج ثيودوسيوس من شقيقة الامبراطور ، وأنهى الحرب الأهلية بهزيمة مكسيموس وقطع رقبته •

فضائل ثيودوسيوس وعيوبه

ان الخطيب الذى فى مقدوره أن يصمت دون التعرض للخطر ، يستطيع أن يكيل المدح طواعية وفى غير صعوبة • ولسوف تعترف الأجيال القادمة بأن أخلاق ثيودوسيوس يمكن أن تكون موضعا لاطراء صادق كثير • فلقد تمكن بحكمة قوانينه ونجاح جيوشه من أن يجعل حكمه مبجلا فى أعين رعاياه وأعدائه • وكان يحب فضائل الحياة المنزلية ويمارسها ، وهذا شىء قلما يكون له وجود فى قصور الملك • وكان ثيودوسيوس معتدلا عفيفا ، يمتع نفسه فى غير اسراف بملذات المائدة ، حسية واجتماعية ، ولم تنحرف عواطف حبه الحارة عن أهدافها الشرعية • وكانت صفاته الوديعة ، كزوج مخلص ووالد غفور ، زينة تزدان بها ألقاب عظمته الامبراطورية السامية • وارتفع عمه بفضل حبه له وتقديره اياه الى مرتبة والده • وكان يحتضن أبناء أخيه وأبناء أخته كأولاده سواء بسواء ، وامتدت أيادى عطفه الى أبعد أقاربه العديدين وأقلهم مقاما وظهورا • وكان يختار أصدقاءه المقربين فى حكمه من بين أولئك الذين يظهرون أمام عينيه دون قناع فى اتصالات الحياة الخاصة المتكافئة •

ومكنه شعوره بقيمة الفضائل الشخصية وسموها من ازدراء الرفعة الملكية العابرة ، وأثبت بمسلكه أنه نسى كل الاساءات التى لحقت به قبل ارتقائه عرش الامبراطورية الرومانية ، وتذكر بأكثر الامتنان كل أفضال الناس عليه وخدماتهم له وكان يجد أو يتبسط فى حديثه حسبما يلائم أفراد الرعية الذين يأذن لهم بحضور مجتمعه ، سنا ومقاما وخلقا ، وكانت بشاشته فى معاملة الناس صورة لعقله · وكان ثيودوسيوس يحترم بساطة الخيرين والفضلاء ، ويكافىء فى سخاء حريص كل فن وكل موهبة من الفنون والمواهب النافعة ، بل والساذجة · وفيما عدا الهراطقة الذين اضطهدهم فى كراهية عنيدة ، فان دائرة احسانه الواسعة لم يكن لها من حدود الا حدود الجنس البشرى بأكمله · ولا شك فى أن حكم امبراطورية عظيمة لا بد أن يكفى لشغل وقت رجل من البشر واستنفاد قدراته ، غير أن ذلك الملك المثابر المجد كان يخصص دائما بعض لحظات فراغه للقراءة كتسلية تثقيفية ، دون أن يتطلع الى شهرة العلم العميق التى لا تلائمه · وكان التاريخ دراسته المفضلة لأنه الطريق الى توسيع تجاربه ، ومن ثم فان حوليات روما عبر فترة طويلة قدرها ألف ومائة من السنين كانت ترسم أمامه صورة رائعة منوعة الأشكال للحياة الانسانية وقد لوحظ عليه بصفة خاصة أنه كلما كان يتابع أعمال القسوة التى أتاها سنا Cinna أو ماريوس Marius أو سللا Sylla ، كان يعبر فى حماس عن مقته الشديد لأعداء الانسانية والحرية هؤلاء · وكان يكون رأيه عن الأحداث الماضية فى غير تحيز أو محاباة ، وينتفع من آرائه تلك بتطبيقها كقاعدة لأعماله وتصرفاته ، واستحق ذلك الاطراء العجيب لأن فضائله كانت تنمو وتتزايد كلما ازداد توفيقا ، وأن تواضعه واعتداله كانا يتمشيان مع ازدهاره ونجاحه ، وأن تسامحه كان أبرز ما يكون بعد فوزه فى الحرب الأهلية وزوال خطرها · ولقد حدث أن ذبح حراس الطاغية من المغاربة فى حدة النصر الأولى ، كما أن عددا قليلا من المجرمين الممقوتين وقعوا تحت طائلة القانون ونالوا عقابهم ، غير أن الامبراطور اهتم باغاثة الأبرياء أكثر من اهتمامه بمعاقبة المذنبين · ولشد ما كانت دهشة الرعايا المظلومين فى « الغرب » ، الذين كان يمكن أن يعدوا أنفسهم سعداء لو أنهم استردوا أراضيهم ، عندما تلقى كل منهم مبلغا من المال يعادل ما لحق به من خسارة · كما أن سخاء الامبراطور الفاتح ، ثيودوسيوس ، امتد الى أسرة عدوه مكسيموس ، فأعان أمه العجوز وتولى تعليم بناته اليتامى · ولا شك فى أن مثل هذه الشخصية الكاملة المهذبة يمكن أن تبرر المغالاة التى ذهب اليها الخطيب باكاتوس Pacatus عندما افترض أن بروتس الأكبر ، وهو الجمهورى العنيد ، لو أنه استطاع أن يعود الى الدنيا مرة ثانية ، لنبذ تحت أقدام ثيودوسيوس كراهيته للملوك ،

ولاعترف صادقا بأن مثل ذلك الملك هو أخلص من يحمي سعادة الشعب الزوماني ويحفظ له عزته وكرامته ·

غير أن مؤسس الجمهورية هذا (بروتيس) لابد أنه كان يستطيع ببصره النافذ أن يتميز في شخصي ثيودوسيوس نقيصتين رئيسيتين ربما خففتا من حبه الحديث للحكم المطلق · ذلك أن عقلية ثيودوسيوس الفاضلة كثيرا ما كان ينتابها الكسل والتراخي ، كما كانت تلتهب بالغضب والانفعال في بعض الأحيان · وعندما كان يتابع هدفا هاما كانت همته النشيطة تمكنه من بذل أشد الجهود وأعظمها ، غير أن ذلك البطل ، بمجرد أن كان يحقق الخطة أو يتغلب على الخطر ، كان يهبط الى استرخاء معيب ، وينصرف الى الاستمتاع بملذات بريئة ولكنها تافهة من تلك الملذات التي تتهيأ له في جو الترف السائد في بلاطه الملكي ، ناسيا أن وقت الملك هو ملك للشعب · وكان ثيودوسيوس بطبيعته عجولا غضوبا ، وهناك من المواقف ما كان لا يستطيع أحد فيها أن يقاوم نتائج سخطه الخطيرة ، كما أن قلة من الناس كانت تستطيع أن تثنيه عن الوصول الى تلك النتائج ، غير أن الملك الرحيم كان في تلك المواقف ينزعج بحق من شعوره بضعفه وبقوته · وكانت دراسة حياته المستمرة تتجه الى كبح أو تعديل الشاذ من نزوات الغضب والانفعال ، وكان نجاحه في ذلك عاملا في رفع قيمة تسامحه وحلمه · غير أن الفضيلة التى يثابر عليها المرء ، والتى من حقها أن تنال ميزة النصر والظفر ، تتعرض لخطر الهزيمة ، فقد تلوث عهد ذلك الملك الحكيم الرحوم بعمل من أعمال القسوة كفيل بأن يصم سيرة نيرون أو دوميتيان · ومن ثم فان من يؤرخ لعهد ثيودوسيوس خلال فترة ثلاث سنوات لابد أن يكون متناقضا ، اذ عليه أن يروى قصة العفو الكريم الذى منحه لمواطنى أنطاكيا ، وقصة المذبحة الوحشية التى تعرض لها أهل سالونيك ·

فتنة انطاكيا

كان أهل أنطاكيا فى حالة من القلق الشديد لم تسمح لهم أبدا بالرضا عن حالهم أو عن أخلاق وسلوك من تعاقبوا عليهم من الملوك · فكان رعايا أثناسيوس من الآريوسيين ينعون فقدانهم لكنائسهم ، ونظرا لأن ثلاثة أساقفة متنافسين كانوا يتنازعون كرسي أنطاكيا ، فان الحكم الذى فصل فى دعاواهم أثار تذمر المجمعين الآخرين اللذين لم يصيبا نجاحا · وكانت ضرورات الحرب القوطية والنفقات الحتمية التى لازمت توقيع الصلح قد أرغمت الامبراطور على زيادة أعباء الضرائب العامة ، ونظرا لأن ولايات آسيا لم تشترك فى تلك المحنة ، فانها كانت أقل ميلا الى

المساهمة في اغاثة آوربا · وكانت الفترة الميمونة من حكم ثيودوسيوس قد اقتربت من السنة العاشرة وهي مناسبة سعد بها الجنود الذين منحوا مكافآت سخية أكثر مما سعد بها أفراد الرعية الذين تحولت هباتهم الاختيارية منذ فترة طويلة الى حمل ثقيل غير عادى · ثم جاءت مراسيم الضرائب فقطعت على أنطاكيا راحتها وملذاتها ، فأحاط جمهور مسترحم من الناس بدار القضاء التى كانت مقرا للحاكم ، والتمسوا منه رفع الظلم عنهم فى لغة مؤثرة راعوا فيها الاحترام فى بادئ الأمر ثم اشتعل غضبهم شيئا فشيئا من جراء كبرياء وتعالى حكامهم الذين اعتبروا شكواهم من قبيل المقاومة الاجرامية ، فانحط أسلوبهم الساخر الى تقريع لاذع غاضب ، وجاوز التقريع سلطات الحكومة الدنيا الى مهاجمة شخص الامبراطور المقدس نفسه · ثم انفجر غضبهم ، الذى أثارته مقاومة ضعيفة وانصب على تماثيل الأسرة الامبراطورية التى كانت مقامة فى أبرز أماكن المدينة لتكون قبلة احترام الشعب وتبجيله · وهاجم الناس تماثيل ثيودوسيوس ، وأبيه ، وزوجته فلاكيللا Flacilla وولديه أركاديوس وأونوريوس ، ثم قذفوا بها من فوق قواعدها بصورة معيبة ، وحطموها قطعا ، أو جروها بازدراء فى شوارع المدينة ، وكانت الاهانات التى وجهت الى الصور التى تمثل الجلالة الامبراطورية اعلانا كافيا عما كان يجيش به صدر الشعب من رغبات الخيانة والكفر · غير أن هذا التمرد سرعان ما قمع بوصول قوات من رماة السهام ، وأتيحت لأنطاكيا فسحة من الوقت للتدبر فى طبيعة جرمها ونتائجه · وأرسل الحاكم الى الامبراطور ، بمقتضى ما يمليه عليه واجب منصبه ، وصفا أمينا لكل ما حدث ، أما المواطنون الذين تولاهم الهلع ، فقد استودعوا الاعتراف بجرمهم وتأكيد ندمهم غيرة أسقفهم فلافيان ، وفصاحة عضو السناتو هيلاريوس الذى كان صديق ليبانيوس ، ومن أرجح الأمور أنه كان تلميذه · ولا شك فى أن عبقرية ذلك الرجل فى ذلك الظرف المحزن لم تكن عديمة الجدوى · غير أن العاصمتين ، أنطاكيا والقسطنطينية ، كانت تفصل بينهما مسافة ثمانمائة ميل ، ورغم سرعة البريد الامبراطورى ، فقد عوقبت المدينة المذنبة عقابا شديدا بتعرضها لفترة طويلة رهيبة من الانتظار والترقب · وكانت كل اشاعة تثير آمال ومخاوف أهل أنطاكيا ومن بين ما سمعوه فى فزع ورهبة أن مليكهم قد استشاط غضبا للاهانة التى لحقت بتماثيله ، وبتماثيل زوجته الحبيبة بنوع خاص ، وأنه لذلك قد عزم على تدمير المدينة تدميرا شاملا كاملا ، وعلى ذبح سكانها المجرمين دون تمييز للعمر والجنس ، وقد دفع الخوف كثيرا منهم الى الفرار واللجوء الى جبال سوريا والصحراء المجاورة · وأخيرا ، وبعد

مرور أربعة وعشرين يوما على حدوث الفتنة ، أعلن القائد هللبيكوس Hellebicus ورئيس الديوان سيزاريوس ، مشيئة الامبراطور وحكمه • وبمقتضى ذلك الحكم أنزلت تلك العاصمة الشامخة من مرتبة المدينة ، وجردت قصبة الشرق من أراضيها ، وامتيازاتها ، وموارد دخلها ، وأطلق عليها اسم القرية ، اذلالا لها ، ثم أتبعت فى ادارتها الى مدينة لاوديكية Laodicia (اللاذقية) وأغلقت الحمامات والسيرك والملاهى ، وألغى توزيع القمح بتعليمات مشددة من ثيودوسيوس لكى يقطع الامبراطور عن المدينة فى الوقت نفسه كل مورد للوفرة والمتعة • ثم بدأ مندوبوه التحقيق فى جرم الأفراد لمعرفة أولئك الذين ارتكبوا جرم تحطيم التماثيل المقدسة ، وأولئك الذين لم يحولوا دون ارتكابها وأقيمت محكمة هللبيكوس وسيزاريوس وسط ساحة السوق The Forum ، وأحيطت بالجنود المسلحين • ثم مثل أمامها أنبل وأغنى مواطنى انطاكيا وهم مكبلون بالأغلال ، واستخدمت وسائل التعذيب فى استجوابهم ، وكان الحكم عليهم يصدر أو يوقف وفق ما يراه هذان القاضيان غير العاديين • وعرضت بيوت المجرمين للبيع وتحول أبناؤهم وزوجاتهم فجأة من حالة الميسرة والترف الى أدنى حالات المحنة • وتوقع الناس أن تنتهى فظائع اليوم بمجزرة دموية ، ولقد كان يوما وصفه واعظ أنطاكيا ، وصاحب البيان ، كريسوستوم Chrysostom ومعناه الفم الذهبى ، بأنه صورة حية ليوم الحساب الشامل الأخير • غير أن وزراء ثيودوسيوس كانوا يؤدون المهمة القاسية التى أسندت اليهم وهم كارهون • فكانوا يسكبون دموع الحنان بدافع الشفقة على مصائب الناس وينصتون باحترام الى التوسلات الحارة التى أبداها الرهبان والنساك الذين هبطوا فى جماعات من الجبال • وكان هللبيكوس وسيزاريوس يميلان الى ايقاف تنفيذ الحكم ، واتفقا على أن يبقى الأول فى أنطاكيا ، بينما يعود الثانى بكل سرعة ممكنة الى القسطنطينية ، بزعم استطلاع مشيئة مليكه مرة أخرى • وكان سخط ثيودوسيوس اذ ذاك قد خفت حدته ، واستطاع مندوبا الشعب ، الأسقف والخطيب ، أن يحظيا بمقابلة الامبراطور ، فاتخذ تأنيبه طابع الشكوى من الاساءة الى صداقته أكثر من أن يكون تهديدا صارما من صاحب المهابة والسلطان • ومنح الامبراطور المدينة ومواطنيها عفوا شاملا غير مقيد بقيود ، وأمر بفتح أبواب السجون ، أما أعضاء السناتو الذين كانوا فى يأس من حياتهم ، فقد استردوا بيوتهم وأملاكهم ، وعادت حاضرة الشرق الى الاستمتاع بعزتها وروعتها القديمة • وتفضل ثيودوسيوس باطراء شيوخ السناتو فى القسطنطينية الذين تكرموا بالتوسط لديه من أجل اخوتهم

حين كانوا في شقاء ومحنة . ومنح هيلاريوس حكم فلسطين مكافأة له على بلاغته وفصاحته ، وودع أسقف أنطاكيا بأحر عبارات احترامه وامتنانه . وقابل أهل أنطاكيا هذا التسامح من جانب الامبراطور باقامة ألف تمثال جديد ، واستحسن الامبراطور من قلبه تهليل رعيته ، واعترف بأنه اذا كانت العدالة هي أهم واجبات الملك ، فان الرحمة هي أشهى متعة يستمتع بها .

مذبحة سالونيك

تعود فتنة سالونيك الى سبب أشد خزيا ، كما أنها أسفرت عن نتائج أعظم هولا . ولقد كانت تلك المدينة ، وهي حاضرة كل الولايات الالليرية ، في حمى من أخطار الحرب القوطية بفضل حصونها القوية وحاميتها الكبيرة ، وكان بوثريك Botheric ، قائد تلك القوات من البرابرة ، كما يبدو من اسمه ، وكان من بين خدمه الأرقاء صبي جميل الطلعة أثار في صدر أحد سائقي عربات السيرك رغبات دنسة ، فأمر بوثريك بالقاء ذلك المحب البهيمي الوقح في السجن ، ورفض في عنف أن يستمع الى ضجيج ولجاجة الجمهور الذي ساءه ، في يوم الألعاب العامة ، أن يغيب عنه لاعبه المفضل ، اذ كان الجمهور يعتبر براعة سائق العربة أكثر أهمية من فضيلته . وثمة نزاعات سابقة زادت سخط الجمهور ، كما أن جزءا من قوة الحامية كان قد سحب للخدمة في الحرب الايطالية . ومن ثم فان البقية الضعيفة التي قل عددها من جراء هرب بعض أفرادها ، لم تستطع انقاذ قائدها التعس من ثورة غضب الشعب الجامحة ، فقتل بوثريك وكثير من كبار ضباطه بصورة وحشية وسحبت أجسادهم الممزقة في شوارع المدينة ، وفوجيء الامبراطور ، الذي كان اذ ذاك مقيما في ميلان بنبأ أعمال القسوة الفاجرة المتهورة التي أتاها أهل المدينة . ولا شك في أن تلك الجريمة ، لو أنها طرحت أمام قاض رزين غير متأثر بعواطفه لأصدر حكما بتوقيع عقوبة صارمة على مرتكبيها ، كما أن صفات القائد بوثريك لابد أنها أسهمت في الهاب حزن مليكه وسخطه . ولما كان ثيودوسيوس حاد الطباع سريع الغضب ، ولا يستطيع الصبر انتظارا لشكليات التحقيق القضائي البطيئة ، فقد قرر في عجلة أن دم نائبه ينبغي أن يكفر عنه بدم الشعب المذنب . ومع ذلك فقد كان عقله يتأرجح بين الرحمة والنقمة . وكادت غيرة الأساقفة تنتزع من الامبراطور وعدا بعفو عام ، دون رضائه . غير أن وزيره رفينوس Rufinus أثار حفيظته وغضبه مرة أخرى بما قدمه من اقتراحات تتسم بالملق والمداهنة . وبعد أن أرسل ثيودوسيوس الى

المدينة رسل الموت ، حاول بعد فوات الأوان ان يوقف تنفيذ أوامره ٠ وهكذا أسند عقاب مدينة رومانية دون تبصر الى سيوف البرابرة التى لا تفرق بين مذنب وبرىء ، واقترنت الاستعدادات العدوانية بخدعة غادرة غامضة تنطوى على مؤامرة غير مشروعة ٠ فدعى أهل المدينة بطريقة خائنة لمشاهدة ألعاب السيرك ، باسم مليكهم ، وكان ولع الناس بتلك المتع لا يرتوى ولا يشبع ، ومن ثم فان جمهور النظارة لم يلق بالا لأى اعتبار من اعتبارات الخوف والشك ، وما أن اكتمل الاجتماع ، وكان الجنود اذ ذاك قد احتلوا مراكزهم سرا على محيط السيرك ، حتى تلقوا اشارة لا ببدء السباق ، بل ببدء مذبحة عامة ٠ ودامت المذبحة ثلاث ساعات واختلط فيها الحابل بالنابل ، دون تمييز بين أجانب ووطنيين ، أو بين شباب وشيب ، أو بين رجل وامرأة ، أو بين برىء ومذنب ٠ أما عدد الضحايا فقد قدرته أكثر التقديرات اعتدالا بسبعة آلاف قتيل ، ويؤكد بعض الكتاب أن أكثر من خمسة عشر ألف قتيل قدموا قربانا لروح بوثريك وقيل ان تاجرا أجنبيا لم يكن له ، على ما يبدو أى يد فى مقتل بوثريك ، قد عرض حياته وكل ثروته لانقاذ حياة « واحد » من ولديه ، وكان حنانه نحو ولديه متساويا ، فوقف مترددا حائرا فى اختياره ، يريد أن ينقذ أحدهما ، ولا يريد أن يهلك الآخر ، وبينما هو كذلك قطع الجنود عليه انتظاره وحيرته وأغمدوا خناجرهم فى وقت واحد فى صدر الشابين الأعزلين ٠ وكان اعتذار القتلة أنهم كانوا مرغمين على قتل عدد معين من الناس ، وليس فى هذا العذر من جدوى اللهم الا أنه يضخم فظائع المذبحة التى نفذت بمقتضى تعليمات ثيودوسيوس ، لأنه يظهرها فى صورة أمر صدر وخطة نفذت ٠ ومما يجعل ذنب الامبراطور أكثر جسامة أنه كثيرا ما تردد على هذه المدينة وكثيرا ما أطال مكثه فيها ، وأن موقع المدينة البائسة ، ومنظر الطرقات والمبانى ، وأزياء السكان ووجوههم ، كل أولئك كان شيئا مألوفا لديه ، بل وحيا فى خياله ، وأن ثيودوسيوس كان لديه احساس مرهف رقيق بوجود الشعب الذى أهلكه ٠

وكان الامبراطور على صلة يسودها الاحترام برجال الدين من الأرثوذكس ، وقد دفعته هذه الصلة الى حب شخصية أمبروز والاعجاب بها ، لأن هذا الرجل كان يجمع بين كل الفضائل الأسقفية فى أسمى درجاتها ٠ وحذا أصدقاء ثيودوسيوس ووزراؤه حذو مليكهم فى التعلق بالأسقف أمبروز ، وكان مما أدهش الامبراطور أكثر مما أغضبه أن كل آرائه السرية كانت تنقل على الفور الى الأسقف الذى كان يرى ، عن اقتناع جدير بالثناء ، أن كل اجراء تتخذه الحكومة المدنية قد

تكون له بعض الصلة بمجد الله وبمصلحة الديانة الحقيقية • وحدث أن رهبان وســكان مدينة كالينيكوم Callinicum وهى مدينة صغيرة مغمورة على حدود فارس ، دفعهم تعصبهم وتعصب أسقفهم الى اشعال النار فى اجتماع لأتباع فالنتينوس ، وفى كنيس لليهود بصورة يتمثل فيها الشـغب والاضطراب • فحكم حاكم الولاية على الحبر الذى أثار الشغب باعادة بناء الكنيس ، أو بدفع قيمة الخسائر وصدق الامبراطور على هذا الحكم المعتدل • غير أن كبير أســاقفة ميلان لم يعتمد هذا الحكم ، وأرسل الى الامبراطور رسالة نقد وتأنيب ، ربما كانت تصبح أكثر ملاءمة ، لو أن الامبراطور كان قد قبل الختـان ونبذ عقيـدة معموديته • وذلك لأن أمبروز كان يعتبر التســامح مع اليهود بمثابة اضطهاد للديانة المسيحية ، ويعلن فى جرأة أنه هو نفسه ، وكل مؤمن حقيقى يود أن ينازع أسقف كالينيكوم ميزة ذلك العمل الذى قام به ، وتاج الاستشهاد من أجل العقيدة ، كما أبدى أسفه ، فى أشد عبارات الأسى ، على أن تنفيذ ذلك الحكم سـوف يكون خطيرا كل الخطورة على شـهرة ثيودوسيوس وخلاصـه • ولما عجز ذلك التقريع الدينى الشخصى عن احداث أثر مباشر ، فقد وجه رئيس الأساقفة خطابا علنيا من فوق المنبر الى الامبراطور الجالس على عرشـه وامتنع عن تقديم قربان المذبح حتى حصـل من ثيودوسيوس على تصريح رسمى قاطع ضمن به عدم معاقبة أسقف كالينيكوم ورهبانها • وكان ثيودوسيوس صادقا فى الغائه الحكم السـابق ، وخلال اقامته فى ميلان تزايد حبه للأسـقف أمبروز بفضل ما كان يتبادله معه من أحاديث الألفة والتقوى •

ثيودوسيوس يكفر عن ذنبه

عندما علم أمبروز بنبأ مذبحة سـالونيك امتـلأ عقـله بالفزع والعذاب ، فاعتزل فى الريف ليطلق العنان لأحزانه ، وليتجنب مقابلة ثيودوسيوس • غير أنه اقتنع بأن الصمت الخجول كفيل بأن يجعـله شريكا فى جريرة الامبراطـور ، ومن ثم فقد أرسـل له خطابا خاصـا صور له فيه فداحة الجرم الذى لا يمكن أن تزيله الا دموع التوبة ، واستمد أمبروز من حكمته وحرصه ما خفف به من عنفه الأسـقفى فاكتفى فى خطابه بالاشارة غير المباشرة الى حرمانه من أخوية الكنيسة ، حيث أكد للامبراطـور أنه تلقى فى الرؤيا تحـذيرا بأن يقـدم الذبيحة باسم ثيودوسيوس أو فى حضـوره ، ونصحه بأن يقتصر على الصـلاة دون الاجتراء على الاقتراب من مذبح المسـيح ، أو تنـاول القربان المقدس باليد التى لا تزال ملوثة بدم شعب بريء • وتأثر الامبراطور

تأثيرا عميقا بتبكيت ضميره وتأنيب أبيه الروحي ، وبعد أن انتحب على النتائج الوبيلة التي لا سبيل الى تعويضها والتي ترتبت على غضبه الطائش المتهور ، توجه بالطريقة المعتادة لتقديم صلواته في كاتدرائية ميلان • فأوقفه الأسقف عند مدخل الكنيسة ، وصرح له في لهجة ولغة سفير السماء أن التوبة الشخصية لا تكفي للتكفير عن خطأ عام أو لتهدئة عدالة الرب المستاء • ورد ثيودوسيوس في ذلة وخشوع

أنه اذا كان قد ارتكب خطيئة القتل ، فان داود ، وهو الرجل الذي أحبه الله ، قد اقترف خطيئة القتل وجريمة الزنا • فأجاب أمبروز في جرأة وشجاعة : « لقد حذوت حذو داود في جرمه ، فعليك اذن أن تحذو حذوه في ندمه » وقبل الامبراطور شروط الصلح والغفران الصارمة ، وسجلت كفارة الامبراطور العلنية كحدث من أشرف الأحداث في سيرة الكنيسة • وطبقا لأهون قواعد النظام الكنسي التي قررت في القرن الرابع ، فان جريمة القتل يمكن التكفير عنها بفترة توبة قدرها عشرون عاما ، ولما كان من المستحيل في فترة الحياة الانسانية أن يطهر الذنب المتراكم الذي اقترفه الامبراطور في مذبحة سالونيك ، فان القاتل كان لابد أن يحرم من تناول القربان المقدس حتى تحين منيته • غير أن الأسقف ، مراعاة لقواعد السياسة الدينية ، أبدى بعض التساهل نحو مقام التائب المرموق الذي أذل كبرياء التاج ، ورأى أن تهذيب الامبراطور بصورة علنية يمكن قبوله كمبرر قوي لاختصار مدة عقوبته ، فاكتفى بالزام امبراطور الرومان بأن يظهر أمام الناس متجردا من شارات الملك في مظهر الحزن والتوسل ، ويلتمس وسط كنيسة ميلان غفران ذنوبه ، بالتأوهات والدموع • واستخدم أمبروز في هذا العلاج الروحي مختلف أساليب الرقة والشدة ، فأصدر مرسوما باعادة ثيودوسيوس الى أخوية المؤمنين بعد تأخير دام قرابة الثمانية شهور ، وضمن قراره هذا وجوب انقضاء فترة أمان قدرها ثلاثون يوما بين صدور الحكم وتنفيذه ، ويمكن اعتبار هذا القرار ثمارا قيمة لتوبة الامبراطور وندمه • وقد استحسنت الأجيال التالية موقف الأسقف المتسم بالحزم والفضيلة ، كما أن المثل الذي ضربه مع ثيودوسيوس انما يدل على ما كان من تأثير كريم لتلك المبادىء التي استطاعت أن ترغم ملكا ، كان فوق مستوى الخوف من العقوبة البشرية على احترام قوانين « قاض » غير مرئي ، وتبجيل قساوسته • ويقول مونتسكيو : « مثل الحاكم الذي يتصرف مدفوعا بالآمال والمخاوف الدينية مثل أسد لا يطيع الا صوت حارسه ، ولا ينقاد الا ليده » ومن ثم فان حركات الحيوان الملكي انما تتوقف على ميل واهتمام الرجل الذي يمتلك مثل هذا السلطان الخطير عليه ، كما أن الكاهن الذي يملك

في قبضة يده ضمير الملك يستطيع أن يلطف أو يلهب أهواءه الدموية ، ولقد أيد أمبروز قضية الانسانية وقضية الاضطهاد بانهمة نفسها وبالنجاح نفسه .

وبعد هزيمة طاغية بلاد الغال وموته دان العالم الرومانى لسلطان ثيودوسيوس . فقد حصل باختيار جراشيان على لقبه الكريم ملكا على ولايات الشرق ، وحصل على ملك الغرب بحق الفتح ، واستغل السنوات الثلاث التى قضاها فى ايطاليا استغلالا نافعا فى اعادة سلطان القوانين واصلاح المساوىء التى سادت البلاد دون أن تلقى عقابا ، عندما اغتصب مكسيموس السلطة ، وعندما كان فالنتينيان تحت الوصاية ، ثم أدخل اسم فالنتينيان بصورة منتظمة فى القوانين واللوائح العامة ، غير أن صغر سن ابن جستينا وعقيدته المشكوك فيها يبدو أنهما كانا فى حاجة الى رعاية حريصة من وصى أرثوذكسى ، وكان يمكن لأطماعه الظاهرية أن تبعد الشاب السيىء الحظ ، دون عناء ، بل ودون اثارة أى لغط ، عن حكم الامبراطورية ، بل وعن وراثتها ، ولو أن ثيودوسيوس راعى القواعد الصارمة التى تمليها المصلحة والسياسة ، لحاز مسلكه هذا لدى أصدقائه قبولا ، غير أن مسلكه الكريم فى ذلك الظرف المشهود انتزع من الد أعدائه قبولهم واستحسانهم . ذلك أنه أجلس فالنتينيان على عرش ميلان وأعاد اليه السيطرة المطلقة على كل الولايات التى طردته منها جيوش مكسيموس ، دون أن يشترط الحصول على أية مزايا ، حالية أو مستقبلة ، ولم يكتف برد ميراثه الحقيقى اليه بل أضاف الى ذلك منحة خالصة كريمة هى حكم البلدان الواقعة فيما وراء جبال الألب . والتى استطاع بشجاعته المظفرة أن يستردها من قاتل جراشيان . وبعد أن قنع الامبراطور بالمجد الذى حصل عليه من الانتقام لمقتل الرجل الذى أحسن اليه وبعد أن أنقذ الغرب من نير الطغيان ، عاد من ميلان الى القسطنطينية ، وبهذا الملك الهادىء لبلاد الشرق رجع دون أن يحس الى عاداته السابقة عادات الترف والاسترخاء . ولقد قام ثيودوسيوس بالتزاماته نحو شقيق فالنتينيان ، وانغمس فى عواطفه الزوجية الرقيقة نحو شقيقة فالنتينيان . وان الأجيال التى تعاقبت بعده ، والتى أعجبت بما انفرد به من عظمة وسمو لابد لها من أن تثنى على كرمه الفريد فى استغلال ظفره وانتصاره .

اخلاق فالنتينيان وموته

لم تعش الامبراطورة جستينا طويلا بعد عودتها الى ايطاليا • ورغم انها شهدت انتصار ثيودوسيوس ، الا أنها لم يسمح لها بالتأثير على حكم ابنها ، وتشرب منها فالنتينيان ومن تعاليمها تعلقا خبيثا بالمذهب الآريوسى ، غير أن دروس التعليم الأرثوذكسى سرعان ما محت تلك الصلة ، وكان حماسه المتزايد لعقيدة نيقيا ، واحترامه البنوى لشخصية امبروز وسلطته ، من الأشياء التى شجعت الكاثوليك على تكوين أحسن فكرة عن فضائل امبراطور الغرب الشاب (١) • وامتدحوا فيه عفته واعتداله ، واحتقاره للمتعة ، ومثابرته على العمل ، وحبه الحنون لشقيقتيه ، ومع ذلك فان هذا الحب لم يستطع أن يجعله ينحرف عن عدالته وعدم تحيزه ويصدر حكما ظالما على أحط رعاياه • غير أن هذا الشاب المحبوب قبل أن يتم العشرين من عمره ، وقع تحت وطأة خيانة داخلية ، وتعرضت الامبراطورية مرة أخرى لأهوال الحرب الأهلية • فقد كان هناك جندى شجاع اسمه أربوجاستس Arbogastes من أبناء الفرنجة يحتل المركز الثانى فى خدمة جراشيان ، ولما مات سيده ، انضم الى ثيودوسيوس ، وأسهم بشجاعته ومسلكه الحربى فى اهلاك الطاغية ، وعين بعد النصر قائدا أعلى لجيوش بلاد الغال • واكتسب بجدارته الحقيقية واخلاصه الظاهر ، ثقة الملك وثقة الشعب ، غير أن سخاءه الذى لا حدود له أفسد ولاء الجيوش ، وبينما كان الجميع يعتبرونه دعامة الدولة ، كان ذلك البربرى الجرىء الماكر يعتزم سرا حكم امبراطورية الغرب أو اهلاكها ، فوزع القيادات الهامة فى الجيش على الفرنجة ، ورقى صنائعه الى كل مناصب الحكومة المدنية ووظائفها وتطورت المؤامرة الى ابعاد كل خادم أمين عن حضرة فالنتينيان ، أما الامبراطور الذى حرم من القوة ومن الذكاء ، فقد هبط بصورة غير محسوسة الى وضع مزعزع ، هو وضع أسير تابع لغيره • وقد عبر الامبراطور عن سخطه غير أن ذلك السخط ، الذى لا ينبعث الا من طباع الشباب المتهورة المتعجلة ، قد نستطيع أن ننسبه فى اخلاص الى روحه الكريمة ، والى شعوره بانه لم يكن غير جدير بالحكم • ودعا الامبراطور كبير أساقفة ميلان سرا الى أن يتولى وساطة الصلح ، متعهدا

---

(١) عندما كان الامبراطور الشاب يقيم وليمة ، كان يمتنع عن الأكل ويرفض رؤية الممثلات الرشيقات • وبما انه امر بقتل الوحوش الكاسرة التى كان يقتنيها ، فليس كريما من جانب فيلوستورجيوس ان يؤنبه على حبه لتلك التسلية •

باخلاصـــه ، وأمينا على سـلامته • وتمكن من اعلام امبراطور الشرق بموقفه اليائس ، وصرح لثيودوسيوس بأنه ان لم يخف الى نجدنه ، فانه سوف يضطر الى الهرب من قصر فين ، أو بالأحرى من سجن فين Vienne في بلاد الغال ، الذى كان قد اتخذه مقرا له ، دون فطنة أو تبصر ، وسط الحزب المعادى له • غير أن الأمل فى النجدة كان بعيدا ومشكوكا فيه • ولما كان كل يوم يجيء باثارة جديدة ، فقد قرر الامبراطور فى تسرع ، ودون قوة أو مشورة ، أن يغامر بصراع عاجل ضد القائد القوى • ومن ثم فقد استقبل أربوجاستس وهو جالس على عرشـه ، وعندما اقترب الكونت فى شيء من الاحترام الظاهرى ، سلمه ورقة تقضى بطرده من كل وظائفه • فأجاب أربوجاستس فى برود مهين : « ان سلطتى لا تتوقف على ابتسامة ملك أو عبوسه » ، ثم قذف الورقة باحتقار الى الأرض ، فمد الملك الغاضب يده الى سيف أحد حراسه وجاهد فى سحبه من غمده ، ولم يمنعه من استخدام السلاح المميت ضد عدوه أو ضد نفسه الا شيء من العنف • وبعد أيام قلائل من هذا الشجار العجيب غير العادى الذى أظهر فيه فالنتينيان التعس سخطه وضـعفه ، وجد الامبراطـور مخنوقا فى غرفته ، وبذلت الجهود لاخفاء الجرم الواضح الذى ارتكبه أربوجاستس ، لاقناع العالم بأن موت الامبراطور الشاب كان باختياره ونتيجة ليأسه • ونقل جثمانه فى عظمة لائقة الى ضريح ميلان ، وألقى رئيس الأساقفة خطاب رثاء أحيا فيه ذكرى فضيلة الامبراطور وما تعرض له من سوء الحظ • وفى هذه المناسبة اندفع امبروز ، بوحى من انسانيته الى الشذوذ عن نظامه اللاهوتى ، فواسى شقيقتى فالنتينيان الباكيتين بأن أكد لهما أن أخاهما التقى ، رغم أنه لم يتلق سر المعمودية المقدس ، الا أنه دخل ، دون صعوبة ، رحاب النعمة الأبدية •

وكان حرص أربوجاستس قد مهد لنجاح خططه الطموحة ، وأصبح سكان الأقاليم ، الذين انطفأ من صدورهم كل احساس بالوطنية أو الولاء ينتظرون فى استسلام خاشع ذلك السيد المجهول الذى سوف يختاره ابن الفرنجة ليجلسه فوق العرش الامبراطورى • غير أن بقية من الكبرياء والتحيز كانت لا تزال تعترض ارتقاء أربوجاستس نفسه ذلك العرش ، ورأى البربرى الحكيم أنه من الأصوب له أن يحكم البلاد مستترا وراء اسـم أحـد الرومان التابعين • فمنح رداء الملـك الى الخطيب البليغ يوجينيوس Eugenius ، الذى كان قد رفعه من مركز أمين سره الخاص الى مركز رئيس الديوان • وكان الـكونت أربوجاستس يمتـدح محبة يوجينيوس وقدراته ، كما أن علمه وفصاحته ، تعززهما رزانة مسلكه ،

كل أولئك جعله موضع تقدير الشعب ، ثم ان الاحجام الذى أبداه عند ارتقائه العرش ربما يوحي بفكرة حسنة عن فضيلته واعتداله • وانطلق سفراء الامبراطور الجديد على الفور الى بلاط ثيودوسيوس وأبلغوه فى حزن مصطنع نبأ الحادث التعس ، وهو موت فالنتينيان والتمسوا من ملك الشرق ، دون ذكر اسم أربوجاستس ، أن يقبل كزميل شرعى له ، ذلك المواطن المبجل يوجينيوس الذى استحوذ على أصـــوات الجيوش وولايات الغرب • وأثار حفيظة ثيودوسيوس بحق أن تدمر خيانة رجل من البرابرة فى لحظة واحدة كل المجهودات التى بذلها فى سبيل انتصاره السابق ، وتقضى على ثمرة ذلك النصر • وأثارت دموع زوجته الحبيبة رغبته فى الانتقام لموت شقيقها التعس ، وفى أن يؤكد بقوة السلاح جلال العرش الذى انتهك • غير أن غزو بلاد الغرب مرة ثانية كان مهمـــة عسيرة خطيرة ، ولهذا فانه صرف سفراء يوجينيوس بالهدايا الفخمة ، وحملهم اجابة مبهمة • ثم انصرم بعد ذلك عامان تقريبا فى الاستعداد لحرب أهلية • وقبل أن يكون الامبراطور التقى قرارا حاسما ، كان تواقا الى استطلاع مشيئة السماء ، وكان انتشار المسيحية قد أسكت أصوات الوحى فى « دلفى » وفى « دودونا » ، فقد لجأ الى استشارة راهب مصرى كان يملك ، فى رأى ذلك العصر ، موهبة صنع المعجزات ومعرفة الغيب • فأبحر الى الاسكندرية يوتوبيوس ، وهو أحد الخصيان ذوى الحظوة فى قصر القسطنطينية ، ومن هناك أقلع فى نهر النيل الى مدينة ليكوبوليس Lycopolis ، أو مدينة الذئاب ، فى مديرية طيبة النائية • والى جوار تلك المدينة ، وعلى قمة جبل مرتفع ، كان يوحنا المقدس قد بنى بيديه صومعة متواضعة أقام فيها أكثر من خمسين عاما ، دون أن يفتح بابه لأحد ، ودون أن يرى وجه امرأة ، ودون أن يذوق طعاما طهته النار أو جهزه فن انسان • وكان يقضى خمسة أيام من الأسبوع فى الصلاة والتأمل ، ولكنه فى أيام السبت والأحد كان يفتح بصورة منتظمة نافذة صغيرة يستقبل من خلالها جمهور المتوسلين الذين يفدون تباعا من كل أجزاء العالم المسيحى • واقترب خصى ثيودوسيوس من النافذة بخطوات الوقار والاحترام ، وسأل ما أراد من أسئلة تتعلق بحدث الحرب الأهلية ، ثم عاد مسرعا الى ثيودوسيوس يحمل جوابا مشجعا أحيا شجاعة الامبراطور ، حيث أكد له أنه سوف ينال نصرا بالدماء ، ولكنه نصر أكيد لا ريب فيه • وعمل ثيودوسيوس على تحقيق النبوءة بكل الوسائل التى يمكن أن تأتى بها الفطنة البشرية ، وجد القائدان العامان ، ستليكو وتيماسيوس فى تعبئة الفيالق الرومانية وفى اعادة تنظيمها • وسارت فرق البرابرة العاتية تحت أعلام رؤسائها الوطنيين ، وانضم الى

خدمة ملك واحد جنود من الأيبيريين والعرب والقوط كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض فى عجب ودهشة ، وحصل الاريك Alaric الشهير في مدرسة ثيودوسيوس على تلك المعرفة بفن الحرب التى استخدمها فيما بعد بصورة قاتلة فى القضاء على روما •

وقد تعلم امبراطور الغرب ، أو بعبارة أصح ، قائد أربوجاستس ، من سوء تصرف وسوء حظ مكسيموس ، أنه من الخطورة بمكان أن يطيل خط الدفاع ضد خصم بارع يستطيع أن يضغط بمختلف وسائله الهجومية أو يوقفها ، ويستطيع أن ينقصها أو يزيدها • ومن ثم فقد حدد أربوجاستس مواقعه على حدود ايطاليا ، وسمح لقوات ثيودوسيوس أن تحتل دون مقاومة ولايات بانونيا Pannonia حتى سفوح جبال الألب الجوليانية Julian Alps ، بل انه تخلى للفاتح الجرىء عن ممرات الجبال ، اما اهمالا منه ، أو أنه ربما تعمد ذلك مكرا ودهاء • ونزل ثيودوسيوس من فوق التلال ، وشاهد في شيء من الدهشة ، معسكر قوات الغال والجرمان الهائل الذى كان يغطى الأرض العراء بالعتاد والخيام ، ويمتد الى أسوار أكويليا وضفاف نهر فريجيدوس أو النهر البارد • وكان ميدان الحرب هذا ضيقا ومحصورا بين جبال الألب والبحر الأدرياتى ، ومن ثم فانه لم يكن مجالا فسيحا لعمليات البراعة العسكرية • وكانت روح أربوجاستس من النوع الذى يحتقر أن يقبل من عدوه عفوا ، كما أن جرمه قضى على كل أمل فى المفاوضة ، وكان ثيودوسيوس متلهفا على ارضاء كبريائه وانتقامه بمعاقبة قتلة فالنتينيان • ودون أن يقدر امبراطور الشرق تلك العوائق الطبيعية والمفتعلة التى تعترض طريق جهوده ، هاجم على الفور حصون خصمه ، ووضع القوات القوطية فى جبهة الخطر والشرف على أمل كان يراوده سرا فى أن الصراع الدموى قد يذل كبرياء الغزاة ويقلل من أعدادهم • ومات فى ساحة هذه المعركة موت الشجعان عشرة آلاف جندى من تلك القوات الاحتياطية ومعهم قائد قوات أيبيريا ، باكوريوس • غير أن دماءهم لم تحقق النصر ، واحتفظت قوات الغال بميزتها ، وفرت قوات ثيودوسيوس ، أو تقهقرت فى غير نظام تحت حماية الظلام المقترب • وانسحب الامبراطور الى التلال المجاورة حيث قضى ليلة كئيبة ، دون نوم ، ودون مؤن ، ودون أمل ، اللهم إلا ذلك الاطمئنان القوى الذى يستمده العقل الحر ، فى أشد الظروف يأسا ، من احتقاره للحظ وللحياة • واحتفل معسكر يوجينيوس بذلك الانتصار بصورة وقحة ماجنة ، بينما أرسل أربوجاستس النشيط اليقظ ، سرا ، قوة ضخمة من جيشه لاحتلال الممرات الجبلية والاحداق بمؤخرة الجيش الشرقى • وعندما لاح الفجر تبين ثيودوسيوس مدى

الخطر المحدق به وشدته ، غير أن مخاوفه سرعان مازالت عندما تلقى رسالة ودية من قواد تلك القوات يعبرون فيها عن رغبتهم فى التخلى عن علم الطاغية • ومنحهم ثيودوسيوس دون تردد مكافآت الشرف والمال التى اشترطوا الحصول عليها ثمنا لخيانتهم • ولما لم يكن من السهل الحصول على حبر وورق فقد وقع الامبراطور على لوحاته الخاصة بالتصديق على المعاهدة ، فانتعشت روح جنوده بهذه الامدادات التى جاءت فى أوانها ، وساروا فى ثقة مرة ثانية لمهاجمة معسكر الطاغية الذى كان يبدو أن كبار ضباطه لا يثقون فى عدالته أو فى نجاح جيوشه • وعندما كانت المعركة فى ذروة حدتها هبت من الشرق بصورة فجائية عاصفة عاتية من تلك العواصف التى كثيرا ما تهب على جبال الألب ، وكان جيش ثيودوسيوس بحكم موقعه فى حمى من قسوة الرياح التى اثارت سحابة من التراب على وجوه الأعداء ، فأحدثت الفوضى فى صفوفهم وأطاحت أسلحتهم من أيديهم ، وطوحت بنبالهم أو ردتها فأصبحت عديمة الجدوى ، واستغلت جيوش ثيودوسيوس هذه الميزة التى جاءت وليدة الصدف ، كما أن الفزع الخرافى الذى تملك جنود الغال زاد من إثر العاصفة العاتية ، فاستسلموا دون خجل الى قوى السماء الخفية التى بدا لهم أنها تناضل الى جانب الامبراطور الورع • وكان انتصار الامبراطور حاسما ، ومات منافساه ، كل بطريقة مختلفة تتفق مع شخصيته • ذلك أن الخطيب يوجينيوس ، الذى كاد يملك السيطرة على العالم ، تدلى الى التماس رحمة الفاتح المنتصر ، غير أن الجنود لم تأخذهم به شفقة ففصلوا رأسه عن جسده بينما كان طريحا تحت أقدام ثيودوسيوس • أما أربوجاستنس ، فانه بعد أن خسر معركة أدى فيها واجبات القائد والجندى ، سار هائما على وجهه بضعة أيام بين الجبال • غير أنه أيقن أن قضيته أصبحت قضية خاسرة يائسة ، وأن نجاته لا يمكن تحقيقها ، ومن ثم فان البربرى الجرىء حذا حذو قدماء الرومان وأغمد سيفه فى صدره • وهكذا تقرر مصير الامبراطورية فى ركن ضيق من ايطاليا ، وعانق خليفة أسرة فالنتينيان الشرعى رئيس أساقفة ميلان ، وتكرم بقبول خضوع ولايات الغرب • ولقد كانت تلك الولايات شريكة فى جريمة التمرد ، كما أن شجاعة أمبروز التى لا تنثنى ولا تلين ، هى وحدها التى قاومت مطالب اغتصاب ناجح • فلقد رفض رئيس الأساقفة هدايا يوجينيوس فى حرية وشهامة كان يمكن أن تهلك أى فرد آخر من أفراد الرعية ، وانسحب من ميلان ليتجنب لقاء كريها مع طاغية تنبأ أمبروز بسقوطه فى لغة حريصة مبهمة • وقوبل فضل أمبروز باستحسان الامبراطور المنتصر الذى ضمن حب الشعب بتحالفه مع الكنيسة ، ويعود

الفضل فى صفح ثيودوسيوس ورأفته الى الشفاعة الانسانية التى قام بها رئيس أساقفة ميلان ٠

موت ثيودوسيوس

بعد هزيمة يوجينيوس اعترف كل سكان العالم الرومانى فى غبطة وسرور بسلطان ثيودوسيوس وبما كان له من فضل ٠ وكان سلوكه السابق تجربة شجعت الناس على أن يعقدوا أجمل الآمال على عهده المقبل ، كما أن عمر الامبراطور ، الذى لم يتجاوز الخمسين عاما ، بدا أنه يفسح الأمل فى الرخاء العام ٠ غير أنه مات بعد أربعة شهور فقط من انتصاره ، واعتبر الناس موته هذا حدثا مشؤوما لم يكن فى الحسبان ، هدم فى لحظة واحدة آمال الجيل الصاعد ٠ غير أن انغماسه فى حياة الميسرة والترف كان قد غذى فيه مبادىء المرض دون أن يدرى ، ولم تستطع قوته أن تتحمل الانتقال الفجائى العنيف من القصر الى المعسكر ، وظهرت عليه بصورة مضطردة أعراض مرض الاستسقاء الذى أنذر بسرعة هلاك الامبراطور ٠ وكان رأى الشعب ، وربما مصلحته أيضا ، من العوامل التى تؤكد ضرورة تقسيم الامبراطوريتين : الشرقية والغربية ٠ وأصبح مقدرا أن يجلس على عرش القسطنطينية وعرش روما الأميران الشابان أركاديوس وأونوريوس اللذان أنعم عليهمـا حنان والدهما بلقب أغسطس Augustus ٠ ولم يسمح لهذين الأميرين بأن يشتركا فى أخطار الحرب الأهلية وأمجادها ، غير أن ثيودوسيوس بمجرد أن انتصر على خصميه الحقيرين ، دعا ابنه الأصغر أونوريوس ، للتمتع بثمار النصر ، ولتسلم صولجان الغرب من يد والده وهو على فراش الموت ٠ ورحب الشعب بوصول أونوريوس الى ميلان باقامة عرض رائع لألعاب السيرك ٠ ورغم أن الامبراطور كان ينوء تحت ثقل المرض ، الا أنه حضر العرض مشاركا فى الفرحة العامة ٠ غير أنه أجهد البقية الباقية من قوته بالمجهود المضنى الذى بذله لحضور عروض الصباح ، وجلس أونوريوس مكان والده بقية اليوم ، ثم مات ثيودوسيوس فى الليلة التالية ، ورغم العداوات الحديثة التى ترتبت على الحرب الأهلية ، فقد قوبل موته بالأسف العام الشامل ، فالبرابرة الذين غلبهم على أمرهم ، ورجال الدين الذين أخضعوه لسلطانهم ، كل هؤلاء أحيوا بأصوات الاستحسان العالية المخلصة ما كان يتحلى به الامبراطور الراحل من صفات بدت فى أعينهم أجل الصفات وأحسنها ٠ وفزع الرومان من الأخطار المحدقة بهم من جراء حكم ضعيف

منقسم ، وكانت كل لحظة مخزية من حكم أركاديوس وأونوريوس تعيد الى ذاكرتهم خسارتهم الفادحة التى لا تعوض ٠

وفى الصورة الصادقة التى رسمناها لفضـــائل ثيودوسيوس ، لم نحاول اخفاء نواحى قصوره ، مثل أعمال القسوة وعادات التراخى التى لوثت مجد واحد من أعظم ملوك الرومان ٠ ولقد بالغ مؤرخ كان يعترض دائما على شهرة ثيودوسيوس ، فى رذائل ذلك الرجل وما كان لها من نتائج وبيلة ، فأكد فى جرأة أن كل أفراد طبقات شعبه قلدوا أساليب مليكهم المخنثة ، وان كل أنواع الفساد لوثت مجرى الحيـاة العامة والخاصة وأن ضوابط النظام واللياقة كانت من الضعف بحيث لم تكف لمقاومة نمو روح الانحلال التى تضحى ، دون خجل ، باعتبارات الواجب والمصلحة فى سبيل الانغماس الدنىء فى الكسل والشهوات ٠ وأن شكاوى الكتاب المعاصرين الذين يرثون لزيادة الترف وفســـاد الأخلاق ، انما تعبر عادة عن خلقهم ووضعهم الخاص ، وقلة من المراقبين هى التى تملك نظرة جليلة شاملة عن ثورات المجتمع ، وفى مقدورها أن تستشف دوافع العمل الجليلة الخفية التى تحرك الأهواء العمياء المتقلبة لجمهور من الأفراد فى اتجاه واحد بعينه ٠ فاذا أكد البعض ، بأى قدر من الصحة والصواب ، أن ترف الرومان كان أكثر فجرا وانحلالا فى عهد ثيودوسيوس منه فى عهد قسطنطين ، أو فى عهد أغسطس ، فان التغيير لا يمكن أن ينسب الى أية تحسينات مفيدة نشأت عنها بالتدريج زيادة الثروة القومية ٠ ذلك أن فترة طويلة من المحنة أو الاضمحلال كان يمكن أن تعوق الناس عن عملهم وتوقف ثراءهم ، وتكون مغالاتهم فى الترف عندئذ نتيجة لذلك اليأس الكسول الذى يدفع صاحبه الى الاستمتاع باللحظة الراهنة ، والاعراض عن التفكير فى المستقبل ٠ ومن ثم يمكن القول بأن رعايا ثيودوسيوس لم يطمئنوا الى سلامة ملاكهم ، الأمر الذى ثبط همتهم عن الاضطلاع بتلك الأعمال المجهدة المفيدة التى تتطلب نفقات عاجلة ، وتبشر بمنفعة بطيئة بعيدة ٠ فكثيرا ما شاهدوا أمثلة من الخراب والدمار أغرتهم على انفاق أية بقايا من ميراث يمكن فى أية لحظة أن تقع فريسة لنهب القوط وسلبهم ٠ وان الاسراف الجنونى الذى يسود فى حالة الارتباك الناشئة عن تحطيم سفينة أو وجود حالة حصـار يمكن أن يفسر لنا تزايد الترف وســـط الكوارث والأهوال التى تعتور أمة غارقــة ٠

وكان الترف المخنث ، الذى أصابت عدواه أخلاق الناس فى المدن وفى بلاط الملوك ، قد نفث سما خفيا قاتلا فى معســـكرات الجيوش ،

ويصور أحد الكتاب العسكريين انحلالهم هذا بعد أن درس دراسة حقيقة المبادىء الأصيلة القديمة للنظام الرومانى • ومن الملاحظات الهامة التى أبداها فيجيتيوس Vegitius أن الجنود المشاة كانوا يلبسون دائما دروعا كاملة واقية ، منذ تأسيس المدينة حتى عهد الامبراطور جراشيان ، وبتراخى النظام ، وانعدام التمرين أصبح الجنود أقل قدرة على تحمل متاعب الخدمة ، وأقل رغبة فيها وأصبحوا يجأرون بالشكوى من ثقل الدروع التى قلما كانوا يرتدونها ، ونجحوا بصورة متوالية فى الحصول على اذن بخلع خوذاتهم ودروع صدورهم ، وكانت الأسلحة الثقيلة التى استخدمها أجدادهم وأخضعوا بها العالم ، وهى السيوف القصيرة والحراب القوية ، تسقط من أيديهم الخائرة دون أن يحسوا • ولما كان استخدام الدرع لا يتلاءم مع استخدام القوس ، فقد كانوا يسيرون الى المعمعة كارهين ، اذ كان مقضيا عليهم اما بالاصابة بالجروح ، أو بتحمل عار الفرار ، وكانوا ينزعون دائما الى تفضيل هذا البديل الأكثر خزيا • ولقد أحس فرسان القوط والهون والألانى The Alani بمزايا الدروع الواقية ، واستخدموها • وبما أنهم تفوقوا فى استخدام أسلحة القذائف ، فقد سهل عليهم غلبة الفرق المتجردة المرتجفة التى تعرضت صدور ورءوس رجالها الى سهام البرابرة دون أن يقيها شىء • وأخفقت خسارة الجيوش ، ودمار المدن ، والعار الذى لصق بالاسم الرومانى ، فى حث خلفاء جراشيان على اعادة الخوذات ودروع الصدور الخاصة بالجنود المشاة ، فتخلى الجنود الذين أعوزتهم القوة والشجاعة ، عن الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم • وفى مقدورنا أن نعتبر هذا التقاعس الرعديد من جانبهم سببا مباشرا فى سقوط الامبراطورية •

الفصل الثامن والعشرون
(٣٧٨ ـ ٤٢٠)

نهاية الوثنية • تدمير معبد سرابيس : حظر الشعائر الوثنيـة • عبادة الشـهداء المسيحيين • انتعاش عادات الشرك •

ربما كان في مقدورنا أن نعتبر دمار الوثنية فى عهد ثيودوسيوس المثل الوحيد للقضاء التام على أية خرافة قديمة شائعة ، ومن ثم فإنه يستحق أن نتناوله كحدث مفرد فى تاريخ العقل البشرى • فالمسيحيون ، ورجال الدين بوجه خاص ، كانوا قد تحملوا بنافد الصبر تلك المماطلة الحريصة التى أبداها قسطنطين ، وما في حكم ذلك من تسامح فالنتينيان الأكبر • ولم يكن فى مقدورهم أن يعتبروا انتصـارهم على خصـومهم كاملا أو مضمونا طالما كان مسـموحا لهؤلاء الخصـوم بالبقاء • ولقد استخدموا النفوذ الذى اكتسـبه أمبروز وأخوانه على جراشـيان الشاب وثيودوسيوس التقى ، فى بث مبادىء الاضطهاد فى صـدور أباطرتهم المهتدين • ولقد أقرت فى الفقة الدينى قاعدتان منمقتان اشـتقوا منهما نتيجة صارمة مباشرة ضـد رعايا الامبراطورية الذين مازالوا متمسـكين بطقوس أجدادهم ، أولاهما أن الحاكم يعتبر ، الى درجة ما ، مدينـا بالجرائم التى يهمل فى حظرها أو فى عقابها ، وثانيتهمـا أن العبـادة الوثنيـــة التى تؤدى لآلهـــة خيـالية لا تعدو أن تكون فى واقع الأمر شياطين ، هى أبغض جريمة ترتكب ضد الجلال الأسمى للخالق • وطبق رجال الدين فى عجلة ، وربما خطأ ، شرائع موسى وأمثلة من التاريخ اليهودى ، على عهد المسيحية المعتدل بعد ستين سنة من تحول قسطنطين الى المسيحية •

واحتفظ الرومـان ، من عهـد الامبراطور نوما Numa الى عهـد جراشيان بتوارث عدة هيئات للنظام الكهنوتى . فكان هناك خمسـة عشر حبرا يمارسون سلطتهم القضائية على كل ما يخصص لخدمة الآلهة من أشياء وأشخاص ، وتختص محكمتهم المقدسة بالفصل فى مختلف المسائل التى كانت تنشأ على الدوام ، فى نظام تقليدى مفكك . وكان هناك خمسـة عشر عرافا من العلماء الوقورين يرقبون وجه السـماء ويقررون أعمال الأبطال وفق تحليق الطيـور . وكان هنـاك خمسـة عشر أمينا على كتب العرافة يتشـاورون من حين الى حين فى مجريات الأحـداث المقبلة أو قل الأحداث الطارئة (كان اسمهم Quindecemvirs مشتقا من عددهم (١)) وكان هناك سبع عذارى (كاهنات الهة النار فستا) نذرن عذرتهن لحراسة النار المقدسة والرهائن المجهولة الخاصة بدوام روما وبقائها ، وهن اللاتى لم يرهن انسـان دون أن يحل به القصـاص . وكان هناك سبعة كهان يعدون مائدة الآلهة ، ويقودون الموكب المهيب ، وينظمون طقوس الاحتفال السـنوى . وكان هناك ثلاثة كهـان للآلهة جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس يعتبرون وزراء خاصين لأقوى ثلاثة آلهة يسـهرون على مصـير روما ومصير الكون . وكان « ملك القرابين » ينوب عن شـخص الامبراطـور نوما Numa وخلفـائه الأباطرة فى المهـام الدينية التى لا يمكن أداؤها الا بأياد ملكيـة . أما رابطة كهنـة الاله مارس ، وكهنـة الاله لوبركس (اله الخصوبة) وغيرهم فقد كانوا يمارسون شعائر دينية تنتزع ابتسـامة الاحتقار من أى رجل عاقل ، وهم على ثقة قوية من أنهم بهذا العمـل ينالون حظوة لدى الآلهة الخالدة . غير أن السلطة التى كان كهنة الرومان قد حصلوا عليها من قبل فى سياسة الجمهورية ، ألغيت شيئا فشيئا بقيام الملكية ونقل مقر الامبراطـورية . ومع ذلك فان قوانين وعادات البلاد ظلت تحمى جلال طابعهم المقدس ، واستمروا يمارسون ، وخاصة هيئة الاحبار ، فى العاصـمة وفى الولايات أحيانا ، حقوق سـلطتهم القضائية ، الكنسـية والمدنية . وكانت أرديتهم الأرجوانية وعرباتهم الرائعة وولائمهم الفخمة ، تستحوذ على اعجاب الناس ، وكانوا يتلقون من الأراضى الموقوفة ومن الايراد العـام رواتب وفيرة تكفى للانفاق بسـخاء على فخامة مراكزهم الكهنوتية ، ودفع نفقات العبادة الدينية فى الدولة . ولما كانت خدمة المذبح لا تتنافى مع قيادة الجيوش ، فان الرومان ، بعد أن كانوا يصلون الى منصب القنصل ويحققون انتصاراتهم

---

(١) Quindecemvirs = ١٥ Vers = رجال (باللاتينية) ـ (الترجمة) .

الحربية ، كانوا يتطلعون الى مناصب الاحبار والعرافين ، ومن ثم فان المقعد الذى كان يشغله بومبى Pompey وذلك الذى كان يشغله شيشرون Cicero شغله فى القرن الرابع أنبه أعضاء السناتو ، وأضفى سمو ارومتهم روعة اضافية على شخصيتهم الكهنوتية · وتمتع الكهنة الخمسة عشر ، الذين كانوا يشكلون هيئة الأحبار ، بمركز أعظم رفعة ، بوصفهم رفاق مليكهم ، وتفضل الأباطرة المسيحيون بقبول الرداء والشعارات التى كانت مخصصة لمنصب الحبر الأعظم · ولكن عندما ارتقى جراشيان العرش ، وكان أكثر حزما أو أكثر استنارة ، نبذ فى جفاء تلك الرموز الدنسة ، ووجه دخل الكهنة والكاهنات الى خدمة الدولة أو الكنيسة ، وألغى مناصبهم وحصاناتهم ، وهدم الكيان القديم للخرافات الرومانية ، وهو الذى كانت تؤيده عادات وآراء نمت خلال ألف ومائة عام · وكانت الوثنية لاتزال الديانة الدستورية للسناتو ، فكانت القاعة أو المعبد الذى يجتمعون فيه مزينا بتمثال ومذبح الهة النصر « فيكتورى » ، وهو تمثال امرأة مهيبة واقفة على كرة ، ذات أردية فضفاضة ، وجناحين مبسوطين واكليل من الغار فى يدها المبسوطة · وكان أعضاء السناتو يقسمون على مذبح الآلهة أن يطيعوا قوانين الامبراطور وقوانين الامبراطورية · كما أنهم درجوا على تقديم النبيذ وحرق البخور فى وقار وخشوع كمقدمة لمناقشاتهم العامة · وكانت ازالة هذا الأثر القديم هى الاساءة الوحيدة التى ألحقها قسطنطيوس بخرافات الرومان · ثم أعاد جوليان مذبح الهة النصر ، وتسامح فالنتينيان فى وجوده ، ثم أزاله جراشيان من السناتو مرة ثانية بدافع من غيرته · ومع ذلك فان الامبراطور لم يمس تماثيل الآلهة المعروضة للعبادة العامة ، فبقى أربعمائة وأربعة وعشرون معبدا أو مصلى ليقيم الناس فيها صلاتهم ، وفى كل حى من أحياء روما كان دخان الذبائح الوثنية يجرح شعور المسيحيين

غير أن المسيحيين كانوا يشكلون أقل الأحزاب عددا فى سناتو روما ، ولم يكن أمامهم سوى التغيب عن المجلس كى يستطيعوا التعبير عن رفضهم للقرارات المدنسة التى تصدرها الأكثرية الوثنية ، وان تكن قرارات قانونية · وفى ذلك المحفل أذكت أنفاس التعصب حينا من الزمن جذوات الحرية التى كادت تخبو ، وزادتها اشتعالا · فأوفد الى البلاط الامبراطورى مفوضين محترمين ، واحدا بعد الآخر لعرض شكاوى الكهنة والسناتو ولالتماس اعادة مذبح الهة النصر · وعهد بالقيام بهذه المهمة الخطيرة الى رجل الفصاحة سيماخوس ، وهو رجل ثرى نبيل من أعضاء السناتو ، جمع بين شخصيتى الحبر والعراف المقدستين وبين المنصبين

المدنيين ، بروقنصــل أفريقيــا وحاكم المدينة · وكان صدر سيماخوس يلتهب بأحر الحماس لقضية الوثنية المحتضرة ، وكان خصومه الدينيون يأسفون لسوء استخدامه عبقريته وعدم جدوى فضائله الخلقية · وأدرك الخطيب الذى رفع التماسه الى الامبراطور فالنتينيان أن المهمة التى اضــطلع بها عسيرة خطيرة · ومن ثم نراه يتجنب فى فطنة وحرص أى موضوع قد ينعكس على دين مليكه ، ويعلن فى خشــوع أن الصلوات والتوسلات هى أسلحته الوحيدة ، ويستمد حججه فى دهاء من مدارس البلاغة لا من مدارس الفلسفة ، ويحاول أن يغرى خيال الملك الشــاب بعرض صفات آلهة النصر وسجاياها ، ويلمح الى أن مصادرة الايرادات التى كانت مخصصة للآلهة هى اجراء لا يناسب خلقه السخى المنزه عن الأغراض · ثم يقرر أن القرابين الرومانية ســوف تفقد قوتهــا وفعاليتها اذا لم تقدم ويحتفل بها على نفقة الجمهورية وباسمها · بل انه يستمد من التشكك ما يبرر به الخرافة ، فيقول ان سر الكون العظيم ، الذى يدق عن الفهم ، يستعصى على بحث الانسان واستقصائه ، وحيثما يعجز العقل عن الارشاد ينبغى أن يتاح للعرف مجال الهداية ، وان كل أمة يبدو أنها تتوخى ما يمليه عليها الحرص بالتعلق الأمين بتلك الشعائر والآراء التى أقــرتها العصــور والأجيال · فاذا كانت تلك العصــور قد كللت بالمجد والازدهــار ، واذا كان الشعب الورع كثيرا ما حصــل على النعــم التى التمسها أمام مذبح الآلهة — فانه يبدو من الأصوب أن يستمر الناس على نفس عاداتهم النافعة ، وألا يغامروا بالتعرض الى الأخطار المجهولة التى قد تترتب على أية بدع متهورة ، ولقد جاوزت ديانة الامبراطور نوما اختبار العصور وظفرت بمزية فريدة · ثم يستعين الخطيب سيماخوس بربة « روما » نفسها ، وهى الربة السماوية الساهرة على مصــائر المدينــة ، ويجعلها تدافع عن قضيتها أمام محكمة الأباطرة ، فتقول الربة الوقور « أيها الحكام العظام الأمجاد ، يا آباء البلاد ! رفقا بشيخوختى واحتراما لعمرى الذى قضيته فى طريق الورع دون توقف ، وبما أنى غير نادمة على ما فعلت ، فاسمحوا لى بأن أستمر فى ممارسة شــعائرى القديمة · وبما أنى ولدت حــــرة فاسمحوا لى بأن أتمتع بأنظمتى الداخلية · لقــد أخضع هذا الدين العالم بأسره لقوانينى ، وصدت هذه الشعائر هانيبال عن المدينة ، وردت الغــالبين عن الكابيتول · فهل بقيت شــعرات رأسى التى وخطها الشيب لتلقى مثل هذا الهوان الذى لا يطاق ؟ انى لأجهل هذا النظام الجديد الذى يطلب الى أن أعتنقه ، غير أنى واثقة تماما من أن معــاقبة الشيوخ أمر شائن يتسم بالجنــون » · وأفصحت مخاوف الناس عما لم يفصــح عنه الخطيب الحصيف ، فاجتمعت كلمة الوثنيين على أن

الكوارث التى ألمت بالامبراطورية المتدهورة ، أو التى كانت تهددها ، انما تعود الى ديانة المسيح الجديد ، ديانة قسطنطين ·

غير أن المقاومة الحازمة البارعة التى أبداها رئيس أساقفة ميلان كانت تقف فى طريق آمال سيماخوس مرة تلو الأخرى ، واستطاع الأسقف أن يحصن الأباطرة ضد البلاغة الخادعة المغرورة التى كان يستخدمها محامى روما · وتنازل أمبروز فى هذه الخصومة باستخدام لغة الفيلسوف ، فتراه يتساءل فى شيء من الازدراء ، لماذا يكون من الضرورى أن يسند الى قوة خيالية خفية أنها السبب فى تلك الانتصارات التى يكفى فى تفسيرها أنها تحققت بفضل شجاعة الجيوش ونظامها · ثم يسخر عن حق من ذلك الاحترام السخيف للقديم الذى يمارس بصورة تدعو الى تثبيط الجهود التى تبذل فى تحسين الفن ، وتلقى بالجنس البشرى مرة أخرى فى همجيته الأولى · ثم يرتفع الأسقف من هذا الى نغمة أكثر سموا وأقرب الى اللاهوت ، فيقول ان المسيحية وحدها هى مذهب الحق والخلاص ، وان كل نوع من أنواع الشرك انما يقود أنصاره المخدوعين الى سبل الضلال التى تؤدى الى هاوية الهلاك · ومثل هذه الحجج التى قدمها أسقف ذو حظوة لدى الامبراطور ، كان لها من القوة ما جعلها تحول دون اعادة مذبح الهة النصر ، غير أن هذه الحجج نفسها ، عندما فاه بها الامبراطور المنتصر ، كان لها وقع وتأثير أشد ، فسيقت آلهة العصور القديمة بصورة يتجلى فيها الظفر وراء عجلات عربة ثيودوسيوس · وفى انعقاد كامل للسناتو طرح الامبراطور ، بمقتضى رسميات الدولة سؤالا هاما عما اذا كانت عبادة جوبيتر أو عبادة المسيح هى التى ينبغى أن تكون دين الرومان ؟ وتحطمت حرية التصويت التى تظاهر بالسماح بها ، بفعل الآمال والمخاوف التى أوحى بها وجوده فى الاجتماع ، كما أن نفى سيماخوس بصورة تعسفية كان بمثابة نذير قريب العهد بأن معارضة رغبات الملك تنطوى على الخطر · وعندما اخذت الأصوات بالطريقة المعتادة انحازت أغلبية كبيرة جدا ضد جوبيتر فأدانته وحقرته · وقد يكون مدعاة للدهشة أن بعض الأعضاء ، مهما قل عددهم ، كان لديهم من الجرأة ما جعلهم يعلنون ، بكلماتهم وبأصواتهم ، أنهم مازالوا يؤيدون جانب الاله المنبوذ · وهذا التحول السريع من جانب السناتو لابد أنه يرجع اما الى عوامل خارقة للطبيعة أو الى دوافع حقيرة، وقد أفصح كثير من هؤلاء الذين اهتدوا كرها لا اختيارا ، فى كل مناسبة ملائمة ، عن رغبتهم الباطنة فى خلع قناع المراءاة الكريهة · غير أنهم تمسكوا شيئا فشيئا بالديانة الجديدة ، لأن قضية الديانة القديمة أصبحت أكثر يأسا .فأذعنوا الى سلطان الامبراطور ، والى أسلوب العصر

والى توسلات زوجاتهم وأبنائهم الذين كان رجال الدين فى روما ورهبان الشرق يحرضونهم ويسيطرون عليهم . وسرعان ما أصبح المثل الذى ضربته أسرة أنيكيا The Ancian Family درسا تعلمته بقية الأسرات النبيلة : كأسرة باسى وأسرة بولليني وأسرة جراتشى ، فاعتنقت جميعها الديانة المسيحية ، كما أن « أعضاء مجمع كاتو الموقرين ، وهم كواكب الدنيا (على حد التعبير المنمق الذى استخدمه برودنتيوس) ، كانوا يتحرقون الى التجرد من أرديتهم الكهنوتية ، والى التخلص من جلد الثعبان القديم ، وارتداء الثياب البيضاء الناصعة ، ثياب المعمودية البريئة ، واذلال عزة شارات السلطة القنصلية أمام قبور الشهداء » أما المواطنون الذين كانوا يعيشون بعملهم وجدهم ، والدهماء الذين كانوا يعيشون على سخاء المجتمع ، فقد اكتظت بهم كنائس الفاتيكان وكنائس اللاتيران فى جموع لا تنقطع من المهتدين الأتقياء . وهكذا أقر الرومان برضائهم العام تلك القرارات التى أصدرها السناتو بتحريم عبادة الأوثان ، واندثرت روعة الكابيتول ، وتركت المعابد المنعزلة للخراب والهوان وخضعت روما لسيطرة الانجيل ، ولم تكن الولايات المقهورة قد فقدت بعد احترامها لاسم روما وسلطانها .

وكان الاخلاص الذى يكنه الأباطرة لأمهم روما مما جعلهم يسيرون فى اصلاح المدينة الخالدة فى شىء من الحرص والرقة ، ولم يكترث هؤلاء الملوك أصحاب السلطة المطلقة اكتراثا كبيرا بتحامل سكان الولايات واستأنفوا بهمة ذلك العمل الصالح الذى توقف قرابة عشرين سنة منذ وفاة قسطنطيوس ، ثم أتمه أخيرا الامبراطور الورع ثيودوسيوس . وبينما كان ذلك الملك الجرىء لا يزال يصارع القوط ، لا من أجل مجد الدولة ، بل من أجل سلامتها ، غامر بالاساءة الى جزء كبير من رعاياه ببعض الأعمال التى قد تظللها السماء بحمايتها ، غير أنها تتسم فى نظر الحرص الانسانى بالتهور والبعد عن التعقل . ذلك أن نجاح التجربة الأولى التى قام بها الامبراطور الورع ضد الوثنيين شجعته على التمادى فى اصدار مراسيم الحظر والحرمان وتنفيذها : وبعد هزيمة مكسيموس طبقت على امبراطورية الغرب كلها نفس القوانين التى كان قد أصدرها أصلا فى ولايات الشرق ، وكان كل ظفر يحققه ثيودوسيوس الأرثوذكسى (صاحب المعتقد الصحيح) ، يسهم فى انتصار العقيدة المسيحية الكاثوليكية . وهاجم ثيودوسيوس الخرافة فى أعظم جانب حيوى لها ، وذلك بحظر تقديم القرابين التى أعلن أنها عمل اجرامى بقدر ما هو عمل مشين ، واذا كانت الألفاظ التى صيغت بها مراسيمه قد أدانت بصفة أخص ذلك الفضول الذى يدفع الناس الى فحص أحشاء الضحايا ، فانه

كل تفسير تال لمراسيمه أدخل في الجزيرة نفسها عادة تقديم القرابين بوجه عام ، وهي التي تشكل أساسا ديانة الوثنيين • وبما أن المعابد كانت قد أقيمت لغرض تقديم الذبائح ، فقد أصبح واجب الملك الخير أن يبعد عن رعاياه ذلك الاغراء الخطير الذي يغريهم على الاساءة الى القوانين التي سنها ، فأصدر تكليفا خاصا الى كينيجيوس Cynegius الحاكم البريتوري للشرق ، ثم الى الكونت جوفيوس والكونت جودنتيوس ، وهما ضابطان من رتبة رفيعة في الغرب، يأمرهم فيه باغلاق المعابد ، والاستيلاء على أدوات العبادة الوثنية أو تدميرها والغاء امتيازات الكهنة ، ومصادرة الأملاك الموقوفة على الأماكن المقدسة ، لمنفعة الامبراطور أو الكنيسة ، أو الجيش • والى هنا كان يمكن للخراب أن يتوقف ، وكان يمكن للصروح العارية التي لم تعد تستعمل في خدمة العبادة الوثنية ، أن تبقى بعيدة عن ثورة التعصب المدمرة ، وكان الكثير من تلك المعابد أجمل وأروع آثار فن العمارة اليوناني ، وكان الامبراطور نفسه حريصا على عدم تشويه روعة مدائنه ، أو الاقلال من قيمة ممتلكاته • وكان يمكن لتلك المباني الفخمة أن تبقى نصبا كثيرة دائمة تخلد ذكرى انتصار المسيح • واذا انحطت الفنون ، كان يمكن تحويلها بسهولة الى مستودعات ، أو مصانع ، أو أماكن اجتماعية عامة • ومن الجائز أن جدران المعبد ، بعد أن تطهرها الشعائر المقدسة تطهيرا كافيا ، يمكن أن تكفر عبادة الرب الحقيقي فيها عن ذنب العبادة الوثنية القديم ، ولكنها طالما بقيت قائمة ، ظل الوثنيون يداعبهم أمل خفي عزيز في قيام ثورة موفقة ، أو مجيء امبراطور آخر مثل جوليان يعيد لهم مذابح الآلهة ، كما أن الجدية ، التي قدموا بها توسلاتهم المجدية الى العرش ، ألهبت حماس المصلحين المسيحيين الى استئصال جذور الخرافة دون رحمة • ولم تتسم قوانين الأباطرة بمثل ذلك العنف ، بل كانت أميل الى الاعتدال ، غير أن جهودهم الفاترة الضعيفة لم تكن كافية لصد تيار الحماس والنهب ، الذي دبر له أو قل دفعه دفعا حكام الكنيسة الروحيون • ففي بلاد الغال سار الأب المقدس مارتن (١) ، أسقف تور ، على رأس رهبانه المخلصين ، لتدمير الأصنام ، والمعابد والأشجار المقدسة في أبرشيته الواسعة ، وفي مقدور القارىء الفطن أن يحكم اذا كان مارتن قد أيده في تلك المهمة الشاقة عون من قوة معجزة ، أو من أسلحة دنيوية • أما في سوريا ، فان ماركيللوس التقي الطيب ، على حد تعبير تيودور ، وهو أسقف يلتهب بالغيرة الرسولية،

---

(١) انظر « حياة مارتن » (The Life of Martin) تأليف Sulpicius Severus وقد حدث مرة ان رأى الأب المقدس جنازة بريئة فظن خطأ أنها موكب وثني ، وهنا خانته الحكمة وارتكب معجزة •

عقد العزم على أن يسوى بالأرض كل المعابد الفخمة القائمة فى أبرشية أباميا Apamea • غير أن المهارة والصلابة اللتين شيد بهما معبد جوبيتر قاومتا هجوم الأسقف ورجاله • فقد كان البناء قائما فوق ربوة عالية ، وكان السقف المرتفع مستندا فى الجوانب الأربعة على خمسة عشر عمودا ضخما يبلغ محيط الواحد منها سته عشر قدما ، كما أن الأحجار التى بنيت منها كانت ملصقة لصقا قويا بالحديد والرصاص ، بحيث أخفقت فى هدمها أقوى وأحد الأدوات ، وأصبح من الضرورى تقويض أساسات الأعمدة نفسها ، فانهارت بعد حرق الدعائم الخشبية التى شيدت بصفة مؤقتة ، وقد وصفت الصعاب التى اعترضت هذا المشروع بصورة مجازية على أنها من عمل شيطان أسود استطاع أن يؤخر عمليات المسيحيين ، ولكنه عجـــز عن منعها • وانتفخ ماركيللوس بهـذا الانتصار فقاد الحملة بنفسه ضـد قوى الظـلام ، وسير قوة كبيرة من الجنود والمجالدين تحت العلم الأسقفى هاجم بها معابد القرى والريف فى أبرشية أباميا • وكان بطل الايمان ونصيره يعانى من عرج لا يمكنه من القتال أو الفرار ، ومن ثم فكلما كان يخشى مقاومة أو خطرا ، كان يقف على مسافة بعيدة عن مرمى النبال • غير أن هذا الحرص من جانبه هو الذى أودى بحياته ، فقد فاجأه بعض القرويين الثـائرين وذبحوه ، وأعلن مجمع الولايـة دون تردد أن ماركيللوس المقدس قد ضحى بحياته من أجل قضية الله • وتأييدا لهذه القضـية اندفـع الرهبـان من الصحراء فى غضب صـاخب ، وأظهروا ما يتميزون به من غيرة وهمة استحقوا بها عداوة الوثنيين ، وقد يستحق بعضهم أن يوصم بالطمع الذى أشبعه بنهب الأماكن المقدسة ، وبالافراط الذى انغمسوا فيه على حساب النـاس الذين أعجبوا فى غبـاء بملابسهم المهلهلة ، وترتيلهم الجهورى ، وشحوبهم المصطنع (١) • ونجا عدد قليل من المعابد بفضـل مخاوف الحـكام الدينيين والمدنيين ، أو بفضل رشوة أخذوها ، أو بدافع من الذوق أو الحكمة • أما معبد فينوس السماوية فى قرطاجة ، الذى كان محيطه المقدس يبلغ ميلين ، فقد رئى من الحكمة أن يحول الى كنيسة مسيحية ، وحدث ما يشبه ذلك لمعبد البانثيون المهيب ، وبهذا بقيت قبته الفخمة سليمة • غير أن كل ولاية من ولايات العـالم الرومانى تقريبا شهدت جيشا من المتعصبين يهاجم السكان الآمنين ، دون نظام ودون سلطان عليه ويهدم أجمل الصروح القديمة التى ما تزال آثارها

---

(١) وجه ليبانيوس تعنيفا الى أصحاب الأردية السوداء هؤلاء ، وهم الرهبان المسيحيون الذين يأكلون اكثر مما يأكل الفيلة • مساكين هؤلاء الفيلة !! انها حيوانات عفيفة •

تشهد بعبث هؤلاء البرابرة الذى توافر لهم من الوقت والرغبة ما جعلهم ينفذون ذلك التدمير العنيف الشاق ٠

تدمير معبد سرابيس

وفى هذا الخراب الذى اتسع مداه وتنوعت أشكاله يستطيع المشاهد ان يميز أطلال معبد سرابيس Serapis فى مدينة الاسكندرية ٠ ويبدو أن سرابيس لم يكن أحد الآلهة أو الوحوش الوطنية ، ولم ينشأ فى مصر المؤمنة بالخرافات وذات التربة الخصبة ٠ ذلك أن أول ملوك البطالمة قد تلقى فى أحد أحلامه أمرا باحضار تمثال ذلك الأجنبى الغريب من شاطىء بنطش Pontus ، حيث كان معبودا عبده أهل سينوب Sinope مدة طويلة ، غير أن أحدا هناك لم يكن يفهم شيئا عن صفاته وعهده الى درجة أن الجدل كان قائما حول ما يمثله التمثال ، وهل يمثل كوكب النهار الوضاء ، أو ملك العالم السفلى المظلم الكئيب ، ورفض المصريون المتشبثون بدين آبائهم فى صلابة وعناد قبول هذا الاله الأجنبى داخل أسوار مدائنهم ٠ غير أن الكهنة الأذلاء ، الذين أغراهم سخاء البطالمة ، خضعوا دون مقاومة لسلطان اله بنطش ، ووضعوا له تاريخا شريفا وطنيا يتسلسل فيه نسب ذلك المغتصب السعيد الحظ الى عرش وفراش أوزيريس ، زوج ايزيس وملك مصر السماوى ٠ وأصبحت الاسكندرية التى اختصها هذا الاله بحمايته ، تفخر باسم مدينة سرابيس ٠ وأقيم له معبد ينافس الكابيتول عظمة وروعة ، على قمة فسيحة لتل صناعى يعلو عن الأجزاء المجاورة من المدينة بمائة درجة من درجات السلم ، ودعم تجويفه الداخلى تدعيما قويا بالأقواس ، وقسم الى أبهاء وغرف تحت سطح الأرض ٠ وأحيطت المبانى المقدسة برواق مربع الزوايا ، وتجلت فى القاعات الفخمة والتماثيل الرائعة عظمة الفنون وتقدمها ، كما احتفظ بكنوز العلم القديم فى مكتبة الاسكندرية الشهيرة التى أعيد بناؤها بروعة جديدة بعد أن كانت تحولت الى رماد ٠ وبعد أن أصدر ثيودوسيوس تلك المراسيم التى حرم فيها قرابين الوثنيين تحريما صارما ، ظل تقديمها مسموحا به فى مدينة سرابيس ومعبده ، ونسب هذا التسامح فى غير فطنة الى الفزع الخرافى الذى تملك المسيحيين ، كما لو أنهم كانوا يخشون الغاء الطقوس القديمة التى تستطيع وحدها أن تحقق فيضان النيل ، وتضمن المحاصيل المصرية ، وغذاء القسطنطينية ٠

وفى ذلك الوقت كان كرسى كبير أساقفة الاسكندرية يشغله توفيلوس Theophilus العدو الأبدى للسلم والفضيلة ، وهو رجل جرىء سيىء الخلق تلوثت يداه بالذهب تارة وتخضبت بالدماء تارة أخرى ٠

ولقد أثار سخطه الديني ما أضفى على سرابيس من ألوان التكريم وكانت الاهانات التي وجهها الى معبد باكوس Pacchus القديم من الأمور التي أقنعت الوثنيين بأنه كان يدبر مشروعا أكثر أهمية وأعظم خطورة . وفي عاصمة مصر الصاخبة كانت أقل اثارة تكفي لاشعال نار حرب أهلية . وكان المتعبدون لسرابيس أقل بكثير من خصومهم عددا وأضعف قوة ، ولكنهم ثاروا وحملوا السلاح بتحريض من الفيلسوف أوليمبيوس Olimpius الذي حثهم على الموت دفاعا عن مذابح الآلهة . وتحصن هؤلاء الوثنيون المتعصبون في معبد سرابيس ، أو قل حصن سرابيس ، وصدوا المحاصرين بهجمات فجائية جريئة ، وبدفاع عنيد ، والتمسوا آخر عزاء يائس بما أوقعوه بأسراهم المسيحيين من أعمال القسوة الوحشية ، وضاعت الجهود التي بذلها الحاكم الحصيف في اقرار هدنة بين الفريقين حتى تصل من ثيودوسيوس اجابة يقرر فيها مصير سرابيس. واجتمع الفريقان ، وهم عزل من السلاح ، في الميدان الرئيسي حيث قرئ الرد الامبراطوري علنا . وعندما نطق الحاكم بحكم الامبراطور الذي يقضي بتدمير أوثان الاسكندرية ارتفعت أصوات الفرح والسرور من جانب المسيحيين ، أما الوثنيون التعساء الذين انقلب غضبهم الى فزع وحيرة ، فقد انسحبوا في خطوات سريعة صامتة ، وأفلتوا بفرارهم وانزوائهم من سخط أعدائهم . وبدأ توفيلوس تقويض معبد سرابيس ، دون أن يلقى أية صعوبات اللهم الا تلك التي وجدها في ثقل وصلابة المواد التي شيد منها البناء . غير أن تلك العوائق كانت منيعة لا تقهر بحيث اضطر الى ترك الأساسات والاكتفاء بتحويل البناء نفسه الى كومة من الأنقاض ، وسرعان ما نظفوا جزءا منه لبناء كنيسة تقام تكريما للشهداء المسيحيين. أما مكتبة الاسكندرية القيمة فقد نهبت ودمرت ، وبعد انقضاء قرابة العشرين عاما بدت الرفوف خاوية خالية تثير الأسف والسخط في نفس كل مشاهد لم يطغ على عقله ظلام التعصب الديني ،ولقد كان من المستطاع أن يستثنى من تدمير الوثنية ما أنتجته العبقرية القديمة من مؤلفات هلك الكثير منها دون ما أمل في تعويضها ، بحيث تبقى لتسلية الأجيال التالية وتعليمها ، وكان من الممكن أن يشبع الأسقف غيرته أو طمعه بما حصل عليه من أسلاب ثمينة جزاء انتصاره . وقد حرص الأسقف على صهر التماثيل والأواني الذهبية ، أما تلك المصنوعة من معدن أقل قيمة فقد حطمها في ازدراء وألقى بها في الطرقات ، وفي الوقت عينه عمل على اظهار رذائل كهنة الأوثان وأساليب تدليسهم ، وبراعتهم في استخدام حجر المغنطيس ، ووسائلهم الخفية في ادخال أحد الممثلين في تمثال أجوف .

وفى استغلال الشائن لثقة الأزواج الأتقياء وزوجاتهم الساذجات (١) ٠ ويبدو أن مثل هذه الاتهامات قد تستحق قدرا من التصديق ، لأنها لا تجافى الروح الخبيثة المغرضة التى يتسم بها أهل الخرافات ٠ غير أن هذه الروح نفسها هى التى اتجهت بالصورة عينها الى ذلك الاجراء الخسيس وهو التعريض بعدو مهزوم والافتراء عليه ، ومن الطبيعى أن تعترض تصديقنا فكرة أن ابتكار قصة وهمية أقل صعوبة بكثير من اثبات تدليس فعلى ٠ ولقد أصاب تمثال سرابيس الضخم ما أصاب معبده وديانته من دمار ٠ وكان التمثال الهائل لهذا الاله مكونا من عدد كبير من ألواح من مختلف المعادن ملتحمة بعضها ببعض ، ويلمس من جانبيه جدران المحراب ، وكان شكل سرابيس ، ووضعه الجالس ، والصولجان الذى كان يحمله فى يده اليسرى ، كل أولئك كان شديد الشبه بالتماثيل العادية للاله جوبيتر ، ولكنه كان يفترق عن جوبيتر بالسلة أو المكيال الذى وضع فوق رأسه ، وبالوحش الرمزى الذى أمسك به فى يده اليمنى ، وهو رأس وجسم ثعبان يتفرع الى ثلاثة ذيول ، وهذه بدورها تنتهى بثلاثة رءوس هى رأس كلب ورأس أسد ورأس ذئب ، وكان المقول فى ثقة وتأكيد انه اذا تجرأت يد دنسة على المساس بجلال الاله ، فان السموات والأرض سوف تعود على الفور الى حالة فوضاها الأصلية ٠ غير أن جنديا جريئا ألهبه الحماس وكان مسلحا ببلطة القتال ، فارتقى السلم صاعدا الى التمثال ، وحتى الجمهور المسيحى نفسه توقع فى شىء من القلق ما سوف يحدث نتيجة للصراع ٠ وصوب الجندى ضربة قوية الى خد سرابيس ، فوقع الخد الى الأرض ، غير أن الرعد ظل صامتا ، وظلت السموات والأرض تسير فى نظامها وهدوئها المعتاد ٠ وعاود الجندى الظافر ضرباته وأطاح بالصنم الضخم الذى تحطم قطعا ، وجر الجمهور أطراف سرابيس فى طرقات الاسكندرية بصورة شائنة ٠ ثم أحرقوا تمثاله فى مدرج المدينة وسط صيحات الجماهير ، ونسب كثير من الناس ارتدادهم عن الوثنية الى اكتشافهم عجز الاله الذى كان يرعاهم ويحرسهم٠ولا شك فى أن أساليب الدين الشعبية المألوفة التى تقدم للناس أية معبودات مادية مرئية انما تتمتع بميزة أنها تستطيع أن تشكل نفسها وفق حواس الانسان ، وتجعل الناس يألفونها ، غير أن هذه الميزة يقابلها ما يتعرض له ايمان العابد من

---

(١) يذكر « روفينوس » اسم كاهن زحل الذى كان يلبس شخصية الاله ويتحدث فى الفة الى كثيرات من السيدات التقيات رفيعات الشأن ، حتى فضح نفسه فى لحظات من لحظات النشوة حين لم يستطع اخفاء نبرات صوته ٠ وقد تثبت القصة الصادقة غير المتحيزة التى أوردها أسكينيز Aschines ، ومغامرة مندوس Mandus أن مثل هذه التدليسات الغرامية كانت تمارس فى نجاح ٠

تأثر بما يعتور الصنم من مختلف الحوادث التى لابد من وقوعها · ولا يكاد يكون ممكنا أن مثل هذا العابد يستطيع فى كل اتجاه من اتجاهات عقله ، أن يحتفظ باجلاله الثابت الوطيد للأصنام أو المخلفات التى لا تستطيع العين المجردة واليد المدنسة أن تفرقا بينها وبين الأشياء العادية الى أبعد حد ، تلك التى ينتجها الفن أو تأتى بها الطبيعة · واذا عجزت قدرتها الخفية المعجزة ، فى ساعة الخطر ، عن اثبات وجودها ، فانه يسخر من دفاع كهنته ، ويهزأ من الشىء الذى كان يعبده ومن حماقـة تعلقه به ·
وبعد أن سقط سرابيس ظـل الوثنيون يعلقون بعض الآمال على أن نهر النيل سوف يضن بفيضه السنوى الذى يزود به سادة مصر الكافرين ، وبدأ تأخر الفيضان غير العادى فى تلك المناسبة كأنه نذير بغضب النهر الاله · غير أن هذا التـأخير سرعـان ما عوضته سرعة ارتفاع المياه التى وصلت الى مستوى غير عادى ارتاح له الفريق المتذمر ، وتوقع فى سرور أن الفيضـان سوف يكون طوفانا ، غير أن النهر الهادىء هبط ثانية الى مستواه المعروف الذى يحمل الخصوبة الى الأرض ، وهو ستة عشر قدما أو ثلاثون قدما انجليزيا ·

حظر الشعائر الوثنية

رغم أن معابد الامبراطورية الرومانية هجرت أو هدمت ، الا أن براعة الوثنيين المؤمنين بالخرافات ظلت تحاول التهرب من قوانين ثيودوسيوس التى حرم بمقتضاها كل الذبائح والقرابين · فسكان الريف الذين كان مسلكهم أقل تعرضا للعيون الخبيثة المستطلعة ، كانوا يخفون اجتماعاتهم الدينية تحت قناع من اللهو والمرح · ففى أيام الاحتفالات الدينية كانوا يجتمعون فى أعداد كبيرة تحت ظل شجرة وارفة مقدسة ، ويذبحون الخراف والثيران ويشوونها ويقدسون هذه المأدبة الريفية بحرق البخور بانشاد التراتيـل تكريما للآلهة · وكانوا يدعون أن تلك اللقـاءات الاحتفالية لا تعتبر من جـانب المدعوين ارتكابـا لجريرة التقـدمة غير المشروعـة ولا تعرضهم للقصاص المترتب عليها ، لأنهم فى حرص وحذر ، لا يقدمون أى جزء من الحيوان قربانا محروقا ، ولا يقيمون مذبحا لتلقى الدماء ، ولا يبدءون بتقديم قربان الكعك المملح ، ولا ينهون الاحتفال بسـكب الخمور ·· ومهما كان صدق هذا التفريق أو قيمته ، فان المرسوم الأخير الذى أصدره ثيودوسيوس قضى على كل هذه الادعاءات الباطلة وأصـاب خرافة الوثنيين بجرح مميت ، وقد صيغ هذا القانون التحريمى فى عبارات شاملة مطلقة أكثر ما يكون الشمول والاطلاق · يقول الامبراطور :

« تقتضي ارادتنا ومشيئتنا ، أنه ينبغي على كل فرد من رعايانا ، حاكما أو مواطنا ، عظيم الشأن والمقام أو حقيرا ، ألا يعبد في أية مدينة ، أو في أى مكان ، صنما لا حياة فيه ، بذبح ضحية بريئة » • وأعلن هذا المرسوم أن تقديم الذبائح والتكهن بالغيب عن طريق أحشاء الضحية (دون أى اعتبار لموضوع البحث) يعتبر خيانة عظمى ضد الدولة ولا تكفير عنها الا بموت المذنب •

أما طقوس الخرافة الوثنية التي قد تبدو أقل دموية واجراما ، فقد ألغيت على اعتبار أنها شديدة المساس بحقيقة الدين وشرفه ، وأدين منها بنوع خاص اشعال النيران وارتداء ضفائر الزهور ، وحرق البخور العربية ، وتقديم قرابين النبيذ ، كما أن المطالب البريئة للأرواح العائلية والآلهة المنزلية شملها جميعا هذا التحريم الصارم • وأصبح أداء أى من هذه الشعائر المدنسة غير المشروعة يعرض المذنب الى فقدان المنزل أو العقار الذى أقيمت فيه • واذا كان قد تحايل على اختيار منزل شخص آخر لممارسة هذا الضلال ، فانه يرغم فورا على دفع غرامة فادحة قدرها خمسة وعشرون رطلا من الذهب ، وهي أكثر من ألف جنيه استرليني • وفرضت غرامة لا تقل عن ذلك على تواطؤ أعداء الدين السريين الذين يهملون في كشف جريمة العبادة الوثنية أو توقيع العقاب عليها • هكذا كانت روح الاضطهاد التى انطوت عليها قوانين ثيودوسيوس ، ونفذها أبناؤه وأحفاده مرارا وتكرارا وقوبل ذلك بالتهليل والاستحسان الاجماعى من جانب العالم المسيحى •

ولقد حرمت المسيحية في عهد ديكيوس ودقلديانوس ، وهما عهدان اتسما بالقوة ، على أنها ثورة على الديانة القديمة الموروثة في الامبراطورية ، وحامت حول معتنقيها ريب ظالمة بأنهم حزب غامض خطير • غير أن هذه الريب قوبلت الى حد ما باتحاد لا ينفصم ومكاسب سريعة من جانب الكنيسة الكاثوليكية • غير أن هذا الخوف والجهل نفسه لا يمكن أن يعتبرا عذرا ينطبق على الأباطرة المسيحيين الذين خرقوا مبادىء الانسانية وتعاليم الانجيل، فلقد كشف تجربة العصور عن ضعف الوثنية وحماقتها ، كما أن نور العقل والايمان أظهر لأكبر جزء من الجنس الانسانى تفاهة الأصنام وبطلانها • وكان في الامكان أن يسمح لأبناء هذه الطائفة المتدهورة التى ظلت متمسكة بعبادتها أن يتمتعوا بالعادات الدينية التى ورثوها عن أجدادهم فى هدوء وانزواء ، ولو أن الوثنيين اشتعل فى صدورهم ذلك الحماس العنيد الذى تملك عقول المؤمنين القدامى ، لتلطخ انتصار الكنيسة بالدماء ، ولرحب شهداء جوبيتر وأبوللو بالفرصة المجيدة التى تمكنهم من التضحية بأرواحهم وثرواتهم أمام مذابح الآلهة ، غير أن

هـذا الحماس العنيد لم يكن من شيمة الطباع الوثنية المتسمة بالتفكك والاهمال فكانت الضربات العنيفة المتكررة التى يوجهها اليهم الحكام الأرثوذكس تقع على مادة لينة مرنة فتنكسر حدتها ، ووقاهم خضوعهم السريع من الآلام والجزاءات التى تضمنها قانون ثيودوسيوس وبدلا من أن يصروا على أن سلطان الآلهة أسمى من سلطان الامبراطور ، فقد أقلعوا بصدمة حزينة عن ممارسة تلك الشعائر المقدسة التى أدانها مليكهم ٠

واذا كانوا فى بعض الأوقات يمارسون خرافتهم المفضلة بدافع من نزوة الهوى ، أو بأمل فى عدم افتضاح أمرهم ، فان توبتهم الذليلة كانت تسلب الحاكم المسيحى قسوته ، وقلما كانوا يرفضون التكفير عن تهورهم بالخضوع الى سيطرة الانجيل ، على شىء من المضض ٠ وامتلأت الكنائس بأعداد متزايدة من هؤلاء المهتدين التافهين الذين اعتنقوا الديانة السائدة مدفوعين بدوافع دنيوية ، وبينما كانوا يقلدون فى خشوع جلسة المؤمنين ويرددون صلواتهم ، كانوا يرضون ضمائرهم بالتضرع الى آلهتهم القديمة فى دخيلة أنفسهم ٠ واذا كان الوثنيون فى حاجة الى الصبر على الألم ، فقد كانت تعوزهم روح المقاومة ، ومن ثم فان أعدادهم الغفيرة المشتتة ممن كانوا يبكون على خراب معابدهم ، استسلموا دون كفاح الى فوز خصومهم ٠ أما المقاومة غير المنظمة التى أبداها فلاحو سوريا وأهل الاسكندرية ضد التعصب المحلى ، فقد أسكتت باسم الامبراطور وبسلطانه ٠ أما وثنيو الغرب فمع أنهم لم يسهموا فى وصول يوجينيوس الى العرش ، الا أنهم ألحقوا العار بقضية المغتصب وبشخصيته من جراء تعلقهم المغرض به فقد رماه رجال الدين فى عنف بأنه ضاعف جرم التمرد بذنب المروق عن الدين ، وبأنه أذن باعادة مذبح آلهة النصر ، وبأن شارات جوبيتر وهرقول الوثنية كانت تظهر فى ميدان القتال قبالة علم الصليب الذى لا يقهر ٠ غير أن آمال الوثنيين الباطلة سرعان ما تحطمت بهزيمة يوجينيوس ، فتركوا معرضين لسخط الفاتح المنتصر الذى عمل جاهدا على أن ينال حظوة السماء بابادة الوثنية ٠

ان أمة من العبيد لا تتوانى عن اظهار استحسانها لشفقة سيدها عندما لايستغل سلطانه المطلق ويذهب الى أبعد حدود الظلم والاضطهاد ٠ ولا شك فى أن ثيودوسيوس كان فى مقدوره أن يخير رعاياه الوثنيين بين المعمودية أو الموت ، ولقد امتدح رجل البلاغة ليبانيوس اعتدال ذلك الملك الذى لم يسن قانونا قاطعا يفرض على كل رعاياه أن يعتنقوا ويمارسوا دين مليكهم ٠ ولم يجعل ثيودوسيوس اعتناق المسيحية شرطا جوهريا للتمتع بحقوق المجتمع المدنية ، ولم يفرض منغصات خاصة على أبناء الطوائف التى صدقت تلك القصص الخرافية التى كتبها الشاعر

آوفيد Ovid ، ونبذت في عناد تلك المعجزات التى ورد ذكرها فى الانجيل • وكان الوثنيون الذين يجهرون بعقيدتهم ويتمسكون بها يملأون القصر والمدارس والجيش والسناتو ، وكانوا يحصلون دون تفرقة على المناصب المدنية والعسكرية فى الامبراطورية ، وأظهر ثيودوسيوس اجلاله الكريم للجدارة والعبقرية بأن منح سيماخوس منصب القنصلية الرفيع ، وبما أظهره نحو ليبانيوس من صداقة شخصية ، ولم يطلب الى نصيرى الوثنية البليغين أن يغيرا آراءهما الدينية أو يماريا فيها ، ومارس الوثنيون أوسع حدود الحرية كلاما كتابة • واتك التجد فيما خلفه يونابيوس وزوسيموس ، معلمو مدرسة أفلاطون المتعصبون ، من كتابات فلسفية وتاريخية ، ما ينم عن أشد العداوة ، وما يحتوى على أقذع الاتهامات الموجهة الى مشاعر وسلوك خصومهم المنتصرين • وبما أن هذه الاتهامات الجريئة كانت معروفة للناس جميعا فانه ينبغى علينا أن نطرى أريحية الملوك المسيحيين الذين نظروا فى ابتسامة ازدراء الى آخر كفاح الخرافة واليأس • غير أن القوانين الامبراطورية التى حرمت قرابين واحتفالات الوثنية ، نفذت تنفيذا صارما ، وكانت كل ساعة تمضى من الوقت تسهم فى القضاء على نفوذ ديانة تؤيدها العادات دون الحجة • وان الشاعر أو الفيلسوف ليستطيع خفية أن يشبع عبادته بالصلاة والتأمل والدراسة • غير أن ممارسة العبادة العلنية يبدو أنها الأساس المتين الوحيد لاشباع الأحاسيس الدينية التى يشعر بها الناس، تلك الأحاسيس التى تستمد قوتها من التقاليد والعادة • ولا شك فى أن اعاقة هذه الممارسة العلنية قد تكمل فى مدى سنوات قليلة ذلك العمل الهام الذى تقوم به ثورة قومية • كما أن تذكر الناس للآراء الدينية لا يمكن أن يبقى طويلا دون معينات صناعية يستمدونها من رجال الدين ، ومن المعابد ، ومن الكتب • والدهماء الجهلاء ، الذين لا تزال عقولهم مضطربة بما فيها من الآمال والمخاوف العمياء التى تثيرها الخرافة ، سرعان ما يغريهم سادتهم على توجيه ولائهم الى آلهة العصر السائدة ، فيسرى فيهم ، دون أن يشعروا ، حماس متقد لتأييد ونشر العقيدة الجديدة التى أرغمهم جوعهم الروحى على قبولها فى بادىء الأمر • ولقد اتجه الجيل الذى نشأ فى العالم بعد اصدار القوانين الامبراطورية نحو حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ودخل رحابها ، وكان سقوط الوثنية سريعا وهادئا الى درجة أنه لم تنقض ثمانية وعشرون عاما على موت ثيودوسيوس ، حتى اندثرت آثارها الضعيفة الزهيدة ، فلم تعد تراها عين المشرع •

عبادة الشهداء المسيحيين
وانتعاش عادات الشرك

يصف السفسطائيون سقوط الوثنية بأنه حدث معجز ونذير شؤم مذهل رهيب أسدل على الأرض ليلا وأعاد عهد الظلام والفوضى القديم · وهم يقصون فى لهجة الجد والحزن أن المعابد تحولت الى أضرحة ، وأن الأماكن المقدسة التى كانت تزينها تماثيل الآلهة ، دنستها بصورة دنيئة بقايا الشهداء المسيحيين · يقول يونابيوس : « ان الرهبان (وهم جنس من الحيوانات القذرة لا يستأهلون اسم الرجال) هم الذين ابتكروا العبادة الجديدة التى وضعت أحقر العبيد وأكثرهم مهانة مكان تلك الآلهة التى يدركها العقل والفهم · وأولئك الشهداء هم المذنبون الخاطئون الذين استحقوا الموت الشائن العـادل جزاء جرائمهـم الكثيرة ، أولئك هم المجرمون ، بجماجمهم المملحة المحنطة ، وبأجسادهم التى لا تزال تحمـل آثار السياط وندوب التعذيب الذى حكم عليهم به الولاة ، أولئك هم الآلهة التى تخرجها الأرض لنا فى هذه الأيام · أولئك هم الشهداء ، أصحاب المقامات السامية المتحكمون فى صلواتنا وتضرعاتنا الى الاله ، أولئك هم الشهداء الذين قدست قبورهم وأصبحت موضع اجلال الناس واحترامهم»

ولسنا نوافق على ما يحمله هذا الكلام من حقد ، غير أنه من الطبيعى أن نشارك السفسطائي يونابيوس دهشته ، فهو الذى شهد ثورة رفعت ضحايا قوانين روما المغمورين الى مصاف الحماة السماويين غير المرئيين للامبراطورية الرومانية ، ذلك أنه بمرور الزمن وبحـكم انتصار المسيحيين ، ارتفع اجـلالهم لشهداء الدين المقرين بعرفانهم لفضـلهم ، الى مرتبة التقديس الدينى ، واستحق أشهر القديسين والأنبياء أن يقرنوا بأمجاد الشهداء · وبعد مائة وخمسين سنة من الموت المجيد الذى انتهت به حيـاة القديس بطرس والقديس بولس ، كان طريق الفاتيكان وطريق أوستيا يتميزان بالأضرحة ، أو قل بالنصب المقامة لهذين البطلين الروحيين · وفى العهد الذى تلا تحول قسطنطين الى المسيحية ، كان الأباطرة والقناصل وقواد الجيوش يزورون فى خشوع أضرحة صناع الخيام وصائدى الأسماك الذين دفنت عظامهم المبجلة تحت هياكل المسيح ، تلك الهياكل التى يقدم عليها أساقفة المدينة الملكية قرابينهم غير الدموية بصورة مستمرة · أما العاصمة الجديدة للعالم الشرقى فقد عجزت عن ايجاد أية نصب قديمة محلية ، فتزودت بما غنمته من الولايات التابعة لها · وكانت أجسـاد القديس اندراوس ، والقديس لوقا والقديس تيموتاوس ، ترقد منذ ما يقرب من ثلاثمائة سنة فى قبورها المظلمة ، ثم نقلت منها فى موكب مهيب وقور

الى كنيسة الرسل التى شاءت عظمة قسطنطين أن تشيدها على ضفاف البسفور فى تراقيا · وبعد ذلك بخمسين عاما تشرفت الضفاف نفسها بمجيء جثمان صمويل ، نبى شعب اسرائيل وقاضيه · ووضعت بقاياه فى اناء ذهبى مغطى بنقاب حريرى ، وتبادلتها أيدى الأساقفة · وقابل الناس بقايا صمويل بالفرح والاجلال كما لو كان النبى حيا ، وامتلأت الطرقات ، من فلسطين الى أبواب القسطنطينية ، بموكب متصل ، وخرج الامبراطور أركاديوس بنفسه على رأس ألمع أعضاء الكهنوت والسناتو لمقابلة هذا الضيف غير العادى الذى كان جديرا دائما بولاء الملوك ، ويتطلب منهم هذا الولاء ، وبفضل ذلك المثل الذى ضربته روما والقسطنطينية توطد ايمان العالم الكاثوليكى ونظامه وبعد تذمر ضعيف عديم الجدوى يعود الى سبب دنيوى دنس ، توطدت أمجاد القديسين والشهداء فى كل مكان ، وفى عصر امبروز وجيروم كانت قدسية أية كنيسة مسيحية تعتبر مفتقرة الى ما يكملها ، حتى تقدسها قطعة من رفات مقدسة تدعم ولاء المؤمنين وتلهبه · وخلال فترة طويلة قدرها مائتان وألف سنة ، بين عهد قسطنطين وبين حركة الاصلاح التى قادها لوثر ، أفسدت عبادة القديسين وعظام الشهداء تلك البساطة النقية الكاملة التى اتسم بها النموذج المسيحى ، وفى مقدورنا أن نلاحظ بعض أعراض الانحلال ، حتى فى الأجيال الأولى التى أخذت بهذه البدع الهدامة واحتضنتها ·

١ ـ دلت التجربة على أن بقايا القديسين كانت أكثر قيمة من الذهب أو الأحجار الكيمة وأغرت هذه التجربة رجال الدين على مضاعفة أموال الكنيسة ، فلم يأبهوا بالحقيقية أو الاحتمال ، وابتكروا أسماء لهياكل عظيمة ، وابتدعوا للأسماء أعمالا ، ولوثوا شهرة الرسل وأتقياء الرجال الذين حذوا حذوهم فى فضائلهم ، بالقصص الدينى الزائف وأضافوا الى العصبة الصامدة من الشهداء الأولين الأصليين عددا لا يحصى من الأبطال الوهميين ، الذين لم يكن لهم وجود الا فى خيال القصاصين الماكرين أو السذج · وهناك ما يبرر الشك فى أن أسقفية تور لم تكن الأسقفية الوحيدة التى بجلت فيها عظام أحد القديسين (١) · وهكذا مارس الناس الخرافة التى ضاعفت مغريات الغش والتصديق ، وأخمدت دون أن يشعر أحد نور التاريخ والعقل فى العالم المسيحى ·

٢ ـ غير أن سير الخرافة كان يمكن أن يكون أقل سرعة ونجاحا لو أن ايمان الناس لم يتلق عونا جاء فى أوانه من الرؤى والمعجزات التى

---

(١) انتزع مارتن أسقف تور هذا الاعتراف من فم الرجل الميت · والخطأ جائز على أنه أمر طبيعى · أما اكتشاف الخطأ · فالمفروض أنه معجز · فأيهما كان اكثر حدوثا ؟ ·

أن البقايا ، التى كانت موضـــعا لأكبر الشكوك ، هى بقايا صحيحة لأناس أتقياء • ففى عهد ثيودوسيوس الأصغر كان هناك كاهن فى أورشليم اسمه لوكيان Lucian ، يشـــغل منصب شيخ الكنيسة فى قرية كفارجمالا Cafargamala على بعد عشرين ميلا من المدينة تقريبا • وقص هذا الرجل حلما عجيبا كل العجب عاوده فى يوم السبت مدة ثلاثة أسابيع متوالية لكى يزيل شكوكه • ويقول القسيس انه رأى فى الحلم شخصا مبجلا وقورا يقف أمامه فى سكون الليل ، وقد ارتدى ثوبا أبيض ، وتدلت لحيته الطويلة ، وأمسك فى يده عصا من ذهب ، وقال ان اسمه جماليل Gamaliel ثم أوضـــح للقسيس الذى تولته الدهشـــة أن جثمانه وجثمان ابنه أبيباس وجثمان صديقه نيكوديموس ، وجثمان اســـطفان الشهير ، أول شهداء العقيدة المسيحية ، كانت مدفونة سرا فى الحقل المجاور • وأضاف فى شىء من نفاد الصبر ، أن الوقت قد حان للافراج عن نفسه وعن رفاقه من سجنهم المظلم ، وأن ظهورهم سوف يخدم العـــالم المكروب ، وأنهم جميعا قد وقع اختيارهم على لوكيان ليتولى أخبار أسقف أورشليم بمكانهم وبرغباتهم • وتتابعت عليه رؤى جديدة أزالت تلك الشكوك والصعاب التى كانت لا تزال تؤخر هذا الكشف الهام • وتولى الأسقف حفر الأرض بحضور جمهور كبير العدد ، وهناك وجدت توابيت جماليل وابنه وصديقه فى نظام مرتب • ولكن عندما أخرجوا التابوت الرابع ، وهو التابوت الذى ضم رفات الشهيد اسطفان ، زلزلت الأرض ، وفاح عبير ذكى كعبير الجنة ، شفى على الفور مختلف الأمراض التى كان يقاسى منها ثلاثة وسبعون من الحاضرين • وترك رفاق اسطفان فى مثواهم الهادىء ، أما رفات الشهيد الأول • فقد نقلت ، فى موكب رهيب ، الى كنيسة أقيمت تكريما لهـــا على جبل صهيون ، وأصـــبح من المعترف به ، فى كل ولاية من ولايات العالم الرومانى ، أن جزئيات هذه الرفات ، أو أية نقطة من الدم (١) ، أو أية قطعة من العظم ، لها صفة سماوية معجزة ، وانك لترى العلامة الوقور أوجستين (٢) Augustin ، الذى كان على قدر من الادراك لا يسمح بأن يعتذر لصاحبه بالسذاجة والتصديق ، يشهد

(١) كانت تذاب قارورة من دم القديس اسطفان فى نابولى كل سنة حتى خلفه القديس جانيورايوس St. Januarius •

(٢) ألف أوجستين الأجزاء الاثنين والعشرين من كتاب « مدينة الرب » فى ثلاث عشرة سنة (٤١٣ ـ ٤٢٦ بعد الميلاد) • وكثير من المعلومات الواردة فى هذا الكتاب منقولة ، أما حججه فهى فى أكثر الأحيان من عمله ، غير أن الكتاب فى مجموعه جدير بأن يعتبر عملاً رائعـا ، أتمه صاحبه فى قوة ومهارة •

بالمعجزات التى لا حصر لها التى صنعتها بقايا القديس اسطفان فى أفريقيا ، وهذه الرواية العجيبة يشتمل عليها المؤلف الرائع « مدينة الرب » الذى وضعه أوجستين أسقف هبو Hippo لكى يكون دليلا ثابتا خالدا على حقيقة المسيحية • ويعلن أوجستين فى كثير من الجدية أنه لم ينتق الا المعجزات التى اعترف بها علنا أولئك الذين كانوا موضوع قدرة الشهيد ، أو الذين كانوا شهود تلك القدرة • وقد نسى الكثير وحذف الكثير من الأعمال المعجزة ، كما أن مدينة هبو كان حظها من المعجزات أقل من حظ مدائن الولاية الأخرى ، ومع ذلك فان الأسقف يعد أكثر من سبعين معجزة ، ثلاث منها بعث من الموت ، فى غضون سنتين ، وفى حدود أسقفيته وحدها (١) فاذا اتسع مدى أبصارنا بحيث يشمل كل أسقفيات العالم المسيحى ، وكل القديسين ، فلن يكون من السهل علينا أن نحصى كل الخزعبلات وكل الأخطاء التى خرجت من هذا المصدر الذى لا ينضب معينه • غير أنه لابد أن يسمح لنا بأن نلاحظ أن المعجزة ، فى ذلك العصر الذى عرف بالخرافة والتصديق ، فقدت اسمها ومزيتها ، حيث لا يكاد يكون ممكنا أن تعتبر انحرافا عن قوانين الطبيعة العادية القائمة •

٣ ـ كانت قبور الشهداء هى المسرح الدائم للمعجزات التى تفوق الحصر • ولقد كشفت تلك المعجزات للمؤمن التقى عن الحالة الفعلية والتكوين الفعلى للعالم غير المنظور وبدا له أن تأملاته الدينية قائمة على أساس متين من الحقيقة والتجربة • فمهما كان من أمر الأرواح العادية فى الفترة الطويلة التى تنقضى بين تحلل أجسادها وبين بعثها ، فقد كان من الواضح أن الأرواح الأكثر سموا ، أرواح القديسين والشهداء ، لا تستنفد تلك الفترة من جودها فى نوم صامت خامل • وكان من الجلى (دون التجرؤ على تحديد مثواها أو طبيعة سعادتها) أنها تستمتع بما لديها من وعى نابض نشيط بسعادتها وبفضيلتها ، وبقدراتها ، وبأنها قد استحوذت على جزائها الأبدى • أما اتساع ملكاتها العقلية فانه يفوق مقاييس الخيال البشرى ، حيث ثبت بالتجربة أنها تستطيع أن تسمع وتدرك تضرعات العديدين من أنصارها الذين يستعيذون باسم اسطفان أو مارتن ويلتمسون عونهما ، فى نفس اللحظة من الزمن ، وفى أقصى أنحاء الدنيا • وكانت ثقة هؤلاء المتضرعين قائمة على اقتناعهم بأن القديسين ، الذين يحكمون مع

---

(١) انظر كتاب « مدينة الرب » تأليف أوجستين • الجزء الأول • الفصل ٢٢ ـ والملحق • وهو يحتوى على كتابين عن معجزات القديس اسطفان من وضع افوديوس ، أسقف يوزاليس • وقد احتفظ فريكولفوس بمثل أسبانى أو غالى ، يقول : « ان من يدعى أنه قرأ كل معجزات القديس اسطفان ، فهو كاذب » •

المسيح ، ينظرون بعين الشفقة الى الأرض ، وأنهم يهتمون اهتماما حارا بازدهار الكنيسة الكاثوليكيـــة ، وأن الأفراد الذين يحذون حذوهم فى ايمانهم وتقواهم هم فى موضـــع الحظوة الخاصة من أرق ألوان حـدبهم وعطفهم • وفى الحق أن صداقتهم كانت تتأثر أحيانا باعتبارات أقل سموا: فيخصون بالحب تلك الأماكن التى تقدست بمولدهم فيها ، أو باقامتهم ، أو بموتهم ، أو تلك التى دفنت فيهـا أجسادهم ، أو باقتناء آثارهم • أما ما هو أدنى من ذلك من أهواء كالكبرياء ، والطمع ، والانتقام ، فكلها أهواء تعتبر غير جديرة بضمير وخلق سماوى ، ومع ذلك فان القديسين أنفسهم تفضلوا باثبات استحسانهم وامتنانهم لسخاء أنصارهم ومريديهم، كما كانوا ينزلون أقصى ضربات العقاب بأولئك الأشقياء الضالين الذين يدنسون أضرحتهم ، أو الذين لا يؤمنون بقدرتهم الخارقة • وفى الحق أن جرم هؤلاء الناس لابد أن يكون شنيعا ، وأن شكلهم لابد أن يكون غريبا عجيبا ، اذا هم قاوموا فى عناد أدلة الأداة السماوية التى كان يتحتم طاعتها على عناصر الطبيعة ، وعلى الخليقة الحيوانية بأكملها ، بل وعلى العمليات الغامضة الخفية التى تدور فى العقل البشرى • ان النتائج المباشرة ، التى تكاد تكون تلقائية ، والتى كان مفروضا أنها تعقب الصلاة ، أو الاساءة أقنعت المسيحيين بما كان يتمتع به القديسون من حظوة وسلطان لدى الاله الأسمى ، وكان يبدو أنه ليس هناك ما يدعو الى التساؤل عما اذا كان على القديسين بصورة مستمرة أن يتوسطوا لدى العرش الالهى ، أو أنه كان مسموحا لهم بأن يمارسوا السلطات المخولة من الله لوزرائه الخاضعين له • ومن ثم فان الخيال الذى ارتفع بجهد جهيد الى تأمل وعبادة خالق الكون ، اتخذ من دون الله أشخاصا يقدسهم ، واختار أولئك الذين هم أكثر تناسبا مع آرائه الفجة وملكاته الناقصة • وهكذا اعتور الفساد بالتدريج تلك الأفكار اللاهوتية السامية البسيطة التى كان يعتنقها المسيحيون الاولون • أما مملكة السماء ، التى أظلمتها الغوامض الميتافيزيقية من قبل ، فقد نال منها الآن ما استحدث من أساطير شعبية رخيصة أصبحت تتجه الى اعادة عهد الشرك •

٤ ــ وعندما انحدرت أهداف الدين شيئا فشيئا الى مستوى تصور الناس وخيالهم أدخلت فى العبادة تلك الشعائر والطقوس التى رئى أنها تؤثر أعظم التأثير فى حواس الدهماء والعامة • ولو أتيح لراعى الكنيسة ترتوليانوس أو لاكتانتيوس أن يبعث من الموت فجأة فى أوائل القرن الخامس ، ليحضر احتفالا أقيم لقديس أو شهيد شعبى ، لنظر بعين الدهشة والسخط الى ذلك المشهد الدنس الذى حل مكان العبادة الظاهرة الروحية التى يقيمها جمهور المصلين المسيحيين ، ولابد أن كان يزعجهما ، بمجرد

فتح أبواب الكنيسة ، دخـــان البخور ، وعبير الزهور ، ولمعان المصابيح والشموع التي ينبعث منها في منتصف النهار ضوء متلألئ لا لزوم له ، وينال ، في نظرهما ، من قدسية المكان • فاذا ما اقتربا من سور المذبح ، شقا طريقهما وسط جمهور منبطح على الأرض ، يتألف أكثره من غرباء وحجاج جاءوا الى المدينة في عشية العيد ، وبدءوا يحسون بنشوة الحماس الديني ، وربما نشوة الخمر • وكانوا يطبعون قبلاتهم الورعة على أسوار الهيكل المقدس وأرضيته ، ويتجهون بصلواتهم ، مهما كانت لغة كنيستهم الى عظام القديس ، أو الى دمه ، أو الى بقاياه التي جرت العادة على اخفائها عن عيون الدهماء وراء نقاب من الحرير أو التيـــل • وكان المسيحيون يترددون على مقابر الشهداء ، بأمل الحصول ، عن طريق شفاعتهم القوية ، على كل نوع من أنواع النعم الروحية ، والنعم الدنيـوية على الأخص • فكانوا يلتمسون دوام صحتهم ، أو شفاء عللهم ، أو زوال عقم زوجاتهم ، أو سلامة أبنائهم وسعادتهم • وعندما كانوا يعتزمون القيام برحلة بعيدة أو خطيرة ،كانوا يلتمسون من الشهداء المقدسين أن يكونوا أدلاءهم وحماتهم في الطريق • فاذا ما عادوا دون أن يمسهم سوء ، سارعوا مرة ثانية الى قبور الشهداء للتعبير ، بصلوات الشكر والامتنان ، عما يدينون به من فضل لذكرى هؤلاء الأولياء السماويين وبقاياهم • وكانت الجدران مليئة بما يعلق عليها من رموز ترمز الى ما حصلوا عليه من أفضال ، فكنت ترى العيون ، والأيدي ، والأقدام ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وكنت ترى صورا دينية لم تستطع الحفـاظ على رونقها طويلا من جراء ما ناله منها التعبد الوثني الطائش ، وهي صور تمثل شخص القديس الولي ، وسجاياه ومعجزاته • ولا شك في أن هذه الروح نفسها ، روح الخرافة المتأصلة قد نوحت ، في أقدم العصور ، وفي أبعد البـلاد ، بنفس الأســاليب التي استخدمت الآن لخداع سذاجة الناس ، وللتأثير على حواسهم • غير أنه ينبغي علينا أن نعترف في صراحة بأن قساوســـة الكنيسة الكاثوليكية قلدوا الأنموذج المدنس الذي كانوا يتلهفون على تدميره • وبلغ الحال بأعظم الأساقفة احتراما الى أنهم أقنعوا أنفسهم بأن الدهمـــاء الجهـلاء سوف ينبذون في سرور خرافات الوثنية اذا ما وجدوا في قلب المسيحية ما يشبه تلك الخرافات ، أو ما يعوض عنها • وهكذا ترى أن ديانة قسطنطين قد حققت ، في أقل من قرن واحد ، انتصارا كاملا نهائيا عن الامبراطورية الرومانية ، غير أن الغزاة أنفسهم خضعوا دون أن يحســوا الى فنـون منافسيهم المقهورين •

***

بعد وفاة ثيودوسيوس انفصل نصف الامبراطورية الشرقى نهائيا عن نصفها الغربى واستقل ابنه اركاديوس بحكم الشرق ، كما استقل أونوريوس بحكم الغرب • وكان أونوريوس شخصية ضعيفة ، فكانت السيطرة فى الغرب لوزيره روفينوس ، ولشخص آخر اسمه ستيلكو Stilicho وهو وندالى يجمع بين كفاية القائد وقدرة المفاوض • وكان دوره كمفاوض دورا غامضا ، أما حملاته العسكرية فقد اعترضها النفور المتزايد بين الشرق والغرب •

وفى الفترة التى انقضت بين سنة ٣٩٥ وسنة ٣٩٨ ، غزا القوط بقيادة ألاريك بلاد اليونان ، وكادوا يعزلون فى شبه جزيرة البلوبونيز • غير أن ألاريك انتشل نفسه بفضل تواطؤ ستيلكو ، وعقد اتفاقا سريا مع الحكومة الشرقية ، وعين قائدا أعلى لجيوش الليريا الشرقية ، ونصب ملكا للقوط الغربيين • ثم هاجم الاريك ايطاليا ، ولكنه رد عنها ، واحتفل أونوريوس بالنصر فى روما ، ثم اقام فى رافنا • وفى سنة ٤٠٦ غزا رداجيسوس Radagaisus ايطاليا ، وتحطم جيشه على يد ستيلكو الذى بدأ مفاوضاته مع الاريك ، غير أنه قتل نتيجة دسيسة دبرت ضده فى القصر •

(كل هذه الأحداث يصفها جيبون فى الفصل التاسع والعشرين وفى الفصل الثلاثين) •



الغزوات الكبرى



الفصل الحادى والثلاثون
(٤٠٨ ـ ٤١٠)

الاريك يغزو ايطاليا • أخلاق نبلاء روما وشعبها • حصار حصار روما ثلاث مرات ونهبها • تقهقر القوط وموت ألاريك •

ان عجز الحكومة الضعيفة اللاهية كثيرا ما يبدو كأنه اتصال غادر بعدو البلاد ، كما أنه يؤدى الى النتائج نفسها • ولو أن ألاريك نفسه اشترك في مجلس رافنا ، لكان من المحتمل أن ينصح باتخاذ نفس الاجراءات التى اتخذها فعلا وزراء أونوريوس ، ولكان من الجائز أيضا أن يتآمر ، على غير رغبة منه ، على تدمير خصمه القوى الذى هزمته جيوشه مرتين ، مرة فى ايطاليا ، وأخرى فى اليونان • فلقد عمل هؤلاء الوزراء جاهدين بدافع من الكراهية العنيفة التى كانوا يضمرونها لشخص ستيلكو العظيم ، وبحافز من مصلحتهم ، على الحاق العار والدمار بذلك الرجل • ولم يستطع ساروس Sarus وقدرته الحربية ، ونفوذه الشخصى أو الوراثى على البرابرة المتحالفين ، لم تستطع هذه كلها أن تجعل له قيمة الا فى نظر المخلصين لبلدهم الذين كانوا يحتقرون ، أو يكرهون شخصيات توربيليو Turpilio وفارانس Varanes وفيجيلانتيوس Vigilantius وكلهم شخصيات تافهة لا قيمة لها • وقد ترتب على الحاح هؤلاء المحظوظين الجدد ، وهم قواد أثبتوا أنهم غير جديرين باسم الجنود ، أن ارتقوا الى قيادة الفرسان ، والمشاة والقوات الوطنية • وكان يمكن أيضا أن يوقع الأمير القوطى فى سرور على المرسوم الذى أملاه تعصب أوليمبيوس على الامبراطور الساذج الورع • فقد أبعد أونوريوس كل معارضى الكنيسة الكاثوليكية عن تقلد أى منصب فى

الدولة ، ورفض في عناد خدمات كل من انشقوا عن دينه ، وجرد في تهور كثيرا من أشجع وأمهر الضباط الذين تمسكوا بالعبادة الوثنية أو الذين إعتنقوا الآراء الآريوسية • كل هذه الاجراءات ، وما أعظم نفعها للعدو ، كان من الجائز أن يوافق عليها ألاريك ، بل كان من المحتمل أن يقترحها غير أنه يبدو من الأمور المشكوك فيها أن البربرى ألاريك كان يقبل أن يحقق مصلحته بأعمال القسوة الوحشية الحمقاء التى اقترفت بتوجيه وزراء الامبراطور ، أو على الأقل بفضـل تغاضـيهم • ولقـد حزن لموت ستيلكو أفراد القوات الأجنبية الذين كانوا تابعين له ، غير أن رغبتهم فى الانتقام كبتها فى صدورهم خوفهم الطبيعى على سلامة زوجاتهم وأطفالهم ، الذين احتجزوا كرهائن في مدائن ايطاليا القوية حيث احتفظوا أيضا بأثمن مقتنياتهم • ولقد حدث في وقت واحد وكما لو كان ذلك باشارة مشتركة ، أن تلوثت مدن ايطاليا بنفس المشاهد التى راح ضحيتها دون تمييز أسرات البرابرة ، ومشاهد النهب العام الذى تناول ثرواتهم وممتلكاتهم • وازداد حنقهم لهذه الاسـاءة البالغة ، التى كانت كفيلة باثارة أسلس النفوس قيادا وأشدها خضوعا وذلة، فنظروا نظرة غضب وأمل الى معسكر ألاريك، وأقسموا قسما اجماعيا على أن يشنوا حربا عادلة لا هوادة فيها على الأمة الغادرة التى حطمت مبادىء الضيافة بمثل هذه الحقارة • وبهذا المسلك الطائش الذى سلكه وزراء أونوريوس فقدت البلاد مساعدة ثلاثين ألفا من أشجع جنودها ، واستحقت عداوتهم وتحول ثقل هذا الجيش الهائل من جانب الرومان الى جانب القوط ، رغم أنه كان هو وحده الكفيل بتقرير مصير الحرب •

وقد احتفظ الملك القوطى ، فى فنون المفاوضة ، وفى فنون الحرب سواء بسواء ، بتفوقه الكبير على عدو كانت تقلباته البادية للعيان تعود الى افتقاره الكامل الى المشورة والتخطيط ، وكان ألاريك يرقب فى انتباه ، من معسكره على حدود ايطاليا ، ثورات القصر ، ويلاحظ سـير الحزبية والتذمر ، ويخفي المظهر العدوانى ، مظهر الفاتح البربرى ، ويبدو فى مظهر شعبى ، مظهر الصديق والحليف للقائد ستيلكو العظيم ، الذى يستطيع الآن أن يوفيه ما تستحقه صفاته من مديح صادق ، بعد أن زالت خطورتها ، وأن يأسف على ضياعها ، وتلقي ملك القوط من المتذمرين دعوة ملحـة تحضه على غزو ايطاليـا ، وعزز هذه الدعوة احساسـه الحاد المرهف بالاساءات التى لحقت بشخصه ، وهو يستطيع أيضا أن يصطنع الشكوى من أن وزراء الامبراطور ما زالوا يماطلون ويسوفون فى دفع أربعة آلاف من الأرطال الذهبية التى وافق على منحها له السناتو الرومانى مكافأة على خدماته ، أو تهدئة لثورته • ولقد أبدى اعتدالا ماكرا عزز موقفه الحازم

المهذب ، وأسهم في نجاح خططه • ذلك أنه طلب ترضية عادلة معقوله ، ولكنه قدم أقوى التأكيدات بأنه سوف ينسحب على الفور بمجرد الحصول عليها ، ورفض أن يثق في كلمة الرومان الا اذا أرسلوا الى معسكره ايتيوس وجاسون وهما ابنان لاثنين من كبار موظفى الدولة ، كرهائن حرب ، وأبدى استعداده لتسليم عدد من أنبل شبان القوط في مقابل ذلك • وفسر وزراء رافنا هذا التواضع من جانب الاريك بأنه دليل أكيد على ضعفه وخوفه • ورفضوا في أنفة أن يتفاوضوا على عقد معاهدة ، أو أن يجمعوا جيشا ، وترتب على هذه الثقة الطائشة ، التى كانت وليدة جهلهم بالخطر الهائل ، أنهم ضيعوا اللحظات الحاسمة في مصير السلم والحرب • بينما كانوا يتوقعون في صمت كئيب أن يجلو البرابرة عن حدود ايطاليا، عبر ألاريك جبال الألب ونهر البو في مسيرة جريئة سريعة ، واستولى بصورة عاجلة على مدائن أكويليا والتينوم وكونكورديا وكريمونا ، التى استسلمت جميعها الى جيوشه ، وتضاعفت قواته بدخول ثلاثين ألف جندى من القوات الأجنبية • ودون أن يلقى عدوا واحدا في الميدان ، تقدم الى حافة المستنقع الذى كان يحمى المقر المنيع لامبراطور الغرب • وبدلا من أن يحاول قائد القوط الحصيف محاصرة مدينة رافنا دون جدوى ، سار نحو مدينة ريمنى ، مجتاحا شاطىء البحر الأدرياتى ، وأخذ يدبر لغزو سيدة العالم القديمة ، وقابل الملك المنتصر في طريقه ناسكا ايطاليا كانت غيرته وقدسيته موضع احترام البرابرة أنفسهم ، وأفصح الناسك في جرأة عن سخط السماء على الظالمين في الأرض • غير أن القديس نفسه أرتج عليه الأمر عندما أكد له ألاريك أنه يشعر بقوة غامضة خارقة تدفعه ، وتوجهه، بل وترغمه على السير نحو أبواب روما • وأحس الاريك أن عبقريته وحظه يؤهلانه لأشق المشاريع ، كما أن الحماس الذى بثه في القوط أزال عن صدورهم ، دون أن يحسوا ، ما كانت تشعر به الأمم من احترام شائع يكاد يصل الى درجة الخرافة ، نحو جلال الاسم الرومانى : وسارت قواته في طريق فلاميا ، تلهب حماسها آمال الغنائم ، واحتلت ممرات الابنين (١) التى تركت دون حراسة ، ثم نزلت الى سهول أمبريا Umbria الغنية ، وعسكرت على شواطىء نهر كليتومنوس Clitumnus وأخذت تذبح وتلتهم بلا حساب تلك الثيران الناصعة البياض التى ظلت مدخرة تلك الفترة الطويلة لانتصارات الرومان • ولم تسقط مدينة نارنى الصغيرة بفضل ارتفاع موقعها ، وبفضل عاصفة رعد وبرق هبت في

(١) أورد أديسون وصفا رائعا للطريق الذى يخترق جبال الابنين • ولم يكن لدى القوط وقت لمشاهدة جمال المنظر ، غير انه سرهم أن يجدوا أن ممر ساكسيا انترسيسا ، وهو ممر ضيق نحته فسبازيان في الصخر ، كان مهملا كل الاهمال •

الوقت المناسب ، غير أن ملك القوط لم يأبه بتلك الفريسة الحقيرة ، وواصل تقدمه دون هوادة ، وبعد أن اخترق الأقواس الفخمة المزينة بأسلاب الانتصارات الهمجية ضرب خيام معسكره تحت أسوار روما ٠

ولم يحدث من قبل خلال فترة ستمائة وتسعة عشر عاما أن طرق عدو أجنبي أبواب عاصمة الامبراطورية ٠ فالحملة الفاشلة التي شنها هانيبال لم يترتب عليها سوى أنها أظهرت طابع السناتو وطابع الشعب ، السناتو الذي يسيء اليه أكثر مما يشرفه أن يقارن بجمعية من الملوك ، والشعب الذي نسب اليه سفير الملك بيروس Pyrrhus (ملك ابيروس ٣١٨ - ٢٧٢ ق٠م٠) أنه يملك موارد لا ينضب معينها كوحش الهيدرا المائي (وحش ذو رءوس كثيرة ينمو غيرها اذا قطعت) ٠ وكان كل عضو في السناتو في وقت الحرب البونية قد أتم مدة خدمته العسكرية ، سواء في منصب صغير أو كبير ، ثم صدر مرسوم بمنح قيادة مؤقتة لكل من كانوا يشغلون منصب قنصل أو مراقب Censor أو حاكم فوق العادة ، وبهذا كسبت الدولة على الفور مساعدة الكثيرين من القواد الشجعان المحنكين ٠ وفي بدء الحرب كان الشعب الروماني يتألف من ربع مليون من المواطنين تسمح لهم أعمالهم بحمل السلاح ٠ وكان قد مات خمسون ألف رجل منهم في الدفاع عن البلاد ، وكانت الفيالق الثلاثة والعشرون المستخدمة في مختلف معسكرات ايطاليا ، واليونان ، وسردينيا ، وصقلية ، وأسبانيا في حاجة الى ما يقرب من مائة ألف رجل ٠ وكان لا يزال في روما والاقليم المجاور عدد مماثل يلتهب بالشجاعة الجريئة نفسها ، وكان كل مواطن يتدرب من باكورة شبابه على نظام الجندية وتمريناتها ٠ ولقد دهش هانيبال لثبات السناتو الذي انتظر مجيئه دون أن يحاول رفع الحصار عن كابوا Capua ، أو استدعاء القوات المبعثرة ٠ فعسكر على شواطيء نهر انيو Onio ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، وسرعان ما بلغه أن الأرض التي ضرب عليها خيمته قد بيعت لقاء ثمن مناسب في مزاد علني ، وأن فرقة من الجنود قد أرسلت في طريق عكسي لتعزيز فيالق أسبانيا ٠ فقاد قواته الأفريقية الى أبواب روما ، حيث وجد ثلاثة جيوش في حالة استعداد للمعركة تتأهب للقائه ٠ غير أن هانيبال تهيب قتالا لا يأمل في الافلات منه الا اذا قضى على آخر جندي من أعدائه وكان تقهقره السريع دليلا على شجاعة الرومان التي لا تقهر ٠

أخلاق نبلاء الرومان

منذ وقت الحرب البونية حافظت الأجيال المتصلة من أعضاء السناتو على اسم الدولة الرومانية وطابعها ، وكان رعايا أونوريوس الذين أصابهم

الفساد والانحلال يفخرون بأن أصولهم ترجع الى الأبطال الذين ردوا جيوش هانيبال على أعقابها وأخضعوا أمم الأرض • ويجمل لنا شيخ الكنيسة جيروم في كثير من العناية تلك الأمجاد الدنيوية التى ورثتها وازدرتها الامبراطورة الورعة بولا Paula ، وكان جيروم مرشدا لضميرها ومؤرخا لحياتها • وكان نسب أبيها ، روجاتوس ، يرتفع الى الملك أجاممنون ، الأمر الذى يبدو أنه ينم عن أصل يونانى ، غير أن أمها بلاسيللا Blaesilla كانت تعد في قائمة أجدادهـا أسرات سكيبيو ، امبليوس بولوس ، وجراتشى ، أما توكسوتيوس ، زوج بولا ، فقد انحدر عرقـه الملكى من اينياس Aeneas جد الفرع الجوليانى • كل هذه الدعاوى الشـامخة كانت تشبع غرور الأغنياء الراغبين في أن يكونوا من طبقة النبلاء • وسهل على هؤلاء أن يخدعوا سذاجة الدهماء من الناس ، يشـجعهم على ذلك ترحيب من كانوا يعيشون عالة عليهم ، ويؤيدهم الى حد ما ما درجوا عليه من انتحالهم أسماء أولياء نعمتهم ، وهى عادة كانت سائدة دائما بين العتقاء وأتبـاع الأسر الشهيرة • الا أن أغلب تلك الأسرات اندثرت شيئا فشيئا بفعل الكثير من عوامل العنف الخارجى أو الاضمحلال الداخلى • وأصبح من الأيسر أن تبحث عن تسلسل نسب عشرين جيـلا من جبال الألب أو في اقليم أبوليا Apulia الهادىء المنعزل عن أن تبحث عنه فى صعيد روما ، مركز الثراء ، والخطر ، والثورات الدائمة • ففى كل عهود الحكم المتعاقبة ، ومن كل ولاية من ولايات الامبراطورية ، كانت تجىء جماعات من المغامرين الأشداء الذين ارتفعوا الى المجد بفضل مواهبهم أو نقائصهم ، وتغتصب ثروة روما ، ومناصبها وقصورها ، وتضطهد أو ترعى البقايـا الفقيرة الذليلة من أسرات القناصـل ، وربما كانت هذه البقايا لا تدرى شيئا عن مجد أجدادها •

وفى عصر جيروم وكلوديـان كان جميع أعضـاء السناتو يسلمون بسمو أسرة أنيكيوس ، وان نظرة بسيطة الى تاريخهم لكفيلة بتقدير مقام وعراقة الأسرات النبيلة التى كانت تتنازع على المكان الثانى بعد هـذه الأسرة ولا تتطاول اليها • وخلال العصور الخمسة الأولى لمدينة روما لم يكن اسم أسرة أنيـكيوس معروفـا • ويبدو أنها اسـتمدت أصولها من برانست Praeneste ، وأشبع هؤلاء المواطنون الجدد طموحهم فترة طويلـة بمنـاصب صغيرة هى منـاصب التربيون (المدافعون عن حقوق الشعب) وقبل العهد المسيحى بمائة وثمان وستين سنة تشرفت الأسرة باختيار أنيكيوس لمنصب البريتور ، واستطاع هذا الرجل انهاء الحرب الالليرية بصورة مجيدة وذلك بقهر أمة الليريا وأسر ملكهـا • ومنذ أن انتصر ذلك القـائد تولى ثلاثـة ممن يحملون اسـم هذه الأسرة منصب القنصلية فى عهود بعيدة • ومنذ عهد دقلديانوس الى زوال الامبراطورية

الغربية كان اسم هذه الأسرة يلمع لمعانا لم يحجبه فى تقدير الشعب جلال الرداء الامبراطورى ، وجمعت الفروع العديدة التى كانت متصلة بها ، عن طريق الزواج أو الميراث ، بين ثروة وألقاب أسرات أنيوس وبترونيوس وأونيوس وأوليبريوس • وفى كل جيل من الأجيال كان عدد الشاغلين لمنصب القنصلية يتضاعف بحق الارث ، وسمت أسرة أنيكيوس فى ايمانها ، وازداد ثراؤها ، وكانت أول أسرة فى السيناتو الرومانى تعتنق المسيحية ، ومن المحتمل أن أنيكيوس جوليان الذى أصبح بعد ذلك قنصلا وحاكما للمدينة ، كفر عن اتصاله بحزب مكسنتيوس بسرعة تقبله للديانة المسيحية • وازداد ثراؤهم الوفير بفضل مجهود بروبوس **Probos** عميد الأسرة ، الذى شارك جراشيان شرف القنصلية ، وتولى أربع مرات منصبا رفيعا هو منصب الحاكم البريتورى • وكانت أملاكه الشاسعة مبعثرة فى كل العالم الرومانى ، ورغم أن الشعب قد يشك فى الأساليب التى حصل بها على هذه الأملاك ، أو لا يحبذها ، الا أن عظمة ذلك السياسى المحظوظ ، وما كان يظهره من كرم ، أكسباه امتنان أتباعه واعجاب الغرباء عنه ، وبلغ من احترام ذكرى ذلك الرجل أن ولديه ، وهما فى باكورة الشباب ، وبناء على طلب السيناتو ، ألحقا بالسلك القنصلى ، وهذا تشريف مشهود لا مثيل له فى سجلات تاريخ روما •

وكانت عبارة « رخام قصر أسرة أنيكيوس » تضرب مثلا للبذخ والفخامة ، غير أن نبلاء روما وأعضاء السيناتو تطلعوا ، درجة بعد درجة، الى تقليد تلك الأسرة اللامعة • وفى الوصف الدقيق للمدينة الذى وضع فى عهد ثيودوسيوس ، يوجد ألف وسبعمائة وثمانون من المنازل المعدة لاقامة المواطنين الأغنياء ذوى المكانة • وكثير من هذه القصور الفخمة قد يبرر مبالغة الشاعر الذى قال ـ ان روما تحتوى على عدد كبير من القصور ، وان كل قصر يعتبر مدينة بأكملها ، لأنه يضم داخل نطاقه كل شىء يمكن الانتفاع به أو استخدامه وسيلة من وسائل الترف ، كالأسواق وحلبات سباق الخيول والعربات ، والمعابد ، والنافورات ، والحمامات والأروقة ، والغابات الظليلة ، وحظائر الطيور • ويكمل المؤرخ اليمبيودوروس **Olympiodorus** هذا الوصف ، فى تصويره لحالة روما عندما حاصرها القوط ، فيذكر أن كثيرا من أغنى أعضاء السيناتو كانوا يحصلون من أملاكهم على دخل سنوى قدره أربعة آلاف رطل من الذهب أى أكثر من ستين ومائة الف من الجنيهات الاسترلينية ، دون أن تدخل فى ذلك مؤن القمح والنبيذ التى ، اذا بيعت ، لساوت قيمتها ثلث هذا المبلغ • وبالمقارنة الى هذه الثروة الزائدة عن الحدود ، فان دخلا عاديا قدره ألف رطل أو ألف وخمسمائة رطل من الذهب لا يعتبر أكثر مما يكفى لمقام منصب

السناتو ، الذى كان يتطلب الكثير من النفقات المظهرية العامة · وهناك أمثلة كثيرة مسجلة فى عصر أونوريوس ، لنبلاء مغرورين معروفين كانوا يحتفلون بذكرى السنة التي تولوا فيها منصب البريتور باقامة حفل يدوم سبعة أيام ويكلفهم أكثر من مائة ألف من الجنيهات الاسترلينية · وكانت أملاك أعضاء السناتو ، التى زادت الى هذا الحد عن الثراء فى العصور الحديثة ، غير محصورة داخل حدود ايطاليا ، بل امتدت فيما وراء بحر ايونيان وبحر ايجة الى أبعد الولايات· فكانت مدينة نيكوبوليس التى أسسها أغسطس لتكون أثرا خالدا لانتصاره فى اكتيوم ، ملكا للامبراطورة الورعة بولا ويلاحظ سينيكا Seneca أن الأنهار التى كانت من قبل تفصل بين أمم متخاصمة متنازعة أصبحت الآن تجرى وسط أرض يملكها أفراد مواطنون · وكان الرومان ، وفق مزاجهم وظروفهم ، يكلفون أرقاءهم بزراعة أراضيهم ، أو يؤجرونها مقابل ايجار متفق عليه للفلاحين المجدين · ولقد حبذ قدامى الكتاب الاقتصاديين اتباع الطريقة الأولى حيثما كانت طريقة عملية ، أما اذا كانت الأرض أبعد أو أكبر من أن تراها عين صاحبها ويشرف عليها اشرافا مباشرا ، فانهم يفضلون أن يعهد بالأرض لعناية مستأجر حريص يتوارث ايجارها ، ويرتبط بها ، ويهتم بانتاجها ، على أن يوكل أمر ادارتها الى وكيل مرتزق مهمل ، وقد يكون وكيلا خائنا ·

وكان النبلاء المترفون الأثرياء فى تلك العاصمة الضخمة لا يثيرهم مطلقا السعي الى المجد العسكرى ، وقلما كانو يعملون في وظائف الحكومة المدنية · فمن الطبيعي والحالة هذه أن يوجهوا فراغهم الى مشاغل الحياة الخاصة ومسرتها · وكانت التجارة في روما تعتبر دائما من الأعمال المحتقرة ، غير أن أعضاء السناتو ، منذ أول عصور الدولة ، كانوا يزيدون أملاكهم الموروثة ويضاعفون مواليهم بممارسة الربا المربح ، ويتهربون من القوانين العتيقة أو ينقضونها لأن أطراف العملية كانوا يميلون الى ذلك ويجدون فيه مصلحة متبادلة · ولابد أن روما كان بها قدر ضخم من المدخرات ، سواء من عملة الامبراطورية المتداولة أو في صورة أوان ذهبية وفضية · وفي عصر بليني Pliny (عالم روماني) كان مخزون الفضة في المنازل أكثر مما نقله القائد سكيبيو Scipio من قرطاجة المقهورة· ولقد بدد أكثر النبلاء ثرواتهم فى الترف المفرط ، ووجدوا أنفسهم فقراء وسط الثراء ، وتفهاء مهملين وسط حلقة دائمة من التهتك · وكان هؤلاء النبلاء يعتمدون فى اشباع رغباتهم على العمل الذى تقوم به آلاف الأيدى ، فهناك عدد كبير من الخدم الأرقاء الذين يعملون بدافع من خشية العقاب ، وهناك مختلف الصناع والتجار الذين يعملون بدافع أقوى ، هو الأمل فى الربح · ولا شك فى أن هؤلاء القدامى كانوا يفتقرون فى حياتهم الى الكثير

من وسائل الراحة التي أوجدها أو حسنها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج والمنسوجات زودت أمم أوروبا الحديثة بوسائل الراحة الحقيقية أكثر مما كان أعضاء السناتو في روما يستمدونه من كل أنواع الترف الحسي أو أبهة المظهر (١) • ولقد كان ترفهم وعاداتهم موضوع بحث دقيق جهيد ، غير أن الخوض في هذه البحوث من شأنه أن يبعدني كثيرا عن الغرض من هذا المؤلف ، ومن ثم فاني سوف أورد وصفا صادقا صحيحا من وسائل الراحة التي أوجدها أو حسنها تقدم الصناعة ، فوفرة الزجاج القوطي ، كتبه اميانوس ماركللينوس Amianus Marcellinus الذى حرص على اختيار عاصمة الامبراطورية مقاما أكثر ما يكون ملاءمة لمؤرخ يكتب عن العصر الذى عاش فيه • ولقد مزج هذا المؤرخ رواية الأحداث العامة بتصوير حي للمشاهد التي كانت مألوفة لديه • ولا شك في أن القارىء الحصيف سوف لا يرضى دائما عن حدة المؤرخ في النقد واللوم ، أو عن اختياره للملابسات والظروف ، أو عن أسلوب تعبيره • وربما استشف تحيزاته الكامنة ، وحنقه الشخصي ، وكلها أمور نفثت المرارة في صدر أميانوس نفسه • غير أنه من المؤكد أن القارىء سوف يلاحظ في رغبة استطلاع فلسفية ، صورة شائقة أصيلة لما كانت عليه أساليب الحياة في روما (٢) •

« لقد قامت عظمة روما (هذه هي لغة المؤرخ) على ارتباط نادر لا يكاد يصدق بين الفضيلة والثراء • وكانت الفترة الطويلة من طفولتها كفاحا جهيدا شاقا ضد قبائل ايطاليا ، وجيران المدينة الناشئة وأعدائها • وفي قوة وحماسة الشباب قاومت عواصف الحرب ، وسيرت جيوشها الظافرة الى ما وراء البحار والجبال ، وجاءت الى الوطن بأكاليل النصر من كل بلد من بلدان الأرض ، وفي نهاية المطاف ، عندما بلغت من العمر عتيا ، وأصبحت في بعض الأحيان لا تقوى على الغزو الا بفضل رهبة سمعتها ، حينذاك سعت الى نعيم الراحة والهدوء • وكنت ترى المدينة الوقور ، التي روضت أعناق أشد الأمم ضراوة ، وسنت القوانين لحماية العدالة والحرية حماية دائمة ، كنت تراها وقد قنعت ، كالوالد الثرى العاقل بأن تعهد الى أبنائها المفضلين من القياصرة بحكم ميراثها الكبير •

---

(١) يلاحظ العلامة Arbuthnot في شيء من الدعابة ، واعتقد انه كان صادقا أن اغسطس كانت نوافذ قصره خلوا من الزجاج ، وان ظهره كان دون قميص • وفي عهد الامبراطورية الجنوبية أصبح الزجاج والقماش أكثر شيوعا •

(٢) لابد لي من ان افسر التصرف الذى تصرفته فيما يختص بالفصل الذى كتبه أميانوس : (انظر هامش الصحيفة التالية) • =

وجاءت فترة هدوء وطيد عميق ، كتلك التى استمتعت بها مرة فى عهد الامبراطور نوما Numa وفى أعقاب اضطرابات عهد الجمهورية ، بينما ظلت روما موضـــع الاعجاب والاجلال كملكة الدنيا ، كما ظلت الأمم الخاضعة لها تقدس اسم شـعبها وجلال السناتو • غير أن هذه العظمة الوطنية (يستطرد أميانوس) انما يلوثها ويحط من شأنها مسلك بعض النبلاء الذين لا يرعون كرامتهم وكرامة بلادهم ، وينغمسون فى الرذيلة والحماقة دون حدود أو قيود ، ويتنازعون على الرتب والألقاب ارضاء لغرورهم الأجوف • ومن عجب أنهم ينتقون أو يبتكرون أرفع الأسماء وأعلاها رنينا — ريبوروس أو فابيونيوس ، ياجونيوس أو تاراسيوس — وكلها أسماء تؤثر فى آذان الدهماء وتنتزع دهشتهم واحترامهم • واستبد بهم الطمع المغرور فى تخليد ذكراهم ، فتراهم يعمدون الى الاكثار من صورهم مجسمة فى تماثيل من البرونز والرخام ولا يشعرون بالرضا حتى تطلى تلك التماثيل بالذهب ، وهو امتياز كريم منح أول ما منح الى القنصل اكيليوس Acilius بعد أن قهر بجيوشـه ونصـائحه سـلطان ملك أنطاكيا • وان مباهـاتهم المظهرية بالأموال التى تفيض عليهم من ايجار الأراضى التى يملكونها فى كل الولايات ، أو قل مبالغتهم فى التفاخر بهذا الثراء ، من شروق الشمس الى غروبها ، انما تثير سخط كل انسان يذكر أن أجدادهم الفقراء الذين لم يقهرهم أحـد ، لم يتميزوا عن أحقر الجنود بطعـامهم الشهى أو فخامة ملبسهم • غير أن النبلاء الحديثين يقيسون قدرهـم وأهميتهم بفخامة عربـاتهم (١) • وروعـة ملبسهم • فأرديتهم الطويلة الحريرية الحمراء تهفهف فى الهـــواء وعنـدما تتطاير بمحض

= (١) أدمجت فى قطعة واحدة الفصل السادس من الكتاب الرابع عشر ، والفصـل الرابع من الكتاب الثامن والعشرين •

(٢) نظمت المادة المهوشة واوجدت ارتباطا بين أجزائها •

(٣) خففت بعض المغالاة المبالغ فيها وحذفت بعض ما لا لزوم له فى الأصل •

(٤) أبرزت بعض الملاحظات التى ذكرت ضمنا لا صراحة •

وبهذا التصرف تكون الترجمة بعيدة عن الحرفية ، ولكنها أمينة دقيقة •

(١) كانت عربات الرومان تصنع فى العادة من الفضة الخالصة ، وتنقش وتحفر بصورة عجيبة واستمر هذا البذخ من عهد نيرون الى عهد أونوريوس وكان طريق أبيا مليئا بالعربات الفخمة الخاصة بالنبلاء الذين جاءوا لمقابلة القديسة ملانيا St. Melania عندما عادت الى روما بعد حصار القوط بست سنوات •

غير أن الراحة قد أخذت الآن مكان الفخامة ، والعربة البسيطة الحديثة القائمة على (السست) أحسن بكثير من العربات القديمة التى كانت تسير على عجلات خشبية ، وكانت معرضة فى أكثر الأحيان لقسوة الطقس •

الصدفة أو يفتعلون تطايرها ، تبدو من تحتها بين الحين والحين ملابسهم الداخلية ، وهي قمصان فاخرة مزركشة برسوم مختلف الحيوانات (١) ·
وهم يركبون عرباتهم وخلفهم حاشيه من خمسين خادما يدفون الارض ويسيرون في الطرقات بسرعة عنيفة كما لو كانوا يركبون خيول البريد·
وتحدو السيدات حذو أعضاء السيناتو ، فعرباتهن المغلقه تجوب الرقعة الفسيحة التي تضم المدينة وضواحيها ، بصورة مستمرة · وكلما تنازل هؤلاء الأشخاص المرموقون بزيارة الحمامات العامة ، فانهم يتخذون لأنفسهم مظهر الآمرين السليطين ، ويخصون أنفسهم بوسائل الراحة المخصصة للشعب الروماني · واذا قابلوا في هذه الاماكن العامة التي يختلط فيها الجميع أيا من خدام ملذاتهم ذوى السمعة السيئة ، فانهم يعبرون عن مودتهم بعناق رقيق ، بينما يعرضون في أنفة وكبرياء عن تحيات رفاقهم المواطنين الذين لا يسمح لهم بالتطلع الى أكثر من التشرف بتقبيل أياديهم أو أرجلهم ، وما أن ينتهوا من استمتاعهم بالحمام المنعش حتى يعاودوا التحلي بخواتمهم وبكل مظاهر عظمتهم وينتقون من خزانة ثيابهم الخاصة المليئة بأجمل الملابس التي تكفي اثني عشر شخصا ما يلائم مزاجهم من أردية ، ويحتفظون حتى رحيلهم بذلك المسلك المتعالي الذي ربما كان يمكن أن يعذر عليه ماركيللوس العظيم بعد غزو سيراكيوز · وفي الحق أن هؤلاء الأبطال يقومون بمنجزات أكثر مشقة ، فيزورون أملاكهم في ايطاليا ، ويوفرون لأنفسهم ملذات الصيد بفضل جهد اتباعهم الأذلاء · واذا حدث في أي وقت من الأوقات ، وخاصة اذا كان اليوم حارا ، أن وجدوا في أنفسهم شجاعة على التنزه في زوارقهم المزركشة من بحيرة لوكرين Lucrine الى (دورهم) الأنيقة على شاطىء بوتيولى وشاطىء كايتا ، فانهم يقارنون رحلاتهم هذه بمسيرة قيصر أو مسيرة الاسكندر · ولكن اذا تجاسرت ذبابة على الوقوف على طيات مظلاتهم الحريرية المذهبة ، أو اذا نفذ اليهم شعاع خلال فتحة في المظلة لا تكاد تدرك ، تركت دون حراسة ، فانهم يندبون محنتهم التي لا تحتمل ، ويقولون في عبارات حزينة مصطنعة انهم لم يولدوا في بلاد الكميريان (٢) ، بلاد الظلام الأبدى · وفي هذه الرحلات الى الريف يسير حشم البيت

---

(١) في عظة من عظات استيريوس ، أسقف أماسيا ، اكتشف M. de Valois ان ذلك كان طرازا جديدا ، وأن الدببة ، والذئاب ، والأسود والنمور ، والغابات ، ومباريات الصيد وغيرها كانت تصور بالتطريز ، أما المختالون الأكثر ورعا فانهم كانوا يرسمون على ثيابهم صورة قديس مفضل لديهم ، أو قصته ·

(٢) باللاتينية Cimmerii شعب اسطوري قال عنه الشاعر هوميروس انه يقطن مملكة نائية يحيط بها الظلام والضباب ــ (الترجمة) ·

جميعهم مع سيدهم • وكما أن الفرسان والمشاة ، والقوات المسلحة الخفيفة والثقيلة ، وحرس الطليعة والمؤخرة ، تنظمهم مهارة قوادهم العسكرية ، فان موظفي القصر الذين يحملون عصيا تظهر سلطانهم ، يوزعون ويرتبون العدد الكبير من العبيد والأتباع • وتحمل الأمتعة وخزانة الثياب في المقدمة ، ثم يجيء بعد ذلك عدد كبير من الطهاة والخدم الأدنى مرتبة الذين يعملون في خدمة المطابخ والمائدة • أما الجزء الرئيسي من الموكب فانه يتألف من جمهور خليط من العبيد ، يزداد عدده بمن يحتشد معهم مصادفة من الدهماء المتسكعين أو الأتباع • وتسير في المؤخرة زمرة من الخصيان ، كبار السن أولا ، ثم الشباب ، وفق نظام الأقدمية • وتثير أعدادهم وأشكالهم المشوهة فزع المتفرجين الساخطين الذين يلعنون ذكرى سميراميس التي ابتكرت ذلك الفن القاسي لهدم أغراض الطبيعة والقضاء على آمال الأجيال المستخدمة وهي لا تزال في شبابها • وفي ممارسة سلطتهم القضائية على خدم الدار وعمالها فان نبلاء روما يعبرون عن حساسيتهم الشديدة لكل اساءة تلحق بأشخاصهم ، وعن احتقارهم لبقية النوع الانساني وعدم اكتراثهم به • فاذا طلبوا ماء دافئا ، وتأخر العبد في تلبية الأمر ، فانه يعاقب بالجلد على الفور ثلاثمائة سوط • غير أن العبد نفسه ، اذا ارتكب جريمة قتل متعمدة فان سيده يقول في رقة انه عبد حقير ، وانه اذا ارتكب الجرم مرة ثانية فلن ينجو من العقاب • ولقد كان كرم الضيافة فيما مضى فضيلة الرومان ، وكان كرمهم يمتد الى كل غريب يظهر مزية فيكافئونه عليها ، أو يشكو من محنة ، فينقذونه منها • أما الآن ، فان الأجنبي ، الذي ربما كانت له مكانته ، اذا قدم الى أحد الأثرياء المتشامخين من أعضاء السناتو ، فانهم يرحبون به في أول مقابلة بالعبارات الحارة والاستفسارات الرقيقة التي تجعله يغادر المكان وقد سحرته بشاشة صديقه العظيم ، فيأسف لأنه أخر طوال ذلك الوقت رحلته الى روما موطن الأخلاق كما هي مقر الامبراطورية • فاذا ما اطمأن الى ما لقيه من استقبال مشجع لطيف ، عاود الزيارة في اليوم التالي ، وعندئذ يخيب أمله اذا ما اكتشف أن اسمه وشخصه وبلده قد أصبحت في زوايا النسيان ، واذا ظلّ مثابرا على الزيارة ، اعتبر على مر الأيام واحدا من الأتباع ، وأذن له بأن يمضي في تودده العقيم لسيد شامخ الأنف لا يرعى جميلا ولا يمنح أحدا صداقته ، وقلما يتنازل بملاحظة وجوده • وعندما يقيم الأغنياء مأدبة رسمية شعبية ، وعندما يولمون ولائمهم الخاصة في بذخ مفرط ضار ، فان اختيار ضيوفهم يصبح موضع تشاور واهتمام • فهم قلما يفضلون من يتسمون بالتواضع والرزانة والعلم ، ومن ثم فان واضعي الأسماء ، وهم عادة من أولئك الذين تحركهم دوافع المصلحة ،

يتوافر لديهم من الحذق ما يمكنهم من تزويد قائمة الدعوات بأسماء مغمورة لأحقر بنى الانسان • أما الرفاق المقربون العظماء والمترددون عليهم ، فهم الطفيليون الذين يمارسون فن الملق ، أنفع الفنون وأجداها ، ويهللون لكل كلمة يقولها ولى نعمتهم الخالد ، ولكل عمل يقوم به • وينظرون فى طرب زائد الى أعمدته الرخامية وأرضيات غرفه المزركشة ، ويمتدحون فى حماس تلك الفخامة والرشاقة التى تعلم أن يعتبرها جزءا من فضله الشخصى • واذا قدم على المائدة طير أو سنجاب (١) أو سمك يتميز بحجم غير عادى ، نظر اليها الضيوف فى اهتمام عجيب ، وجيء بميزان يتحققون به من وزنها الحقيقى ، وبينما يشمئز عقلاء الضيوف من تكرر هذا العمل الباطل الممل ، كان صاحب الوليمة يستدعى المسجلين لكى يثبتوا من واقع السجلات الصادقة صحة هذه الواقعة العجيبة • وثمة وسيلة أخرى لدخول بيوت العظماء ومجتمعاتهم ، وهى وسيلة مستمدة من الميسر ، وهو الذى يطلق عليه تأدبا اسم اللعب•والمشتركون فى هذه اللعبة تجمع بينهم رابطة صداقة ، أو قل رابطة تآمر ، قوية لا تنفصم • وامتلاك درجة عالية من المهارة فى فن النرد(٢) Tesserarian art وهو طريق مؤكد للثروة والشهرة ، واذا حدث فى حفل عشاء أن وضع أستاذ من أساتذة هذا العلم الرفيع فى مكان دون مكان حاكم ولاية ، ظهر على سحنته العجب والحنق اللذان يظن أن كاتو Cato شعر بهما عندما أبى الجمهور المتقلب أن ينتخبه بريتورا ، أما تحصيل

---

(١) يضطرنى عدم وجود اسم انجليزى الى الاشارة الى النوع المألوف المشترك من السنجاب وهو المسمى باللاتينية Glis وبالفرنسية Loir وهو حيوان صغير يسكن الغابات ، ويظل نائما فى الطقوس الباردة • وكان فن تربية وتسمين أعداد كبيرة من السنجاب يمارس فى (دور) الرومان كنوع من الاقتصاد الريفى المربح • وقد ازداد الطلب عليها كثيرا لتقديمها على موائد الترف ، لأن الشاغلين لمناصب المراقبين كانوا يحرمونها ، ولقد قيل انها لا تزال موضع تقدير فى روما الحديثة ، وان حكام كولونا مازالوا يرسلونها هدايا •

(٢) هذه اللعبة يمكن ترجمة اسمها الى الاسم المألوف « الطاولة » أو « النرد » • وكانت تسلية محببة لدى اكثر الرومان رزانة • وقد اشتهر (موكيوس سكافولا) Mucius Scavola الاكبر ، وكان محاميا ، بمهارته الزائدة فى هذه اللعبة • وكان اسمها باللاتينية Ludius duodecim Scryptorum وهو اسم مشتق من الاثنى عشر خطا Scrpta التى كانت تقسم اللوحة Alveolus الى أجزاء متساوية • وعلى هذه الاجزاء كان يقف الجيش الابيض والجيش الاسود ، يتالف من خمسة عشر رجلا ، ويحركون بالتبادل وفق قوانين اللعبة وفرص « الزهر » وقد تتبع الدكتور هايد Dr. Hyde تاريخ وأنواع لعبة النرد (لفظ فارسى) من ايرلندا الى اليابان ، واظهر فى هذا الموضوع التافه علما كلاسيكيا وشرقيا غزيرا •

المعرفة فانه قلما يستهوى رغبة النبلاء الذين يمقتون متاعب الدراسة ويحتقرون منافعها ومزاياها • والكتب الوحيدة التى يتصفحونها ، هى « سخريات جوفنال » Satires of Juvenal والتواريخ الخرافية المملة التى كتبها ماريوس ماكيسيموس • أما المكتبات التى ورثوها عن آبائهم ، فهى معزولة لا ترى نور النهار كالقبور الكئيبة الموحشة • غير أن أدوات المسرح الثمينة ، كالناى ، والقيثارة الضخمة ، والأرغون ، فهى تصنع من أجلهم ، ولا تنقطع من قصور روما أنغام الموسيقى الصوتية وموسيقى الآلات • والصوت فى تلك القصور مفضل على الادراك والفهم ، والعناية بالجسم مفضله على العناية بالعقل • ومن المبادىء السليمه المعترف بها أن أى شك تافه طفيف فى وجود مرض معد هو عذر قوى كاف يبرر الامتناع عن زيارة أحب الأصدقاء ، وحتى الخدم الذين يوفدون للاستفسار اللائق عن صحة المرضى لا يسمح لهم بالعودة الى المنزل حتى يؤدوا شعائر التطهير • ورغم ذلك فان هذه الرقة المتسمة بالأنانية والبعيدة عن الرجولة، تتهاوى أحيانا أمام ما هو أقوى منها ، من عواطف الطمع والهوى ، فالأمل فى الكسب يدفع السناتور الغنى المصاب بداء النقرس الى الذهاب الى مكان بعيد كقرية سبولتو Spoleto وكل احساس بالكبرياء والكرامة تكبته آمال الحصول على ميراث أو حتى وصية بميراث ، والمواطن الغنى الذى لم يعقب أطفالا ، هو أقوى رجل بين الرومان • أما فن الحصول على توقيع وصية ، والتعجيل بلحظة تنفيذها ، أحيانا ، فهو فن معروف كل المعرفة • وقد حدث فى المنزل الواحد ، ولكن فى غرف مختلفة ، أن رجلا وزوجته يسعى كل منهما سعيا حميدا الى الاحتيال على الآخر ،فيستدعى كل منهما محاميه ، ويعلنان فى وقت واحد عن نواياهما المتبادلة ، وان كانت نوايا متناقضة • ولا شك فى أن المحنة التى تنشأ عن الترف المسف ، وتعتبر عقابا له ، كثيرا ما تلجىء العظماء الى استخدام أحط الوسائل وأشدها اذلالا • فاذا أرادوا الاقتراض ، لجأوا الى أسلوب التوسل الوضيع الذى يستخدمه العبيد فى المسرحيات الكوميدية ، أما اذا أريد منهم السداد فانهم يتخذون لأنفسهم مظهر الحماس التراجيدى الملكى الذى يلائم أحفاد هرقول • واذا تكررت المطالبة استعانوا على الفور بأحد الأذناب المتملقين ، فيوجه الى الدائن الوقح تهمة استخدام السم أو السحر ، ويندر فى هذه الحالة أن يخرج من السجن حتى يوقع ابراء بسداد الدين بأكمله • هذه الرذائل التى تحط من أخلاق الرومان ، تمتزج بخرافات صبيانية تصم ادراكهم بالخزى والعار ، فهم يستمعون فى ثقة الى تنبؤات الدجالين الذين يدعون أن فى مقدورهم معرفة دلائل العظمة والرفاهية المقبلة داخل أحشاء الضحايا • وكثير منهم لا يجرؤون على الاستحمام أو تناول الطعام ، أو الظهور فى المجتمعات العامة حتى يرجعوا الى قواعد

التنجيم ، ويعرفوا موقع كوكب المشترى أو أوجه القمر • ومن العجيب بصورة خاصة أن هذه السذاجة الرخيصة • قد توجد احيانا بين المتشككين الكافرين الذين ينكرون فى ألحاد وجود القوة السماوية ، أو يشكون فى وجودها » •

شعب روما

المشاهد فى المدن الآهلة التى تكون مركزا للتجارة والصناعة ، ان الطبقات الوسطى ، التى تكسب قوتها من مهارة أو عمل أيديها ، هى فى المعتاد أكثر الطبقات انتاجا ، وأعظمها نفعا ، وبهذا المعنى تكون أكثر أجزاء المجتمع احتراما • أما أبناء طبقة البلبيان (العامة) فى روما ، الذين كانوا يحتقرون مثل تلك الحرف المعقدة الحقيرة ، فقد وقعوا منذ أقدم العصور تحت وطأة الديون والربا ، وكان الفلاح يضطر فى فترة أدائه للخدمة العسكرية ، أن يتخلى عن فلاحة مزرعته • اما أراضى ايطاليا التى كانت فى الأصل مقسمة بين أسرات الملاك الأحرار المعوزين ، فقد اشتراها أو اغتصبها منهم النبلاء الجشعون تدريجيا ودون أن يحسوا • وفى العصر الذى سبق سقوط الجمهورية قدر أن ألفين فقط من المواطنين لهم أملاك خاصة يستقلون بها • ومع ذلك فطالما كان أفراد الشعب ينتخبون المرشحين لمناصب الدولة ، وقيادة الجيوش ، وحكم الولايات الغنية ، فان شعورهم بالعزة والكرامة كان يخفف من محن فقرهم الى حد ما • وكانوا يحصلون على حاجاتهم فى المواسم بفضل سخاء المرشحين الطموحين ، الذين كانوا يتطلعون الى شراء أكثرية فى قبائل روما الخمس والثلاثين ، أو فى كتائبها المائة والثلاث والتسعين • غير أن هؤلاء العامة المسرفين ، عندما فرطوا دون حرص ، لا فى استخدام قوتهم فحسب بل فى توارثها أيضا ، تدهوروا ، تحت حكم القياصرة ، وأصبحوا شعبا حقيرا منكودا كان لابد أن ينقرض تماما فى أجيال قليلة لو لم تضف اليه بصورة مستمرة أعداد من الأرقاء العتقاء ، والغرباء الوافدين • ومنذ هادريان كان السكان الوطنيون الصرحاء يشكون بحق من أن العاصمة قد اجتذبت كل نقائص العالم وعادات أكثر الأمم تناقضا فهناك افراط الغاليين ، ودهاء الاغريق وطيشهم ، وعناد المصريين واليهود ، وذلة الآسيويين ، ودعارة السوريين المخنثة المنحلة ، كل هذه النقائص امتزجت فى مختلف طبقات الجماهير التى اتخذت من اسم « الرومان » الشامخ الزائف ما أكسبها الجرأة على احتقار رفاقهم من الرعايا ، بل واحتقار ملوكهم الذين كانوا يعيشون بعيدا عن نطاق المدينة الخالدة •

ومع ذلك فان اسم تلك المدينة ظل يذكر باحترام ، وكانت الاضطرابات الشاذة المتكررة التي يقوم بها سكانها لا تلقى عقابا ، وبدلا من أن يسحق خلفاء قسطنطين آخر آثار ذلك التحرر الجماهيرى بالقوة العسكرية وقبضتها المتينة ، ساروا على سياسة أغسطس اللينة وعملوا على التخفيف من فقر شعب كبير العدد ، وشغل ركوده وكسله ٠

١ ـ فمن أجل راحة الدهماء الكسالى تحول التوزيع الشهرى للحبوب الى راتب يومى من الخبز ، وبنى عدد كبير من الأفران كان ينفق عليها من المصروفات العامة ، وفى الساعة المحددة كان كل مواطن بيده بطاقة ، يرتقى السلم المخصص للحى أو القسم الذى يعيش فيه ، ويأخذ نصيب أسرته من الخبز ، رغيفا يزن ثلاثة أرطال ، اما منحة أو بثمن زهيد جدا ٠

٢ ـ كانت غابات أقليم لوكانيا تسمن قطعانا كبيرة من الخنازير التى تقتات على ثمار أشجار البلوط ، وأصبحت هذه الغابات موردا وفيرا للحوم الرخيصة الصحية يقدمها الاقليم على سبيل الجزية ٠ وخلال خمسة شهور من السنة كانت توزع على المواطنين الفقراء رواتب منتظمة من لحم الخنزير ٠ وقدر الاستهلاك السنوى للعاصمة ، بعد أن انخفض كثيرا عما كان عليه من قبل ، بثلاثة ملايين وستمائة وثمانية وعشرين ألف رطل وفق ما يؤكده مرسوم فالنتينيان الثالث ٠

٣ ـ كان استخدام الزيت ، وفق العادات القديمة ، شيئا لا غنى عنه فى الاضاءة ، وفى الحمام ، وبلغ القدر الذى كان لزاما على أفريقيا أن تبعث به الى روما كضريبة سنوية ثلاثة ملايين رطل ، وهو ما يقابل ثلاثمائة ألف من « الجالونات » الانجليزية ٠

٤ ـ كان اهتمام أغسطس بامداد العاصمة بوفرة كافية من الحبوب لا يتعدى تلك المادة الضرورية لحياة الانسان ٠ وعندما جار الناس بالشكوى من غلاء النبيذ وندرته أصدر المصلح الخطير بيانا يذكر فيه رعاياه بأنه لا يحق لأى انسان أن يشكو من العطش لأن قنوات أجريبا Agrippa قد حملت الى المدينة فيضا من الماء الصحى الوفير ، غير أن هذا التعسف خفف بطريقة لا شعورية ، ومع أن خطة الامبراطور أورليانوس لم تنفذ على أوسع مداها ، الا أن النبيذ أصبح ميسورا موفورا ، وعهد بمخازن النبيذ العامة لموظف رفيع المقام ، وخصص جزء كبير من خمر اقليم كمبانيا لسكان روما المحظوظين ٠

وكانت قنوات المياه الفخمة التى حق لأغسطس نفسه أن يشيد بذكرها ، توصل الماء الى الحمامات التى أقيمت فى كل جزء من أجزاء المدينة بفخامة تتفق مع عظمة الامبراطورية ٠ وكانت حمامات أنطونينوس كاراكلا تفتح فى أوقات محددة لأعضاء السناتو وعامة الناس دون تمييز ، وتحتوى على ألف وستمائة مقعد من الرخام ، أما حمامات دقلديانوس فقد قدرت مقاعدها بأكثر من ثلاثة آلاف ٠ وكانت جدران الغرف المرتفعة مغطاة بالفسيفساء العجيبة التى تحاكى ريشة الرسام فى روعة التصميم وتنوع الألوان ٠ فكان الجرانيت المصرى يطعم تطعيما جميلا برخام نوميديا الأخضر النفيس ، وكان الماء الساخن يتدفق بصورة مستمرة فى الأحواض الواسعة من خلال فتحات كثيرة واسعة مصنوعة من الفضة السميكة ، وكان فى مقدور أحقر فرد من أفراد الرومان أن يشترى بعملة نحاسية صغيرة متعة يومية يستمتع فيها بمشاهد من مشاهد العظمة والترف قد يثير غيرة ملوك آسيا ٠ ومن هذه القصور الفخمة كانت تخرج جماعات من الدهماء القذرين فى ثياب مهلهلة ، دون نعال ودون عباءات ، ثم يتسكعون أياما بأكملها فى الشوارع أو فى ساحة السوق « الفورم » للتناقش وسماع الأخبار ، ويبددون فى المقامرة المسفة أقوات زوجاتهم وأبنائهم الزهيدة ، ويقضون ساعات الليل فى الحانات والمواخير المعتمة منغمسين فى الملذات الحسية الفظة الداعرة ٠

غير أن أروع متعة للجمهور العاطل الكسول ، وأكثرها اثارة ، كانت تعتمد على عروض الألعاب والمشاهد العامة ٠ وكان الملوك المسيحيون الأتقياء قد أوقفوا المبارزات الوحشية بين المجالدين ، غير أن الشعب الرومانى ظل يعتبر (السيرك) مأواه ومعبده ومقر الجمهورية ٠ وكان الجمهور المتحرق يندفع فى ساعة الفجر لحجز أماكنه ، وكان الكثيرون يقضون الليل ساهرين مترقبين ٠ وكان المتفرجين ، الذين يبلغ عددهم أحيانا أربعمائة ألف ، يقضون اليوم من صباحه الى مسائه غير عابئين بالشمس أو المطر ، فى حالة اهتمام شديد ، وقد تعلقت أبصارهم بالخيول وقائدى العربات ، واضطرمت فى عقولهم الآمال والمخاوف وهم يتوقعون فوز الألوان (الفرق) التى يؤيدونها ، ويبدو أن سعادة روما كانت تتوقف على نتيجة سباق ٠ وكان هذا الحماس الطائش يدفعهم الى الصياح والتهليل كلما شاهدوا صيد الوحوش وشتى نماذج التمثيل المسرحى ٠ ولا شك فى أن هذه التمثيليات فى العواصم الحديثة جديرة بأن تعتبر مدرسة طاهرة رفيعة لتربية الذوق ، بل ولغرس الفضيلة ٠ غير أن آلهة التراجيديا والكوميديا لدى الرومان الذين قلما تطلعوا الى ما هو أكثر من تقليد عبقرية أتيكا ، هذه الآلهة لاذت بالصمت الكامل منذ سقوط الجمهورية ، حلت مكانها ، دون جدارة ، الهزليات الداعرة ، والموسيقى

المخنثة ، والمهرجانات الرائعة • وكان الممثلون الصامتون ، الذين احتفظوا بشهرتهم منذ عهد أغسطس الى القرن السادس ، يصورون ، دون استخدام الألفاظ ، مختلف أساطير الآلهة والأبطال القدامى ، وكانت اجادتهم لفنهم تسلب الفلاسفة وقارهم فى بعض الأحيان ، وتثير على الدوام استحسان الناس وعجبهم • واحتشد فى مسارح روما الفسيحة الفخمة ثلاثة آلاف راقصة وثلاثة آلاف من المنشدين مع رؤساء فرق الترديد (الكورس) ، كل فرقة مع رئيسها • ولقد بلغ من حظوتهم لدى الشعب أنه فى وقت من أوقات العوز التى استلزمت ابعاد كل الغرباء عن المدينة ، أعفتهم مزية الاسهام فى متع الشعب من الالتزام بقانون نفذ بصرامة ضد أساتذة الفنون الحرة •

ويقال ان الاجابالوس دفعه حب الاستطلاع الأحمق الى محاولة معرفة عدد سكان روما من كمية أنسجة العناكب • وكان جديرا بالحكام العقلاء أن يتبعوا أسلوب بحث آخر تمشيا مع التفكير السليم ، وكان فى مقدورهم فى سهولة أن يجدوا حلا لمسألة كهذه على جانب كبير من الأهمية للحكومة الرومانية ، بقدر ما تثير اهتمام الأجيال التالية • فالمواليد والوفيات بين المواطنين كانت تسجل كما ينبغى ، ولو أن أحد الكتاب القدامى عنى بذكر مقدارها السنوى ، أو متوسطتها العام ، لكان فى مقدورنا الآن أن نستخرج احصاء مرضيا يهدم تأكيدات النقاد المبالغ فيها ، وقد يؤكد التخمينات المتواضعة المحتملة التى ذهب اليها الفلاسفة • وثمة بحوث توافر عليها أصحابها وجمعوا منها الحالات التالية ، وهى على قلتها ونقصها ، يمكن أن تلقى ضوءا على عدد سكان روما القديمة :

١ ـ عندما حاصر القوط عاصمة الامبراطورية أجرى الرياضى أمونيوس قياسا دقيقا لأسوار المدينة ، فوجدها تبلغ واحدا وعشرين ميلا • ويجب ألا ننسى أن شكل المدينة كان يشبه الدائرة تقريبا ، وهو الشكل الهندسى الذى يشتمل على أوسع مساحة داخل أى محيط معين •

٢ ـ أما المهندس المعمارى فيتروفيوس Vitruvius الذى ذاعت شهرته فى عصر أغسطس ، والذى يعتبر شهادته فى هذه المسألة مرجعا له وزنه الخاص ، فانه يلاحظ أن مساكن الشعب الرومانى الكثيرة العدد يمكن أن تمتد الى ما وراء حدود المدينة الضيقة ، وأن ضيق الأرض ، الذى يحتمل أنه كان راجعا الى طغيان الحدائق (والفيلات) على المدينة من كل جانب ، أوحى بذلك الاجراء الشائع وان كان اجراء متعبا ، وهو رفع المبنى الى أعلى بقدر كبير • غير أن تلك المبانى كانت تشاد بطريقة عاجلة ولا تستخدم فيها مواد

كافية ، ومن ثم فان ارتفاعها كثيرا ما سبب حوادث مميتة ، الأمر الذى جعل أغسطس ونيرون يقرران مرة بعد الأخرى أن ارتفاع المبانى الخاصة داخل أسوار روما ينبغى ألا يجاوز سبعين قدما من سطح الأرض ٠

٣ ـ أما جوفنال Juvenal ، فانه يرثى لمحن المواطنين الفقراء، ويبدو أنه مر بهذه المحنة نفسها ، ويقدم لهم النصح المفيد بأن يبتعدوا دون ابطاء عن دخان روما ، لأنه فى مقدورهم أن يشتروا فى مدن ايطاليا الصغيرة مسكنا بهيجا مريحا بنفس الثمن الذى يدفعونه سنويا مقابل مسكن مظلم وضيع ٠ ويتضح من هذا أن ايجار المساكن كان مرتفعا الى حد المغالاة ، وأن الأغنياء كانوا يشترون الأرض بثمن فاحش ، ويقيمون عليها القصور والحدائق ، غير أن جمهرة سكان روما كانوا يزدحمون فى مساحة ضيقة ، وان مختلف الطوابق والغرف فى المنزل الواحد كانت مقسمة ، كما هى العادة الآن فى باريس والمدن الأخرى ، بين عدة أسرات من العاصمة ٠

٤ ـ ذكر المجموع الكلى للمنازل القائمة في مناطق المدينة الأربع عشرة بشكل دقيق فى الوصف الذى كتب عن روما فى عهد ثيودوسيوس، وقد بلغ عددها ٤٨٣٨٢ ٠ وقسمت الى نوعين (الدوماس Domus والانسيولا Insulae) يشملان كل بيوت العاصمة ، أيا كان قدرها وحالها ، من القصر الرخامي الذى تخصص فيه أمكنة كثيرة للمعتقاء والعبيد ، الى المسكن المرتفع الضيق الذى سمح للشاعر كودروس وزوجته أن يستأجرا فيه غرفة وضيعة تحت قرميد السطح مباشرة ٠ فاذا أخذنا بنفس المتوسط الذى وجد أنه ينطبق على باريس فى ظروف مماثلة ، وقدرنا تقديرا جزافيا أن المنزل ، أيا كان قدره ، يسكنه خمسة وعشرون شخصا ، فاننا نقدر عدد سكان روما على وجه التقريب بمليون ومائتى ألف ، وهو عدد لا يعتبر مبالغا فيه بالنسبة الى عاصمة الامبراطورية الضخمة ، وان كان يربو على عدد سكان أعظم مدن أوروبا الحديثة ٠

حصار روما الأول

هكذا كانت حال روما تحت حكم أونوريوس ، عندما كان القوط يحاصرون المدينة أو قل يسدون عليها المنافذ ٠ وبفضل براعة ألاريك فى تنظيم قواته الهائلة، التى كانت تتلهف على حلول لحظة الهجوم ، استطاع أن يحيط بالأسوار ، ويسيطر على البوابات الاثنتى عشرة ، ويقطع كل اتصال بالريف المجاور ، ويحرس فى يقظة كل الملاحة فى نهر التيبر الذى

ان يحصل الرومان عن طريقه على أوفر المؤن وأكثرها ضمانا • وكانت أول الانفعالات التى أحس بها النبلاء والشعب ، هى انفعالات الدهشة والحنق لأن بربريا حقيرا تجرأ على اهانة عاصمة الدنيا ، غير أن كبرياءهم هذه سرعان ما أذلتها المحنة ، وبدلا من أن يوجهوا غيظهم البعيد عن الرجولة والشهامة الى العدو المتأهب للقتال وجهوه فى حقارة الى ضحية بريئة عزلاء لا حول لها ولا قوة • ولقد كان جديرا بالرومان ان يحترموا فى شخص سيرينا Serena ، ابنة شقيق ثيودوسيوس ، وعمة الامبراطور الحاكم ، أو قل أمه بالتبنى ، غير أنهم كانوا يمقتون أرملة ستيلكو ، فصدقوا فى هوى وتحيز قصة التشنيع التى اتهمتها بالتآمر السرى الاجرامى مع الفاتح القوطى • وكان أعضاء السناتو متأثرين بهذا الجنون العام نفسه ، أو أنهم كانوا يرهبونه ، فأصدروا عليها حكما بالموت ، دون أن يطلبوا دليلا على جرمها • وهكذا شنقت سيرينا بصورة مشينة مزرية ، ودهش الجمهور المفتتن من أن هذا العمل الظالم القاسى لم يترتب عليه مباشرة تقهقر البرابرة وانقاذ المدينة • ولقد عانت تلك المدينة البائسة شيئا فشيئا محنة الفاقة والعوز ، وحلت بها فى النهاية كوارث المجاعة الفظيعة • فانخفض المسموح به من الخبز من ثلاثة أرطال يوميا الى نصف رطل ، ثم الى ثلث ، ثم انقطع ، وارتفع ثمن الحبوب بنسبة سريعة مفرطة • وأخذ المواطنون المعوزون ، الذين عجزوا عن شراء ضرورات الحياة ، يلتمسون صدقة الأغنياء المقلقلة واحسانهم المزعزع ، ووجد بؤس الشعب ما يخففه فترة من الوقت بفضل الشفقة التى أظهرتها لايتا أرملة الامبراطور جراشيان • وكانت لايتا تقيم اذ ذاك فى روما ، فخصصت للفقراء والمعوزين ذلك الدخل الكبير الذى كانت تتسلمه سنويا من خلفاء زوجها المعترفين بفضله • غير أن هذه الهبات الشخصية المؤقتة لم تكن كافية لتسكين جوع شعب كبير العدد ، واقتحمت المجاعة المتزايدة القصور الرخامية التى كان يسكنها أعضاء السناتو أنفسهم • وتبين أولئك الذين كانوا يعيشون فى نعماء اليسر والترف، رجالا كانوا أو نساء ، أن مطالب الطبيعة يكفيها القليل ، وأخذوا ينفقون ما لديهم من خزائن الذهب والفضة للحصول على القوت الضئيل الخشن الذى لو عرض عليهم من قبل ، لنبذوه فى ازدراء واحتقار • فالطعام الذى تنفر منه الحواس أو يشمئز منه الخيال ، أكثر ما يكون النفور والاشمئزاز ، والأغذية الضارة بالجسم والمؤذية للصحة أكثر ما يكون الضرر والايذاء ، كل هذه الأشياء كانوا يلتهمونها بشغف ويتنازعونها بشراسة بفعل ثورة الجوع الذى استبد بهم • وسرى الشك المبهم فى أن بعض المنكودين اليائسين كانوا يقتلون رفاقهم سرا ويأكلون جثثهم ، بل قيل ان الأمهات (وهذا هو الصراع الرهيب بين أقوى غريزتين غرستهما الطبيعة فى صدر الانسان) أكلن

ثم أطفالهن بعد ذبحهن · وهلك آلاف من سكان روما فى البيوت والشوارع بفعل نقص الغذاء، ولما كانت المدافن العامة خارج الأسوار فى قبضة العدو فان الرائحة الكريهة المنبعثة من الجيف المتعفنة التى لم توار التراب ، لوثت الهواء ، وانتشرت الأمراض الوبائية فى أعقاب المجاعة فضاعفت من خطورتها · وبعث بلاط رافنا Ravenna المرة بعد الأخرى تأكيدات بأنه سوف يرسل غوثا سريعا فعالا ، وبهذا بعث القوة فى عزائم الرومان الخائرة فترة من الوقت ، وعندما تملكهم اليأس فى نهاية الأمر من اى عون بشرى ، وجدوا فى ذلك ما أغراهم على قبول ما عرض عليهم من خلاص تأتى به قوة خارقة للطبيعة · وتمكن بعض عرافى تسكانيا ، دهاء أو تعصبا ، من اغراء يومبيانوس حاكم المدينة ، وأوهموه أن فى مقدورهم بقوة التعاويذ وتقديم الذبائح أن يستخلصوا البرق من السحاب، ويوجهوا تلك النيران السماوية ضد معسكر البرابرة · ووصل هذا السر الخطير الى انوسنت Innocent ، أسقف روما ، وقد اتهم خليفة القديس بطرس ، وربما كان ذلك على غير أساس ، بأنه فضل سلامة الدولة على صرامة العبادة المسيحية وجمودها · ولكن عندما أثيرت المسألة فى مجلس السناتو، وعندما قيل ان الشرط الأساسى هو أن تقدم تلك الذبائح فى الكابيتول بأمر من الحكام وفى حضورهم ، رفضت أكثرية ذلك المجلس الموقر أن تشترك فى عمل يساوى اعادة الوثنية علنا ، اما خوفا من غضب الله أو من غضب الامبراطور ·

وكان آخر ملاذ للرومان هو أن يكون ملك القوط رحيما بهم أو على الأقل معتدلا فى مطالبه ، وعين السناتو سفيرين للتفاوض مع العدو على أساس أن هذا المجلس يتولى سلطات الحكم العليا اذا حلت أزمة طارئة · وعهد بهذه المهمة الخطيرة الى باسيليوس ، وهو سناتور من أصل أسبانى ، وله مقام بارز فى حكم الولايات ، والى جون John ، التربيون الأول لتوثيق العقود ، الذى كان أهلا للمهمة بحكم براعته فى العمل وصداقته السابقة لملك القوط · وعندما مثلا بين يديه ، أعلنا ، فى أسلوب ربما كان أكثر تعاليا عما يتفق مع حالتهم الحقيرة ، أن الرومان مصممون على الحفاظ على كرامتهم ، سواء فى السلم أو فى الحرب ، وأنه اذا أبى عليهم ألاريك استسلاما عادلا مشرفا ، ففى مقدوره أن ينفخ فى أبواقه ، ويستعد لخوض معركة ضد شعب كبير العدد ، متمرس على القتال مندفع بقوة اليأس · فرد عليهما البربرى ردا مقتضبا قائلا : « كلما كان التبن سميكا سهل حشه » · وكانت هذه الاستعارة الجافة مصحوبة بضحكة عالية مهينة تعبر عن احتقاره لتهديدات شعب لا يجيد القتال ، أفسده الترف قبل أن تضنيه المجاعة ثم تنازل بتحديد الفدية

التى يمكن أن يقبلها ثمنا لتقهقره عن أسوار روما · وكانت الفدية كل ذهب المدينة وفضتها ، سواء أكانت ملكا للسناتو أم للأفراد ، وكل المنقولات الغالية الثمينة ، وكل الأرقاء الذين يستطيعون أثبات انتسابهم الى اسم « البرابرة » وتجرأ وزيرا السناتو على سؤاله فى لهجة التواضع والتوسل : « أيها الملك ! اذا كانت هذه هى مطالبك ، فما الذى تعتزم أن تتركه لنا ؟ » فأجاب الفاتح المتشامخ : « حياتكم » فاهتز كيانهما وانسحبا · ولكن قبل أن ينسحبا منحهما ملك القوط فترة قصيرة يتوقف فيها القتال ، وبذلك أفسح الوقت لمفاوضة أكثر اعتدالا · وزال العبوس الصارم من ملامح ألاريك دون أن يدرى ، وخفف كثيرا من قسوة شروطه ، ووافق فى نهاية الأمر على رفع الحصار عن المدينة ، اذا ما دفعت على الفور خمسة آلاف رطل من الذهب ، وثلاثين ألف رطل من الفضة ، وأربعة الاف رداء من الحرير ، وثلاثة آلاف قطعة من القماش الأحمر الجيد وثلاثة آلاف رطل من الفلفل (١) · غير أن الخزانة العامة كانت خاوية ، والايجارات السنوية من الممتلكات الكبيرة فى ايطاليا والولايات مقطوعة بسبب كوارث الحرب ، والذهب والجواهر كان الناس قد بادلوها ابان المجاعة بأحط أنواع الغذاء ، وكميات الثروة السرية كانت لا تزال مخبأة لدى أصحابها البخلاء الجشعين ، ولم يبق الا بقايا بعض الأسلاب المقدسة يمكن أن تحول دون ذلك الخراب الذى يوشك أن يحل بالمدينة ·

وبمجرد أن أشبع الرومان مطالب ألاريك الجشعة ، سمح لهم الى حد ما بالتمتع بالسلم والرخاء ، ففتحت عدة أبواب فى حذر ، ولم يقف القوط فى طريق استيراد المؤن من الريف المجاور وعن طريق النهر ، ولجأت جماهير المواطنين الى السوق الحرة التى كانت تقام ثلاثة أيام فى الضواحى · ومع أن التجار الذين تولوا هذه التجارة الرابحة حصلوا على ربح كبير ، الا أن الحوانيت الكثيرة التى أقيمت فى مخازن الحبوب العامة والخاصة جعلت تموين المدينة فى المستقبل أمرا مضمونا · وفى معسكر ألاريك كان النظام مستقرا أكثر مما كان منتظرا ، وأثبت البربرى العاقل احترامه لشرف المعاهدات حين أوقع العقاب فى صرامة عادلة بفريق من القوط المتهورين أهان بعض مواطنى الرومان فى طريق أوستيا

(١) كان الفلفل من أغلى العناصر التى تدخل فى الطهى الرومانى · وكان أحسن الأنواع يباع بخمسة عشر ديناراً ، أو عشرة شلنات للرطل · وكان يشترى من الهند وما يزال شاطىء مالابار بالهند أكبر موطن له ، غير أن تقدم التجارة والملاحة كان من أثرهما أن تضاعفت الكمية ونقص الثمن ·

Ostia • وبعد أن شبع الجيش بما أخذه من العاصمة ، تقدم فى بطء داخل ولاية تسكانيا الجميلة الخصبة حيث قرر ألاريك أن يقيم معسكره أثناء الشتاء ، وأصبح العلم القوطى ملاذا لأربعين ألف رجل من الأرقاء البرابرة تحللوا من قيودهم وتطلعوا تحت امرة منقذهم العظيم ، الى الانتقام للاساءات التى لحقتهم والعار الذى أصابهم من جراء عبوديتهم القاسية • وفى نفس ذلك الوقت تقريبا تلقى ألاريك مددا أكثر تشريفا ، القوط والهون ، الذين قادهم أدولفوس (١) شقيق زوجته ، بعد دعوة ملحة منه ، من ضفاف الدانوب الى ضفاف التيبر . وشق هؤلاء طريقهم فى شىء من الصعوبة وبعد تحمل شىء من الخسارة ، مخترقين القوات الامبراطورية التى تفوقهم عددا • وهكذا نرى قائدا مظفرا يجمع بين جرأة البربرى ودهاء ونظام قائد رومانى على رأس مائة ألف من المقاتلين ، وأصبحت ايطاليا تنطق باسم ألاريك القوى العظيم فى هلع واجلال •

ويكفينا الآن بعد مرور أربعة عشر قرنا أن نقص المغامرات العسكرية التى قام بها غزاة روما ، دون أن نتقصى بواعث مسلكهم السياسى • وربما أحس ألاريك • وسط ظفره الواضح ، بشىء من الضعف الخفى ، وبشىء من القصور الداخلى • ومن الجائز أيضا أن ما أظهره من اعتدال كان يقصد به أن يخدع سذاجة وزراء أونوريوس ويزيل عنهم الشك • وأعلن ملك القوط مرارا وتكرارا أنه راغب فى أن يعتبره الرومان صديقهم المحب للسلم ، وبناء على طلبه الملح ، أوفد الرومان ثلاثة سفراء من السناتو الى بلاط رافنا لالتماس تبادل الرهائن وعقد المعاهدة ، غير أن المقترحات التى عبر عنها ألاريك فى وضوح أثناء المفاوضات كانت كفيلة باثارة الشك فى اخلاصه ، اذ يبدو أنها لم تكن متفقة مع حالة الثراء والتوفيق التى كان فيها • فقد كان البربرى لا يزال يتطلع الى منصب القائد الأعلى لجيوش الغرب ، واشترط اعانة سنوية من الحبوب والمال ، واختار ولايات دلماشيا ونوريكوم وفنيسيا لتكون مقر مملكته الجديدة ، وهى ولايات تتحكم فى المواصلات الهامة بين ايطاليا والدانوب • وأظهر ألاريك ميلا الى أنه مستعد فى حالة رفض هذه الشروط ، الى التخلى عن مطالبه المالية ، بل والاكتفاء بامتلاك ولاية نوريكوم ، وهى بلاد منهكة فقيرة معرضة دائما لغارات برابرة الألمان • غير أن الوزير أوليمبيوس بدد الأمل فى السلام بعناده الضعيف ، أو بآرائه المغرضة ، ولم يستمع

(١) هذا الزعيم القوطى يسميه جورناندس وازيدور (أثولفوس) • ويسميه زوسيموس وأوروسيوس (أتولفوس) ، ويسميه أوليمبيودوروس (أدولفوس) •

وقد استخدمت الاسم المشهور (أدولفوس) ، وهو الاسم الدارج بين أهل السويد ، وهم أبناء أو أشقاء القوط القدامى •

الى احتجاجات السناتو السليمة ، بل صرف سفراءهم تحت حراسة عسكرية ، أكثر عددا من أن تكون حاشية شرف ، وأضعف من أن تكون جيشا للدفاع · فصدرت الأوامر الى ستة آلاف من رجال دلماشيا ، وهم زهرة الجيوش الامبراطورية ، للسير من رافنا الى روما ، عبر أرض مكشوفة يحتلها عشرات الآلاف من البرابرة الأقوياء · وتعرضت تلك الفرق الجريئة للخيانة ، وأحدق الأعداء بها ، فسقطت ضحية لحماقة وزير ، وهرب قائدها فالنز Valens مع مائة جندى من ساحة المعركة ، واضطر أحد السفراء الى شراء حريته بفدية قدرها ثلاثون ألف قطعة من الذهب بعد أن سقطت عنه حماية القانون الدولى · ورغم ذلك فان ألاريك لم يستنكر هذا العمل العدوانى الضعيف ، بل جدد على الفور مقترحاته للسلام ، فأوفد السناتو الرومانى وفدا ثانيا أكسبه وجود انوسنت أسقف المدينة وزنا ومكانة ، وسار الى بلاط رافنا تحرسه من أخطار الطريق فصيلة من جنود القوط ·

وكان في استطاعة أوليمبيوس أن يستمر فى تحديه لما أظهره الشعب من استياء صادق ، ذلك الشعب الذى اتهم أوليمبيوس جهارا بأنه خالق الكوارث العامة ، غير أن دسائس القصر السرية قوضت سلطته · ذلك أن الخصيان المقربين نقلوا مقاليد الأمور فى حكومة أونوريوس وفى الامبراطورية الى الوالى البريتوري جوفيوس Jovius ، وهو موظف تافه الشأن لم يكفر بمزية الحب والود الشخصى عن أخطاء ادارته ونكباتها · أما المذنب أوليمبيوس ، فان نفيه ، أو فراره ، أبقاه ليشهد من تقلبات الحظ قدرا أكبر فذاق مغامرات حياة مغمورة لا يستقر لها حال ، ثم استولى على السلطة مرة أخرى ، ثم انحدر الى وهدة العار ، ثم قطعت أذناه ، ومات فى نهاية الأمر مضروبا بالسياط ، وكان موته الشائن مشهدا أرضى أصدقاء ستيلكو · وبعد زوال أوليمبيوس ، الذى كانت أخلاقه ملوثة بالتعصب الدينى ، تخلص الوثنيون والهراطقة من ذلك الحرمان الجائر الذى أقصاهم عن وظائف الدولة · ذلك أن جنريد Gennerid الشجاع ، وهو جندى من أصل بربرى ظل متمسكا بعبادة أجداده واضطر الى التخلى عن حزامه العسكرى ، هذا الجندى كثيرا ما أكد له الامبراطور نفسه أن القوانين لا تسرى على رجال من مركزه وقدره ، ورغم ذلك فقد رفض أى حل جزئى وثبت على موقفه المهين ، المشرف له ، حتى انتزع من الحكومة الرومانية وهى في محنتها قرارا عاما يتمشى مع العدالة والانصاف وكان مسلكه في المنصب الهام الذي رقي أو أعيد اليه ، وهو منصب القائد العام لدلماشيا وبانونيا ونوريكوم وراشيا ، هذا المسلك بدأ يعيد الى الدولة نظامها وروحها · وسرعان ما انتشل قواته من حياة الكسل والفاقة ، وعودهم على المران العنيف ووفر لهم

الكثير من الغذاء ، وكثيرا ما كان سخاؤه الشخصي يدفعه الى منح جنوده المكافآت التي يأباها عليهم بلاط رافنـا ، بدافع من البخل أو الفقر ٠ وخشى البرابرة المجاورون شجاعة جنريد وقوة شكيمته ، ومن ثم فقد أصبحت تلك الشجاعة أقوى حصن يحمي حدد الليريا ، كمـا أنه استطاع بحرصه واهتمامه أن يمد الامبراطورية بعشرة آلاف من جنود الهون الذين وصلوا الى حـدود ايطـاليا ومعهم قافلة من المؤن ، وقطعـان كبيرة من الخراف والثيران ، لا تكـفي مسيرة جيش فحسـب ، بل تكفي اقـامة مسـتعمرة بأكملهـا ٠ غـير أن بلاط أونوريوس ومجالسه ظلت مشهدا للضعف واللهو ، ومرتعـا للفسـاد والفوضى ٠ وبتحريض من الوالي جوفيوس ، قام الحرس بتمرد عنيف وطالبوا برءوس قائدين واثنين من رؤساء الخصيان ٠ وتلقى القائدان وعدا غادرا بالأمان ، ثم قتلا سرا على ظهر سفينة ، أما الخصيان ، فقد أرسلا الى منفى هادىء مأمون في ميلان والقسطنطينية ، بفضل ما كان لهما من حظوة ، وتولى الخصي يوسيبيوس منصـب حاجـب المخـدع ، كمـا تولى البربرى ألوبيخ Allobich منصب رئيس الحرس ٠ غير أن الغيرة المتبادلة بين هذين التـابعين كانت سببا في هلاك الاثنين ٠ ذلك أن رئيس الحرس أصدر أمرا وقحـا بضرب حـاجب المخـدع بالعصي حتى مات على مرأى من الامبراطور المذهـول ، وأعقب ذلك قتل رئيس الحرس وسط موكب عام ، وكان ذلك هو الظرف الوحيد في حيـاة أونوريوس الذى أظهر فيه أضـعف دلائل الشجاعـة أو السخط ٠ ولكن قبل أن يسقط يوسيبيوس وألوبيخ كانا قد قـاما بدورهما في دمار الامبراطورية بمعارضتهما لعقد معاهدة كان جوفيوس ، بدافع أناني ، أو ربما بدافع اجرامي ، قد تفاوض بشأنها مع ألاريك ، في مقابلة شخصية تحت أسوار مدينة ريمني ، فأثناء غياب جوفيوس أثر هذان الرجـلان على الامبراطور بـأن يظهر بمظهر التعـالي اللائـق بكرامتـه التي لا تنثني ، وهو مظهر لم يكن في مقدوره أن يثبت عليـه بحكم وضعه وبحكم أخلاقه ٠ وفور هذا أرسل خطاب بتوقيع أونوريوس الى الحاكم البريتورى ، يمنحه اذنا دون قيد بالتصرف في الأموال العامة ، ولكنه يرفض رفضا باتا أن يذل شرف روما العسكرى باجابة البربرى الى مطالبه المتشامخة ٠ ونقـل الخطاب في غير فطنة الى ألاريك نفسه ٠ ولما كان القوطي ، خلال العملية كلها ، قد تصرف تصرفا لائقا معتدلا ، فقد عبر في أعنف لغة وأشدها غضـبا عن احسـاسه الشديد بالاهـانة التي وجهت الى شخصـه وأمته بمثـل تلك الوقاحة والقسوة ٠ وسرعان ما توقف مؤتمر ريمني ، وعندما عاد الحاكم جوفيوس الى رافنا اضطر الى

الأخذ بالآراء الحديثة السائدة فى البلاط ، بل وتشجيعها • وبناء على نصيحته والمثل الذى ضربه ، اضطر كبار موظفى الدولة والجيش الى أن يقسموا أنهم لن يستمعوا الى أية شروط للصلح تحت أية ظروف ، وأنهم سوف يواصلون حربا دائمة لا هوادة فيها ضد عدو الدولة • وكان من شأن هذا الارتباط المتهور أنه أقام حاجزا لا يمكن تخطيه أمام أية مفاوضات مقبلة • ولقد سمع وزراء أونوريوس وهم يعلنون أنه لو كان الأمر قاصرا على أنهم أقسموا باسم الله فحسب ، لتوخوا السلامة العامة ، ووضعوا أرواحهم تحت رحمة السماء ، ولكنهم أقسموا برأس الامبراطور المقدس نفسه ، ووضعوا أيديهم فى اجلال وخشوع على ذلك المستقر العظيم للجلالة والحكمة ، ومن ثم فان حنثهم بالقسم سوف يعرضهم للقصاص الدنيوى ، قصاص التدنيس والتمرد •

حصار روما الثانى

كان الامبراطور وبلاطه يستمتعون فى كبرياء غاضبة بمناعة مستنقعات رافنا وحصونها ، وتركوا روما ، دون دفاع تقريبا ، لغضب الاريك وسخطه • ومع ذلك فقد توخى الاريك ، أو اصطنع ، قدرا كبيرا من الاعتدال • فعندما تقدم بجيشه على طريق فلامينا ، كان يرسل تباعا أساقفة المدن الايطالية ليكرروا عروض الصلح ، وليستحلفوا الامبراطور أن ينقذ المدينة وسكانها من نار الأعداء وسيوف المتبربرين • ومع ذلك فقد أمكن تجنب هذه الكوارث الوشيكة الوقوع ، لا بفضل حكمة أونوريوس ، بل بفضل فطنة الملك القوطى أو انسانيته التى أوحت اليه أن يستخدم أسلوبا للغزو أخف وطأة ، وان لم يكن أقل فعالية • فبدلا من مهاجمة العاصمة ، وجه جهوده بصورة ناجحة ضد مينائها أوستيا ، وهى عمل من أضخم وأروع الأعمال الرومانية • فلقد كان غذاء روما مقلقلا ويتعرض بصورة دائمة لكثير من الحوادث أثناء الملاحة الشتوية ، وفى طريق مكشوف ، فأوحى هذا الى عبقرية القيصر الأول بفكرة نافعة نفذت فى عهد كلوديوس ، وهى فكرة بناء ميناء أوستيا ، فحواجز الأمواج الصناعية التى يتكون منها المدخل الضيق ، كانت تمتد الى مسافة كبيرة داخل البحر ، وتصد ثورة الأمواج تماما ، بينما تستطيع أضخم السفن أن ترسو داخل ثلاثة أحواض عميقة واسعة تستقبل مياه الفرع الشمالى من نهر التيبر • على بعد ميلين تقريبا من مستعمرة أوستيا

القديمة (١) • ونمت الميناء الرومانية شيئا فشيئا حتي أصبحت في حجم مدينة أسقفية ، وكان يخزن فيها القمح الوارد من آفريقيا في مخازن فسيحة للحبوب لكي يستخدم في تموين العاصمة • وما أن استولى ألاريك على ذلك المكان الهام حتى طلب الى المدينة أن تستسلم بمحض اختيارها ، وعزز طلبه هذا بأن أعلن اعلانا قاطعا أن الرفض ، أو حتى التأخير ، سوف يتبعه على الفور تدمير المستودعات التى تتوقف عليها حياة الشعب الرومانى • فاضطر السناتو الى أن يذل كبرياءه خوفا من المجاعة ومن صخب ذلك الشعب ، واستجاب على غير مضض الى اقتراح يتضمن تنصيب امبراطور جديد على عرش الامبراطور الهزيل أونوريوس • ووقع اختيار الفاتح القوطى على حاكم المدينة أتالوس Attalus ليكون صاحب الرداء الأرجوانى • وتلا ذلك مباشرة أن أقر الملك الجديد ، عرفانا بالفضل ، تعيين حاميه القوطي قائدا عاما لجيوش الغرب • ثم عين أدولفوس (شقيق زوجة ألاريك) رئيسا للحجاب ، على أن يتولى حراسة شخص أتالوس ، وبدت الأمتان المتخاصمتان متحدتين ، تربطهما أوثق أواصر الصداقة والتحالف •

وفتحت أبواب المدينة على مصاريعها ، واتجه امبراطور الرومان الجديد فى موكب صاخب الى قصر أغسطس وتراجان ، تحف به القوات القوطية من كل جانب ، وبعد أن وزع أتالوس المناصب المدنية والعسكرية على أتباعه والمقربين اليه ، عقد اجتماعا لمجلس السناتو ألقى فيه حديثا رسميا منمقا أكد فيه عزمه على اعادة عظمة الدولة ، وتصميمه على أن يضم الى الامبراطورية ولايات مصر والشرق ، وهى الولايات التى كانت تعترف فيما مضى بسيادة روما • وكان من شأن تلك الوعود المبالغ فيها أنها نفثت فى صدر كل مواطن عاقل حصيف احتقارا لشخصية مغتصب هزيل كان ارتقاؤه العرش أعمق جرح شائن أصاب الدولة من وقاحة البرابرة • غير أن الجماهير ، فى طيشها المعتاد ، هللت لتغير السادة ، وكان التذمر العام السائد اذ ذاك ملائما لمنافس أونوريوس • وتوقع

---

(١) كان مصبا نهر التيبر — The Ostia Tiberina — بصيغة المثنى ، تفصلهما الجزيرة المقدسة ، وهى مثلث متساوى الأضلاع ، يقدر طول كل ضلع بميلين وقد أقيمت مستعمرة أوستيا وراء فرع النهر الأيسر ، أو الجنوبى ، وأقيمت الميناء وراء فرع النهر الأيمن أو الشمالى والمسافة بين بقاياهما أكثر من ميلين ، على خريطة سنجولانى Cingolani وفى عهد سترابون كانت رواسب نهر التيبر قد سدت مرفأ أوستيا ، ووسعت حجم الجزيرة المقدسة ، وازدادت المسافة كثيرا بين أوستيا والميناء • وتبين القنوات الجافة والمصبات الواسعة تغيرات النهر ومجهودات البحر •

أبناء الطوائف الذين ظلمتهم مراسيم الاضطهاد التى أصدرها أونوريوس، تسيئا من العطف ، أو من التسامح على الأقل ، من حاكم تعلم فى وطنه ، أيونيا ، معتقدات الوثنية وتلقى بعد ذلك شعار المعمودية المقدس على يد أسقف آريوسى · وكانت الفترة الاولى من عهد أتالوس جميلة مزدهرة ، فأرسل ضابطا موثوقا به على رأس قوة ليست بالكبيرة لتحقيق خضوع أفريقيا ، ودان الجزء الأكبر من ايطاليا لارهاب القوات القوطية ، ورغم أن مدينة بولونيا أظهرت مقاومة عنيدة فعالة الا أن أهل ميلان ، الذين ربما ضايقهم تغيب أونوريوس ، وافقوا على من وقع عليه اختيار السناتو الرومانى بأصوات الاستحسان · وقاد ألاريك أسيره الملكى ، على رأس جيش ضخم ، حتى أوصله الى أبواب رافنا ، وهنا دخل المعسكر القوطى وفد رسمى يتألف من كبار وزراء أونوريوس وهم — جوفياس ، الحاكم البريتورى — فالنز ، قائد الفرسان والمشاة — يوتاميوس وزير الخزانة (الكوستور) — جونيان ، كبير موثقى العقود · وصرح أعضاء هذا الوفد باسم مليكهم أنهم يوافقون على الاعتراف بالانتخاب الشرعى لمنافسه ، وعلى تقسيم ولايات ايطاليا والغرب بين الامبراطورين · غير أن مقترحاتهم رفضت بازدراء واحتقار ، واشتدت وطأة الرفض بما أظهره أتالوس من شفقة مهينة ، اذ تنازل ووعد بأن أونوريوس ، اذا تنحى عن العرش فورا ، فسوف يسمح له بأن يقضى بقية حياته فى منفى هادىء فى احدى الجزر النائية · وفى الحق أن موقف ابن ثيودوسيوس بدا يائسا فى نظر أولئك الذين كانوا أعرف الناس بقوته وموارده ، حتى ان وزيره جوفيوسر ، وقائده فالنز ، تخليا بصورة مهينة عن قضية ولى نعمتهما الخاسرة ، وقدما الولاء الغادر لغريمه الأوفر حظا · وأصبح أونوريوس يرهب الأعداء الخفيين الذين قد يتربصون له فى العاصمة ، ويكمنون له فى القصر ، وفى مخدعه · وكان هناك بعض السفن فى مرفأ رافنا تستعد لنقل الملك المعتزل الى بلاد ابن أخيه الطفل ، امبراطور الشرق ·

غير أن هناك عناية الهية (هذا ، على الأقل ، هو رأى المؤرخ بروكوبيوس) ترقب الرعونة وترقب البراءة ، وليس ثمة جدال فى أن أونوريوس قد أسلم أمره لتلك العناية الالهية ، ففى اللحظة التى بلغ فيها من اليأس درجة أعجزته عن اتخاذ أى قرار حكيم أو جرىء ، وجعلته يتدبر فرارا شائنا مزريا ، فى تلك اللحظة نزلت الى البر فى ميناء رافنا ، على غير انتظار وفى الوقت المناسب ، امدادات قوامها أربعة آلاف من قدامى الجنود المحنكين · وعهد أونوريوس الى هؤلاء الغرباء الشجعان ، الذين لم تفسد ولاءهم أحزاب البلاط الامبراطورى ، بحراسة أسوار المدينة وأبوابها ، ولم يعد يقلق مضجع الامبراطور أى خوف من خطر قريب داخلى · ويضاف الى ذلك أن الأنباء المواتية التى تلقاها أونوريوس

من افريقيا غيرت بصورة فجائية آراء الرجال ووضع الشئون العامة • ذلك أن القوات والضباط الذين كان آتالوس قد أوفدهم الى تلك الولاية لم يكن نصيبهم غير الهزيمة والقتل ، وكان الحماس المتقد فى صدر هرقليان ، حاكم أفريقيا ، كفيلا بالابقاء على ولائه وولاء شعبه • وارسل هذا الحاكم الأمين الى أونوريوس مبلغا ضخما من المال دعم به ولاء الحرس الامبراطورى ، كما أن يقظته فى الحيلوله دون تصدير القمح والزيت الى روما ، أثارت فى تلك المدينة صخبا وتذمرا ، وظهر بين أسوارها شبح المجاعة • وترتب على فشل الحملة الأفريقية أن أفراد فريق أتالوس بدءوا يتبادلون الاتهامات والسباب ، كما أن عقل حامية ألاريك بدا ينصرف رويدا رويدا عن الاهتمام بأمير يفتقر الى روح الزعامة والقيادة ، وتعوزه سلاسة الخضوع والطاعة • فكانت أكثر الاجراءات رعونة وحمقا تتخذ دون علم ألاريك أو على العكس مما كان ينصح به ، ثم ان اصرار السناتو على عدم السماح بأن تضم الحملة الأفريقية عددا من القوط لا يزيد على خمسمائة جندى ، هذا الرفض من جانب أعضاء السناتو أظهر أنهم يرتابون فى القوط ولا يأتمنونهم ، وكان هذا المسلك من جانبهم بعيدا عن الشهامة والفطنة • وثار سخط الملك القوطى من جراء الحيل الخبيثة التى اتصف بها جوفيوس ، وهو الرجل الذى ارتفع الى مرتبة النبلاء ، ثم التمس بعد ذلك عذرا لغدره المزدوج ، فأعلن دون أن يستشعر خجلا أنه كان يتظاهر بالتخلى عن خدمة أونوريوس حتى يكون أكثر فعالية فى القضاء على قضية المغتصب • وفى سهل فسيح بالقرب من مدينة ريمنى • وعلى مشهد من جمهور لا يحصى من الرومان والبرابرة ، جرد ألاريك الملك المنكود ، أتالوس ، من التاج والرداء الأرجوانى ، وأرسل شارات الملك هذه الى ابن ثيودوسيوس ، بمثابة عهد على الصلح والصداقة • أما الضباط الذين رجعوا الى أداء واجبهم ، فقد أعيدوا الى مناصبهم ، بل ان عفو الملك القوطى امتد الى من يتأخرون فى التوبة • غير أن امبراطور الرومان الذليل أتالوس الذى كان راغبا فى الحياة ، ولم يستشعر الخزى والعار ، فانه توسل الى ألاريك أن يأذن له بالانضمام الى المعسكر القوطى ، والسير فى ركاب بربرى متشامخ متقلب المزاج •

حصار روما الثالث ونهبها

أزال اقصاء آتالوس عن منصبه العقبة الوحيدة الحقيقية فى طريق تحقيق الصلح ، وتقدم ألاريك حتى أصبح على بعد ثلاثة أميال من مدينة رافنا لكى يمارس الضغط على وزراء الامبراطور المترددين ، الذين سرعان

ما عادوا الى وقاحتهم برجوع الحظ اليهم • وثار سخطه وغضبه عندما علم أن زعيما منافسا ، وهو ساروس ، عدو ادولفوس الشخصى ، والخصم الوراثى لأسرة بالتى Balti قد استقبل فى القصر • وعلى الفور خرج ذلك البربرى المقدام ، ساروس من أبواب رافنا على رأس ثلاثمائة من أتباعه ، وفاجأ عددا كبيرا من القوط وقتلهم ، ثم رجع الى المدينة ظافرا ، وسمح له باهانة خصمه حيث استخدم مناديا يعلن على الملأ أن الجرم الذى ارتكبه ألاريك قد أقصاه الى الأبد عن صداقة الامبراطور والتحالف معه • ودفعت روما بما حل بها من كوارث ثمن حماقة بلاط رافنا وجرمه • ذلك أن ملك القوط ، الذى لم يعد يخفى شهوته للنهب والانتقام ، ظهر تحت أسوار روما بعدة الحرب ، وتأهب السناتو للمقاومة المستميتة حتى يؤخر خراب البلاد ، حيث لم يكن هناك أى أمل فى النجدة • غير أنه لم يستطع أن يتقى المؤامرة الخفية التى قام بها الأرقاء والخدم الذين كانوا يؤيدون قضية العدو ، اما بسبب نشأتهم أو بدافع من مصلحتهم • ففى منتصف الليل فتحت بوابة سلاريا فى تكتم وصمت ، واستيقظ السكان على صوت هائل صادر من أبواق القوط • وهكذا نرى مدينة روما الامبراطورية ، التى أخضعت ذلك الجزء الكبير من بنى الانسان ورفعته الى المستوى الحضارى ، هكذا نراها بعد ألف ومائة وثلاث وستين سنة ، تستسلم الى قبائل الجرمان والسكوذيين الغاضبة الداعرة •

وعندما اقتحم ألاريك تلك المدينة المقهورة ، أذاع تصريحا أظهر فيه أنه يحترم بعض الاحترام قوانين الانسانية والدين • فقد شجع قواته فى جرأة على أن يأخذوا ما يكافىء شجاعتهم وأن يزيدوا ثراءهم بأسلاب شعب غنى مخنث ، ولكنه نصحهم فى الوقت عينه ألا يمسوا المواطنين الذين لا يبدون مقاومة ، وأن يحترموا كنيستى القديس بطرس والقديس بولس على اعتبار أنها معابد مقدسة لا تمس • فى وسط فظائع تلك الثورة الليلية أظهر كثير من القوط المسيحيين حماس ارتدادهم الحديث الى هذا الدين • وقد ذكر بعض الكتاب الدينيين فى حماس أمثلة لورعهم غير العادى واعتدالهم غير المألوف ، وربما أضفوا على ما ذكروه شيئا من التنميق والتزويق (١) فبينما كان البرابرة يجوبون المدينة بحثا عن

---

(١) يشيد أورونيوس بورع القوط المسيحيين ، دون أن يبدو عليه أنه يدرك أن الجزء الأكبر منهم كانوا هراطقة آريوسيين • أما جورناندس وازيدور ، وكانا من انصار القضية القوطية فانهما يكرران وينمقان هذه القصص • وقال أزيدور ان ألاريك نفسه قد سمع وهو يقول انه شن الحرب على الرومان ، لا على الرسل • ذلك أسلوب القرن السابع • وقبل ذلك بمائتى سنة نسب الفضل والشهرة الى المسيح ، لا الى الرسل •

الغنائم ، اقتحم أحد القوط الأقوياء منزلا متواضعا تقطنه عجوز عذراء كرست حياتها لخدمة المذبح • وطلب منها فورا ، ولكن فى لغة مهذبة أن تسلمه كل ما فى حوزتها من ذهب وفضة ، وقد أدهشته مبادرتها الى اطلاعه على كنز رائع من الأطباق السميكة المصنوعة من أثمن المواد ، وبمهارة فائقة • ونظر البربرى فى عجب وابتهاج الى ذلك الكنز الثمين الذى أصبح فى متناول يده ، حتى قطع عليه تفكيره تحذير جاد وجهته اليه العذراء قائلة : « هذه الأوانى المقدسة تخص القديس بطرس ، واذا تجرأت على مسها فسوف يتحمل ضميرك هذا الرجس » • فامتلأ الضابط القوطى رهبة واجلالا ، وأوفد رسولا لاخطار الملك بنبأ الكنز الذى اكتشفه ، وتلقى أمرا قاطعا من الاريك بأن ينقل كل الأطباق المقدسة والزخارف ، دون ابطاء ودون أن يصيبها تلف ، الى كنيسة الرسول • وسارت فصيلة كبيرة من القوط فى نظام حربى ، مخترقة الشوارع الرئيسية ، من نهاية تل كويرينال الى حى الفاتيكان البعيد ، لتحرس بأسلحتها اللامعة صفا طويلا من زملائهم الأتقياء وهم يحملون فوق رءوسهم الأوانى الذهبية والفضية المقدسة ، واختلطت صيحات البرابرة الحربية بصوت الترانيم الدينية • وسارع جمهور من المسيحيين من كل المنازل المجاورة للانضمام الى هذا الموكب الملىء بالعظات ، وأتاح حسن الحظ لعدد كبير من اللاجئين الهاربين ، دون تمييز لسن أو مكانة أو طائفة ، أن يهربوا الى قدس الفاتيكان الآمن الكريم • وقد اعترف القديس أوغسطين أنه ألف كتابه القيم « مدينة الرب » لاثبات أساليب العناية الالهية فى تدمير العظمة الرومانية • وهو يشيد فى سرور خاص بهذا الانتصار المشهود الذى حققه المسيح ، ويقلل من شأن خصومه بتحديه لهم أن يذكروا أمثلة مشابهة لمدينة اقتحمها أعداؤها ، واستطاعت آلهتها الخرافية القديمة أن تحمى أنفسها فيها ، أو تذود عن أنصارها المخدوعين •

وفى حالة السلب والنهب التى تعرضت لها روما ، كانت هناك أمثلة نادرة غير عادية لما أظهره البرابرة من فضيلة تستحق الاشادة بها • غير أن النطاق المقدس للفاتيكان وكنائس الرسل كان لا يستطيع أن يستقبل الا نسبة صغيرة جدا من الشعب الرومانى : وثمة آلاف كثيرة من المحاربين ، وعلى الأخص أولئك الهون الذين خدموا تحت راية ألاريك ، كانوا غرباء على اسم المسيح ، أو على الأقل غرباء على العقيدة المسيحية ، ولنا أن نقول، دون أى مساس بالمحبة أو الصدق ، ان تعاليم الانجيل قلما كان لها تأثير على القوط المسيحيين ، فى ساعة الانطلاق الوحشى • بل ان أكثر الكتاب ميلا الى المبالغة فى رحمة القوط وشفقتهم ، قد اعترفوا فى صراحة بأن الرومان تعرضوا لمذبحة قاسية ، وأن شوارع المدينة امتلأت بجثث الموتى التى بقيت دون أن تدفن خلال حالة الفزع العامة وفى بعض

الأحيان كان يأس المواطنين يتحول الى ثورة ، وكلما كانت مقاومتهم تثير البرابرة ، كانت مذابح هؤلاء تمتد دون تمييز الى الضعفاء والأبرياء والعاجزين • ومارس أربعون ألفا من العبيد أعمال الانتقام الشخصي دون رحمة أو ندم وغسلوا سياط العار التي ذاقوها من قبل في دماء الأسرات المذنبة الممقوتة • وتعرضت عفة سيدات روما وعذاراها لاساءات أفظع من الموت نفسه ، وقد اختار المؤرخ الديني أوغسطين مثلا لعفة النساء ينال اعجاب الأجيال القادمة (١) • فقد حدث أن سيدة رومانية ذات جمال فريد وايمان ارثوذكسي صحيح أثارت شهوات ملحة في صدر شاب قوطي يعتنق الهرطقة الآريوسية ، على حد ملاحظة فطنة أبداها سوزومن Sozomen وعندما أثارت ثائرته بمقاومتها العنيدة ، استل سيفه وأصاب به عنقها اصابة طفيفة ، مدفوعا بغضب المحب الولهان • وظلت البطلة المجروحة تتحدى سخطه وتصد غرامه ، حتى كف الغاصب عن مجهوداته العديمة الجدوى ، وقادها في اجلال الى قدس الفاتيكان ، وأعطى حراس الكنيسة ست قطع من الذهب على شرط اعادتها الى زوجها مصونة طاهرة • غير أن مثل هذه الأمثلة الدالة على الشجاعة والشهامة لم تكن كثيرة الحدوث ، والمعروف أن الجنود البهيميين أشبعوا شهواتهم الحسية دون أن يقيموا وزنا لرغبة أسيراتهم أو لواجباتهم ، وأثار جدل شكلي حول مسألة دقيقة تتعلق بهؤلاء الضحايا الرقيقات اللاتي رفضن في اصرار أن يمس أحد طهرهن ، وهل فقدن لسوء حظهن تاج العفة المجيد • وثمة خسارات أخرى من نوع مادي أكثر اذلالا يمكن أن يذهب بنا الظن الى أن كل البرابرة استطاعوا في كل الأوقات أن يقترفوا هذه الاعتداءات الغرامية ، لأن افتقار العدد الأكبر من نساء الرومان الى الشباب ، أو الجمال ، أو العفة ، قد حال دون تعرضهن لخطر الاعتداء • غير أن حب المال من الأهواء التي تثور في كل الصدور ، ولا يستطاع اشباعها ، لأن امتلاك الثروة كفيل بأن يمكن الناس من الاستمتاع بكل شيء يبعث السرور في نفوسهم ، كل حسب ذوقه وطباعه • ومن ثم فان أولئك الذين تولوا نهب روما وسلبها ، كانوا يفضلون الذهب والمجوهرات ، وهي الأشياء التي لها أكبر القيمة على صغر حجمها ووزنها ، ولكن بعد أن تمكن اللصوص الأكثر مهارة من أخذ هذه النفائس سهلة الحمل ، وجردت

---

(١) يشير أوغسطين الى أن بعض العذارى قتلن أنفسهن فعلا للافلات من الاغتصاب • ومع أنه يبدي اعجابه بروحهن ، الا أنه يدين فيهن تلك الجرأة المتهورة ، بدافع من دراسته اللاهوتية ، وربما كان الأسقف الطيب هيبو سهل التصديق لهذا العمل البطولي الأنثوي أكثر مما ينبغي وصارما في لومه أكثر مما يجب • والعذارى الاثنتا عشرة (لو كان لهن وجود بالمرة) اللاتي ألقين بأنفسهن في نهر الألب عندما اقتحمت مدينة مجدبرج تضاعف عددهن حتى بلغ ألفا ومائتين •

قصور روما فى قسوة وشراسة من أثاثها الثمين الفخم • وكانت (دواليب) الأوانى الضخمة ، وخزائن الملابس الحريرية والأرجوانية ، تكدس دون نظام فى العربات التى تسير وراء أى جيش قوطى • أما روائع الفن فقد عوملت معاملة خشنة ، أو دمرت تدميرا عابثا ، وصهرت تماثيل كثيرة للحصول على المواد الثمينة المصنوعة منها • وكثيرا ما حطمت أوانى الزينة بضربها ببلطة فى عملية تقسيم الغنائم والأسلاب • وأدى الحصول على النفائس والثروات الى تحريك نهم البرابرة وتكالبهم ، فاستخدموا التهديد ، والضرب ، والتعذيب لارغام سجنائهم على الاعتراف بالكنوز المخبأة • وكانوا يعتبرون ما يرونه من علائم الفخامة والغنى دليلا على امتلاك ثروة طائلة ، ويعزون مظهر الفقر الى البخل والتقتير • وكثيرا ما تحمل بعض البخلاء فى عناد واصرار أقسى أنواع العذاب قبل أن يبوحوا بمكان المقتنيات المحببة اليهم ، وكثيرا ما مات كثير من المنكودين التعساء ضربا بالسياط لأنهم رفضوا اظهار كنوزهم الموهومة • أما مبانى روما وبيوتها فقد نالها بعض الضرر من عنف القوط وشراستهم ، وان كانت الأضرار قد بولغ فيها • فعند دخولهم من بوابة سالاريا اشعلوا النار فى المنازل المجاورة لتنير لهم الطريق ولتحويل انتباه المواطنين • والتهمت النار التى اندلعت دون عائق وسط الارتباك الذى اعتور المدينة ليلا ، كثيرا من المبانى الخاصة والعامة • وظلت أطلال قصر سالوست Sallust الى عهد جستنيان أثرا ضخما من آثار حريق القوط • غير أن مؤرخا معاصرا لاحظ أن النار قلما استطاعت أن تلتهم العروق الضخمة المصنوعة من النحاس السميك ، وأن قوة الانسان لم تكن كافية لتقويض أسس الصروح القديمة • وربما انطوى هذا التأكيد الورع على بعض الصدق ، وهو أن غضب السماء فعل بالمدينة ما لم يفعله غضب الأعداء ، وأن ساحة روما المتشامخة المليئة بتماثيل كثير من الآلهة والأبطال ، قد أصابتها البروق فسوتها بالتراب •

ومهما كان عدد طبقة الفرسان أو عامة الناس ، الذين هلكوا فى مذبحة روما ، فمن المؤكد الموثوق به أن (سناتورا) واحدا فقط هو الذى هلك بيد الأعداء • غير أنه لم يكن من السهل حصر الأعداد الكبيرة من الناس الذين ذاقوا مرارة الأسر والنفى فجأة ، بعد أن كانوا يشغلون مناصب رفيعة ويعيشون فى بحبوحة من العيش•ولما كانت حاجة البرابرة الى المال أكثر منها الى الأرقاء فقد قرروا فدية معتدلة لأسراهم المعوزين ، وكثيرا ما كانت الفدية تدفع من احسان الأصدقاء أو صدقة الغرباء • وكان الأسرى الذين يباعون بصورة منتظمة فى السوق المفتوحة أو بعقود خاصة يستعيدون من الوجهة القانونية حريتهم الوطنية التى كان من

المستحيل على المواطن أن يفقدها أو يتنازل عنها • غير أن الأمر تكشف سريعا عن أن اقرار حريتهم سوف يعرض أرواحهم للخطر وأن القوط ، ما لم يجدوا ما يغريهم على البيع ، قد يتجهون الى قتل أسراهم الذين لا نفع لهم • ومن ثم فقد أدخل على التشريع المدنى قرار حكيم يقضى بارغام الأسرى على خدمة أسيادهم فترة خمس سنوات حتى يوفوا بعملهم ثمن فدائهم • وكانت الأمم التى غزت الامبراطورية الرومانية قد دفعت أمامها الى داخل ايطاليا جماعات كبيرة من سكان الولايات فى حالة جوع وهلع ، لا يخشون العبودية بقدر ما يخشون المجاعة ، وترتب على الكوارث التى حلت بايطاليا وروما أن تشتت السكان ولجأوا الى أبعد الأماكن وأكثرها عزلة وأمانا • بينما كان فرسان القوط ينشرون الفزع والخراب على طول ساحل كمبانيا وتسكانيا ، كانت جزيرة اجيليوم الصغيرة ، التى يفصلها عن مرتفع أرجنتاريا قنال ضيق ، تصد محاولاتهم العدوانية أو تفلت منها ، وفى هذا المكان الذى يبعد عن روما بمثل هذه المسافة الصغيرة ، كانت هناك أعداد كبيرة من المواطنين تختفى آمنة فى الغابات الكثيفة المنتشرة فى هذه البقعة المنعزلة • وكان كثير من أبناء أسرات السناتو يملكون الكثير من الأملاك الموروثة فى أفريقيا تشجعهم على اللجوء الى تلك الولاية المضيافة ، اذا كان لديهم من الوقت والفطنة ما يمكنهم من الهرب من الخراب الذى حل بديارهم ووطنهم • وكانت بروبا (١) Proba النبيلة الورعة ، أرملة الوالى بترونيوس ، أبرز هؤلاء اللاجئين وألمعهم • وكانت قد بقيت بعد وفاة زوجها ، وهو أقوى رعايا روما ، على رأس أسرتها ، أسرة أنيكيوس ، وظلت تمد أبناءها الثلاثة تباعا بالنفقات التى تتطلبها مناصب القنصل التى تولوها • وعندما حاصر القوط المدينة واستولوا عليها ، تحملت بروبا باستسلام مسيحى خسارة ثروتها الطائلة ، واستقلت سفينة صغيرة شاهدت منها ألسنة النيران تلتهم قصرها ، وهربت الى شاطىء أفريقيا بصحبة ابنتها لايتا ، وحفيدتها العذراء الشهيرة ديمتريا • وكان سخاؤها الوفير فى توزيع غلات أملاكها أو ثمنها من الأمور التى أسهمت فى تخفيف محن الأسر والنفى • غير أنه حتى أسرة بروبا نفسها لم تنج من ضراوة ظلم الكونت هرقليانوس ، الذى باع بصورة حقيرة داعرة أنبل عذارى روما ليصبحن زوجات عاهرات

---

(١) لما كانت مغامرات السيدة بروبا وأسرتها متصلة بحياة سانت أوغسطين • فقد اهتم المؤرخ تلمونت بتصويرها • فبعد وصولهم الى أفريقيا بوقت قصير ، دخلت ديمتريا الدير ونذرت العفة ، واعتبر هذا الحدث ذا أهمية كبرى بالنسبة لروما وبالنسبة للعالم • وكتب لها كل كبار رجال الدين القديسين خطابات تهنئة • وما يزال الخطاب الذى أرسله لها جيروما باقيا ، وهو يشتمل على خليط من التعليلات غير المعقولة ، والتصريحات الجريئة ، والحقائق العجيبة ، يتعلق بعضها بحصار روما ونهبها •

التجار سوريا المملوئين شهوة وجشعا • وتشتت اللاجئون الايطاليون فى الولايات ، وعلى طول الشواطىء المصرية والآسيوية ، حتى القسطنطينية وأورشليم وازدحمت قرية بيت لحم ، وهى المكان المنعزل الذى أقام فيه سانت جيروم ومن ارتد من النساء ، بالمتسولين من الأسر اللامعة ، رجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، وكان هؤلاء يثيرون شفقة الناس الذين يذكرون ما كانوا فيه من نعماء وثراء • وقد أصـــاب الذهول كل الامبراطورية ، وملأتها الكارثة الرهيبة التى حلت بمدينة روما حزنا وفزعا • وكان من شأن هذا التباين الواضـــح بين العظمة والخراب أنه جعل السذج من الناس يرثون لمصائب روما ، ملكة المدائن ، بل ويبالغون فيها • أما رجال الدين ، الذين طبقوا على الأحداث القريبة ما كان فى النبوءة الشرقية من استعارات سامية ، فقد كان يغريهم أحيانا أن يخلطوا بين خراب العاصمة الرومانية ، وفناء العالم •

وتتسم الطبيعة البشرية بأنها تميل ميلا قويا الى الحط من قيمة ما للعصور الحاضرة من مزايا والى تضخيم مساوئها • ولكن عندما خفت الانفعالات الأولى ، ووزنت الأضرار الفعليـــة بميزان الانصـــاف ، فان المعاصرين الأكثر دراية وفطنة اضطروا الى الاعتراف بأن روما ، فى أول عهدها ، أصيبت من الغالبين بأضرار جوهرية أكثر من تلك التى ألحقها بها القوط فى عصر تدهورها ، ومن المؤكد فى ثقة أن الدمار الذى أحدثه البرابرة الذين قادهم ألاريك من ضفاف الدانوب كان أقل هولا من الأعمال العدوانية التى قامت بها قوات شارل الخامس ، (١٥٠٠ ــ ١٥٥٨) وهو الملك الكاثوليكى الذى لقب نفسه باسم امبراطور الرومان • فلقد جـلا القوط عن المدينة بعد ستة أيام ، غير أن روما ظلت أكثر من تسعة شهور فى حوزة أنصار الامبراطور شارل ، وتلوثت كل ساعة من الزمن بأعمال اجرامية تتسم بالقسوة ، والشهوة والنهب • وكان سلطان ألاريك كفيلا باقرار بعض النظام والاعتدال بين قواته الشرسة التى اعترفت به قائدا وملكا ، ولكن قائد جيوش شارل الخامس ، وهو من البوربون ، عندما مات موتا مجيدا فى مهاجمة أسوار مدينة روما ، زال كل ضابط للنظام من جيشه الذى كان يتألف من ثلاث أمم مستقلة ، فكان فيه الايطاليون والأسبان والجرمان ، فقد جمعت بين الجرائـــم الدموية التى تسود فى مجتمع مقلقـــل غير مستقر ، وبين الرذائل المصقولة التى تنشأ من سوء استغلال الفن والترف • أما المغامرون المنحلون الذين حطموا كل شعور بالوطنيـــة والمعتقـــدات وهـــاجموا قصر الحبر الأعظـــم الرومانى ، فهـــم يستحقون أن نعتبرهم أكثر الايطـــاليين خلاعة واستهتارا • وفى العصر نفسه كان الأسبان مصدر فزع للعالم القديم وللعالم الجديد • غير أن

شجاعتهم العالية كانت تلوثها الغطرسة الكئيبة ، والجشع المتكالب ، والقسوة التى لا تعرف الرحمة • وكانوا لا يملون السعى الى الشهرة والثراء ، وأجادوا بالمران المتكرر أغرب وأشد أساليب تعذيب أسراهم • وكثير من أهل قشتالة (الأسبان) الذين نهبوا روما كانوا على دراية بمحاكم التفتيش الدينية ، كما أن بعض المتطوعين ربما كانوا حديثى العودة من غزو المكسيك • أما الجرمان فكانوا أقل فسادا من الايطاليين ، وأقل قسوة من الأسبان ، وكان المظهر الخشن ، بل والوحشى ، لهؤلاء المقاتلين الغرباء القادمين من وراء الجبال ، يخفى وراءه فى كثير من الأحوال خلقا بسيطا رحيما • ولكنهم كانوا قد تشربوا ، فى أول حماس ضد حركة الاصلاح الدينى ، روح مارتن لوثر ومبادئه ، وكانت تسليتهم المفضلة أن يهاجموا أو يدمروا الأشياء التى كانت لها قدستيها فى عقيدة الكاثوليك وكانوا يضمرون ، دون شفقة أو رحمة ، كراهية دينية لرجال الدين من كل مقام وكل مرتبة وهم الذين يشكلون جزءا كبيرا من سكان روما الحديثة وكانوا يتطلعون فى حماسهم المتعصب الى تقويض عرش عدو المسيح فيطهرون بالدماء والنار أرجاس المدينة البابلية الروحية (١) •

تراجع القوط وموت الاريك

جلا القوط عن روما فى اليوم السادس • وقد تكون الحكمة هى الباعث على تراجعهم غير أنه من المؤكد أن تراجعهم لم يكن نتيجة الخوف (٢) • وتقدم قائدهم الجرىء على رأس جيش محمل بالأسلاب الثمينة والثقيلة على طول طريق أبيا The Appian way ، صوب ولايات ايطاليا الجنوبية ، مدمرا كل ما تجرأ على اعتراض طريقه ، ومكتفيا ينهب الأقاليم التى لا تبدى مقاومة • وكانت مدينة كابوا عاصمة كمبانيا مدينة شامخة مترفة ، لها مقامها حتى فى أيام تدهورها كثامن مدينة فى الامبراطورية ، وقد توارى مصير تلك المدينة فى زوايا النسيان ، بينما اشتهرت مدينة نولا Nola المجاورة فى تلك المناسبة بقدسية بولينوس الذى كان قنصلا ، ثم راهبا ، ثم أسقفا على التوالى • وعندما كان فى الأربعين من عمره نبذ متعة الثروة والمجد ، والمجتمع والأدب ، ليعيش عيشة العزلة والتفكير • وشجعه تهليل رجال الدين له على ازدراء تقريع أصدقائه الدنيويين ، الذين نسبوا هذا العمل اليائس من جانبه

---

(١) الشبيهة فى ترفها وفسادها بمدينة بابل القديمة ـ (الترجمة) •

(٢) يدعى سقراط ، دون أى لون من الصدق أو التعقل ، أن الاريك هرب عندما علم بأن جيوش الامبراطورية الشرقية تجد فى السير لمهاجمته •

الى خلل عقلى أو جسمى · وقد حدد اقامته المتواضعة فى احدى ضواحى نولا ، بدافع من تعلق قديم عاطفى بهذا المكان القريب من ضريح القديس فيلكس St. Felix الذى أحاطه ولاء الناس بخمس كنائس كبيرة عامرة · وقد خصص ما تبقى له من ثروة وادراك لخدمة ذلك الشهيد المجيد ، ولم ينقطع فى أى يوم من أيام الاحتفال بعيده عن انشاد الترانيم الدينية التى تشيد بذكره ، وأقام باسمه كنيسة سادسة تفوق الكنائس الخمس الأخرى جمالا ورونقا ، زينها بصورة كثيرة عجيبة من تاريخ العهد القديم والعهد الجديد · وبهذا الحماس المتواصل أصبح ذا حظوة لدى القديس (١) · أو على الأقل لدى الناس ، وبعد عزلة دامت خمسة عشر عاما اضطر القنصل الرومانى الى قبول منصب أسقف نولا ، قبل أن يحدق بها القوط بشهور قلائل · وأثناء الحصار كان من دواعى رضاء بعض رجال الدين أنهم شاهدوا فى أحلامهم أو فى رؤاهم صورة سماوية لراعيهم المقدس ، ولكن سرعان ما ثبت لهم من الأحداث أن القديس فيلكس كان مفتقرا الى القوة أو الى الرغبة ، لكى يحافظ على القطيع الذى كان راعيه فيما مضى · ذلك أن مدينة نولا لم تفلت من الدمار العام · ولم يكن هناك ما يحمى الأسقف الأسير الا ما عرف عنه من براءة وفقر · وانقضى أكثر من أربع سنوات بين نجاح جيوش ألاريك فى غزو ايطاليا ، وبين تراجع القوط الاختيارى تحت قيادة خلفه أدولفوس · وخلال هذه الفترة كلها كان لهم مطلق التصرف فى حكم بلاد كانت فى رأى الأقدمين تجمع بين مختلف روائع الطبيعة وروائع الفن · وفى الحق أن الرخاء الذى حققته ايطاليا فى عهد الأنطونيين The Antonines بدأ يزول شيئا فشيئا بتدهور الامبراطورية · وضاعت ثمار فترة طويلة من السلم تحت قبضة البرابرة القاسية الهمجية ، ولم يستطع هؤلاء البرابرة أنفسهم أن يتذوقوا وسائل الترف ورفاهة الحياة التى أعدت لمتعة الايطاليين المتسمين بالرقة والثقافة · ومع ذلك فان كل جندى قوطى كان له الحق فى نصيب كبير من السلع الموفورة ، كالقمح والماشية ، والزيت والنبيذ ، وكلها أشياء كانت تجمع يوميا وتستهلك فى المعسكر القوطى ، كما أن كبار المحاربين كانوا يهاجمون (الفيلات) والحدائق التى كان يسكنها فيما مضى لوكوللوس وشيشرون على شاطىء كمبانيا الجميل · وكان أسراهم الواجفون من أبناء وبنات أعضاء السناتو الرومانى يقدمون فى كؤوس كبيرة من الذهب مرصعة بالأحجار النفيسة جرعات كبيرة من نبيذ فالرنيا الى الظافرين المتشامخين ، بينما يمد هؤلاء أطرافهم الضخمة فى ظلال أشجار

---

(١) قال بولينوس ذات مرة انه يعتقد بأن سانت فليكس كان يحبه فعلا كما يحب السيد كلبه الصغير ·

الدلب التى روعى فى تنسيقها أن تحجب أشعة الشمس المحرقة وتسمح بدفئها المنعش • وزاد من هذه البهجة فى نفوسهم تذكرهم لما لاقوه من محن سابقة ، وكانت المقارنة بين هذه البلاد وبين بلادهم ، وهى تلال سكوذيا الكئيبة الجرداء ، وضفاف الدانوب والألب المتجمدة ، تضيف سحرا جديدا الى السعادة التى يستمدونها من المناخ الايطالى •

وسواء أكان هدف ألاريك هو الشهرة أم الغزو أم الثراء ، فانه سعى الى ذلك الهدف بحماس لا يكل ، ولا تخمده شدة أو يشبعه نجاح • وما أن بلغ الطرف الأخير من ايطاليا حتى جذبه منظر مجاور هو منظر جزيرة صقلية الخصبة الهادئة • ولكن حتى امتلاك هذه الجزيرة لم يكن فى نظره سوى خطوة متوسطة نحو الحملة الهامة التى كان يدبر لها فعلا ضد القارة الأفريقية • ولم يكن طول مضيق ريجيوم Rhegium ومضيق مسينا أكثر من اثنى عشر ميلا ، وكان اتساعها فى أضيق نقط العبور ميلا ونصف الميل تقريبا • أما وحوش البحر الخرافية ، وصخور سكيلا ، ودوامة كاريبديس ، فانها لا تخيف الا البحارة الجبناء الذين تعوزهم المهارة ، ولكن بمجرد أن ركبت البحر أول فرقة من القوط ، هبت عاصفة فجائية وأغرقت أو شتتت كثيرا من السفن ، وهنا نالت من شجاعتهم مخاوف عنصر جديد ، وفشلت الخطة كلها بموت ألاريك السابق لأوانه ، بعد مرض لم يدم طويلا ، وحدد موته تلك الفترة المشئومة من فتوحاته • وكشف البرابرة عن طابعهم الوحشى فى جنازة البطل الذى احتفلوا بشجاعته وتوفيقه بأصوات الأسى والحزن • ذلك أنهم سخروا جمهورا من الأسرى فى تحويل مجرى نهر بيوسنتينوس ، وهو نهر صغير ترتطم مياهه بأسوار كنسنتيا Consentia ، وأقاموا الضريح الملكى فى مجرى النهر الذى خلا من المياه ، وزينوه بأسلاب روما الرائعة وعلائم الانتصار عليها ، ثم أعادوا المياه الى مجراها الطبيعى • ولكى تظل البقعة التى دفن فيها جثمان الاريك سرا لا يعرفه أحد مدى الدهر ، فقد ذبحوا بصورة وحشية جميع الأسرى الذين استخدموا فى تنفيذ ذلك العمل •

***

بعد موت الاريك أصبح أدولفوس ملكا للقوط ، وعقد صلحا مع الرومان ، ثم تزوج بلاكيديا Placidia ، أخت أونوريوس غير الشقيقة • وتوغل فى أسبانيا لطرد الغزاة من قبائل الوندال والسويفى والألانى ، ولكنه وقع فريسة الخيانة وقتل • وخلفه واليا Wallia الذى استرد أسبانيا لأونوريوس ، وحصر الوندال فى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة • ثم وطد مركز القوط فى أكويتين ••

الفصل الثانى والثلاثون
(٣٩٥ ـ ٤٦٠)

حكم أركاديوس • سانت جون كريسوستم « يوحنـا الفم الذهبى » • موت أركاديوس وتولية ثيودوسيوس الأصغر • ادارة بولكيريا • مغامرات يودوكيا •

حدد تقسيم العالم الروماني بين ابني ثيودوسيوس قيام الامبراطورية الشرقية بصـــورة نهائية ، وهى الامبراطورية التى عاشت ألف ســـنة وثماني وخمسين ، منذ أن حكمها أركاديوس الى أن استولى الترك على القسطنطينية ، وهى فى حالة اضمحلال مستمر جاء قبل أوانه • واتخذ حاكم هذه الامبراطورية لنفسه لقب امبراطور الرومان ، واحتفظ به فى اصرار وعناد ، وهو لقب أجوف أصبح فى النهاية شيئا وهميا • وظلت التسمية الوراثية للامبراطور باسم قيصر وأغسطس تعلن أنه الخليفة الشرعى لأول رجل حكم أول أمة • ونافس قصر القسطنطينية فخامة القصر الفارسى ، وربما فاقه روعة ، وتشيد عظات سانت كريسوستم بما اتسم به عهد أركاديوس من ترف وعظمة ، ولكنها تدينه فى الوقت عينه • يقول الرجل : « يلبس الامبراطور على رأسه اكليلا أو تاجا من الذهب مرصـعا بالأحجار النفيسة التى لا تقدر قيمتها • وهذه الحلى والأردية الأرجوانية مخصصـة لشخصه المقدس دون غيره ، وملابســه الحريرية موشاة بصورة مذهبة تمثل التنين • أما عرشــه فمن الذهب السميك • وعندما يخرج على الملأ ، تحف به بطانته وحرسه وحاشيته • وحرابهم ، ودروعهم وألجمة خيولهم وزخارفها فهى من الذهب أو لها مظهر الذهب ، ويتوســط دروعهم نقش بارز كبير رائع تحيط به نقوش أصغر حجما تمثل شــكل عين الانســان • ويجر العربة الملكية بغلان لونهما أبيض خالص ، ويتألق عليهما الذهب • أما العربة نفسها فمن الذهب النقى الســميك وهى تستحوذ على اعجاب النظارة وهم يشــاهدون الســتائر

الأرجوانية ، والبساط الأبيض كالثلج ، وحجم الأحجار النفيسة ، وصفائح الذهب اللامعة التى يشع منها بريق مع حركة العربة • أما الصور الامبراطورية فهى بيضاء على أرضية زرقاء • ويبدو فيها الامبراطور جالسا على عرشه والى جانبه أسلحته وخيوله وحراسه ، وتحت قدميه أعداؤه المقهورون فى أغلالهم » •

وأقام خلفاء قسطنطين بصورة دائمة فى المدينة الملكية التى شادها على الحدود بين أوروبا وآسيا • وكانوا فى ذلك المكان لا تصل اليهم تهديدات أعدائهم ، وربما لا تتناهى الى أسماعهم شكاوى شعبهم ، وكانوا مع هبوب كل ريح يتلقون منتجات كل مناخ ، يدفعها أصحابها جزية وأتاوة ، بينما ظلت قوة عاصمتهم المنيعة تتحدى محاولات البرابرة العدوانية عصرا بعد عصر • وامتدت أملاكهم من بحر الادرياتيك الى نهر الدجلة • واحتوت حدود الامبراطورية مساحة تقطعها السفينة فى خمسة وعشرين يوما ، من اقليم سكوذيا المتطرف البرودة الى اقليم أثيوبيا الشديد الحرارة • وكانت البلدان الآهلة فى تلك الامبراطورية موطنا للفن والعلم ، والترف والثراء ، أما سكانها فقد أخذوا عن الاغريق لغتهم وعاداتهم ، ووصفوا أنفسهم ، فى شىء من مظهر الحقيقة ، بأنهم أكثر بنى الانسان استنارة وحضارة • وكانت الحكومة ملكية غير مقيدة ، أما اسم « الجمهورية الرومانية » الذى احتفظ زمنا طويلا بتراث ضعيف من الحرية ، فقد كان قاصرا على الولايات اللاتينية ، وكان حكام القسطنطينية يقيسون عظمتهم بالطاعة الذليلة التى فرضوها على شعبهم ، ولم يدركوا أن هذا الخلق السلبى يضعف كل ملكة عقلية ويورثها الانحطاط • فالرعايا الذين استسلموا للأوامر المطلقة المستبدة التى يصدرها مولاهم أصبحوا بنفس القدر عاجزين عن حماية أرواحهم وثرواتهم من هجمات البرابرة ، أو وقاية عقولهم من فظائع الخرافة •

***

فى السنوات الخمس الأولى من حكم أركاديوس كانت الادارة تحت سيطرة رئيس حجابه ، الخصى يوتروبيوس المتسم بالقوة والجشع • ثم سقط يوتروبيوس بعد ثورة من القوط الشرقيين بزعامة تربجلد Tribigild وجايناس ، وبتحريض من الامبراطورة يودوكسيا • ثم أخمدت الثورة بعد ذلك •

القديس يوحنا كريسوستم

بعد أن مات نكتاريوس الكسول ، خليفة جريجورى نازيانزن ، حارت كنيسة القسطنطينية بين أطماع المتنافسين على المنصب ، الذين لم يتورعوا عن التماس أصوات الشعب أو أصوات صاحب الحظوة ، يوتربيوس ، بالذهب أو الملق • وفى هذه المناسبة يبدو أن يوتروبيوس شذ عن مبادئه العادية ، ولم يتأثر حكمه السليم الا بالمزايا السامية التى كان يتمتع بها رجل غريب عن البلاد • ذلك أنه فى رحلة قام بها حديثا الى الشرق أعجبته عظات رجل اسمه يوحنا قسيس أنطاكيا وأحد مواطنيها ، وكان اسمه يتميز بوصف « الفم الذهبى » ـ كريسوستم ـ فأرسل أمرا خاصا الى حاكم سوريا يستدعى هذا الرجل ، وبما أن شعب أنطاكيا قد لا يرضيه التخلى عن واعظه المحبوب ، فقد نقل القسيس سرا وخفية فى عربة بريد من أنطاكيا الى القسطنطينية ، وأقر البلاط ، ورجال الدين ، والشعب ، تلقائيا وبالاجماع ، اختيار الوزير يوتروبيوس ، وفاق الأسقف الجديد ، كقديس وكخطيب ، كل ما كان ينتظره منه الشعب المتحمس • وقد ولد الفم الذهبى لأسرة نبيلة غنية فى عاصمة سوريا ، وبفضل رعاية أمه الحنون تلقى تعليمه على أيدى أبرع الأساتذة • ودرس فن البلاغة والفصاحة فى مدرسة ليبانيوس ، وسرعان ما اكتشف هذا السفسطائى الشهير مواهب تلميذه واعترف فى صراحة وصدق بأن يوحنا كان جديرا بأن يخلفه لو أن المسيحيين لم يستولوا عليه • ودفعته تقواه سريعا الى تلقى سر المعمودية المقدس ، ونبذ مهنة القانون التى أكسبته شرفا وثراء ، ثم الى الانعزال فى الصحراء المجاورة حيث قضى ست سنوات فى اخضاع شهوات الجسد بالتكفير الصارم • ثم اضطره ضعفه الى العودة الى مجتمع الناس • وتحت تأثير مليتيوس خصص مواهبه لخدمة الكنيسة • غير أن يوحنا ، وسط أسرته ، وعلى العرش الأسقفى بعد ذلك ، ظل مثابرا على ممارسة فضائل حياة النسك والرهبنة • وبعد أن كان سلفه ينفقون الدخول الوافرة على مظاهر العظمة والترف ، حرص هو على توجيهها الى تأسيس المستشفيات ، وأصبحت الجماهير التى يعولها بصدقاته تفضل الاستماع الى أحاديثه البليغة المغذية على متع المسرح والسيرك • وظلت بلاغته موضع الاعجاب فى أنطاكيا والقسطنطينية قرابة العشرين عاما ، ودون الناس عظاته البليغة واحتفظوا بها فى حرص وعناية حتى بلغ عددها قرابة

ألف من العظات والخطب ، الأمر الذى يمكن نقاد (١) العصور التالية من تقدير ما تمتع به الفم الذهبى من مزية صادقة أصيلة ، وهم ينسبون بالاجماع الى الخطيب المسيحى تمكنه المطلق من اللغه الجزلة المنسابه ، والقدرة على اخفاء ما يريد اخفاءه من مزايا الأشياء ، وهى قدرة استمدها من معرفته بالبلاغة والفلسفة ، ونسبوا اليه أيضا أن لديه معينا لا ينضب من الاستعارات والتشبيهات ، ومن الأفكار والتصويرات التى تمكنه من تنويع وتوضيح الموضوعات المألوفة ، وأنه يحذق فن اثارة العواطف لخدمة الفضيلة ، وكشف حماقة الرذيلة وخستها فى صدق وحماس كما لو كان يصورها تصويرا مسرحيا ٠

وترتب على الجهود التى بذلها أسقف القسطنطينية فى محيط رعيته أنها أثارت عليه نوعين من الأعداء ، ووحدت كلمتهما ضده شيئا فشيئا ، وهما رجال الدين الطموحون المتطلعون الذين حسدوه على نجاحه ، والمذنبون العنيدون الذين ساءهم تقريعه وتأنيبه ٠ وعندما كان صوت كريسوستم يجلجل من منبر كنيسة أيا صوفيا ضد انحلال المسيحيين ، كانت سهامه تطيش بين الجماهير دون أن تجرح أخلاق أى فرد أو حتى تترك أثرا عليها ٠ عندما كان يوجه القول ضد ما اتصف به الأغنياء من رذائل خاصة ، كان الفقراء يجدون فى اتهاماته عزاء عابرا ، غير أن الأغنياء المذنبين ظلوا متوارين وراء كثرة عددهم ، كما أنهم كانوا يجدون فى التأنيب نوعا من التفخيم لأنه يتضمن الاشارة الى متعتهم وسمو قدرهم ٠ ولكن عندما ارتفع الهرم صوب القمة ضاق حيزه حتى صار نقطة واحدة ، وأصبح للحكام ، والوزراء ، والخصيان المقربين ، وسيدات البلاط (٢) والامبراطورة يودوكسيا نفسها ، نصيب أكبر من الجرم يقسمونه بين نسبة أقل من المجرمين ٠ وكانت ضمائر هؤلاء المستمعين الى الأسقف تتوقع أن يكون تأنيبه موجها اليهم ، وتشهد بأنه ينطبق

---

(١) بما أنى أكاد أكون غريبا على العظات الكثيرة التى ألقاها فم الذهب ، فقد وضعت ثقتى فى ناقدين دينيين يعتبران أكثر النقاد حكمة واعتدالا وهما أرازموس ودوبان Dupin غير أن تطرف الأول فى حبه للتقديم يفسد ذوقه الرفيع فى بعض الأحيان ، كما أن اعتبارات الحرص لدى الثانى تقيد ادراكه السليم دائما ٠

(٢) كانت سيدات القسطنطينية يميزن أنفسهن بعداوتهن أو صداقتهن للفم الذهبى ٠ فكان هناك ثلاث أرامل نبيلات مسرفات ــ مارسا ، كاستريكيا ، يوجرافيا ، يتزعمن اضطهاد الأسقف ٠ وكان من المستحيل عليهن أن يصفحن عن واعظ يتهمهن باخفاء عمرهن وقبحهن بالملابس المزركشة ٠ أما أوليمبيا ، فلم تقل عنهن حماسا ، ولكنها تحمست لقضية أكثر اتساما بالورع والتقوى ، ومن ثم فقد نالت لقب القديسة ٠

عليهم ، واكسب الواعظ الجرىء نفسه حقا خطيرا هو التشهير بالذنب وبالمذنب وتعريضهما لمقت الجمهور وكراهيته • ومن ثم فان السخط الخفى الذى أحس به البلاط دفعه الى تشجيع التذمر السائد بين رجال الدين والرهبان فى القسطنطينية ضد الأسقف الذى تعجل اصلاحهم بحماسه المتقد • فلقد أدان الأسقف من فوق المنبر خادمات رجال الدين اللاتى تسترن وراء اسم الخادمات أو الشقيقات وهيأت ظروفا دائمة للخطيئة أو الفضيحة • واستحسن الأسقف احر الاستحسان أولئك النساك الصامتين المنعزلين الذين اعتزلوا العالم ، ولكنه احتقر ، ووصم بالعار ، الجمهور من الرهبان المنحلين الذين كثيرا ما يزعجون شوارع العاصمة مدفوعين بدوافع اللذة أو المنفعة غير اللائقة ، ونعتهم بأنهم عار على مهنتهم المقدسة • واضطر الأسقف الى أن يضيف الى صوت الاقناع اجراءات العنف التى تخولها له سلطته ، ولم يكن حماسه فى ممارسة سلطته القضائية الدينية خلوا دائما من الأهواء ، أو مسترشدا بالفطنة والحكمة على طول الخط • وكان الفم الذهبى بطبيعته حاد (١) الطباع ، ورغم أنه كان يعمل جاهدا ، بمقتضى تعاليم الانجيل ، على أن يحب أعداءه ، الا أنه انغمس وتمادى فى كراهية أعداء الله والكنيسة ، وكانت تعبيراته القارصة وقسمات وجهه المتجهمة تعبر بأكثر مما ينبغى عن مشاعره وأحاسيسه • وظل متمسكا بعاداته السابقة فى تناول طعامه منفردا مراعاة لبعض اعتبارات الصحة والتقشف ، وهذه العادة البعيدة عن كرم الضيافة (٢) ، والتى نسبها أعداؤه الى الصلف والكبرياء ، كان من شأنها على الأقل أن تغذى فيه مزاجه المكتئب غير الاجتماعى • وعلى هذا النحو انقطع عن ذلك الاختلاط العادى الذى يسهل على المرء تصريف الأمور والالمام بها ، ولهذا وضع فى شماسه سرابيون Serapion ثقة لا يرقى اليها الشك ، وقلما طبق معرفته النظرية بالطبيعة البشرية على

---

(١) وصف سوزومن Sozomen ، وسقراط بصورة أخص ، أخلاق الفم الذهبى بطريقة معتدلة غير متحيزة أغضبت من كانوا يعجبون بها دون تبصر • وقد عاش هذان المؤرخان فى العصر التالى عندما خفت حدة الحزبية ، وتحدثا الى الكثيرين ممن كانوا على اتصال وثيق بفضائل هذا القديس ونقائصه •

(٢) يدافع بالاديوس عن الأسقف دفاعا جديا :

١ ـ فهو لم يذق الخمر • ٢ ـ وكان ضعف معدته يستلزم طعاما خاصا ٣ ـ كثيرا ما كان ينشغل فى العمل أو الدراسة أو العبادة صائما حتى مغيب الشمس • ٤ ـ كان يكره الولائم الكبيرة بضوضائها وطيشها • ٥ ـ كان يوفر النفقات ويخصصها للفقراء • ٦ ـ كان يخشى ، فى عاصمة كالقسطنطينية ، الدعوات الحزبية وما يترتب عليها من حسد ولوم •

أخلاق أتباعه أو أنداده وكان اسقف القسطنطينيه يدرك نقاء مقاصده ، وربما كان يشعر أيضا بسمو عبقريته ، ومن ثم فقد وسع النطاق الذى تمتد اليه سلطة القضاء الدينى للمدينة الامبراطورية ، حتى يتسع مجال جهوده الدينية فى خدمة رعاياه ، وذلك المسلك الذى عزاه الدنيويون الى دافع الطمع ، كان يبدو فى نظره واجبا مقدسا لا غنى عنه • وفى رحلته الى الولايات الآسيوية عزل ثلاثة عشر أسقفا من أساقفة ليديا وفريجيا ، وأعلن دون تبصر أن هناك فسادا عميقا متمثلا فى التهتك ، والمتاجرة بالدين ، أصاب بعدواة الطائفة الأسقفية كلها (١) • فاذا كان هؤلاء الأساقفة أبرياء ، فان تلك الادانة المتهورة الظالمة لابد أن تثير تذمرا يستند الى أساس مكين ، واذا كانوا مذنبين فان شركاءهم العديدين فى الذنب سوف يكتشفون سريعا أن سلامتهم الخاصة تتوقف على سقوط رئيس الأساقفة الذى دبروا أمرهم لتصويره فى صورة طاغية الكنيسة الشرقية •

ودبر لهذه المؤامرة الدينية توفيلوس Theophilus ، أسقف الاسكندرية ، الذى تجلت ثمار نهبه وسلبه فى أعماله المظهرية • وكان بينه وبين الفم الذهبى بعض خلافات شخصية أذكت فيه نار الكراهية القومية ضد مدينة تتزايد عظمتها الى درجة أنزلته من المرتبة الثانية الى المرتبة الثالثة فى العالم المسيحى • وتلبية لدعوة خاصة من الامبراطورة ذهب توفيلوس الى القسطنطينية ومعه عدد ضخم من البحارة المصريين لمواجهة أهل المدينة ، وحاشية من أتباعه الأساقفة لكى يحصل بأصواتهم على أغلبية فى المجمع • وعقد المجمع فى ضاحية خلقدونية Chalcidon الملقبة باسم « البلوط » حيث كان روفينوس قد أقام كنيسة فخمة وديرا ضخما ، ودامت اجراءات المجلس أربعة عشر يوما واستغرقت أربع عشرة جلسة • واتهم أسقف وشماس رئيس أساقفة القسطنطينية ، غير أن المواد السبع والأربعين التى قدماها ضده كانت من التفاهة وبعد الاحتمال بحيث يمكن اعتبارها اطراء منصفا كاملا له • وقد استدعى الفم الذهبى أربع مرات متوالية ، ولكنه أبى أن يأتمن أعداءه اللدودين على شخصه أو سمعته • وكان هؤلاء الأعداء من الحرص بحيث رفضوا بحث أية اتهامات معينة وأدانوا عصيانه وتمرده ، وأصدروا فى عجلة قرارا بعزله • وفور ذلك طلب مجمع « البلوط » من الامبراطور أن يصادق على

---

(١) أعلن الفم الذهبى عن رأيه الحر فى أن نسبة الأساقفة الذين يمكن أن ينالوا خلاصهم صغيرة جدا اذا قيست بمن سوف يهلكون •

حكمهم ويأمر بتنفيذه ، وأوعزوا اليه في تساهل أن يوقع قصاص الخيانة على الواعظ الجرىء الذى سب الامبراطورة يودوكسيا نفسها ونعتها باسم ايزابل Jezebel (١) • وقبض على رئيس الأساقفة في خشونة ، واقتاده أحد رسل الامبراطور خلال المدينة ، ثم أنزله الى البر بعد رحلة بحرية قصيرة الى القرب من مدخل البحر الأسود Euxine ، غير أنه استدعى من هناك بصورة مجيدة قبل انقضاء يومين •

وكانت الدهشة الأولى قد ألجمت أفواه أفراد شعبه الأمين فوقفوا من ذلك الحدث موقفا سلبيا • غير أنهم هبوا بعد ذلك في غضبة اجتماعية لا تقاوم • وتمكن توفيلوس من الهرب ، غير أن الجمع المختلط من الرهبان والبحارة المصريين ذبح دون رحمة في شوارع القسطنطينية • وحدث في ذلك الوقت زلزال جاء في أوانه دليلا على تدخل السماء ، واندفعت الجماهير المتمردة نحو أبواب القصر كالسيل الجارف ، وطغى الخوف أو تأنيب الضمير على الامبراطورة ، فألقت بنفسها تحت أقدام أركاديوس ، واعترفت بأن السلام لا يمكن شراؤه الا باعادة الفم الذهبي • وكان البسفور مغطى بعدد لا يحصى من السفن ، وشواطىء أوروبا وآسيا مغمورة بالأضواء ، وسار موكب رئيس الأساقفة من الميناء الى الكاتدرائية وسط تهاليل الجمهور المنتصر الظافر ، ووافق الأسقف في سهولة أكثر هما ينبغي على أن يعود الى ممارسة مهامه قبل أن يلغى الحكم الذى صدر ضده بسلطة مجمع كنسى آخر • وكان الفم الذهبى يجهل الخطر المحدق به ، أو لا يأبه به ، ومن ثم فقد اندفع في حماسه ، وربما في سخطه ، وهاجم في خشونة وغلظة رذائل النساء ، وأدان ألوان التمجيد الدنيوية المدنسة التى توجه الى تمثال الامبراطورة على مقربة من النطاق الذى توجد فيه كنيسة أيا صوفيا • وأغرى تهوره أعداءه على الهاب روح الكبرياء في صدر يودوكسيا بأن أبلغوها ، أو اختلقوا لها الديباجة الشهيرة التى قالها الأسقف كمقدمة لاحدى عظاته ، « وثارت هيروديا مرة أخرى ، وعاودت الرقص ، وطالبت ثانية برأس يوحنا » • وهى اشارة نابية كان من المستحيل عليها ، كملكة وكامرأة ، أن تصفح عنها • واستخدمت فترة هدنة غادرة قصيرة لتدبير اجراءات أكثر فعالية في تشويه سمعة الأسقف واهلاكه • فاجتمع مجلس كبير من أحبار الشرق ، وأوحى اليهم توفيلوس من بعيد بما يريد ، فأيدوا صحة الحكم

---

(١) زوجة الملك الاسرائيلى آخاب • التى اشتهرت بخبثها وقسوتها (العهد القديم – سفر الملوك الأول – اصحاح ٢١) – (الترجمة) •

السابق دون أن يبحثوا نصيبه من العدالة ، واستقدمت الى العاصمة فصيلة من القوات البربرية لقمع مشاعر الناس • وفي ليلة عيد الفصح قطع الجنود في غلظة سير الاحتفال الرسمي بالمعمودية ، وأزعجوا طلاب المعمودية العراة الوادعين ، وانتهكوا بوجودهم الأسرار المهيبة للعبادة المسيحية • واحتل أرساكيوس كنيسة أيا صوفيا والعرش الأسقفي ، وانسحب الكاثوليك الى حمامات القسطنطينية ثم الى الحقول حيث ظل الحراس والأساقفة والحكام يطاردونهم • ثم جاء اليوم المشئوم الذى نفى فيه الفم الذهبى للمرة الثانية والأخيرة • وتميز ذلك اليوم بحرق الكاتدرائية ، ومجلس السناتو والمباني المجاورة ، ونسبت هذه الكارثة ، دون دليل ولكن في شيء من الاحتمال ، الى اليأس الذى تملك الفريق المضطهد •

ولقد كان للشاعر والخطيب الروماني شيشرون بعض الفضل لأن نفيه الاختيارى قد حفظ للدولة سلامها ، غير أن خضوع الفم الذهبى كان واجبا محتما على رجل مسيحي وفرد من الرعية • ولم تستمع الامبراطورة العنيدة الى توسلاته الذليلة بأن يسمح له بالاقامة في كيزيكوس Cyzicus أو نيقوميديا ، وقررت أن يكون منفاه في مدينة كوكوسوس Cucusus بين سلاسل جبال طوروس في أرمينيا الصغرى • وكان هناك أمل خفي في أن الأسقف سوف يهلك في تلك المسيرة التى تكتنفها الصعاب والأخطار طوال سبعين يوما في حرارة الصيف ، مخترقا ولايات آسيا الصغرى ، حيث يكون بصورة مستمرة تحت رحمة الهجمات العدوانية التى يقوم بها الايسوريون Isaurians وعرضة لخطر أكبر هو غضب الرهبان وحقدهم • ورغم ذلك وصل الفم الذهبى سالما الى منفاه ، وكانت السنوات الثلاث التى قضاها في كوكوسوس وفي مدينة ارابيسوس المجاورة آخر سنوات عمره وأعظمها مجدا • فقد أضفى غيابه واضطهاده قدسية على شخصه ، ولم يعد الناس يذكرون له أخطاء ادارته ، بل أصبح كل لسان يلهج بعبقريته وفضيلته ، وتركزت أنظار العالم المسيحى في اهتمام واحترام على تلك البقعة الصحراوية بين جبال طوروس • وفي تلك العزلة اكتسب عقله المتقد قوة ونشاطا بفضل المحن التى تعرض لها ، وظل على اتصال قوى متكرر بأبعد الولايات ، يحض الطوائف المنفصلة المكونة من أنصاره المخلصين على التمسك بولائهم ، ويشجعهم على تدمير معابد فينيقيا ، واستئصال الهرطقة من جزيرة قبرص ، وامتدت رعايته الدينية الى بعثات التبشير في فارس وسكوذيا ، وارسل مندوبيه لمفاوضة الحبر الروماني والامبراطور أونوريوس • وطالب في جرأة أن تحال قضيته من المجمع

الجزئى الى المحكمة العليا التي تتألف من مجلس حر عام • وظل عمل هذا الرجل فى منفاه حرا طليقا ، غير أن جسده الأسير تعرض لانتقام ظالميه الذين ظلوا يسيئون استغلال اسم أركاديوس وسلطانه • فأرسلوا أمرا يقضى بابعاد الفم الذهبى على الفور الى أقصى صحراء بيتيوس ، ونفذ حراسه تلك التعليمات القاسية بكل أمانة ، وقبل أن يصل الأسقف الى شاطئ البحر الأسود وافاه القدر فى كومانا باقليم بنطس Pontus وهو فى الستين من عمره • واعترف الجيل التالى ببراءته وفضله ، وربما أصبح رؤساء أساقفة الشرق يحمرون خجلا لأن أجدادهم كانوا أعداء الفم الذهبى ، واتجهوا شيئا فشيئا ، بفضل ما أبداه الحبر الرومانى من حزم ، نحو رد التشريف والتكريم الى ذلك الاسم المبجل • وبناء على الالتماس التقى الذى قدمه الناس ورجال الدين فى القسطنطينية نقلت رفاته ، بعد ثلاثين سنة من موته ، من قبرها المغمور الى المدينة الملكية • وتقدم الامبراطور ثيودوسيوس الأصغر لاستقبالها فى مدينة خلقدونية ، وارتمى على نعش الأسقف متوسلا الى القديس الذى أهين وأسئ اليه ، باسم أبيه وأمه المذنبين أركاديوس ويودوكسيا — أن يمنحه الصفح والغفران •

موت أركاديوس وارتقاء ثيودوسيوس الأصغر للعرش

ومع ذلك فان شكا معقولا يساورنا فى أن أية وصمة من ذنب وراثى يمكن أن تنتقل من أركاديوس الى خليفته • ذلك أن يودوكسيا كانت امرأة جميلة صغيرة السن ، منغمسة فى أهوائها وتحتقر زوجها : وكان الكونت جون ، على أقل تقدير ، يحظى بثقة الامبراطورة ويتمتع بحظوة لديها ، حتى ان الناس كانوا يقولون انه الأب الحقيقى لثيودوسيوس الأصغر • ومع ذلك فان الزوج التقى إعتبر مولد ابنه حادثا موفقا ومشرفا أكثر ما يكون التوفيق والتشريف بالنسبة لشخصه ، وبالنسبة لأسرته ، وللعالم الشرقى ، ومنح الطفل الملكى لقب قيصر ولقب أغسطس ، وكان هذا تكريما لم يسبق له مثيل • ولم تمر على ذلك أربع سنوات حتى ماتت يودوكسيا نتيجة اجهاض ، وهذا الموت السابق لأوانه خيب نبوءة أسقف مقدس حين تنبأ ، وسط السرور الشامل بمولد الطفل ، أن الامبراطورة سوف تعيش لترى ابنها يحكم حكما طويلا موفقا • وهلل الكاثوليك لعدالة السماء التى انتقمت لاضطهاد القديس يوحنا الفم الذهبى ، وربما كان الامبراطور هو الشخص الوحيد الذى انتحب فى

اخـلاص لخسـارة يودوكسيا المتعالية الطموحة · وأحزنته هذه المحنة العائلية أكثر مما أحزنته الـكوارث العـامة التى أصـابت الشرق ـ الغارات الداعرة التى كان يقوم بها لصوص ايسـوريا من بنطس الى فلسطين دون أن ينالوا قصاصا من الحكومة التى رميت من أجل ذلك بالضعف ، والزلازل والحرائق ، والمجاعات وأسراب الجراد ـ وكلها كوارث نسبها الشعب المتذمر أيضا الى عجز مليك البلاد · وأخيرا ، وفى السنة الحادية والثلاثين من عمره ، وبعد حكم دام ثلاثة عشر عاما (اذا أسأنا الى كلمة الحـكم) وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، مات أركاديوس فى قصر القسـطنطينية · وليس فى مقدورنا أن نصور شخصيته ، حيث ان تلك الفترة الحافلة بالمواد التاريخية ، لا نستطيع أن نلاحظ فيها عملا واحدا يمكن أن ينسب بحق الى ابن ثيودوسيوس العظيم ·

وفى الحق أن المؤرخ بروكوبيوس (١) ذكر أن عقل الامبراطـور المحتضر قد أضاءه شعاع من الفطنة الانسانية ، أو الحكمة السماوية ، واستعرض أركاديوس فى تبصر وقلق حالة العجز التى كان فيها ابنه ثيودوسيوس الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، والفتن الخطيرة التى قد تقوم بها الأقلية ، وروح التطلع والطمـوح التى كان يتصف بها يزدجرد Jezdegerd ، الملك الفارسى · وبدلا من أن يستميل ولاء أحد أفراد رعيته الطموحين باشراكه فى السيادة العليا ، فقد ناشد شهامة ملك ومروءته ، ووضع صولجان الشرق ، بمقتضى وصـية رسـمية ، فى يد يزدجرد نفسه · وقبل الوصى الملكى هذه الأمانة الكريمة وأداها باخلاص لا نظير له ، وأصبحت طفـولة ثيودوسيوس تحت حماية جيـوش فارس ومجالسها · هذه هى الرواية العجيبة التى رواها بروكوبيوس ، والتى لا ينكرها المؤرخ أجاثياس ، رغم أنه يخالفه فى حـكمه ويتهم حـكمة امبراطور مسيحى يبلغ به التهور درجة تجعله يسلم ابنه وممتلكاته الى منافس وثنى أجنبى لا يعلم مدى اخلاصه ، رغم أنه كان فى عمله هذا موفقا · ومن الجائز أن هذا الموضوع السـياسى قد طرح للمناقشة أمام بلاط الامبراطور جستنيان بعد مائة وخمسين سنة من هذا التاريخ ، غير أن المؤرخ الحصيف لابد أن يأبى مناقشة حكمة الوصية التى كتبها أركاديوس حتى يتأكد من صحة هذه الرواية · ومادامت هذه المسـألة لا نظير لها فى تاريخ العالم ، فانه يحق لنا أن نتطلب اثباتها بدليل اجماعى

---

(١) مؤرخ بيزنطى فى القرن السادس بعد الميلاد ـ (المترجمة) ·

قاطع من أشخاص كانوا معاصرين لما حدث • ولابد أن ما في هذا الحادث من بدعه غريبة تثير شكوكنا ، قد لفتت انظار هؤلاء المعاصرين ، ومن ثم فان صمتهم جميعا انما يهدم الرواية الباطلة التي ذاعت في العصر التالي •

وبمقتضى قواعد الفقه الروماني ، اذا جاز أن تطبق على الأملاك العامة مثلما تطبق على الملكية الخاصــــة ، كان من حق الامبراطـــور أونوريوس أن يصبح وصيا على ابن أخيه حتى يبلغ الرابعة عشرة من عمره على الأقل • غير أن ضعف أونوريوس ، والكوارث التي أصــابت البلاد في عهده ، لم تجعله أهلا للمطالبة بهذا الحق الطبيعي • وكان هناك انفصال مطلق بين المملكتين من حيث المصلحة ، وقطيعة كاملة من حيث المودة ، الى درجة أن القسطنطينية كان يمكن أن تقبل الانصياع لأوامر البلاط الفارسي أكثر من قبولهـــا الانصياع لأوامر البلاط الايطالي • وعندما يكون ضعف الحاكم مستترا وراء مظاهر الرجـــولة والحكمة ، فان أتفه المقربين اليه قد ينازعونه سيادة القصر سرا ، ويصدرون الى الولايات الخاضـــعة له أوامر مولاهم الذي يوجهونه ويحتقرونه • غير أن وزراء الملك الطفل الذي لا يســتطيع أن يشد أزرهم بتأييد من اسمه الملكي ، لابد أن يحصلوا على سلطة مستقلة ، ويمارسونها • ومن ثم فان كبـــار رجـال الدولة والجيش الذين تولوا مناصـــبهم قبل مـوت أركاديوس كونـوا أرســتقراطية كان يمكن أن توحي اليهم بفــكرة جمهـورية حـرة • ومن حسن الحـظ أن حـكم الامبراطورية الشرقية اضطلع به الوالي أنثيميوس الذي مكنته قدراته الممتازة من الســيطرة الدائمة على عقول أنداده • وكانت سـلامة الامبراطور الصغير دليلا على ما تحلى به أنثيميوس من جدارة ونزاهة ، كما أن حزمه الحصيف دعم قوة حـكم الملك الطفل وأبقى على حسن سمعته • وفي ذلك الوقت كان هناك جيش ضخم من البرابرة تحت قيادة ألدن Uldin معسكرا في قلب اقليم تراقيا • ورفض ألدن في كبرياء كل شروط التسوية ، وأعلن الى السفراء الرومان ، مشيرا الى الشمس المشرقة ، أن مدار ذلك الكوكب وحده هو الذي ينهي فتوحات الهون ، غير أن حلفاءه اقتنعوا فيما بينهم وبين أنفسهم بعدالة وزراء الامبراطور وسخائهم ، فتخلوا عنه • ومن ثم اضطر ألدن الى اجتيــاز الدانوب مرة أخرى ، وأبيدت تقريبـا قبيلة ســكيري Scyrri التي كانت تشكل مؤخرة الجيش ، وتشتت عدة آلاف من الأسرى الذين سخروا في زراعة حقول آسيا • وفي وســط هذا الظفر العام أحيطت القسطنطينية بأسوار جديدة أكثر امتدادا ، وأعيدت

حصون مدن الليريا بنفس الاهتمام واليقظة ، وأعدت خطة حكيمة تهدف الى تأمين السيطرة على الدانوب فى مدى سبع سنوات ، ببناء أسطول دائم قوامه مائتان وخمسون سفينة مسلحة تتحكم فى ذلك النهر ٠

حكم بولكيريا

غير أن الرومان كانوا قد اعتادوا فترة طويلة على وجود سلطة ملكيه ، بحيث انهم سمحوا لأول فرد من أفراد الأسرة الامبراطورية أظهر شجاعه وهمة ، رغم أنه كان من الاناث ، بأن يرتقى عرش ثيودوسيوس الشاغر ٠ وهكذا تولت الملك أخته بولكيريا التى لم تكن تكبره بأكثر من عامين ، وأطلق عليها وهى فى السادسة لقب أوغسطا Augusta ٠ ورغم أن الأهواء أو الدسائس كانت تعكر شعبيتها أحيانا ، فقد ظلت تحكم الامبراطورية الشرقية قرابة الأربعين عاما ، طوال الفترة التى كان فيها أخوها قاصرا ، وبعد وفاته ، وذلك باسمها وباسم ماركيانوس الذى كان زوجها بالاسم فقط ٠ وقد فضلت بولكيريا حياة العزوبة بدافع من الحكمة أو الدين ، ورغم بعض الاتهامات التى مست عفتها وطهرها ، فان ذلك القرار الذى اتخذته وشاركتها فيه شقيقتاها أركاديا ومارينا أشاد به العالم المسيحى كمجهود جليل للتقوى البطولية ٠ وفى حضور رجال الدين والشعب نذر بنات أركاديوس الثلاث عفتهن لله ، وكتب هذا الالتزام بالعهد المهيب على لوحة من الذهب والجواهر ، ثم قرأه العذارى الثلاث على الملأ فى كنيسة القسطنطينية الكبرى ٠ وتحول قصرهن الى دير ، وأصبح محظورا كل الحظر على كل الذكور اجتياز الأعتاب المقدسة - فيما عدا القساوسة الذين يهدون ضمائرهن ، وهم القديسون الذين نسوا الفرق بين الجنسين ٠ وكونت بولكيريا ، وشقيقتاها ، وحاشية منتقاة من العذارى المقربات مجتمعا دينيا : ونبذ الجميع زهو الملبس وخيلاءه ، وكثيرا ما كن يلجأن الى الصوم حتى عن طعامهن البسيط المعتدل ، وخصصن جزءا من الوقت للتطريز وأشغال الابرة ، وكرسن عدة ساعات من الليل والنهار للصلوات والترانيم ٠ وجملت العذراء المسيحية تقواها وورعها بحماس الامبراطورة وسخائها ٠ ويصف التاريخ الكنسى تلك الكنائس الفخمة التى شادتها بولكيريا من مالها فى كل ولايات الشرق ، ومؤسسات البر التى أقامتها لمنفعة الغرباء والفقراء ، والمنح الوفيرة التى خصصتها بصورة دائمة لجمعيات الرهبنة ، والصرامة والنشاط اللذين اتسمت بهما جهودها فى قمع بدع نسطوريوس ويوتيكيس ٠ وكان المفروض أن مثل هذه الفضائل تنال حظوة خاصة

لدى الله ، ومن ثم فان هذه الامبراطورة القديســـة كان يتجلى لها فى الرؤيا أو عن طريق الوحى والالهـــام (١) ما يمكنها من معرفة الأماكن التى دفنت فيهـا جثث الشـهداء ، والتنبؤ بأحـداث المسـتقبل • ومع ذلك فان تعبـد بولكيريا لم يصرف اهتمامها الذى لا يكل ولا يتعب عن متابعة الأمور الدنيـوية • ويبدو أنها كانت الوحيدة بين كل ذرية تيودوسيوس ، التى ورثت عنهم قسطا من قدراته وروحه الشهمة • وقد استغلت تمكنها من معرفة واســتخدام اللغتين اليونانية واللاتينية فى مناسبات التحدث والكتابة فى الشئون العامة • وكانت تزن مناقشاتها وزنا ناضجا ، وتتوخى الحسم والسرعة فى أعمالها • وبينما كانت تدير عجلة الحكم دون زهو أو جلبة ، كانت تنسب فى فطنة وحكمة الى عبقرية الامبراطور كل ما اتسم به عهده من هدوء طويل • ومع أن السنوات الأخيرة من حياته الهادئة شاهدت جيوش أتيلا تدهم أوروبا ، الا أن الولايات الآسيوية الأكثر اتساعا ظلت تستمتع براحة عميقة دائمة • ولم يصـل ثيودوسيوس الأصغر مطلقا الى حالة الضرورة الشائنة التى ترغمه على مجابهة وعقاب فرد من أفراد رعيته يثور عليه • وبما أننا لا نستطيع أن نشيد فى هذا الشأن بقوة حكم بولكيريا ، فلابد لنا من بعض الاشـــادة بما اتسم به هذا الحكم من الاعتدال والازدهار •

واهتم العالم الرومانى اهتماما عميقا بتعليم مليكه ، فأعدت له فى حكمة دراسة منظمة وتدريب رتيب ، يشـتملان على تدريبات الركوب العسـكرية ، والرماية بالقوس ، ودراسـات حرة فى القواعد والبلاغة والفلسفة • والتمس أبرع أساتذة الشرق فى تطلع وطموح أن يعهد اليهم برعاية تلميذهم الملكى ، وسمح لعدد من الشبان النبلاء بدخول القصر لبث روح الجد والمثابرة فيه عن طريق المنافسة بين الأصدقاء • واضطلعت بولكيريا وحدها بالمهمة الكبيرة ، مهمة تعليم أخيها فنون الحكم • غير أن تعاليمها قد تشـجع على بعض الشـك فى مدى كفايتها أو فى نقاء مقاصدها • فقد علمته أن يحتفظ بمسـلك الجد والجلالة ، وأن يسير ،

---

(١) رأت بولكيريا فى أحلام متكررة ما يدلها على المكان الذى دفنت فيه جثث الأربعين شهيدا • وكان المكان فى أول الأمر فى منطقة يقع فيها منزل وحديقـة امرأة من القسطنطينية ، ثم أصبح ديرا لرهبان مقدونيين ، ثم كنيسـة القديس طيرسوس التى بناها سيزاريوس ، الذى كان قنصـلا فى سنة ٣٩٧ م • واندثرت تقريبـا ذكرى تلك الجثث • ورغم الرغبـات الصـالحة التى يبديهـا دكتور جورتن Dr. Jortin فليس من السهل تبرئة بولكيريا من أنها كان لها نصيب هذا التدليس الدينى ، الذى لابد أنه حدث عندما كان عمرها أكثر من خمسة وثلاثين عاما •

ويمسك أرديته ، ويجلس على العرش ، بطريقة تتناسب مع ملك عظيم ، وأن يتورع عن الضحك ، وأن يصغى الى المتحدث اليه فى تنازل وتفضل ، وبعبارة موجزة ، علمته أن يمثل الطابع الخارجي لامبراطور رومانى فى رشاقة ووقار • غير أن ثيودوسيوس لم يتحرك أبدا لتحمل ثقل اسمه المتألق المرموق وعظمته ، وبدلا من أن يرتفع الى محاكاة أجداده ، انحدر (اذا جاز لنا أن نجرؤ على قياس درجات العجز) الى مستوى أدنى من مستوى ضعف والده وعمه • فقد ساعدت أركاديوس وأونوريوس تلك الرعاية الأبوية التى يوجهها نحو بنيه والد ينفذ دروسه بسلطانه وقدرته • غير أن الأمير التعس ، الذى يرتدى الحلة الملكية وهو فى المهد صبيا لابد أن يظل غريبا على صوت الحق • ومن ثم فان ابن أركاديوس حكم عليه بأن يقضى طفولته الدائمة محاطا بحاشية ذليلة من النساء والخصيان ، ولا شيء غير ذلك • وشـــغل فراغه الطويل الذى توفر له نتيجة اهماله للواجبات الأساسية التى تتصل بمنصبه الرفيع ، بألوان التسلية التافهة والدراسات غير المجدية • وكان الصيد هو النشاط الوحيد الذى يغريه على تجـاوز حـدود القصر ، ولكنه ثابر أشـد المثابرة على أعمال التصوير والنحت الآلية التى كان يمارسها أحيانا على ضوء مصباح فى منتصف الليل • ونســـخ الكتب الدينية بخط رشـيق جميل جعل الامبراطـور الرومانى جديرا بالصـــفة الفريدة التى أطلقت عليه ، وهى « الخطاط البارع » ، ولما كان ثيودوسيوس محجوبا عن العالم بستار لا نفاذ منه ، فقد وضع ثقته فى الأشخاص الذين أحبهم ، وأحب أولئك الذين درجوا على تسليته وتملقه ، وهو الكســـول قاعد الهمة • ولما كان من عادته ألا يمحص الأوراق التى تقدم اليه لتوقيعهـــا باســـمه الملكى ، فكثيرا ما نفذت باسمه أعمال ظالمة تتنافى مع خلقه ويمقتها أشد المقت • وكان الامبراطور نفسه عفيفا ، معتدلا سخيا ، رحيما ، غير أن هذه الصـفات ـ التى لا تستحق أن تسـمى فضائل الا اذا دعمتها الشـجاعة ونظمتها الحكمة ـ قلما كان لها نفع أو فائدة ، بل لقد ثبت أنها أضرت بالناس فى بعض الأحيان وكان عقله الذى أضـــعفه التعليم الملكى واقعا تحت ضغط الخرافات التافهة الوضيعة ، فانحط وتدهور • وكان يصـــوم وينشـــد المزامير ، ويصـدق المعجزات والمبادىء التى غذى بها ايمانه بصورة مستمرة • وعبد ثيودوسيوس فى ورع وخشوع من مات ومن كان حيا من قديسى الكنيســـة الكاثوليكية • وحدث مرة أن راهبا وقحا أصدر ضد مليكه جرما كنســـيا ، فرفض أن يتناول الطعام حتى يتنازل الراهب بشفاء الجرح الروحى الذى أصابه به •

ان قصة عذراء جميلة فاضلة ترتفع من حالتها المغمورة الى العرش الامبراطورى ، يمكن أن تعتبر رواية لا تصـدق ، لو لم تكن هذه القصة قد ثبت صدقها فى زواج ثيودوسيوس • والقصة أن أثينيس Athenais الشـهيرة علمها والدهـا الفيلسـوف ليونتيوس ديانة اليونان وعلومهم • وكان للفيلسوف الأثينى رأى صائب فى معاصريه جعله يقسم ميراثه بين ابنيه تاركا لابنتيه ارثا صغيرا قدره مائة قطعة من الذهب ، وكله ثقة قوية فى أن جمالها وسجاياها سوف تكون نصيبا يكفيها • وسرعان ما اضطرت الفتاة الى اللجوء الى القسطنطينية هربا من غيرة شقيقيها وجشعهما ، لتلقى بنفسها تحت أقدام بولكيريا • أملا فى عدالتها أو فى نوال حظوة لديها ، واستمعت الأميرة الحصيفة الى شكواها التى عبرت عنها فى لغة فصيحة بليغة ، وأسرت فى نفسها أن تصبح ابنة الفيلسوف ليونتيوس الزوجة المقبلة لامبراطور الشرق الذى بلغ اذ ذاك العشرين من عمره • وكان من السهل عليها أن تثير فضول شقيقها بالصـورة الشـائقة التى رسمتهـا لمفـاتن أثينيس : فعيناهـا نجلاوان واسعتان ، وأنفها دقيق متناسب ، وبشرتها شقراء ناصعة ، وخصائل شعرها فى لون الذهب ، وقوامها نحيل ممشوق ومسلكها رشيق رقيق ، كما أنها تتمتع بادراك هذبته الدراسة وبفضيلة عركتها المحنة • واختبأ ثيودوسيوس وراء ستر فى غرفة شقيقته التى سمحت له بمشـــاهدة العذراء الأثينية ، وسرعان ما أعلن الشاب الوديع عن حبه النقى الشريف واحتفل بالزواج الملكى وسط تهليل العاصمة والولايات • وكان من السهل اغراء أثينيس على التبرؤ من أخطاء الوثنية ، وأطلق عليها فى المعمودية الاسم المســيحى ، يودوكيا ، غير أن بولكيريا حرصت على عدم منحها لقب أوغسطا حتى أثبتت أنها غير عقيم ، وأنجبت بنتا تزوجت بعد خمسة عشر عاما من امبراطور الغرب • ثم استدعت يودوكيا شقيقيها ، وأطاع الشقيقان فى شىء من القلق أمرها الامبراطورى • ولما كان من السهل عليها أن تصفح عن قسوتهما التى عادت عليها بالحظ والتوفيق ، فقد أشبعت فى نفسها حدب الشقيقة ، أو غرورها ، بترقيتهما الى منصب القنصل والوالى • وفى وسط ترف القصر وأبهته ظلت تنمى تلك الفنون الذكية الأصيلة التى أسهمت فى عظمتها ، وكانت من الحكمة بحيث كرست مواهبها لتكريم الدين وتكريم زوجها • فألفت شرحا شعريا للكتب الثمانية الأولى من « العهـد القـديم » (التوراه) • ولنبوءات دانيـال وزكريا ، وجمعت

مقتبسات من أشعار هوميروس ، وطبقت قصة سانت سيبريانوس على حياة المسيح ومعجزاته ، وكتبت مديحا تشيد فيه بانتصارات ثيودوسيوس الفارسية • وقوبلت كتاباتها باستحسان أبناء عصرها الأذلاء المؤمنين بالخرافات ، ولم يوجه اليها النقاد المتسمون بالصراحة وعدم التحيز ما يقلل من شأنها • ولم يفتر حب الامبراطور لزوجته بمرور الزمن وباستحواذه عليها ، وبعد أن زوجت يودوكيا ابنتها سمح لها بأن تفى بنذور الشكر ، وتقوم برحلة حج مقدسة الى أورشليم • وقد تبدو مسيرتها الى الشرق غير متفقة مع روح التواضع المسيحى لأنها أحيطت بمظاهر الأبهة والعظمة • فقد جلست على عرش من الذهب والجواهر ، وألقت على السناتو فى مدينة أنطاكيا خطابا بليغا ، أعلنت فيه عن عزمها الملكى على توسيع أسوار المدينة ، وتبرعت بمنحة قدرها مائتان من الجنيهات الذهبية لاعادة الحمامات العامة ، وقبلت التماثيل التى قررت أنطاكيا اهداءها لها عرفانا بجميلها • وفى الأرض المقدسة فاقت صدقاتها ، والمؤسسات الدينية التى أمرت بها ، سخاء هيلانة العظيمة وأريحيتها ، ومع أن هذا السخاء الزائد كان على حساب فقر الخزانة العامة ، الا أنها وجدت متعة فى شعورها بأنها سوف تعود الى القسطنطينية ومعها السلاسل التى قيد بها القديس بطرس ، وذراع القديس اسطفان اليمنى ، وصورة أصيلة للعذراء مريم رسمها القديس لوقا • غير أن هذا الحج المقدس كان النهاية المشئومة لأمجاد يودوكيا • فقد أغرتها العظمة الجوفاء التى تشبعت بها على التطلع فى طموح الى حكم الامبراطورية الشرقية دون أن تهتم كثيرا بفضل بولكيريا عليها والتزاماتها نحوها ، فساد القصر الملكى نزاع بين المرأتين ، غير أن سمو مكانة شقيقة ثيودوسيوس كفل لها الغلبة فى نهاية الأمر • وجاء اعدام بولينوس ، رئيس الديوان ، والعار الذى لحق بكيروس Cyrus حاكم الشرق البريتورى ، دليلا أقنع الناس بأن حظوة يودوكيا لا تكفى لحماية أخلص أصدقائها ، كما أن الجمال الخارق الذى اتصف به بولينوس شجع على انتشار اشاعة خفية بأن الذنب الذى اقترفه كان ذنب عاشق وصل الى قلب يودوكيا • وبمجرد أن أدركت الامبراطورة أنها خسرت محبة زوجها ثيودوسيوس الى غير رجعة ، التمست أن يأذن لها بالانسحاب الى أورشليم حيث تعيش فى عزلة بعيدة • وأجيبت الى طلبها غير أن غيرة ثيودوسيوس ، أو روح الانتقام التى تملكت بولكيريا تعقبتها فى هذا الانسحاب الأخير ، وكلف ساترنينوس رئيس الحاشية أن يقتل اثنين من رجال الدين كانا أقرب الأتباع اليها • وانتقمت لهما يودوكيا على الفور بقتل رئيس الحاشية • ويبدو أن الانفعالات الثائرة الجامحة التى أظهرتها فى هذه المناسبة المريبة بررت قسوة ثيودوسيوس عليها ، فجردت

الامبراطورة بصورة شائنة من أمجاد منصبها ، ولحقها العار فى نظر العالم ، وربما كان ذلك ظلما • وقضت يودوكيا بقية حياتها ، وقدرها ستة عشر عاما تقريبا ، فى المنفى والتعبد • وتقدم بهـــا العمر ، ومات زوجهـــا ثيودوسيوس ، وحلت المحن بابنتها الوحيدة التى سيقت أسيرة من روما الى قرطاجة ، واندمجت بولكيريا فى مجتمع الرهبان المقدسين فى فلسطين ، كل أولئك دعم فى عقلها النزعة الدينية • وبعد تجربة كاملة لتقلبات الحياة البشرية ماتت ابنة الفيلسوف ليونتيوس فى أورشليم فى الســـابعة والستين من عمرها ، وكانت تعترض وهى تلفظ أنفاســـها الأخيرة أنها لم تتجاوز مطلقا حدود الطهر والصداقة •

***

قامت بعد ذلك حرب غير حاسمة ضد فارس ، وأدت هذه الحرب الى سلام دام ثمانين عاما • وقسمت أرمينيا بين الفرس والرومان •

الفصل الثالث والثلاثون
(٤٣١ ـ ٤٣٩)

الوندال يغزون أفريقيا • القديس أوغسطين وحصار مدينة هيبو • نهب مدينة قرطاجة • قصة النيام السبعة •

مات أونوريوس بمرض الاستسقاء فى سنة ٤٢٣ • وخلفه فى النهاية فالنتينيان الثالث الذى كان فى السادسة من عمره • وهو ابن جالا بلاكيديا من القائد قسطنطيوس (الذى تزوجته بعد وفاة أدولفوس) ، وابن عم ثيودوسيوس الأصغر • وحكمت بلاكيديا خمسة وعشرين عاما باسم ابنها • وكانت جيوشها تحت قيادة أيتيوس وبونيفاس Boniface اللذين يصفهما جيبون Gibbon بأنهما « آخر الرومان » • وبعد أن تآمر ايتيوس على الحط من شأن بونيفاس فى عين بلاكيديا ، اقترح بونيفاس فى تهور عقد محالفة مع الوندال فى أسبانيا ، ودعاهم الى استيطان أفريقيا ، وقبل الملك الوندالى جنسريك Genseric هذه الدعوة التى ندم عليها بونيفاس بعد ان فات أوان الندم •

الوندال يغزون افريقيا

كان الاقليم الضيق الممتد على طول الساحل الأفريقى مليئا بالآثار الكثيرة التى تبرز الفن الرومانى والعظمة الرومانية ، وكان من الممكن أن تقاس درجات التقدم والتحسن فى هذه الآثار بمقدار بعدها عن مدينة قرطاجة والبحر المتوسط • وان أى عقل مفكر يستطيع بشىء من التأمل البسيط أن يكون فكرة واضحة عن خصب ذلك الاقليم وحالة الزراعة فيه : فلقد كانت المنطقة آهلة بالسكان ، وكان هؤلاء السكان يحتفظون بقدر وفير من المواد الغذائية لاستعمالهم الخاص ، ويصدرون سنويا ، وخاصة من القمح ، كميات كبيرة وبصورة منتظمة حتى استحقت أفريقيا

اسم المخزن العام للحبوب بالنسبة لروما وللجنس الانسانى • وفجأة وقعت الولايات اليانعة السبع ، من طنجة الى طرابلس ، فريســة لغزو الوندال • وكان هؤلاء الوندال يتسمون بروح ثائرة مدمرة ربما كانت موضع مبالغة بتأثير البغضاء العامة والغيرة الدينية والمغالاة فى التحمس • والحرب فى أهون أشكالها انما تعنى انتهاكا دائما للانسانية والعدالة ، أما حروب البرابرة الهمج فانما تلهبها روح القسوة وتجاهل القانون ، وهى الروح التى تقلق مجتمعهم الهادىء المنصرف الى شئونه ومسراته • وحيثما وجد الوندال مقاومة فانهم قلمـــا كانوا يرحمـــون ، بل كانوا ينتقمون لموت رفاقهم الشجعان بتدمير المدن التى قتلوا تحت أسوارها • وكانوا لا يقيمون وزنا للسن أو للجنس أو المقام ، بل يستخدمون كل أنواع الاهانة والتعذيب لينتزعوا من أسراهم ما يمكنهم من الوصول الى ثروتهم المخبأة • وكانت صرامة سياسة ملكهم جنسريك تبرر له ما ارتكبه مرارا وتكرارا من أعمال القتل والاعدام ، فلم يكن فى مقدوره دائما أن يسيطر على شهواته أو شهوات أتباعه ، كما ازدادت كوارث الحرب بسبب تهور عرب شـــمال أفريقيا والتعصب الدينى الذى اتســـم به أتباع دوناتوس (١) • ولكنى لا أستطيع أن أقتنع بأنه كان من عادة الوندال أن يقتلعوا أشجار الزيتون وغيرها من أشجار الفواكه الأخرى من بلد عقدوا النية على استيطانه كما أنى لا أستطيع أن أصدق أنه كان من خططهم الحربية العادية أن يذبحوا أعدادا كبيرة من أسراهم أمام أسوار المدينة التى يحاصرونها ، بهدف واحد هو تلويث الهواء وخلق الوباء ، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا أول الضحايا (٢) •

سانت أوغسطين
وحصـــار مدينة هيبـــو

كان الكونت بونيفاس يرى بعينيه ذلك الخراب الذى سببه ، والذى لم يعد فى مقدوره ايقاف تطوره السريع ، فيتمزق عقله الكريم ألما وعذابا • وبعـــد أن خسر معركة ضـــد الوندال انسحب الى مدينة هيبو الملكية Hippo Regius (أكبر مدن نوميديا) حيث حاصره على الفـــور عدو كان يعتبره حصن أفريقيا الحقيقى وحاميها • وكانت هذه المســـتعمرة البحرية تقع على بعد مائتى ميل تقريبا الى الغرب من قرطاجة ، وأطلق

---

(١) كان اسقفا لقرطاجة فى القرن الرابع • وكون اتباعه طائفة مسيحية فى شمال افريقية سنة ٣١١ م ، اتسمت بالتزمت والتعصب ـ (الترجمة) •

(٢) توجد الشكاوى الأصلية من الدمار الذى حل بأفريقيا • =

عليها من قبل اسم Regius لأنها كانت مقاما لملوك نوميديا • وما تزال بعض بقايا التجارة والازدحام بالسكان من سمات المدينة الحديثة المعروفة في أوروبا بالاسم المحرف بونا Bona • ومما خفف من الجهود العسكرية المضنية التي كان يبذلها الكونت بونيفاس ، ومن تفكيره المشوب بالقلق ، تلك الأحاديث التي كان يتبادلها مع صديقه سانت أوغسطين ويجد فيها راحة وعزاء ، الى أن مات ذلك الأسقف ، نور الكنيسة الكاثوليكية ودعامتها ، في الشهر الثالث من الحصاد ، وكان اذ ذاك في السادسة والسبعين من عمره • وقد رحمه الموت اذ أنقذه في رفق من الكوارث التي حلت ببلده فعلا ومن تلك التي كانت وشيكة الوقوع • ولقد تلوث شباب أوغسطين بالرذائل والأخطاء التي يعترف بها في صراحة ودون مواربة • غير أنه منذ أن اعتنق الديانة المسيحية الى أن وافته منيته كان يتسم بأخلاق وعبادات نقية بسيطة خالية من الترف والمظاهر ، وكان أبرز فضائله حماسه المتقد ضد الهراطقة أيا كان لونهم أتباع (١) « مانا » وأتباع « دوناتوس » وأتباع « بيلاجيوس » (٢) ، وقد شن على هؤلاء جميعا حربا مستمرة لا هوادة فيها • وعندما أحرق الوندال المدينة بعد بضعة شهور من موته ، كان من حسن الحظ أن النار لم تمتد الى المكتبة ، فنجت من الحريق وكانت فيها كل كتاباته الضخمة التي تتألف من كتب أو بحوث مستقلة في مواضيع لاهوتية عددها مائتان واثنان وثلاثون ، الى جانب عرض كامل لكتاب المزامير والانجيل ، ومجلة غزيرة شاملة للرسائل والصلوات • ويقرر أكثر النقاد بعدا عن التحيز أن علمه السطحي كان قاصرا على اللغة اللاتينية (٣) ، وأن أسلوبه تشوبه

= (أ) في خطاب من كابريريولوس ، أسقف قرطاجنة يعتذر عن حضور مجلس افيسوس •

(ب) في كتاب « حياة سانت أوغسطين » من تأليف صديقه وزميله بوسيديوس •

(ج) في كتاب « تاريخ الاضطهاد الوندالي » تأليف فيتنسس Victor Vitensis والصورة الأخيرة ، التي رسمت بعد ستين سنة من الحادث ، انما تعبر عن أهواء المؤلف وعواطفه أكثر من تعبيرها عن صدق الحقائق •

(١) أتباع « مانا » (٢٧٦م) الذي كان ينادي بأن كل شيء نشأ من الضوء والظلام أو الخير والشر — (مذهب المانوية) •

(٢) بيلاجوس Pelagius كان راهبا بريطانيا عاش في القرن الرابع الميلادي وهذه الطائفة تنكر الخطيئة الأصلية (المترجمة) •

(٣) كره سانت أوغسطين في باكورة شبابه دراسة اليونانية وأهملها ، ويعترف صراحة بأنه قرأ الافلاطونيات في الترجمة اللاتينية ، ويظن بعض النقاد الحديثين أن جهله باليونانية أعجزه عن شرح الكتاب المقدس ، وكان شيشيرون وكوينتليان يتطلبان من أستاذ البلاغة أن يكون ملما بتلك اللغة •

عادة البلاغة المفتعلة الزائفة ، رغم أن الانفعال كان يكسبه فى بعض الأحيان قدرة على التعبير فى أسلوب قوى منطلق • غير أنه كان ذا عقل قوي يتسع للكثير ، ويقرع الحجة بالحجة . وكان له من الجرأة ما مكنه من الغوص الى أعماق الموضوعات الغامضة المبهمة ، كموضـوع النعمة الالهية ، وهل الانسان مسير أو مخير وموضوع الخطيئة الأصلية • أما النظام المسيحى الصارم الذى رسم اطاره أو أعاد كيانه فقد قابلته الكنيسـة اللاتينية بالأعراض سرا والاستحسان علانية (١) •

وطال حصار مدينة هيبو الى أكثر من أربعة عشر شهرا بفضل براعة بونيفاس ، أو ربما كان ذلك نتيجة لجهل الوندال ، وظل البحر مفتوحا أمام المدينة ، وعندما نضبت موارد الاقليم المجاور بتأثير عملية النهب الهمجية ، جاع المحاصرون أنفسهم واضطروا الى التخلى عن مغامراتهم • وكانت الوصـية على عرش الغرب تدرك ادراكا عميقا أهمية أفريقيا والخطر المحدق بها ، والتمست بلاكيديا عون حليفها الشرقى ، فأبحر القائد أسبار من القسطنطينية على رأس جيش قوى عزز به جيش ايطاليا وأسطولها • وما أن توحدت قوات الامبراطوريتين تحت قيادة بونيفاس حتى تقدم فى جرأة لمقابلة الوندال ، ولكنه خسر معركته الثانية ضدهم ، وحددت هذه الخسارة مصير أفريقيا نهائيا • ثم دفعه اليأس الى تعجل ركوب البحر ، وسمح لأهل المدينة وأسراتهم ومتاعهم أن يشـغلوا على السـفن مكان البحارة الذين قتل الوندال أكثرهم أو أخذوهم أسرى • أما الكونت بونيفاس الذى كانت سـذاجته القـاتلة سـببا فى الاضرار بحيويات الدولة ضررا بليغا ، فقد دخل قصر رافنا فى شىء من القلق الذى سرعان ما أزالته ابتسامات بلاكيديا ، وقبل بامتنان رتبة نبيل رومانى ومنصب القائد العـام للجيـوش الرومانية • ولـكن لابد أنه كان يحمر

---

(١) قدست كنيسة روما سانت أوغسطين وتبرأت من كالفن • ومع ذلك فان الفرق الحقيقى بين الرجلين لا يمكن رؤيته حتى تحت مجهر دينى ، ومن ثم فان اتباع مولينـا (Louis Molina) (١٥٣٥ ـ ١٦٠٠) يضطهدون بحكم ما للقديس من سـلطة ، ويلحق العـار اتباع جانسن Conelius Jansen (١٥٨٥ ـ ١٦٣٨) لأنهم يشبهون الهرطوقى • وفى الوقت عينه وقف أرمانيانوس البروتستانتى بمنأى عن النزاع وسخر من حـيرة المتنازعين • ومن الجائز أن مفكرا أكثر استقلالا فى الرأى يبتسـم بدور عندما يطالع تعليقا كتبه أرمينيانوس على الرسالة الى الرومان •

لويس مولينـا : أسبانى يسوعى يقرر : أن الانسان مسـير بمعنى أن الله يعرف مقدما أنه حر الارادة والتصرف •

كورنيليوس جانسن : أسقف كاثوليكى : ويعـارض العقيدة الكاثوليكية التى تقـول بحرية الارادة ـ (المترجمة) •

خجلا عند رؤيته تلك الأوسمة التي ظهرت فيها صورته مقرونة بعلائم النصر • وتملك الحنق والغضب نفس ايتيوس الغادرة المتعالية عندما افتضح خداعه وعلم بغضب الامبراطورة علي شخصه والحظـوة الكبيرة التي نالها غريمه لديها ، فعاد سريعا من بلاد الغال الى ايطاليـا ومعـه حاشـــية ، أو جيشي ، من أتباعه البرابرة • وبلغ من ضعف الحكومة أن القائدين حسما خصامهما الشخصي في معركة دموية • وانتصر بونيفاس . ولكنه أصيب في ذلك الصــدام بجرح مميت من رمح خصـمه ، ومات متأثرا به في مدى أيام قلائل ، ودفعته عواطفه المسيحية الكريمة وهو علي فراش الموت الى أن يلح علي زوجته ، وهي سـيدة أسبانية ثرية ذات ميراث ، أن تقبل ايتيوس زوجا ثانيا لها ، غير أن ايتيوس لم يستطع أن يستمد أى نفع مباشر من ذلك الكرم الذى أظهره عدوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فقد شاءت عدالة بلاكيديا أن تصمه بالتمرد والعصيان ، ورغم أنه حاول الدفاع عن بعض الحصون القائمة في أملاكه الموروثة ، الا أن القوة الامبراطورية سرعان ما أرغمته على الانسحاب الى بانونيا ، حيث لجأ الى خيام أتباعه المخلصين من الهون • وترتب على هذا الخصام المتبادل بين الرجلين أن حرمت الدولة من خدمات ألمع أبطالها وأكثرهم شـــهرة •

نهب قرطاجــة

ومن الطبيعي أن يكون متوقعا ، بعد تقهقر بونيفاس ، أن يحقق الوندال غزو أفريقيا دون مقاومة ، ودون ابطاء • ومع ذلك فقد انقضت ثمانية أعوام بين الجلاء عن مدينة هيبو وبين اخضاع مدينة قرطاجة • وفي منتصف تلك المدة عقد جنسريك ، وهو في أوج رفاهيته الواضحة ، معاهدة مع الامبراطور الغربي ، وافق بمقتضاها على أن يظل الامبراطور محتفظا بولايات موريتانيا الثلاث دون أن يتعرض لأى ازعاج ، وسلم ابنه هنريك رهينة لضمان تنفيذ المعاهدة • وهذا الاعتدال الذى لا يمكن أن يعزى الى عدالة الفاتح لابد أن ينسب الى سياسته ، ذلك أن عرشه كان محاطا بأعداء في داخل البلاد يرمونه بوضاعة المنبت ، ويؤكدون أن أبناء أخيه جوندريك هم أصحاب الحق الشرعي • وقد قتلهم جنسريك مضحيا بهم في سبيل سلامته ، كما أمر بالقاء أمهم ، أرملة الملك الراحل ، في نهر آمبساجا Ampsaga • غير أن التذمر العام انفجر في صورة مؤامرات كثيرة خطيرة ، ولابد أن الطاغية العسكري قد أراق من دماء الوندال على يد الجلاد أكثر مما أراق في ساحة القتال • أما الاضطرابات الأفريقية

العنيفة التي كانت تؤيد هجومه ، فقد عارضت توطيد سلطته ، وظلت ثورات عرب شمال أفريقيا والجرمان ، والكاثوليك وأتباع دوناتوس ، تزعج أو تهدد حكم الفاتح المقلقل بصورة مستمرة · وعندما تقدم نحو قرطاجة اضطر الى سحب قواته من الولايات الغربية ، وتعرض الشاطىء للهجمات البحرية التي قام بها رومان أسبانيا وايطاليا · وفي قلب اقليم نوميديا ظلت مدينة سرته Cirta الداخلية محافظة على استقلالها في اصرار وعناد · وتغلب جنسريك على هذه الصعاب شيئا فشيئا بشجاعته ومثابرته وقسوته ، واستخدم فنون السلم مرة وفنون الحرب مرة أخرى لاقامة مملكته الأفريقية ، ووقع مع قرطاجة معاهدة رسمية بأمل الحصول على بعض النفع من شروط استمرارها ومما يترتب على خرقها · وتراخت يقظة أعدائه بفضل ما أظهره من صداقة كان يخفي وراءها مسلكه العدواني وأخيرا فاجأ الوندال قرطاجة بعد خمسمائة سنة وخمس وثمانين من تدمير المدينة والدولة على يد سكيبيو الأصغر ·

كانت مدينة جديدة قد قامت على أنقاض قرطاجة القديمة وأطلق عليها اسم المستعمرة ، ومع أن قرطاجة كانت لا تداني القسطنطينية في امتيازاتها الملكية ، أو الاسكندرية في تجارتها أو أنطاكيا في روعتها وفخامتها ، الا أنها كانت تحتل المرتبة الثانية في الغرب كروما العالم الأفريقي (اذا استخدمنا أسلوب المعاصرين لها) · وبدت تلك العاصمة الغنية المترفة في صورة دولة مزدهرة وان كانت تابعة ، فكان ينصب فيها ما تمتلكه الولايات الست من مصنوعات وأسلحة وأموال · وكان بها تنظيم لتسلسل المناصب المدنية تبدأ من المشرفين الماليين على شوارع المدينة وأحيائها ، وتتدرج صعودا الى منصب الحاكم الأعلى الذي يلقب بلقب البروقنصل ويمثل بمقتضى ذلك اللقب مكانة القنصل في روما القديمة ، وما كان له من تبجيل واحترام · وأنشئت المدارس وساحات الرياضة لتعليم شباب أفريقيا ، وكانت الفنون الحرة وآداب السلوك والنحو ، والبلاغة ، والفلسفة تعلم للشعب باللغتين اليونانية واللاتينية · وكانت مباني قرطاجة فخمة ومتناسقة ، وزرعت في وسط العاصمة غابة ظليلة ، وكانت الميناء الجديدة ، وهي مرفأ فسيح أمين ، تستغل لخدمة المواطنين والغرباء ، كما كانت ألعاب السيرك والمسرح الرائعة تقدم للناس حتى في حضور البرابرة · ولم تكن سمعة أهل قرطاجة على مستوى سمعة بلدهم بل ظلت سبة الولاء البونيقي أى (الخيانة) Punic faith لاصقة بأخلاقهم الماكرة الغادرة ، وفسد سلوكهم بتأثير عادات التجارة وسوء استغلال الثراء والترف ، غير أن احتقارهم المعيب للرهبان وممارستهم الشائنة للشهوات غير الطبيعية هما الرجسان اللذان أثارا غضب سالفيان

Salvian واعظ العصر (١) التقى . وأصلح ملك الوندال فى قسوة من رذائل ذلك الشعب الشهوانى الداعر ، وحول جنسريك تلك الحريه القديمة النبيلة الصادقة التى كانت تتسم بها قرطاجة (هذه التعبيرات التى قالها فيكتور لا تخلو من القوة) الى مذلة شائنة . وبعد أن سمح لقوانه الفاجرة بأن تشبع غضبها وجشعها ، وضع أسلوبا أكثر نظاما للنهب والظلم . فأصدر قانونا يحتم على الناس جميعا أن يسلموا الى ضباط الملك ، دون خداع ودون ابطاء ، كل ما لديهم من ذهب وفضة وجواهر وأثاث ثمين وكساء نفيس ، ويعاقب بالموت أو التعذيب دون رحمة أية محاولة لاخفاء أى جزء مما يمتلكون ، على أساس أن هذا العمل خيانة ضد الدولة . أما أراضى الولاية التابعة للبروقنصل وهى التى يتكون منها اقليم قرطاجة نفسه ، فقد قيست بدقة وقسمت على البرابرة ، واحتفظ الفاتح لنفسه بالملكية الخاصة لاقليم بيزاكيوم الخصب والأجزاء المجاورة له من نوميديا وجيتوليا .

ومن الطبيعى أن جنسريك كان يمقت أولئك الذين ألحق بهم الضرر والأذى : وأصبح نبلاء قرطاجة وأعضاء السناتو عرضة لحقده وسخطه ، وكل من رفضوا الشروط الشائنة التى أبى عليهم شرفهم ودينهم قبولها ، أرغمهم ذلك الطاغية الآرى على الامتثال للنفى الدائم من البلاد . فامتلأت روما وايطاليا وولايات الشرق بجمهور المنفيين واللاجئين والأسرى الشرفاء الذين كانوا يثيرون شفقة الناس وعطفهم . وما تزال رسائل ثيودورت Theodoret الكريمة تذكر اسمى كالستيان وماريا ، وتقص ما أصابهما من مصائب ومحن . وفى هذه الرسائل يرثى الأسقف السورى للكوارث التى حلت بكالستيان الذى كان أحد نبلاء قرطاجة وعضوا ثريا من أعضاء السناتو ، ثم ألجأته الحاجة الى التسول فى بلد أجنبى هو وزوجه وأسرته وخدمه . غير أن الأسقف ثيودورت يشيد باستبسال اللاجىء المسيحى ، وبخلقه الفلسفى الذى مكنه ، تحت ضغط تلك الكوارث ، من الاستمتاع بسعادة حقيقية أكثر من تلك التى تجلبها الثروة والرفاهية فى الظروف العادية . أما قصة ماريا ، ابنة يوديمون العظيم ، فهى قصة عجيبة شائقة . فعندما نهبت قرطاجة اشتراها

---

(١) وهو يصرح بأن الرذائل التى يتسم بها كل بلد قد تجمعت فى بالوعة قرطاجة . وفى انغماس الأفريقيين فى الرذيلة كانوا يشيدون بما لديهم من فضيلة الرجولة . وبان الشهامة تقضى عليهم بقطع صلاتهم القذرة مع النساء . وتلوثت شوارع قرطاجة بالمتخنثين الذين كانوا يظهرون علانية فى مظهر النساء وملبسهن وأخلاقهن . واذا ظهر أحد الرهبان فى المدينة كانوا يشيعونه بالازدراء والسخرية .

من الوندال بعض تجار سوريا ، وباعوها بعد ذلك رقيقا فى بلادهم ٠ وكانت لها وصيفة نقلت على السفينة نفسها وبيعت الى الأسرة نفسها ، وظلت تحترم سيدتها التى أخنى عليها الدهر وأنزلها الى مستوى العبودية الذى شاركت فيه خادمتها ٠ وتلقت ابنة يوديمون من وصيفتها بدافع المودة وعرفان الجميل تلك الخدمات العائلية التى كانت فيما مضى تتطلبها منها بحكم الخضوع والطاعة ٠ وكشف هذا المسلك العجيب عن حقيقة ماريا ٠ وفى غيبة أسقف كيروس Cyrrhus أعتقت من العبودية بفضل كرم بعض جنود الحامية ، ووفر لها سخاء ثيودورت معيشة كريمة ، فقضت عشرة شهور بين شماسات الكنيسة حتى وصل الى علمها على غير انتظار أن أباها ، الذى نجا من الخراب الذى حل بقرطاجة ، يشغل منصبا رفيعا فى احدى الولايات الغربية ٠ وعضدها الأسقف الورع ثيودورت فى لهفتها على أبيها ، فأرسل خطابا ما يزال موجودا الى أسقف ايجة ، وهى مدينة بحرية فى اقليم قيليقيا ، تزورها سفن الغرب كثيرا فى فترة سوقها السنوى ، وطلب الى زميله فى غيرة وجدية أن يعامل الفتاة فى رقة تليق بكرم محتدها ، وأن يعهد بها الى رعاية تجار مخلصين أمناء يعتبرون أنه يكفيهم كسبا أن يعيدوا ابنة الى ذراعى أبيها المنكوب بعد أن فقد كل أمل فى عودتها ٠

قصة النيام السبعة

ومن بين قصص التاريخ الدينى أرانى مسوقا الى انتقاء القصة الشهيرة ، قصة النيام السبعة الذين يتفق تاريخهم المزعوم مع عهد ثيودوسيوس الأصغر ، وغزو الوندال لأفريقيا ٠ فعندما تعرض المسيحيون لاضطهاد الامبراطور ديكيوس اختبأ سبعة من النبلاء الشبان بمدينة افسوس داخل كهف فسيح غائر فى سفح جبل مجاور للمدينة ٠ وهناك قضى عليهم الطاغية بالهلاك بأن أصدر أوامره بأن يغلق عليهم مدخل الكهف اغلاقا محكما بكومة من الأحجار الضخمة ٠ وللحال راح الشبان فى سبات عميق طالت مدته بصورة معجزة الى مائة وسبع وثمانين سنة . دون أن تتأثر قوى الحياة فيهم ٠ وفى نهاية تلك الفترة أزاح عبيد أدوليوس ، الذى آل اليه ميراث الجبل ، تلك الأحجار الضخمة ليشيدوا بها بناء ريفيا ، ونفذ ضوء الشمس الى داخل الكهف ، فكان هذا ايذانا باستيقاظ النيام السبعة ٠ وشعر هؤلاء النيام بالجوع بعد نوم ظنوه ساعات قليلة ، فقرروا أن يعود واحد منهم سرا الى المدينة لشراء ما يحتاجون اليه من خبز ، ووقع اختيارهم على جامبليكوس ٠ ولم يستطع الشاب (اذا جاز لنا أن نطلق عليه هذه التسمية) أن يتعرف على منظر

بلده المألوف لديه ، وزادت دهشته عندما رأى صليبا كبيرا قائما فى ظفر على الباب الرئيسى لمدينة افسوس • وارتبك الخباز عندما شاهد ملبسه الغريب وسمع لغته القديمة ، ثم قدم له جامبليكوس عملة عتيقة من عهد ديكيوس على أنها العملة المتداولة فى الامبراطورية ، وهنا ارتاب الخباز فى أن الشاب قد عثر على كنز خفى ، فساقه أمام القاضى • وترتب على ما دار بين الرجلين من استفسارات أن وضحت القصة المذهلة ، وهى أن قرنين من الزمان تقريبا قد انصرما منذ أن فر الشاب وأصدقاؤه من غضب الطاغية الوثنى • وسارع الى زيارة كهف النيام السبعة أسقف افسوس ، والكهنة ، والحكام ، والشعب ، بل والامبراطور ثيودوسيوس نفسه ، كما يقال • وما أن منح هؤلاء السبعة بركتهم للحاضرين وقصوا عليهم قصتهم حتى وافتهم المنية فى سكون وهدوء • ولا يمكن أن يكون اليونان الحديثون هم الذين لفقوا هذه الأسطورة العجيبة بدافع من السذاجة والتقوى ، لأن القصة المتواترة الصحيحة يمكن تتبعها الى تاريخ انقضاء خمسين سنة على حدوث المعجزة المزعومة • فالأسقف السورى جيمس من أهل ساروج ، الذى ولد بعد سنتين من موت ثيودوسيوس الأصغر ، خصص احدى عظاته المائتين والثلاثين للاشادة بشبان افسوس • وقبل أن تنتهى القرن السادس كانت أسطورتهم قد ترجمت من اللغة السريانية الى اللاتينية بفضل عناية جريجورى ، أسقف مدينة تور • كما أن الطوائف الشرقية المعادية تحتفظ بذكراهم بالاحترام نفسه ، وكذلك دونت أسماؤهم بصورة مشرفة فى التقويم الرومانى والحبشى والروسى • ولم تقتصر شهرتهم على العالم المسيحى وحده ، بل ان هذه القصة الشائعة ، التى لابد أن النبى محمدا قد سمعها عندما ذهب بقوافله الى أسواق سوريا ، قد نزلت فى القرآن كوحى الهى (١) • وأخذت الأمم التى تدين بالاسلام ، من البنغال الى أفريقيا ، قصة النيام السبعة ونمقتها ، كما اكتشفت بعض آثار قصة مماثلة فى الأطراف النائية من اسكنديناوة (٢) • وهذا الايمان السهل الذى عم العالم كه ، والذى يعبر مثل هذا التعبير عن احساس الانسان ، يمكن أن يعزى الى ما تتسم

---

(١) وهنا يذكر جيبون ملخصا قصيرا لبعض ما جاء فى قصة أهل الكهف كما وردت فى القرآن الكريم •

(٢) يذكر بولس ، شماس اكويليا ، الذى عاش فى نهاية القرن الثامن أن النيام "سبعة الشماليين رقدوا تحت صخرة على شاطىء المحيط ، واحترم البرابرة رقادهم الطويل • ثم عرفهم الرومان من ملابسهم ، ويظن الشماس أن العناية الالهية احتفظت بهم ليكونوا رسلا فى المستقبل لتلك البلاد غير المؤمنة •

به الأسطورة نفسها من ميزة أصيلة ، فنحن نتقدم من الشباب الى الشيخوخة دون أن نشعر ودون أن نلحظ التغير التدريجي المستمر فى أحوال البشر وشئونهم • وحتى فى تجربتنا التاريخية الأكثر اتساعا درج خيالنا على ربط الثورات والتغيرات المتباعدة كل البعد عن بعضها بعضا بسلسلة متصلة من الأسباب والنتائج • غير أنه اذا كان ممكنا أن تتلاشى فى لحظة واحدة الفترة التى تقع بين عصرين مشهودين ، واذا كان مستطاعا أن نعرض العالم الجديد أمام عينى مشاهد صحا من نومه بعد فترة سبات مؤقت قدرها مائتان من السنين ولايزال محتفظا فى ذهنه بصورة حية حديثة للعالم القديم ، فان دهشته وأفكاره يمكن أن تصبح موضوعا شائقا لقصة خيالية فلسفية • وكانت فترة القرنين من الزمان التى انصرمت بين عهد الامبراطور ديكيوس وعهد ثيودوسيوس الأصغر هى أصلح حقبة لمثل هذا المشهد • ففى هذه الفترة انتقل مقر الحكم من روما الى مدينة جديدة على ضفاف البسفور فى تراقيا ، ونشأ نظام من العبودية الطيعة القائمة على الرسميات والشكليات وضع حدا لسوء استغلال الروح العسكرية • وتعاقب على العرش الذى كان يجلس عليه ديكيوس الظالم المتعسف ملوك من المسيحيين أصحاب المذهب الصحيح أطاحوا بالآلهة الخرافية القديمة وأصبح المتعبدون من أهل ذلك العصر يتلهفون على تمجيد قديسى الكنيسة الكاثوليكية وشهدائها على مذابح ديانا وهرقول ، وانفصمت وحدة الامبراطورية الرومانية ، وضاعت هيبتها وعظمتها فى التراب ، وتدفقت جيوش من البرابرة المجهولين من المناطق الشمالية المتجمدة ، وفرضوا حكمهم الظافر على أجمل أقاليم أوروبا وأفريقيا •

نهاية الإمبراطورية في الغرب

الفصل الخامس والثلاثون
(٤٥١ ـ ٤٥٣)

أتيلا يغزو بلاد الغال وايطاليا • تأسيس البندقية • موت أتيلا ودمار امبراطوريته • مقتل ايثيوس وموت فالنتينيان الثالث • أعراض الاضمحلال فى الامبراطورية الرومانيـة الغربية •

تلاحقت غزوات القوط والشـعوب المماثلة لهم ، وازدادت سرعتها من جراء الضغط الذى مارسته قبائل الهون على مؤخرتهم وفى الفصل ٣٤ يصف جيبون أول ظهور أتيلا واستقرار القوط فى بلاط المجر الحديثة • وبين سنتى ٤٣٠ ـ ٤٤٠ غزا أتيلا بلاد الفرس ، وفى سنة ٤٤٦ ، بعد أن اجتاح أوروبا حتى مدينة القسطنطينية ، عقد معاهدة مع الامبراطورية الشرقية ، ومات ثيودوسيوس الأصغر فى سنة ٤٥٠ وارتقت بعده أخته بلكيريا عرش الامبراطورية الشرقية ، وبذلك أصبحت أول امرأة تحـكم الرومان • وسرعان ما تزوجت عضو السناتو ، ماركيان ، الذى اصبح هو نفسه امبراطورا •

وفى الوقت عينه تاهب أتيلا ، ملك الهون ، لغزو بلاد الغال • وهناك كان ثيودوريك ابن آلاريك ، قد أصبح ملكا للقوط الغربيين بعد موت واليا Wallia • أما ايتيـوس الذى سبق له أن تحـالف مع الهون ، فقد حقق الآن تحالفا بين الرومان والقوط • وفى سنة ٤٥١ غزا أتيلا الغال وحاصر مدينة أورليان وخف أيتيوس وثيودوريك لانقاذها •

أتيلا يغزو بلاد الغال

يمكن أن تعزى السهولة التى توغل بها أتيلا فى قلب بلاد الغال الى سياسته الماكرة ، والى الذعر الذى سببته جيوشه ، فقد برع فى التخفيف من تصريحاته العلنية بما يعطيه من تأكيدات وضمانات خاصة ، وكان يهدىء الرومان والقوط تارة ويهددهم تارة أخرى . ولما كان بلاط رافنا وبلاط تولوز يرتاب كل منهما فى نوايا الآخر ، فقد كانا يرقبان اقتراب عدوهما المشترك فى خمول ودون اكتراث . وكان ايتيوس هو الحارس الوحيد لسلامة البلاد ، غير أن القصر الامبراطورى ابتلى منذ وفاة بلاكيديا بحزب عرقل أحكم الاجراءات التى اتخذها ، وكان شباب ايطاليا يرتعدون اذا سمعوا أبواق الحرب ، أما البرابرة الذين كانوا يميلون الى مناصرة أهداف أتيلا بدافع من الخوف أو الحب ، فقد انتظروا وقوع الحرب فى ايمان مذبذب مزعزع . وعبر النبيل الرومانى جبال الألب على رأس بعض الفرق التى لا تكاد قوتها وعددها تجعلها جديرة باسم جيش ولكن عند وصوله الى مدينة آرل أو ليون أزعجته الأخبار التى بلغته من أن القوط الغربيين رفضوا الدفاع عن بلاد الغال وقرروا لقاء الفاتح القوى ، الذى يصرحون بازدرائه ، فى أراضيهم الخاصة . فأوفد اليهم عضو السناتو أفيتوس ، الذى كان اذا ذاك معتزلا فى ضيعته بمدينة أوفرن بعد أن مارس فى شرف منصبا رفيعا كحاكم بريتورى . وقبل أفيتوس القيام بهذه المهمة الخطيرة ، وأداها بكفاية ونجاح . فصور لثيودوريك أن الفاتح الطموح الذى تطلع الى السيطرة على العالم لا يمكن أن يقاومه الا تحالف اجماعى قوى بين الدول التى يسعى الى اضطهادها وتضييق الخناق عليها . وقد ألهبت فصاحة أفيتوس المتقدة صدور محاربى القوط عندما وصف لهم الأضرار التى ألحقها الهون بأجدادهم ، وذكرهم بأن ثورة الهون الحقودة لا تزال تلاحقهم من الدانوب الى سفوح جبال البرانس . واستحثهم بشدة قائلا انه من واجب كل مسيحى أن ينقذ كنائس الله وعظام القديسين من أن تدنسها أقدام الهون ، وانه من مصلحة كل فرد من المتبربرين استوطن بلاد الغال أن يذود عن الحقول ومزارع الكروم التى زرعها لنفسه ضد الخراب المنتظر على يد الرعاة السكوذيين . وخضع ثيودوريك لدليل الحق . واتخذ على الفور أشرف الاجراءات وأكثرها حكمة وفطنة ، وأعلن أنه حليف أمين للرومان ولايتيوس ، وأنه على استعداد لبذل حياته ومملكته فى سبيل سلامة بلاد الغال التى يشتركون فيها جميعا . وكان القوط الغربيون اذ ذاك فى عنفوان قوتهم وذروة شهرتهم ، ولبوا فى نشاط وسرور دعوة القتال ،

فأعدوا أسلحتهم وخيولهم ، وتجمعوا تحت لواء مليكهم العجوز الذى عقد العزم مع أكبر أولاده ، توريسموند وثيودوريك ، أن يتولى بنفسه قيادة شعبه الشجاع كبير العدد • وحدد المثل الذى ضربه القوط موقف كثير من القبائل أو الأمم التى كان يبدو أنها تتأرجح بين الهون والرومان • واستطاع النبيل ايتيوس بمثابرته التى لا تكل أن يجمع بالتدريج قوات الغال والجرمان • وكانت تلك القوات من قبل تسلم بأنها رعايا الدولة أو جنودها ، ولكنها الآن تطالب بالمكافأة على التطوع بالخدمة ، وبوضع الحلفاء المستقلين • وهى قوات اللايتى ، والأرموريكان ، والبريون ، والسكسون ، وقبائل برجانديا وسرماشيا أو الألانى ، وقبائل ربيواريا ، والفرنجة الذين يتبعون ميروفيوس كملكهم الشرعى • وكان ذلك هو الجيش الخليط الذى قاده ايتيوس وثيودوريك ، وتقدم فى مسيرة سريعة لانقاذ مدينة أورليان ولخوض معركة ضد جحافل أتيلا •

وعند اقتراب الجيوش من مدينة أورليان رفع ملك الهون عنها الحصار فورا ، وأصدر أمره بالتقهقر لكى يستدعى مقدمة قواته التى كانت قد اقتحمت المدينة وأخذت تعمل فيها نهبا وسلبا • وكانت شجاعة أتيلا تسترشد بالحكمة والروية ، ولما امتد بصره الى النتائج المميتة التى قد تترتب على هزيمة فى قلب بلاد الغال ، اجتاز نهر السين ، وانتظر العدو فى سهول شالون التى يناسب سطحها اللين المنبسط حركات فرسانه السكوذيين • غير أن طلائع الرومان وحلفاءهم استغلت هذا التقهقر الصاخب المضطرب ، وواصلت الضغط على القوات التى وضعها أتيلا فى المؤخرة ، واشتبكت معها أحيانا • وفى ظلام الليل وتشعب الطرق كانت الفرق المعادية تتصادم عن غير قصد ، كما حدث بين الفرنجة وقوات الجبيداى Gipidae حيث قتل خمسة عشر ألفا من البرابرة ، وكان ذلك كله مقدمة لعمل حاسم عام • وتحيط حقول قطالونيا بمدينة شالون وتمتد حسب تقدير جورناندس التقريبى ، الى مسافة مائة وخمسين ميلا فى طولها ، ومائة ميل فى عرضها ، فتغطى كل أنحاء الاقليم المسمى باقليم شمبانيا • وكان هذا السهل الفسيح يتميز بعدم استواء الأرض فى بعض الجهات ، وكان هناك مرتفع من المرتفعات يتحكم فى معسكر أتيلا ، ومن ثم فقد أدرك القائدان أهميته وتنازعا السيطرة عليه • وتمكن القائد الشاب الشجاع توريسموند من احتلال قمته أولا ، واندفع القوط نحو الهون بثقلهم الذى لا يقاوم ، وجاهد الهون فى صعود السفح المضاد ، وكان احتلال هذا الموقع الملائم يبث فى كل من الجيشين وقوادهما اطمئنانا كبيرا الى النصر • ودفع القلق أتيلا الى استشارة كهنته وعرافيه • وقيل انهم بعد فحص أحشاء الذبائح وكشط عظامها ، أعلنوا فى لغة مبهمة أنه

سوف يهزم ، وأن خصمه الرئيسى سوف يلقى حتفه ، وقيل أيضا ان أتيلا ، بقبوله هذا المصير المتكافىء ، عبر كارها عن تقديره لتفوق وكفاية ايتيوس · غير أن اليأس غير العادى الذى كان يبدو أنه سيطر على الهون دفع أتيلا الى استخدام الوسيلة المألوفة لدى القادة القدامى ، وهى القاء خطاب عسكرى يبعث العزيمة والقوة فى نفوس قواته ، وكانت لغته لغة ملك طالما حارب وانتصر على رأس قواتـه · فحضهم على تذكر أمجادهـم السابقة ، والخطر المحدق بهم ، وآمال المستقبل التى تنتظرهـم · وقال لهم ان الحظ نفسه الذى فتح صـحراوات سكوذيا ومستنقعاتهـا أمام شجاعتهم المجردة من السلاح ، والذى ألقى كثيرا من الأمم المحاربة تحت أقدامهم ، هذا الحظ نفسه قد احتفظ لهم بأفراح ذلك الميدان المشهود ليتوج بها انتصاراتهم · وصور لهم فى دهاء أن حذر أعدائهم ، وتحالفهم الوطيد ، ومزية المراكز التى يحتلونها ، ما هى الا نتيجة الخوف دون الحكمة · واستطرد يقول ان القوط الغربيين هم وحدهم الذين يشكلون قـوة جيش العدو وعصبه ، وأكد لهم أن الهون فى مقدورهم أن يقهروا الرومان المنحلين الذين يدل تلاصق قواتهم على ما يساورهم من مخاوف ، والذين تعوزهم القدرة على تحمل أخطار ومتاعب معركة تدوم يوما واحدا · ثم حرص ملك الهون على أن يبث فيهم عقيدة القضـاء والقدر التى تقوى فضيلة الحرب والقتـال ، وأكد لهم أن المحاربين الذين ترعاهـم السماء وتحميهم ، سوف يكونون فى مأمن ومناعة وسط سهام العدو ، غير أن الالهات الثـلاث المعصومات من الخطأ واللاتى يتحكمن فى حيـاة البشر ومصائرهـم سوف يصبن ضحاياهن وان استكانوا الى سلام شـائن · وأضاف أتيلا قائلا :

« ولسوف أرمى بنفسى الرمح الأول ، أما ذلك المنكود الذى يأبى أن يحذو حذو مليكه فسوف يكون مصيره الى الموت المحقق » ، واشتعلت روح البرابرة بوجود قائدهم الجرىء ، وبسماع صوته ، وبالمثل الذى ضربه لهم ، واستجاب أتيلا للهفتهم على القتال ، وتأهب على الفور لخوض المعركة واحتل بنفسه المركز الوسط من خط القتال على رأس رجاله البواسـل المخلصين · وفوق المنطقة الواسعة التى تشغلها حقول قطالونيا ، وقفت القوات التابعة لامبراطوريته على امتداد الجناحين ، فكانت هناك قوات الروجيان والهريولى والثورينجيان والفرنجة وبرجانديا ، وتولى أرداريك ملك الجيداى قيادة الجناح الأيمن ، أما الأشقاء الثلاثة الشجعان الذين كانوا يحكمون القوط الشرقيين فقد تولوا قيادة الجناح الأيسر لمجابهة أقربائهم قبائل القوط الغربيين · أما تنظيم الحلفاء فقد سار وفق مبدأ مختلف · فوضع سانجيبان Sangiban ملك الألانى الخائن فى مركز

الوسط حيث يمكن مراقبة حركاته مراقبة دقيقة وحيث يمكن معاقبته على الفور اذا بدرت منه خيانة • وتولى ايتيوس قيادة الجناح الأيسر ، وتولى ثيودوريك قيادة الجناح الأيمن ، بينما ظل توريسموند مسيطرا على المرتفعات التى يبدو أنها كانت تمتد الى جناح الجيش السكوذى ، وربما الى مؤخرته • وهكذا اجتمعت كل الأمم من نهر الفولجا الى المحيط الأطلنطى فوق سهل شالون • غير أن كثيرا من هذه الأمم كانت تمزقها الحزبية ، والهجرات ، والغزو ، وكان وجود جيوش وأعلام متشابهة يهدد بعضها بعضا ، من الأشياء التى تعطى صورة لحرب أهلية •

ان النظام والتكتيك الحربى الذى كان يتبعه اليونان والرومان هو جزء ممتع من عاداتهم القومية • والدراسة الواعية للعمليات الحربية التى قام بها زينوفون ، أو قيصر ، أو فردريك ، كما يصفها هؤلاء العباقرة أنفسهم ، وهم الذين وضعوا خططها ونفذوها ، هذه الدراسة قد ترقى بفن ابادة الجنس البشرى (اذا كان هذا الترقى أمرا مرغوبا فيه) • غير أن معركة شالون (١) لا تثير العجب فينا الا بجسامة ما حدث فيها • فقد كان التهور الأعمى الذى اتسم به البرابرة هو الذى حددها ، كما أن قصتها انما وردت على لسان كتاب متحيزين حجبتهم مهنتهم المدنية أو الدينية عن الالمام بالشئون الحربية • ومع ذلك ، فان كاسيودورس قد تحدث فى ألفة مع كثير من محاربى القوط الذين اشتركوا فى تلك المعركة المشهودة ، وقد أخبروه « أنها كانت صداما وحشيا ، عنيدا ، دمويا ، متعدد الأشكال ، لا نظير له فى العصور الحاضرة أو الماضية » • وقد بلغ عدد القتلى مائة ألف وستة وستين ألفا ، وفى رواية أخرى ثلاثمائة ألف • وهذه المبالغات التى لا تصدق تدل على أن الخسارة كانت جسيمة فعلا ، وأنها تكفى لتبرير الملاحظة التى أبداها أحد المؤرخين أن أجيالا باكملها يمكن أن تفنى وتزول فى غضون ساعة واحدة نتيجة لجنون بعض الملوك • وبعد أن تبادل العدوان مرارا اطلاق القذائف ، وأظهر رماة السهام من السكوذيين مهارة تفوق مهارة أعدائهم ، التحم فرسان الجيشين ومشاتهم التحاما عنيفا فى قتال مرير متلاصق • وكان الهون يقاتلون تحت نظر مليكهم فاخترقوا مركز الحلفاء الضعيف المزعزع،وفصلوا ما بين جناحيهم، ثم استداروا الى اليسار بحركة سريعة ووجهوا كل قوتهم ضد القوط الغربيين • وبينما كان ثيودوريك يسلك طريقه على جواده وسط الصفوف

---

(١) اخطأ جيبون وآخرون من بعده فى تسمية المكان الذى هزم فيه أتيلا باسم شالون • وقد استقر الرأى الآن على أن هذه المعركة حدثت فى سهل موريكا •

لتقوية عزيمة قواته ، أصيب اصابة قاتلة بسهم رماه به نبيل من القوط الشرقيين اسمه انداجيس ، وسقط على الفور من فوق ظهر جواده • وفي هذا الارتباك والاختلال الشامل وقع الملك الجريح تحت أقدام فرسانه وزهقت روحه تحت سنابك الخيول • وكان هذا الموت الخطير تفسيرا للنبوءة المبهمة التى تنبأ بها العرافون • وابتهج أتيلا لوثوقه من النصر : غير أن توريسموند الشجاع اندفع نازلا من فوق التلال ، وحقق بقية النبوءة • ذلك أن القوط الغربيين ، الذين ارتبكت صفوفهم نتيجة لفرار قوات الألانى أو عجزها ، أعادوا بالتدريج تنسيق أنفسهم لخوض المعركة ، وهزموا الهون هزيمة حاسمة ، مما اضطر أتيلا الى التقهقر • وكان أتيلا قد عرض شخصه فى تهور الجندى العادى ، غير أن قوات الوسط الباسلة اندفعت الى الأمام أكثر من بقية الصفوف ، ولم يلق هجومها الا سندا ضعيفا ، كما أن الجناحين كانا بغير حماية ، ولم ينقذ غزاة الألمان والسكوذيين من الهزيمة الساحقة الا اقتراب الليل • وانسحبت هذه القوات الى داخل دائرة العربات التى كانت تحصن معسكرهم وتأهبت الفصائل التى نزلت عن خيولها للدفاع عن أنفسها دفاعا لم تكن أسلحتها ولا طباعها مهيأة له • وأصبحت النتيجة موضع الشك ، غير أن أتيلا لجأ الى وسيلة أخيرة شريفة ، فأمر بجمع سروج الخيل ورياشها الثمينة فى كومة جنائزية،وقرر المتبربر عزيز النفس،اذا اخترق العدو متاريسه، أن يحرق تلك الكومة ويلقى بنفسه فى اللهب ، وبذلك يحرم أعداءه من المجد الذى كان يمكن أن يحصلوا عليه بقتله أو أسره •

غير أن أعداءه قضوا الليل فى مثل ذلك الارتباك والقلق ، وأغرت توريسموند شجاعته المتهورة على المضى فى المطاردة حتى وجد نفسه فجأة ، مع قلة من أصدقائه ، وسط عربات السكوذيين • وحدث قتال ليلى مضطرب وقع فى أثنائه من فوق ظهر جواده ، وكان لابد أن يهلك الأمير القوطى كما هلك والده لولا أن قوة شبابه وجرأة رفاقه وحماسهم أنقذته من ذلك المركز الخطير • وعلى النحو نفسه ، ولكن على خط القتال الأيسر، كان ايتيوس معزولا عن حلفائه ، ولا يعلم شيئا عن انتصارهم ، ويساوره القلق على مصيرهم ، فتقابل مع القوات المعادية المنتشرة فوق سهول شالون ، ولكنه أفلت منها ، وبلغ أخيرا معسكر القوط الذى لم يستطع تحصينه الا بحاجز ضعيف من المتاريس حتى مطلع النهار • وسرعان ما أيقن القائد الامبراطورى بهزيمة أتيلا ، الذى كان لا يزال عديم الحركة داخل استحكاماته • وعندما استعرض المشهد الدموى ، لاحظ فى سرور خفى أن البرابرة هم الذين لحقت بهم الخسارة الرئيسية • ثم اكتشفت جثة ثيودوريك ، وهى مثخنة بالجروح الكريمة ، تحت كومة من القتلى ،

فناح الرجال على موت مليكهم ووالدهم ، غير أن عبراتهم اختلطت بالأناشيد والتهاليل ، وأدوا شعائر الدفن أمام عدوهم المقهور ، ووسط صليل الأسلحة رفعوا ابنه الأكبر توريسموند فوق ترس من تروسهم ، ونسبوا اليه الفضل الذى يستحقه فيما نالوه من مجد الظفر والنجاح • وقبل الملك الجديد أن يلتزم بالانتقام لموت والده كجزء مقدس من الميراث الذى ورثه عنه • غير أن القوط أنفسهم أدهشهم ما كان يبدو على عدوهم القوى من شراسة وعناد وقال مؤرخهم ان أتيلا كان أشبه بأسد رابض فى عرينه يهدد صياديه بهياج مضاعف • أما الأمم والملوك الذين كان يمكن أن يتخلوا عنه فى ساعة المحنة ، فقد شعروا بأن غضب مليكهم هو أكثر الأخطار قربا وحتمية • وظلت كل آلات موسيقاه العسكرية تدوى بأنغام صاخبة حماسية يتمثل فيها العزم والتحدى ، وعندما تقدمت القوات الأمامية لمهاجمته أمطرتها قواته من كل جانب من جوانب استحكاماتها بوابل من السهام أهلكتها أو أوقفتها • ولهذا تقرر فى مجلس حربى عام أن يحاصر ملك الهون فى معسكره ، وأن تقطع عنه المؤن ، حتى يضطر الى قبول معاهدة مذلة أو قتال غير متكافىء • غير أن تلهف البرابرة سرعان ما ازدرى هذه الاجراءات البطيئة الحريصة ، كما أن نضج سياسة ايتيوس جعلته يخشى أن تخضع الدولة لصلف الأمة القوطية وقوتها ، بعد القضاء على الهون • واستخدم النبيل الرومانى سلطته العليا وفكره الثاقب فى تهدئة انفعالات الغضب التى كان ثيودوريك يعتبرها واجبا ، وصور له فى ود مفتعل وصدق حقيقى ما يترتب على غيابه وتأخره من أخطار ، وأغرى توريسموند على أن يحبط ، بعودته السريعة ، خطط أشقائه الطموحة التى قد تهدف الى الاستيلاء على عرش تولوز وخزائنه • وبعد رحيل القوط وانفصال الجيش المتحالف أذهل أتيلا ذلك السكون الهائل الذى ساد سهول شالون ، وساوره الشك فى أن العدو يعد له خطة عدوانية ، وترتب على ذلك أنه قبع عدة أيام داخل نطاق عرباته ، ثم تقهقر الى ما وراء الراين ، وكان ذلك اعترافا بأن الامبراطورية الغربية قد تحقق لها النصر الأخير • وسار ميروفيوس وقواته من الفرنجة ، فى أثر العدو مع حرصهم على التخلف عنه مسافة معقولة ، واعطائه فكرة ضخمة عن قوتهم بما كانوا يشعلون من نيران كثيرة أثناء الليل ، وظلوا يتبعونه حتى وصلوا الى حدود ثورينجيا • وكانت قوات ثورينجيا تعمل فى جيش أتيلا ، وعبرت فى تقدمها وعودتها أراضى الفرنجة ، وربما أنها فى هذه الحرب بالذات مارست أعمال القسوة التى انتقم لها ابن كلوفيس Clovis بعد انقضاء ثمانين سنة • فقد ذبح رجالها رهائنهم وأسراهم ، وعذبوا مائتين من العذارى الصغيرات فى ثورة عارمة لا ترحم ولا تلين ، ومزقت أجسادهن الخيول الجامحة ، أو سحقت عظامهن تحت عجلات العربات

الثقيلة ، وتركت أطرافهن على الطرقات العامة فريسة للكلاب والنسور . هكذا كان أجدادنا الهمج المتوحشون الذين تثير فضائلهم الخيالية فى بعض الأحيان اطراء الأجيال المتحضرة وحسدها !! .

غزو ايطاليا

لم يترتب على فشل حملة أتيلا على بلاد الغال اضعاف روحه أو قواته أو سمعته . ففى الربيع التالى عاود طلب يد الأميرة أونوريا وما ورثته من أموال ، وللمرة الثانية قوبل طلبه بالرفض أو المراوغة ، فما كان من ذلك العاشق الساخط الا أن يبادر على الفور الى القتال ، فعبر جبال الألب ، وغزا ايطاليا ، وحاصر أكويليا بجيش ضخم من البرابرة . وكان هؤلاء البرابرة يفتقرون الى المهارة فى أساليب تنفيذ حصار منظم ، لأن الحصار ، حتى بين القدامى ، كان يتطلب بعض الالمام بالفنون الميكانيكية ، أو على الأقل بعض التمرين عليها . غير أن أتيلا استطاع أن يستخدم فى تنفيذ أشق الأعمال وأخطرها آلافا كثيرة من الأسرى وسكان الأقاليم الذين كان يضحى بأرواحهم دون شفقة أو رحمة ، ومن ثم فقد استغل مهارة الصناع الرومان فى تدمير بلادهم ، واستخدم فى مهاجمة أسوار أكويليا عددا كبيرا من معدات الهدم ، والأبراج المتحركة ، وآلات قذف الأحجار والسهام والنار (١) ، ولجأ ملك الهون أيضا الى استخدام الدوافع القوية ، دوافع الأمل والخوف والمنافسة والمصلحة ، لتحطيم الحاجز الوحيد الذى كان يعترض سبيل غزو ايطاليا . وكانت مدينة أكويليا فى ذلك الوقت من أغنى المدن البحرية على شاطىء الأدرياتيك ، ومن أكثرها سكانا وأعظمها قوة . وكانت فيها قوات مساعدة من القوط الذين يبدو أنهم عملوا من قبل تحت قيادة ملكين من أبناء جلدتهم ، وهما ألاريك وأنتالا ، وبعثت هذه القوات فى المدينة روحها الجريئة الباسلة ، وكان مواطنو المدينة لا يزالون يذكرون المقاومة المجيدة الظافرة التى أبداها أجدادهم فى وجه بربرى وحشى عنيد ألحق العار بجلال العرش الرومانى . وانقضى على حصار أكويليا ثلاثة شهور دون أن يحقق هدفا ، حتى اضطر أتيلا بعد نضوب مؤنه وتذمر قواته الى التخلى عن مغامرته ، فأصدر أوامره الى

---

(١) فى القرن الثالث عشر هاجم المغول أسوار مدن الصين بآلات كبيرة من صنع المسلمين والمسيحيين الذين كانوا فى خدمتهم . وكانت تلك الآلات تقذف أحجارا تزن ما بين ١٥٠ ، ٣٠٠ رطل . واستخدم الصينيون فى الدفاع عن بلادهم البارود ، والقنابل قبل أن تعرفها أوربا بأكثر من مائة سنة . غير أنه حتى تلك الأسلحة السماوية أو الجهنمية لم تكف لحماية أمة هيابة .

قواته كارها بأن تحل خيامها فى صباح اليوم التالى وتبدأ تقهقرها • ولكنه بينما كان يسير حول الأسوار على ظهر جواده ، وقد تملكه الغضب واليأس وانهمك فى التفكير ، شاهد طيرا من طيور اللقلق يتأهب لمغادرة عشه فى أحد الأبراج وللطيران مع صغاره الى الريف • فأمسك ، فى نفاذ بصيرة الرجل السياسى ، بتلك الواقعة التافهة التى قدمتها الصدفة لرجل يؤمن بالخرافات ، وقال فى صوت مرتفع طروب ان مثل ذلك الطير الأليف لا يمكن أن يتخلى عن مستقره القديم الا اذا كانت تلك الأبراج صائرة فى وقت قريب الى الخراب والعزلة • وبعث فيه هذا الفأل الحسن ثقة بالنصر ، فعاود حصار المدينة بهمة جديدة ، واستطاع أن يفتح ثغرة كبيرة فى ذلك الجزء من السور الذى طار منه اللقلق • واندفع الهون الى الهجوم فى ثورة عارمة لا تقاوم ، وحطموا المدينة تحطيما جعل من المتعذر على الجيل التالى أن يكشف أطلال أكويليا وخرائبها • وبعد ذلك العقاب الرهيب مضى أتيلا فى تقدمه ، مارا بمدائن التينوم وكونكورديا وبادوا ، وحولها جميعا الى كومات من الأحجار والرماد • وكذلك تعرضت المدن الداخلية ، فيشنزا ، وفيرونا وبرجامو لأعمال القسوة والنهب التى قام بها الهون • أما ميلان وبافيا ، فقد خضعتا دون مقاومة لخسارة ثروتهما ، وهللتا للشفقة غير العادية التى عاملهما بها العدو ، والتى أنقذت المبانى العامة والخاصة فى المدينة من الحريق ، وأبقت على حياة جماهير الأسرى • ولسنا نشق كثيرا فيما تناقلته الألسن عما جرى لمدينة كوموم أو ترويين أو مودينا، غير أن تلك الشائعات تتفق مع أدلة أكثر دقة ، وتثبت جميعها أن أتيلا اجتاح سهول لمبارديا الحديثة الغنية التى يشطرها نهر البو ، وتحدها جبال الألب والأبنين • وعندما استولى على القصر الملكى فى ميلان استشعر الدهشة والاساءة عندما رأى صورة تمثل القياصرة جلوسا على عروشهم ، والملوك السكوذيين منبطحين تحت أقدامهم • وقد صب أتيلا على ذلك الأثر الذى يمثل الغرور الرومانى انتقاما بريئا بارعا • ذلك أنه أمر أحد الرسامين أن يعكس الأشكال والأوضاع ، فرسم الأباطرة على جسم الصورة نفسها وهم يتقدمون فى وضع التوسل والتضرع لافراغ أكياس ذهب الجزية المفروضة عليهم أمام عرش العاهل السكوذى • ولابد أن من شاهدوا تلك الصورة قد اعترفوا بصدق ذلك التغير ومناسبته للواقع، وبما أغرتهم أن يطبقوا عليها فى تلك المناسبة الفريدة القصة الخرافية المعروفة ، قصة النزاع بين الأسد والانسان •

تأسيس فينسيا (البندقية)

هناك قول مأثور يتناسب مع ما اتصف به أتيلا من صلف وحشى ، وهو أن الأرض التى وطئها جواده ، لم ينبت فيها بعد ذلك عشب • غير

أن المدمر الهمجي وضع دون أن يقصد ، أساس جمهورية أحيت فى عصر الاقطاع الأوروبى فن الصناعة التجارية وروحها • وكان الاسم الشهير ، فينيسيا يطلق فيما مضى ، على ولاية كبيرة خصبة من ولايات ايطاليا ، تمتد من حدود بونونيا الى نهر أدوا ، ومن نهر البو الى جبال الألب الريشيانية والجوليانية • وقبل غارات البرابرة ازدهرت خمسون مدينة فينيسية ، وكان يسودها السلام والرخاء ، واحتلت أكويليا أبرز مكان بينها ، غير أن المجد القديم الذى كان لمدينة بادوا كان قائما على الزراعة والصناعة ، وامتلك خمسمائة مواطن فيها ، من طبقة الفرسان ، أملاكا تبلغ قيمتها فى أدق التقديرات مليونا وسبعمائة ألف من الجنيهات • وكثير من أسرات أكويليا ، وبادوا ، والمدن المجاورة ، وهى الأسرات التى فرت من سيوف الهون ، وجدت ملاذا آمنا ، وان كان مغمورا ، فى الجزر المجاورة (١) • وفى طرف الخليج ، حيث تبدو أمواج المد والجزر فى بحر الأدرياتيك صورة ضعيفة للمد والجزر المحيطى ، ويوجد ما يقرب من مائة جزيرة صغيرة تفصلها عن القارة مياه ضحلة ، وتحميها من الأمواج عدة ألسنة من الأرض تسمح بدخول السفن فى بعض القنوات الضيقة غير المعروفة • وحتى منتصف القرن الخامس ظلت هذه البقاع النائية المنعزلة دون زراعة ، وقليلة السكان ، ويكاد لا يكون لها اسم • غير أن اللاجئين البنادقة كونوا لأنفسهم شيئا فشيئا عادات وفنونا وحكومة بفضل وضعهم الجديد • وقد وصف كاسيودوروس حالة هؤلاء القوم بعد ذلك بسبعين سنة فى رسالة يمكن اعتبارها أول وثيقة عن الجمهورية ويشبههم وزير ثيودوريك فى هذه الرسالة ، وبأسلوبه الحماسى الطريف ، بطيور الماء التى بنت أعشاشها على صدر الأمواج • ومع أنه يسلم بأن ولايات البندقية كانت فيما مضى تشتمل على كثير من الأسر النبيلة ، الا أنه يلمح الى أنهم الآن قد انحدروا بفعل المحن والكوارث الى مستوى الفاقة الوضيعة • وكان السمك هو الغذاء المشترك لكل طبقة ، ويكاد يكون غذاء عاما : وكان الملح الوفير الذى يستخرجونه من البحر هو مورد ثرائهم الوحيد ، اذ كانوا يبادلون تلك السلعة الجوهرية للحياة البشرية بعملة الذهب والفضة • ونظرا لأن ذلك الشعب كان يقطن الأرض أو الماء سواء بسواء ، فسرعان ما ألف هذا العنصر وذاك ، وبدأ يستجيب لمطالب الجشع بعد أن كان قانعا باشباع مطالب الحاجة • وكان سكان الجزر هؤلاء ، من جزيرة

---

(١) الثابت الآن أن البندقية نشأت خلال الغزوات المتأخرة التى قام بها اللمبارد • ومع ذلك فانه مما لا شك فيه أن بعض الناس هربوا من أتيلا ولجأوا الى اقليم المستنقعات ومن ثم فان وصف جيبون يمكن أن يكون مقبولا ، بهذا التحفظ •

جرادو Grado الى جزيرة كيوزا ، على صلة وثيقة بعضهم ببعض ، وتوغلوا فى قلب ايطاليا ، عن طريق الملاحة النهرية وفى القنوات الداخلية وهو طريق مأمون وان كان شاقا ، وازدادت سفنهم عددا وحجما ، وزارت كل موانى الخليج ، وتكونت لديهم منذ عهدهم الأول عادة التزاوج بين البندقية والبحر ، وهى العادة التى تحتفل بها المدينة سنويا • أما رسالة كاسيودوروس ، الوالى البريتورى ، سابقة الذكر ، فهى موجهة الى المدافعين عن حقوق الشعب Tribunes فى الأقاليم الساحلية يحضهم فيها بلهجة السلطة الرقيقة على تقوية حماس مواطنيهم للخدمة العامة التى كانت فى حاجة الى معونتهم فى نقل كميات النبيذ والزيت من ولاية أستريا الى مدينة رافنا الملكية • وكان المنصب المبهم الذى يشغله هؤلاء الحكام منصبا جرت عليه التقاليد ، ففى الجزر الاثنتى عشرة الرئيسية كان التربيونات أو القضاة ، الاثنا عشر ، ينتخبون سنويا انتخابا شعبيا• ووجود جمهورية البندقية تحت حكم مملكة القوط الايطالية انما يثبته نفس السجل الصادق الذى يدحض ادعاءها المتشامخ من أنها كانت تحظى باستقلال أصيل دائم •

وبعد أربعين سنة من السلم فوجىء الايطاليون الذين انقضى عليهم زمن طويل تخلوا فيه عن ممارسة القتال ، باقتراب بربرى قوى مخيف كانوا يمقتونه كعدو لدينهم ولجمهوريتهم • وفى وسط هذا الفزع الشامل كان ايتيوس وحده هو الذى لم يتملكه الخوف ، غير أنه كان من المستحيل عليه أن يحقق بمفرده ودون مساعدة أية مآثر عسكرية جديرة بشهرته السابقة • فقد رفض البرابرة ، الذين سبق لهم الدفاع عن بلاد الغال ، أن يبادروا الى انقاذ ايطاليا ، كما أن النجدات التى وعد بها الامبراطور الشرقى كانت بعيدة ومشكوكا فيها • وبما أن ايتيوس ، على رأس قواته الوطنية ، كان لا يزال صامدا فى الميدان ، يناوش أتيلا ويؤخر تقدمه ، فانه لم يظهر بمظهر العظمة الحقيقية فى أى وقت مضى أكثر من هذا الوقت الذى كان مسلكه فيه موضع التأنيب من شعب جاهل جاحد للجميل • ولو أن عقل فالنتينيان كان قابلا للتأثر بأية أحاسيس كريمة ، لاختار مثل هذا القائد مثلا يحذو حذوه ومرشدا يسترشد به ، غير أن حفيد ثيودوسيوس الوجل الهياب ، بدلا من المشاركة فى الأخطار ، فر من صوت الحرب ، وكشف انسحابه السريع من رافنا الى روما ، من حصن منيع الى عاصمة مكشوفة ، عن أنه قد بيت النية على مغادرة ايطاليا بمجرد اقتراب الخطر من شخصه الامبراطورى ، غير أن هذا الاعتزال الشائن توقف بفضل روح الشك والتوانى التى تلازم عادة الآراء المتسمة بالجبن والتردد ، بل وتصحح اتجاهاتها الضارة فى بعض الأحيان • واتخذ

امبراطور الغرب مع مجلس السناتو وشعب روما قرارا أكثر نفعا وأعظم جدوى ، وهو ارسال وفد رسمي يسترحم أتيلا ويهدىء من غضبه · وقبل أفيتوس أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة · وكان هذا الرجل يحتل أرفع مكانة فى مجلس السناتو الرومانى بفضل عراقة منبته وثرائه ، ووقار منصبه القنصلى وقدراته الشخصية ، وكثرة عدد أتباعه · وكان أفيتوس حسن الطلعة واسع الحيلة ، ومن ثم فقد كان جديرا بالتفاوض على مصلحة عامة أو خاصة · ورافقه فى هذه المهمة زميله تريجيتيوس Trigetius الذى مارس أعمال الوالى الأول البريتورى لايطاليا ، وقبل ليو ، أسقف روما ، أن يعرض حياته للخطر فى سبيل سلامة رعيته ، وقد ظهرت عبقرية هذا الأسقف فى أوقات المحن العامة ، واستحق أن يسمى باسم « العظيم » بفضل تلك الغيرة الناجحة التى جاهد بها فى اقرار آرائه وتوكيد سلطته باسم العقيدة الأرثوذكسية والنظام الكنسى · ومثل سفراء الرومان أمام أتيلا فى خيمته ، وكان اذ ذاك معسكرا فى المكان الذى يتصل فيه نهر منكيوس البطىء المتعرج بأمواج بحيرة بيناكوس المرغية المزبدة ، حيث داس فرسانه السكوذيون مزارع كاتوللوس وفرجيل · واستمع العاهل المتبربر الى الوفد الرومانى بانتباه مشجع ، بل وفى شىء من الاحترام ، واستطاع الوفد أن يشترى انقاذ ايطاليا بفدية ضخمة هى أن يزوجوه من الأميرة أونوريا · وسهلت حالة جيش أتيلا عقد المعاهدة والاسراع بالتقهقر · ذلك أن الثراء الذى حققه الجنود والكسل الذى بعثه فيهم مناخ ايطاليا الدفىء كانا سببا فى هبوط روحهم العسكرية · فرعاة الشمال ، الذى كان غذاؤهم العادى يتألف من اللبن واللحم النيىء انغمسوا دون حدود فى شرب النبيذ وأكل الخبز واللحوم المطهوة المتبلة ، فسرت بينهم الأمراض وانتقمت الى حد ما للأضرار التى ألحقوها بالايطاليين · وعندما أعلن أتيلا عن عزمه على توجيه جيوشه الظافرة الى أبواب روما ، حذره أصدقاؤه وأعداؤه سواء بسواء من مغبة هذا العمل قائلين ان ألاريك من قبله لم يعمر طويلا بعد غزوه للمدينة الخالدة · ورغم أن عقله كان فوق مستوى الأخطار الحقيقية ولا يأبه لها ، الا أن المخاوف الخيالية هاجمته ، ولم يستطع التخلص من تأثير الخرافات التى كثيرا ما كانت فى خدمة خططه وأعماله · وكان لفصاحة الأسقف المؤثرة ، وطلعته المهيبة ، وأرديته الكهنوتية ، أثرها فى بعث الاحترام والاجلال فى نفس أتيلا نحو الأب الروحى للمسيحيين · ومن الأساطير الدينية النبيلة التى تناقلتها الألسن أن شبحى القديس بطرس والقديس بولس ظهرا للقائد البربرى وهدداه بالموت السريع اذا رفض رجاء خليفتهما أسقف روما · ولا شك فى أن سلامة روما تستحق توسط المخلوقات السماوية ، ولابد لنا من بعض

التجاوز عن هذه الأسطورة التى صورها رفائيل بريشته ونحتها ألجاردى بأزميله ٠

موت أتيلا ودمار امبراطوريته

وقبل أن يجلو ملك الهون عن ايطاليا هدد بأن يعود اليها بصورة أشد هولا وقسوة اذا لم تسلم الأميرة أونوريا الى سفرائه فى حدود الفترة المتفق عليها فى المعاهدة ٠ وخفف أتيلا من قلقه العاطفى بأن أضاف الى قائمة زوجاته فتاة جميلة اسمها الديكو ، واحتفل بزواجهما وسط مظاهر العظمة والأفراح البربرية فى قصره الخشبى فيما وراء الدانوب ٠ وتغلب الخمر والنوم على الملك فانسحب من الوليمة فى وقت متأخر الى فراش الزوجية ٠ وظل أتباعه يحترمون ملذاته ، أى راحته ، طوال الجزء الأكبر من اليوم التالى ، حتى أثار الصمت غير العادى مخاوفهم وشكوكهم ٠ وبعد أن حاولوا دون جدوى ايقاظ أتيلا بالصيحات العالية المتكررة ، اقتحموا المخدع الملكى ، هناك وجدوا العروس الواجفة جالسة الى جوار الفراش ، وقد أخفت وجهها بنقابها ، وهى ترثى للخطر المحيق بها وتندب موت الملك الذى وافته المنية خلال الليل ٠ ذلك أن أحد شرايينه قد انفجر فجأة ، وبما أنه كان مستلقيا على ظهره ، فقد اختنق بفعل نزيف الدم الذى لم يستطع النفاذ من خياشيمه واندفع الى رئتيه ومعدته ٠ وقد عرض جثمانه بصورة مهيبة وسط السهل تحت مظلة حريرية ، وأخذت الكتائب المختارة من الهون تدور حوله دورات منتظمة وهى تنشد نشيدا جنائزيا لذكرى البطل ، الذى كان عظيما فى حياته منيعا فى موته ، والدا لشعبه ، نقمة على أعدائه ، ومصدر فزع للعالم كله ٠ وتمشى البرابرة مع عاداتهم الوطنية فقطعوا أجزاء من شعورهم وجرحوا وجوههم بجراح قبيحة المنظر ، وانتحبوا على زعيمهم الشجاع نحيبا يستحقه ، لا بدموع النساء ، بل بدماء المحاربين ٠ ووضعت رفات أتيلا داخل ثلاثة توابيت ، من الذهب ، ومن الفضة ، ومن الحديد ، ثم دفنت أثناء الليل سرا ، وألقيت فى قبره أسلاب الشعوب التى قهرها ٠ أما الأسرى الذين حفروا أرض القبر فقد ذبحوا بصورة وحشية ، وبدأ رجال الهون أنفسهم ، الذين غرقوا فى مثل ذلك الحزن الشديد ، يأكلون ويشربون ويستمتعون بصورة منحلة مسفة حول قبر مليكهم الذى مات لتوه ٠ وقيل فى القسطنطينية انه فى الليلة السعيدة التى مات فيها أتيلا ٠ شاهد الامبراطور مارشيان فى حلمه قوس أتيلا محطما ، وقد تدل هذه الرواية على أن خيال ذلك البربرى الرهيب قلما كان يفارق عقل امبراطور الرومان ٠

وأكدت الثورة التى قوضت امبراطورية الهون بعد موت أتيلا شهرة ذلك الرجل ، لأن عبقريته وحدها هى التى كانت دعامة ذلك الكيان المفكك الضخم • وبعد موته تطلع أجرأ زعماء القبائل الى منصب الملوك ، وأبى أقوى الملوك أن يعترفوا بشخص يفوقهم مركزا ، أما الأبناء الكثيرون الذين أنجبهم الملك الراحل من مختلف الأمهات ، فقد انقسموا على أنفسهم وتنازعوا السيادة والسيطرة على شعوب ألمانيا وسكوذيا كما لو كانوا يتنازعون ارثا خاصا • وأحس أرداريك الشجاع بعار ذلك الانقسام المزرى ، وتجلت له صورته ، ومن ثم فان رعاياه من قبائل الجبيدى المحاربة ، والقوط الشرقيين ، تحت قيادة ثلاثة أشقاء شجعان ، استحثوا حلفاءهم على تأييد حقوق الحرية والملكية • وحدث صدام دموى حاسم على ضفاف نهر نيتاد Netad فى اقليم بانونيا ، تقابلت فيه ، أو تكاتفت ، رماح الجبيدى ، وسيوف القوط ، وسهام الهون ، ومشاة قبائل السويفى، والأسلحة الخفيفة التى استخدمتها قبائل الهريولى ، والأسلحة الثقيلة التى جاءت بها قبائل الألانى • واقترن انتصار أرداريك بمقتل ثلاثين ألفا من أعدائه • وفقد الاك Ellac ، أكبر أبناء أتيلا ، حياته وتاجه فى معركة نيتاد المشهودة • وكانت شجاعته البارعة قد رفعته الى عرش قبيلة أكتزير Actazires ، وهى شعب سكوذى كان قد أخضعه ، ولا شك فى أن والده ، الذى أحب ما اتصف به ابنه من صفات سامية ، كان يغبطه على موته ، لو أنه كان حيا • أما أخوه دنجيزيش Dengizich مع جيش من الهون كان لا يزال قويا فى القتال والتدمير ، فقد احتفظ بمواقعه أكثر من خمسة عشر عاما على ضفاف الدانوب • أما قصر أتيلا وبلاد داكيا القديمة ، من جبال الكربات الى البحر الأسود ، فقد أصبحت مركز دولة جديدة أقامها أرداريك ، ملك الجبيدى • واحتل القوط الشرقيون بلاد بانونيا المقهورة من فينا الى سرميوم ، ووزعت الأرض فى غير نظام على القبائل التى حافظت على حريتها الوطنية بمثل تلك الشجاعة، حسب قوة كل منها • أما مملكة دنجيزيش فقد أحاط بها وضيق عليها عدد كبير من عبيد والده ، ولهذا انحصرت فى دائرة عرباته ، ودفعته شجاعته اليائسة الى غزو الامبراطورية الشرقية ، ولكنه قتل فى المعركة وعرضت رأسه بصورة شائنة فى حلبة السباق ، فكانت مشهدا مرضيا لشعب القسطنطينية • وكان أتيلا يعتقد عن رغبة أو عن ايمان بالخرافات، أن ارناك ، أصغر أولاده ، هو الذى قدر له أن يديم أمجاد بنى جنسه • وكانت أخلاق ذلك الأمير ، الذى حاول التخفيف من تهور أخيه دنجيزيش ، أكثر ملاءمة لحالة التدهور التى بلغها الهون ، ولهذا انسحب ارناك مع القبائل التابعة له ، الى قلب اقليم سكوذيا الصغرى • وسرعان ما طغى

عليهم هناك سيل من البرابرة الجدد الذين سلكوا نفس الطريق الذى اكتشفه أجدادهم من قبل • هؤلاء هم قبائل الجيوجن ، أو الآفار ، التى تقطن شواطىء المحيط ، حسبما يقول كتاب الاغريق ، والتى تغلبت على القبائل المجاورة • وأخيرا جاءت قبائل الايجور الشمالية من أقاليم سيبيريا الباردة التى تنتج أجود أنواع الفراء وانتشرت فوق أرجاء الصحراء حتى مداخل بوريستنيز وقزوين ، وقضت فى نهاية الأمر على امبراطورية الهون •

قتل ايتيوس وموت فالنتينيان الثالث

كان يمكن لمثل هذا الحدث أن يسهم فى سلامة الامبراطورية الشرقية تحت حكم ملك استطاع اكتساب صداقة البرابرة دون أن يفقد تقديرهم • غير أن الامبراطور فالنتينيان امبراطور الغرب الضعيف المنحل ، الذى بلغ الخامسة والثلاثين دون أن يصل الى سن التعقل أو الشجاعة ، أساء استغلال هذا الأمان الواضح ، وقوض أسس عرشه بقتل النبيل ايتيوس • وكان الامبراطور ، بدافع غريزى من الحقارة والحقد ، يكره ذلك الرجل الذى اشتهر بين الجميع كمصدر فزع للبرابرة وسند للدولة ، كما أن الخصى المقرب له ، هرقليوس ، أيقظ الامبراطور من حالة الخمول والعجز التى كان يمكن اخفاؤها عندما كانت أمه بلاكيديا على قيد الحياة (١) ، والتى كان يبررها بمراعاة التزامه البنوى نحوها • ولم يكن ايتيوس مجرد فرد من الرعية ، بل ارتفع الى مرتبة أسمى من ذلك ، بفضل شهرته ، وثرائه ومكانته ، وبفضل ذلك العدد الكبير من أتباعه البرابرة العسكريين ، ومواليه الأقوياء الذين شغلوا المناصب المدنية فى الدولة ، وبفضل آمال ابنه جودنتيوس الذى كان مخطوبا ليودوكسيا ، ابنة الامبراطور • وأثارت خططه الطموحة ، التى اتهم بها سرا ، مخاوف الامبراطور وسخطه • ويبدو أن ايتيوس نفسه كان يسلك سلوك التعالى والرعونة لشعوره بقدره ، وبخدماته ، وربما لشعوره بأنه برىء مما يقال عنه ، وقد أساء النبيل الى مليكه بتصريح عدائى ، ضخم الاساءة بأن أجبر

---

(١) ماتت بلاكيديا فى روما فى ٢٧ نوفمبر سنة ٤٥٠م • ودفنت فى مدينة رافنا حيث ظل ضريحا قائما عصورا طويلة ، وفى داخله جثمانها جالسا على مقعد من خشب السرو وقد كانت بلاكيديا موضع الكثير من اطراء رجال الدين أصحاب المذهب الصحيح • وقد أكد لها القديس بطرس كريسولوجوس أن غيرتها على عقيدة التثليث قد كوفئت عليها بثلاثة أطفال عظام •

الامبراطور على اقرار معاهدة توفيق وتحالف بقسم رسمى • وكذلك كان يصرح بشكوكه ويهمل فى الحفاظ على سلامته ، ودفعته ثقته الباطلة فى أن العدو الذى يحتقره لا يستطيع حتى أن يرتكب جرما متسما بالرجولة ، الى المغامرة بدخول القصر الامبراطورى فى روما ، وكان ذلك تهورا من جانبه • وبينما كان يتعجل زواج ابنه فى حماس مشوب بشيء من التطرف ، استل الامبراطور سيفه - وكان أول سيف يستله فى حياته - وطعن به صدر القائد الذى أنقذ امبراطوريته : وتدافع خصيانه ورجال حاشيته فى طموح لتقليد مولاهم ، وخر ايتيوس على الأرض صريعا أمام الملك ، وهو مثخن بمئات الجروح • وفى اللحظة عينها قتل بوثيوس Boethius ، الوالى البريتورى ، وقبل أن يعرف شيء عما حدث استدعى أهم أصدقاء النبيل الى القصر ، وقتل كل واحد منهم على حدة • أما ذلك العمل الرهيب الفظيع فقد خففوا من وقعه بقولهم انه كان أمرا تحتمه العدالة والضرورة ، وأبلغه الامبراطور على الفور الى جنوده ، ورعيته ، وحلفائه • وأسفت الجماعات التى كانت عدوة لايتيوس ، أو لا تعرفه أسفا شديدا لذلك المصير غير اللائق ببطل • أما البرابرة الذين كانوا فى خدمته ، فقد اصطنعوا اخفاء حزنهم وسخطهم ، وانقلب الاحتقار العام الذى كانوا يشعرون به نحو فالنتينيان الى كراهية شاملة • غير أن مثل هذه الأحاسيس قلما تنفذ من أسوار القصر وتصل الى أسماع الملوك • ورغم ذلك فقد ارتبك الامبراطور عندما سأل أحد الرومان عن رأيه فيما حدث دون أن يتورع عن استجداء استحسانه له ، فأجاب فى صدق واخلاص قائلا :

« انى أجهل يا مولاى ما كان لديك من دوافع واثارات ، غير أنى أعرف شيئا واحدا ، وهو أنك تصرفت كرجل يقطع يده اليمنى بيده اليسرى » •

ويبدو أن الترف الذى كان سائدا فى روما جذب الامبراطور اليها وجعله يكرر زياراته لها ويطيل المكث فيها ، وترتب على ذلك أنه أصبح موضع الاحتقار هناك أكثر من أى جزء آخر من بلاده • وثمة روح جمهورية بدأت تسرى فى السناتو دون أن يحس بها أحد ، لأن حكومته الضعيفة أصبحت فى حاجة الى سند من سلطة المجلس ، بل ومن موارده • وأساء الى كبرياء المجلس مسلك الجلالة الذى كان يسلكه ملك وراثى ، كما أن ملذات فالنتينيان كانت مصدر قلق للأسرات النبيلة ، وتسىء الى شرفها وسمعتها • ولم يكن منبت الامبراطورة يودوكسيا بأقل من منبت زوجها الامبراطور ، كما أن جمالها وحبها العطوف كانا يستحقان منه أن يبادلها حبا بحب ، غير أن ذلك الزوج المتقلب أطاح بهذا الحب فى غرامياته

الخفية غير الشرعية • وحدث أن بترونيوس مكسيموس ، وهو عضو غنى من أعضاء السناتو من أسرة أنيكيوس ، وشغل منصب القنصل مرتين ، كان له زوجة جميلة طاهرة • وقاومت هذه الزوجة غرام الامبراطور مقاومة عنيدة لم يكن لها من أثر سوى اثارة رغباته وشهواته ، فصمم على تحقيق تلك الرغبات بالحيلة أو القوة • وكان لعب القمار من رذائل البلاط . وحدث أن الامبراطور كسب من مكسيموس مبلغا كبيرا من المال ، اما بالحظ أو الحيلة ، فأخذ منه خاتمه بصورة غير لائقة ضمانا للدين • ثم أرسله مع رسول أمين الى زوجته ، ومعه أمر باسم زوجها أن تبادر على الفور الى مقابلة الامبراطورة يودوكسيا • ولم ترتب زوجة مكسيموس فى الأمر • ونقلت فى محفتها الى القصر الامبراطورى ، وقادها رسل العاشق المتلهف الى مخدع بعيد منفرد ، وهناك حطم الامبراطور قواعد الضيافة دون شفقة أو رحمة • وعندما غادرت الى المنزل انهمرت دموعها ، وقصت على زوجها بلواها ، وأخذت تؤنبه تأنيبا مرا اذ اعتبرته شريكا فى ذلك العار الذى لحق بها • كل أولئك أثار فى مكسيموس رغبة الانتقام العادل ، وضاعف تلك الرغبة ما كان يجول فى نفسه من طمع فى العرش • وكان من المعقول أن يتطلع الى ذلك المنصب الذى يشغله منافس مكروه محتقر ، وذلك عن طريق انتخاب حر يجريه السناتو الرومانى • واعتقد الامبراطور أن كل صدر بشرى ، هو كصدره ، خلو من الصداقة وعرفان الجميل ، فقبل ضمن حراسه دون تبصر أو روية عددا من خدام ايتيوس وأتباعه ، وأمكن اغراء اثنين من هؤلاء ، وهما من الجنس البربرى ، على تنفيذ واجب مقدس شريف هو قتل قاتل مولاهم ، وسرعان ما حانت فرصة مواتية أظهرا فيها ما اتصفا به من شجاعة وجرأة • فبينما كان الامبراطور يستمتع فى ساحة « مارس » ببعض مشاهد الألعاب العسكرية ، هجما عليه بسيوفهما المسلولة ، وقتلا هرقليوس المذنب ، وطعنا الامبراطور فى قلبه ، دون أقل مقاومة من حاشيته الكبيرة التى يبدو أنها فرحت لموت الطاغية • هكذا كان مصير فالنتينيان الثالث ، آخر امبراطور رومانى من أسرة ثيودوسيوس • ولقد قلد هذا الامبراطور فى صدق وأمانة ذلك الضعف الوراثى الذى اتسم به ابن عمه وعماه ، دون أن يرث صفات الرقة والنقاء والبراءة التى تخفف من افتقار شخصياتهم الى الجرأة والكفاية • ولم يكن مستطاعا أن يلتمس له العذر مثلما يلتمس لهم ، فقد كان كثير الأهواء خلوا من الفضائل ، بل ان ديانته كانت موضع الشك ، ومع أنه لم ينحرف مطلقا الى سبل الهرطقة ، الا أنه جلب الفضيحة والعار الى أتقياء المسيحيين بتعلقه بفنون السحر والكهانة الدنسة •

أعراض الاضمحلال فى
الامبراطورية الرومانية الغربية

كان من رأى عرافى الرومان منذ وقت بعيد يعود الى أيام شيشرون وفارو أن النسور الاثنى عشر التى رآها روميولوس انما تمثل القرون الاثنى عشر التى قدر لمدينته أن تنهار بعدها . وهذه النبوءة ، التى لم يأبه لها الناس فى عصر الازدهار والرخاء ، بعثت فيهم المخاوف الكئيبة عندما أوشك آخر هذه القرون أن ينصرم وسط مظاهر العار والشقاء . ولابد للأجيال التالية من أن تعترف فى شيء من الدهشة أن التفسير الجائر لحدث عابر أو خرافى قد تحقق بصوة خطيرة،وذلك بانهيار الامبراطورية الغربية . غير أن انهيارها هذا كانت تنبيء به نذر أكثر وضوحا من سرب النسور . ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تبدو فى كل يوم أقل بأسا فى نظر أعدائها ، وأكثر ظلما وبعثا للكراهية فى نظر رعاياها . فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة ، وكلما زادت الضرورة الى الاقتصاد زاد الاسراف ، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم وألقوه على كواهل الناس ، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التى قد تخفف من شقائهم فى بعض الأحيان . وعمدت الحكومة الى التحقيق والتفتيش ، ثم الى مصادرة بضائعهم وتعذيب أشخاصهم . كل أولئك أرغم رعايا فالنتينيان على تفضيل طغيان البرابرة الأكثر بساطة ، أو على الفرار الى الغابات والجبال،أو الى قبول وضع الخدم المرتزقة ، على خسته وحقارته . ووصل بهم الأمر الى جحود اسم « مواطن رومانى » وكراهيته ، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمع . وأصبحت ولايات أرموريكا فى بلاد الغال والجزء الأكبر من أسبانيا فى وضع مستقل مرتبك نتيجة تحالف شعوب الباجودى Bagaudae ، أما وزراء الامبراطور فلم يكن فى وسعهم الا ملاحقة الثوار ، الذين خلقوهم ، باصدار قوانين الحرمان وارسال قوات عديمة الفعالية ، ولو أن جميع الغزاة البرابرة هلكوا فى ساعة واحدة ، فان هلاكهم الكامل هذا ما كان فى مقدوره أن يعيد الى الامبراطورية الغربية كيانها . واذا كانت روما قد ظلت قائمة ، الا أنها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف .

الفصل السادس والثلاثون
(٤٥٧ ـ ٤٩٠)

الامبراطور ماجوريان · « اواكر » ملك ايطاليا

رغم أن اقامة الهون في ايطاليـــا كانت مؤقتة عابرة ، الا أن تلك المنظمة (الامبراطورية) الغربية قد أصبحت الآن مقلقلة مزعزعة تستعصى على الاصـــلاح · وفي غضون ثلاثة أشهر من موت فالنتينيان (٤٥٥) كان جنسريك (جيسريك) قد وصــل بأسطوله الى مصب نهر التيبر واجتاح روما · وشاهدت العشرون سنة التالية انهيار الغرب النهائى تحت حكم سلســلة من الأبــاطرة لم يكونوا أبــاطرة الا بالاســم فقط · والتقطت الامبراطورية أنفاسها فترة من الوقت فى العهد القصير الذى حكم فيه الامبراطور ماجوريان (٤٥٧ ـ ٤٦١) ·

الامبراطور ماجوريــان

يعتبر خليفة أفيتوس Avitus بمثابة اكتشـــاف سعيد لشخصية عظيمة بطولية تظهر ، كما يحدث أحيانا ، فى عصر منحل لتدعيم شرف الجنس البشرى · ولقد كان الامبراطور ماجوريان جديرا باطراء معاصريه والأجيال التالية ، وهو اطراء عبر عنه تعبيرا قويا أحد المؤرخين المنسمين بالفطنة والانصاف حيث قال : « إنه كان رقيقا نحو رعيته، مخيفا لأعدائه، وقد فاق فى كل الفضائل جميع أجداده الذين حكموا الرومان » · مثل هــذه الشهادة تبرر على أقل تقــدير ذلك الاطراء الذى كاله له الخطيب سكيدونيوس Sidonius ، ولنا أن نقبل ما قيل فى هذا الشأن من أن هذا الخطيب الذليل ، رغم أنه كان لا يتردد فى تملق أتفه الملوك بالحماس نفسه ، الا أن ما كان يتحلى به الامبراطور من فضائل غير عادية ، جعله يحصر مديحه فى تلك المناسبة داخل حدود الصدق· ولقد حصل ماجوريان على اسمه هذا من جده لأمه الذى كان فى عهد ثيودوسيوس العظيم ، يتولى

قيادة قوات الحدود الالليرية ٠ وزوج ابنته الى والد ماجوريان الذى كان موظفا محترما يشرف على دخل بلاد الغال بمهارة ونزاهة ، ويفضل فى شهامة صداقة ايتيوس على العروض المغرية التى عرضها عليه بلاط ملكى غـادر مخادع ٠ أما ابنه ، وهو الامبراطور المقبل ، فقد تعلم الجنديـة ، وأظهر منذ أن كان شابا صغيرا ، شجاعة فائقة ، وحكمة سابقة لأوانها ، وسخاء غير محدود رغم ثروته الضئيلة ٠ وقد انضم تحت لواء ايتيوس ، وأسهم فى نجاحه وشاركه مجده ، وفى بعض الأحيان كان يفوقه مجدا ٠ وأخيرا أثـار غيرة النبيـل ، أو قل غيرة زوجته ، التى أرغمته على اعتزال الخدمة ٠ وبعد موت ايتيوس ، أعيد ماجوريان الى الخدمة ، ومنح منصبا أعلى ، وكانت صلته الوثيقة بالكونت ركيمر Count Recimer هى الخطوة المبـاشرة التى مكنته من ارتقـاء عرش الامبراطورية الغربية ٠ ذلك أن أفيتوس تنازل عن العرش ، وأصبح المنصب شاغرا ، وحال أصل البربرى الطموح ، ركيمر ، بينه وبين المنصب الامبراطورى ، ولكنه حـكم ايطاليا تحت لقب « النبيل » ، وترك لصديقه المنصب البارز الهام ، منصب القائد الأعلى للفرسان والمشاة ٠ وبعد انقضاء بضعة شهور ، وافق على الرغبـة الاجتمـاعية التى أبداها الرومان الذين اكتسب ماجوريان حظـوة لديهم بانتصار حديث على قبائل الألمان ، وتقلد المنصب الامبراطورى فى مدينة رافنا ٠ وتشتمل الرسالة التى بعث بها السناتو على أحسن وصف لمركزه وأحاسيسه ٠ قال مارجوريان :

« أيها الشيوخ ! لقد أصـبحت امبراطورا باختيـاركم وبمشـيئة الجيش الباسل ٠ وانى لأدعـو الله العطوف أن يكون رائدى ، وأن يكلل بالنجاح والتوفيق آرائى وأعمالى فى حـكم البلاد ، حتى تعود بالنفع عليكم وعلى الصالح العام ٠ ومن ناحيتى ، فانى لم أتطلع الى الحكم ، بل خضعت له ٠ ولو أنى رفضت تحمل عبء الأعمال التى فرضتها الدولة على شخصى بدافـع من الجحود الأنانى الحقير ، لما وفيت بما على من التزامات المواطن ، ومن ثم فانى أسألكم أن تقدموا العون الى الحاكم الذى صنعتم ، وتشاركوا فى الواجبات التى ألقيتم عليه ، وانا لنرجو أن تحقق جهودنا المشتركة سعادة الامبراطورية التى قبلتها من أيديكم ، وثقوا بأن العدالة فى عهدنا سوف تسترد قوتها القديمة ، وبأن الفضـيلة سوف لا تعتبر صفة بريئـة فحسب ، بل سوف يكون لها جزاؤها ٠ ويجب ألا يخشى الدسائس الا أصحابهـا ومختلقوهـا ، فلقد كنت كفرد من أفراد الرعية أدينها دائما ، أما الآن ، وقد أصـبحت حاكما ، فانى سوف أعاقب عليها أشد العقاب ٠ ولسوف نحرص ، بمؤازرة والدنا ، النبيل ركيمر ، على تنظيم كل الشئون الحربية ، ونعمل على سـلامة العـالم الرومانى الذى

أنقذناه من أعدائه فى خارج البلاد وداخلها • انكم الآن تعرفون مبادىء حكمى ، ولكم أن تثقوا فى المحبة الخالصة ، والتأكيدات الصادقة التى يعبر عنها ملك كان فيما مضى رفيق حياتكم ، وشريكا فى الأخطار التى تعرضتم لها ، ولا يزال يفخر باسم السناتور ، ويهمه ألا تندموا مطلقا على ذلك الحكم الذى أصدرتموه فى صالحه » • وفى وسط أنقاض العالم الرومانى ، أحيا ذلك الامبراطور لغة القانون والحرية القديمة ، التى ما كان الامبراطور تراجان لينبذها ، ولابد أنه استمد هذه الأحاسيس الكريمة من قلبه هو ، لأن عادات عصره أو سيرة أجداده لم تكن من النوع الذى يوحى بمثل هذه الأحاسيس •

أما الأعمال الخاصة والعامة التى قام بها ماجوريان ، فان ما نعرفه الاصلاح ممكنا وعمليا) • وكانت القواعد التى وضعها فيما يختص بمالية التفكير والتعبير ، فانها تصور فى صدق شخصية عاهل أحب شعبه وعطف على محنته ، ودرس أسباب تدهور الامبراطورية ، واستطاع تطبيق العلاج الحكيم الناجع على ما كان هناك من ارتباك عام (الى الحد الذى كان فيه الاصلاح ممكنا وعمليا) • وكانت القواعد التى وضعها فيما يختص بمالية البلاد تتجه فى وضوح الى القضاء على أشد المنغصات وطأة ، أو التخفيف منها على الأقل •

١ ـ فمنذ الساعة الأولى من حكمه كان حريصا (وانى هنا أترجم كلماته نفسها) على انقاذ ثروات الولايات من الضرائب والضرائب الاضافية المتراكمة التى أثقلت كاهلها • وتحقيقا لهذا الهدف منحها عفوا شاملا ، تجاوز بمقتضاه تجاوزا نهائيا مطلقا عن كل متأخرات الجزية وكل الديون التى قد يطلبها الموظفون الماليون من الناس ، فى أية صورة من الصور • وهذا التجاوز الحكيم عن الحقوق العقيمة المتعبة التى لا فائدة منها حسنت مصادر الدخل العام ونقته من الشوائب ، كما أن الفرد من الرعية أصبح فى مقدوره الآن أن ينظر الى الماضى دون يأس ويعمل من أجل نفسه ومن أجل بلاده فى أمل وامتنان •

٢ ـ وفى تقدير الضرائب وجمعها أعاد ماجوريان السلطة الشرعية العادية التى كانت لحكام الولايات ، وأبطل اللجان فوق العادية التى كانت تعمل باسم الامبراطور نفسه أو باسم الولاة البريتوريين ، وذلك لأن الموظفين المقربين الذين حصلوا على مثل تلك الصلاحيات الشاذة كانوا يتسمون بالقحة فى مسلكهم وبالتعسف فى طلباتهم ، وكانوا يظهرون احتقارهم للمحاكم الصغيرة ، ويبدون سخطهم وتذمرهم اذا لم تزد أجورهم وأرباحهم عن ضعف المبلغ الذى يتنازلون بدفعه الى الخزانة • وثمة مثل واحد لابتزازهم يجاوز حد التصديق لو لم يؤكده المشرع نفسه،

ذلك أنهم كانوا يحتمون أن يكون الدفع كله بالذهب ، ولكنهم كانوا يرفضون عملة الامبراطورية المتداولة ، ولا يقبلون الا العملات القديمة المضروبة باسم فوستينا Faustina أو الأنطونينيين The Antonines ومن لم يمتلك مثل هذه العملات العجيبة كان يلجأ الى مساومتهم والرضوخ لطلباتهم الجشعة ، أو أنه اذا نجح فى البحث عن تلك العملات فان المبلغ المفروض عليه كان يتضاعف تبعا لوزن العملة القديمة وقيمتها ٠

٣ ـ يقول الامبراطور : « ان المجالس البلدية ، وهى مجالس السناتو الصغرى (كما كانت تسمى بحق فيما مضى) جديرةٍ بأن تعتبر قلب المدن وعصب الدولة ، ومع ذلك فقد انحط الآن شأنها نتيجة ظلم الحكام وجشع الجباة ، الى درجة أن كثيرا من أعضائها نبذوا مناصبهم وبلادهم ولجأوا الى العزلة فى أماكن بعيدة مغمورة » ٠ وهو يحضهم ، بل ويرغمهم على العودة الى مدنهم ، ولكنه يقضى على المنغصات التى أرغمتهم على التخلى عن ممارسة مهامهم فى المجالس البلدية ٠ فأصدر اليهم توجيهاته بالعودة الى مباشرة أعمالهم فى جباية الخراج تحت سلطة حكام الولايات ، ولكن ، بدلا من أن يكونوا مسئولين عن كل المبالغ المقررة على اقليمهم ، أصبحوا مطالبين فقط بتقديم كشف حساب منتظم يبين المدفوعات التى يتسلمونها فعلا ، والمتأخرين فى سداد ديونهم للخزانة العامة ٠

٤ ـ غير أن ماجوريان لم يغب عنه أن هذه الهيئات كانت تميل أكثر مما ينبغى الى أن تقتص لما لاقته من ظلم وعسف ، ومن ثم فقد أعاد منصب « حماة المدن » الذى كان منصبا له فائدته فيما مضى ٠ وأخذ يحض الناس على أن ينتخبوا فى اجتماع كامل حر ، بعض ذوى الحصافة والنزاهة الذين تتوفر لديهم الجرأة على توكيد حقوقهم والتعبير عن متاعبهم وشكاواهم،وحماية الفقراء من طغيان الأغنياء،وابلاغ الامبراطور عن الانحرافات التى ترتكب باسمه وبضمان من سلطته ٠

وان المشاهد الذى يلقى نظرة حزينة على أطلال روما القديمة انما يميل الى اتهام ذكرى القوط والوندال ، ويرميهم بارتكاب أضرار وآثام لم يكن لديهم من الوقت والقدرة ما يسمح لهم بارتكابها ، بل ربما لم تتوفر لديهم الرغبة فى اقترافها ٠ فعاصفة الحرب قد تطيح ببعض الأبراج وتلقى بها الى الأرض ، غير أن الدمار الذى قوض أسس تلك الصروح الضخمة كان يسير فى بطء وصمت خلال عشرة قرون ٠ ومن ثم فان الامبراطور ماجوريان ، بما اتصف به من لباقة وهمة ، تصدى الى دوافع المصلحة التى كانت تعمل عملها دون خجل ودون ضابط أو قيد ، وأوقفها عند حدها فى صرامة وشدة ٠ وكان تدهور المدينة قد أضعف بالتدريج من قيمة المنشآت العامة ، فالسيرك والملاهى كانت تثير رغبات الناس

ولكنها قلما كانت تشبعها : والمعابد التى نجت من حماس المسيحيين لم يعد بها آلهة أو متعبدون ، وجماهير الرومان القليلة العدد اختفت فى متسعات الحمامات والأروقة ، أما المكتبات ودور القضاء الفخمة فقد أصبحت عديمة النفع لجيل كسول قلما كان يزعج راحته بالدرس أو العمل • والآثار التى كانت تمثل العظمة القنصلية او الامبراطورية ، لم يعد لها احترامها كمظهر لمجد العاصمة الخالد ، بل أصبح الناس يقدرونها على أساس أنها مواد بناء لا تكلفهم من المال والجهد مثلما تكلفهم المواد التى يجلبونها من المحاجر البعيدة ، ومن ثم فانهم كانوا يقدمون التماسات منمقة مصطنعة الى الحكام المتساهلين يذكرون فيها حاجتهم الى الطوب والأحجار اللازمة لبعض الخدمات الضرورية ، وأدى ذلك الى أن شوهت بصورة خشنة أجمل المبانى التى يتجلى فيها فن المعمار لاجراء اصلاحات تافهة أو مفتعلة ، وأصبح الرومان المنحلون يحولون تلك الأسلاب الى منفعتهم الخاصة ، ويهدمون بأيديهم المدنسة جهود أجدادهم • وكثيرا ما تألم ماجوريان للخراب الذى أصاب المدينة ، ولهذا استخدم علاجا صارما لمكافحة هذا الشر المستفحل ، فجعل من حق الملك والسناتو دون غيرهما النظر فى الحالات الاستثنائية التي قد تبرر هدم بناء قديم ، وفرض غرامة قدرها خمسون جنيها ذهبيا (ألفان من الجنيهات الاسترلينية) على كل حاكم يوافق على منح هذا الترخيص الفاضح غير القانونى ، وهدد بمعاقبة موظفى الحكام بالجلد وقطع أيديهم اذا هم أذعنوا لأوامرهم الاجرامية • ويبدو أن الامبراطور المشرع فى هذه الحالة الأخيرة نسى التناسب بين الذنب والعقوبة ، غير أن هذه الغيرة من جانبه كان الباعث عليها مبدأ كريم ، لأنه كان مهتما بحماية آثار تلك العصور التى كان يود لو أنه عاش فيها ، ويستحق أن يكون كذلك • ورأى الامبراطور أنه من مصلحته أن يزيد عدد رعاياه ، وأن من واجبه أن يصون فراش الزوجية ، غير أن الوسائل التى اتخذها لتحقيق هذه الغايات النافعة انما تتسم بالغموض وربما بالشذوذ • فقد حرم على العذارى التقيات اللاتى نذرن عذرتهن للمسيح أن يترهبن قبل بلوغ الأربعين من العمر ، كما أرغم الأرامل اللاتى لم يبلغن هذا العمر أن يتزوجن مرة ثانية فى مدى خمس سنوات ، والا آلت نصف ثروتهن الى أقرب أقربائهن أو الى الدولة • وكذلك أدان الزواج غير المتكافىء أو ألغاه ، ورأى أن عقوبة المصادرة والنفى لا تتناسب مع جريمة الزنى ، لهذا أعلن فى صراحة ووضوح أنه اذا عاد مرتكب هذه الجريمة الى ايطاليا أصبح قتله جائزا دون أن يعاقب القاتل •

وبينما كان الامبراطور ماجوريان يعمل دائبا على استرجاع سعادة الرومان وفضيلتهم جابه جيوش جنسريك ، وهو أقوى أعداء الرومان

بحكم شخصيته ومركزه · ذلك أن أسطولا من الوندال والمغاربة رسا عند مصب نهر لريس Liris أو جاريليانو ، غير أن القوات الامبراطورية فاجأت أشتات المتبربرين وهاجمتهم وهم مثقلون بأسلاب كمبانيا ، ثم طاردتهم وأشبعتهم ذبحا وتقتيلا حتى ركبوا سفنهم ، وكان قائدهم ، وهو زوج شقيقة الملك ، من بين القتلى · ومثل هذه اليقظة انما تدل على طابع العهد الجديد ، غير أن أشد اليقظة وأكثر القوات عددا لم تكن كافية لحماية شواطىء ايطاليا الطويلة من كوارث حرب بحرية ، كما أن الرأى العام فرض على عبقرية ماجوريان مهمة أكثر نبلا ومشقة · ذلك أن روما توقعت منه وحده اعادة أفريقيا ، وكانت الخطة التى وضعها لمهاجمة الوندال فى مواطنهم الجديدة نتيجة سياسة جريئة حكيمة · ولو أن الأمبراطور الباسل استطاع أن ينفث روحه هو فى شباب ايطاليا ، ولو أنه استطاع أن يعيد الى ساحة القتال مظاهر البطولة الجديرة بالرجال ، والتى كان يتفوق فيها على أنداده ، لو أنه فعل ذلك كله لكان فى مقدوره أن يسير لملاقاة جنسريك على رأس جيش « رومانى » ، وقد كان يمكن أن يتقبل الجيل الصاعد مثل هذا الاصلاح الذى يتناول الأخلاق الوطنية ، غير أنه من سوء حظ الحكام الذين يعملون جاهدين على تدعيم مملكة متدهورة أنهم ، فى سبيل الحصول على ميزة عاجلة أو درء خطر محدق بهم ، يضطرون الى اتخاذ أشد الاجراءات ضررا ، بل والى مضاعفتها · ذلك أن ماجوريان ، شأنه شأن أضعف أسلافه ، اضطر الى الأخذ بوسيلة شائنه هى احلال قوات بربرية احتياطية مكان رعاياه الذين أعوزتهم صفات المحاربين ، وتجلت قدراته الفائقة ، وما اتسم به من قوة ومهارة فى استخدامه لأداة خطيرة يمكن أن ترتد الى اليد التى تقبض عليها · والى جانب الحلفاء الذين كانوا فى خدمة الامبراطورية فعلا ، فان ما اشتهر به الامبراطور من سخاء وشجاعة جذب اليه أمم الدانوب ، والبوريسثنيز ، وربما أمم التانيز · فاجتمع فى سهول ليجوريا آلاف كثيرة من أشجع رعايا أتيلا - جماعات الجبيدى ، القوط الشرقيون ، الروجيان ، البرجنديون ، السويفى ، الألانى ، وكانت قوتهم الهائلة تتوازن مع ما بينهم من عداوات متبادلة · وعبروا الألب فى شتاء شديد البرودة ، وكان الامبراطور يقود الطريق على قدميه وهو فى كامل عدته الحربية ، يسبر عمق الجليد أو الثلج بعصاه الطويلة ، ويشجع السكوذيين الذين يشكون من شدة البرد ، ويبعث فيهم البشر بما يؤكده لهم من أنهم سوف يستمتعون بحرارة أفريقيا · وكان مواطنو مدينة ليون قد وجدوا لديهم من الجرأة ما جعلهم يغلقون أبواب المدينة ، ولكنهم سرعان ما اضطروا الى التماس رحمة ماجوريان وكان الامبراطور عند حسن ظنهم -

ثم قهر ثيودوريك فى ساحة القتال ، وقبل أن يكون صديقا وحليفا للملك وجده جديرا بأن ينضم الى جيوشه ، وأعاد توحيد الجزء الأكبر من بلاد الغال وأسبانيا • وقد تحقق هذا الاتحاد النافع ، وان كان اتحادا مزعزعا ، بفضل الاقناع وبحكم القوة ، أما قبائل الباجودى ، التى كانت قد نجت من ظلم العهود السابقة ، أو قاومته ، فقد أظهرت استعدادها للوثوق فى فضائل ماجوريان • وكان معسكره مليئـا بحلفاء من البرابرة ، وعرشه مستندا الى غيرة شعب يحبه • غير أنه أدرك استحالة غزو أفريقيا دون قوة بحرية • ففى الحرب البونية الأولى بذلت الدولة جهدا جهيدا ودأبا لا يصدق حتى استطاعت ، بعد ستين يوما من أول ضربة فأس فى أشجار الغابات ، أن تبنى أسـطولا قوامه مائة وستون سفينة تعتلى ظهر الماء • واستطاع ماجوريان فى ظروف أقل ملاءمة بكثير أن يضارع قدماء الرومان روحا ومثابرة • فقطعت أشجار جبال الأبنين ، وعادت الى العمل ترسانات ومصانع رافنا وميسينوم ، وتنافست ايطاليـا وبلاد الغـال على التبرع بسخاء من أجل هذه الخدمة العامة • وبهذا استطاع ماجوريان أن يبنى أسـطولا امبراطوريا قوامه ثلاثمائة سـفينة كبيرة ، وعدد مناسب من الناقـلات والسفن الصغيرة ، تجمعت كلها فى ميناء قرطاجنة الأسـبانى الواسع الأمين • وبعث ماجوريـان بطلعته الجريئة البـاسلة روح الثقة بالنصر فى قواتـه ، واذا كان لنا أن نصـدق المؤرخ بروكوبيوس ، فان شجاعته دفعته فى بعض الأحيـان الى تجاوز حـدود الحرص والحكمة • ذلك أن اهتمامه الكبير بأن يرى بعينيه حالة الوندال جعله يغامر بزيارة قرطاجة ، منتحلا شـخصية سفيره ، بعد أن صبغ شـعره • وقد اغتم جنسريك بعد أن اكتشف أنه استقبل امبراطور الرومان وتركه ينصرف • ولنا ألا نصدق هذه القصـة غير المحتملة ، ولكنها قصة ما كان النـاس ليتصوروها الا لأنها قصة فى حياة بطل •

وكان جنسريك على علم كاف بعبقرية خصـمه وخططه دون حاجة الى مقابلة شخصية ومن ثم فقد مارس فنون الخداع والمماطلة التى درج عليها ، ولكنه لم يصب نجاحا ، وأخذت طلبات الصـلح التى تقدم بها تزداد فى كل ساعة خضوعـا ، وربما أصبحت أكثر صدقـا ، غـير أن ماجوريـان الذى لا ينثنى ولا يلين ، كان قد أخذ بالمبدأ القديم القائـل بأن روما لا يمكن أن تنعم بالأمان طالما بقيت قرطاجة فى حالة عداء لها • وكان ملك الوندال لا يثق فى شجاعة أبناء وطنه الذين أضـعف قوتهم ترف البلاد الجنوبية ، ويشك فى اخلاص الشعب الذى قهره و نذى كان

يمقتــه كطــاغية آرى ، كمــا أن المجهود اليائس الذى قام به لتحويل موريتانيا الى صحراء لم يستطع به أن يعرقل عمليات الامبراطور الرومانى الذى كان فى مقدوره أن ينزل قواتــه فى أى جزء من أجزاء الشــاطئ الأفريقى • غير أن جنسريك نجا من هلاك قريب محقق بفضل خيانة بعض الرجال الأقوياء من رعايا ماجوريان الذين ملأهم نجــاح مولاهم خوفا وحسدا ، فأسروا اليه بأنبــاء خصمه ماجوريــان وأرشدوه الى مواقــع أسطوله ، وبذلك تمكن من مفاجأة الأسطول الذى كان رابضا فى خليج قرطــاجنة دون حراسة ، وأغرق أو حرق كثيرا من الســفن أو اســتولى عليها ، وبهذا تحطمت اســتعدادات ثلاث سنوات فى يوم واحد • وبعد هذا الحدث أظهر مسلك الخصمين أنهما فوق مستوى حظهما ، فالوندالى لم تنتفخ أوداجه بفضل هذا النصر العابر الطارئ ، بل جدد على الفور التماسات الصلح ، كما أن امبراطور الغرب ، الذى كان فى مقدوره وضع الخطط العظيمة وتحمل أثقال الفشل ، وافق على عقد معاهدة ، أو قــبل ايقاف القتال ، وكله ثقة فى أنه قبل أن يستطيع اعادة بناء أسطوله لابد أنه ســوف يجد من الاثارات ما يبرر حربا ثانية • وعاد ماجوريان الى ايطاليا لتنفيذ جهوده فى سبيل رفاهية الشعب وسعادته • وبما أنه كان يشعر بنزاهته ، فقد ظل فترة طويلة لا يدرى شيئا عن المؤامرة الخفية التى هددت حياته وعرشه • ثم ان محنة قرطاجنة الحديثة لوثت ذلك المجهود الذى بهر عيون الجماهير ، وحنقت كل فئات الموظفين المدنيين والعسكريين تقريبــا على الامبراطور المصلح لأنهم جميعا كانوا يحصلون على بعض النفع من المساوئ التى كان يحاول القضــاء عليها ، كما أن النبيل ركيمر أثار عواطف البرابرة المتقلبة المزعزعة ضد ملك كان يقدره ويكن له الكراهية • ولم تستطع فضائل ماجوريان أن تحميه من الفتنة العارمة التى اندلعت فى المعســكر القريب من ترتونا عند ســفح جبال الألب • فاضطر الى التخلى عن العرش ، وبعد خمسة أيام من ذلك ذاع أنه مات بمرض الدوسنتاريا ، ودفنت رفاته فى قبر متواضع أصبح موضع احترام الأجيال التالية واعترافها بالجميل • ولا شــك فى أن أخــلاق ماجوريــان الخــاصة كانت توحى بالحب والاحترام • فقد كان القدح والنميمة الخبيثة يثيران سخطه ، واذا كان هو موضع القدح ، نظر اليه فى احتقار وازدراء • ولكنه كان يذود عن حرية النكتة والنقد الطريف ، وفى الساعات التى كان يقضيها دون كلفة فى مجتمع أصدقائه المقربين ، كان يشبع تذوقه للفكاهة دون أن يحط من جلال مقامه •

★ ★ ★

وبين سنتي ٤٦١ ، ٤٧١ حكم ركيمر ايطاليا فعلا ان لم يكن اسما • وفي سنة ٤٧١ ، بعد ان اختلف مع الامبراطور انثيميوس نهب روما ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا • وفي سنة ٤٧٦ أصبح روميولوس اوغسطولوس آخر الأباطرة • ويرتبط التاريخ التقليدي لانهيار الامبراطورية الغربية بهذا الاسم الذي اشتهر بمحض الصدفة • وبين سنتي ٤٧٦ ، ٤٩٠ اقام ادواكر Odoacer مملكة قوطية في ايطاليا ، وكان من الناحية الاسمية نائبا عن الامبراطور في القسطنطينية •

ادواكر : ملك ايطاليا

كان أدواكر أول متبربر تولى الملك فى ايطاليا ، وحكم شعبا أتيح له يوما أن يؤكد تفوقه بحق على بقية الجنس الانسانى • وما تزال المذلة التى لحقت بالرومان تثير فينا الشفقة والاحترام ، فنرثى فى قلوبنا لما أحست به ذريتهم من حزن وسخط • غير أن كوارث ايطاليا قهرت بالتدريج احساسهم الشامخ بالحرية والمجد • وفى عصر القوة الرومانية خضعت الولايات لجيوش الدولة كما خضع المواطنون لقوانينها ، حتى اذا ما أطاحت النزاعات الأهلية بتلك القوانين ، أصبحت المدينة والولايات ملكا ذليلا لطاغية • كما زالت بفعل الزمن وبحكم القوة أشكال الدستور التى خففت من عبوديتهم الذليلة أو أخفتها • وأصبح الايطاليون يضيقون تارة بوجود الملوك الذين يكرهونهم ويحتقرونهم ، ويأسفون تارة أخرى لعدم وجودهم • وتوالت عليهم خمسة قرون انصبت عليهم فيها مختلف شرور الاباحية العسكرية ، والاستبداد المتقلب والظلم المحكم ، وفى الفترة نفسها ظهر المتبربرون بعد أن كانوا مغمورين محتقرين ، ودخل مقاتلو ألمانيا وسكوذيا ولايات الامبراطورية خداما للرومان فى أول الأمر ، ثم حلفاء ، ثم كانوا فى نهاية المطاف سادة لأولئك الذين أصبحوا فى حماهم أو موضع اهانتهم• وكبت الخوف كراهية الشعب الذى وصل به الأمر الى احترام شجاعة وجلال الرؤساء العسكريين الذين أغدقت عليهم أمجاد الامبراطورية • وظل مصير روما يعتمد فترة طويلة على سيوف أولئك الغرباء الأقوياء • وجاء ركيمر القاسى العنيد الذى وطىء بقدميه أنقاض ايطاليا ، ومارس سلطة الملك دون أن يتخذ لنفسه لقبه ، وأصبح الرومان الصابرون ، بصورة غير محسوسة على استعداد للاعتراف بملكية أدواكر وخلفائه المتبربرين •

ولم يكن ملك ايطاليا غير جدير بالمكانة السامية التى ارتفع اليها بشجاعته وحظه ، فقد تهذبت أخلاقه الشرسة بعد أن اعتاد التحدث الى

الناس ، واحترم نظم رعاياه ، بل وآراءهم المبتسرة رغم أنه كان غازيا ومتبربرا • وبعد فترة سبع سنوات أعاد أدواكر منصب قنصل العرب • ومن ناحيته هو فقد رفض ، تواضعا أو كبرياء ، ذلك المنصب الذى كان أباطرة الشرق لا يزالون يقبلونه • غير أن هذا المنصب الرفيع شغله على التوالى أحد عشر عضوا من ألمع أعضاء السناتو وازدانت القائمة بذلك الاسم المحترم ، اسم باسيليوس الذى أكسبته فضائله صـــداقة عميقة سيدونيوس وثناءه المعبر عن امتنانه وشـــكره • ونفذت قوانين الأباطرة بحزم وصرامة ، وظل الوالى البريتورى وصغار موظفيه يمارسون الادارة المدنية فى ايطاليـــا • ووكل أدواكر لحكام الرومان تلك المهمة الجائـرة الممقوتة . مهمة جمع الايراد العام ، ولكنه احتفظ لنفسه بميزة التساهل مع الشعب ومد آجال الدفع • ولقد نشـــأ أدواكر ، شـأنه شأن بقية المتبربرين ، على الهرطقة الآريوسية ، غير أنه احترم الرهبان والشخصيات الكنسية ، ويدل صمت الكاثوليك على ما كانوا يتمتعون به من تسامح • وقد استلزم سلام المدينة أن يتوسط واليه باسيليوس فى اختيـــار حبر رومانى • كما أن المرسوم الذى حظر به على رجال الدين تحويل أراضيهم الى غيرهم كان يهدف أساسا الى نفع الشعب • وأصبحت ايطاليا فى حمى الرجل الذى غزاها ، واحترم حدودها برابرة الغال والمانيـــا الذين ظلوا فترة طويلة يستهينون بسلالة ثيودوسيوس الضعيفة • وقد عبر أدواكر البحر الأدرياتى لمعاقبة قتلة الامبراطور نيبوس Nepos ، وللاستيلاء على ولاية دلماشيا البحرية ، كما عبر جبال الألب لانقاذ آثار نوريكوم من الملك فافا Fava ، أو فيليثيوس ، ملك الروجيان ، الذى كان مقيما فيما وراء الداتوب • وهزم هذا الملك فى ساحة القتال وأخذ أسيرا ، ونقلت الى ايطاليا جالية كبيرة العدد من الأسرى والرعايا حيث استقرت هناك ، وهكذا نرى روما ، بعد فترة طويلة من الهزيمة والعار ، تدعى لنفسها النصر الذى حازه سيدها المتبربر •

ورغم حرص أدواكر ونجاحه فان مملكته كان يبدو عليهـا مظهر الشقاء والخراب • فمنذ عهد تيبريوس بدأت الزراعة تتدهور ، وكانت هناك شكوى صادقة من أن حياة الشعب الرومانى أصبحت تحت رحمة ما تأتى به الرياح والأمواج • وفى عصر انقسام الامبراطورية واضمحلالها امتنع ورود محاصيل مصر وأفريقيا التى كانت تدفع كجزية للامبراطورية ، وتناقص عدد السكان بصورة مستمرة مع تناقص سبل العيش ، ونضبت موارد البلاد بتأثير الخسائر الفادحة التى نجمت عن الحروب والمجاعات والأوبئة • ولقد رثى القديس أمبروز للخراب الذى حل باقليم آهل بالسكان كان يزدان فيما مضى بمدن مزدهـرة ، مدن بولونا ومودينـــا وريجيوم

وبلاكنتيا · كما أن البابا جيلاسيوس ، الذى كان احد رعايا أدواكر ، يؤكد ، في كثير من المبالغة ، أن الجنس الانساني ئان ينقرض فى أميليا وتسكانا الولايات المجاورة · أما دهماء روما ، الذين كانوا يعيشون على احسانات مولاهم · فقد هلكوا أو اختفوا بمجرد أن توقف سخاؤه ، ثم ان تدهور الفنون دفع بالصناع المجدين الى البطالة والعوز ، وأصبح أعضاء السناتو ، الذين ربما تحملوا فى صبر ما حل ببلادهم من خراب ، يرثون لفقدان ثروتهم الخاصة وما كانوا فيه من ترف · فقد انتزع منهم ثلث أملاكهم الغنية لكى ينتفع بها الغزاة ، وكانت هذه الضياع الواسعة هى العامل الأصيل في خراب ايطاليا · وضاعفت الاهانات من أثر الأضرار التى لحقت بهم ، وكان احساسهم بالآلام الفعلية يزداد حدة بفعل الخوف من شرور أدهى وأمر · وكلما اقتطعت منهم أراض جديدة لجماعات جديدة من المتبربرين ، كان كل عضو من السناتو يخشى أن تمتد أيدى مخططى الأرض المتعسفين الى داره التى يحبها ، أو الى مزرعته التى تعود عليه بأكبر النفع · وكان أقل الناس تعاسة هم أولئك الذين خضعوا صامتين للقوة التى استحالت عليهم مقاومتها · ولما كانوا راغبين فى الحياة ، فقد شعروا بالامتنان للطاغية الذى لم يمس أرواحهم ، وبما أنه المتحكم المطلق فى ثرواتهم ، فان الجزء الذى تركه لهم يجب عليهم أن يتقبلوه كمنحة خالصة منه جاد عليهم بها طواعية واختيارا · وقد خففت حكمة أدواكر وانسانيته من محنة ايطاليا لأنه ألزم نفسه ، كثمن لما حصل عليه من رفعة ، أن يشبع مطالب جمهور داعر عابث · وكثيرا ما تعرض ملوك المتبربرين لمقاومة أبناء وطنهم ، وكثيرا ما عزلهم هؤلاء أو قتلوهم ، كما أن مختلف عصابات المرتزقة من الايطاليين ، التى انضم بعضها الى بعض تحت لواء قائد منتخب ، كانت تطالب بحق أكبر فى الحرية والسلب والنهب · ولا عجب أن ملكية تفتقر الى الوحدة الوطنية والحق الوراثى قد سارعت الى الهلاك ، وبعد حكم دام أربعة عشر عاما غلب أدواكر على أمره ، وقهرته عبقرية ثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وهو ملك تفوق فى فنون الحرب والحكم ، وأعاد للبلاد عصرا من السلم والرخاء ، وما يزال اسمه يثير انتباه الجنس الانسانى ويستحق اهتمامه ·

الفصل السابع والثلاثون
(٣٠٥ ـ ٤٥١)

نشأة الرهبان · أسباب نمو الرهبنة السريع · القديس سيميون « العمود » (١) · تحول المتبربرين الى المسيحية ·

ان العلاقة التي لا تنفصم بين الأمور المدنيـــة والأمور الدينية قد أرغمتني وشجعتني على شرح نمو المسيحية ، والاضطهادات التى تعرضت لها ، وانقساماتها ، وانتصارها النهـائى ، ثم الفســـاد التدريجى الذى اعتورها · وقد تعمدت أن أؤجل تناول حدثين دينيين لهما طلاوتهما فى دراسة الطبيعة الانسانية ، وأهميتهما فى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ـ ١ ـ نظام حياة الرهبنة ـ ٢ ـ تحول المتبربرين الشماليين الى المسيحية ·

١ ـ أدى السلام والرخاء الى وجود نوعين مختلفين من المسيحيين ، هم العاديون والمتقشفون ، وكانت ممارسة الديانة ممارسة طليقة مفتقرة الى الكمال ترضى ضمائر الكثيرين ، فالأمير أو الحاكم ، والجندي أو التاجر ، كانوا جميعا يوفقون بين حماسهم المتقد وعقيدتهم الثابتة وبين ممارسة مهنتهم ، والسعى وراء مصلحتهم واشباع أهوائهم · غير أن المتقشفين الذين أطاعوا تعاليم الانجيل الصارمة وأساءوا تطبيقها ، امتلأت نفوسهم بالحماس العنيف الذى يمثل الانسان فى صورة المجـرم ويمثل الله فى صــورة الطاغية · فنبذوا فى جدية شواغل العصر وملذاته ، وترفعوا عن شرب الخمر وأكل اللحم والزواج ، وعذبوا أجسادهم ، وكبحوا مشاعر الحب فى نفوسهم ، وتقبلوا حياة الفاقة ، ثمنا للسعادة الأبدية · وفى عهد قسطنطين فر المتقشفون من العالم الفاسد المنحل الى العزلة الدائمة أو المجتمع الدينى·

---

(١) (٣٩٠ ـ ٤٥٩م) ويقال انه عاش ثلاثين سنة فوق عمود ـ (الترجمة) ·

وعلى منوال المسيحيين الأوائل في أورشليم ، تخلوا عن استخدام أو امتلاك متاع الدنيا وكونوا جماعات منظمة تتألف من أصحاب الميول الواحدة ، رجالا أو نساء ، واتخذوا لأنفسهم أسماء النساك والرهبان والزاهدين ، تعبيرا عن عزلتهم في صحراء طبيعية أو صحراء من صنعهم · وسرعان ما اكتسبوا احترام العالم الذى نبذوه واحتقروه وأصبحت هذه الفلسفة السماوية الالهية موضع أعظم الاستحسان ، لأنها فاقت ، دون عون من العلم أو العقل ، تلك الفضائل التي حققتها مدارس الفكر الاغريقية بالعمل المضنى · وفي الحق أن الرهبان أصبحوا ينافسون الرواقيين في احتقار الثراء والألم والموت ، وأعادوا في نظامهم المتسم بالذلة صمت الفيثاغوريين وخضوعهم ، واحتقروا في ثبات الكلبيين Cynics وحزمهم كل صور المجتمع المدني وقواعده السلوكية · غير أن أنصار هذه الفلسفة السماوية تطلعوا الى تقليد نموذج أنقى وأكثر كمالا ، فحذوا حذو الأنبياء الذين انسحبوا الى الصحراء ، واسترجعوا حياة التعبد والتأمل التى وضع أساسها الاسينيون Essinians (١) في فلسطين ومصر :

وقد شاهد العالم الروماني بليني Pliny في دهشة قوما يعيشون في عزلة بين أشجار النخيل الى القرب من البحر الميت ، وكانوا لا يمتلكون مالا ، ويتكاثرون دون زواج لأن كثيرا من التائبين والساخطين على الحياة كانوا ينضمون اليهم طواعية بصورة مستمرة ·

وكانت مصر ، الأم الولود للخرافة ، هي التي ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة · واننا لنسمع عن رجل اسمه أنطونيوس ، وهو شاب أمي من أنحاء طيبة الدنيا ، وزع أملاكه الموروثة وهجر أسرته ووطنه ، ونفذ كفارة الرهبنة في تعصب أصيل جريء · ذلك أنه بعد أن قضى فترة طويلة شاقة في اعداد نفسه للرهبنة بين القبور ، وفي بعض خرب مهجور ، تغلغل في جرأة داخل الصحراء في رحلة ثلاثة أيام الى الشرق من نهر النيل ، حتى اكتشف بقعة منعزلة يتوفر فيها الظل والماء ، واستقر أخيرا فوق جبل قلزم الى القرب من البحر الأحمر ، حيث ما يزال هناك دير قديم يحمل اسم القديس وذكراه · ولحقه المسيحيون الى الصحراء في تعبد عجيب وعندما كان يضطر الى الظهور أمام الناس في الاسكندرية ، كان يدعم شهرته في حصافة ووقار ، واكتسب صداقة اثناسيوس الذى راقت له عقيدته ، ومن عجب أن هذا الفلاح المصرى اعتذر في احترام عن دعوة موقرة

---

(١) طائفة دينية صغيرة بين اليهود القدامى كان افرادها يعيشون في تقشف وعزلة ، ويقتسمون فيما بينهم كل شيء – (المترجمة) ·

ارسلها اليه الامبراطور قسطنين • وشاهد هذا البطريرك الشيخ (لأن أنطونيوس بلغ الخامسة بعد المائة من عمره) سلالة كثيرة العدد من أولئك الذين نشأوا على هديه وساروا على المثل الذى ضربه لهم • وتضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان بسرعة كبيرة فوق رمال ليبيا ، وعلى صخور طيبة ، وفى مدن وادى النيل • والى الجنوب من الاسكندرية استوطن خمسة آلاف من النساك جبل النطرون Nitria والصحراء المجاورة • وما يزال فى مقدور الجائل أن يطالع خرائب خمسين ديرا أقامها تلاميذ أنطونيوس فى تلك التربة الجرداء • وفى طيبة العليا استقر باخوميوس وألف وأربعمائة من الاخوة فى جزيرة تابن Tabenne المهجورة • وأسس هذا الراهب المقدس على التوالى تسعة أديرة للرجال وديرا للنساء، وفى بعض الأحيان كان يجتمع فى عيد الفصح خمسون ألفا من رجال الدين الذين يتبعون قواعد نظامه الملائكى ، كما أن مدينة أكسيريوخوس Oxyrhyuchus الضخمة الآهلة بالسكان ، وهى مركز الأرثوذكسية المسيحية ، خصصت معابدها ، ومبانيها العامة ، بل واستحكاماتها ، لأغراض البر والتعبد ، وقد قدر الأسقف ، الذى كان يعظ فى اثنتى عشرة كنيسة ، عدد الراهبات والرهبان بعشرة آلاف من النساء وعشرين ألفا من الرجال • وكان المصريون يخفرون بهذه الثورة العجيبة ، ويحدوهم الأمل ، بل ويعتقدون أن عدد الرهبان كان مساويا لبقية السكان ، وقد تردد الأعقاب ذلك القول الذى كان ينطبق فيما مضى على الحيوانات المقدسة فى البلد نفسه ، وهو أن مصر بلد من الأسهل فيه أن تجد الها من أن تجد رجلا •

وأدخل اثناسيوس فكرة الرهبنة وممارستها فى روما ، حيث فتح تلاميذ أنطونيوس مدرسة لهذه الفلسفة الجديدة ، حين رافقوا مطرانهم الى أعتاب الفاتيكان المقدسة • وأثار المظهر الهمجى الغريب لهؤلاء المصريين فى أول الأمر فزع الناس واحتقارهم ، ولكنه دفعهم فى النهاية الى استحسانه والتحمس لتقليده ، وحول أعضاء السناتو ، والسيدات الثريات بنوع خاص ، قصورهم و (فلاتهم) الى بيوت دينية ، وتضاءلت المؤسسات الصغيرة ، مؤسسة العذارى الست (١) ، الى جانب الأديرة الكثيرة التى أقيمت على أطلال المعابد القديمة وفى وسط ساحة روما •

---

(١) فستا Vesta ربة الأسرة الطاهرة عند قدماء الرومان والعذارى الست فى الديانة الرومانية القديمة ، كن مكرسات للالهة فستا •

وثمة شـــاب ســـورى اسمه هيلاريون (١) تحمس للمثل الذى ضربه أنطونيوس ، فأقــام له مأوى موحشــا على شــاطىء رملى بين البحر وأحد المستنقعات على بعد سبعة أميال من مدينة غزة ، وأشاعت هذه الكفارة الصارمة التى ثابر عليها ذلك الرجل القديس ثمانى وأربعين سنة ، حماسا مماثلا ، فكان كلما ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة فى فلسطين سار وراءه ألفان أو ثلاثة آلاف من الزهاد • وكذلك اكتسب باسيليوس شهرة خالدة فى تاريخ الرهبنة الشرقية • فقد تذوق عقله علم أثينا وبلاغتها ، وكان طموحه أكثر من أن يشبعه منصب رئيس أساقفة (٢) قيصرية ، فانسحب الى بنطس حيث عاش فى عزلة موحشة ، وفى فترة من الوقت رأى من المناسب أن يسن القوانين للمستعمرات الروحية التى نشرها بكثرة على طول شــاطىء البحر الأسود • وفى الغرب كان هناك مارتن ، أســقف مدينة تور ، وهو جندى ، وناســك ، وأسقف ، وقديس ، وهو الذى أسس أديرة الغال ، وعندما مات شيعه الى قبره ألفان من تلاميذه ، ولهذا نرى مؤرخه الفصيح يتحدى صــحراوات طيبة أن تجود ببطل فى مثل فضيلته رغم أن مناخها أكثر ملاءمة • ولم يكن تطور الرهبان أقل سرعة أو شمولا من تطور المسيحية نفسها ، فامتلأت كل ولاية ، من ولايات الامبراطورية ، بل وكل مدينة على الأقل ، بجماهيرهم المتزايدة ، ووقــع اختيار الزهاد على الجزائر الكئيبة الجرداء المتناثرة فى البحر التسكانى ، من جزيرة لرنس Lerins الى جزيرة ليبارى Lipari لتكون موطن منفــاهم الاختيــارى • وكان هناك اتصــال دائم سهل بين ولايات العالم الرومانى عن طريــق البحر وعن طريق البر ، وتدل حياة هيــلاريون على السهولة التى استطاع بها ناسك فقير من فلسطين أن يعبر مصر ، ويركب البحر الى صقلية ، ويفر الى أبيروس ، ويستقر أخيرا فى جزيرة قبرص(٣):

(١) انظر كتاب « حياة هيلاريون » The Life of Hilarion تاليف سانت جيروم • وكذلك يقص نفس المؤلف قصص بول وهيلاريون ومالخوس فى طلاوة عجيبــة • والعيب الوحيد فى هذه المقالات هو أنها تفتقر الى الصدق والبداهة •

(٢) انظر « حياته » والمحاولات الثلاث ، تاليف سلبكيوس ساويرس Sulpicius Severus الذى يؤكد أن بائعى الكتب فى روما كانوا مغتبطين لان كتابه الشهير كان يباع بسهولة وسرعة •

(٣) عندما أبحر هيلاريون من باريتونيوم الى رأس باخينوس عرض أن يقدم نســخة من الانجيل أجراً للرحلة •

وهناك راهب من بلاد الغــال اسمه بوستيوميان Pothumian زار مصر ووجد سفينة تجارية ذاهبة من الاسكندرية الى مرسيليا ، وأكمل الرحلة فى ثلاثين يوما •

واثناسيوس الذى وجه كتابه « حياة القديس أنطونيوس » الى الرهبــان الأجانب ، اضطر الى الاسراع فى تاليف الكتاب حتى يتم قبل ابحار الســفن •

وقد اعتنق المسيحيون اللاتين أنظمة روما الدينية ، كما أن الحجاج الذين زاروا أورشليم كانوا ينقلون النموذج الصادق لحياة الرهبنة الى أبعد أرجاء الأرض • وانتشر تلاميذ أنطونيوس فيما وراء المدار ، فذهبوا الى امبراطورية أثيوبيا المسيحية ، كما أن دير بانكور فى مقاطعة فلنتشر Flintshire الذى كان يضم أكثر من ألفين من الاخوة ، نشر مستعمرة كبيرة العدد بين متبربرى أيرلندة ، وكذلك أشعت جزيرة أيونا ، احدى جزائر الهبريديز ، وهى جزيرة زرعها الرهبان الأيرلنديون ، أشعت هذه الجزيرة فى الأرجاء الشمالية شعاعا مبهما من العلم والخرافة •

أسباب سرعة تطور الرهبنة

هؤلاء التعساء الذين اعتزلوا الحياة الاجتماعية كانوا مدفوعين الى حياة الرهبنة بدافع من العبقرية الخرافية ، وهى عبقرية مبهمة لا تخبو نارها ، وكان عزمهم المشترك يستند الى المثل الذى ضربه ملايين من الجنسين ، من كل عمر ، ومن كل مرتبة ، وكان كل مهتد من الداخلين الى رحاب الدير مقتنعا بأنه عبر الطريق الشائك الوعر الى السعادة الأبدية (١) • غير أن فعل هذه الدوافع الدينية كان يحدده بصورة مختلفة خلق الناس ووضعهم ، فالعقل قد يقهر أثرها ، والعاطفة قد توقف ذلك الأثر ، غير أن هذه الدوافع الدينية كان لها الأثر على ضعاف العقول من النساء والأطفال ، وكانت قوتها تزداد بفعل ندم على خطيئة خفية أو محنة طارئة ، ومن الجائز أنها كانت تستمد بعض العون من بعض الاعتبارات الدنيوية ، كاعتبارات الغرور أو المصلحة • وكان من الطبيعى أن يسود الاعتقاد بأن الرهبان الأتقياء المتواضعين ، الذين نبذوا العالم لكى يعملوا على خلاص أنفسهم ، هم أجدر الناس بأن يتولوا حكم المسيحيين حكما روحيا • وكان الناسك ينتزع من صومعته على غير رغبة منه ويوضع على العرش الأسقفى وسط تهاليل الناس : وكانت أديرة مصر وبلاد الغال والشرق موردا منتظما متصلا يجىء منه القديسون والأساقفة • وسرعان ما اكتشفت الأطماع ذلك الطريق السرى الذى يؤدى الى الحصول على الثروة والوصول الى المناصب • ومن ثم فان الرهبان ذوى الصيت الذائع ، الذى ارتبطت سمعتهم بشهرة طائفتهم ونجاحها ، عملوا جاهدين على

---

(١) خصص كريسوستم ثلاثة كتب لاطراء حياة الرهبنة والدفاع عنها • وقد شجعه المثل الذى ضرب فى قصة فلك نوح على أن يدعى ان المختارين وحدهم (الرهبان) هم الذين يمكن أن ينالوا الخلاص • وفى كتب أخرى أصبح أكثر تسامحا ، وشبه الرهبان بالشمس والقمر والنجوم وفى مقارنته الطريفة بين الملك والراهب ، يفرض (وهذا بعيد عن الانصاف) أن الملك سوف يلقى ثوابا أقل ، وعقابا أشد •

مضاعفة عدد أترابهم الأسرى ، فكانوا يدسون أنفسهم وسط الأسر النبيلة الغنية ، ويستخدمون فنون الملق والاغراء المتمقة لجذب أولئك المهتدين الذين يمكن أن يغدقوا على مهنة الرهبنة من ثرائهم ويضفوا عليها من مكانتهم • وكان الوالد الساخط يولول على فقدان ابن ربما كان ابنه الوحيد ، كما كانت العذراء الساذجة يضللها الغرور ويدفعها الى خرق قوانين الطبيعة ، وكذلك كانت السيدة الثرية تتطلع الى الكمال الوهمي حين تنبذ ميزات الحياة العائلية • وعلى هذا النحو أذعنت الأرملة المرموقة بولا الى اغراء جيروم (١) وفصاحته ، واستمالها أن تصبح ابنتها يوستوخيوم Eustochium عروس الله (٢) ، فكرست ابنتها هذه للرهبنة • وغادرت بولا روما ، تاركة ابنها الوليد ، بناء على مشورة مرشدها الروحي ، وذهبت في صحبته الى قرية بيت لحم المقدسة ، وهناك أسست مستشفى وأربعة أديرة ، وحصلت ، باحساناتها وكفارتها ، على مكانة رفيعة مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية • ولا شك في أن هذه القلة النادرة من أمثال هؤلاء التائبين ضربوا مثلا لعصرهم ، وكانوا عنوانا لمجده وعظمته ، غير أن الأديرة كانت مليئة بجمهور من الدهماء المغمورين الحقراء ، الذين كانوا يربحون في أديرتهم أكثر بكثير مما ضحوا في دنياهم • فالفلاحون ، والعبيد ، والصناع كانوا يهربون من الفاقة والازدواء الى مهنة شريفة يخفف من محنها الظاهرة حكم العادة ، واستحسان الناس ، والتراخي الخفي في النظام (٣) • كما أن رعايا روما الذين تعرضت ثرواتهم وأشخاصهم لخراج باهظ غير متكافىء كانوا يهربون من ظلم الحكومة الامبراطورية • أما الشبان الجبناء فقد كانوا يفضلون كفارة حياة الرهبنة على أخطار الحياة العسكرية • وكذلك كان سكان الولايات

---

(١) يتحدث جيروم في كتبه حديثا طويلا عن سيداته التقيات • والبحث الخاص الذي سماه « رثاء بولا » (Epitaph of Paula) يعتبر مدحا يتسم بالمغالاة • وفي المقدمة زهو يدعو الى السخرية •

وفيها يقول :

« لو أن كل أطرافي تحولت الى ألسنة ، وكل أعضاء جسمي أصبح لها صوت انساني ، لما استطعت أن •• » الى آخره •

(٢) تلبس الراهبة خاتما في اصبع يدها اليمنى ، ثم ينقل الى يدها اليسرى في احتفال ديني ويعتبر هذا رمزا الى أنها نبذت الزواج الدنيوي وأصبحت عروس الله بمعنى أنها نذرت حياتها للرهبنة ـ (الترجمة) •

(٣) هناك راهب من اخوة الدومنيكان كان يعيش في مدينة قادس في دير خاص بهؤلاء الأخوة وسرعان ما أدرك أنه لم تكن هناك عبادة ليلية تزعج راحتهم ، « مع انهم لم ينسوا دق الأجراس لدعوة الشعب الى التعلم والتهذيب » •

من كل مرتبة ، هم الذين تملكهم الذعر ، وعمدوا الى الفرار أمام المتبربرين. كان كل هؤلاء يجدون فى الأديرة مأوى وغذاء ، وهكذا غصت هذه الأماكن الدينية المقدسة بفرق كاملة من هؤلاء الناس ، وأصبحت الأداة التى أنقذت الأفراد من محنتهم سببا من الأسباب التى أوهنت قوة الامبراطورية وحطت من ثباتها وعزمها ٠

وكانت مهنة الرهبنة عند الأقدمين عملا اختياريا من أعمال العبادة ، وكان الراهب المتقلب فى حماسه الدينى مهددا بانتقام الله الأبدى اذا تخلى عن عبادته ، غير أن أبواب الدير كانت تظل مفتوحة للندم والتوبة ٠ ومن ثم فان الرهبان ، الذين كان ضميرهم يستمد قوة من عقولهم أو عواطفهم ، كان فى مقدورهم التحلل من الرهبنة والعودة الى وضع المواطنين والعلمانيين ، بل ان الراهبات ، عرائس المسيح ، كان فى مقدورهن العدول عن الرهبنة وتقبل الغرامات المشروعة من محب دنيوى ٠ غير أن الفضائح ، وازدياد الخرافة ، أوحت بوجوب فرض قيود أشد تلائم الحال ٠ فكان الرجل الذى يعد للرهبنة يوضع تحت التجربة فترة كافية ، ثم يدعم ولاءه بأن ينذر نفسه نذرا رسميا أبديا ، وكانت قوانين الكنيسة والدولة تقر ارتباطه الذى لا رجعة فيه ٠ فاذا هرب واحد من هؤلاء ، اقتفى أثره ، واعتقل ، وأعيد الى سجنه الدائم ٠ كما أن تدخل الحاكم فى مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخففان بعض الشىء من العبودية الذليلة التى اتسم بها نظام الرهبنة ٠ وكانت أعمال الراهب ، وكلماته ، وحتى أفكاره ، تحددها قواعد صارمة ، أو يحددها رئيس متقلب المزاج ، واذا ارتكب أتفه الذنوب عوقب بالتشهير المشين ، أو الحبس أو الصيام غير العادى ، أو الجلد القاسى ٠ أما العصيان ، أو التضجر ، أو المماطلة ، فانها كانت تعتبر فى عداد الخطايا الرهيبة الممقوتة (١) ٠ وكان الخضوع الأعمى لأوامر رئيس الدير ، مهما بدت بعيدة عن الصواب ، أو حتى اجرامية ، فانها كانت المبدأ الأعلى ، والفضيلة الأولى للرهبان المصريين ، وكثيرا ما كانوا يتعرضون لأشد الاختبارات حتى يتدربوا على الصبر ، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يتلقون توجيها بازالة

---

(١) كانت قاعدة كولمبانوس Columbanus ، السائدة فى الغرب ، تقضى بتوقيع عقوبة مائة جلدة كقصاص للذنوب التافهة ٠ وقبل عصر شارلمان كان رؤساء الأديرة يقطعون أطراف الرهبان ويفقأون عيونهم ، وهى عقوبة أقل قسوة بكثير من السجون أو القبور المشيدة تحت سطح الأرض ، والتى ابتكرت بعد ذلك ٠٠

انظر مقالا رائعا كتبه مابيون Mabillon الذى يبدو أنه فى هذا الشأن كان يكتب بوحى من عبقرية الانسانية وجزاء مجهوده هذا أستطيع أن أتسامح فى دمعة فاندوم Vandôme المقدسة ٠

صخرة ضخمة ، أو بالمثابرة على رى عصا يابسة مغروسة فى الأرض لمدة ثلاث سنوات حتى يخضر عودها وتزدهر وتصير شجرة ، أو بعبور أتون من النـار ، أو بقذف طفلهم فى بركة عميقة • وثمة كثير من القديسين ، أو المجانين ، خلدت أسماؤهم فى قصص الرهبنة بفضل ما أظهروه من طاعة تتسم بالجرأة والتهور • ولا شك فى أن عادات التصديق والخضوع هذه قد حطمت حرية العقل وهى منبع كل احساس كريم عاقل ، وكان الراهب اذا ما اكتسب رذائـل العبيد ، يذعن فى ورع الى عقيدة طاغيته الدينى وأهوائـه • ومن ثم فـان جمهورا كبيرا من المتعصـبين الذين لا يعرفون الخوف ، أو التعقل ، أو الانسانية ، طغى على سـلام الكنيسة الشرقية ، واعترفت القوات الامبراطورية ، دون خجل ، أنها كانت لا تخشى مقابلة أشد المتبربرين ضراوة مثلما تخشى هؤلاء الناس •

وكثيرا ما كانت الخرافة تشكل الأردية الغريبة التى يلبسها الرهبان• وتكسبها قدسية ، غير أن شذوذهم الواضح كان مبعثه فى بعض الأحيان تمسكهم جميعا وبصورة واحدة بنموذج بدائى بسيط أصبح فى نظر كافة الناس مثارا للسخرية بفعل التطورات التى اعتورت طراز الملبس • وانك لترى الأب بنديكت ، مؤسس الرهبة البندكتية (١) ، ينبذ فى صراحة كل فكرة عن حرية الراهب فى اختيار ملبسه ، أو ميزة ذلك الملبس ، ويحض تلاميذه فى جدية على ارتداء الملابس العادية المريحة التى يلبسها أهل البلاد التى يقطنونها • وكانت عادات الرهبـان الأقدمين فى الملبس تختلف باختلاف المناخ وطريقة المعيشة ، فكان لا يهمهم أن يرتدوا جلود الأغنام التى يلبسها فلاحو مصر، أو العباءة التى يرتديها فلاسفة الاغريق• وفى مصر كانوا يسـتخدمون الكتان لأنه رخيص الثمن ومصـنوع فى البلاد ، ولكنهم فى الغرب كانوا ينبذون مثل هذه السـلعة الغالية التى تعتبر ترفا أجنبيا • وكان من عادة الرهبـان أن يقصـوا شعورهم أو يحلقوها • ويغطوا رءوسهم ووجوههم حتى لا يشاهدوا أشياء مدنسة ، أما أقدامهم وأرجلهم فكانت عارية الا فى برد الشتاء القارص ، وكانوا يتوكأون على عصى طويلة تشد من خطواتهم البطيئة الضعيفة • وكان منظر الزاهد الأصـيل مفزعـا نابيـا ، وكل احساس منفر للانسان كان يعتبر مقبـولا لدى الله ، كمـا أن المبدأ الملائـكى فى جزيرة تابن Tabenne كان يدين عادة غسيل الأطراف بالماء ومسحها بالزيت • وكان الرهبـان

---

(١) رهبنة القديس بنديكت St. Benedict (٤٨٠ ـ ٥٤٣ م) التى أسسها فى مونت كاسينو ـ (الترجمة)

المخشوشنون يفترشون الأرض على حصيرة خشنة أو حرام خشن ، ويستخدمون حزمة من أوراق النخيل يجلسون عليها نهاراً ، ويسندون اليها رؤوسهم ليلاً • أما صوامعهم فقد كانت أكواخاً منخفضة ضيقة من أتفه المواد ، وموزعة فى الشوارع بصورة منتظمة تشكل فى مجموعها قرية كثيرة السكان تضم داخل السور المشترك كنيسة ، ومستشفى ، وربما مكتبة ، وبعض المرافق الضرورية ، وحديقة ، ونافورة أو مستودعا للماء العذب • وكان كل ثلاثين الى أربعين من الاخوة يكونون أسرة لها نظامها وغذاؤها المستقل • أما الأديرة الكبيرة فى مصر فقد كانت تتألف من ثلاثين أو أربعين أسرة •

والمتعة والذنب لفظان مترادفان فى لغة الرهبان ، وقد اكتشفوا بالتجربة أن الغذاء القليل والصيامات الصارمة هى أجدى وقاية تحمى الانسان من شهوات الجسد الدنيئة • ولم تكن قواعد الصيام ، التى فرضوها أو مارسوها ، دائمة أو من نوع واحد : فكان الاحتفال المرح بعيد العنصرة يعوض عن التقشف غير العادى الذى يمارسونه فى الصيام الكبير • غير أن حماس الأديرة الجديدة تراخى شيئاً فشيئاً ، ولم يستطع رهبان بلاد الغال الشرهون أن يقلدوا فضيلة الصبر والاعتدال التى اتسم بها رهبان مصر • فتلاميذ أنطونيوس وباخوميوس كانوا يقنعون بوجبة يومية (١) قوامها اثنتا عشرة أوقية من الخبز يقسمونها على أكلتين بسيطتين ، احداهما بعد الظهر والثانية فى المساء • وكان يعتبر فضلا ، بل وواجبا ، أن يتخلف الراهب عن الخضروات المسلوقة التى تقدم فى قاعة الأكل • غير أن رئيس الدير كان فى بعض الأحيان يظهر كرما فائقا ويجود عليهم بالكماليات كالجبن ، والفاكهة (والسلاطة) وأسماك النيل الصغيرة المجففة • وبالتدريج زادت كمية أسماك البحر أو النهر المسموح بها للرهبان أو التى يجوز السماح بها ، غير أن أكل اللحم ظل فترة طويلة مقصورا على المرضى والمسافرين وعندما ساد أكل اللحم بالتدريج فى أديرة أوربا الأقل صرامة ، سمح ، بلحم الطيور البرية أو الأليفة فقط ، كان لحمها أقل دنسا من لحم حيوانات الحقل الكبيرة ، فياله من تمييز عجيب ! • وكان الماء هو الشراب النقى البرىء لحق البدائيين ،

---

(١) انظر كتاب The Slate of the Prisons in Engalnd and Wales)- ١٧٨٤) تاليف مستر هوارد Mr. Howard - صحيفة ٤٠ - حيث يقول :

« أولئك الذين يشربون الماء فقط ، دون أية سوائل مغذية ، يجب أن يخترف لهم رطل ونصف من الخبز يوميا » •

ولهذا فان مؤسس الرهبنة البنيدكتية حزن عندما اضطره افراط العصر الى التنازل عن نصيب يومي من النبيذ قدره نصف التر ، وكانت كروم ايطاليـــا تيسر عليه منح هذا القدر من النبيذ · وعندما عبر تلاميذه الظافرون جبال الألب ونهر الراين وبحر البلطيق كانوا يطلبون بدلا من النبيذ قدرا مناسبا من البيرة أو خمر عصير التفاح ·

وكان طالب الرهبنة المتطلع إلي فضيلة الفقر التي يحض عليهـا الانجيل ، ينبذ ، بمجرد انضمامه الى جماعة رهبان منظمة ، فكرة امتلاك أي شيء يختص به أو ينفرد به (١) دون غيره · بل انه كان لا يستخدم لفظ الامتلاك نفسه · وكان الاخوة يعتمدون على عملهم اليدوي ، فالعمل في شريعتهم واجب يحضون عليه بكل قوة ، على اعتبار أنه كفارة وتدريب وعلى أساس أنه أكرم وسيلة للحصـــول على غذائهم اليومي · وكانوا يزرعون بأيديهم تلك الحدائق والحقول التي كثيرا ما كانوا يستخلصونها بجهدهم من الغـابات والمستنقعات · وكان الرهبان يؤدون طواعية كل الحرف العديدة التي لابد منها للحصول على الملبس والمأوى والأواني وكانت دراسات الرهبنة ، في أكثر الأحوال ، لا تعمل على تبديد سحب الخرافة ، بل تزيدها دركنا ومع ذلك فان ما اتسم به بعض علماء النساك من الحماس أو حب المعرفة والاستطلاع هو الذى هذب العلوم الدينية ، بل والعلوم الدنيوية ، ولابد للأجيال التالية من أن تعترف فى شكر وامتنان بأن أقلام هؤلاء الرهبان هى التى دأبت دون كلل أو ملل على حفظ آثار اليونان والرومان ، وضاعفتها ، غير أن الرهبان الذين لم يرتفع عملهم الى هذا المستوى ، وخاصة فى مصر ، كانوا يقنعون ، بأعمال صامتة يؤدونها وهم جالسون ، فيصنعون النعال الخشبية ، أو السلال والحصائر من أوراق النخيل المضفورة وكان الفائض لديهم مما يستخدمونه فى الأغراض المحلية ، يسد عن طريق التجارة حاجات المجتمع ، وكانت سفن تابن Tabenne وأديرة طيبة الأخرى تسير فى النيل شمالا حتى الاسكندرية · وفى الأسواق المسيحية كان من الجائز أن ترتفع القيمة الاسمية للمصنوعات بفضل قدسية صانعيها ·

---

(١) أمثال تعبيرات « كتابى » ، « ردائى » ، « حذائى » لم تكن محظورة بهذا القدر بين رهبان الغرب ، وكانت قاعدة كولمبانوس تقضى بجلدهم ست جلدات ··

ويبدو أن المؤلف الساخر لكتاب Ordre Monastique ، وهو الذى يسـخر من رقة الأديرة الحديثة ، يبدو أنه لا يدرى شيئا عن سخف الرهبان الأقدمين ·

غير أن الرهبان تخلوا رويدا عن ضرورة العمل اليدوى ، وكان الراهب الذى يؤهل للرهبنة يستمال الى منح ثروته للقديسين الذين اعتزم أن يقضى بقية حياته فى مجتمعهم ، وسمح له التساهل الضار من جانب القوانين بأن يتسلم أية مواد تؤول اليه فى المستقبل عن طريق الوصية أو الميراث ، ثم يخصصها لهؤلاء القديسين ، وعلى هذا النحو قدمت ميلانيا طبقا من الفضة وزنه ثلاثمائة رطل ، كما اقترضت يولا دينا كبيرا للتخفيف عن الرهبان الذين كانوا موضع حبها ، وعلى ذلك تفضل الرهبان بمنح صلواتهم وكفارتهم للخاطئتين الثريتين السخيتين (١) • وضاعف مرور الزمن بصورة مستمرة من أملاك الأديرة المعروفة ، أما أحداث الزمن فقلما أنقصتها : وانتشرت هذه الأديرة فى القرى والمدن المجاورة ، وقد لاحظ المؤرخ الكافر زوسيموس Zosimos أن الرهبان المسيحيين ، خدمة للفقراء ، قد هبطوا بجزء كبير من الناس الى حالة التسول • ومع ذلك فانهم طالما كانوا محتفظين بغيرتهم الأولى ، فقد اعتبروا أنفسهم حفظة أخيارا أمناء على الصدقات التى يؤتمنون عليها غير أن الرخاء أفسد نظامهم ، فاتخذوا لأنفسهم بالتدريج مظهر الكبرياء الذى يبعثه الثراء ، وفى نهاية الأمر انغمسوا فى ترف السعة وبحبوحة العيش • وقد تكون فخامة العبادة الدينية ، والدوافع النبيلة التى دفعتهم الى بناء مساكن قوية متينة لمجتمعهم الخالد ، قد تكون كل هذه الأشياء مبررا لبذخهم العام ، غير أن كل عصر من عصور الكنيسة قد اتهم اباحية الرهبان المنحلين الذين لم يعودوا يذكرون الهدف من نظام الرهبنة ، بل انغمسوا فى ملذات الدنيا الحسية الباطلة التى كانوا نبذوها ، وأساءوا بصورة فاضحة استخدام الثروات التى حصل عليها مؤسسو الرهبنة بفضائلهم القوية الصارمة (٢) • ومن الجائز أن تراجعهم الطبيعى عن مثل هذه الفضيلة المؤلمة الخطيرة وانحدارهم الى الرذائل البشرية العادية ، من الجائز ألا يثير ذلك كثيرا من الحزن والسخط فى عقل الفيلسوف •

---

(١) أرادت ميلانيا أن تحدد قيمة هديتها ، فأجابها الراهب بامبو Bambo اجابة رائعة قائلا :

« اتمنحين هذه الهدية لى أم لله ؟ فاذا كانت لله فان الله الذى يعلق الجبال فى ميزان ليس فى حاجة الى أن نخبره عن وزن هذا الطبق » •

(٢) سمعت فى مكان ما أو قرأت فى كتاب ما عن الاعترافات الصريحة التى ادلى بها رئيس دير لرهبان البنديكت • وهو يقول :

(لقد نذرت الفقر ، وكسبت من وراء ذلك مائة الف « كرون » سنويا • ونذرت الطاعة ، وارتفعت بفضلها الى مكانة حاكم سيد) •

ولقد نسيت مكسبه من وراء نذره العفة •

وكان الرهبان البدائيون يقضون حياتهم فى التوبة والعزلة ، لا تزعجهم مختلف الأعمال التى تشغل وقت العقلاء الكادحين من بنى البشر ، والتى تكسب ملكاتهم مرانا وتدريبا • وكلما كان يؤذن لهم بمجاوزة نطاق الدير ، كان يسمح لزميلين بالخروج ، على أن يكون الواحد منهما حارسا على زميله ورقيبا على أعماله بدافع من الغيرة المتبادلة ، وبعد عودتهما كان يفرض عليهما أن يتناسيا ، أو على الأقل يكتما فى صدريهما ، كل ما شاهداه أو سمعاه فى العالم • واذا زار الدير غرباء من معتنقى العقيدة الأرثوذوكسية (الصحيحة) كان الرهبان يكرمون وفادتهم فى بيت مستقل ، غير أن أحاديثهم الخطيرة كانت تحصر فى نطاق نخبة مختارة من الرهبان كبار السن ذوى الحكمة والاخلاص • وكان الراهب المستبعد لا يسمح له باستقبال أصدقاء أو أقارب الا فى حضور هؤلاء الكبار ، فاذا صدم شعور أخت رقيقة ، أو والد عجوز باصراره على رفض كلمة معهم أو نظرة اليهم ، كان ذلك من جانبه عملا يستحق عليه عظيم التقدير • وكان الرهبان أنفسهم يقضون حياتهم دون اتصالات شخصية ، وبين جمهور جمعته الصدفة ، وأصبح حبيس السجن نفسه ، بحكم الاضطرار أو الهوى • وليس لدى الرهبان المتنسكين كثير من الأفكار أو الأحاسيس ينقلونه الى غيرهم ، كما أن رئيس الدير هو الذى يمنحهم تصريحا خاصا يحدد فيه وقت زياراتهم العادية وفترة دوامها ، وهم يتناولون طعامهم صامتين ، ويغطون رءوسهم بحيث لا يشاهد بعضهم بعضا • والدراسة هى الملاذ الوحيد للانسان فى عزلته ، غير أن الصناع والفلاحين الذين امتلأت بهم مجتمعات الأديرة لم يتلقوا من التعليم ما يهيئهم أو يؤهلهم لأية دراسات حرة • ومن الجائز أنهم كانوا يلجأون الى العمل ، غير أن غرورهم بكمالهم الروحى كان يغريهم على احتقار ممارسة العمل اليدوى ، وبدهى أن العمل الذى لا يهواه صاحبه لابد أن يكون عملا ضعيفا فاترا •

وكانوا يقضون النهار فى صوامعهم ، ويستغلونه ، حسب ايمانهم وغيرتهم ، فى صلوات يتلونها بصوت مسموع ، أو فى صلوات صامتة • ثم يجتمعون فى المساء ، ويستيقظون فى الليل للعبادة العامة التى يقيمها الدير ، والتى تحدد لحظتها الدقيقة نجوم الليل التى قلما تحجبها السحب فى سماء مصر الصافية • وكنت تسمع صوت نفير أو بوق يدعو الى الصلاة ، ويخرق سكون الصحراء مرتين كل ليلة • وحتى النوم وهو آخر ملاذ للبؤساء التعساء ، كان يقاس ويحسب فى صرامة ، وكانت ساعات الفراغ التى يقضيها الراهب تمر فى بطء دون عمل أو متعة • لهذا كان قبل انتهاء كل نهار يتهم الشمس مرارا وتكرارا بالتلكؤ الذى يثير الملل • وفى هذه

الحالة المتعبة المجهدة كانت الخرافة تطارد أولئك البؤساء المتعلقين بها ، وتعذبهم ، وراحة البال التى ذهبوا الى الدير ينشدونها كانت تزعجها فكرة التوبة المتأخرة ، والشكوك الدنسة ، والشهوات الأثيمة • ولأنهم كانوا يعتبرون كل دافع طبيعي خطيئة لا تغتفر ، فقد كانوا يرتعدون دواما على حافة هاوية ملتهبة لا قرار لها • وفى بعض الأحيان كان الجنون أو الموت ينقذ هؤلاء الضحايا البائسين من كفاحهم المؤلم ضد المرض واليأس • فأقيم فى القرن السادس مستشفى فى أورشليم لعدد صغير من أولئك التائبين الزاهدين الذين فقدوا صوابهم • وقبل أن يصل هؤلاء الرهبان الى هذه الحالة القصوى من الجنون الأكيد كانت تتراءى لهم رؤى شكلت مادة غزيرة فى تاريخ ما وراء الطبيعة • وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الهواء الذى يستنشقونه مملوء بأشباح الأعداء غير المنظورة ، وبشياطين لا يحصى لها عدد ، وكلها تتحين كل فرصة ، وتبدو فى كل شكل ، لتخيف أو فضلا عن ذلك لتغرى ما لديهم من فضيلة تفتقر الى الحماية والصون • وكانت أوهام التعصب المضطرب تخدع خيالهم ، بل وتضلل حواسهم ، ولا شك فى أن الناسك الذى يطغى النوم اللاارادى على صلواته التى يتلوها فى منتصف الليل ، من السهل أن يخلط بين أشباح الفزع وبين أطياف الفرح التى شغلت أحلام نومه وأحلام يقظته •

سانت سيميون « العمود »

كان الرهبان ينقسمون الى طائفتين ، رهبان الكاينوبيت **Caenobite** الذين يعيشون تحت نظام مشترك رتيب ، والرهبان الزهاد **Anachorets** الذين يمارسون العبادة الصارمة المتزمتة فى عزلة عن الناس وبطريقتهم الخاصة • وكان المتطرفون فى تقواهم ، أو فى طموحهم ، من الاخوة الروحيين ، ينبذون الدير كما نبذوا العالم • وكانت أديرة مصر وفلسطين وسوريا المتغالية فى حماسها الدينى محاطة بدائرة بعيدة من صوامع منعزلة يعيش فيها الرهبان ، ويمارسون فيها كفارة مبالغا فيها بدافع من المنافسة والرغبة فى نوال التقدير والاستحسان ، وكانوا يحملون من الصلبان والقيود ما ينوءون تحت أثقاله الأليمة ، ويحيطون أعناقهم وأطرافهم الهزيلة الضامرة بالعقود ، والأساور ، والقفازات ، ودروع الأرجل المصنوعة من الحديد السميك ، وطرحوا عن أجسادهم فى احتقار كل ملبس يضايقهم ولا يحتاجون اليه • فاذا ما تجرد بعض القديسين

الهمج من ملابسهم ، رجالا أو نساء ، وأصبحت أجسادهم العارية لا يسترها شيء سوى شعورهم ، صاروا موضع الاعجاب . وكانوا يتطلعون الى الهبوط بأنفسهم الى الحالة البدائية البائسة التى لا يكاد يمتاز فيها الحيوان الانسانى عن أقاربه من الحيوانات الأخرى ، وقد اشتق أبناء طائفة الزهاد Anachorets الكثيرة العدد اسمهم هذا من العادة الوضيعة التى درجوا عليها ، وهى أنهم كانوا يشاركون قطعان الماشية فى أكل حشائش الأرض فى حقول العراق . وكثيرا ما اغتصبوا جحور بعض الحيوانات الضارية التى أرادوا التشبه بها ، ودفنوا أنفسهم فى بعض الكهوف المظلمة التى نحتها الفن ، أو نحتتها الطبيعة فى الصخر ، وما تزال محاجر الرخام فى طيبة تحمل آثار كفارتهم . وكان المفروض أن أكثر النساك كمالا هم أولئك الذين يقضون أياما كثيرة دون طعام ، وليالى كثيرة دون نوم ، وسنوات كثيرة دون التحدث الى أحد . ويا لمجد ذلك «الرجل» (وانى هنا أسيء الى ذلك الاسم) الذى كان يبتدع صومعة ذات طراز عجيب يتعرض فيها لقسوة الطقس فى مختلف الفصول ، أو يتخذ لنفسه جلسة تحقق الغرض نفسه ! .

ومن بين أبطال حياة الرهبنة هؤلاء، راهب اسمه سيميون (العمود) خلد اسمه وعبقريته بابتكار عجيب فريد ، هو كفارة هوائية . فعندما كان هذا الشاب السورى فى الثالثة عشرة من عمره ترك مهنة الرعى . وقذف بنفسه فى دير من هذه الأديرة الصارمة . وبعد أن قضى فترة طويلة مؤلمة فى الاعداد للرهبنة ، أنقذ فيها مرارا من الانتحار نتيجة ممارسته ورعه وتقواه ، استقر فوق جبل يقع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا الى الشرق من أنطاكيا . وهناك قبع داخل (مندرة) أو دائرة من الأحجار ، وربط نفسه بقيد ثقيل . وبعد ذلك ارتقى عمودا كان فى الأصل يرتفع تسعة أقدام عن الأرض ، ثم رفعه على التوالى الى ستين قدما . وفى هذا الوضع المرتفع الأخير تحمل الزاهد السورى حرارة ثلاثين صيفا وبرد ثلاثين شتاء . وتعلم بالتعود والمران أن يظل فى هذا الوضع الخطير دون أن يشعر بخوف أو دوار ، وأن يتخذ مختلف أوضاع التعبد واحدا بعد الآخر . فكان فى بعض الأحيان يقوم بالصلاة منتصب القامة ، باسطا ذراعيه على شكل صليب ، غير أن الطريقة المألوفة لديه أكثر ما يكون هى أنه كان يثنى جذعه النحيل من جبهته الى قدميه مرات ومرات يمل حصرها المشاهد بعد أن يجاوز الألف عدا . وقد أصيب من جراء ذلك بقرحة فى فخذه (١) قصرت هذه الحياة السماوية ، ولكنها لم تزعجها ، وأخيرا مات

---

(١) يجب الا اخفى خرافة قديمة تصف اصل هذه القرحة . فقد قيل ان الشيطان اتخذ صورة ملاك ودعاه للنزول فى عربة من نار كما فعل النبى ايليا . وبادر القديس الى رفع قدمه ، فانتهز الشيطان هذه اللحظة وصب عقابه على الراهب المغرور .

ذلك الناسك الصبور دون أن ينزل من فوق عموده • ولو أن حاكما دفعه مزاجه الى توقيع هذه الألوان من العذاب لرمى بالطغيان ، غير أنه ليس فى مقدور أية طاغية أن يفرض على ضحايا قسوته حياة طويلة بائسة يعيشونها كارهين مرغمين • ولابد أن هذا التعذيب الاختيارى القاتل قد قضى شيئا فشيئا على حساسية العقل والجسم • ولا يمكن أن يدعى أحد أن المتعصبين الذين يعذبون أنفسهم بهذه الصورة يحسون بأى حب قوى لغيرهم من بنى الانسان • وفى الحق أن الرهبان ، فى كل الصور وفى كل البلدان ، قد اتسموا بطباع قاسية لا تحس ولا تتأثر ، كما أن جفاءهم وعدم اكتراثهم بأى شىء ، وهو الذى قلما تخففه صداقة شخصية ، انما يزيد التهابا بفعل الكراهية الدينية • وقد تحكم حماسهم الذى لا يعرف شفقة أو رحمة فى المهمة المقدسة التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش الرومانية الكاثوليكية•

وكان قديسو الأديرة ، الذين لا يحتقرهم ويرثى لهم الا رجل فيلسوف ، كان هؤلاء موضع احترام بل وتقديس الحاكم والشعب • فثمة جماهير متلاحقة من حجاج بلاد الغال والهند كانت تقدم التحية للعمود المقدس الذى جلس عليه سيميون ، وقبائل العرب المشارقة كانت تتنازع بالسلاح شرف بركته ، وملوك بلاد العرب وبلاد الفرس كانوا يعترفون فى امتنان بفضيلته الخارقة ، كما كان ثيودوسيوس الأصغر يستشير الناسك الملائكى فى أهم شئون الكنيسة والدولة • وقد نقلت رفات هذا الناسك من جبل تلنيسا Telenissa فى موكب مهيب يتألف من البطريرك ، والقائد الأعلى للشرق ، وستة أساقفة ، وواحد وعشرين تربيونا ، وستة آلاف جندى ، وأصبحت عظامه موضع تبجيل أنطاكيا على أساس أنها حليتها المجيدة ودرعها الواقى الذى لا ينال منه أحد • وتضاءلت شهرة الرسل والشهداء شيئا فشيئا الى جانب هؤلاء الزهاد الذين أحبهم الناس • وخر العالم المسيحى ساجدا أمام أضرحتهم ، وزادت المعجزات المنسوبة الى رفاتهم ، فى عددها وطول مدتها على الأقل ، عن تلك الأعمال البطولية التى حققوها أثناء حياتهم • غير أن اخوتهم من الرهبان أصحاب المصلحة أظهروا فى مكر ودهاء أنهم يصدقون قصتهم الذهبية ، وبذلك أضفوا عليها رونقا وجمالا ، وكان من السهل عليهم أن يقنعوا أبناء ذلك العصر من السذج المصدقين بأن أتفه تقلب فى مزاج راهب مصرى أو سورى كان كفيلا بأن يوقف قوانين الكون الأبدية • وقد درج أحباب السماء هؤلاء على شفاء الأمراض المتأصلة بلمسة ، أو كلمة ، أو رسالة من بعيد ، وعلى طرد أكثر الأرواح الشريرة عنادا من النفوس أو الأجسام التى تسكنها • وكانوا يرقدون فى ألفة الى جانب سباع الصحراء وحياتها ، أو يسيطرون عليها بأوامرهم العالية ، ويبعثون

الخضرة فى جذوع الأشجار اليابسة ، ويجعلون الحديد يطفو على سطح الماء ، ويعبرون النيـل على ظهور التماسيح ، وينعشون أنفسهم فى أتون ملتهب • وهذه القصص المتسمة بالمغالاة والمبالغة ، والتى يبدو فيها خيال الشعر ، دون عبقريته أثرت تأثيرا خطيرا فى ايمان المسيحيين وأخلاقهم ، وأفسد تصديقها ملكات العقل وحقر من شأنها ، كما أفسدت هى نفسها شواهد التاريخ ، وأطفأت الخرافـة شيئا فشيئا نور الفلسفة والعلم • وكان كل نوع من أنواع العبادة الدينية التى مارسها هؤلاء القديسون ، وكل مذهب غامض من المذاهب التى يؤمنون بها ، يلقى تأييدا ويستمد قوة من الرؤى السماوية ، كما أن كل فضائل الرجولة سحقها حكم الرهبـان المتسم بالذلة والجبن والضعة • واذا كان فى مقدورنا أن نقيس الفرق بين كتابات شيشرون الفلسفية وقصـة ثيودورت المقدسة ، وبين شخصـية كاتو وشخصية سيميون ، استطعنا أن نقدر الثورة المشهودة التى حدثت فى الامبراطورية الرومانية خلال فترة قدرها خمسمائة عام •

٢ ـ تميز نمو المسيحية بنصرين مجيـدين حاسـمين : نصر على المتعلمين المترفين من مواطنى الامبراطورية الرومانية ، ونصر على شجعان المتبربرين من أبناء سكوذيا وجرمانيا الذين قوضوا الامبراطورية واعتنقوا ديانة الرومان • وكان القوط أول هؤلاء المهتدين الهمج • ويرجع الفضل فى اعتناق هذه الأمة للمسيحية الى مواطن أو على الأقل الى فرد من أفراد الرعية ، جدير بأن يوضـع فى مصاف مبتـكرى الفنون النـافعة الذين أصبحوا أهلا لأن يذكرهم الخلف ، ويلهج بفضلهم وقد حدث أن عصابات القوط التى اجتاحت آسيا فى عصر جالينوس Gallienus ، أسرت عددا كبيرا من سكان الولايات الرومانية ، كان من بينهم كثير من المسيحيين ، وعدد من رجال الكنيسة وأصبح كل هؤلاء مبشرين من غير قصد ، وتفرقوا كأرقاء فى قرى منطقة داكيـا (١) Dacia ، وعملوا تبـاعا على خلاص سادتهم ، وانتشرت بالتدريج بذور العقيدة الانجيلية التى غرسوها ، وقبل أن ينصرم قرن من الزمان تحقق هذا العمل التقى نتيجة مجهودات يولفيلاس Ulphilas الذى كان أجداده قد انتقلوا الى ما وراء الدانوب من بـلدة صغيرة فى اقليم كبادوكيا •

واكتسب يولفيلاس ، أسقف القوط ورسولهم ، محبة أفراد شعبه واحترامهم بفضل حياته المستقيمة الطاهرة وغيرته التى لا يعتريها الوهن ، فتقبلوا فى ثقة أكيدة مبادىء الحق والفضيلة التى كان يمارسها ويعظ

---

(١) تشغلها الآن على وجه التقريب رومانيا وبعسارابيا ـ (المترجمة) •

بها ٠ وقام بمهمة شاقة هى ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية وهى لهجة من لهجات اللغة الجرمانية أو التيوتونية ، غير أنه أعمل فى حصافة ترجمة « أسفار الملوك الأربعة » ، لأنها قد تهيج روح المتبربرين المتسمة بالشراسة والضراوة ٠ وكانت ألفاظ الجنود والرعاة جافة معيبة ولا تصلح لنقل أية أفكار روحية ، فاتجهت عبقرية يولفيلاس الى تهذيبها وترخيمها ، ومن ثم فانه قبل أن يصوغ ترجمته اضطر الى تكوين حروف هجاء جديدة مكونة من أربعة وعشرين حرفـا ابتـكر أربعة منها للتعبير عن الأصوات الخاصة التى لم تكن معروفة فى النطق اليونانى واللاتينى ٠ غير أن ازدهار الكنيسة القوطية سرعان ما ابتلى بالحرب والنزاع الداخلى ، وانقسم الزعماء من حيث الدين ومن حيث المصـلحة ٠ فاهتدى فريتجرن Fritgern صـديق الرومان على يد يولفيلاس ، بينما ازدرى أتاناريك Athanaric نير الامبراطوريـة ، ونير الانجيل على السواء وأثـار اضطهادا امتحن به ايمان المتحولين الجدد الى المسيحية ، فسير فى طرقات المعسكر عربة تحمل صورة لا شكل لها للاله ثور Thor أو للاله ودن Woden ، وسط موكب مهيب فاذا ما أبى المتمردون عبادة اله أجدادهم أحرقهم على الفور وأحرق معهم أسراتهم وخيامهم ٠ أما يولفيلاس ، فان أخـلاقه أكسبته تقدير البلاط الشرقى ، وذهب هناك مرتين رسولا للسلام ، يدافـع عن قضية القوط المنكوبين الذين التمسوا حماية الامبراطور فالنز Valens وأطلق على هذا الرائد الروحى اسم « موسى » لأنه قاد شعبه عبر مياه الدانوب العميقة الى أرض الميعاد ٠ وتعلق الرعاة الأتقياء بشخصه ، وانصاعوا لصوته ، ووافقوا على الاستقرار عند سفوح جبال ميزيا Maesian Mountains ، فى اقليم كثير الأشجار والمراعى يكفى قطعانهم ، ويمكنهم من شراء القمح والنبيذ من الولايات الأكثر غنى ٠ وتكاثر هؤلاء المتبربرون المسالمون فى ظل السلام والمسيحية ٠

أما اخوتهم الأكثر غلظـة من القوط الغربيين العتـاة فقـد اعتنقوا جميعا ديانة الرومان الذين كانوا على اتصـال دائم بهم عن طريق الحرب أو الصداقة أو الغزو ٠ وفى مسيرتهم الطويلة الظافرة من الدانوب الى المحيط الأطلنطى حولوا حلفاءهم الى المسيحية ، ونشروا التعليم بين الجيل الصاعد ، وكان الولاء السـائد فى معسكر الاريك ، أو فى بلاط تولوز ، مثلا يتعلم منه قصر الامبراطور فى روما ، وقصر القسطنطينية أو يشعرهما بالخزى والعـار ٠ وخـلال الفترة نفسها اعتنق المسيحية كل المتبربرين تقريبـا من الدين أقـاموا ممالكهم على أنقـاض الامبراطوريـة الغربية ـ البرجنديون فى بلاد الغال ، السويفى فى أسبانيا ، الوندال فى أفريقيا ، القوط الشرقيون فى بانونيا ، ومختلف عصـابات المرتزقة التى رفعت

أدواكر الى عرش ايطاليـا • أما الفرنجة والسكسون فقد ظلوا متمسكين بأخطاء الوثنية ، غير أن الفرنجة استولوا على مملكه الغال بخضوعهم للمثل الذى ضربـه كلوفيس Clovis ، كما أن غزاة السكسون الذين فتحوا بريطانيا تحولوا عن خرافاتهم الهمجية بفضل مبشرى روما • وقد أبدى هؤلاء البرابرة المهتدون حماسا متقدا موفقا فى نشر العقيدة المسيحية ، فملوك ميروفنجيان Merovingian kings وخلفاؤهـم ، شـارلمان والملوك الذين يحملون اسم « آتو » The Othos ، سـنوا من القوانين وأحرزوا من الانتصارات ما وسع نطاق الصليب•وخرج من انجلترا رسول الألمان ، وانتشر نور الانجيل شيئا فشيئا من اقليم نهر الراين الى أمم نهر الألب والفستيولا وبحر البلطيق •

وليس فى مقدورنا أن نتحقق فى سهولة من مختلف الدوافع التى أثرت فى أحاسيس المتبربرين الذين تحولوا الى المسيحية • فلقد كانوا فى أكثر الأحيان يستجيبون لانفعالاتهم وللصدف التى تقابلهم ، فيتأثرون بحلم ، أو فأل ، أو قصه معجزة ، أو مثل ضربه كاهن أو بطل ، أو مفاتن زوجة مؤمنة ، وفوق كل شيء بما ينالون من توفيق نتيجة صلاة أو نذر لاله المسيحيين فى ساعة خطر • وقد زال بالتدريج ما غرسته فيهم تربيتهم من تعصب قديم بفضل تعودهـم على الاختـلاط الكثير بالمجتمع ، ووجدت تعاليم الانجيل الأخلاقية من فضائل الرهبان المفرطة ما يصونها ويحميها ، كما أن الايمان الدينى الروحى كان يؤيـده ما للذخائر الدينية من قوة منظورة ، وما للعبـادة الدينيـة من عظمة وأبهة • غير أن المبشرين الذين جاهدوا فى تحويل الكفار الى المسيحية كانوا يستخدمون فى بعض الأحيان أسلوب اقنـاع بـارع اقترحه أسقف سكسونى على أحـد رجـال الدين المعروفين • قال ذلك المجادل الحصيف :

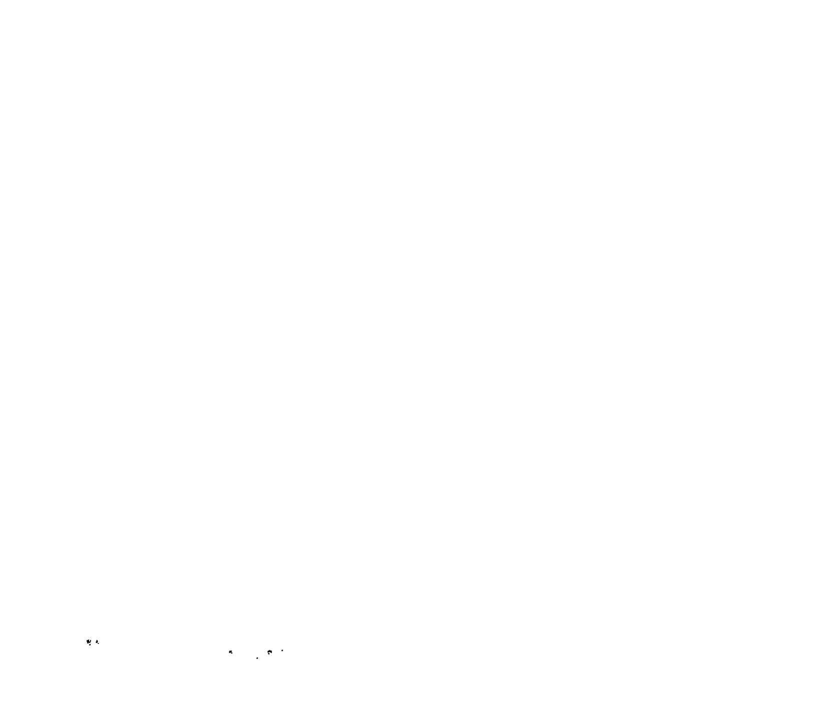
« تقبل كل ما يلذ لهم تأكيده عن التسلسل المادى الخرافى لأنساب الهتهم وآلهتهم الذين تناسلوا بعضهم من بعض • ومن هذا المبدأ يمكنك أن تستنتج أن هؤلاء الآلهة من طبيعة ناقصة وتتسم بالضعف البشرى ، أى ثبوت مولدهم وامكان فنائهم • وسلهم فى أى زمان ، وبأية وسيلة ، وجد أكبر الآلهة أو الالهات عمرا ؟ وما الذى بعث على وجودهم ؟ وهل لا يزالون يلدون ، أو أنهم توقفوا عن التناسل ؟ واذا كانوا قد توقفوا عن التناسل ، فسل خصومك أن يعلنوا السبب فى هذا التغير العجيب ، واذا كانوا لا يزالون يلدون ، فان عدد الآلهة سوف يكون غير محدود ، وهل اذا عبدنا دون تبصر الها عاجزا ، ألا نخاطر باثارة سخط اله غيور أعظم منه مكانة ؟ ثم هذه السموات والأرض المنظورة ، أى نظام الكون كله ، وهو

شيء يستطيع العقل ادراكه ، هل هو مخلوق أو أزلى ؟ فاذا كان مخلوقا ، فكيف أو أين وجد الآلهة أنفسهم قبل الخليقة ؟ واذا كان أزليا ، فكيف يدعي هؤلاء الآلهة أنهم حكموا عالما مستقلا كان موجودا من قبل ؟ ادفـع بهـذه الحجج فيهدوء واعتـدال · وتطرق فى فترات مناسبة الى صدق الالهام المسيحى وجماله ، وحاول أن تشعر الكفار بالخجل دون أن تثير غضبهم » ·

غير أن هذا التفكير الميتافيزيقى ، الذى ربما كان أدق من أن يصل اليه ادراك متبربرى جرمانيا ، استمد قوة من السلطة ورضـاء الناس ، وهما أكثر وزنا وأقوى أثرا · فميزة الازدهار الدنيوى لم تعد فى جانب القضية الوثنية ، بل انتقلت الى خدمة المسيحية ، والرومان أنفسهم ، وهم أقوى أمم الأرض وأكثرها استنارة ، قد نبذوا خرافتهم القديمة ، واذا كان الدمار الذى أصاب امبراطوريتهم يبدو كأنه اتهام موجه الى فعالية الدين الجديد ، فان هذه الوصمة قد عوضها تحول القوط الظافرين الى المسيحية · أما البرابرة الشجعان الموفقون الذين أخضعوا ولايات الغرب فقد استوعبوا الدرس نفسه واتعظوا به وعكسوه على غيرهم · وقبل عصر شارلمان كانت أمم أوربا المسيحية تباهى بأنها تمتلك وحدها المناخ المعتدل ، والأراضى الخصبة التى تنتج القمح والنبيذ والزيت ، بينما انحصر الوثنيون الهمج مع أصـنامهم العـاجزة فى أطراف الأرض ، فى منـاطق الشمال المظلمة المتجمدة ·

وقد فتحت المسيحية للمتبربرين أبواب السماء وأحدثت تغيرا هاما فى حالتهم الأخـلاقية والسـياسية ، وتعلموا فى الوقت عينه استخدام الحروف ، وهو شيء أساسى بالنسبة لدين دونت مبادئه فى كتاب مقدس · وبينما كانوا يدرسون الحقيقة الالهية ، كانت مداركهم تتسع دون أن يحسوا باتساع نظراتهم الى التاريخ والطبيعة والفنون والمجتمع · ولابد أن ترجمة الكتاب المقدس الى لغتهم الوطنية ، الأمر الذى يسر تحولهم الى المسيحية ، قد أثارت شغف رجال الدين منهم بقراءة النص الأصلى ، وتفهم الطقوس المقدسـة ، وتمحيص سلسلة التقـاليد الكنسية فى كتابات آباء الكنيسة · وكانت هذه النعم الروحية مدونة باللغتين اللاتينية واليونانية اللتين انطوت فيهما آثار العلم القديم ، كما أن المؤلفات الخالدة التى كتبها فرجيل وشيشرون وليفى ، والتى أصبحت فى متناول البرابرة المسيحيين ، حافظت على وجود اتصال صامت بين عهد أغسطس وبين عصور كلوفيس وشارلمان ، وذكرت الناس بوجود حالة سابقة أكثر كمالا ، وشجعتهم على التنافس · وظلت شعلة العلم ، بصورة خفية ، متقدة متوهجة تبعث الدفء

فى عصر النضج الذى بلغه العالم الغربى ، وتلقى عليه ضوء الاستنارة والثقافة ٠ وعندما كانت المسيحية فى أكثر حالاتها فسادا كان فى مقدور البرابرة أن يتعلموا العدالة من القانون ، ويأخذوا الرحمة من الانجيل ، وإذا كانت معرفتهم بواجبهم غير كافية لهداية أعمالهم وضبط عواطفهم وأهوائهم ، فانهم فى بعض الأحيان كانوا يجدون رادعا من ضميرهم ، وكثيرا ما كان الندم عقابهم ٠ غير أن سلطة الدين المباشرة كانت أقل فعالية من تناول القربان المقدس الذى ألف بين قلوب المسيحيين فى صداقة روحية٠ وقد أسهم تأثير هذه الأحاسيس فى ضمان ولائهم للرومان أو للتحالف معهم ، وفى التخفيف من أهوال الحرب ، وفى تلطيف حدة الغزو وصلفه ، وفى الابقاء على احترام دائم لاسم روما ونظمها ، ابان سقوط الامبراطورية وفى أيام الوثنية كان كهنة بلاد الغال وجرمانيا يحكمون الشعب ، ويسيطرون على قضاء الولاة والحكام ، وبالمثل حول المهتدون الغيورون قدرا مماثلا ، أو قدرا أكبر ، من الخضوع الخاشع لأحبار العقيدة المسيحية وكانت شخصية الأساقفة المقدسة تلقى سندا من ممتلكاتهم الدنيوية ، فحصلوا على مقام كريم فى المجالس التشريعية للجنود والمدنيين ، وكان من مصلحتهم ، ومن واجبهم على السواء ، أن يخففوا بالنصح الهادىء من ضراوة روح البرابرة ٠ وكانت العلاقة الدائمة بين رجال الدين اللاتين ، وزيارات الحج الكثيرة لروما وأورشليم ، وتزايد سلطة البابوات ، كل أولئك دعم وحدة الجمهورية المسيحية ، وأنتج بالتدريج تماثلا فى العادات وشريعة مشتركة بين الأمم المستقلة ، بل والمتنازعة ، فى أوربا الحديثة ، الأمر الذى جعلها متميزة عن بقية الجنس الانسانى ٠



الفصل الثامن والثلاثون
(٤٧٦)

سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب • ملاحظات عامة

بين عامى ٤٧٦م و٤٩٦م استطاع كلوفيس ، ملك الفرنجة أن يقيم سلطته فى بلاد الغال ، واعتنق المسيحية • وبعد غزوات أكويتين وبرجانديا أسست مملكة فرنسية فى بلاد الغال • وبعد أن طرد القوط الغربيون من بلاد الغال فتحوا أسبانيا • واستقر السكسون فى بريطانيا من سنة ٤٥٥ الى سنة ٥٨٢ •

سقوط الامبراطورية
الرومانية فى الغرب

لقد أتممت الآن الرواية الشاقة التى تقص تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، منذ عصرها الموفق فى أيام تراجان والأنطونيين الى أن أفل نجمها تماما فى الغرب ، بعد خمسة قرون تقريبا من عهد المسيح • وفى ذلك الوقت التعس كان هناك كفاح مرير فى بريطانيا بين السكسون والوطنيين على امتلاك البلاد : وقسمت بلاد الغال وأسبانيا بين مملكتى الفرنجة والقوط الغربيين القويتين ، وبين المملكتين التابعتين ـ مملكة السويفى ومملكة البرجنديين • وتعرضت أفريقيا لقسوة اضطهاد الوندال ، ولهجمات العرب العاتية : أما روما وايطاليا ، حتى ضفاف الدانوب ، فقد دهمهما جيش من المرتزقة البرابرة المتسمين بالطغيان الهمجى ، ثم جاء بعدهم تيودوريك القوطى الشرقى • ونـاء رعايا الامبراطورية ، الذين استحقوا بنوع أخص اسم الرومان وامتيازاتهم بفضل استخدام اللغة اللاتينية ، ناء هؤلاء جميعا تحت نير الغزو الأجنبى ولحقهم عاره ، وأقامت أمم ألمانيا الظافرة نظاما جديدا من العادات والحكم فى البلدان الغربية من أوروبا • وأصبحت عظمة روما ممثلة تمثيلا واهيا

فى أشخاص ملوك القسطنطينية ـ وهم الخلفاء المزعزعون الضعفاء للامبراطور أغسطس • ومع ذلك فقد ظلوا يحكمون الشرق ، من الدانوب الى نهر النيل ونهر دجلة • ثم قوضت جيوش جستينيان مملكة القوط فى ايطاليا ومملكة الوندال فى أفريقيا ، وما يزال فى مقدورنا أن نستمد من تاريخ الأباطرة اليونان سلسلة طويلة من الدروس النافعة والثورات الشائقة •

ملاحظات عامة على سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب

بعد أن تحولت بلاد اليونان الى ولاية رومانية كان اليونان ينسبون انتصارات روما الى حظ تلك الدولة ، لا الى ميزة فيها • فالآلهة المتقلبة ، التى توزع أفضالها وتستردها بصورة عمياء ، قد ارتضت الآن أن تتخلى عن جناحيها ، وتهبط من دنياها وتوطد عرشها القوى الثابت على ضفاف نهر التيبر (تلك كانت لغة الملق الحاقد) • غير أن يونانيا أكثر حكمة كتب بروح فلسفته تاريخا مشهودا للعصر الذى عاش فيه ، وحرم فيه أبناء وطنه من هذا العزاء الباطل المضلل بأن عرض أمام أبصارهم الأسس العميقة التى قامت عليها عظمة روما • فذكر أن اخلاص المواطنين بعضهم لبعض ، وللدولة ، كان يدعمه التعليم والتحمس للدين ، وكان الشرف والفضيلة مبدأ الدولة ، والمواطنون الطموحون كانوا يعملون جاهدين لكى يكونوا أهلا لأمجاد نصر عظيم مهيب • كما أن حماس شبان الرومان كان يشتعل ويتحول الى منافسة قوية كلما شاهدوا الصور الوطنية التى تمثل أجدادهم • وانتهى الكفاح المعتدل بين طبقة النبلاء وطبقة العامة الى اقرار توازن دستورى راسخ متكافىء يوحد بين حرية المجالس الشعبية ، وبين حكمة السناتو ، وبين السلطات التنفيذية التى يتمتع بها حاكم ملكى • وعندما كان القنصل يرفع علم الدولة كان كل مواطن يلزم نفسه ، بمقتضى قسم ارتبط به ، بأن يمتشق الحسام دفاعا عن قضية بلاده الى أن يتم الواجب المقدس بأداء خدمة عسكرية قدرها عشر سنوات • وكان من شأن هذا النظام الحكيم أن تدفقت الأجيال الصاعدة من الجنود والمدنيين الى ساحة القتال ، وتزايد عددهم بمن انضم اليهم من ولايات ايطاليا المقاتلة الكثيرة السكان ، التى قاومت الرومان مقاومة باسلة ، ثم أذعنت لشجاعتهم وقبلت التحالف معهم • وهذا المؤرخ الحكيم ، الذى نفث القوة فى صدر سكيبيو الأصغر ، وشاهد سقوط قرطاجة ودمارها ، هو الذى وصف نظام الرومان العسكرى ، وحشودهم ، وأسلحتهم ، وتدريباتهم ، وامتثالهم ، ومسيراتهم ، ومعسكراتهم ، وفيلقهم الجبار الذى لا يقهر الذى تفوق فى

قوته العاتية على الفيلق المقدونى الذى اشتهر فى عهد فيليب والاسكندر ٠
ومن أنظمة السلم والحرب هذه عرف المؤرخ بوليبيوس Polibius روح الشعب الرومانى وسر نجاحه ، فهو شعب لا يعرف الخوف ولا يطيق الراحة والسكون ٠ ولقد رسم الرومان خطة طموحة للغزو كان من الممكن أن يحبطها تآمر الجنس البشرى عليهم فى الوقت المناسب ، غير أنهم حاولوها وحققوها ، كما أن انتهاكهم الدائم للعدالة كان يلقى سندا من فضائلهم السياسية ، فضائل الحكمة والشجاعة ٠ ومع أن جيوش الرومان كانت تخسر المعركة أحيانا ، الا أنها كانت تكسب الحرب دائما ، ولهذا تقدمت بخطوات سريعة حتى بلغت نهر الفرات ، ونهر الدانوب ونهر النيل، والمحيط ، وحطمت ملكية روما الاستبدادية على التوالى تلك التماثيل الذهبية والفضية والنحاسية التى كانت تمثل الأمم وملوكها ٠

ولا شك فى أن نمو مدينة اتسع نطاقها حتى أصبحت امبراطورية ، هو شىء يستحق تفكير عقل فلسفى ، على أساس أنه معجزة فريدة فى نوعها ٠ غير أن تدهور روما واضمحلالها هو نتيجة طبيعية حتمية لعظمة جانبها الاعتدال ، فالرفاهية أنضجت مبدأ الاضمحلال ، وعوامل الدمار تضاعفت بامتداد الغزو ، وبمجرد أن أزال الزمن أو الحظ والصدفة ما كان هناك من دعائم مصطنعة ، انهار الكيان الضخم تحت وطأة ثقله هو نفسه ٠ وقصة انهيار هذه الامبراطورية بسيطة واضحة ، وأحرى بنا أن نتساءل عن السبب فى بقاء الامبراطورية الرومانية تلك المدة الطويلة بدلا من أن نتساءل عن سبب سقوطها ٠ ذلك أن الجيوش الظافرة ، التى اكتسبت فى حروبها النائية رذائل الغرباء والمرتزقة ، طغت فى أول الأمر على حرية الدولة ، ثم حطمت بعد ذلك جلال الملك وعظمته ٠ كما أن الأباطرة ، رغبة منهم فى تأمين أشخاصهم والمحافظة على السلام العام ، أصبحوا أداة حقيرة فى افساد النظام الذى أكسبهم مهابة لدى الدولة صاحبة السيادة ولدى عدوهم سواء بسواء ٠ وتراخت قوة الحكومة العسكرية ، وتفككت فى نهاية الأمر نتيجة النظم المتحيزة التى وضعها قسطنطين ، ثم طغى على العالم الرومانى طوفان من البرابرة ٠

وكثيرا ما نسبب تدهور روما الى نقل مقر الامبراطورية ، غير أن هذا التاريخ أظهر لنا أن سلطات الحكم قد قسمت أكثر من أن تكون قد نقلت، فعرش القسطنطينية أقيم فى الشرق بينما كان الغرب تحت سلطان أباطرة يقيمون فى ايطاليا ولهم ميراث متكافىء من الجيوش والولايات ٠ وهذه البدعة الخطيرة أضعفت قوة حكم مزدوج ، وأهاجت رذائله ٠ وتضاعفت بذلك أدوات نظام ظالم مستبد ، وقامت بين خلفاء ثيودوسيوس المنحلين منافسة باطلة على الترف لا على الجدارة ٠ واذا كانت المحنة الشديدة تتوى

فضيلة شعب حر وتوحدها ، فانها تنفث المرارة فى أحزاب مملكة تسير الى الاضمحلال · ومن ثم فان أخصاء أركاديوس وأونوريوس المتخاصمين المتنازعين غدروا بالدولة لدى أعدائها المشتركين ، وأصبح بلاط بيزنطة ينظر فى غير اهتمام ، وربما فى غبطة وسرور ، الى العار الذى أصاب روما ، والى المحن التى حلت بايطاليا ، والى فقدان الغرب · وفى العهود التالية أعيد التحالف بين الامبراطوريتين ، غير أن معونة الرومان الشرقيين كانت بطيئة ، ومشكوكا فيها ، وعديمة الجدوى ، واتسعت هوة الخلاف القومى بين اليونان واللاتين بفعل الاختلاف الدائم فى اللغة والعادات والمصالح ، بل وفى الديانة نفسها · غير أن هذا الحدث الكبير الأثر (سقوط الغرب) أثبت بعض الشىء صدق حكم قسطنطين ، ذلك أن مدينته المنيعة صدت ، خلال فترة طويلة من الاضمحلال ، جيوش المتبربرين الظافرة ، وصانت ثروة آسيا ، وسيطرت ، فى السلم وفى الحرب على المضايق الهامة التى تصل البحر الأسود بالبحر المتوسط · وهكذا كان تأسيس القسطنطينية عاملا رئيسيا أسهم فى المحافظة على الشرق ، أكثر من أن يسهم فى سقوط الغرب ·

ولما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد لا ندهش أو نخجل اذا سمعنا أن دخول المسيحية ، أو على الأقل اساءة استغلالها ، كان لها بعض الأثر فى تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها · فرجال الدين نجحوا فى تعليم مبادىء الصبر والاستكانة ، وفضائل المجتمع الايجابية كانت تقابل بالتثبيط ، وآخر بقايا الروح العسكرية دفنت فى الأديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبعثرت رواتب الجنود على الجماهير العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها الا الدفاع عن مزايا التقشف والعفة · وأشعل الايمان ، والغيرة وحب الاستطلاع ، وعواطف الحياة الدنيا من حقد وطمع ، أشعلت كل هذه الأشياء نار النزاع اللاهوتى ، والكنيسة ، بل والدولة ، التهمتها الأحزاب الدينية التى كانت تتصارع فيما بينها صراعا لا تخبو ناره مطلقا ، ويصل فى بعض الأحيان الى درجة القسوة والعنف · وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات الى المجالس الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع جديد من الطغيان ، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها · ومع ذلك فان روح الحزبية مهما كان ضررها أو سخفها ، هى مبدأ للوحدة ومبدأ للتفرقة سواء بسواء · فالأساقفة غرسوا من فوق ألف وثمانمائة منبر واجب الخضوع السلبى لحاكم شرعى أرثوذكسى ، وحافظت اجتماعاتهم الكثيرة واتصالاتهم الدائمة على ارتباط الكنائس البعيدة وائتلافها ، كما أن التحالف الروحى بين الكاثوليك زاد من قوة ما فى

الانجيل من حض على الخير • وقد سلم جيل متخنث ذليل ، فى ورع وتقوى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى كان يحياها الرهبان ، ولكن ، لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر الى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلى عن علم الدولة ، مدفوعين فى ذلك بدافع أكثر دناءة وحقارة ، والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة اذا أجازت الميول الطبيعية للمتعلقين بها ، وأكسبتها قدسية ، غير أن النفوذ الخالص الأصيل للمسيحية يمكن أن نتتبعه فى تأثيرها الناجع على المهتدين من برابرة الشمال ، وان يكن هذا التأثير ناقصا • واذا كان تحول قسطنطين الى المسيحية قد عجل باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، فان ديانته الظافرة كسرت حدة سقوطها ، وخففت من شراسة طباع الغزاة •

وهذه الثورة الرهيبة يمكن أن يستفاد منها بصورة مجدية فى تعليم العصر الحاضر • فمن واجب الرجل المحب لوطنه أن يفضل مصلحه وطنه المطلقة ومجدها المطلق ، وأن ينمى هذه المصلحة ، وذلك المجد ، غير أن الفيلسوف من حقه أن يوسع نظرته ، وأن يعتبر أوربا دولة واحدة كبيرة وصل مختلف سكانها تقريبا الى مستوى واحد من الأدب والرقى ولسوف يستمر توازن القوى فى حالة تذبذب ، وسوف ترتفع تارة وتنخفض تارة أخرى رفاهية مملكتنا أو الممالك المجاورة ، غير أن هذه الأحداث الجزئية لا يمكن أن تضير ضيرا أساسيا ما نحن فيه من سعادة عامة ، أو تسىء الى نظام الفنون ، والقوانين والعادات الذى يميز الأوروبيين ومستعمراتهم عن بقية الجنس الانسانى بهذه الصورة النافعة • ان الأمم الهمجية فى العالم هى العدو المشترك للمجتمع المتحضر ، ومن حقنا أن نتساءل فى شىء من الفضول الممتزج بالقلق ، ما اذا كانت أوروبا لا تزال مهددة بتكرار تلك الكوارث التى ناءت تحت ثقلها جيوش روما ونظمها • ولعل هذه الأفكار نفسها توضح لنا سقوط تلك الامبراطورية العاتية ، وتفسر الأسباب المرجحة التى أدت الى طمأنينتنا الحالية وأمننا الحاضر •

١ – وكان الرومان يجهلون مدى الخطر المحدق بهم ، وعدد أعدائهم • ففيما وراء الدانوب والراين كانت البلدان الشمالية من أوروبا وآسيا آهلة بعدد لا يحصى من قبائل الرعاة والصيادين تتسم جميعها بالفقر ، والنهم ، والمشاغبة ، والشجاعة فى القتال ، والتحرق الى نهب ثمار العمل • وسرى فى العالم المتبربر حافز سريع الى الحرب ، واهتز السلم فى بلاد الغال وايطاليا بفعل الثورات البعيدة المندلعة فى الصين • ذلك أن قبائل الهون التى فرت أمام عدو ظافر منتصر ، وجهت مسيرها صوب الغرب ، وتضخم سيلها بما انضم الى تلك القبائل شيئا فشيئا من

أسرى وحلفاء • كما أن القبائل الهاربة التى استسلمت للهون اتخذت بدورها روح الغزو • وترتب على ذلك أن طابورا لا نهاية له من المتبربرين أناخ على الامبراطورية الرومانيـة بثقل متراكم متجمع ، وعندما كانت مقدمته تنهزم وتهلك كان الفراغ يملأ على الفور بسيل جديد من المهاجمين• ولم تعد الآن مثل هذه الهجرات الرهيبة تأتى من الشمال ، وتعتبر فترة الهدوء والراحة الطويلة ، التى نسـبت الى نقص عدد السـكان ، نتيجة سعيدة لتقدم الفنون والزراعة فبعد أن كانت ألمانيا بلدا يضم قرى بدائية مبعثرة هنا وهناك بين غاباتها ومستنقعاتها ، أصبحت الآن مشتملة على ألفين وثلاثمائة مدينة مسورة • وكذلك قامت على التوالى ممالك الدنمارك والسويد وبولندا المسيحية ، ومد تجار الهانسا Hanse (١) وفرسـان التيوتون مستعمراتهم على طول سـاحل البلطيق حتى خليج فنلندا • وأصبحت روسيا الآن ، من خليج فنلندا الى المحيط الشرقى ، امبراطورية لها طابع القوة والتحضر • وظهر المحراث ، والمغزل ومصنع الحديـد على ضفاف أنهار فولجا وأوبى ولينا • ولقنت أقسى قبائل التتار درسا فى الخوف والطاعة • وقد انكمش الآن عهد البربرية المنطلقة فى حيز ضيق ، ولم يعد فى مقدور قبائل الكلموك والأوزبك والتى تكاد قواتها تعد ، لم يعد فى مقدورها أن تثير مخاوف دولة أوربا العظيمـة • غير أن هذا الأمن الواضح يجب ألا يغرينا على أن ننسى أن أعداء جددا قد يجيئون وأخطارا مجهولة قد تنشأ من شعب مغمور لا نكاد نتبين مكانه على خريطة العالم، فالعرب،الذين نشروا فتوحاتهم من الهند الى أسبانيا ، كانوا قبل ذلك قوما خاملين يعيشون فى فقر وذلة حتى نفث فيهم النبى محمد روح الحماس •

٢ ــ ولقد كانت امبراطورية روما صرحا راسخا بفضل ائتـلاف أعضائها ائتلافا فريدا كاملا • فالأمم الخاضعة لها تخلت عن الأمل ، بل وعن الرغبة فى الاستقلال ، وأخذت طابع المواطنين الرومان ، والولايـات التابعة لها انتزعها المتبربرون ، وهى كارهة ، من قلب وطنها الأم • غير أن روما اشترت هذه الوحـدة على حساب فقدان الحرية الوطنية والروح العسكرية ، وأصبحت الولايات المسـتعبدة خلوا من الحياة ومن الحركة تنشد سلامتها على أيدى القوات المرتزقة والحكام الذين يتلقون التوجيه من أوامر بلاط ملكى بعيد • وأصبحت سعادة مائة مليون من البشر تعتمد على الميزة الشخصية التى يتصف بها شخص أو اثنان ، ربما كانـا من الأطفال ، أفسد عقليهما الترف ، والسلطة المستبدة ، ونوع التعليم • وأصيبت الامبراطوريـة بأعمق الجروح عندما كان أبنـاء ثيودوسيوس

---

(١) مجموعة من المدن التجارية الالمانية ــ (الترجمة) •

وأحفاده تحت الوصاية ، وبعد أن بدا على هؤلاء الملوك العاجزين أنهم بلغوا سن الرجولة ، تخلوا عن الكنيسة للأساقفة وتخلوا عن الدولة للخصيان ، وتركوا الولايات للمتبربرين • وتنقسم أوروبا الآن الى اثنتى عشرة دولة قوية ، وان تكن غير متكافئة ، وثلاث دول تؤلف مجموعة محترمة من الكومنولث ، وعدد من الدول المستقلة المختلفة الأصغر من هؤلاء • وتضاعفت فرص المواهب الملكية والوزارية تبعا لعدد حكامها ، على الأقل ، فقد يحكم شخص مثل جوليان ، أو سميراميس فى الشمال ، بينما ينام أشخاص من شاكلة أركاديوس وأونوريوس على عروش الجنوب • وحد تأثير الخوف والعار معا من مساوىء الطغيان ، وحققت الجمهوريات نظاما واستقرارا ، وتشربت الملكيات مبادىء الحرية ، أو على الأقل مبادىء الاعتدال ، واتسمت أشد الدساتير نقصا بشىء من الاحساس بالشرف والعدالة بتأثير اتجاهات الحياة العامة فى هذه العصور • وفى السلم أدت المنافسة بين كثير من المتنافسين النشطاء الى زيادة سرعة تقدم المعرفة والصناعة ، وفى الحرب أصبحت الصراعات التى تنشب بين القوى الأوربية من النوع المعتدل غير الحاسم • واذا برز الآن فاتح همجى من صحراوات التتار ، وجب عليه أن يقهر مرارا وتكرارا فلاحى روسيا الأقوياء ، وجيوش ألمانيا العديدة ، ونبلاء فرنسا الأمجاد ، وأحرار بريطانيا الشجعان ، الذين يتضافرون على الدفاع المشترك فى أنفسهم • واذا حدث أن تمكن المتبربرون الظافرون من تخريب البلدان واستعبادها حتى شاطىء المحيط الأطلنطى ، فان عشرة آلاف سفينة تستطيع أن تنقل بقايا المجتمع المتحضر بعيدا عن متناول أيديهم ، وتستطيع أوربا أن تحيا وتزدهر فى العالم الأمريكى ، الذى امتلأ فعلا بمستعمراتها ونظمها (١) •

٣ ــ ان البرد ، والفقر ، وحياة الخطر والتعب تعزز قوة البرابرة وشجاعتهم • وقد طغوا فى كل عصر على أمم الصين والهند وفارس المتسمة بالأدب والدعة ، والتى أهملت ، وما تزال تهمل معادلة قدراتها الطبيعية هذه بحيل الفن العسكرى • والمعروف أن الدول العسكرية القديمة ، اليونان ومقدونيا وروما ، قد علمت جيلا من الجنود ، ودربت أجسامهم ، وهذبت شجاعتهم ، وضاعفت قوتهم بمناورات حربية منتظمة ، وحولت الحديد الذى كانت تملكه الى أسلحة قوية نافعة • غير أن هذا التفوق

---

(١) تشتمل أمريكا الآن على ما يقرب من ستة ملايين من دم وأصل أوربى ، ويزداد عددهم بصورة مستمرة ، على الاقل فى الشمال • ومهما كانت تغييرات وضعهم السياسى ، فلابد لهم من الحفاظ على عادات أوربا ، وانه لمن دواعى سرورنا أن اللغة الانجليزية من المحتمل أن تنتشر فى قارة شاسعة آهلة بالسكان •

تدهور بصـورة غير محسوسة مع تدهور قوانينها وأخلاقها ، وترتب على السـياسة الضعيفة التى انتهجها قسطنطين وخلفـاؤه أن تعلم المرتزقة المتبربرون كيف يوجهون شجاعتهم البدائيـة الى تدمير الامبراطورية ، وزودتهم تلك السياسة الضعيفة بسلاح حققوا به ذلك الهدف · وقد تغير الفن العسكرى بفضل اختراع البارود ، الذى يمكن الانسان من السيطرة على أقوى عاملين فى الطبيعة ، الهواء والنار · واستغلت العلوم الرياضية ، والكيمياء ، والميكانيكا ، وفن البناء ، لخدمة الحرب وأصبحت الأطراف المتخاصمة يواجه بعضها بعضا بأعظم أساليب الهجوم والدفاع احكاما · وقد يلاحظ المؤرخون فى غضب وسخط أن استعدادات الحصـار تكفى لتأسيس مستعمرة وازدهارها · ولكن يجب ألا يضايقنا أن يكون تدمير مدينة عملا كثير التكاليف شديد الصعوبة · أو أن الشعب العامل المجد ينبغى أن تصونه تلك الفنون التى تعمل على فناء الصفة العسكرية وتظل باقية بعد ذلك · وفى الوقت الحاضر تشـكل المدافـع والحصون حاجزا منيعا ضـد خيول التتـار ، وأصبحت أوربـا آمنة من أية غـارات يشنها المتبربرون فى المستقبل ، لأنهم قبل أن يستطيعوا الغزو يجب أن يتخلوا عن همجيتهم ، وسوف يكون تقدمهم التـدريجى فى علم الحرب مقترنـا دائما ، كما هى الحال فى روسيا ، بتقدم متناسب فى فنون السـلم والسياسة المدنية ، يجب أن يكونوا هم أنفسهم أهلا لمكانة يحتلونها بين الأمم المتحضرة التى يخضعونها ·

وإذا وجد أحد أن هذه الأفكار موضع شك وتنطوى على مغالطة ، فانه لا يزال هناك مصدر أكثر تواضعا نستمد منه راحة وأملا · فاكتشافات الملاحين القـدامى والحديثين ، والتـاريخ أو التراث الوطنى لأكثر الأمم استنارة ، تصور لنا الانسان الهمجى عارى الجسم والعقل معا ، ويفتقر الى اللغـة (١) · ومن هذه الحالة الوضيعة التى ربما كانت هى الحالة البدائية الشاملة ، ارتفع الانسان تدريجيا الى مستوى السيطرة على الحيوان، وتخصيب الأرض وعبور المحيطات ، وقياس السماء · ولقد كان تقدمه فى تحسين وتدريب مواهبه الجسمية والعقلية تقدما متنوعـا غير منتظم ، بطيئا كل البطء فى مبدأ الأمر ، ويزداد درجة درجة بسرعة مضـاعفة ·

---

(١) انه لأمر يسير ، وان يكن مملا ، أن نستخرج المراجع التى كتبها الشعراء ، والفلاسفة والمؤرخون ·· ومن ثم فانى أقنع بالرجوع الى ما كتبه ديودوروس سكيولوس مما يعتبر دليلا حاسما أصيلا · وأكلة الأسماك الذين كانوا فى عصرهم يجوبون سواحل البحر الأحمر ، لا يمكن مقارنتهم الا بالوطنيين فى بلاد هولندا الجديدة · وما يزال فى مقدور الخيال ، وربما العقل ، أن يفترض وجود حالة طبيعية مطلقة اقل بكثير من مستوى هؤلاء الهمج الذين كان لهم بعض الفنون ، ويملكون بعض الادوات ·

بومرت عصور من الصعود المجهد تلتها لحظة انهيار سريع ، وشاهدت كل بقاع الأرض تقلبات بين الضوء والظلام ، غير أن تجربة أربعة آلاف سنة ينبغي أن تفسح آمالنا وتقلل مخاوفنا ، وليس فى مقدورنا أن نحدد مدى الرقي الذى يصبو اليه النوع الانسانى فى تقدمه نحو الكمال ، غير أننا نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أنه ليس هناك شعب من الشعوب يمكن أن يرتد الى حالته الهمجية الأولى ٠ والتقدم الذى يصور المجتمع يمكن أن ينظر اليه من ثلاثة جوانب :

١ ـ فالشاعر أو الفيلسوف يصور عصره وبلاده بمجهودات عقل واحد بمفرده ٠ غير أن هذه القدرات الممتازة التى يمتلكها العقل أو الخيال هى انتاج نادر وذاتى ، ولا شك فى أن عبقرية هوميروس أو شيشرون أو نيوتن لا تلقى مثل ما تلقاه من اعجاب لو كان فى مقدور ارادة حاكم أو دروس معلم أن تخلقها ٠

٢ ـ ان فوائد القانون والسياسة والتجارة والصناعة ، والفنون والعلوم هي أكثر ثباتا ودواما ، وقد يؤهل التعليم والنظام كثيرا من الأفراد لتنميه مصلحة المجتمع كل فى مركزه ووظيفته ٠ غير أن هذا النظام العام هو نتيجة المهارة والعمل ، وقد يضمحل الجهاز المعقد بفعل الزمن ، او يضار بتأثير العنف ٠

٣ ـ ومن حسن حظ الجنس البشرى أن الفنون الأكثر نفعا ، أو على الأقل ، الأكثر ضرورة ، يمكن أداؤها دون حاجة الى مواهب ممتازة ، أو الى الخضوع لتنظيم قومي ، دون كفايات فرد ، أو تضافر كثرة من الناس ٠ فكل قرية ، وكل أسرة ، وكل فرد ، كل من هؤلاء يجب أن يمتلك قدرة ورغبة تمكنانه من المداومة علىاستخدام النار والمعادن ، وعلى تنمية الحيوانات الأليفة والانتفاع بها ، وعلى استخدام وسائل الصيد البرى والبحرى ، وعلى الالمام بأوليات الملاحة ، وعلى زراعة القمح والحبوب الغذائية الأخرى بطريقة عادية ، وعلى ممارسة الحرف الآلية ممارسة بسيطة ٠ فالعبقرية الشخصية قد تهلك ، والصناعة العامة قد تنقرض ، غير أن تلك النباتات القوية تعيش بعد العاصفة ، وتضرب بجذور دائمة فى أقل أنواع التربة ملاءمة لها ٠ ولقد غطت سحابة من الجهل عصور أغسطس وتراجان الرائعة ، وقوض المتبربرون قوانين روما وقصورها ، غير أن المنجل ، الذى اخترعه اله الزراعة الرومانى « زحل » ، أو الذى أصبح رمزا له ، ظل يستخدم سنويا فى جنى محاصيل ايطاليا ، ولم تتجدد

أبدا تلك الولائم البشرية التى كان يقيمها اللستريجون (١) Laestrigons على شاطىء كمبانيا ·

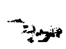
ومنذ أول اكتشاف للفنون ، نشرت الحروب ، والتجارة ، والحماس الدينى هذه النعم التى لا تقدر قيمتها ، بين الهمج فى الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ، وتوالى انتشارها بحيث أصبحت أشياء لا تزول · ومن ثم ينبغى علينا أن نرتضى هذه النتيجة السعيدة ، وهى أن كل عصر من عصور الدنيا قد ضاعف وما يزال يضاعف ثروة الجنس البشرى الحقيقية ، وسعادته ، ومعرفته ، وربما فضيلته (٢) ·

---

(١) جنس من أكلة لحوم البشر المردة قابلهم أوديسيوس ـ (الترجمة) ·

(٢) كثيرا ما تلوث فضل الإستكشاف بالجشع ، والقسوة ، والتعصب ، كما أن الاتصال الذى حدث بين الأمم قد ترتب عليه انتقال المرض والتحيز · وهناك شذوذ عجيب عن هذه القاعدة يعود الى ما يتصف به عصرنا هذا وبلدنا هذه من فضيلة . فالرحلات الخمس الكبيرة التى تمت بأمر من صاحب الجلالة الحالى ، كان الباعث عليها حبه الخالص الكريم للعلم وللجنس البشرى · وهذا الملك ، الذى يوزع احساناته بما يلائم مختلف مراحل المجتمع ، أسس فى عاصمته مدرسة للرسم ، وأدخل فى جزائر البحر الجنوبى تلك الخضروات والحيوانات الأكثر نفعا للحياة الانسانية ·

دولة إيطاليا





الفصل التاسع والثلاثون
(٤٩٤ ـ ٥٢٦)

حكم ثيودوريك القوطي الشرقي • رخاء روما وايطاليا • آريوسية ثيودوريك • قتل بويثيوس • موت ثيودوريك

غزا ثيودوريك ايطاليا بموافقة زينون ، امبراطور الشرق ، وهزم أدواكر ، وقتل أدواكر في سنة ٤٩٣ • وفي السنة نفسها ارتقى عرش القسطنطينية أناستاسيوس خلفا لزينون • وحكم ثيودوريك مملكة قوطية في ايطاليا ، من ٤٩٤ الى ٥٢٦ م •

عهد ثيودوريك

نشر انتصار ثيودوريك بين متبربرى الغرب حالة ذعر عامة ، ولكن بمجرد أن ظهر لهم أنه قنع بالغزو وأصبح راغبا في السلام ، تحول الذعر الى احترام ، وأذعنوا الى وساطة قوية استخدمت لتحقيق أحسن الأهداف ، وهي تسوية نزاعاتهم وتهذيب عاداتهم • وعندما ذهب السفراء الوافدون من أبعد بلدان أوربا الى رافنا ، أعجبوا بحكمته ، وفخامته ، وأدبه ، واذا كان في بعض الأحيان قد قبل العبيد أو الأسلحة ، أو الخيول البيضاء أو الحيوانات الغريبة ، فان اهداءه مزولة ، أو ساعة مائية ، أو موسيقارا ، كان يوجه نظر ملوك بلاد الغال أنفسهم الى تفوق رعاياه الايطاليين في الفن والصناعة • وكانت أسرة ثيودوريك تتألف من زوجة وابنتين ، وأخت ، وابنة أخت وقد ألفت مصاهراته العائلية بين أسرته وبين ملوك الفرنجة والبرجنديين ، والقوط الغربيين ، والوندال والثورنجيين ، وأسهمت في المحافظة على اتساق ، أو على الأقل ، توازن

دولة الغرب الكبرى • ومن الصعب أن نتتبع ، فى غابات ألمانيا وبولندا المظلمة ، هجرات شعب الهريولى . وهو شعب شديد المراس كان يزدرى استخدام الدرع ، ويحكم على النساء الأرامل بالموت اذا مات أزواجهن ، وعلى الآباء الطاعنين فى السن بألا يعيشوا بعد أن تضمحل صحتهم • وقد التمس ملك هؤلاء المقاتلين الهمج صداقة ثيودوريك ، ورفعه هذا الى مرتبة ابنه بمقتضى الطقوس البربرية الخاصة بالتبنى العسكرى ، وجاء أهل استونيا أو ليفونيا من شواطىء بحر البلطيق يضعون هداياهم من العنبر الوطنى تحت أقدام ملك دفعتهم شهرته الى القيام برحلة مجهولة خطيرة قطعوا فيها ألفا وخمسمائة ميل • وكان ثيودوريك على اتصال ودي متكرر بالبلد الذي اشتقت منه الأمة القوطية أصلها ، فكان الايطاليون يلبسون فراء السمور الثمينة الواردة من بلاد السويد ، كما أن أحد ملوك هذه البلاد ، وجد فى قصر رافنا ملاذا كريما ، بعد أن اعتزل العرش راغبا أو مكرها • وقد كان هذا الملك يحكم قبيلة من القبائل الثلاث عشرة الكثيرة العدد التى كانت تزرع جزءا صغيرا من جزيرة أو شبه جزيرة اسكنديناوة الكبرى التى كان يطلق عليها فى بعض الأحيان اسم غامض هو تول Thule • وكان هذا الاقليم الشمالى مسكونا حتى خط العرض الثامن والستين ، أو انه اكتشف منه الجزء المحدود بهذا الخط ، حيث يستمتع سكان الدائرة القطبية بظهور الشمس ، فى كل انقلاب صيفى ، فترة قدرها أربعون يوما ، ويفتقدونها فترة مماثلة فى كل انقلاب شتوى • وكان الليل الطويل الذى تغيب فيه الشمس أو تموت ، فصلا حزينا يسوده الكرب والقلق ، الى أن يكتشف الرسل ، الذين أوفدوا الى قمم الجبال ، ظهور أول خيوط الضوء ، ويعلنوا الى السهول السفلى عيد بعث الشمس من جديد •

وكانت حياة ثيودوريك مثلا نادرا جديرا بالثناء لرجل متبربر وضع سيفه فى غمده وهو فى زهوة النصر وعنفوان العمر • وقد كرس ثلاثا وثلاثين سنة لواجبات الحكم المدنى ، ومع أنه كان فى بعض الأحيان يخوض الحروب ، الا أن تلك الحروب كانت سرعان ما تنتهى بفضل مسلك ضباطه ، ونظام قواته ، وجيوش حلفائه ، بل وبفضل الخوف الذى كان يبعثه اسمه • وأخضع ، تحت حكومة قوية منظمة ، بلدانا عديمة النفع هى ريتيا ، ونوريكوم ، ودلماشيا ، وبانونيا ، من منبع الدنواب واقليم بافاريا الى المملكة الصغيرة التى أقامتها قبائل جبيدى على أنقاض سرميوم • وكان من الحكمة بحيث لا يستطيع مطمئنا أن يأتمن هؤلاء الجيران الضعفاء المشاغبين على بلاد تعتبر حصنا لايطاليا ، كما أن عدله كان يتطلب منه أن يسترد البلدان التى وقعت تحت نيرهم ، كجزء من

مملكته أو ميراث والده • وأثارت عظمة ذلك الخادم الذى نعت بالخيانة لأنه كان ناجحا مظفرا ، غيرة الامبراطور أناستاسيوس ونشبت بينهما حرب على حدود داكيا لأن الملك القوطى أظل بحمايته شخصا من سلالة أتيلا ، فى غمرة من تقلبات الأحوال الانسانية • وتقدم سابنيان ، وهو قائد مشهور بكفايته ، وبكفاية أبيه ، على رأس عشرة آلاف جندى من الرومان ووزع المؤن والأسلحة التى ملأت صفا طويلا من العربات على أشد القبائل البلغارية مراسا • غير أن القوات الشرقيه هزمت فى حقول مارجوس على أيدى القوط والهون الأقل منها عددا ، وهلكت زهرة الجيوش الرومانية ، بل وأملها ، هلاكا لا يعوض • وقد نفث ثيودوريك فى قواته الظافرة روح الاعتدال ، مما جعلهم لا يمسون أسلاب العدو الكثيرة الملقاة تحت أقدامهم ، طالما أن قائدهم لم يصدر لهم اشارة بنهبها • واستشاط بلاط بيزنطة غضبا ، فأرسل مائتى سفينة وثمانية آلاف رجل لنهب الاقليم الساحلى فى كالابريا وأبوليا ، فهاجموا مدينة تارنتم القديمة ، وعوقوا الزراعة والتجارة فى ذلك البلد التعس ، ثم أبحروا راجعين الى الدردنيل ، فخورين بانتصار القرصنة الذى أحرزوه على شعب كانوا لا يزالون يدعون اعتباره من اخوتهم الرومان • ومن الجائز أن نشاط ثيودوريك جعلهم يبادرون الى الانسحاب ، فقد حمى ايطاليا بأسطول يتألف من ألف سفينة خفيفة بناها بسرعة لا تصدق ، وسرعان ما كوفىء على اعتداله الحازم بعقد صلح شريف قوى • ولقد حافظ ثيودوريك بيد قوية على توازن الغرب ، حتى انهار ذلك التوازن فى نهاية الأمر من جراء أطماع كلوفيس Clovis ورغم أنه عجز عن مساعدة قريبه المتهور المنكود ، ملك القوط الغربيين ، الا أنه أنقذ البقية الباقية من أسرته وشعبه ، وكسر شكيمة الفرنجة وهم منتصرون • ولست أرغب فى اطالة قصة الأحداث الحربية هذه أو تكرارها ، وهى أقل الأحداث فى عهد ثيودوريك ، وسوف أقنع بأن أضيف الى ما قلت انه حمى قبائل الألمان ، وعاقب البرجنديين عقابا شديدا على غارة شنوها ، وغزا آرل ومرسيليا فأقام بذلك اتصالا حرا مع القوط الغربيين ، الذين احترموه وبجلوه على اعتبار أنه حامى وطنهم ، والوصى على حفيده ، ابن ألاريك الطفل • وبهذه الشخصية المبجلة ، أعاد ملك ايطاليا ولاية الغاليين البريتورية ، وأصلح بعض مساوىء الحكم المدنى فى أسبانيا . وقبل جزية سنوية وخضوعا ظاهريا من حاكمها العسكرى ، الذى رفض فى حكمة أن يأمن على نفسه بالذهاب الى قصر رافنا • واستقرت السيادة القوطيـة من صقلية الى الدانوب ، ومن سرميـوم أو بلجراد الى المحيط الأطلنطى ، واعترف اليونان أنفسهم بأن ثيودوريك حكم أجمل جزء فى الامبراطورية الغربية •

وكان من الجائز أن يديم اتحاد القوط والرومان سعادة ايطاليا العابرة عصورا طويلة ، وكان من المحتمل أن يترتب على المنافسة المتبادلة بين فضائل هذين الشعبين بعث جديد لأمة هي أولى الأمم ، ولشعب جديد من الرعايا الأحرار • غير ان حكم ثيودوريك كان مفتقرا الى الصفة السامية ، صفة قيادة مثل هذه الثورة أو تأييدها • فقد أعوزت هذا الرجل عبقرية المشرع ، أو الفرص المتاحة له ، وبينما سمح للقوط أن يستمتعوا بالحرية الفظة ، فانه قلد في ذلة نظم ، بل ومساوىء ، الكيان السياسى الذى أقامه قسطنطين وخلفاؤه • وقد دفعه احترامه الرقيق لميول روما ، تلك الميول التى قاربت على التلاشى ، الى نبذ اسم الامبراطور ، وتاجه ، وردائه الأرجوانى • غير أنه اتخذ لنفسه ، تحت لقب الملك الوراثى ، كل الامتيازات الامبراطورية من حيث جوهرها وتمامها • فكانت رسائله الى العرش الشرقى تتسم بالاحترام والغموض ، وكان يبجل فيها بأسلوب فخم ذلك الاتساق القائم بين الدولتين ، ويشيد بحكومته هو على أنها صورة كاملة لامبراطورية واحدة موحدة ، ويدعى لنفسه ، أكثر من جميع ملوك الأرض ، تلك الرفعة نفسها التى أجازها فى تواضع لشخص أناستاسيوس أو لمقامه • وكان التحالف بين الشرق والغرب يعلن سنويا باختيار قنصلين اختيارا اجماعيا • غير أنه يبدو أن المرشح الايطالى ، الذى كان يعينه ثيودوريك ، كان يحصل على تصديق رسمى من عاهل القسطنطينية • وكان القصر القوطى فى رافنا يعكس صورة بلاط ثيودوسيوس أو فالنتينيان • فالوالى البريتورى • ووالى روما ، والكوستر ، ورئيس الديوان ، وأمناء الأموال العامة والموروثة الذين صورت بلاغة كاسيدوروس مهامهم فى ألوان براقة ، كل هؤلاء ظلوا يعملون كوزراء للدولة • أما مهمة الاشراف على العدالة والايرادات ، وهى مهمة دون المهام السابقة ، فقد كان يتولاها سبعة قناصل ، وثلاثة مشرفين (١) ، وخمسة رؤساء يحكمون أقاليم ايطاليا الخمسة عشر بمقتضى المبادىء ، بل والشكليات ، الخاصة بالقضاء الرومانى • وترتب على بطء الاجراءات القانونية اضعاف عنف الغزاة أو تجنبه ، واقتصرت الادارة المدنية ، بمناصبها وأرباحها ، على الايطاليين . وظل الناس يحتفظون بملبسهم ولغتهم ، وبقوانينهم وعاداتهم ، وبحريتهم الشخصية ، وبثلثى أملاكهم من الأرض • وفيما مضى كان هدف الامبراطور أغسطس أن يخفى دخول النظام الملكى ، وكذلك كانت سياسة ثيودوريك هى ستر حكم رجل متبربر •

---

(١) Corrector وهو المشرف على الحقوق المدنية • كانت وظيفته تعادل وظيفة الوالى البريتورى •

ومع أن رعاياه كانوا يستيقظون فى بعض الأحيان من حلمهم اللذيذ ، حسم وجود حكومة رومانية ، الا أنهم كانوا يستمدون راحة أكثر من أخلاق ملك قوطى يمتلك قدرة نافذة تمكنه من معرفة مصلحته الشخصية والمصلحة العامة ، كما يمتلك الحزم الذى يؤهله لتحقيق هاتين المصلحتين . وكان ثيودوريك يعتز بما يمتلكه من فضائل ، ويحب ما يفتقر اليه من مواهب . ورفع ليبريوس الى منصب الوالى البريتورى نظير اخلاصه الثابت لقضية أدواكر التعسة . أما كاسيدوروس وبويثيوس ، وزيرا ثيودوريك ، فقد أضفيا على عهده ، رونق عبقريتهما وعلمهما . وكان كاسيدوروس أكثر حكمة أو أحسن حظا من زميله ، فاستطاع الحفاظ على مكانته دون أن يخسر الحظوة الملكية ، وبعد أن استمتع بأمجاد الدنيا ثلاثين عاما ، نعم بفترة مماثلة من الراحة فى عزلة كرسها للتعبد والدرس فى سكويلاس Squillace .

رخاء روما وايطاليا

كان من واجب الملك القوطى ومصلحته ، باعتباره سيد ايطاليا ، أن يغرس فى نفوس الشعب والسناتو مشاعر الحب نحوه . فاجتذب نبلاء روما بما أغدقه عليهم من صفات رنانة ومناصب رسمية ، كتلك التى كان يتمتع بها أجدادهم بصورة أقرب الى العدالة ، نظرا لما توفر لهم من جدارة وسلطة . واستمتع أفراد الشعب ، دون خوف أو خطر ، بنعم العاصمة الثلاث . وهى النظام ، والرخاء ، والملاهى العامة ، غير أن أعدادهم تناقصت تناقصا ملحوظا رغم هذا الكرم ، ومع ذلك فان أبوليا ، وكالابريا ، وصقلية كانت تبعث بخراج القمح المفروض عليها الى مخازن الحنطة فى روما ، ووزع نصيب من الخبز واللحم على المواطنين المعوزين ، وكانت كل رعاية تخصص للعناية بصحتهم تعتبر رعاية كريمة . وكانت الألعاب العامة ، التى قد يمتدحها سفير يونانى ، مجاملة وتأدبا ، صورة باهتة ضعيفة لروعة مثيلاتها فى عهد القياصرة . غير أن فنون الموسيقى ، والرياضة ، والتمثيل الصامت ، لم تذهب كلية الى زوايا النسيان . وظلت الوحوش الأفريقية الضارية تطلق فى مدرجات الألعاب فى مواجهة الصيادين لتدريبهم على الشجاعة والبراعة . وكان الملك القوطى المتسامح يتحمل فى صبر ، أو يكبح فى رقة ، فرق المجالدين الزرقاء والخضراء ، التى كثيرا ما ملأت ساحة اللعب بالصخب والضوضاء ، بل وخضبتها بالدماء . وزار ثيودوريك فى السنة السابعة من حكمه الهادىء العاصمة القديمة للدنيا ، وخرج

أعضاء السناتو والشعب في موكب مهيب لتحية تراجان ثان ، وفالنتينيان جديد • وعزز تيودوريك هذه الشخصية بأن أكد في خطاب لم يتهيب أن يلقيه أمام الجماهير ويكتبه على لوحة من النحاس ، أن حكومته تتوخى العدالة وتحكم بمقتضى القانون ، وفي هذا الاحتفال العظيم أطلقت روما آخر شعاع من أشعة مجدها المتدهور المضمحل ، ولم يكن في وسع أحد القديسين ، وقد شاهد ذلك المنظر العظيم ، الا أن يأمل في خياله الورع ألا يكون هناك ما هو أفخم من ذلك الا الروعة السماوية لأورشليم الجديدة • وأقام الملك القوطي في روما ستة شهور أثارت فيها شهرته ، وشخصيته ، ومسلكه المهذب الكريم ، اعجاب الرومان ، وكان هو أيضا يتأمل ، بالقدر نفسه من العجب والدهشة ، تلك الآثار الباقية من عظمتهم القديمة ، وارتقى مرتفع الكابيتول في خطوات الفاتح ، واعترف في صراحة أنه كان يشاهد كل يوم ، وفي عجب جديد ، ساحة روما Forum التي أقامها تراجان ، وعموده الشاهق •

وبدا مسرح بومبي ، حتى في تدهوره ، كجبل شامخ جوفته صناعة الانسان وصقلته ، وكان في تقديره المفتقر الى الدقة أن مدرج الألعاب الضخم ، الذي بناه تيتوس Titus لابد أنه استنزف نهرا من الذهب • وكانت تصب في المدينة سقايات للمياه عددها أربع عشرة فتغذى كل جزء منها بالمياه العذبة الغزيرة ، ومن بينها سقاية كلوديان التي كانت تنبع على ثمانية وثلاثين ميلا من جبال سابين ، ثم تنساب فوق منحدر سهل مستمر يرتكز على أقواس صلبة حتى تهبط على تل أفنتين Aventine Hill أما القباء الطويلة الفسيحة ، التي شيدت لتصريف المياه العامة ، فقد احتفظت بصلابتها الأصيلة بعد اثنى عشر قرنا من الزمن • وظلت تلك القنوات الجوفية من الأشياء التي تفضل عجائب روما البادية للعيان ، وقد اتهم ملوك القوط ظلما وعداونا بتخريب الآثار القديمة ، غير أنهم في واقع الأمر كانوا يحرصون على المحافظة على آثار الأمة التي أخضعوها ، فقد صيغت المراسيم الملكية بحيث تمنع المواطنين أنفسهم من اساءة استعمالها ، أو اهمالها ، أو نهبها • وخصص للاصلاحات العادية اللازمة للأسوار والمباني العامة مهندس معماري خبير ، ومبلغ سنوي قدره مائتان من الأرطال الذهبية ، وخمسة وعشرون ألف قطعة من القرميد ، وعائد الجمارك من ميناء لوكرين • وامتدت العناية نفسها الى التماثيل المعدنية أو الرخامية التي تمثل الانسان والحيوان • فكان تمثالا الجوادين المقامين عند مدخل قصر الكويرينال واللذان أكسباه اسما حديثا ، موضع اعجاب البرابرة ، كما أعيدت تماثيل الفيلة النحاسية التي كانت قائمة في طريق ساكرا

Via Sacra • وكان تمثـــال العجـل الذى نحته ميرون (١) Myron يخدع الماشية عندما كانت تساق فى ساحة سوق السلم • وعين ضابط لحماية هذه الأعمال الفنية التى كان ثيودوريك يعتبرها أنبل حلية تزدان بها مملكته •

وجرى ثيودوريك على عادة آخر الاباطرة ، ففضل الاقامة فى قصر رافنا ، حيث زرع بيديه بستانا ، وكلما كان المتبربرون يهددون ســلام مملكته (لأنهـا لم تغز قط) ، كان ينتقل ببلاطه الملكى الى فيرونا على الحدود الشمالية ، وما تزال صورة قصره مرسومة على عملة باقية الى الآن ، وتمثل أقدم وأصدق طراز لفن المعمار القوطى •

وهاتان العاصمتان بالاضافة الى بافيا ، وسبوليتو ، ونابولى ، وبقية المدن الايطالية ، زينت فى عهده بالكنائس ، والحمامات ، والأروقة ، والقصور وكلها زينات نافعة أو رائعة ، غير أن سعادة أفراد الرعية كانت أكثر وأصدق ظهورا ، فى انهماكهم فى العمل والترف معا ، وفى سرعة زيادة الثروة القومية ، والجرأة على الاستمتاع بها ، فقد ظل أعضـــاء السناتو يهرعون فى الشـــتاء من ظلال التيبر وبرانست الى الشمس الدفيئة ، والينابيع الصحية فى مدينة بايبه Baiae ، وكانت (فلاتهم) القائمة على حواجز حجرية صلبة ، تبرز فى خليج نابولى ، وتشرف على مختلف مناظر السماء والأرض والماء • وعلى الجانب الشرقى من بحر الادرياتيك أقيمت كمبانيا الجديدة فى ولاية استريا الجميلة اليانعة التى كان يصلها بقصر رافنا طريق ملاحى سهل طوله مائة ميل ، وكانت منتجات لوكانيا والولايات المجاورة يتبادلها الناس الى جوار نافورة ماركيليا ، فى سوق مزدحمة تخصص سنويا للتجارة ، والمرح ، والخرافة ، وفى مدينة كومـــوم Comum المنعزلة ، التى أقام فيهـا العـــالم الرومانى بلينى Pliny فيما مضى ، وأضفى عليها من عبقريته الرقيقة ، كان لايزال هناك غدير شفاف طوله أكثر من ستين ميلا يعكس ماؤه منظر المقاعد الريفية التى أحاطت بحافة بحيرة لاريا • وكانت منحدرات التلال المدرجة مغطاة بمزارع الزيتون ، والكروم وأشجار البلوط ، وازدهرت الزراعة فى ظل الســـلام والهدوء ، وتضاعف عدد الفـــلاحين بعد أن افتدى

---

(١) نحات يونانى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ـ (الترجمة) •

الأسرى (١) • واكتشفت في عناية مناجم الحديد في دالماشيا ، ومنجم الذهب في بروثيوم ، كما جففت مستنقعات بومبتين ، ومستنقعات سبوليتو ، وتولى زراعتها أناس على حسابهم الخاص يتوقف ربحهم البعيد على استمرار الرخاء العام • وعندما كان الانتاج يقل في بعض الفصول ، كانت تتخذ احتياطات غير مؤكدة النتائج ، كفتح حوانيت للقمح وتحديد الأسعار ، وحظر التصدير ، وكلها تثبت على الأقل أن الدولة تعمل للخير •

غير أن ما أنتجه الشعب المجد العامل من تربة البلاد الصالحة أوجد في البلاد وفرة غير عادية بحيث كان جالون النبيذ يباع في ايطاليا أحيانا بأقل من ثلاثة فارذنج (أصغر عملة انجليزية وتعادل ربع البنس) ، والربع من القمح بما يقرب من خمسة شلنات ونصف ، ولا شك في أن بلدا يملك مثل هذه الأشياء الكثيرة الثمينة التي تصلح للتبادل ، سرعان ما اجتذب اليه تجار العالم ، وكانت روح ثيودوريك الكريمة المتحررة تشجع تلك التجارة النافعة وأعيد ، بل زيد ، الاتصال الحر بين الولايات عن طريق البر والبحر ، وكانت أبواب المدينة تظل مفتوحة نهارا وليلا ، وشاع هناك القول بأن في مقدور الانسان أن يترك وهو آمن كيسا من الذهب في الحقول ، وفي هذا القول تعبير عن شعور السكان بالأمن والطمأنينة •

آريوسية ثيودوريك

لا شك في أن اختلاف الديانة ضار دائما بما هنالك من اتساق وانسجام بين الحاكم والشعب ، وكثيرا ما يقضي على ذلك الانسجام ، ولقد نشأ الفاتح القوطي على عقيدة آريوس ، بينما كانت ايطاليا تدين بعقيدة نيقيا ، غير أن ايمان ثيودوريك لم تلوثه الغيرة والحماس ، وكان متمسكا بهرطقة آبائه دون أن يتدلى الى وزن الحجج الدقيقة الخاصة بالميتافيزيقا اللاهوتية ، وقد قنع بتسامحه الشخصي مع أبناء الطائفة الآريوسية ، واعتقد بصدق أنه حارس العبادة العامة ، وربما كان احترامه الظاهري لعقيدة خرافية يحتقرها من الأمور التي غذت في عقله شيئا من عدم الاكتراث المفيد الذي هو من شيم الساسة أو الفلاسفة ، وقد اعترف

---

(١) خلص القديس ابيفانيوس St. Epifanius من أهل بافيا ، بالصلوات أو الفدية ، ستمائة من الأسرى من البرجنديين في ليون وسافوى ، ومثل هذه الأعمال هي أحسن المعجزات •

الكاثوليك فى بلاده ، ربمـــا على غير رغبة منهم ، بأن الهدوء يظلل كنيســـتهم ، وكان رجال الدين منهم يلقون الحفاوة والتكريم فى قصر ثيودوريك ، بقدر مقامهم وجدارتهم · وكان الملك يبجل قدسية الأحياء منهم ، مثل سيزاريوس أسقف آرل الأرثوذكسى ، وابيفانيوس أسقف بافيا ، وقدم قربانا لائقا على قبر القـــديس بطرس ، دون أن يهتم بالاستفسار عن عقيدة ذلك الرسول ، وسمح للمقربين اليه من القوط ، حتى أمه ، بأن يحتفظوا بعقيدة أثناسيوس أو يعتنقوها ، ولم يحدث فى عهده الطويل أن كاثوليكيا ايطاليا واحدا تحول الى دين الفاتح ، طواعية أو كرها ، وازدادت القوة الروحية بين الشعب ، وبين المتبربرين أنفسهم ، بفضل عظمة العبادة الدينية ونظامها ، وتعلم الحكام أن يحموا الحصانات العادلة التى كانت لرجال الكنيسة وممتلكاتها ، وكان الأساقفة يعقدون مجالسهم الكنسية ورؤســاء الأســاقفة يمارســون سلطتهم القضائية ، كما أن امتيازات أماكن العبادة ظلت كما هى أو خففت وفق روح الفقه الرومانى · والى جانب أن ثيودوريك كان حامى الكنيسة ، فانه أصبح صاحب السيادة الشرعية عليها ، وبفضـــل ادارته الحازمة استعادت الكنيســة أو اكتسبت بعض الامتيازات المفيدة التى كان أباطرة الغرب الضعفاء قد أهملوها · ولم يغب عنه ما كان هنالك من مكانة وأهمية للحبر الرومانى الذى أطلق عليه الآن الاسم المبجل « البابا » ولا شك فى أن السلام أو الاضطراب فى ايطاليا قد يتوقف على أخلاق أسقف ثرى له مكانته بين الناس ، أسقف له مثل هذا السلطان العظيم فى السماء وفى الأرض ، أسقف أعلن مجلس كنسى كبير العدد أنه طاهر من كل خطيئة ، ومعفى من كل حكم ، وعندما حدث تنازع على كرسى القديس بطرس بين سيماخوس ولورانس ، دعاهما الملك الآريوسى الى المثول أمام محكمته ، وهناك أقر انتخاب المرشح الأعظم جدارة أو الأكثر طاعة ، وفى نهاية حياته ، وفى لحظة غيرة وسخط ، منع الرومان من الاختيار ، بأن عين بابا فى قصر رافنـــا ، وبهـــذا كبح فى لين ورفق خطر الانقســـام وما يقترن به من صراعات حادة ، وكان آخر قانون أصدره السناتو يهدف ، اذا أمكن ، الى القضاء على ما كان يعتور الانتخابات البابوية من فســاد الرشوة المعيب ·

لقد أطلت الحديث فى سرور عن الحالة السعيدة التى حظيت بها ايطاليا ، غير أن خيالنا يجب ألا يذهب بنا سريعا الى الاعتقاد بأن الغزو القوطى قد حقق فى البلاد عصر الشعراء الذهبى ، عصر جنس من الناس

لا تشوبهم رذيلة ، ولا يشعرون بشقاء ، فالمنظر الجميل كانت تزحف عليه السحب فى بعض الأحيان ، وحكمة ثيودوريك كانت تنخدع ، وسلطته كانت تقاوم ، كما أن سنوات عمره الأخيرة لوثتها كراهية الشعب ، ولطخها دم النبلاء ، ولقد أغرته العجرفة التى تملكته فى بادىء الأمر فور انتصاره ، على حرمان فريق أدواكر كله من حقوق المجتمع المدنية ، بل ومن حقوقه الطبيعية ، ولو أنه جانبه التوفيق ، وفرض ضريبة بعد كوارث الحرب لقضى على الزراعة الناشئة فى اقليم ليجوريا ، ولو أنه استولى استيلاء صارما على القمح المخصص لاغاثة الشعب لضاعف بذلك من محنة اقليم كامبانيا ، غير أن هذه المشروعات الخطيرة حالت دون اتمامها قدرة وفصاحة ابيفانيوس وبويتيوس اللذين نجحا فى الدفاع عن قضية الشعب فى حضرة ثيودوريك نفسه • ولكن اذا كانت أذن الملك مفتوحة لاستقبال صوت الحق ، فليس من المستطاع دائما أن يكون هناك قديس وفيلسوف الى جوار آذان الملوك • فكثيرا ما أسى استغلال المقام ، أو الوظيفة ، أو الحظوة ، من جراء خداع الايطاليين وعنف القوط ، وتجلى جشع ابن شقيق الملك علانية ، ففى مبدأ الأمر اغتصب أملاك جيرانه التسكانيين ظلما وعدوانا ، ثم أعيدت اليهم بعد ذلك • وكان هناك فى قلب ايطاليا مائتا ألف من المتبربرين الذين كانوا يعتبرون مصدر خوف وفزع ، حتى بالنسبة لسيدهم ، وتحمل هؤلاء على مضض قيود الأمن والنظام ، وكانوا يسببون الاضطراب دائما بمشيتهم العسكرية ، ويكافأون عليها فى بعض الأحيان ، وعندما كان من الخطورة أن يعاقبوا على نزوات ضراوتهم التى جبلوا عليها بلادهم ، كان من الحكمة أن يتغاضى عنها • وعندما تساهل ثيودوريك وتجاوز عن ثلثى الخراج الذى كانت تدفعه ليجوريا ، تنازل بايضاح مصاعب موقفه ، وأبدى أسفه للأعباء الثقيلة الحتمية التى فرضها على رعاياه من أجل الدفاع عنهم • ولم يكن مستطاعا أبدا أن يرضى هؤلاء الرعايا الجاحدون من صميم قلوبهم عن أصل الفاتح القوطى أو عن ديانته ، أو حتى عن فضائله ، فنسوا الكوارث الماضية ، وزاد هناؤهم الحالى من حدة احساسهم بما هنالك من اساءات أو بما يظنون أنه اساءة •

وحتى التسامح الدينى الذى كانت اشاعته فى العالم المسيحى فخرا ومجدا لثيودوريك كان شيئا يؤلم حماس الايطاليين للمعتقد الصحيح ويسىء اليه • ولقد احترموا هرطقة القوط المستندة الى قوة السلاح ، غير أنهم وجهوا غضبهم الدينى وهم آمنون نحو اليهود العزل الأغنياء

الذين كانوا قد استقروا فى نابولى وروما ورافنا وميلان وجنوة سعيا وراء المنفعة التجارية وتحت حماية القوانين فتعرضت أشخاصهم للاهانة ، وممتلكاتهم للنهب • ومعابدهم للحريق ، على أيدى سكان رافنا وروما الثائرين الذين أشعلت النار فى صدورهم ادعاءات أكثر ما يكون استهتارا أو تطرفا ، ولا شك فى أن الحكومة لو أنها أهملت هذا الاضطراب لاستحقت أن تصاب به ، ومن ثم فقد أجرى على الفور تحقيق قانونى ، ولما كان مثيرو الشغب قد تواروا وسط الجمهور ، فقد حكم على المجتمع كله بأن يصلحوا الأضرار التى وقعت ، أما المتعصبون للدين ، الذين رفضوا الاسهام فى دفع التعويضات ، فقد جلدوا فى الشوارع بيد الجلاد • وأثار هذا العمل البسيط العادل ثائرة الكاثوليك الذين هللوا لما اتصف به هؤلاء القساوسة المقدسون من فضيلة وصبر ، فارتفعت الأصوات من فوق ثلاثمائة منبر تأسف لاضطهاد الكنيسة ، واذا كانت كنيسة القديس اسطفان قد هدمت بأمر من ثيودوريك ، فمن المحتمل أنه حدثت فى ذلك المكان المقدس معجزة تسىء الى اسمه ومكانته • وقد اكتشف ملك ايطاليا فى نهاية حياة مجيدة أنه أثار كراهية شعب عمل جاهدا على تحقيق سعادته ، فامتلأت نفسه بآلام السخط والغيرة ، ومرارة الحب المجحود ، وعمد الفاتح القوطى الى تجريد أبناء ايطاليا الجبناء من أسلحتهم ، وحظر كل الأسلحة التى يمكن أن تستخدم فى العدوان ، فيما عدا مطواة صغيرة ينتفع بها فى الشئون المنزلية ، وقد اتهم منقذ روما بالتآمر مع أحط المخبرين على حياة أعضاء السناتو ، الذين اشتبه فى أنهم على اتصال سرى خائن مع البلاط البيزنطى ، وبعد موت أناستاسيوس كان تاج الامبراطور قد وضع على رأس رجل عجوز ضعيف ، غير أن سلطات الحكم اضطلع بها ابن شقيقه جستينيان ، الذى كان اذ ذاك يفكر فعلا فى استئصال الهرطقة وغزو ايطاليا وأفريقيا • فأصدر فى القسطنطينية قانونا صارما يهدف الى اخضاع الآريوسيين الى سلطة الكنيسة ، والا تعرضوا للعقاب ، وأثار هذا القانون ، سخط ثيودوريك الذى كان يطالب لاخوته المنكوبين فى الشرق بنفس التسامح الذى منحه هو تلك المدة الطويلة لكاثوليك بلاده ، فأصدر أمرا حازما صريحا الى الحبر الرومانى بأن يرحل الى القسطنطينية مع أربعة من أعضاء السناتو اللامعين ، فى مهمة كان يخشى فشلها أو نجاحها سواء بسواء • وقد استقبل أول بابا يزور تلك المدينة باحترام فريد ، غير أن مليكه ثيودوريك ، استشعر من ذلك غيرة دفعته الى عقابه على ما اعتبره جرما • ومن الطبيعى أن الرفض الصريح القاطع ، أو الملتوى ، الذى جاء من البلاط البيزنطى كان مبررا لاجراء انتقامى يساويه ، ويثير اجراء أوسع

نطاقا ، ومن ثم فقد أعد فى ايطاليا أمر عال يقضى بحظر ممارسة العبادة الكاثوليكية بعد يوم معين ، وهكذا أدى تعصب رعايا ثيودوريك ، وتعصب أعدائه الى دفع أكثر الملوك تسامحا الى حافة الاضطهاد ، وطالت حياة ثيودوريك أكثر مما ينبغى لأن العمر امتد به حتى أدان فضيلة بويثيوس وسيماخوس ٠

اعـدام بويثيوس

كان عضـو السناتو بويثيوس آخر رومانى يستطيع كاتو Cato أو تلى Tully أن يعترف به رجلا من بنى وطنه ، ولقد نشأ هذا الرجل طفلا يتيما ورث أملاك أسرة أنيكيا وأمجادها ، وكان اسم هذه الأسرة يفاخر به ملوك وأباطرة ذلك العصر ، وكان لقب مانليوس Manlius يؤكد انحداره الحقيقى أو الخرافى من سلالة قناصل وحكام بأمرهم ، استطاعوا صد الغاليين عن الكابيتول ، وضحوا بأبنائهم من أجل اقرار النظام فى الدولة ، وعندما كان بويثيوس فى ريعان شبابه لم تكن دراسات روما قد أهملت تماما ، اذ ما يزال هناك الآن مؤلف من مؤلفات الشاعر الرومانى فرجيل صححته يد أحد قناصل ذلك العهد ٠ كما أن أساتذة النحو والبلاغة Rhetoric وعلم الفقه ظلوا محتفظين بامتيازاتهم ومعاشاتهم بفضل سخاء القوط وكرمهم ٠ غير أن تمكنه من اللغة اللاتينية لم يكن كافيا لاشباع فضوله المتقد ، ويقال انه قضى ثمانية عشر عاما من الدراسة الجادة فى مدارس أثينا لقى فيها عونا من حماس بروكليوس Proclus وتلاميذه ، ومن علمهم ومثابرتهم ٠ ومن حسن الحظ أن عقل تلميذهم الرومانى وتقواه لم يصابا بعدوى الغموض والسحر التى لوثت أدغال « الأكاديمية » ، غير أن بويثيوس تشرب روح الأموات والأحياء من أساتذته وقلد أسلوبهم ، أولئك الأساتذة الذين حاولوا التوفيق بين قوة روح أرسطو ودقتها ، وبين التأمل الورع ، والخيال الرائع اللذين اتسم بهما أفلاطون ، وبعد عودته الى روما وزواجه من ابنة صديقه النبيل سيماخوس ، ظل يواصل الدراسات نفسها فى قصر من العاج والرخام ، وغذى الكنيسة بدفاعه العميق عن العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة ضد هرطقات آريوس ويوتيكيس ونسطور ، وفسرت الوحدة الكاثوليكية أو عرضت فى بحث كتبه ثلاثة أشخاص مختلفين وان كانوا جميعا من المؤمنين بعقيدة وحدة الجوهر ، دون أن يكون هناك أى ضغط عليهم نحو ذلك الاتجاه ، ومن أجل منفعة قرائه اللاتينيين استخدم عبقريته فى تعليم المبادىء الأولى لفنون اليونان وعلومهم ، ولقد ترجم وشرح هـذا السـناتور الرومانى بقلم

لا يعرف الكلل هندسة اقليدس ، وموسيقى فيثاغورس ، وحساب نيقوماخوس ، وميكانيكا أرشميدس ، وفلك ، ولاهوت أفلاطون ، ومنطق أرسطو مع تعليق بورفيرى • وكان هو وحده يعتبر كفئا ، لوصف عجائب الفن ، كالمزولة ، أو الساعة المائية ، أو الدائرة التى تمثل حركات الكواكب ، ومن هذه الأفكار الغامضة نزل بويثيوس ، أو بعبارة أصدق ارتفع الى الواجبات الاجتماعية المتعلقة بالحياة العامة والخاصة ، فأغاث المعوزين بسخائه ، واستغل فصاحته ، التى قد يشبهها المتملقون بصوت ديموستين أو شيشرون ، فى تأييد قضية الانسانية وطهارة الذيل • ولقد أحس الملك الحصيف بهذه الفضائل البارزة وكافأه عليها • فأضفى على مكانته ما يجملها ، بمنحه لقب القنصل ولقب النبيل ، واستغل مواهبه استغلالا نافعا فى المنصب الهام الذى أسنده اليه ، وهو منصب رئيس الديوان • ورغم تكافؤ حقوق الشرق والغرب ، فقد عين ولداه ، وهما فى مستهل الشباب ، قنصلين فى سنة واحدة ، وفى ذلك اليوم المشهود الذى توليا فيه ذلك المنصب تقدما فى موكب مهيب من قصرهما الى ساحة روما وسط تهليل السناتو والشعب ، وكان والدهما ، قنصل روما الأصيل ، فرحا يفيض بالبشر ، وبعد أن ألقى خطابا أطرى فيه مولاه الملك الكريم وزع هبات الظفر والنصر فى ساحة ألعاب (السيرك) ، وربما جاز اعتبار بويثيوس سعيدا موفقا اذ واتته الشهرة والثروة ونال المناصب العامة ، وعقد الصداقات الخاصة واستطاع تنمية العلم ، وأحس بما فيه من فضيلة ، ربما جاز اعتباره سعيدا ، لو أن هذه الصفة المزعزعة ، صفة السعادة ، يمكن أن تصدق على انسان قبل الفترة الأخيرة من حياته •

ولقد كان بويثيوس جوادا بماله ضنينا بوقته ، ولم يتأثر بمغريات الطمع العادية ، وهى التعطش الى الذهب والمنصب • وربما كان بعض الفضل فى ذلك راجعا الى أنه قد أكد تأكيدا قويا أنه مرغم على طاعة المعلم الجليل أفلاطون الذى يحتم على كل مواطن فاضل أن ينقذ الدولة من أن تغتصبها الرذيلة والجهالة ، وكانت ذكرى بلاده تبعث النزاهة فى مسلكه العام ، وقد استخدم سلطته فى كبح كبرياء موظفى الملك واستبدادهم ، كما أن فصاحته أنقذت يوليانوس من أوغاد القصر ، ولقد كان يرثى دائما لمحنة سكان الولايات ، وكثيرا ما أغاثهم منها ، لأن ثروات هؤلاء الناس قد استنزفها النهب العام والخاص ، وكان بويثيوس وحده هو الذى يملك من الشجاعة ما يمكنه من مقاومة طغيان البرابرة الذى ضاعفه الغزو وأثاره الجشع ، وأصبح التجاوز عنه موضع شكواه • وفى هذه النزعات الشريفة كانت روحه تعلو على اعتبارات الخطر ، وربما اعتبارات الفطنة والحرص ، وقد نتعلم من المثل الذى ضربه كاتو ان

الشخصية التى تتسم بالفضيلة النقية الصلبة هى أكثر الشخصيات قابلية لأن يضللها التحيز ، ويثيرها الحماس ، ولأن تخلط بين العداوات الشخصية وبين العدالة العامة ، ولابد أن تلميذ أفلاطون قد بالغ فى عجز الطبيعة البشرية ونقائص المجتمع • وكان أرق شكل لمملكة قوطية ، وحتى ثقل الولاء وعرفان الجميل ، لابد أن هذا وذاك كانا من الأمور التى لا تتحملها روح وطنى رومانى حرة ، غير أن حظوة بويثيوس وولاءه تدهورا بنفس النسبة التى تدهورت بها رفاهية الشعب ، وفرض الملك على رئيس ديوانه زميلا تافها يقتسم معه سلطته ويتحكم فيها • وفى الفترة المظلمة الأخيرة من عهد ثيودوريك شعر بويثيوس فى غضب وسخط أنه أصبح عبدا ، ولكن لما كان سيده لا يملك ألا سلطانا على حياته ، فقد وقف ، دون سلاح ودون وجل ، فى مواجهة بربرى غاضب أصبح يعتقد أن سلامة السناتو لا تتفق مع سلامة شخصه • وقد اتهم عضو السناتو ألبينوس ، وحكم عليه فعلا ، بناء على الظن بأنه ، كما قيل ، كان « يأمل » فى أن تحصل روما على حريتها ، وفى هذا الشأن قال الخطيب بويثيوس : « اذا كان ألبينوس مجرما ، فانى وأعضاء السناتو نعتبر مذنبين لأننا اقترفنا الذنب نفسه • واذا كنا بريئين ، فان من حق ألبينوس أيضا أن تحميه القوانين » •

وهذه الرغبة البسيطة العقيمة فى نعمة مستحيلة التحقيق كان من الممكن ألا تصبح موضع مؤاخذة هذه القوانين ، غير أن هذه القوانين نفسها كان لابد أن تكون أقل تسامحا مع الاعتراف المتسم بالتهور الذى صرح به بويثيوس ، وهو أنه لو كان قد عرف بوجود مؤامرة لما أطلع الطاغية عليها • وسرعان ما اعتبر بويثيوس ، محامى ألبينوس ، شريكا فى الخطر المحيق بعميله ، وربما اعتبر شريكا فى ذنبه • فوضع توقيعاهما (اللذان أنكراهما ودفعا بأنهما مزوران) على الخطاب الأصلى الذى يدعو الامبراطور الى انقاذ ايطاليا من القوط ، وجىء بثلاثة شهود من أصحاب المراكز المحترمة ، وربما من أصحاب السمعة السيئة ، فشهدوا بصحة الخطط الخائنة التى وضعها النبيل الرومانى • ومع ذلك فمن الواجب أن نفترض براءته لأن ثيودوريك حرمه من الوسيلة التى يستطيع بها تبرير موقفه وسجنه فى برج بافيا ، بينما كان السناتو ، على مسافة خمسمائة ميل ، يصدر حكما بالمصادرة والموت على ألمع أعضائه وأعظمهم قدرا ، وبمقتضى أوامر البرابرة دمغ ما كان يتصف به الفيلسوف

من علم غامض بأنه سحر وانتهاك للمقدسات (١) • وهكذا أدان أعضاء السناتو أنفسهم بأصوات مرتجفة تعلق بويثيوس بالسناتو تعلقا يتسم بالورع والامتثال ، على أنه عمل اجرامى ، واستحق نكرانهم للجميل تلك الرغبة أو النبوءة التى عبر عنها بويثيوس بقوله ان أحدا من بعده لن يرمى باقتراف الذنب نفسه •

وخلال الفترة التى كان فيها بويثيوس مثقلا بالأغلال فى برج بافيا وينتظر فى كل لحظة حكم الموت أو ضربته ، ألف كتاب « عزاء الفلسفة » Consolation of Philosophy وهو سفر جليل جدير بأن يجد فيه أفلاطون أو تلى Tully متعة فى أوقات فراغهما ، غير أن همجية العصر الذى كتب فيه ، والوضع الذى كان فيه مؤلفه يجعلانه سفرا لا يدانيه فى ميزته كتاب آخر • وقد استرشد فيه بالهداية السماوية التى طالما ابتهل اليها طويلا فى روما وأثينا ، والتى هبطت عليه الآن لتضىء له سجنه ، وتبعث فيه شجاعته ، وتمسح جروحه ببلسمها الشافى • وقد علمته أن يقارن بين رفاهيته الطويلة السابقة ومحنته الحالية ، وأن ينتظر من تقلبات الحظ آمالا جديدة • وكان العقل قد هداه الى أن هباتها لا تثبت على حال ، وأقنعته التجربة بقيمها الصحيحة ، فهو قد استمتع بها فى براءة ، وعليه الآن أن يودعهـا غير آسف عليها ، وأن يحتقر فى هدوء ما يضمره له أعداؤه من ضغينة عاجزة ، فهم قد تركوا له السعادة اذ تركوا له الفضـيلة • وقد حلق بويثيوس فى أجواز السماء باحثا عن الخـير الأسمى ، واكتشف المتاهـات الميتافيزيقية لموضـوع الحظ والقدر ، وموضوع الجبرية والاختيار ، وموضوع الزمن والأبدية ، وحاول بصورة كريمة أن يوفق بين صفات الكمال التى يتسم بها الآلهة وبين ما يبدو على حكمه المادى والمعنوى من اضــطراب • ولا شك فى أن مثل هذه الموضوعات المغرية ، سواء أكانت واضحة ، أم غامضة ، أم مبهمة فانها عديمة الجدوى فى التغلب على مشاعر الطبيعة البشرية • غير أن المجهود الفكرى قد يصرف صـاحبه عن الاحساس بالمحنـة ، ومن ثم فان ذلك الرجل الحكيم ، بويثيوس ، الذى استطاع فى براعة أن يجمع فى مؤلف واحد مختلف نفائس الفلسفة ، والشعر ، والبلاغة لابد أنه امتلك ذلك الهدوء المتسم بالشجاعة الذى اتجه الى البحث عنه • وأخيرا أنهى رسل الموت حالة الانتظار التى كان فيهـا ، وهى أسـوأ الشرور والبلايا ،

---

(١) حدث تحقيق شديد فى جريمة السحر • وكان المعتقد ان كثيرا من السـحرة أمكنهم الهرب من سجونهم بأن أصابوا حراسهم بالجنون • وانى أفضل استعمال لفظ (السكر) بدلا من لفظ الجنون ، أى أنهم كانوا يسقونهم حتى يثملوا ثم يهربون •

فنفذوا فيه ، وربما تجاوزوا ، أمر ثيوذوريك المنافي للانسانية • ذلك أنهم طوقوا عنقه بحبل متين ، وضيقوه عليه حتى برزت عيناه من مقلتيهما ، وربما أبدوا نحوه بعض الشفقة عندما ساموه عذابا أقل ، وضربوه بالهراوات حتى لفظ أنفاسه • غير أن عبقريته بقيت بعد موته ترسل شعاعا من المعرفة على أظلم عصور العالم اللاتينى • وترجم أعظم ملوك الانجليز كتابات هذا الفيلسوف ، ونقل ثالث امبراطور يسمى باسم أوثو Qtho عظام القديس الكاثوليكى الى مقبرة أكثر تكريما واحتراما ، ذلك القديس الذى حصل من مضطهديه الآريوسيين على أمجاد الاستشهاد وشهرة المعجزات (١) • وفى الساعات الأخيرة من حياة بويثيوس وجد بعض العزاء فى أن ولديه ، وزوجه ، ووالد زوجه ، سيماخوس المحترم المبجل كانوا فى خير وأمان • غير أن حزن سيماخوس لم يتسم بالحكمة ، وربما كان خلوا من الاحترام ، فقد اجترأ على اظهار حزنه على موت صديق أصيب ، وتجاسر على طلب الانتقام له ، فجروه مقيدا بالسلاسل من روما الى قصر رافنا ، ولم تهدأ مخاوف ثيودوريك وريبه الا بدم ذلك الشيخ البرىء عضو السناتو •

موت ثيودوريك

سوف تميل الانسانية الى تشجيع أية قصة تشهد بحكم الضمير وندم الملوك ، وليس يخاف على الفلسفة أن قوة الخيال المضطرب وضعف الجسم المعتل كفيلان فى بعض الأحيان بخلق أفظع الأشباح وأكثرها هولا • فبعد حياة فاضلة مجيدة أصبح ثيودوريك للآن فى طريقه الى القبر وسط العار والاثم ، تذل عقله مقارنة حاضره بماضيه وتزعج نفسه بحق أهوال المستقبل غير المنظورة • ويحكى أنه فى أمسية من الأمسيات كان يتناول عشاءه على مائدته الملكية ، حيث قدمت اليه رأس سمكة كبيرة ، فما كان منه الا أن قال متعجبا انه يشاهد سحنة سيماخوس الغاضبة المتجهمة ، ويرى عينيه تلمعان بالغضب والانتقام ، وفمه مسلحا بأسنان

---

(١) ألبابا العالم سلفستر الثانى ، معلم أوثو الثالث ، هو الذى ألف ما كتب على مقبرته الجديدة ، وهذا البابا وصفه جهل ذلك العصر بأنه ساحر ، شأنه فى ذلك شأن بويثيوس نفسه • ولا شك فى أن الشهيد الكاثوليكى أبدى الكثير من التهور ، غير أن سيدة أعرفها قد لاحظت فى قصة مماثلة « أن الشوط فى هذا المقام ليس كبير الأهمية ، فالخطوة الأولى هى التى لها وزنها » (مدام دى فان Madame du Deffand ، وكانت تتحدث عن المعجزة المماثلة التى فعلها القديس دنيس St. Denis — د٠م٠ل) •

حادة طويلة تهدد بافتراسه. فانسحب الملك على الفور الى غرفته ، وبينما كان راقدا على فراشه يهزه الألم والعذاب هزا عنيفا ، ويشعر بقشعريرة تحت ثقل من الأغطية ، قال لطبيبه البيديوس Elpidius انه نادم ندما عميقا على قتل بويثيوس وسيماخوس . ثم اشتدت وطأة المرض عليه ، وبعد أن أصيب بمرض الدوسنتاريا ثلاثة أيام ، وافته منيته فى قصر رافنا ، فى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ، أو فى السنة السابعة والثلاثين . اذا حسبنا حكمه ابتداء من غزوه ايطاليا . وعندما شعر باقتراب أجله قسم أمواله وولاياته بين حفيديه ، وجعل نهر الرون حدا مشتركا بينهما . فأعاد أمالاريك الى عرش أسبانيا ، وأوصى بايطاليا وكل فتوحات القوط الشرقيين الى أثالاريك ، الذى لم يزد عمره على عشرة أعوام ، ولكنه كان طفلا معززا على اعتبار أنه آخر ذكر فى سلالة أسرة أمالى Amali من زواج قصير الأمد بين أمه أمالاسوندا ولاجىء ملكى من الأسرة نفسها . وفى حضرة الملك المحتضر أقسم رؤساء القوط والحكام الايطاليون يمين الولاء والاخلاص للأمير الصغير ولأمه الوصية عليه ، وتلقوا ، فى اللحظة الرهيبة نفسها آخر نصيحة نافعة أسداها لهم ، وهى أن يحافظوا على القوانين ، وأن يحبوا مجلس السناتو وشعب روما ، وأن يتعهدوا بالاحترام اللائق صداقة الامبراطور . وقد أقامت له ابنته أمالاسوندا تمثالا فى مكان بارز يشرف على مدينة رافنا ، والميناء ، والشاطىء المجاور . وهناك كنيسة دائرية الشكل قطرها ثلاثون قدما ، متوجة بقبة نحتت من قطعة جرانيتية واحدة ، وفى وسطها أربعة أعمدة تحمل اناء من حجر السماقى بداخله عظام الملك القوطى ، وتحيط به تماثيل نحاسية للاثنى عشر رسولا . ومن الجائز أن روحه ، بعد أن كفرت عن ذنوبها ، قد سمح لها بأن تختلط بأرواح الأبرار من بنى الانسان ، لولا أن ناسكا ايطاليا شاهد رؤيا على هلاك ثيودوريك الذى ألقيت روحه بأيدى رسل الانتقام الالهى فى بركان ليبارى ، وهو واحد من أفواه عالم الشياطين والأرواح الشريرة .

عصر جستنيان

الفصل الأربعون
(٥٢٧ ـ ٥٦٥)

حكم جستنيان • الامبراطورة تيودورا • شغب نيقا • استيراد الحرير من الصين • كنيسة أياصوفيا • القضاء على مدارس أثينا وعلى وظيفة القنصل الروماني •

ولد الامبراطور جستنيان بالقرب من أطلال ساردیکا (مدينة صوفيا الحديثة) ، في عرق وضيع مغمور من المتبربرين الذين كانـوا يقطنون رقعة موحشة منعزلة أطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلغاريا • وقد دبر أمر إعتلائه العرش عمه جوستين الذي اتسم بروح المغامرة ، والذي هجر ، مع اثنين من الفلاحين من القرية نفسها ، حرفة أكثر نفعا هي فلاحة الأرض أو الرعي ، بغية الانخراط في سلك الجندية وخرج هؤلاء الشبان الثلاثة ـ جوستين ورفيقاه ـ ومعهم قدر يسير من الزاد سيرا على الأقدام ، متبعين الطريق العام الى القسطنطينية ، وسرعان ما انخرطوا في حـرس الامبراطور ليو Leo • بفضل قوتهم وقوامهم • وتعاقب على الفـلاح الذى ابتسم له الحظ عهدان أصاب فيهما ثروة ومجدا ، وأفلت من بعض الأخطار التى كانت تهدد حياته ، مما نسب فيما بعد الى الملاك الحارس الذى يرعى مصير الملوك ! وقد أبلى جوستين بلاء حسنا لفترة طويلة فى حروب أيزوريا Isauria (قسم من ولاية غلاطيه الرومانية فى آسيا الصغرى) وفى حروب فارس ، وربما كان من الجائز الا تحفظ هذه الخدمة الطويلة الجليلة اسم جوستين من الاندثار فى زوايا النسيان ، ولكنهـا كانت كفيلة بتدرجه فى سلك المناصب العسكرية ، فقد ارتقى ، فى مدى خمسين عاما ، من وظيفة تربيون الى كونت ، والى منصب القائد ، ثم حظى بعضوية السناتو ، ثم تولى قيادة الحرس الذين امتثلوا لأمرة بوطنتـه

رئيسا لهم فى الأزمة الخطيرة التى أطاحت بحياة امبراطور أنسطاسيوس ، واستبعد عن العرش ذوو قرباه الأقوياء الذين كان هو - أى الامبراطور - قد رفعهم وأغدق عليهم الغنى والثراء ، حيث كان الخصى أمانتيوس - صاحب الأمر والنهي فى القصر - قد عقد العزم سرا على أن يخص بالتاج أكثر صنائعه خنوعا وخضوعا . وضمانا لأصوات فرق الحرس وضع تحت تصرف قائدهم أموالا طائلة ليشترى بها رضاهم . ولكن جوستين خيانة منه وغدرا ، استخدم هذه الأسانيد القوية لمصلحته هو نفسه ، ولما لم يجرؤ أى منافس على الظهور فى الميدان ، فقد فاز فلاح داكيا - جوستين - بالمحنة الامبراطورية حيث نال بالاجماع رضا الجنود الذين عرفوا فيه الشجاعة ودماثة الخلق ، ورضا رجال الدين والشعب الذين آمنوا بأنه أرثوذكسى مستقيم ، ورضا أهل الولايات الذين خضعوا خضوعا أعمى مطلقا لارادة العاصمة . ومن ثم ارتقى جوستين الأكبر - وهكذا يسمونه تمييزا له عن امبراطور آخر من نفس الأسرة يحمل نفس الاسم - ارتقى العرش البيزنطى وهو فى سن الثامنة والستين . ولو أنه ترك وشأنه ليتصرف بوحى من عنده ، لتعرض رعاياه فى كل لحظة طوال سنى حكمه التسع لمغبة سوء اختيارهم . وكان جهل جوستين يماثل جهل الامبراطور ثيودوريك . وانه لأمر مشهود جدير بالذكر أنه عاش فى عصر لم يكن خلوا من نور العلم ، عاهلان امبراطوران معاصران الواحد منهما للآخر (أحدهما فى الشرق والثانى فى الغرب) لم يصيبا من التعليم حتى حروف الهجاء ، على أن جوستين كان أقل ذكاء من ملك القوط بكثير ، فان خبرته بوصفه جنديا لم تكن تؤهله لتولى زمام الحكم فى الامبراطورية ، ورغم ما أوتى من بسالة شخصية ، فانه كان يعرف قدر ضعفه ، وطبيعى أن يقترن هذا بالشك وسوء الظن والهواجس السياسية ، ولكن وزير المالية بروكلوس Broclos نهض بالمهام الرسمية للدولة فى يقظة واخلاص وتبنى الامبراطور الهرم ابن أخيه جستنيان ، بما أوتى من مواهب وطموح ، وهو شاب متطلع استنقذه عمه من براثن العزلة الموحشـــة فى داكيـــا ، وتلقى تعليمه فى القسطنطينية بوصفه وريثا لثروة الامبراطور الخاصة ، ثم للامبراطورية الشرقية فى النهـــاية .

ولما اغتصبت أموال الخصى أمانتيوس على هذا النحو ، كان لزاما أن يقضوا على حياته كذلك . وما كان أيسرها من مهمة ، عن طريق اتهـامه بمؤامرة حقيقية أو ملفقة ، وقيل للقضاة استكمالا لخيوط الجريمة ، انه كان منغمسا فى الهرطقة المانوية (ديانة فارسية قديمة) . ومن ثم قطعت رأس أمانتيوس ، وعوقب بالموت أو النفى ثلاثة من رفاقه ، ممن كانت لهم الصدارة بين خدم القصر ، أما مرشحهم المنكود للعرش فقد ألقى به فى

غياهب جب سحيق ، ورجم بالحجارة ، ثم قذف به ، بشكل مهين مزرٍ ، الى البحر ليكون له في أعماقه مقبرة بدلا من أن يوارى على الأرض قبرا . ولكن انهيار فيتاليان ــ الذى كان مرشحا للخلة الامبراطورية ــ كان عملا أشق وأشد خطرا . ذلك أن هذا الرئيس القوطي ــ فيتاليان ــ كسب لنفسه شعبية في الحرب التى شنها في جرأة وبسالة أتمطاسيوس ، دفاعا عن العقيدة الأرثوذكسية ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة تتلاءم مع أهدافه ، وظل فيتاليان على مقربة من القسطنطينية ، على رأس جيش قوى ظافر من المتبربرين . واستدرج تحت اغراء الاطمئنان الواهن الى العهود والأيمان حتى تخلى عن موقعه الحصين ، وأسلم نفسه الى أحضان مدينة ، كان أهلوها ، وبخاصة حزب أصحاب الحلل الزرقاء فيها ، قد أثيرت خواطرهم ضده في دهاء ، بتذكيرهم حتى بخصومتهم الدينية التى تتسم بالتقي ، ورضى الامبراطور وابن أخيه (جوستين وجستنيان) بوصفه المناضل المخلص الجدير بالنضال عن الكنيسة والدولة . وأسبغا على صديقهما الصفى ــ امتنانا وعرفانا منهما ــ لقب القنصل والقائد ، ولكن فيتاليان ، في الشهر السابع من توليه منصب القنصل ، أثخن بسبع عشرة طعنة في المادبة الملكية ، واتهم جستنيان ، الذى آل اليه كل الغنم ، بقتل أخ روحى كان هو (جستنيان) قد عاهده منذ عهد قريب على الاشتراك في الأسرار المسيحية . وارتقى جستنيان ــ ولو لم يزعم أن له في مجال الخدمة العسكرية أى نشاط ــ بعد سقوط غريمه ، الى منصب القائد الأعلى لجيوش الشرق التى كان من واجبه أن يقودها الى ميدان القتال ضد العدو العام . ولكن كان من الجائز أن يفقد جستنيان ، في سعيه وراء الشهرة والمجد ، سيطرته الحالية على عمه الذى كان يرزح تحت وطأة الشيخوخة والضعف ، وبدلا من أن يحظى بتقدير مواطنيه ومديحهم عن طريق غنائم الحرب مع سكيذيا أو فارس ، عمد المحارب الحصيف الى الفوز برضا هؤلاء المواطنين وحبهم في الكنائس والملاعب وفي مجلس السناتو في القسطنطينية . وتعلق الكاثوليك بابن أخ جوستين الذى سلك بين هرطقة النساطرة وهرطقة اليوتيخيين (١) طريقا ضيقا ينحصر في أرثوذكسية قاسية متعصبة وفي الأيام الأولى من الحكم الجديد الهب

---

(١) نسطوريوس Nesotrius احد مطارنة القسطنطينية في القرن الخامس ، وكان يقول بأن للمسيح طبيعة جسدية واخرى الهية ، وانهما طبيعتان متميزتان لا تتحدان . اما يوتيخيس Eutyches فكان احد مشايخ الكنيسة ، وقد عارض مذهب النساطرة بشدة ، وقال باتحاد الطبيعتين ، ودمغ مجمع افيسوس ٤٣١ هذين المذهبين واتباعهما بالهرطقة ــ (الترجمة) .

جستنيان وأرضى حماس الشعب ازاء ذكرى الامبراطور المتوفي ، وبعد شقاق دام أربعـــا وثلاثين ســـنة ، حل الوئام محل الخصام بين الحبر الروماني المزهو الغاضب وبين الامبراطور ، وراجت بين اللاتين أنباء سارة تفيض بذكر الإجلال المقرون بالتقوى والورع الذي يكنه الامبراطور للمقام الرسولي · وملئت كنائس الشرق بأساقفة كاثوليك وقفوا أنفسهم على رعاية مصلحته ، وكسب سخاؤه رجال الدين والرهبان لجانبه ، اما الشعب فقد لقن أن يصلي من أجل حاكمه الجديد ، حاكم المستقبل ، أمل العقيدة الحقة ودعامتها وسندها · وتجلت عظمة جستنيان في بهاء احتفالاته ومشاهده العامة وسنائها الفائقين ، وهذا أمر لا يقل في أعين الجماهير قدسية وأهمية عن مذهب نيقيا أو خلقدونية ، فقد قدرت نفقات الاحتفال بتقلده مرتبة القنصل بمائتين وثمانين ألف قطعة ذهبية ، وظهر على الملعب في وقت معا عشرون أسدا وثلاثون فهدا ، وأنعم على الفائزين فى سباق العربات فى السيرك بعدد كبير من الخيل المطهمة بوصفها هدية استثنائية

وبينما أرضى أهل القسطنطينية ، واستقبل رسائل الملوك الأجانب ، ثابر جستنيان على توثيق روابط الصداقة مع السناتو ، فان هذا الاسم الموقر « السناتو » كان فيما يبدو ، يؤهل أعضاءه للتعبير عن شعور الأمة ، وتنظيم ارتقاء العرش الامبراطوري · وكان ضعف أنسطاسيوس قد هيأ لسلطة الحكومة أن تضمحل الى مجرد شكل الأرستقراطية أو جوهرها ،

وسار وزراء القادة العسكريين الذين حظوا بمرتبـــة الســـناتو حراسهم المحليون ، وهم عصـــابة من الجنود القدامى المحنكين كانت أسلحتهم أو صيحاتهم تقرر فى ساعة الشغب والصخب مصير تاج الشرق · وبددت أموال الدولة فى اسراف فى سبيل الحصول على أصوات شيوخ السناتو ، ونقلت الى الامبراطور جوستين رغبتهم الاجماعية فى أن يرتضى جستنيان شريكا له فى السيادة الامبراطورية ، ولكن هذا المطلب الذى كان من الواضح أنه نذير باقتراب نهايته لم يلق قبـــولا لدى الامبراطور الهرم الحقود الراغب فى استعادة سلطة كان عاجزا عن ممارستها · ومن ثم فان جوستين الذى كان يعض على الحلة الامبراطورية بالنواجذ ، أشـــار على أعضاء السناتو ، طالما كان الانتخاب عملية مربحة ، بأن يتخيروا مرشحا أكبر سنا (من جستنيان) وعلى الرغم من هذا اللوم والتأنيب ، تقدم السناتو فأضفى على جستنيان اللقب الملكى Nobilissimus ، وصدق العم (جوستين) على هذا القرار بوحى من حبه لابن أخيه أو تخوفه منـــه · وتطلب الهزال الذى أصاب عقله وجسمه نتيجة جـــرح استعصى برؤه فى فخذه ، أن يكون الى جانبه وصى أو قيم يعاونه ، ومن ثم استدعى جوستين البطريرك وشيوخ السناتو ، وفى حضرتهم وضع التاج ، فى وقار وهيبة ،

على رأس ابن أخيه . الذى شخص من القصر الى الملعب حيث حيته صيحات الشعب المدوية مهللة ومرحبة • ولم تطل حياة جوستين بعد ذلك الا نحو أربعه أشهر ولكنه اعتبر منذ اللحظة التى تم فيها هذا الاحتفال ميتا فى نظر الامبراطورية التى اعترفت بجستنيان الحاكم الشرعى للشرق ، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره •

وحكم جستنيان الامبراطورية الرومانية ، من ارتقائه العرش الى وفاته ـ ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور وثلاثة عشر يوما • ولقد روى بروكوبيوس Procopius (سكرتير القائد البيزنطى المشهور بليساريوس ـ القرن السادس) ، روى فى حذق وبراعة أحداث حكم جستنيان ، تلك الأحداث التى تثير أشد فضولنـــا وانتباهنا ، لكثرة عددها وتنوعهـــا وأهميتها ، وبروكوبيوس كاتب بليغ رفعه بيانه الناصع الى عضـــوية السناتو ثم الى منصب والى القسطنطينية وتبعا لظروف التقلب بين الجراة والاقدام أو الانكماش والمذلة ، وبين المحبة والعطف أو الخزى والعار نجد بروكوبيوس قد دون تاريخ العصر الذى عاش فيه متقلبا كذلك بين المديح والاطراء أو القذح والهجاء ، وان الكتب الثمانية التى تناولت الحروب مع الفرس والونذال والقوط ، ـ والتى استكملها أجاثياس Agathius فى كتبه الخمسة (تاريخ جستنيان) ـ تقول ان هذه الكتب الثمانيـة لتستحق تقديرنا بوصفها تقليدا شاقا موفقا لكتاب أثيكا ، أو على الأقل للكتاب الأسيويين ، كتـــاب اليونان القديمة • وقد جمع الحقائق التي أوردها فى تاريخه هذا من تجربته الشخصية ومن مناقشاته الحرة بوصفه رجلا عسكريا ، ورجل دولة وسياسة ، وسائحا ، وكان طموحا ، وكثيرا ما حقق طموحه في أن يرقى بأسلوبه حتى يكون جديرا بأن يوصف بالقوة والرشاقة • أما تأملاته وآراؤه ـ وبوجه أخص فى الخطب والأحاديث ـ تلك التى كثيرا ما يثبتها فى كتبه ، فانهـــا تزخـــر بمعين لا ينضب من المعلومات السياسية ، ويبـــدو أن بروكوبيوس المؤرخ الذى كان مسوقا بأمله العريض فى ادخال البهجة والسرور على الأجيال القادمة وتزويدها بالمعرفة ـ يبدو أنه نظر بعين الزراية والاحتقار الى أهواء الشعب والى ملق البلاط • وكان معاصرو بروكوبيوس يقرءون كتاباته ويمتدحونها . ولكن على الرغم من أنه وضعها مع الاجلال والاحترام تحت أقدام العرش ، فان الثناء على البطل الذى يزرى دوما بمجد مليكه الخامل ويبزه ، هذا الثناء لابد أنه قد جرح كبرياء جستنيان • وأذلت الآمال والمخاوف عنق التابع الذليل ـ بروكوبيوس ـ وأخضعت فيه شعوره الواعى بالاســـتقلال والحرية ، ومن ثم بذل الجهد ، سعيا وراء الحصول على الصفح وحسن الجزاء فى كتبه الستة عن « المنجزات الامبراطورية » ، وكان قد اختار

فى حذق ومهارة موضوعا يبدو فيه رداء الجلال والفخار ، يمكنه فيه أن يمجد بأعلى صوته عبقرية الأمير وعظمته وورعه ، وهو أمير تفوق - كفاتح ومشرع ، على تيموستكليس وكورش فى شمائلهما الصبيانية • وربما دفع اليأس بالمادح المتملق الى الانتقام الخفى المستتر ، وربما عادت أول بادرة للعطف والرضا الى اغرائه الى اخماد أو اخفاء وصمة هوت بكورش الرومان (جستنيان) الى طاغية ممقوت محتقر ، مثل فيها ، بشكل رهيب ، كل من الامبراطور وقرينته تيودورا فى صورة شيطان على هيئه انسان ، يعملان علي تدمير الجنس البشرى (١) • ولابد ، دون ريب ، أن يلوث مثل هذا التناقض الحقير سمعة بروكوبيوس وينتقص من الثقة فيه ، ولكن على الرغم من أن الفرصة قد تهيأت لينفث سموم حقده وخبثه ، فان القصص ، البقية الباقية من كتابه وما تضمنته حتى من أشد الحقائق عارا وفضيحة - تلك التى أشار هو الى بعضها اشارة خفيفة فى تاريخه العام - نقول ان هذه البقية الباقية قد أكدتها الشواهد الداخلية أو الآثار الصادقة الناطقة لهذا العصر • ومن هذه المواد المتنوعة سأعمد الآن الى وصف عهد جستنيان الذى سوف يشغل حيزا كبيرا هو جدير به • وسأعرض فى هذا الفصل لملك الشرق • وسأعالج فى الفصول الثلاثة التالية موضـــوع حروب جستنيان التى انتهت بغزو أفريقيا وايطاليا ، وسوف أتتبع انتصارات بلساريوس ونارسيس دون اخفاء ما اقترن بها من زهو وغـــرور أو من اغفال فضائل الأعداء ، أبطال الفرس والقوط • وتضم هذه الفصول كذلك فقة الامبراطور وجوانبه اللاهوتية ، والمشادات والمذاهب التى لا تزال تقسم الكنيسة الشرقية الى طوائف وشيع ، واصلاح القانون الرومانى الذى تطبقه أو تنظر اليه أمم أوربا الحديثة بعين الاحترام والاجلال (٢) •

الامبراطورة تيودورا

كان أول عمل قام به جستنيان فى ممارسة السلطة العليا ، هو أنه اقتسم هذه السلطة مع المرأة التى أحبهـــا ، الا وهى تيودورا الشهيرة ،

---

(١) يعلن بروكوبيوس وأصدقاؤه عن تصديقهم لبعض القصص الشيطانية : جستنيان جحش ، مثله فى ذلك مثل دوميتيان بالضـبط - شياطين منافسـون يطردون عشـاق تيودورا من مخدعها - التنبؤ بزواجها من شيطان كبير - أحد الرهبان رأى ملك الجن مكان جستنيان على العرش - وقع نظر الخدم الذين كانوا يرقبون الأمور ، على وجـــه لا تبدو فيه أية ملامح ، وعلى جسم بلا رأس •• الخ •

(٢) يلاحظ ان المختصر الذى بين أيدينا والذى نقلناه الى العربية حذف الفصلين ٤١ ، ٤٢ وأورد اشارة موجزة اليهما فى نهاية هذا الفصل (٤٠) - (الترجمة) •

التى لا يمكن أن نقابل ارتقاءها الشاذ الى العرش بالاستحسان والتهليل ، على أنه انتصار لفضيلة المرأة . وفى عهد انسطاسيوس كان حزب « القمصان الخضراء » يقوم على رعاية الحيوانات المتوحشة ، وقد وكل أمرها الى أكاكيوس Acacius وهو عبد من مواطنى جزيرة قبرص اشتق لقبه من مهنته « سيد الدببة » وبعد موته ورغم نشاط أرملته التى كانت قد أعدت بالفعل زوجا لها وخلفا للفقيد الراحل ، أسندت هذه الوظيفة المشرفة الى مرشح آخر ، وكان أكاكيوس قد خلف وراءه ثلاث بنات هن كوميتو ، تيودورا ، أنسطاسيا ، لم تتجاوز كبراهن آنذاك السابعة من العمر ، وفى أحد الاحتفالات المهيبة دفعت الأم المكروبة الحانقة بكريماتها اليتيمات الثلاث الى وسط المسرح فى زى الضارعات المتوسلات ، فقابلهن أصحاب الحلل الخضراء بالازدراء والاحتقار ، على حين استشعر حزب الحلل الزرقاء نحوهن الشفقة والرأفة ، وكان لهذا التباين أثره العميق فى نفس تيودورا حتى لقد أحست به بعد ذلك بزمن طويل فى ادارة الامبراطورية . وترعرعت الأخوات الثلاث وازددن فتنة وجمالا ، فانصرفن بالتتابع الى العمل فى الحفلات العامة والخاصة لادخال البهجة والسرور على شعب بيزنطة ، وكانت تيودورا تظهر على المسرح بعد أختها كوميتو ، فى ملابس عبد رقيق ، حاملة على رأسها كرسيا صغيرا ، ثم أجيز لها بعد ذلك أن تظهر بمفردها لتعرض مواهبها الخاصة ، ولم تكن ترقص أو تغنى أو تعزف على النـاى ، بل انحصرت مهارتها فى فنون التمثيل الهزلى ، وبرعت فى انتحال شخصية البهلول أو البهلوان ، وكلما انتفخت أوداج الممثلة وشكت فى صوت واشارات مضحكة من الضربات التى كانت تكال لهـا ، ضج مسرح القسطنطينية بأسره بالضحك ودوى بالتصفيق والاستحسان وبات جمال تيودورا أكثر فأكثر موضوع اطراء وثناء مقرونين بالملق ، ومصدر بهجة واغتباط شديدين ، وكانت قسمات وجهها رقيقة منتظمة ، كما كانت بشرتها ، رغم شحوبها نوعـا ، مشربة بلون طبيعى ، وكانت عينـاها المتلئلتان حيوية تنم على الفور عن أى احساس يعتلج فى نفسها . وتجلت فى خفة حركتها مفاتن جسمها الصغير الرشيق معا . وربما قال المحب أو الملق ان التصوير والشعر عاجزان عن وصف جسمها الذى لا يبارى فى روعته ، ولو أنه انتقص من قدره سهولة عرضه نهبا لأعين الجمهور ، وفسقت به كل رغبة فاجرة . وكانت مفاتنها لقمة سائغة مباحة لخليط من المواطنين والغرباء من كل مرتبة وكل مهنة . وكثيرا ما طرد من مخدعها المحظى الذى هو أشد قوة وأكثر مالا ، العاشق السعيد الحظ الذى كانت قد وعدته قبلا بليلة ممتعة . وكان ينتحى عن طريقها ويتفادى لقاءها كل من يرغب فى تجنب الفضيحة أو الاغراء . ولم يخجل المؤرخ الساحر المتهكم

من أن يصف المشاهد العارية التى لم تخجل تيودورا من عرضـــها على المسرح • وكانت بعد أن تسـتنفه كل أفانين اللذة الشهوانيـــة ، كثيرا ما تتذمر أشد ما يكون التذمر من بخل « الطبيعة » • ولكن يجدر أن تغلف تذمراتها وملذاتها وأفانينها فى لغة مهذبة • وبعد أن سيطرت لبعض الوقت على عرش المرح فى العاصمة كما باءت باحتقارها لهـــا ، تنازلت بمصاحبة ايكبولس Ecebolis أحد مواطنى صور ، الذى كان قد عهد اليه بحكومة المدن الخمس فى أفريقية • ولكن هذا الائتلاف كان عابرا سريع الزوال ، وسرعان ما نبذ ايكبولس هذه الخليلة الكثيرة النفقة الخائنة • واشتدت بها الضائقة والكرب فى الاسكندرية ، وفى طريق عودتها الشاقة الى العاصمة ، أعجبت واستمتعت كل مدينة فى الشرق بالقبرصية الجميلة التى برر مزاياها انحدارها من سلالة فينوس الفريدة • وكانت فى علاقات تيودورا الغامضة وتحوطاتها البغيضة وقاية لها من الخطر الذى كانت تخشاه ، ومع ذلك فقد صارت أما مرة واحدة ، وواحدة فقط • ولقد أنقذ الوالد طفله وعلمه فى بلاد العرب ، وأطلعه ، وهو على فراش الموت ، على أنه ابن امبراطورة • وأسرع الشاب الذى لم يتطرق اليه الشك من فوره الى قصر القسطنطينية ، وقد امتلأت نفسه بالآمال الكبار ، وأدخل الى أمه ، ولما لم تقع عليه العين قط بعد ذلك ، حتى بعد موت تيودورا ، فقد استحقت الوصمة الشائنة بأنها دفنت ، بالقضاء على حياته ، سرا يسىء الى شمائلها الامبراطورية أيما اساءة •

وفى يوم من أتعس أيام فقرها وسوء سمعتها رأت تيودورا فيما يرى النائم ، أو صور لها الوهم ، شبحا همس اليها مؤكدا نبأ سارا ، هو أنه مقدر لها أن تكون قرينة ملك قوى ، ووعيا منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عادت من بفلاجونيا الى القسطنطينية ، واصطنعت ، وكأنها ممثلة بارعة • شخصية أكثر حشمة ولياقة • واستعانت على سد عوزها بعمل محمود • وهو غزل الصوف ، وتظاهرت بحياة العفة والعزلة فى دار صغيرة حولتها فيما بعد الى معبد فخم ضخم ، وسرعان ما اجتذب جمالها مع شىء من الدهاء ، أو بمحض الصدفة ـ النبيل جستنيان وسحره ، ورسخ فى قلبه ، وكان جستنيان يملك آنذاك ناصية السلطة المطلقة باســـم عمـه (جوستين) وربما ساقت تيودورا من جانبها شيئا من الدلال لتزيد من قيمة متاع كثيرا ما كانت قد أباحته اسرافا وبدارا لأحط بنى البشر ، أو قل انها فى البداية بالتمتع المقرون بالخفر ، وأخيرا بالمغريات الجسدية ـ ربما أشعلت النار وأهاجت الرغبات فى قلب عاشق كان بحكم طبيعته أو ولعه ، يلازم السهر ويقنع بالقليل من الغذاء • ولما خمدت فيه جذوة النشوة التى اضطرمت بين ضـــلوعه أول الأمر ظلت تيودورا قادرة على

الاحتفاظ بنفس سيطرتها على عقله ، بفضل ما توافر لها من مميزات أكثر ثباتا ، تمثلت في رقة طبعها وحسن ادراكها ، وكان يلذ له ، ان يرفع من قدر الحبيبة التى تعلق بها ويغدق عليها الثروة ، فتدفقت كنوز الشرق تحت قدميها ، واستقر رأى ابن أخ جوستين ، وربما كان ذلك نتيجة لوساوسه الدينية ، على أن يسبغ على خليلته الصفة المقدسة المشروعة ، وهي صفة الزوجية • ولكن قوانين روما كانت تحرم صراحة زواج عضو السناتو من أية امرأة حط من قدرها أصلها الوضيع أو عملها في المسرح • وأبت الامبراطورة لوبيكينا Lupicina (أو يوفيميا Euphemia) ـ وهي متبربرة ذات آداب ريفية خشنة ، ولكن لا مأخذ على حسن شمائلها ـ أبت أن تتخذ من عاهرة زوجة لابن أخي زوجها وحتى فجيلانشيا Vigilantia والدة جستنيان ، المتمسكة بالخرافات ، أوجست أشد الخيفة ، رغم اقرارها بذكاء تيودورا وجمالها ، من أن يكدر طيش تيودورا وعجبها بنفسها تقوى ابنها وسعادته • ولكن مثابرة جستنيان التى لا تلين أزالت كل هذه العقبات ، فقد ترقب ، في صبر ، وفاة الامبراطورة • واحتقر دموع أمه التى سرعان ما انهارت تحت وطأة أحزانها وكروبها ، وسن باسم جوستين قانونا أبطل التشريع الجامد القديم ، وكما جاء في المرسوم بالنص : فتح باب التوبة النصوح أمام النسوة التعيسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية • وما أن جاء المرسوم بهذا التسامح حتى تم في أعقابه على الفور الزواج المهيب بين جستنيان وتيودورا ، وعلا قدرها يوما بعد يوم بارتفاع شأن عشيقها ، وحالما أضفى جوستين على ابن أخيه الحلة الامبراطورية ، أسرع بطريرك القسطنطينية يضع التاج على رأسي امبراطور الشرق وامبراطورته • ولكن الأمجاد المألوفة التى كانت الآداب الرومانية الجامدة تجيزها لزوجات الأمراء ، لم تستطع أن ترضي طموح تيودورا أو تشبع غرام جستنيان وولعه • فقد أجلسها على العرش بوصفها شريكا متكافئا مستقلا في السيادة على الامبراطورية • وفرض على حكام الولايات تأدية يمين الولاء لجستنيان وتيودورا معا • وخرت دنيا الشرق راكعة أمام عبقرية ابنة أكاكيوس وحظها • ذلك أن العاهرة التى دنست مسرح القسطنطينية أمام جمهور لا يحصى من النظارة ، احتفى بها الآن ، بوصفها ملكة ، وفي نفس المدينة ، القضاة والحكام العظام ، والأساقفة الأرثوذكس والقواد الظافرون والملوك الأسارى (١) •

---

(١) « واذا ما رقت مدارج العظمة ، فان الناس لن يعودوا يرون أصلها الوضيع » • لولا نظرة واربرتن Werberton الناقدة ، لما قدر لى أن أرى في هذه الصورة العامة للرذيلة المنتصرة أى تلميح الى تيودورا •

ان الذين يؤمنون بأن فقدان العفة يفسد عقل المرأة افسادا تاما ، انما يصغون في لهفة الى براعث الحسد الخاص أو السخط العـــام التى أنكرت أو تنكرت لفضائل تيودورا ، وبالغت فى رذائلها ودمغت فى قسوة الخطايا التى ارتكبتها الفاجرة الشابة طوعا أو كرها • وكثيرا ما تجنبت بدافع من الخزى أو الازدراء ، ولاء الجماهير الذليل ، وهربت من ضوء العاصمة الكريه وقضت الجزء الأكبر من العام فى القصور والحدائق التى أقيمت بشكل بهيج على شاطىء بحر مرمرة والبسفور وخصصت ساعات الفراغ للعناية بجمالها ، عناية مقرونة بالحكمة والشكر ، ولاســـتكمال أسباب الترف فى الحمام والمائدة ، وللنوم الطويل فى المساء والصباح ، وامتلأت أجنحتها الخاصة فى القصور بالنسوة والخصيان المقربين الذين رعت مصالحهم وأهواءهم على حساب العدالة ، أما كبار الشخصيات فى الدولة فكانت تزدحم بهم غرفة الانتظار ، حتى اذا أذن لهم أخيرا وبعد انتظار ممل ، فى الدخول وتقبيل قدمى تيودورا ، عانوا ـ وفق ما يطيب لها ـ من الغطرسة الصامتة فى الامبراطورة ، أو من الطيش الفاجر فى الممثلة الهزلية • وربما أمكن التماس العذر لها فى الشره الفظيع فى جمع ثروة كثيرة ، لخشيتها من موت زوجها ، حيث لن يبقى لها بعده الا الدمار أو العرش ، وهما أمران لا ثالث لهما • وربما أثار الخوف والطمع معا غضب تيودورا على قائدين أعلنا فى نزق وتهور ، فى أثنـــاء مرض الامبراطور أنهما غير مستعدين لأن يبغيا عن العاصمة بديلا • ولكن لومها على القسوة ، وهى أمـــر تعافه حتى رذائلها الناعمـــة ترك على ذكرى تيودورا وصـــمة لا تمحى • وكان جواسيسها العديدون يراقبون ، ويبلغون فى حماس بالغ عن أى عمل أو أية نظرة تمس سيدتهم الامبراطورة بأذى • فزج بمن يتهمونهم أيا كانوا فى غياهب سجونها الخاصة التى لايمكن أن تصل اليها يد العدالة ، وأشيع أن الطاغية المرأة كانت تشهد بنفسها تعذيبهم بالخازوق أو السياط دون أن تحس بصوت الضراعة أو تستشعر الرحمة • وهلك بعض ضحاياها المنكودين فى أعماق هذه السجون غير الصحية ، على حين أبيح لآخرين ، بعد فقدان أطرافهم أو عقولهم أو ثرواتهم بالخروج الى الحياة ، شراهد حية على انتقامها ، الذى امتد عادة الى أطفال من كانت قد ارتابت فيهم أو آذتهم • وكان عضـــو السناتو أو الأسقف الذى تنطق تيودورا بالحكم عليه بالاعدام أو النفى ، يسلم الى رسول موثوق فيه ، تستثير هى همته ونشاطه بتهديد يجرى به لسانها : « أقسم بالحى الذى لايموت ، ليسلخن جلدك عن لحمك اذا أخفقت فى تنفيذ أوامرى » •

واذا لم تكن عقيدة تيودورا مصطبغة بأية هرطقة ، لكفر تعبدها المثالى ، فى رأى معاصريها ، عن الغرور والجشع والقسوة ، واذا استخدمت

نفوذها للتخفيف من بطش الامبراطور الذى لا يحتمل ، فان الجيل الحاضر سيرجع بعض الفضل فى هذا لدينها ، ويلتمس بعض التسامح فى أخطائها الخطيرة • لقد أطلق اسم تيودورا بنفس القدر من التكريم والشرف على كل المؤسسات التى أقامها جستنيان على التقوى والاحسان ، وترجع أعظم مؤسسة للبر والخير فى عهده الى عطف الامبراطورة على بنـات جنسها اللائى قعد بهن الحظ ، واللائى أغرين أو اضطررن الى ممارسـة مهنة الدعارة ، وحول قصر على الشاطىء الأسيوى للبسفور الى دير فخـم فسيح ، وخصص معاش سخى لخمسمائة من النسوة جمعن من شوارع ومواخير القسطنطينية • وفى هذا الملجأ الأمين المقدس عكفن على العزلة الدائمة ، وضاع يأس بعض من ألقين بأنفسهن رأسا الى البحر وسـط عرفان التائبات النادمات اللائى انتشلتهن المحسـنة الكريمـة من وهدة الخطيئة والبؤس • ولقد أشاد جستنيان نفسه بتبصر تيودورا وفطنتها بل ان قوانينه لتنسب الى النصائح الحكيمة لزوجته الموقرة التى تقبلها بوصفها منحة من عبد الله • وتجلت بسالتها وسط هياج الشعب وفزع البـلاط • وارتكزت طهـارة تيودورا منذ اللحظة التى اقترنت فيهـا بجستنيان ، على صمت أعدائها الألداء ، وعلى الرغم من أن ابنة أكاكيوس ربما أدركت من الحب غاية المنى ، فانها تستحق شيئا من المديح والاعجاب بقوة عزيمتها التى مكنتها من أن تضحى باللذة والعادة فى سبيل شعور أقوى بالواجب أو بالمصلحة • ولم تستطع رغبات تيودورا ولا صلواتها وتضرعاتها أن تحقق لها نعمة ولد شرعى ، وقد أودعت الثرى ابنة كانت الثمرة الوحيدة لزواجها ورغم هذه الخيبة التى منيت بها ، ظل حكمها ثابتا مطلقا ، واحتفظت بفضل دهائها أو أهليتها ، بتعلق جستنيان بها وحبه لها • وكانت خلافاتهما الظاهرية تقع دوما وقوع الصاعقة على رجال الحاشية الذين اعتقدوا أنها خلافات جادة ، وربما كانت صحتها قد تأثرت بفجورهـا أيام شبابهـا ، ولكنها كانت ضـعيفة دائما ، وقد نصـحها أطباؤها باستعمال الحمامات الدافئة فى بيثيا (فى اليونان) • وصحب الامبراطورة فى هذه الرحلة الوالى البريتورى وكبير الصرافين ، وعدد من الكونتات النبلاء كما سار فى ركابها موكب فخم من أربعة آلاف من الخدم والأتبـاع • وأصلحت الطرق العـامة كلما اقترب مقدمها ، وأقيم قصر لاستقبالها ، وعند مرورها فى بيثيا أغدقت صدقات سخية على الكنائس والأديرة والمستشفيات ، لعلها ترفع أكف الضراعة الى السماء حتى تسترد الامبراطورة صحتها ، وفى السنة الرابعة والعشرين من زواجها ، الثانية بعد العشرين من حكمها حطمها السرطان وآذنت شمس حياتها بمغيب ، وحزن لهذه الخسارة الفادحة التى لا تعوض ، زوجها الذى كان فى مقدوره أن يتخير أنبل وأطهر عذراء فى الشرق ، بدلا من داعرة المسرح الفاجرة •

شغب نيقا

يمكن أن يلحظ فى ألعاب الأقدمين خلاف جوهرى ، فقد كان أبرز الاغريق لاعبين على حين كان الرومان مجرد متفرجين • وكان ميدان الألعاب الأولمبية مفتوحا أمام الثراء والجدارة والطموح ، ولو استطاع المتبارون أن يعتمدوا على مهارتهم الشخصية ونشاطهم الخاص ، لجاز أن يتبعوا خطوات ديوميد ومنلاوس (١) Diomede and Menelaus ويقودوا جيادهم فى السباق السريع • وكان يرخص لعشر أو عشرين أو أربعين عربة فى البدء دفعة واحدة وكان اكليل الغار جزاء الفائز ، كما كانت تخلد شـهرته وشهرة بلده الألحان الغنائية التى كانت أبقى على الزمن من الآثار النحاسية والرخامية • ولكن ربما تورع خجلا أى عضو فى السناتو ، أو أى مواطن يعتز بكرامته عن أن يعرض نفسه أو جياده فى الملعب الشعبى فى روما • وكانت الألعاب تعرض على حساب الدولة أو الحكام أو الأباطرة وتركت أعنة الخيل فى أيدى جماعة من الأتباع الأذلاء ، فاذا جاوزت أرباح سائق العربة المحظوظ أحيانا أرباح المحامى ، فيجب أن تعتبر تلك الأرباح اسرافا وتبذيرا من الشعب وأجرا عاليا لمهنة شائنة حقيرة • وكان السباق فى بداية نشأته مباراة بين عربتين تميز أحد سائقيهما بحلة بيضاء ، والثانى بأخرى حمراء ، وأدخل فيما بعد لونان اضافيـــان هما الأخضر الفاتــح والأزرق الداكن وكان السباق يتكرر خمسا وعشرين مرة وتشترك فيه مائة عربة فى اليوم الواحد ، زيادة فى أبهة المسرح الشعبى • وسرعان ما اكتسب الفرقاء الأربعة وجودا مشروعا ذا أصل غامض ، وكانت الألوان الأربعة مأخوذة من مختلف مظاهر الطبيعة على مدار فصول السنة الأربعة : الأحمر القانى من الصيف ، بياض الثلج الناصع من الشتاء ، زرقة الظلال الكثيفة من الخريف ، ثم الأخضر الزاهى البهيج من الربيع • وثمة تأويل آخر لاختيار هذه الألوان ، وهو تفسير يرجح العناصر على الألوان ، وقيل ان النزاع بين الأخضر والأزرق يحكى التباين بين عنصرى التراب والماء •
فاتخذوا من فوز « الأخضر » بشيرا « بسنة خضراء » أى بوفرة المحصول واستبشروا من غلبة الأزرق بجولات موفقة آمنة فى البحر • على أن العداء بين الفلاحين والبحارة كان نوعا ما أقل حمقا من التحمس الأعمى الذى كان يبديه أفراد الشعب الرومانى الذين وهبوا حياتهم وأموالهم ، كل للون الذى تحيز له • وكان الأمراء الذين أوتوا أكبر قدر من الحكمة والتعقل

---

(١) فى الأساطير اليونانية ــ ديوميد محارب اشترك فى حصار طروادة ، ســاعد أوديسيوس فى سرقة تمثال أثينا • ومنلاوس أحد ملوك أسبرطة ، أخو أجاممنون •

يسخرون من مثل هذا الخرق ويتغاضون عنه ، ولكن عمد كل من الفريقين: الأخضر والأزرق ، الى أن يتخذ فى الملعب الشعبى أسماء كاليجولا ، نيرون، فيتليوس ، فيروس ،كمودوس ، كراكلا ، الاجابالوس ، وكثيرا ما ترددوا على اسطبلاتهم ، وأطروا محبيهم واعتدوا على خصومهم ، واستحقوا تقدير الجماهير بالتقليد الطبيعى أو المصطنع لسلوكهم وظل الصراع الدموى الصاخب يعكر صفو الابتهاج العام حتى آخر عهد روما بهذه المشاهد والاحتفالات ، وتدخل ثيودوريك بسلطاته ، بدافع من العدالة أو التعلق والحب ، لحماية الفريق الأخضر من عنف أحد القناصل وأحد الأشراف ، كانا منحازين ، فى ورع زائد ، الى الفريق الأزرق فى الملعب الشعبى ٠

واقتبست القسطنطينية حماقات روما ، ولو أنها لم تقتبس فضائلها ، ومن ثم نرى أن نفس الفرقاء أو الأحزاب التى أهاجت الملعب فى روما ، ألهبت فى مزيد من العنف المضاعف مضمار السباق فى القسطنطينية ٠ وكانت الغيرة الدينية ، فى عصر أنسطاسيوس تثير جنون الشعب ، وكان من نتيجة هذا الخبل والحنق أن الفريق الأخضر ـ الذى كان يخفى الحجارة والخناجر خيانة وغدرا فى سلال الفاكهة قتل فى أثناء احتفال مهيب ثلاثة آلاف من خصومه « الزرق » ٠ وانتشر هذا الوباء من العاصمة الى ولايات الشرق ومدنه ، وانبثق عن هذا التمييز باللونين فى مجال الألعاب الرياضية حزبان قويان متناجزان هزا أركان الحكومة الضعيفة ٠ والحق أن الانقسامات الشعبية القائمة على أخطر الميول أو المزاعم الدينية قلما بلغت حدة هذا التمزق العنيف الطائش الذى هدد وشائج الود فى الأسرات وفرق بين الأصدقاء وبين الاخوة ٠ وأغرى النساء ، رغم ندرة وجودهن فى الملعب الشعبى ، بأن تميل كل منهن مع هوى عشيقها ، أو تعارض ميول زوجها ، وضرب بكل قانون وضعى أو سماوى عرض الحائط ، وطالما أحرز هذا الفريق أو ذاك قصب السبق ، لم يلق مشايعوه بالا لأية ضائقة خاصة أو كارثة عامة ٠ وسادت فى أنطاكية والقسطنطينية فوضى الديمقراطية دون ما يصاحبها من روح الحرية ، وبات التأييد الحزبى ضرورة لازمة لكل طلاب الوظائف المدنية أو الكنسية ٠ وقيل ان ثمة علاقة خفية بين أسرة أنسطاسيوس أو طائفته وبين الحزب الأخضر ، وان الحزب الأزرق كان منحازا انحيازا متحمسا الى جانب الأرثوذكسية وجانب جستنيان ، راعى هذا الحزب الأزرق ، وأن هذا الراعى الشكور كان ، لأكثر من خمسة أعوام ، وراء كل الاضطرابات التى أثارها حزب أفزعت القصر والسناتو وكل عواصم الشرق ، مشاغباته فى كل مناسبة ، وانطلاقا من هذا العطف الملكى طغى الفريق الأزرق وتوقحوا ، وتصنعوا اشاعة الرعب والارهاب ، بزى بربرى ـ شعر الهون الطويل وأكمامهم

المزمومة الضيقة وثيابهم الفضفاضة ، ومشية متعالية وصوت جهوري طنان • وكانوا نهارا يخفون الخناجر ذوات الحدين ، أما في الليل فقد تسلحوا وتكتلوا في جرأة ، في عصابات كثيرة مستعدة لكل أعمال العنف والسلب والنهب ، وكان لصوص الليل هؤلاء يسلبون وكثيرا ما يذبحون أعداءهم من الفريق الأخضر ، بل حتى المواطنين المسالمين الأبرياء ، حتى لقد بات من الخطر ارتداء الأزرار أو الأحزمة الذهبية ، أو الظهور ليلا في شوارع عاصمة هادئة • ولقد عمدت روح جريئـــة ، في مأمن من العقاب والحساب ، الى انتهاك حرمة الدور الخاصة ، واستخدمت الحرائق لتسهيل سطو هؤلاء المشاغبين المحزبين أو اخفاء جرائمهم ولم يكن ثمة مكان في مأمن من هذه الغارات • وكم أسرف هؤلاء المشاغبون في سفك دماء الأبرياء • وكم لوثوا الكنائس والمباني بأعمال القتل ، وكم كانوا يفاخرون بمهارتهم في اصابة الفريسة بجرح مميت بطعنـــة خنجر واحــدة • واختار شباب القسطنطينية المنحل « حزب الحلة الزرقاء » وأخرس صوت القانون ، وانحلت روابط المجتمع ، واضطر الدائنون الى التخلي عن وثائق ديونهم ، والقضاة الى نقض أحكامهـم ، والسادة الى تحرير عبيدهم ، والآبـاء الى الاستجابة لتبذير أبنائهم ، وهتك الخدم أعراض كرام السيدات ، وانتزع الأولاد الذين يتسمون بالجمال من بين أذرع آبائهم • واغتصبت الزوجات أمام أزواجهن الا اذا آثرن الموت طواعية واختيارا ، أما الفريق الأخضر ، الذين اضطهدهم أعداؤهم وتخلى عنهم الحكام ، فقد دفع بهم يأســهم الى التزام خطة الدفاع ، أو ربما قتل نفس بنفس ، وانقض هؤلاء المشردون التعساء الذين هربوا الى الغابات والكهوف انقضوا بلا رحمة على المجتمع الذي لفظهم أما من بقي منهم بعد الصراع فقد أعدم ، وأصبح رجال القضاء الذين أوتوا من الشجاعة ما أمكن معه معاقبة المجرمين ، والتصدي لسخط الفريق الأزرق ــ نقول أصبحوا هدفا للغيرة الطائشـــة من جانب هذا الفريق : فأوى والى القسطنطينية الى القبر المقدس هربا ، وضرب أحد كونتات الشرق بالســياط ، وشنق حاكم قيليقيا ، بأمر من تيودورا ، على قبر سفاحين أدانهما بقتل سائسه • وبالاعتداء الجرىء عليه هو نفسه لمحاولة قتله • وربما أغرق الانسان الطموح بتأسيس عظمته على ركيزة من مثل هذه الفوضى الشاملة • ولكن من مصلحة الملك ومن واجبه أن يحفظ للقانون سيادته وهيبتــه • وأعلن جستنيان في مرســومه الأول الذي كثيرا ما كرره ، وأحيانا نفذه ، عن عزمه على حماية الأبرياء ومحاسبة المجرمين ، من كل طائفة ومن كل « لون » • على أن ميزان العدالة ظــل يرجح كفة الفريق الأزرق ، بفضل حب الامبراطور الدفين وبحكم عادته وبفعل مخاوفه ، وخمدت فيه روح الانصاف ، بعد صراع ظاهري ، دون

تردد أو امتعاض ، أمام أهواء تيودورا التى لا تنثنى ولا تلين ، فان الامبراطورة لم تنس أو تغفر قط ما كان يلحق بالممثلة الهزلية من أذى واساءة • وعند ارتقاء جوستين الصغير الى العرش ، أدان اعلان التزام العدالة الصارمة القائمة على المساواة ، بطريق غير مباشر ، تحيز العهد السابق ، حيث جاء فيه : « أيها الزرق : ان جستنيان قد مات • أيها الخضر : انه ما يزال حيا ! » •

وكادت الكراهية المتبادلة والمصالحة العارضة المؤقتة بين الفريقين ، أن تثيرا فى القسطنطينية فتنة هوجاء تحيلها الى خراب يباب (١) • واحتفل جستنيان • فى السنة الخامسة من حكمه ، بمنتصف يناير ، وكانت صيحات السخط من جانب الخضر تعكر صفو الألعاب دون انقطاع • واحتفظ الامبراطور بمهابته الساكنة الى الشوط الثانى والعشرين ، وأخيرا نفد صبره ، وانطلق بصوت عال ، وفى عبارات متقطعة ، فى أغرب حوار جرى يوما بين مليك ورعاياه • وكانت شكاياتهم فى البداية تتسم بالاحترام والاعتدال والتواضع ، فاتهموا الوزراء التابعين بالظلم والجور ، ودعوا للامبراطور بطول العمر والنصر • فانفجر جستنيان متعجبا : « اصبروا وأنصتوا أيها اللائمون الوقحاء ! أخرسوا ألسنتكم أيها اليهود ، أيها السامريون ، أيها المانويون ! » وظل الخضر يحاولون أن يستدروا عطفه : « نحن فقراء ، نحن أبرياء ، لقد أوذينا فى أموالنا وفى أنفسنا ، اننا لا نجرؤ على السير فى الطرقات اننا مضطهدون بسبب اسمنا ولوننا • اننا نستعذب الموت ، أيها الامبراطور ، ولكن بأمر منكم وفى سبيلكم ! » ولكن تكرار عبارات التأنيب المتسمة بالتحيز والانفعال حطت فى أعينهم (الخضر) من قدر الامبراطور فى حلته الأرجوانية ، فأعلنوا تخليهم عن ولائهم لأمير لا يرعى قواعد العدالة مع شعبه ، وأبدوا أسفهم وحزنهم لأن أباه كان قد ولد ، ودمغ ابنه بهذه الألقاب الشائنة المخزية : قاتل جحش ــ طاغية كذاب • فصرخ الامبراطور الحانق : « هل تستهينون بحياتكم ! » عند ذاك نهض الزرق من مقاعدهم والدم يغلى فى عروقهم ، ودوت صيحاتهم العدائية مثل قصف الرعد فى المضمار ، ولكن أعداءهم الذين تجنبوا النزال غير المتكافىء نشروا الرعب واليأس

---

(١) كان السبب الحقيقى لمشاغبات نيقا هو الاستياء والسخط نتيجة ابتزاز الأموال بفعل ادارة جستنيان الغافلة المهملة ولم يوضح جيبون هذه الناحية ، كما أنه لم يفطن الى أن حزبى الملعب الشعبى هما فى الحقيقة الأبرشيتان القديمتان الذابلتان فى المدينة ومن ثم بقيتا ــ الى حد ما ــ الواسطة الدستورية للاتصال بين الشعب والامبراطور ــ د٠م٠لو •

فى شوارع القسطنطينية ، وفى تلك الآونة الحرجة المليئة بالخطر ، سيق سبعة من القتلة الأرذال ، ممن أصدر عليهم الوالى حكمه بالاعدام ، للطواف بهم فى شوارع المدينة ، ونقلوا آخر المطاف الى ساحة التنفيذ فى ضاحية بيرا ، حيث قطعت رءوس أربعة منهم على الفور ، وشنق الخامس ، وما أن بدىء بشنق الاثنين الباقيين حتى انقطع الحبل ، وسقطا على الأرض دون أن يفارقا الحياة ، وصفق الجمهور لافلاتهما ، ونقلهما الرهبان الذين جاءوا من دير سانت كونون المجاور • فى قارب الى محراب الكنسية • ولما كان أحد هذين المجرمين من أصحاب الحلة الزرقاء ، والثانى من أصحاب الحلة الخضراء • فقد أهاجت حفيظة الفريقين قسوة ظالمهم أو جحود راعيهم ، وعقدت بينهما هدنة قصيرة حتى تمكنا من انقاذ السجينين وارضاء شهوة الانتقام • وأحرق على الفور قصر الوالى الذى تصدى لتيار الشغب ، وقتل موظفوه وأفراد حرسه ، وفتحت أبواب السجون عنوة ، وأعيدت الحرية لأولئك الذين يحسنون استخدامها فى التخريب والتدمير ، وأرسلت قوة من الجيش لمساعدة الحاكم المدنى ، فالتحمت معها حشود مسلحة كانت أعدادها وبسالتها فى ازدياد مستمر • وعمد رجال الهريولى وهم أكثر من استخدمتهم الامبراطورية من المتبربرين وحشية ـ الى ايقاع القساوسة على الأرض وتركت مخلفاتهم على الأرض فى طيش ونزق لتمنع التلاحم الدموى وتفصل بين الفريقين ، بدافع التقوى والغيرة الدينية • وزاد انتهاك الحرمات على هذا النحو من الشغب وتفاقم السخط والهياج ، وتحمس الشعب فى الدفاع عن حرمة الدين ، وأمطرت النسوة من الأسطح والنوافذ رءوس الجند بوابل من الحجارة ، فقذف الجند البيوت بالمواد المحترقة ، وغطت النيران التى أشعلها المواطنون والغرباء فى كل مكان وجه المدينة بلا رقيب أو حسيب • وامتدت الحرائق الى كنيسة أيا صوفيا وحمامات زيوكسيبوس Zeuxippus والى جزء من القصر ، من أول مدخل له حتى مذبح الاله مارس ، والى الرواق الطويل الممتد من القصر الى ساحة قسطنطين ، كما التهمت النيران مستشفى كبيرا بمن كان فيه من المرضى • ودمر كثير من الكنائس والمبانى الضخمة ، وذاب قدر كبير من الذهب والفضة بفعل النيران أو تبدد • ولجأ المواطنون العقلاء والأغنياء ، هربا من مناظر الفزع والضيق هذه ، عبر البسفور ، الى الشاطىء الآسيوى ، وفى خمسة أيام تركت القسطنطينية خاوية على عروشها ، للفريقين ، وكانت كلمة السر عندهما « نيقا » ، أى « أسحق » ومن ثم أطلق هذا اللفظ على الشغب المشهود ـ وطالما ساد الخصام بين الفريقين ، فقد بدا أن الزرق وهم المنتصرون الغالبون ، والخضر وهم القانطون الجزوعون ، كانوا ينظرون بنفس الاستهتار الى الخلل فى الدولة • واتفقا على أن يهاجما الادارة الفاسدة فى العدل والخزانة • ومن ثم وجه الاتهام

علنا الى الوزيرين المسئولين : تريبونيــان الداهية ،وجون الكبادوكى الجشع ، باعتبارهما سبب هذا البؤس العام • وكان من الجائز ألا يلقى أحد بالا لتذمر الشعب وقت الهدوء ، ولكن التذمر لقى الآن آذانا صاغية حين كانت المدينة تشتعل ، فعزل على الفور وزير المالية والوالى ، وشغل مكان كل منهما بعضو من السناتو لم يرق الشـك الى نزاهته • وبعد الاذعان العام ، شخص جستنيان الى مضمار السباق ليعترف هو نفسه بأخطائه ، وليتقبل ندم رعاياه الشاكرين العارفين لفضله ، ولكنهم لم يثقوا فى توكيداته ، رغم أنه أقسم بها على الكتـاب المقدس • وأزعج ارتيابهم الامبراطور فانسحب على عجل الى الحصن المكين فى القصر ، ونسبت حدة الشغب الآن الى مؤامرة خفية حاك الطمع والطموح خيوطها ، وثار الظن بأن هؤلاء المتمردين ، وبوجه أخص الفريق الأخضر ، يزودهم بالمـال والسلاح هيباشيوس Hypatius وبومبى ، وهما نبيـلان لم يستطيعا قط أن يتناسيا بشرف ، أو يتذكرا فى أمان أنهما ابنـــا أخ الامبراطور أنسطاسيوس • وكان الامبراطور متقلب الأطوار فى معاملتهما ، فارتضت رعونته وطيشه بأن يوليهما ثقته تارة ، ويفضـح أمرهما تارة أخرى ، ثم يصـفح عنهما بعد ذلك •• ومن ثم كان يبدو أنهما خادمان مخلصان للعرش ، واحتجزا طيلة أيام الفتنة الخمسة كرهينتين ذواتى شأن ، حتى غلبت مخاوف جستنيان آخر الأمر على رزانته فتصور هذين الأخوين جاسوسين ان لم يكونا قاتلين ، فأمرهما فى جفاء وعنف بمغادرة القصر • وبعد محاولة عقيمة للاقناع بأن الامتثال لهذا الأمر ربما أدى الى خيانة لا تكون لهما فيها ارادة ، عاد الأخوان الى دارهما • وفى صباح اليوم السادس أحاط الشعب بأحدهما وهو هيباشيوس وأمسكوا به ، ورغم ما أبدى من مقاومة صادقة ورغم دموع زوجته وتوسلاتها نقلوا أميرهم المحبوب ـ أى هيباشيوس ـ الى ساحة قسطنطين ، وبدلا من التاج وضعوا على رأسه طوقا ثمينا • ولو أن الغاصب الذى دافع فيما بعد عن فضل تمهله كان قد اسـتمع الى مشورة السناتو ، واستثار حمية الجمـاهير المحتشدة ، نقول لو أنه فعل ذلك لكان من الجائز أن تضيق محاولتهم العنيدة الأولى الخناق على غريمه الذى يرتجف فرقا ، أو تبعده • وكان القصر البيزنطى يتصل بالبحر اتصالا مباشرا ، ورست القوارب على أهبة الاستعداد أمام الحديقة ، واستقر الرأى سرا بالفعل على انتقال الامبراطور وأسرته وأمواله الى ملجأ آمن بعيدا عن العاصمة •

وكان مآل جستنيان الى الدمار والضياع ، لو لم تتخل العاهرة التى انتشلها من وهدة المسرح عن الجبن المركب فى بنات جنسها وعن فضائلهن على حد ســواء ، ذلك أن تيودورا وحدها وســط مجلس شهده القائد

بليساريوس ، أظهرت روح البطولة ، كما استطاعت هى وحدها كذلك دون أن ترهب ما يمكن أن يصب عليها الامبراطور من نقمة فيما بعد — أن تخلص الامبراطور من الخطر الداهم ومن مخاوفه العقيمة ، وصاحت بجستنيان شريكة حياته : « اذا كان الهرب هو الوسيلة الوحيدة للنجاة ، فانى أربأ بنفسى أن أهرب ، وان الموت مآل كل حى ، وما ولدنا الا لنموت ، ولا يجوز لمن تولوا الملك أن يبقوا على قيد الحياة بعد فقدان ملكهم ومنزلتهم الرفيعة ، وانى لأدعو الله ألا يمد فى أجلى ، ولو يوما واحدا بدون تاجى وحلتى الامبراطورية ، وألا أرى النور فى اللحظة التى لا يعود الشعب فيها يدعونى بالملكة • واذا اعتزمت الهرب فان لديك ثروة وكنوزا ، وان لديك سفنا ، ولكن تدبر ، حتى لا تعرضك رغبتك فى الحياة الى الانزواء فى منفى كئيب أو الى ميتة شائنة • أما أنا فلسوف ألتزم الحكمة القديمة القائلة بأن العرش مثوى كريم » • وبعث ثبات المرأة فى الامبراطور من جديد روح الشجاعة ليتروى ويعمل • وسرعان ما تستبين الشجاعة وسيلة التحايل على أشد موقف يأسا وقنوطا • فلقد كان من أيسر الأمور وأكثرها حسما أن تستثار من جديد حفيظة الحزبين (الزرق والخضر) ، فقد عرت الدهشة الزرق لخطيئتهم وحماقتهم فى أن يستفزهم شىء يسير من الأذى الى أن يتآمروا مع ألد أعدائهم ضد امبراطور محسن كريم خير ، فنادوا من جديد بجستنيان ملكا ، وترك فريق الحلة الخضراء ، مع امبراطورهم المحدث وحدهم فى ميدان السباق • وكان الحرس رجالا غير موثوق باخلاصهم وأمانتهم ، ولكن قوات الجيش التى استعان بها جستنيان تألفت من ثلاثة آلاف جندى محنك كانوا قد تدربوا على البسالة والنظام فى حروب فارس والليريا • فانقسمت هذه القوات الى قسمين تحت قيادة بليساريوس ومندوس ، وشق كل منهما طريقه عنوة من القصر ، عبر الدروب الضيقة والنيران الخامدة والأبنية المتداعية ، حتى أطبقا فى لحظة واحدة على المدخلين المتقابلين لميدان السباق ، وما كان فى مقدور الحشد المضطرب الذى تولاه الفزع أن يتصدى فى تلك اللحظة الحرجة لهجوم مركز منظم من جانبى الملعب • وأبدى الزرق أقصى الحمية وأشد البأس تعبيرا عن ندمهم ، حتى لقد بلغ عدد القتلى فى تلك الملحمة العاتية الصاخبة فى ذاك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف واقتلع هيباشيوس عن عرشه ، واقتيد مع أخيه بومبى حتى خرا تحت قدمى جستنيان يرجوان الرفق والرحمة ، ولكن جرمهم كان صارخا ، وكانت براءتهم موضع شك ، وحالت شدة فزع جستنيان دون غفران الذنب • وفى صباح اليوم التالى أعدم الجنود خفية ابنى انسطاسيوس مع ثمانية عشر آخرين من أبرز شركائهم فى الجريمة من الأشراف والقناصل ، وألقيت جثثهم فى البحر ، وهدمت قصورهم وصودرت أموالهم • أما ميدان السباق نفسه فقد قضى

عليه بالصمت الحزين لعدة سنين ، فلما أعيدت الألعاب عادت الاضطرابات سيرتها الأولى ، وظل الفريقان الأزرق والأخضر يسيئان الى حكم جستنيان ، ويكدران هدوء الامبراطورية الشرقية ٠

استيراد الحرير من الصين

ظلت هذه الامبراطورية الشرقية ، بعد اسـتيلاء المتبربرين على روما ، على صلة بالأمم التى كانت قد غزتها فيما وراء الأدرياتيك حتى حدود أثيوبيا وفارس ٠ فقد بسط جستنيان حكمه على أربع وستين ولاية وتسعمائة وخمس وثلاثين مدينة ، وجادت الطبيعة على ممتلكاته بمزايا التربة والموقع والمناخ ٠ وكان فن الانسان يخطو دائما مدارج الرقى على طول ساحل البحر المتوسط وضفاف النيل من طروادة القديمة الى طيبة فى مصر ٠ وقد أنقذت خيرات مصر الوفيرة المشهودة ابراهيم وقومه ، وكان لا يزال فى مقدور هذا الوادى الصغير الآهل بالسكان أن يصدر فى كل عام خمسة وستين ألف طن من القمح الى القسطنطينية ٠ وكانت صيدا تزود عاصمة جستنيان بمصنوعاتها التى خلدت أشعار هوميروس ذكرها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا ، وبدلا من أن تضعف قوة الأرض سنة بعد سنة باستنبات ألفى محصول ، كانت تجددها وتنعشها الفلاحة الماهرة والأسمدة الغنية والراحة الموسمية ، وكانت الحيوانات تتكاثر بغير حدود ٠ كما تكاثرت ، بفضل عناية الأجيال المتعاقبة ، المزارع والمبانى وأدوات العمل والترف التى كانت أبقى على الزمن من حياة الانسان ٠ وحفظت التقاليد ممارسة الفنون المتواضعة وعملت التجربة والمران على تبسيطها ، وكان تقسيم العمل وسهولة التبادل سببا فى اثراء المجتمع ، فعملت آلاف من أيدى الصناع النشـيطة على تهيئة المسـكن والملبس والغذاء ، لكل رومانى ، وجدير بالذكر أن اختراع النول والمغزل نسب الى الآلهة ٠ على أنه فى كل عصر ، وجدت منتجات حيوانية أو نباتية ، مثل الشعر والجلد والصوف ، والكتان والقطن ، وأخيرا الحرير ، وصنعت تصنيعا بارعا لستر جسم الانسان أو تزيينه ٠ وصبغت هذه كلها بخليط من الألوان الثابتة ، واستخدمت الفرشاة بنجاح فى تحسين نتاج الأنوال ، وكان لكل انسان مطلق الحرية ــ تبعا لذوقه وزيه ــ فى اختيار هذه الألوان التى تحكى جمال الطبيعة ، الا أن الأرجوانى القاتم الذى استنبطه الفينيقيون من بعض المحار كان وقفا على شـخص الامبراطور المقدس وقصره ، وكانت عقوبة الخيانة تنزل بالرعايا الطامعين الذين تجاسروا على سلب العرش امتيازه الخاص ٠

ولست فى حاجة الى ايضاح أن الحرير (١) فى الأصل عبارة عن افرازات من غدد يرقة وأنه ينسج حولها مقبرة ذهبيه (شرنقة) تخرج منها بعد ذلك فراشة • وكان دود القز الذى يتغذى على أوراق كالتوت الأبيض ، محصورا ، حتى أيام جستنيان ، فى الصين وكانت أشجار الصنوبر والبلوط والدردار معروفة فى غابات آسيا وأوروبا ، ولما كانت تربية الدود على أوراقها ، أكثر مشقة وانتاجها أقل ضمانا ، فقد أهملت بصفة عامة ، اللهم الا فى جزيرة كيوس الصغيرة قرب شاطىء أتيكا « اليونان » ، وكان يؤخذ منها نسيج رقيق • وظلت هذه الصناعة الكيوسية التى اخترعتها امرأة لاستعمال النساء موضع اعجاب الشرق وروما ، لفترة طويلة • ومهما أثارت ملابس الميديين والأشوريين من شكوك ، فان فرجيل هو أقدم كاتب ذكر صراحة الصوف الناعم الذى يستخرج من أشجار التبت أو الصين ، وصحح هذا الخطأ الطبيعي ـ الذى كان أقل غرابة من الحقيقة ـ شيئا فشيئا ـ بمعرفة الحشرة الثمينة التى كانت أول من ابتدع البذخ الذى رفلت فيه الأمم ، وكم استهجن أكثر الرومان تمسكا بأهداب الوقار والرزانة هذا اللون الظريف النادر من الترف ، أيام تيبريوس ، كما هاجم ، بلينى فى أسلوب متكلف ولو أنه عنيف ، هذا الشره فى الكسب الذى دفع الانسان الى ارتياد أقصى أركان المعمورة سعيا وراء هدف سيىء ، فانهم انما يعرضون للأنظار هذه الثياب التى هى أقرب شيء الى العرى ، والتى تشف عن أجسام من يرتديها ، وربما أرضى الرداء الذى يكشف عن مفاتن الجسم ولون البشرة ـ أرضى الغرور أو حرك الشهوة • وكان النسوة الفينيقيات أحيانا يخلطن هذه المنسوجات الحريرية المحبوكة التى سبق صبغها فى الصين ، فكان هذا السندس الثمين يمزج بنسيج أقل حبكا من خيوط الكتان ، وكان استخدام الحرير النقى أو المخلوط لمائتى عام بعد عصر بلينى ـ وقفا على النساء ، حتى ألف المواطنون فى روما والولايات أن يتشبهوا ، دون أن يحسوا ، بالامبراطور الأجابالوس الذى لوث بتخنثه كرامته بوصفه امبراطورا ورجلا معا • وشكا أوريليان من أن الرطل من الحرير كان يباع فى روما باثنتى عشرة أوقية من الذهب ، ولكن العرض ازداد بازدياد الطلب عليه ،

---

(١) تحتل دودة القز مكانا مرموقا فى تاريخ الحشرات (وهو أشد غرابة من مؤلف أوفيد فى التطور) ويمكن تشبيه دودة الحرير فى جزيرة كيوس ـ كما وصفها بلينى ، بنوع مشابه لها فى الصين • ولكن دود القز عندنا وكذلك أوراق التوت الأبيض لم تكن معروفة لدى تيوفراستوس ولا بلينى • (خلط جيبون بين كيوس Ceos وكوس Cos وكان أرسطو أول كاتب اغريقى ذكر الحرير ، يحتمل أن الحرير الخام كان يؤتى به من آسيا الى كوس حيث يصنع هناك • د•م• لو) •

فهبط السعر نتيجة لكثرة العرض · واذا كانت الظروف الطارئة أو الاحتكار قد رفعت أحيانا هذا السعر حتى عن الحد الذى ذكره أوريليان ، فقد اضطر الصناع فى صور وبيروت أحيانا نتيجة لهذه الاسباب نفسها الى الاكتفاء بجزء من تسعه اجزاء من هذه القيمه الباهظه · واتجه التفكير الى أنه من الضرورى سن قانون للتمييز بين ثياب الممثلين الهزليين وأردية شيوخ السناتو ، وكأن رعايا جستنيان هم الذين يستهلكون الجزء الأكبر من الحرير المستورد من منشئه الاصلى · وكانوا لا يزالون يعرفون كل المعرفة نوعا من اصداف البحر المتوسط يطلق عليه « دودة قز البحر » · وان الصوف أو الشعر الناعم الذى تلصق به هذه الصدفه أو المحارة بالصخر ، يصنع اليوم لمجرد أنه تحفة طريفة ، ولكنه لا يستخدم ، وكان الامبراطور الرومانى يقدم مثل هذا الثوب المصنوع من مثل هذه المادة الغريبة الفريدة هدية الى حكام أرمينية ·

وكانت هذه التجارة أو السلعة الغالية القيمة ، رغم أنها تشغل حيزا صغيرا ، تفى بنفقات النقل البرى · وكانت القوافل تخترق قلب آسيا من بحر الصين الى شواطئ البحر فى سوريا فى مائتين وثلاثة وأربعين يوما ، وكان الرومان يحصلون على الحرير من التجار الفرس الذين ترددوا على أسواق أرمينيا ونصيبين ، ولكن هذه التجارة التى كانت تتسم فى أوقات السلم بالجشع والحقد ، اضطربت أحوالها أيما اضطراب بسبب الحروب الطويلة التى كانت تنشب بين الملوك المتصارعين · وربما جاز للملك العظيم أن يعد فى زهو وفخار اقليم أزبكستان (عاصمته سمرقند) ، بل حتى الصين ، بين ولايات امبراطوريته ولكن نهر سيحون كان يحد ملكه الحقيقى ، ولكن اتصاله المثمر النافع بأهالى أزبكستان ، فيما وراء النهر كان يتوقف على رضا الفاتحين الغزاة – وهم الهون البيض والترك ، الذين تعاقبوا على حكم هذا الشعب النشيط ، شعب أزبكستان · ولكن أشد ألوان الحكم وحشية وهمجية لم تستطع أن تقضى على الزراعة والتجارة فى اقليم اشتهر بأنه أحد بساتين آسيا الأربعة · وكان موقع مدينتى سمرقند وبخارى صالحا لتبادل مختلف منتجات هذا الاقليم · واشترى تجار هاتين المدينتين من الصينيين (١) الحرير الخام أو المصنوع ،

---

(١) خلط الاعجاب الأعمى عند الجزويت ، بين الحقب لتاريخ الصين · ولكن ميز بينهما مع قدر أكبر من الدقة ، مسيو دى جين M. de Guignes الذى اكتشف تدرج الحقائق فى الحوليات ، وامتداد الملكية حتى العصر المسيحى · ودرس بعين فاحصة علاقات الصين مع أمم الغرب ، ولو أن هذه العلاقات يسيرة طارئة غامضة · ولم يخامر الرومان أى شك فى أن للصين امبراطورية ، لا تقل شأنا عن امبراطوريتهم ·

ونقلوه الى فارس ، لاستخدامه فى الامبراطورية الرومانية وكانت عاصمة الصين المختالة تيها وعجبا ترحب بقوافل أزبكستان على أنها بعثات ذليلة ضارعة وافدة من ممالك تابعة ، فاذا رجعت القوافل سالمة آمنة كان جزاء المغامرة الجريئة كسبا وفيرا الى حد الافراط ٠ وما كان من الميسور أن يقطع الطريق الوعر المحفوف بالمخاطر من سمرقند الى المدينة الصينية الأولى فى ولاية شنسى فى ستين أو ثمانين أو مائة يوم ٠ حتى اذا عبرت نهر سيحون ، أصبحت فى عرض الصحراء وسط القبائل الرحل ، الا اذا تصدت لهم الجيوش والحاميات التى اعتبرت كل مواطن وكل سائح هدفا سائغا لأبشع أنواع السلب والنهب ٠ وكانت قوافل الحرير – هربا من وجه لصوص التتار وطغاة الفرس ، ترتاد طريقا أكثر اتجاها الى الجنوب ، فكانوا يقطعون جبال التبت ويجتازون نهر الكنج أو السند ، وينتظرون متلهفين فى ثغور جوزيرات ومالابار ، وصول السفن التى تفد اليها سنويا من الغرب (١) ٠ ولكنهم كانوا يجدون مخاطر الصحراء أيسر احتمالا من العناء والجوع وضياع الوقت ، وقل أن كانت المغامرة تتكرر ، وان الأوربى الوحيد الذى اجتاز هذا الطريق غير المطروق ليزهو ويحمد لنفسه مثابرته ووصوله بعد تسعة أشهر من مغادرته بكين الى دلتا نهر السند ٠ على أن البحر على أية حال ، كان مفتوحا أمام الجميع للملاحة الحرة ٠ وكانت ولايات الصين ٠ ابتداء من هذا النهر العظيم الى مدار السرطان – قد أخضعها وعمل على تحضيرها أباطرة الشمال ، كما كانت زاخرة ، حوالى العصر المسيحى ، بالمدن والسكان وأشجار التوت وما يعيش عليها من حشرات ثمينة ٠ ولو أن الصينيين الى جانب معرفتهم للبوصلة أوتوا عبقرية اليونان والفينيقيين وذكاءهم ، فلربما امتدت كشوفهم الى نصف الكرة الجنوبى ٠ وليس فى مقدورى أن أدرس ، ولست ميالا الى أن أصدق ، رحلاتهم البعيدة الى الخليج الفارسى (الخليج العربى) أو رأس الرجاء الصالح ٠ ومن الجائز أن الأسلاف كانوا يعدلون العناصر الحالية فى جهودهم ومدى نجاحهم ، وأن مجال نشاطهم البحرى امتد من جزر اليابان الى مضايق ملقا ، أو أعمدة هرقل الشرق اذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير ٠ وكانوا يبحرون ، دون أن تغيب أنظارهم عن الأرض ، على طول الساحل الى نهاية مرتفعات آخن ، التى كان يقصد اليها سنويا عشر أو اثنتا عشرة سفينة محملة بمنتجات الصين ومصنوعاتها ، بل حتى ومهرة الصناع فيها ٠ وقليلا ما أشير الى جزيرة سومطرة وشبه الجزيرة المقابلة

---

(١) يمكن الرجوع – فيما يختص بالطرق بين الصين وبين فارس والهند – فى سير هالكوت Hackluyt وتفنوت Thevenot ٠ وقد اكتشف أحد الحكام الانجليز فى البنغال مؤخرا طريقا عبر التبت ٠

لها على أنهما موطن الذهب والفضة ، وقد توضح المدن التجارية التى ورد ذكرها فى جغرافية بطلميوس أن هذه الثروة لم تكن تستخرج من المناجم وحدها • وبلغ طول الطريق المباشر بين سومطرة وسيلان نحو ثلثمائة فرسخ ، وكان الملاحون الصينيون والهنود يسترشدون بتحركات الطيور واتجاهات الرياح الموسمية ، وكانوا يعبرون المحيط عبورا آمنا فى مواكب مربعة الشكل احكم وثاق أجزائها بواسطة حبال متينة اتخذت من أشجار جوز الهند ، بدلا من الحديد ، وكانت جزيرة سيلان (أو سرنديب أو تايروبانا) موزعة بين أميرين متناجزين سيطر أحدهما على الجبال والفيلة والعقيق البراق واستمتع الثانى بالثروة التى هى أكثر ثباتا ، وهى الصناعة المحلية والتجارة الخارجية وميناء ترنكمالى **Trinquemale** الضخمة التى كانت تستقبل وتودع أساطيل تجارة الشرق والغرب • وفى هذه الجزيرة الكريمة المضياف ـ وهى تبعد نفس المسافة عن أى بلد من بلاد تجار الحرير الصينيين (كما قدروا هم) كان هؤلاء التجار الذين جمعوا فى رحلاتهم الصبر والقرنفل وجوزة الطيب وخشب الصندل يحتفظون بعلاقات طيبة ، فان رعايا الملك العظيم مجدوا ـ بلا منازع ـ قوته وعظمته ، أما الفرد الرومانى الذى كان ينتقص من غرور هؤلاء الرعايا بالموازنة بين العملة التافهة لهذا الملك العظيم وبين عملة الامبراطور أنسطاسيوس الذهبية ، فقد أبحر الى سيلان على سفينة أثيوبية بوصفه راكبا عاديا •

ولما بات من العسير الاستغناء عن الحرير ، فقد أبصر الامبراطور جستنيان بعين القلق والاهتمام أن الفرس احتكروا فى البر والبحر هذا المعين الذى لا ينضب ، وأن أمة الأعداء الوثنيين تستنزف باستمرار ثروة رعاياه ، وكان من الجائز أن تسترد حكومة يقظة جادة تجارة مصر والملاحة فى البحر الأحمر ، وكانت قد انحطت هذه وتلك فى الوقت الذى ازدهرت فيه الامبراطورية ، وأن تبحر القوارب الرومانية ، لشراء الحرير ، الى موانى سيلان وملقا ، بل حتى الى موانى الصين • ولكن جستنيان لجأ الى وسيلة أكثر تواضعا ، تلك هى أنه استعان بحلفائه المسيحيين الأحباش سكان أثيوبيا ، الذين كانوا قد أصابوا مؤخرا شيئا من فنون الملاحة وروح التجارة ، ووضعوا أيديهم على ثغر أدوليس **Adulis** ، الذى كان لا يزال يزدان بالأنصاب التذكارية لأحد الغزاة اليونان • وشق هؤلاء الأحباش طريقهم على طول الساحل الأفريقى الى خط الاستواء بحثا عن الذهب والزمرد والعطور ، ولكنهم ، فى حكمة وتعقل ، تجنبوا منافسة غير متكافئة لابد أن يحول فيها الفرس المجاورون بينهم وبين أسواق الهند • واستسلم الامبراطور لليأس وخيبة الأمل ، حتى تحققت رغبته

نتيجة حادث مفاجيء غير متوقع ، فقد بشر أحد الأساقفة بالانجيل فى الهند ورعى أمور مسيحيى القديس توماس على ساحل مالابار المشهور بالفلفل ، وشيدت كنيسه فى سيلان ، وتتبعت الارساليات التبشيرية طريق التجارة الى أطراف آسيا • وأقام راهبان فارسيان لمدة طويلة فى الصين ، وربما كانت اقامتهما فى المدينة الملكية نانكين ، وكانت مقر ملك انصرف الى العقيدة الأجنبية • واستقبل بالفعل لهذا الغرض بعثه من جزيرة سيلان • وقد تطلعت أبصارهما وسط مشاغلهما الدينيه الى الثياب التى يرتديها الصينيون عامة ، والآلاف من ديدان القز التى تربى على الأشجار أو فى البيوت وتلك عملية كانت تعتبر من أعمال الملكات • وسرعان ما اتضح للراهبين أن نقل هذه الحشرة القصيرة الأجل أمر غير عملى ، ولكن البويضات يمكن أن تنسل ويتكاثر نتاجها فى بلد بعيد ، وكان للديانة أو للمصلحة على الراهبين الفارسيين سلطان أقوى من حبهما لوطنهما ، فوصلا بعد رحلة طويلة الى القسطنطينية ، وأظهرا الامبراطور على مشروعهما ، فشجعهما جستنيان بما أغدق عليهما من هدايا ثمينة ووعود سخية • ومن الغريب أنه بدا للمؤرخين الذين دونوا تاريخ هذا الأمر ، أن حملة فى سفح جبال القوقاز أجدر بسرد أخبارها فى تفصيل دقيق ، من جهود تلك البعثات التجارية ، التى عادت الى الصين ، وخدعت شعب الصين الحقود فأخفت بويضات دودة القز فى قصبات مجوفة ، وعادوا ظافرين بغنائم الشرق ، وأمكن تحت اشرافهم فقس البويضات فى الوقت المناسب بفعل الحرارة الصناعية نتيجة لحفظ البويضات تحت التراب ، وغذيت الديدان بورق التوت ، فعاشت وقامت بعملها فى مناخ أجنبى • وحافظوا على عدد كاف من الفراشات ابقاء على النوع ، وغرست أشجار التوت لتوفير الغذاء للأجيال الصاعدة من دود القز • وعملت التجربة واعمال الفكر على تصحيح أى خطأ يقع فى المحاولة الجديدة واعترف مبعوثو أزبكستان فيما بعد أن الرومان لم يقلوا شأنا عن أهل الصين فى تربية الحشرات وصنع الحرير الذى تفوقت فيه صناعة أوربا الحديثة عن الصين والقسطنطينية معا • انى لست غافلا عن مزايا هذا الترف الناعم ، ولكنى أتأمل فيما بينى وبين نفسى فى شيء من الحسرة والألم : لو أن مستوردى الحرير أدخلوا فن الطباعة الذى كان الصينيون يمارسونه بالفعل وقتذاك لأمكن تخليد مسرحيات ميناندر Menander ومؤلفات ليفى Livy فى طبعات القرن السادس ؟! ولكان من الجائز كذلك أن تعمل نظرة أوسع الى الكرة الأرضية على النهوض بالعلوم النظرية ، ولكن الجغرافية المسيحية كانت تستمد بحكم الضرورة من نصوص الأسفار المقدسة كما كانت دراسة الطبيعة دلالة لا نقض فيها ولا ابرام على قلب لم يعمر بالايمان ، ولقد حصرت العقيدة المسيحية الصحيحة

(الأرثوذكسية) العالم المسكون فى منطقة معتدلة واحدة ، وصورت الأرض على شكل مستطيل ، يمكن اختراقه طولا فى أربعمائة يوم ، وعرضا فى مائتى يوم · يحوطه البحر ، ويغطيه غشاء القبة الزرقاء الثابت ··

كنيسة أيا صوفيا

لقد شاد جستنيان ما شاد من مبان بدماء الشعب وأمواله ، ولكن هذه العمارة كانت تنبىء فى ظاهرها عن رخاء الامبراطورية ، وتجلت فيها بالفعل مهارة مهندسيها ، ولقد نشأت تحت رعاية الأباطرة نظريات وتطبيقات الفنون التى تعتمد على العلوم الرياضية والقوة الميكانيكية ، وكان كل من بروكلوس Proclus وأنتيميوس Anthemius ينازع أرشميدس شهرته ومكانته العلمية · ولو أن رواة أذكياء بارعين دونوا أو رووا ما شاهدوا من آيات فنهما ، لزادت الآن تأملات الفلاسفة بدلا من اثارة شكوكهم · لقد سادت خرافة بأن الأسطول الرومانى تحول الى رماد فى ميناء سيراكوز بفعل عدسات أرشميدس الحارقة ، كما أكدوا أن بروكلوس استخدم وسيلة شبيهة بهذه لتدمير قوارب القوط فى ميناء القسطنطينية ، ولحماية الامبراطور المحسن أنسطاسيوس ضد محاولة فيتاليان الجريئة · فقيل انه قد ثبت على أسوار المدينة آلة فيها مرآة سداسية الأضلاع من النحاس المصقول ، مع ألواح كثيرة أخرى مضلعة صغيرة تتلقى وتعكس أشعة شمس الظهيرة · ومنها صوب لهب مدمر لمسافة امتدت الى مائتى قدم · ولقد زعزع من قيمة هاتين الحقيقتين الفريدتين صمت أصدق المؤرخين عنهما · ولم تستخدم العدسات الحارقة قط فى الدفاع عن أى موقع أو مهاجمته ، على أن التجارب المدهشة التى قام بها أحد العلماء الفرنسيين أوضحت امكان وجود مثل هذه المرآة · فاذا كان الأمر كذلك فانى أكثر ميلا الى نسبة هذا العمل الى كبار الرياضيين القدامى ، منى الى ارجاع قيمة هذه الرواية الى خيال عقيم لراهب أو سفسطائى · وجاء فى رواية أخرى أن بروكلوس استخدم الكبريت فى تدمير أسطول القوط · وان لفظ الكبريت فى التفكير الحديث ليرتبط فورا بالاشتباه فى البارود · وقد ذاع أمر هذا الاشتباه بفعل الفنون الخفية التى ابتدعها تلميذه أنتميوس · ولهذا قصة نوجزها فيما يلى · أنجب أحد المواطنين بمدينة ترالس Tralles فى آسيا خمسة أولاد ، تميز كل منهم فى مهنته الخاصة بالمقدرة والتوفيق · فبرز أوليمبيوس فى الالمام بالفقه الرومانى وتطبيقه · وأصبح ديوسكورس

Dioscorus والاسكندر طبيبين عالمين ، ووقف أولهما مهارته وعلمه على خدمة مواطنيه ، على حين سعى الأخ الثاني ، وهو الأكثر طموحا ، وراء الثروة والشهرة في روما • ووصلت شهرة متروودوروس عالم النحو ، وأنتميوس العالم الرياضي الهندسي ، الى أسماع الامبراطور جستنيان الذى دعاهما الى القسطنطينية ، على حين عكف أولهما على تنشئة الأجيال الصاعدة فى مدارس البلاغة ، ملأ الثانى أرجاء العاصمة والولايات بآثار أبقى على الزمن أبدعها فنه ، وكان زينون قد تغلب يوما بفصاحته على جاره أنتميوس فى مشادة تافهة وقعت بينهما بشـأن جدران أو نوافذ داريهما المتجاورتين ، ولكن العالم الميكانيكى (أنتميوس) قهر الخطيب المفوه زينون بدوره ، بحيله وخططه الخبيثة غير المؤذية التى صورها جهل أجاثيوس ــ مؤرخ عصر جستنيان ــ تصـــويرا غامضا لا غناء فيــه • ذلك أن أنتميوس أعد بضعة أوعية أو مراجل ماء غطى كلا منها بقاع عريض لأنبوبة من الجلد تنتهى بطرف ضيق ، وتمتد فى تفنن بارع ، الى براطيم أو دعائم سقوف المبانى المجاورة ، وكان تحت هذه المراجل نار متقدة ، وسار الماء المغلى فى الأنابيب ، فاهتزت أركان البيت بفعل الهواء المضغوط ، وربما تولى العجب سكانه المرتعدين فرقا من أن المدينة لم تفطن الى الزلزال الذى أحسوا هم به • وفى مرة أخرى ، بينما كان زينون وأصدقاؤه جالسين الى المائدة ، خطف أبصارهم ضـــوء شديد لا يحتمل توهج فى أعينهم من مرايا أنتيموس العاكسة ، كما ذهلوا من الصوت الذى أحدثه بعض جزيئات معينة دقيقة رنانة ، وأعلن الخطيب (زينون) الى السناتو ، فى لغة مؤثرة أن أى انســان فان ، لابد أن يستسلم لعدو استطاع أن يهز الأرض بصولجان نبتيون (اله البحر) ، وأن يثير رعد وبرق جوف Jove نفسه (هو جوبيتر اله الحرب) • لقد ألهب عبقرية أنتميوس وزميله أيزيدور الملطى (من مالطة مدينــة يونانية قديمة فى غرب آسيا الصغرى) واستغلهـا أمير انحط تذوقه للفنون الى هوى خبيث باهظ النفقة • لقد بسـط المهندسون المقربون مشروعاتهم ومصاعبهم أمام أعين جستنيان ، واعترفوا فى حصافة وفطنة الى أى حـد تفوق على تأملاتهم المضنية وأبحاثهم المرهقة ما تفيض بـه قريحة الامبراطور من معارف بدهية أو الهام سماوى ، وهو الامبراطور الذى اتجه اتجاها مباشرا الى خير شعبه ومجد عصره وخلاص نفسه •

وكانت الكنيســة الرئيسية التى خصصهــا مؤسس القسطنطينية للقديسة صوفيا أو « الحكمة الخالدة » قد دمرتها النيران مرتين : مرة بعد نفى جون كريسستوم ، ومرة فى أثناء شغب نيقا بين الحزبين الأزرق والأخضر • وما أن هدأ الشغب حتى حزن جمهور المسيحيين لتهورهم

الديني ، وكان من الجائز أن يغتبطوا بهذه الكارثة لو أنهم تنبأوا بعظمة الكنيسة الجديدة التي أخذ جستنيان وورعه على عاتقه في غيرة ونشاط اقامتهـا ، وكان قد انقضى على تدميرهـا أربعون يوما فقط • فأزيلت الأنقاض ، ووضع تصميم للبناء على مساحة أوسع اقتضت الحصـول على موافقة بعض ملاك الأرض ، الذين حصلوا على أكثر الشروط سخاء نتيجة لما سيطر على الامبراطور من رغبة ملحة ورهبة شديدة • ووضع أنتميوس المشروع ، ووجه بذكائه وعبقريته جهود عشرة آلاف عامل ، لم يتأخر تسديد أجورهم في عملة من الفضة الخالصة عن مساء كل يوم من أيام العمل قط ، وكان الامبراطور نفسه ، مرتديا سروالا من الكتان ، يرقب كل يوم تقدمهم السريع ، ويشجعهم على الجد في العمل برفع الكلفة بينهم وبينه وبغيرته وبمكافآته • وافتتح البطريرك كنيسة أيا صوفيا الجديدة بعد خمس سنين وأحد عشر شهرا وعشرة أيام من وضع حجر الأساس فيها • ووسط الاحتفال المهيب ، قال جستنيان متعجبا في زهو يتسم بالتقى والورع : « المجد لله الذي قدر أني جدير بانجاز هذا العمل العظيم •• لقد جاوزت فيه قدرة سليمان وتفوقت عليه » • ولكن زلزالا دمر الجانب الشرقي من القبة أودى بزهو سليمان الرومان وغروره ، قبل أن ينقضي على البناء عشرون عاما • فأعيدت للكنيسة فخامتها ورواؤها بفضل مثابرة الأمير نفسه ، وفي السنة السادسة والثلاثين من حكمـه احتفل جستنيان للمرة الثانية بتدشين معبد ما يزال ـ بعد مرور اثني عشر قرنا ـ أثرا عظيما شاهدا على عظمته ، وقلد سلاطين الأتراك عمارة أيا صـوفيا التي تحـولت الى المسـجد الرئيسي في المدينـة ، وما يزال هذا الموقع الجليل يثير أشد اعجاب اليونانيين كما يثير حب استطلاع أكثر تعقلا في نفوس السائحين الأوربيين • وقد يبعث الخيبـة في نفس المشاهد ما يرى من منظر شاذ لأنصاف قباب وسقوف منحدرة ، فالواجهة الغربية ـ أي المدخل الرئيسي ـ خال من البساطة والعظمة ، ولقد فاقت عدة كنائس لاتينية هذا المبنى كثيرا في نسب أبعاده ومساحاته • ولكن المهندس الذي شاد لأول مرة هذه القبة الصاعدة في الهواء الى علو شاهق يستحق الثناء والمديح من أجل تصميمه الجريء وتنفيذه البارع • لقد بنيت قبة أيا صوفيا التي ينفذ اليها الضوء من أربع وعشرين نافذة بانحناء بسيط ، بحيث ان عمقها يبلغ سدس محيطها فقط • ويبلغ هذا القطر نحو مائة وخمسة عشر قدما • أما جزؤها الأوسط الشاهق الذي حل فيه الهلال محل الصليب ، فانه يرتفع عموديا الى نحو مائة وثمانين قدما فوق الأرضية • أما الدائرة التي تحيط بالقبة فانها تستند استنادا خفيفا على أربعة عقود متينة ، تدعمها أربع ركائز (خوازيق) قوية صماء ، يزيد من متانتها ، في الجهتين الشمالية والجنوبية أربعة أعمدة من الجرانيت

المصرى • ويمثل صليب منقوش فى شكل رباعى شكل المبنى : عرضه بالدقة مائتان وثلاثة وأربعون قدما ، أما أقصى الطول فيبلغ مائتين وتسعة وستين قدما : من المذبح الى الأبواب التسعة الغربية التى تفتح على المدخل ومن هنا الى الرواق الخارجى • وكان هذا الرواق مأوى متواضعا للتائبين الذين جاءوا يكفرون عن خطاياهم أما حرم الكنيسة فكان يعج بجمهور المؤمنين • وفى شىء من الفطنة والحكمة أفرد لكل من الجنسين مكان خاص به ، وخصصت الشرفات العليا والسفلى لمن أراد من النساء الخلوة للتعبد • ووراء الأعمدة الضخمة الشمالية والجنوبية كان هناك جلفق (درابزين) وضع فى نهاية طرفيه كرسى البطريرك وعرش الامبراطور ، وكان هذا الدرابزين يفصل بين حرم الكنيسة وبين فرقة الترانيم ، ومن هذا المكان حتى المدرجات التى توصل الى المذبح كان يجلس رجال الدين والمرتلون • أما المذبح نفسه ، وتلك لفظة ألفتها أسماع المسيحيين بطريقة غير ملحوظة ، فكان يقع فى فتحة فى الجهة الشرقية ، وكان مبنيا على شكل نصف دائرة بطريقة فنية بارعة ، وكان قدس الأقداس يتصل ، عن طريق عدة أبواب ، بحجرات المقتنيات والملابس المقدسة والتعميد ، وبعبارة موجزة كانت هذه الأبنية المتلاصقة وقفا على جلال العبادة أو الاستعمال الخاص للقساوسة ، وأوحت الكوارث الغابرة الى جستنيان بفكرة صائبة استقر رأيه على الأخذ بها ، تلك هى ألا تدخل الأخشاب الى العمارة الجديدة الا لصنع الأبواب فحسب ، أما اختيار مواد البناء الأخرى فكان رهنا بما تقتضيه أجزاء المبنى من متانة أو خفة أو فخامة ورواء • وكانت الركائز (الخوازيق) الضخمة التى تحمل القبة مصبوبة من كتل كبيرة من الحجر الصوان مشدودة بأطواق من الحديد ، منحوتة فى أشكال مربعة أو مستطيلة ، مثبتة تثبيتا محكما بمزيج من الرصاص والجير الحى • وكان يقلل من ثقل القبة خفة المادة التى بنيت منها : وهى الحجر الخفاف الذى يطفو على الماء ، أو الطوب الذى جىء به من جزيرة رودس ، وهو نوع لا يصل ثقله لأكثر من خمس ثقل النوع العادى وكان المبنى كله مشيدا من الطوب ، ولكن كسيت هذه المادة الأساسية بطبقة من الرخام • وان هذه الصورة الجميلة الفاخرة المزركشة – صورة أيا صوفيا من الداخل ، والقبة الكبرى والقبتين النصفيتين الكبيرتين والقباب الست النصفية الصغرى ، والأسوار والأعمدة المائة والأرضية – تسر الناظرين حتى من المتبربرين •

ويعدد شاعر شاهد كنيسة أيا صوفيا فى بهائها الأول – يعدد ما رأى من الألوان والظلال ، والأجزاء المكسوة بالرخام وحجر اليشب والفسيفساء فى مجموعات تتكون من عشر قطع أو اثنتى عشرة قطعه

منها ، مما جادت به الطبيعة في سخاء وتنوع · وبدا فيها التناسق والتباين وكأنهما من ابداع ريشة مصور ماهر · وازدانت الكنيسة ، ـ وهي رمز غلبة المسيحيين ـ بآخر ما غنموا من الوثنيين من اسلاب · ولقد قطع الجزء الأكبر من هذه الأحجار من محاجر آسيا الصغرى وبلاد اليونان وجزرها ، ومصر وإفريقية والغال · وقدمت سيدة رومانية ورعة ثمانية أعمدة من الفسيفساء كان أوريليان قد وضعها في « معبد الشمس » · وأهدى حكام أفيسوس المتحمسون الطموحون ثمانية أخرى من الرخام الأخضر ، وكانت هذه وتلك موضع اعجاب لحجمها وجمالها ، ولكن أي فن من فنون العمارة لابد أن ينفر من تيجانها الغريبة الشكل · وصنعت ـ صناعة عجيبة ـ مجموعة من الزخارف والرسوم من « الموزاييك » وتعارضت مع خرافة اليونان ، بشكل خطير ، صور المسيح والعذراء والقديسين والملائكة ، تلك الصور التي أزالها الأتراك نتيجه لتعصبهم وكان نصيب كل صورة من هذه الصور من الأحجار الكريمة يتفق مع قدر قدسيتها ، فأصابت هذه قشورا رقيقة ، وأصابت تلك قطعا ضخمة من تلك الأحجار الكريمة · وكان حاجز فرقة المرتلين وتيجان الأعمدة وزخارف الأبواب والشرفات ، مصنوعة من البرونز المذهب · وكان بريق القبة يبهر الأبصار · وكان في المحراب ما زنته أربعون ألف رطل من الفضة ، اما الأواني المقدسة وملابس الكهنة فكانت من الذهب الخالص الموشى بأثمن الجواهر · وقبل أن يرتفع مبنى الكنيسة عن الأرض قدر ذراعين ، كان قد أنفق بالفعل خمسة وأربعون ألفا ومائتا جنيه ، أما جملة التكاليف فقد بلغت ثلاثمئة وعشرين ألف جنيه ولكل قارىء ، تبعا لدرجة تصديقه ، أن يقدر هذه القيمة بالذهب أو الفضة ولكنها لا تقل بحال من الأحوال عن مليون من الجنيهات الاسترلينية (١) · وربما كان المعبد الفخم شاهد صدق على ذوق الأمة وديانتها ، وربما ذهبت الغيرة بالمتحمس لدينه ـ اذا دخل قبة أيا صوفيا ، الى حد القول بأن هذه القبة مقر الله أو أنها من صنع يديه ، ولكن ما أتفه هذا الفن ، وما أهون هذا الجهد ، اذا قيسا بخلق أحقر حشرة تزحف على سطح هذه الكنيسة !! ·

وقد يجدي الوصف الدقيق لهذه العمارة ـ أيا صوفيا ـ التي أضفى عليها الزمن مجدا وجلالا ليكون شاهد صدق على ما لا يجحى

(١) جاء في صحيفة ٣٢٥ ـ المجلد الرابع ـ من كتاب تاريخ العالم الذي نشرته وزارة التعليم العالي بالقاهرة ، في مقال الاستاذ بريس عن القسطنطينية وعصر جستنيان ، أن أحد المؤرخين ذكر أن تكاليف بناء كنيسة أيا صوفيا وثمن الاثاث بلغت رقما لا يصدقه العقل وهو ١٤ مليونا من الجنيهات الانجليزية ـ (الترجمة) ·

من الأبنية التى شادها جستنيان فى العاصمة والولايات ، على مقياس أصغر وأساس أقل متانة ، وليبرر العلاقة بينها ، فقد أقام تمجيدا للمسيح والعذراء والقديسين ، فى القسطنطينية وضواحيها الغربية خمسا وعشرين كنيسة ، زينت معظمها بالرخام والذهب واختيرت مواقعها اختيارا حسنا فى حى آهل بالسكان أو غابة لطيفة ، أو قريبا من شاطىء البحر ، أو على مرتفع من الأرض يشرف على أوربا وآسيا · ويبدو أن كنيسة « الرسل المقدسين » فى القسطنطينية ، وكنيسة القديس جون فى أفيسوس قد صممتا على نفس الطراز ، فقد ارتفعت قبابهما تحكى قبة أيا صوفيا ؛ ولكن المذبح فى كل منهما وضع بشكل أكثر احكاما تحت الجزء الأوسط من قبة · فى نقطة اتصال أربعة من الأروقة الفخمة · ومثلت الصليب اليونانى بصورة أدق ، وربما اعتزت عذراء أورشليم بالمعبد الذى نذره الامبراطور لاسمها فى بقعة غير ملائمة الى أبعد حـد لا من حيث سعة المكان ، ولا من حيث المواد التى يجب توافرها للمهندس ، وقد هيىء لها الموقع بتعلية جزء من واد سحيق الى ارتفاع الجبل ، ونحتت الأحجار من محجر مجاور فى أشكال منتظمة ، ووضع كل منها على عربة يجرها أربعون من أقوى الثيران ، ووسعت الطرقات لمرور مثل هـذه الأثقال الضخمة · وزود أرز لبنان الكنيسة بما يلزمها من أخشاب واكتشف فى الوقت المناسب محجر للرخام الأحمر ، فأخذت منه الأعمدة الجميلة ، وقيل ان العمودين اللذين يحملان الرواق الخارجى ، هما أضخم ما فى العالم من أعمدة · واذا كان الامبراطور قد أغدق بسخاء مقرون بالورع خيراته وكرمه على الأراضى المقدسة ، واذا كان العقل لا يقر الأديرة التى بناها الامبراطور أو جدد بناءها لكل من الجنسين ، فان حب الخير أو البر ليتجلى فى الآبار التى حفرها والمستشفيات التى أنشأهـا للتخفيف من ويلات الحجاج · واذا كان الشقاق الدينى فى مصر قد حجب عنها كرم الامبراطور وسخاءه ، فقد بذلت بعض المعونات فى سوريا وأفريقية لعلاج آثار الكوارث والزلازل ، وحق لقرطاجة وأنطاكية أن تمجدا اسم الامبراطور المحسن الكريم الذى مد اليهما يد المساعدة · وكان الأمر يصل الى تشييد معبد لكل قديس فى سجل القديسين ، وكادت كل مدينة فى الامبراطورية ، تكون قد حظيت بالمرافق الثابتة من قناطر ومستشفيات وخزانات للمياه · ولكن الامبراطور أبى عليه سخاؤه الحازم الحكيم أن يهيىء لرعاياه مجال الانغماس فى الترف الشعبى المألوف · ترف الحمامات والمسارح والملاهى · وبينما جهد جستنيان وكد فى توفير الخدمات العامة للشعب ، نجد أنه لم يهمل العنـاية بمكانته وتوفير أسـباب الراحـة والعظمة لشخصه · فان قصر بيزنطة الذى كان قد دمره الحريق ، جدد بناؤه مع مزيد من الفخامة والروعة ، وقد يكون من الميسور تكوين فكرة عن المبنى بأسره

من المدخل أو البهو الذى أطلق عليه « النحاسي » نسبة الى جدرانه أو سقفه · وكان له قبة كبيرة ذات شكل رباعي تقوم على أعمدة ضخمة ، وكانت الأرضية والحوائط مكسوة برخام متعدد الألوان ، مثل اللون الزمردى الأخضر الوارد من لوكونيا ، أو الأحمر القانى ، أو الأبيض الوارد من فريجيا ، مجزعة كلها بعروق فى لون خضرة البحر · وكانت نقوش الموزاييك فى القبة وعلى الجوانب تمثل الانتصارات الرومانية فى أفريقيا وايطاليا · وأعد قصر جيروم الفخم وحدائقه الواقعة على الشاطىء الآسيوى لبحر مرمرة على بعد مسافة قصيرة من خلقدونية شرقا ـ أعد ليكون مقرا صيفيا لجستنيان ، وبصفة أخص للامبراطورة تيودورا · وكم أطنب شعراء العصر فى وصف الانسجام النادر المثال بين الطبيعة والفن ، وحوريات الأحراش ، والنافورات والأمواج ، ومع ذلك كانت حشود الأتباع الذين جاءوا فى ركاب البلاط تشكو من عدم توفر وسائل الراحة فى الأماكن التى أعدت لاقامتهم ، كما أن الحوريات كثيرا ما تولاها الفزع من « بورفيريا Porphyria » وهو حوت عرضه عشرة أذرع وطوله ثلاثون ذراعا ، يقال انه ارتطم بالشاطىء عند مصب نهر سانجارس Sangaris بعد أن نشر الرعب والفزع فى بحار القسطنطينية أكثر من نصف قرن من الزمان ·

القضاء على مدارس أثينا

قضى جستنيان على مدارس أثينا وعلى وظيفة القنصل فى روما ، وكم أخرجت هذه وتلك للعالم من حكماء وأبطال ! ولابد من القول بأنهما كانتا قد هبطتا منذ زمن طويل دون مكانتهما الرفيعة الأولى ، ولكن لابد كذلك من القاء بعض اللوم بحق على الأمير الذى دمر بيديه تلك البقايا أو المعالم المجيدة ، نتيجة لجشعه وحقده ·

احتضنت أثينا بعد انتصاراتها على الفرس ، فلسفة أيونيا وبلاغة صقلية ، وأصبحت هذه الدراسة تركة لمدينة لم يتجاوز عدد سكانها ثلاثين ألفا من الرجال ، تركزت فيهم على مدى جيل واحد عبقرية العصور والملايين · وانا لنزداد احساسا بعظمة الطبيعة البشرية اذا تذكرنا أن ايسوقراط Isocrates كان زميل أفلاطون وزينوفون ، وأنه عاون ، وربما مع المؤرخ ثيوكيديديس ، فى العروض الأولى لرواية سوفوكليس « أوديب » ورواية « يوريبيديس » : ايفيجنيا Iphigenia وأن تلميذيه أسكينز Aeschines وديموستين تنازعا قصب السبق فى مضمار الوطنية فى حضرة أرسطو أستاذ ثيوفراتوس Theophratus الذى علم فى

مدارس أثينا مع مؤسسى المذهبين الرواقى والأبيقورى • ونعمت أتيكا فى عصر شبابها البرىء بمزايا تعليمهما المحلى الذى كان ينتقل دون ما حقد أو حسد الى المدن المتنافسة • واستمع الى دروس ثيوفراتوس آلاف من التلاميذ ، ولابد أن مدارس البيان والبلاغة كانت أكثر اكتظاظا من مدارس الفلسفة ، فنشرت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ شـهرة معلميهم ، الى آخر ما وصلت اليه لغة الاغريق واسمهم من حدود ، واتسعت هذه الحدود نتيجة لانتصـــارات الاسكندر ، فعاشت فنون أثينا بعد زوال حريتها وانقضاء ملكها • وكثيرا ما حج أهل المستعمرات اليونانية التي أنشأها المقدونيون في مصر ، وهنا وهناك فى آسيا ـ نقول حج هؤلاء ، في رحلات طويلة ، ليعبدوا ربات البلاغة والآداب والفنون في معبدهن المفضل الواقع على ضفاف نهر اليسوس Ilissus • وأصغى الغزاة اللاتين الى تعاليم رعاياهم وأسراهم • وسجل اسم كل من شيشرون وهوراس فى مدارس أثينا ، وبعد أن استقرت الامبراطورية الرومانية بات مواطنو ايطاليا وأفريقيا وبريطانيا يتبادلون الحديث مع أقرانهم طلبة الشرق فى حدائق الأكاديمية (الجامعة) • ان دراسات الفلسفة والبلاغة لتلتئم كل الالتئام مع دولة شعبية تشجع حرية البحث ولا تستسلم الا لقوة الاقناع • وكان فن الكلام فى جمهوريات اليونان وروما أداة قوية للوطنية والطموح • وأنجبت مدارس البلاغة مجموعة من رجال السياســـة ومن المشرعين • فلما قضى على حرية المناقشة ، عمد الخطيب الذي يشتغل بالمهنة الشريفة ، مهنة المحاماة ، الى الدفاع عن قضية البراءة والعدالة • وربما أساء استغلال مواهبه في عملية تدر ربحا أكثر ، هي كيل المديح والاطراء • وبقيت نفس التعاليم توحي الى السفسطائي بخطاباته المؤثرة المليئـة بزخرف القول ، والى المؤرخ بكتاباته التاريخية التي تتسم بمحسنات أبسط وأكثر عفة • ان المذاهب التي أعلنت أنها تكشف عن طبيعة الله والانسان والكون أثارت فضول دارس الفلسفة ، وان الأمر هنا ليختلف باختلاف المزاج العقلى لكل دارس ، فلربما تشكك مع المتشككين ، أو استقر رأيه مع الرواقيين ، أو ســـما بتأملاته مع أفلاطون ، أو جادل جدالا مضنيا مع أرسطو ، وكانت المذاهب المتعارضة المتعالية قد وضعت للسعادة الروحية والكمال الروحى مستوى لا يمكن بلوغه ، ولكن السباق كان رائعا نافعا • فقد تعلم تلاميذ زينون ، بل حتى تلاميذ ابيقور أن يجدوا وأن يكابدوا ، ولم يكن موت بترونيوس أقل أثرا من موت سينيكا فى اذلال أحد الطغاة باكتشاف عجزه • وما كان من الميسور حصر نور العلم بين جدران أثينا • ذلك أن كتابها المنقطعى النظير كانوا يخاطبون الجنس البشرى بأسره • ورحل المعلمون الباقون على قيد الحياة الى ايطاليا وآسيا • واختصت بيروت ، فى عصر متأخر ، بدراسة القانون ، كما أنشئت دراسة الطبيعة

دلالة لا نقض فيها ولا ابرام على قلب لم يعمر بالايمان ، والفلسفة فى أتيكا بقيت محتفظة بسمو مكانتها وتفوق شهرتها منذ حروب البلوبونيز الى عهد جستنيان ، ولقد تمتعت أثينا ، رغم وقوعها فى واد غير ذى زرع ، بطيب الهواء وسهولة المواصلات البحرية ، وآثار الفن القديم · وقلما كدرت مهام التجارة والحكومة صفو هذه الخلوة المقدسة · وتميز كل الأثينيين بالذكاء المتوقد ، ونقاوة الذوق واللغة ، والآداب الاجتماعية ، وبآثار من الشهامة على الأقل فى الحديث ، مما كان يعرف به أجدادهم · وقامت فى ضواحي المدينة أكاديمية الأفلاطونيين ، ومدرسة (ليسيوم) المشائين ، وحلقة الرواقيين · وحلقة الابيقوريين ، وكانت كلها مكسورة بالأشجار مزدانة بالتماثيل · ولم يكن الفلاسفة يقبعون فى أديرة ، بل كانوا يلقون تعاليمهم ودروسهم متنقلين فى هذه المسالك الفسيحة البهيجة ، في ساعات مخصصة لرياضة العقل والجسم معا · وعاشت عبقرية المؤسسين الأولين فى هذه الأماكن الوقورة · وخلق التطلع الى خلافة أساتذة البشرى بين الطامحين فيها منافسة كريمة شريفة ، ولكن الرأى الحر للشعب المستنير هو الذى كان يحدد أو يقرر أهلية المرشحين للفوز بهذه الخلافة ، اذا خلا مكان · وكان التلاميذ يأجرون أساتذتهم الأثينيين ، تبعا لحاجات الطرفين وقدراتهما · ويبدو أن هذا الأجر كان يتراوح بين Mina (أى ما يعادل نحو ثلاثة جنيهات انجليزية و Talent أى نحو عشرين جنيها انجليزيا) · وتقاضى ايسوقراط الذى كان يسخر من جشع السفسطائيين نحو ثلاثين جنيها من كل تلميذ من تلاميذه المائة فى مدرسة البلاغة · ولا ريب فى أن الأجر عن العمل عادل ومشرف ، ولكن ايسوقراط نفسه ذرف الدمع عندما تسلم أول أجر أو راتب · وربما احمرت وجنتا الرواقي خجلا حين كان يستأجر ليعظ الناس في احتقار المال والثراء · وكم شعرت بالأسى والأسف عندما تبينت أن أرسطو أو أفلاطون انحطا عن المثل الذى ضربه سقراط ، حيث كانا يبيعان المعرفة بالذهب · ولكن القوانين ووصايا الأصدقاء المتوفين كانت تبيح وقف بعض الأراضى والدور على كراسي الفلسفة فى أثينا · وأوصى ابيقور لتلاميذه بالبساتين التى كان قد اشتراها بثمانين تالنت أى بنحو مائتين وخمسين جنيها ، مع مبلغ من المال كاف لاعاشتهم معيشة مقتصدة ، ولحفلاتهم الشهرية ، أما تركة أفلاطون فكانت تدر ايجارا سنويا زاد فى مدى ثمانية قرون من ثلاث قطع الى الف قطعة ذهبية · ولقد رعى أحكام الأباطرة الرومان وأفاضلهم مدارس أثينا وحافظوا عليها · وكانت المكتبة التي أسسها هادريان قائمة فى رواق مزدان بصور وتماثيل وسقف من المرمر ، على مائة عمود من رخام فريجيا · واقتضت أريحية الانطونينيين وكرمهم تخصيص مرتبات عامة · وكان كل أستاذ فى السياسة والبلاغة ،

أو فى مدرسة أفلاطون أو فى مدرسة المشائين ، أو الرواقيين للفلسفة ، يتقاضى راتبا سنويا قدره عشرة آلاف دراخمة ، أى أكثر من ثلاثمئة جنيه استرلينى • وبعد موت ماركوس ألغيت الامتيازات والمنح السخية المخصصة لملوك العلم والمعرفة ، ثم أعيدت وأنقصت ثم زيدت • ولكننا قد نجد لهذه المنحة الملكية أثرا باقيا فى عهد خلفاء قسطنطين • ولكن التحكم فى اختيار ، وان شئت فى فرض مرشح غير أهل للأستاذية ، ربما كان مدعاة لأسف فلاسفة أثينا وحزنهم على أيام الإستقلال مع الفقر والفاقة • وتجدر الاشارة هنا الى أن الأباطرة الأنطونيين كانوا يولون مدارس الفلسفة الأربع على اختلاف مذاهبها عطفهم دون تحيز الى فئة دون فئة ، حيث اعتبروها نافعة ، أو على الأقل بريئة ، على قدر سواء • وكان ينظر الى سقراط فى غابر الأيام على أنه مجد وفخار ، وسبة لبلده • ولقد آذت دروس أبيقور الأولى آذان الأثينيين بدرجة غريبة ، الى حد أنهم ، بعد أن نفوه هو ومعارضيه ، أسكتوا المناقشات العقيمة التى كانت تدور حول طبيعة الآلهة • ولكنهم فى السنة التالية تذكروا القرار الذى تعجلوا اتخاذه ، وأعادوا لمدارس الفكر حريتها ، وأقنعتهم خبرة الزمن بأن الطابع الخلقى للفلاسفة لا يتأثر بتعارض تأملاتهم فى المسائل اللاهوتية •

وكانت حراب القوط وأسلحتهم أقل خطرا على مدارس أثينا من اقرار دين جديد عطل رجاله استخدام العقل والمنطق ، وقضوا فى كل مسألة بحكم من أحكام العقيدة ، وتوعدوا كل كافر متشكك بعذاب النار وسوء المصير • وكم سطروا من مجلدات حشوها بالجدل المضنى ، وشهروا فيها بضعف عقول الحكماء القدامى وفساد قلوبهم ، وجرحوا طبيعتهم البشرية وحرموا روح البحث الفلسفى ، وهو أمر بغيض بالنسبة لعقيدة المؤمن المتواضع أو على الأقل لطبعه ومزاجه • وأسرف الأفلاطونيون المحدثون ، الذين كان من الجائز أن يخجل أفلاطون نفسه من الاعتراف بهم ، نقول أسرفوا فى خلط نظرية أفلاطون السامية بممارسة الخرافة والسحر ، وبقوا وحدهم وسط العالم ، المسيحى ، وهم يطوون صدورهم على حقد دفين على رجال الكنيسة والدولة اللتين كان بطشهما لا يزال مسلطا فوق رءوسهم ، وبعد مضى قرن من الزمان على عصر جوليان رخص لبروكلوس فى شغل كرسى الفلسفة بالأكاديمية ، وبلغ من نشاطه وجده أنه كثيرا ما كان يلقى خمسة دروس ويدبج سبعمائة سطر فى اليوم الواحد • وارتاد ذهنه الخصيب أعوص قضايا الأخلاق والميتافيزيقا ، وتجاسر على اثارة ثمانى عشرة حجة ضد نظرية خلق العالم فى المسيحية • ولكنه كان فى أوقات الدراسة يناجى شخصيا « بان ، وأسكولابيوس ،

ومينرفا » (من آلهة اليونان) الذين تلقن أسرارهم خفية ، والذين عبد تماثيلهم المحطمة ، مع اقتناع مخلص بأن الفيلسوف الذى هو أحد مواطنى الكون يجب أن يكون كاهنا لكل معبوداته وآلهته • وقد آذن كسوف الشمس بدنو أجله • وأن « سيرة حياته » مع تلميذه ايزيدور ـ وقد دونها اثنان من أغزر تلاميذهما علما ـ لتكشف عن صورة محزنة كئيبة للطفولة الثانية التى ينحدر اليها العقل الانسانى • ولكن السلسلة الذهبية ـ كما كان يلذ للناس تسميتها ـ لخلفاء أفلاطون (فى مدرسته) استمرت أربعة وأربعين عاما ، من بعد وفاة بروكلوس الى وقت صدور مرسوم جستنيان الذى قضى على مدارس أثينا بالصمت البليغ الى الأبد ، وأهاج حزن البقية الباقية من أنصار علم الاغريق وخرافتهم ، وأثار استياءهم ، فاستقر رأى سبعة من الفلاسفة الأصدقاء ـ هم ديوجين Diogenes وهرمياس Hermias ، يولاليوس Eulaluis ، برسكيان Priscian ، دماسكيوس Damascius ، ايزيدور Isidore ، وسمبليكيوس Simplicius ، الذين خرجوا على دين مليكهم ـ استقر رأيهم على اللجوء الى بلد آخر سعيا وراء الحرية التى أنكرها عليهم وطنهم • وكانوا قد سمعوا وصدقوا فى سذاجة أن جمهورية أفلاطون قد تحققت فى حَمْوة الفرس الاستبدادية المطلقة ، وأن ملكا محبا لوطنه قد تولى مقاليد الحكم فى أمة هى أسعد الأمم وأكثرها فضيلة ، وسرعان ما عرتهم الدهشة اذ تبينوا بصورة طبيعية أن فارس لم تكن تشذ عن سائر بلاد المعمورة ، وان خسرو الذى انتحل اسم الفيلسوف كان ملكا مغرورا قاسيا شرها ، وأن طائفة الكهنة هناك كان يسيطر عليهـا التعصب وروح التزمت ، وأن النبلاء كانوا غلاظا متغطرسين ، ورجال البلاط أذلاء أدنياء ، والقضاة ظالمين جائرين ، فأفلت المجرمون أحيانا ، وعانى الأبرياء من الظلم كثيرا • وأدى اليأس وخيبة الأمل بهـؤلاء الفلاسفة الى اغفـال الفضائل الحقيقية عند الفرس وآذى شعورهم أكثر كثيرا مما يقتضى مقام مهنتهم ما رأوا من تعدد الزوجات والخليلات ، وزواج المتعة ، وعادة تعريض جثث الموتى للكلاب والطيور الجارحة بدلا من مواراتها التراب أو حرقها ، وتجلى ندمهم فى عودتهم السريعة الى أرض الوطن حيث أعلنوا بصوت عال أنهم انما يؤثرون أن يموتوا على حـدود الامبراطورية ، على أن يتمرغوا فى ثروة المتبربرين وعطفهم • ومهما يكن من أمر فقد جنوا من رحلتهم هذه فائدة تلقى ألمع الضوء على شخصية خسرو ، فقد طلب اعفاء الحكماء السبعة الذين زاروا بلاط فارس من العقوبات التى فرضهـا قانون جستنيان ضـد رعاياه الوثنيين • ونص على هذه الميزة بصراحة فى بند من بنود معاهدة الصلح التى أشرف على تنفيذها وسيط قوى يقظ • وأمضى سمبليكيوس ورفاقه بقية حياتهم هادئين مغمورين • ولما لم يتركوا وراءهم تلاميذ ، فانهم

يختمون الثبت الطويل للفلاسفة الاغريق الذين يمكن تمجيدهم بحق ، بوصفهم رغم نقائصهم ، أعقل وأفضل معاصريهم • وما تزال كتابات سمبليكيوس باقية • وذهبت هباء تبعا لروح العصر ، تعليقاته الطبيعية والميتافيزيقية على أرسطو ، ولكن تفسيره الأخلاقي لفلسفة ابكتيتوس Epictitus احتفظ به في مكتبات العالم بوصفه تراثا قديما استخدم بشكل بارع لتوجيه الارادة وتنقية القلب ، وتثبيت العقل عن طريق الثقة الحقيقية بطبيعة الله وطبيعة الانسان •

القضاء على وظيفة القنصل الروماني

أقام بروتيس الأكبر صرح الحرية وأنشأ وظيفة القنصل في روما ، في نفس الوقت الذى ابتدع فيه فيثاغورس اسم الفيلسوف لأول مرة تقريبا • ويرد في الكتاب الذى بين أيدينا بين الحين والحين ، ذكر تطورات وظيفة القنصل التي يمكن تتبعها في أضواء مختلفة : من حقيقة مادية ملموسة ، الى ظل من الحقيقة ، الى مجرد لقب أجوف •• وكان الشعب يختار حكام الجمهورية الأولين ليمارسوا في السناتو وفي المعسكر سلطات السلم والحرب التى انتقلت فيما بعد الى الأباطرة ، ولقد نظر الرومان والمتبربرون أمدا طويلا بعين الاجلال والتقدير الى التقليد الذى توارثوه ، ألا وهو هذه الوظيفة • وان أحد المؤرخين القوط ليمتدح قنصلية ثيودوريك بوصفها ذروة المجد والعظمة الدنيويتين • وان ملك ايطاليا نفسه ليقدم التهنئة الى أولئك الذين يسبعدهم الحظ مع كل عام جديد ليكونوا قناصل ، ينعمون بأبهة العرش دون همومه • وبعد ألف من الأعوام عين ملكا روما والقسطنطينية في كل منهما قنصلا ، لا لشيء الا لمجرد تحديد بدء العام ، واقامة مهرجان يشهده الشعب ولكن نفقات هذا المهرجان الذى تطلع فيه الموسرون والمغرورون الى أن يبزوا أسلافهم ، قفزت دون أن يحسبوا الى ثمانين ألف جنيه • ونبذ أعقل شيوخ السناتو هذا الشرف العقيم الذى انطوى على دمار محقق لأسراتهم • ولابد أن أنسب الى هذا الاحجام والنفور كثرة توقف المهرجان بتنصيب القناصل في آخر عهود القنصلية • وكان أسلاف جستنيان يساعدون من الأموال العامة في المحافظة على كرامة المرشحين الذين هم أقل يسرا وثراء • ولكن جشع هذا الأمير أدى به الى ايثار طريقة أقل نفقة وعناء للحصول على المشورة والتنظيم ، وأصدر مرسوما قصر فيه الاحتفالات على سبعة فقط : لسباق الخيل والعربات وللألعاب الرياضية ، وللموسيقى المسرح وتمثيلياته المضحكة ، ولصيد الوحوش الكاسرة : واستبدلت في حكمة القطع الفضية بالميداليات الذهبية التى كانت دائما تثير الشغب ونشوة

الخمر عندما تنثرها اليد السخية فى سرف بالغ على الجمهور ، ورغم هذه الاحتياطات ، ورغم المثل الذى كان يضربه هو نفسه ، فقد بطل تنصيب القناصـل نهائيا فى السنة الثالثة عشرة من حكم جستنيان الذى ربما أرضيت نزعة الاستبداد فيه بالقضاء قضاء صامتا على لقب ذكر الرومان بحريتهم القديمة • ولكن الذكرى السنوية لتنصيب القناصل ظلت حية فى أذهان الشعب ، وكانوا يتعجلون عودتهم فى لهف زائد ، وكم أثنوا على كرم الأمراء المتعاقبين الذين افترضـوا أنهم فى أول سنى حكمهم سيعيدون هذه الوظيفة ، ولكن انقضت بعد موت جستنيان ثلاثة قرون قبل أن يستطاع بحكم القانون الغاء هذه الوظيفة المهجورة التى كان قد قضى عليها • واستبدلت الطريقة المعيبة ، طريقة تمييز كل سنة باسم أحد الحكام ، بنظام آخر معين ، وذلك باتخاذ تاريخ عصر ثابت • فحدد الاغريق التاريخ ببدء الخليقة ـ كما جاء فى الترجمة اليونانية « للعهد القديم ـ » ، أما اللاتين ، منذ عصر شارلمان ، فقد بدأ حسابهم لزمانهم من مولد المسيح •

* * *

هناك ، الى جانب امجاد عصر جستنيان ، حدثان خطيران سيئان : أولهما تبذيره الاقتصـادى ، وثانيهما عجزه من الناحيتين اللاهوتيـة والسياسية عن التوفيق بين الولايات الشرقية والغربية • وكانت زوجته القديرة تيودورا يعقوبية المذهب (تعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة) وبعد وفاتها فى ٥٤٨ حاول جستنيان أن يسترضى العناصر اليعقوبية • ولو أنه أفلح فى ذلك لكان من الجائز أن يحتفظ بولاء الولايات الشرقية ، ولكن المذهب اليعقوبى كان فى الواقع قريبا من العقيدة الاسلامية ، الى حد أنه كان من السهل بل ومن المحتوم معا ، أن تنشق وتسقط هذه الولايات الشرقية ، عند ظهور الاسلام •

ويصف جيبون فى الفصـل الحادى والأربعين فتوحات جستنيان (٥٣٣ ـ ٥٤٠) • وسيطر جستنيان بفضل قائديه بليساريوس ونارسيس على الجبهة الشرقية ، واسترد من الوندال أفريقية وجزءا من أسبانيا • وأعاد البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى • وقضى بليساريوس على حكم القوط الشرقيين فى ايطاليـا ، واسترد روما ، وأفلح فى مقـاومة الحصـار الذى ضربه عليها القوط ، ومن ثم استطاع محاصرة رافنـا والاستيلاء عليها •

وفى الفصل الثانى والأربعين يروى جيبون قصة نشوء اللمبارديين ، وظهور السلاف والشعوب التركية •

الفصل الثالث والأربعون
(٥٤٦ ـ ٥٩٤)

آخر انتصارات بليساريوس وموته • أخلاق جستنيان وموته • المذنبات والزلازل والطاعون خلال حكم جستنيان

ثار القوط بقيادة توتيلا واستولوا على روما فى سنة ٥٤٦ • واستعادها بليساريوس ولكنها أخذت مرة ثانية بعد استدعائه • وفى سنة ٥٥٢ هزم الخصى نارسيس توتيلا ، وحرر روما • وبعد ذلك هزم خليفة توتيلا ، تياس ، آخر ملوك القوط ، وسحق غزوة قام بها الفرنجة والألمان • وجلس على عرش ملوك القوط نواب رافنا ، وهم ممثلو امبراطور القسطنطينية • وأصبح نارسيس نفسه أول نائب ، وحكم مملكة ايطاليا كلها أكثر من خمسة عشر عاما •

آخر انتصارات لبليساريوس وموته

بودى أن أصدق ، ولكننى لا أجرؤ على التأكيد ، بأن بليساريوس اغتبط فى اخلاص لانتصار نارسيس ، غير أن شعوره بمآثره هو نفسه ربما علمه أن يقدر ، دون شعور بالغيرة ، جدارة منافسه ، وتوجت راحة المحارب العجوز بانتصار أخير أنقذ الامبراطور والعاصمة • وكان المتبربرون الذين يرتادون سنويا ولايات أوربا ، لا تثبط من عزائمهم بعض الهزائم العابرة ، بقدر ما كان يثيرهم الأمل المزدوج فى النهب ، وفى المنح والاعانات • وفى الشتاء الثانى والثلاثين من عهد جستنيان كان الدانوب مغطى بطبقة سميكة من الجليد ، وقاد زابرجان فرسان البلغار وانضم تحت لوائه جمهور خليط من الصقالبة • وعبر الزعيم الشرس ، دون مقاومة ، النهر والجبال ، ونشر قواته فوق مقدونيا وتراقيا ،

وتقدم على رأس ما لا يزيد عن سبعة آلاف من الفرسان صوب سلسلة الأسوار الطويلة التى كان يجب أن تحمى اقليم القسطنطينية · غير أن ما يبنيه الانسان لا يجدى نفعا أمام هجمات الطبيعة : فقد حدث زلزال قبل ذلك بفترة وجيزة خلخل أساس الأسوار ، كما أن قوات الامبراطورية كانت مشغولة على الحدود البعيدة لايطاليا ، وأفريقيا وفارس · وكانت فرق المشاة السبع التى يتألف منها الحرس ، أو القوات الأهلية ، قد زيد عددها الى خمسة آلاف وخمسمائة رجل ، وكان مركزهم العادى فى مدن آسيا الهادئة · غير أن أماكن الأرمن الشجعان شغلها بصورة غير محسوسة مواطنون من الكسالى الذين اشتروا اعفاء من واجبات الحياة المدنيه دون أن يتعرضوا لأخطار الخدمة العسكرية · وقلة من أمثال هؤلاء الجنود كان يمكن اغراؤها على تجاوز أبواب المدينة فى هجومهم ، كما أنه كان مستحيلا أن يستمال أحد منهم الى البقاء فى الميدان الا اذا أعوزته القوة والسرعة للهرب من البلغار · وكانت الأخبار التى نقلها اللاجئون تبالغ فى أعداد العدو وفى قســوته وضراوته ، ذلك العدو الذى اعتدى على العذارى المقدسات ، وترك الأطفال الرضع للكلاب والطيـور الجارحة · وامتلأت المدينة بجمهور من سكان الريف يلتمسون الغذاء والحماية ، فزاد ذلك من حالة الذعر الســائدة فيها · ونصب زابرجان خيامه على مسافة عشرين ميلا ، على ضفاف نهر صغير يحيط بميلانثياس ثم يصب بعد ذلك فى بحر مرمرة · وكان جستنيان يرتعد خوفا ، وأولئك الذين لم يروا الامبراطور الا فى شيخوخته سرهم أن يعتقدوا أنه قد فقد نشاط شــبابه وقوته ، وأمر الامبراطور بنقل الأوانى الذهبية والفضـية من الكنائس القائمة فى مدينة القسطنطينية بل وفى ضواحيها · واصطف النظارة الواجفون الى جوار الاستحكامات ، وازدحم الباب الذهبى بالقواد والتربيونات التافهين ، وشــارك الســناتو شعب المدينة فى متاعبـه ومخاوفه ·

غير أن عيون الملك والشعب اتجهت فى ذلك الوقت نحو جنـدى محنك ضعيف الجسم اضطره الخطر الداهم الى ارتداء الدرع الذى كان يلبسه عندما دخل قرطاجة ودافع عن روما · وجمعت على وجه السرعة جيـاد الملك ، وجيـاد المواطنين ، بل وجيـاد السيرك ، وأشاع اســم بليساريوس المنافسة بين الكبار والصغار ، وأقيم أول معسكر له على مرأى من عدو ظافر منتصر · وبفضـل فطنته ، ومجهود الأصـدقاء من الفلاحين استطاع أن يحفر خندقا ويقيم سورا ضمن بهما الأمان والراحة خلال الليل ، وأشعلت النيران ، وأثيرت سحب من الغبار ، بصورة يتجلى فيها الدهاء ، لكى يضخم من قوته فى نظر العدو ، وانتقل جنوده من

حالة اليأس والقنوط الى حالة الجرأة والبسالة وبينما ارتفعت أصوات عشرة آلاف رجل تطلب خوض المعركة ، أخفى بليساريوس ما كان يدور بخلده من أنه ، عندما تحين ساعة الاختبار ، ينبغي أن يعتمد على عزم ثلاثمائة من قدامى الجنود المحنكين • وفى صبيحة اليوم التالى تقدم فرسان البلغار للهجوم ، غير أنهم سمعوا صيحات عدد كبير من الجنود وشاهدوا أسلحة مقدمة الجيش ونظامها ، وهاجمهم من الجناحين كمينان ظهرا من الغابات فسقطت طلائعهم على أيدى البطل العجوز وجنود حرسه ، وأصبحت سرعة دورانهم عديمة الأثر أمام هجوم الرومان المتلاحق وسرعة مطاردتهم ، وفى هذه العملية لم يفقد البلغار الا أربعمائة من الفرسان (اذ كان فرارهم غاية فى السرعة) ، غير أن القسطنطينية نجت من الخطر ، وشعر زابرجان بسطوة خصمه وطول باعه ، فانسحب الى مسافة بعيدة تدل على احترامه له • غير أن أصدقاءه كانوا كثيرى العدد فى مجالس الامبراطور ، وامتثل بليساريوس كارها لأحكام الحقد وأوامر جستنيان التى منعته من تحقيق خلاص بلاده • وعند عودته الى المدينة ، كان الناس لا يزالون يحسون بالخطر المحدق بهم ، فقابلوا ظفره بأصوات الفرح وعرفان الجميل واعتبر ذلك جريمة اقترفها القائد المنتصر • وعندما دخل القصر وجد رجال الحاشية صامتين ، وبعد أن عانقه الامبراطور عناقا فاترا لا أثر فيه للشكر وعرفان الجميل ، سمح له بالانصراف لينضم الى صفوف الأرقاء • غير أن عظمة بليساريوس كانت عظيمة الأثر على عقول الناس الى درجة أن جستنيان ، وهو فى السابعة والسبعين من عمره وجد من الشجاعة ما دفعه الى قطع مسافة تقرب من أربعين ميلا من العاصمة ليشاهد بنفسه استرجاع السور الطويل الذى كان يحمى العاصمة • وأضاع البلغار ذلك الصيف فى سهول تراقيا ، ولكنهم أصبحوا نزاعين الى الصلح بسبب فشل محاولاتهم المتهورة فى اليونان وكرسونيسيوس • وتلقوا تهديدا بقتل أسراهم ، فسارعوا بدفع فدية ضخمة ، وعجل برحيل زابرجان ذلك النبأ الذى بلغه من أن سفنا مزدوجة المقدمة قد بنيت فى نهر الدانوب لاعتراض طريقه • وسرعان ما نسى الناس الخطر ، وثار على ألسنتهم سؤال تافه عما اذا كان مليكهم قد كان أكثر حكمة أو ضعفا فى تصرفه نحو بليساريوس ، وأصبح ذلك السؤال مصدر تسلية المدينة الخاملة •

وبعد انقضاء سنتين على آخر انتصار أحرزه بليساريوس ، عاد الامبراطور من رحلة الى تراقيا قضاها فى الاستشفاء ، أو العبادة • وكان جستنيان يعانى من ألم فى رأسه ، وأيد دخوله المدينة سرا اشاعة موته • وقبل أن تحين الساعة الثالثة من اليوم نهب الخبز من حوانيت

الخبازين وأغلقت المنازل ، وتاهب كل مواطن ، بدافع من الفزع أو الأمل ، لما ينتظر من شغب وشيك الوقوع . ودعى أعضـــاء السناتو أنفسهم للاجتماع فى الساعة التاسعة وهم فى حالة خوف وريبة ، وتلقى الوالى أوامرهم بزيارة كل حى فى المدينة لكى يعلنوا للناس جميعا ما يوضح ان الامبراطور بخير وقد استرد صحته . وبهذا هدأ الهياج ، غير أن كل الاحداث كانت تنم عن عجز الحكومة ، وعن اتجاه الناس الى الشغب ، وكانت هناك بين الحراس نزعة الى التمرد كلما تغيرت ثكناتهم ، أو توقف دفع رواتبهم . وهيأت كوارث الحرائق والزلازل الكثيرة فرص الاضطراب ، وتفاقمت النزاعات بين الفرق الزرقاء والفرق الخضراء ، وبين الأرثوذوكس والهراطقة ، فتحولت الى معارك دموية ، واحمر وجه جستنيان خجلا من نفسه ومن رعاياه فى حضرة السفير الفارسي . وترتب على مغالاة الامبراطور فى العفو وتعسفه فى العقوبة أن اشتد ضيق الناس وتبرمهم بطول حكمه ، فحيكت ضده مؤامرة فى القصر ، وما لم نكن مخدوعين باسمى ماركيللوس وسرجيوس ، فان أكثر أعضاء الحاشية فضيلة ، وأشدهم استهتارا ، كانوا شركاء فى المخططات نفسها . وكانوا قد حددوا ساعة التنفيذ ، وسمحت لهم مراكزهم بحضور الوليمة الملكية ، ووضعوا عبيدهم السود فى بهو القصر وفى الأروقة لاعلان موت الطاغية ولاثارة فتنة فى العاصمة . غير أن رعونة أحد الشركاء فى المؤامرة أنقذت الفترة البائسة المتبقية من أيام جستنيان . فافتضح أمر المتآمرين ، وضبطوا بخناجر مخبأة تحت أرديتهم . فانتحر ماركيللوس ، وانتزع سرجيوس من المكان المقدس الذى لجأ اليه ، فما كان منه ، بدافع من الندم ، أو بأمل فى النجاة ، الا أن اتهم ضابطين من رجال بليساريوس ، وأرغمهما التعذيب على الاعتراف بأنهما تصرفا بمقتضى تعليمات سيدهم . وسوف لا تتسرع الأجيال المقبلة فى الاعتقاد بأن بطلا ، ازدرى وهو فى ريعان شبابه وعنفوان حياته أجمل عروض الطمع والانتقام ، يمكن أن ينحدر الى قتل مليكه الذى لم يكن يتوقع أن يعيش بعده طويلا . وكان أتباع بليساريوس يتلهفون على الفرار ، غير أن الفرار كان لابد أن تؤيده ثورة ، ولم يكن بليساريوس طامعا فى طول أجل أو نوال مجد ، فذهب أمام المجلس ساخطا حانقا أكثر منه هيابا وجلا . وكان الامبراطور قد حكم عليه مقدما ، بعد أن خدم بلاده أربعين عاما ، واكتسب هذا العمل الظالم قدسية بفضل حضور البطريرك وبفضل سلطته الدينية . وتكرم الامبراطور بالعفو عن حياة بليساريوس ، غير أن ثروته صودرت ، وظل هو نفسه سجينا تحت الحراسة فى قصره من شهر ديسمبر الى شهر يولية . وأخيرا ثبتت براءته وأعيدت اليه حريته وأمجاده ، غير أن الحزن والحنق ربما عجلا بموته ، ففارق الحياة بعد

ثمانية شهور من اطلاق سراحه • ولن يموت اسم بليساريوس أبد الدهر ، ولكنه بدلا من أن يشيع الى قبره ، وتقام له النصب والتماثيل ، بصورة تليق بذكراه ، فانني لم أقرأ عنه الا أن خزائنه التى اشتملت على أسلاب القوط والوندال قد صادرها الامبراطور بعد موته مباشرة ، وخصص جزء مناسب منها لأرملته أنتونينا Antonina ، ولما كانت أنتونينا قد فعلت فى حياتها الكثير مما تندم عليه ، فقد خصصت بقية حياتها وثروتها لتأسيس دير • هذه هى القصة البسيطة الصادقة لسقوط بليساريوس ، وجحود جستنيان • أما القصة التى تقول بأنه فقد بصره ، واضطره حقد أعدائه عليه الى التسول قائلا : « أحسنوا الى القائد بليساريوس » ، فهى قصة ظهرت فى عصور متأخرة ، ولقيت من يصدقها ، أو يحبذها ، كمثل عجيب لصروف الحظ وتقلباته •

أخلاق جستنيان وموته

اذا كان الامبراطور قد استطاع أن يغتبط لموت بليساريوس فانه لم ينعم بهذه المتعة الدنيئة الا ثمانية شهور فقط ، وهى الفترة الأخيرة من حكم دام ثمانية وثلاثين عاما ، ومن حياة طالت ثلاثا وثمانين سنة • وانه لمن الصعب أن نتتبع أخلاق ملك لم يكن أبرز الأشياء فى العصور التى عاش فيها ، غير أننا نستطيع أن نتقبل اعترافات عدو له على أنها أصدق دليل على فضائله • ويقال فى خبث انه يشبه التمثال النصفى للامبراطور دوميتيان مع الاعتراف ، رغم ذلك ، بأنه كان ذا جسم متناسب ، وبشرة وردية اللون ، وسحنة سمحة يرتاح لها النظر • وكان الامبراطور يفتح بابه للناس ، صبورا على الانصات ، مهذبا وبشوشا فى الحديث ، قادرا على التحكم فى الانفعالات الحادة التى تضطرم اضطراما مدمرا فى صدر حاكم مستبد •

وقد لامه المؤرخ بروكوبيوس على قسوته الهادئة المتعمدة ، وهو لوم يعتبر اطراء لطباعه ، غير أن حكما أكثر صراحة يستطيع ، فيما يختص بالمؤامرات التى حيكت ضد شخصه وسلطانه ، أن يوافق على عدالته ، أو يعجب برقته وشفقته • وكان ممتازا فى الفضيلتين الشخصيتين ، فضيلة العفة وفضيلة الاعتدال ، غير أن الحب المنزه عن الأغراض للجمال كان يمكن أن يكون أهون ضررا من حنوه الزوجى على تيودورا ، ولم يكن تحكمه فى غذائه الضعيف راجعا الى حكمة الفيلسوف بل الى خرافة الراهب • وكان مقلا فى الأكل ولا يقضى فيه وقتا طويلا ، وفى فترات

الصوم الرسمية كان يقنع بالماء والخضروات ، وكان من القوة والحماس بحيث أنه كثيرا ما كان يقضي يومين ، وليالي كثيرة دون أن يذوق طعاما . ولم يكن تحكمه في نومه أقل صرامة من تحكمه في طعامه ، فقد كان لا يستريح الا ساعة واحدة ، ثم يستقيظ جسده على نداء روحه ، ولشد ما كان يدهش أمناء القصر عندما يرونه سائرا أو منكبا على الدراسة حتى يلوح ضوء الصباح . ولقد أطال هذا الوضع القلق ما كان يخصصه من وقت لتحصيل المعرفة وانجاز الأعمال ، وربما استحق بصورة جدية ذلك اللوم الذى وجه اليه من أن تلك اليقظة الدقيقة البعيدة عن الصواب قد سببت ارتباكا فى النظام العام لادارته . وكان الامبراطور يدعى لنفسه الالمام التام بالموسيقى وفن المعمار ، وبالشعر والفلسفة ، وبالقانون واللاهوت . واذا كان قد أخفق في التوفيق بين الطوائف المسيحية ، فان تنقيحه للقانون الرومانى يعتبر أثرا نبيلا يدل على همته وجده . وكان فى حكم الامبراطورية أقل حكمة ، أو أقل نجاحا . فقد كان العصر منكودا ، والشعب مظلوما ومتذمرا ، وزوجته تيودورا تسىء استخدام سلطتها ، كما أنه ابتلى بوزراء سيئين ألصقوا بحكمه الخزى والعار ، ومن ثم فان جستنيان لم يكن محبوبا فى حياته ، ولم يأسف عليه أحد عند موته . وكان حب الشهرة عميق الجذور فى نفسه ، ولكنه تدلى الى الطمع الرخيص فى الألقاب ، والمظاهر الشرفية ، والاطراء الذى يكيله له معاصروه . ومع أنه كان يعمل جاهدا على نيل اعجاب الرومان الا أنه خسر تقديرهم ومحبتهم . وقد وضع فى جرأة خطة الحروب الأفريقية والايطالية ، ونفذها فى بسالة وشجاعة . ومكنته بصيرته النافذة من اكتشاف مواهب بليساريوس فى ميدان الحرب ، ومواهب نارسيس فى رحاب القصر . غير أن أسماء قواده الظافرين طغت على اسمه ، وما يزال اسم بليساريوس حيا يوجه النقد المرير الى ما اتسم به مليكه من حسد وجحود . والناس ينزعون نزوعا جزئيا الى الاشادة بعبقرية فاتح يوجه رعاياه الى ممارسة القتال ويقودهم فى الميدان ، غير أن شخصيتى فيليب الثانى وجستنيان تتسمان بذلك الطمع الذى يغتبط بالحرب ولكنه يأبى أن يخوض المعركة . ومع ذلك فهناك تمثال ضخم من البرونز يمثل الامبراطور على ظهر جواده متأهبا لملاقاة الفرس فى ثياب آخيلليس (١) وعدته . وفى الميدان الكبير أمام كنيسة أيا صوفيا رفع هذا الأثر على عمود

---

(١) البطل والمحارب الاغريقى فى الياذة هوميروس - (الترجمة) .

نحاسى وقاعدة حجرية ترتفع سبع درجات ، وأزال جشع جستنيان وغروره من المكان نفسه عمود تيودوسيوس ، الذى كان يزن سبعة آلاف وأربعمائة رطل من الفضة • ولقد كان الملوك الذين جاءوا بعده أكثر انصافا لذكراه ، أو أكثر تغاضيا عنها ، ففى بدء القرن الرابع عشر أصلح أندرونيكوس الأكبر تمثاله الراكب وجمله • فلما سقطت الامبراطورية صهره الترك الظافرون وحولوه الى مدافع •

المذنبـــــات

سوف أختتم هذا الفصل بذكر المذنبات ، والزلازل ، والطاعون ، وكلها أشياء نكب بها عصر جستنيان أو كانت مثارا لدهشته •

ففى السنة الخامسة من عهده ، وفى شهر سبتمبر ، شوهد مذنب فى الجانب الغربى من السماء طوال عشرين يوما ، وكان يرسل أشعته صوب الشمال • وبعد ذلك بثمانية أعوام ، وبينما كانت الشمس فى مدار الجدى ، ظهر مذنب آخر يسير فى مجموعة السهم • وكان حجمه يزداد شيئا فشيئا ، وكانت رأسه فى الشرق وذنبه فى الغرب ، وظل مرئيا أكثر من أربعين يوما • وتوقعت الأمم ، التى تولتها الدهشة لرؤية هذه المذنبات ، قيام الحروب ووقوع الكوارث نتيجة لتأثيرها الضار المؤذى ، وكثيرا ما تحققت هذه التوقعات • وأخفى الفلكيون جهلهم بطبيعة هذه النجوم المتوهجة المشتعلة ، التى تظاهروا بتصويرها على أنها شهب الهواء الطافية ، وقلة من بينهم أخذت بالفكرة البسيطة التى قال بها سينيكا والكلدانيون من أن هذه المذنبات لا تعدو أن تكون كواكب أطول بقاء وأكثر شذوذا فى حركتها • ولقد حقق الزمن والعلم ظنون الحكيم الرومانى وتنبؤاته ، فالمنظار المقرب فتح عوالم جديدة أمام أبصار علماء الفلك ، وفى الفترة القصيرة ، التى يصفها التاريخ وتذكرها الأساطير ، تكرر ظهور مذنب واحد بعينه فى جو الأرض فى سبع دورات متساوية استغرقت كل منها خمسمائة وخمسا وسبعين سنة وكان أول ظهور له قبل العهد المسيحى بألف وسبعمائة وسبع وستين سنة ، فى عهد أوجيجيز Ogyges أقدم شخصيات التاريخ اليونانى • وهو يفسر الرواية التى ورد ذكرها فى كتابات العالم والمؤلف الرومانى فارو Varro ، وهى أنه فى عهده تغير لون كوكب الزهرة ، وحجمه ، وشكله ، ومداره ، وهذه معجزة لم يكن لها نظير فى العصور السابقة أو اللاحقة وكان ظهوره للمرة الثانية فى

سنة ألف وثلاث وتسعين ، وقد أشير اليه اشارة غامضة فى أسطورة الكترا Electra ، وهى النجم السابع مع نجوم مجموعة بليادز Pleiades (١) التى قل عددها الى ستة نجوم منذ حرب طروادة ·
وتذكر تلك الأسطورة أن تلك الحورية الكترا ، زوجة داردانوس ، لم تطق رؤية الدمار الذى حل ببلادها فتخلت عن رقصات شقيقاتها الأخريات من النجوم ، وفرت من منطقة البروج الى القطب الشمالى ، وأطلق عليها اسم المذنب لأن خصلات شعرها كانت محلولة · أما المرة الثالثة التى ظهر فيها فقد انتهت فى سنة ستمائة وثمانى عشرة ، وهو تاريخ يتفق تماما مع ظهور المذنب الضخم الذى ذكرته المتنبئة سيبيل Sibyl ، والعالم بلينى ، وقد ظهر فى بلاد الغرب قبل عهد كورش بجيلين · وكان ظهوره الرابع قبل ميلاد المسيح بأربع وأربعين سنة ، وتعتبر هذه المرة أروع وأهم مرات ظهوره ، فبعد موت قيصر ظهر نجم طويل الذنب رأته روما والشعوب الأخرى أثناء الألعاب التى أمر بعرضها أوكتافيانوس الصغير ، تكريما لفينوس وتكريما لعمه · وكان هناك رأى شائع يقول بأن ذلك النجم حمل الى السماء روح الدكتاتور الالهية ، ولقى هذا الرأى قبولا وقدسية لدى سياسى تقى ورع ، بينما كانت خرافته السرية تعزو ظهور المذنب الى عظمة عصره · أما ظهوره الخامس فقد سبق القول بأنه كان فى السنة الخامسة من عهد جستنيان ، وهى التى تتفق مع السنة الخمسمائة والاحدى والثلاثين من العهد المسيحى · ومما هو جدير بالذكر أن المذنب، فى هذه المرة كما فى المرات السابقة ، قد أعقبه اصفرار الشمس بصورة واضحة ، ولو أن هذه الظاهرة حدثت فى هذه المرة بعد فترة أطول · ثم عاد المذنب للظهور مرة سادسة فى سنة ألف ومائة وست وسجلته تواريخ أوروبا والصين ، وفى الحماس الأول الذى اقترن بالحروب الصليبية ربما توهم المسيحيون والمسلمون أن تلك الظاهرة تنذر بهلاك الكفار ، ولهؤلاء عذر متكافىء فيما ذهبوا اليه · أما الظاهرة السابعة ، وهى التى حدثت فى عام ألف وستمائة وثمانين ، فقد شاهدتها أبصار عصر مستنير · وبددت فلسفة العالم بايل Bayle ذلك التحامل الذى نمقه ملتون فى شعره منذ عهد قريب حيث قال ان المذنب « ينفث الوباء والحرب من شعره المخيف » · وقد راقب فلامستيد وكاسينى مداره فى السماء بمهارة رائعة ، كما بحث برنوللى ونيوتن وهالى قوانين

---

(١) "Pleiades" : بنات أطلس السبع اللاتى تحولن الى نجوم كما تحكى الأسطورة اليونانية · ـ وهى مجموعة من النجوم فى برج طوروس ، مكونة من ستة نجوم يمكن رؤيتها بالعين المجردة ·

دورانه • وعندما يظهر للمرة الثامنة فى سنة ألفين وثلاثمائة وخمس وخمسين ربما استطاع فلكيون فى عاصمة مقبلة فى بيداء سيبيريا أو أمريكا أن يحققوا تقديرات هؤلاء العلماء •

الزلازل

ان اقتراب مذنب من الكرة الأرضية التى نسكنها قد يصيبها بضرر أو يدمرها ، غير أن التغيرات التى تعتور سطحها ، كانت حتى الآن نتيجة لفعل البراكين والزلازل • وقد تدل طبيعة التربة على البلدان التى هى أكثر تعرضا لهذه الاهتزازات لأنها اهتزازات تنشأ بفعل النيران المتأججة فى باطن الأرض ، وهذه النيران انما تشتعل من اتحاد الحديد والكبريت وما يترتب على ذلك من تغير كيميائى يحدث فورانا • غير أن أوقات حدوثها ونتائجها يبدو أنها تدق على المعرفة الانسانية • ولا شك فى أن الفيلسوف يتورع فى حكمه عن التنبؤ بالزلازل حتى يكون قد أحصى قطرات الماء التى تتسرب الى المعدن الملتهب ، وقاس الكهوف التى تضاعف انفجار الهواء المحبوس بمقاومتها • ويبين التاريخ نلك الفترات التى ندرت أو كثرت فيها هذه الأحداث المشئومة المفجعة دون تحديد الأسباب ، ويلاحظ أن هذه الحمى الأرضية هاجت بعنف غير عادى خلال عهد جستنيان • فقد تكرر حدوث الزلازل كل سنة ، وطالت مدتها الى درجة أن القسطنطينية اهتزت أكثر من أربعين يوما ، كما اتسع مداها الى درجة أن الهزة انتقلت الى كل أرجاء الأرض ، أو على الأقل الى كل أرجاء الامبراطورية الرومانية وشعر الناس بحركة دافعة أو هزات شديدة ، وانشقت فى سطح الأرض فجوات هائلة ، وقذفت فى الهواء أجسام ضخمة ثقيلة ، وتقدمت مياه البحر ثم انحسرت على التوالى الى ما وراء حدودها العادية ، وانتزع جبل من جبال لبنان وقذف فى أمواج البحر حيث أصبح رصيفا يحمى ميناء بوتريس الجديدة فى فينيقيا • والضربة التى تزعزع تلا من التراب حفره النمل قد تسحق آلاف الحشرات ، غير أنه ، اقرارا للحق ، ينبغى علينا أن نعترف بأن الانسان قد سعى الى حتفه بظلفه ، وعمل جاهدا على تدمير نفســه بنفسه • ذلك أن تأسيس المدن الكبيرة ، التى تضم كل منها أمة بأسرها داخل أسوارها ، تكاد تحقق رغبة كاليجولا Caligola فى ألا يكون للشعب الرومانى الا عنق واحد حتى يقطعه بضربة واحدة • ويقال ان مائتين وخمسين ألف شخص هلكوا فى زلزال أنطاكيا التى ازدادت جماهير سكانها بمن وفد اليها من الغرباء لحضور الاحتفال بعيد الصعود • وكانت خسارة بيروت أقل عددا ولكنها أعظم قيمة • ذلك أن هذه المدينة الواقعة

على شاطىء فينيقيا ، كانت شهيرة بدراسة القــانون المدنى التى كانت أضمن طريق الى الثراء والرفعة ، وكانت مدارس بيروت غاصة بشباب العصر الصاعد ، وقد أهلك الزلزال كثيرا من الشبان الذين كان يمكن أن يعيشوا حتى يصبحوا حماة بلادهم أو عدتها فى ردع أعدائها • وفى هذه الكوارث يعتبر المهندس المعمارى عدو الجنس الانسانى ، ذلك أن عشة الرجل الهمجى ، أو خيمة الأعرابى ، يمكن أن تنهار دون ان تؤذى ساكنها ، ولا شك فى أن سكان بيروت كان لهم الحق فى الاستهزاء بحماقة غزاتهم الأسبان ، الذين كلفوا أنفسهم الكثير من المال والجهد لاقامة قبورهم • فقد انهارت الجدران الرخامية فى قصور النبلاء على رءوسهم ، ودفن شعب بأكمله تحت أنقاض المبانى العامة والخاصة ، واشتعلت الحرائق وانتشرت بفعل النيران اللازمة لحياة مدينة كبيرة ولصناعاتها • وبدلا من أن يتبادل السكان ألوان العطف التى قد تريح المنكوبين وتعينهم ، فقد تعرضــوا بصورة مروعة الى الرذائل والأهواء التى تحررت من خوف العقاب ، ونهبت المنازل المتهاوية بأيدى المغامرين الذين تملكهم الجشع الجرىء • والانتقام يتحين لحظته ويختار ضحيته ، وكثيرا ما ابتلعت الأرض أولئك الذين ارتكبوا أعمال الاغتيال والنهب بينما كانوا يرتكبون جرائمهم • وقد أضفت الخرافة على الخطر القائم أهوالا غير مرئية ، واذا كان طيف الموت فى بعض الأحيان يتضاءل أمام فضيلة الأفراد أو توبتهم ، فان الشــعب الخائف المرتعد يندفع بقوة أكثر الى توقع نهاية العالم ، أو الى أن يسترحم بالخضوع الذليل الها منتقما •

الطــاعون

وصمت اثيوبيا ومصر فى كل عصر بأنهما المصدر والمنبت الأصلى للطاعون وفى الجو الرطب الحار الخانق ، تتولد هذه الحمى الأفريقية من تعفن المواد الحيوانية ، وخاصـــة أسراب الجراد التى لا يقل أذاها للانسان فى موتها عنه فى حياتها • وهذا المرض المميت الذى استنزف سكان الأرض فى عهد جستنيان وخلفائه ، ظهر أول ما ظهر فى مدينة بيلوزيوم بين المستنقع السربونى ومجرى النيل الشرقى • ومن هناك ســـار فى اتجاهين ، فانتشر صوب الشرق فى ســوريا وفارس وجزائر الهند ، واتجه صــوب الغرب على طول ســاحل أفريقيـــا ثم الى قارة أوروبا • وفى ربيع السنة التالية زار الوباء مدينة القسطنطينية خلال ثلاثة أو أربعة شهور • وقد راقب المؤرخ بروكوبيوس ببصيرة الطبيب سير الوباء وأعراضه ، منافسا فى ذلك مهارة ثيوكيديديس واجتهاده فى وصف طاعون أثينا • وكان النذير بالعدوى فى بعض الأحيان هو تلك

الاطيــاف التى يراها خيال معتل ، وسرعان ما ينتاب الضحية اليأس بمجرد ان تسمع وعيد الشــبح الخفى وتشعر بوطأة ضرباته • غير ان أكثرية الناس ، سواء أكانوا فى فراشهم ، أم فى الطرقات ، ام فى أعمالهم العادية ، كانوا يفاجئون بحمى خفيفة لا يصاحبها أى تغير فى النبض أو في اللون مما يعتبر علامة على اقتراب الخطر • وفى نفس اليوم ، أو فى اليوم الثانى ، أو فى اليــوم الذى يليه يتمثل المرض فى تورم الغــدد ، وخاصــة غــدد أصل الفخذ ، وتحت الابط ، وتحت الأذن ، وعندما كانت تفتح هذه الأورام كان يوجد بها مادة ســـوداء فى حجم حبة العدس تســـمى فحما Coal • فاذا انتفخت هذه الأورام وتقيحت كما ينبغى ، أنقذ المريض بفضل هذا النوع من الافراز الطبيعى للصديد الوبيل ، ولكنهــا اذا ظلت صلبة وجافة ، أصيب المريض بتســمم سريع ، وانتهت حياته عادة فى اليوم الخامس • وكثيرا ما كانت أجسام المرضى تغطى بالبثور أو الدمامل الســـوداء ، وهى أعراض الموت المباشر • وفى حالة الأجسام الضعيفة التى لا تستطيع تفجير الأورام ، كان المريض يصاب بقىء دموى يتبعه تســمم الأمعــاء • وكان الطاعون بوجــه عام مميتا للحوامل ، ومع ذلك فقد حدث أن استخرج جنين حى من بطن أمه الميتة ، كما عاشت ثلاث نساء بعد اصابة أجنتهن بالطاعون • وكان سن الشباب أخطر وقت يصاب فيه الانسان بهذا المرض ، كما أن الاناث كن أقل قابلية للاصابة من الذكور • غير أن المرض هاجم الناس دون تمييز ، وكان له ضحاياه من كل مرتبة وكل مهنة ، وكثير من هؤلاء الذين نجوا منه فقدوا القدرة على الكلام ، دون أن يأمنوا عودة المرض • وكان أطباء القسطنطينية يتسمون بالغيرة والبراعة ، غير أن فنهم أعياه تنوع أعراض المرض وحدته العنيدة ، فقد كان العلاج الواحد يحدث نتائج متناقضة ، كما أن النتيجة المتقلبة كانت تخيب تنبؤهم بحياة المريض أو موته • واختل فى ذلك الوقت نظام الدفن وحق الأموات فى قبورهم ، وأولئك الذين تركوا دون خدم أو أصدقاء ظلت جثثهم ملقاة فى الطرقات ، أو فى منازلهم المقفرة المهجورة ، وخول أحد الحكام سلطة جمع أكوام الجثث المختلطة ، ونقلها بالبر أو البحر ، ثم مواراتها فى حفر عميقة بعيدا عن حدود المدينة • وأحس أقسى الناس قلوبا وأكثرهم رذيلة بالخطر المحدق بهم ، وبالمحنة العامة التى تنتظرهم ، فأيقظ ذلك كله بعض الندم فى نفوسهم ، حتى اذا ما رجعت اليهم الثقة بالصحة ، عادوا الى أهوائهم وعاداتهم ، غير أن الفلسفة ينبغى أن تزدرى الملاحظة التى أبداها بروكوبيوس من أن حياة أمثال هؤلاء الناس كان يصونها الحظ أو العناية الالهية • فقد نسى ذلك المؤرخ ، أو ربما ذكر فى دخيلة نفسه ، أن الطاعون أصاب شخص جســتنيان

نفسه ، غير أن غذاءه الضعيف ، شأنه فى ذلك شأن سقراط ، ربما كان سببا أشرف وأكثر معقولية مما ذكره بروكوبيوس لتعليل شفائه (١) من المرض • وخلال مرضه كان الذعر العام يتجلى فى عادات الناس ، وترتب على تراخيهم وقنوطهم أن أصيبت عاصمة الشرق بفاقة عامة وندرة فى المواد الغذائية •

والعدوى هى العرض الملازم لوباء الطاعون ، وهو مرض ينتقل عن طريق التنفس من الشخص المصاب الى رئتى من يقترب منه والى معدته • ومع أن الفلاسفة يعلمون ذلك ويرتعدون خوفا ، الا أنه من العجيب أن وجود هذا الخطر الحقيقى كان ينكره شعب يميل أكثر ما يكون الميل الى توهم أهوال باطلة خيالية (٢) • غير أن مواطنى بروكوبيوس قد اقتنعوا ، نتيجة تجربة قصيرة جزئية ، بأن العدوى لا يمكن أن تنتقل بالمخالطة ، مهما كانت قريبة ، وهذا الاقتناع كان يدعم مثابرة الأصدقاء أو الأطباء على العناية بالمرضى ، الذين كان الحرص القاسى كفيلا بأن يقضى عليهم بالعزلة واليأس • غير أن هذا الاطمئنان القاتل ، شأنه شأن ايمان الترك بالقضاء والقدر ، لابد أنه ساعد على انتشار العدوى ، كما أن تلك الاحتياطات الصحية ، التى يرجع اليها الفضل فى نجاة أوروبا ، لم تكن معروفة لدى حكومة جستنيان • فلم توضع أية قيود على حرية الانتقال الكثير بين الولايات الرومانية • ومن بلاد فارس الى فرنسا كان هناك اختلاط بين الشعوب عن طريق الحرب والهجرات فسرت بينها العدوى ، وكانت الرائحة الوبائية تكمن عدة سنوات فى (بالة) من القطن ، ثم تنتقل عن طريق هذه التجارة الخادعة الى أبعد المناطق • وقد وضح بروكوبيوس طريقة انتشار العدوى فى ملاحظة أبداها ، حيث قال انها كانت تنتشر دائما من شاطىء البحر الى الأقاليم الداخلية ، وأصيبت بهذا الوباء تباعا أكثر الجزائر والجبال عزلة ، كما أن الأماكن ، التى نجت من حدة الوباء فى دورته الأولى ، كانت هى وحدها التى أصيبت بالعدوى فى السنة

---

(١) هكذا أنقذ الاعتدال الفيلسوف سقراط من طاعون أثينا • ويعلل الدكتور ميد Dr. Mead نقاء الأديرة بأنها كانت منعزلة عن غيرها ، وبأن القاطنين فيها كانوا مقلين فى طعامهم •

(٢) أثبت الدكتور ميد أن الطاعون مرض معد بالرجوع ليوكميديديس ، ولوكريشيوس ، وأرسطو ، وجالن ، ومن التجربة العادية • وهو يدحض الرأى المضاد الذى قاله الأطباء الفرنسيون الذين زاروا مرسيليا فى عام ١٧٢٠ • ومع ذلك فان هؤلاء الأطباء كانوا نظارة حديثين مستنيرين شاهدوا المرض وهو يقضى فى شهور قلائل على ٥٠٫٠٠٠ من سكان مدينة لا تشتمل الآن على أكثر من ٩٠٫٠٠٠ نسمة ، رغم رخائها وازدهار تجارتها •

التالية • وربما ساعدت الرياح على نشر هذا السم الخفى ، ولكن اذا لم يكن الجو مهيأ من قبل لاستقباله ، فانه سرعان ما كان يتلاشى فى الأجواء الباردة أو المعتدلة • ولقد تلوث الهواء الى درجة أن الوباء الذى حدث فى السنة الخامسة عشرة من حكم جستنيان لم يتوقف أو يخف نتيجة أى اختلاف فى الفصـــول • وبمرور الزمن خفت وطأته الأولى وتشتتت ، وأخذ المرض يتراخى مرة وينشط مرة أخرى ، غير أن الناس لم يستردوا صحتهم ، والهواء لم يعد الى سابق نقائه وطيبه الا بعد انصرام فترة موبوءة قدرها اثنان وخمسون عاما • وليس لدينا الآن من الحقائق ما يبين أعداد من هلكوا فى هذا الفناء الشاذ غير العادى حتى عن طريق الحدس والتخمين ، وكل ما أمكننى الوصول اليه هو أن عدد الوفيات فى مدينة القسطنطينية ، خلال فترة ثلاثة شهور ، بلغ فى أول الأمر خمسة آلاف شخص يوميا ، ثم ارتفع الرقم الى عشرة آلاف ، وأن مدنا كثيرة فى الشرق أصبحت خاوية من أهلها وأن المحاصيل وغلة الكرم ذبلت على الأرض فى عدة أقاليم من ايطاليا ، وقد نكب رعايا جستنيان بنقم ثلاث ، هى الحرب ، والوباء ، والمجاعة ، ولحق بعهده العار المتمثل فى نقص ملحوظ فى الجنس الانسانى ، لم يعوض أبدا فى بعض أجمل بلدان الكرة الأرضية •



كان تقنين التشريع الرومانى أعظم ما أنجز فى عهد جستنيان • وقد وصف ذلك جيبون فى الفصل الرابع والأربعين ، المحذوف هنا •

الفصل الخامس والأربعون
(٥٩٠ ـ ٥٩٤)

شقاء روما قرب نهاية القرن السادس
• بابـــوية جريجـــورى العظيـــم •

بين سنتى ٥٦٨ و ٥٧٠ ، وبعد موت نارسيس ، غزا اللمبارد بقيادة البوين الجزء الأكبر من ايطاليا • وظلت ايطاليـا خلال مائتى عام مقسمة بين مملكة اللمبارد ، وولاية رافنا التابعة لبيزنطة •

يصف جيبون فى الفصل السادس والأربعين نهاية أسرة جستنيان وبدء الأسرة المالكة الجديدة ، أسرة هرقليوس •

شـقاء روما فى
نهاية القرن السـادس

وسط جيوش اللومبارد ، وتحت الحكم المطلق لليونان ، نعود مرة ثانيـة الى بحث مصـير روما ، التى كانت قد وصلت قرب نهايـة القرن السادس الى أقسى فترات بؤسها وشقائهـا • فبعد أن انتقل منها مقر الامبراطورية ، وتوالت خسارة الولايات ، استنفدت موارد الثراء العـام والخاص : وجردت من أوراقها وفروعها تلك الشجرة الوارفة الشامخة التى استظلت فى ظلها أمم العالم ، وذوى على الأرض ذلك الجذع الذى جفت عصارته • ولم يعد أصحاب الزعامة والسلطان ، ورسل الظفر والنصر ، يلتقون فى طريق آبيا أو طريق فلامينيا ، وكثيرا ما كان الناس يشعرون باقتراب أعدائهم اللومبارد ، الذى أصبح مصدر خوفهم وفزعهم بصورة مستمرة • وفى مقدور سكان عاصمة قوية آمنة ، ممن يرتادون حدائق الريف المجاور دون أن يساورهـم القلق ، أن يتمثلوا فى خيالهم صورة باهتة لمحنة الرومان وشقائهم • فقد كانوا يفتحون أبوابهم أو يغلقونها

بيد مرتجفة ، ويشـاهدون من فوق الأسوار ألسـنة النيران المنبعثة من منازلهم ، ويسمعون عويل اخوتهم وهم يقيدون أزواجا كالكلاب ، ويساقون الى الاسترقاق بعيدا فيما وراء البحار والجبال • ولا شك فى أن مثل هذه المخاوف المستمرة كفيلة بالقضـاء على متع الحياة الريفيـة وتعويق أعمالها وجهودها ، وسرعان ما تدهور الريف الذى يحيط بمدينة روما ، وتحول الى فـلاة مقفرة ، تعرت أرضها ، وتلوث ماؤهـا ، وفسد هواؤها • ولم يعد الطمع وحب الاستطلاع يجذب الأمم الى عاصمة الدنيا ، ولكن ، اذا اتجهت الى ذلك المكان خطوات أجنبى مرتحل ، بحكم الضرورة أو بمحض الصـدفة ، فانه كان يتـأمل فى فزع ورهبة ما آلت اليه حال مدينة خاوية منعزلة ، وربما ثار فى نفسه سؤال ، أين السناتو ، وأين الشعب ؟ وقد حدث أن انهمر المطر فى أحد الفصول ، ففاض نهر التيبر على ضفتيه ، واندفع بقوة عارمة الى وديان التلال السبعة ، وانتشر مرض وبائى من ركود مياه الفيضان ، وسرت عدواه بصورة سريعة أسفرت عن موت ثمانين شخصـا فى ساعة واحدة ، وسط موكب رهيب يستمطر رحمة السماء • والمجتمع الذى يشجع الزواج وتكثر فيه الصناعة يستطيع بسرعة أن يعوض الخسارة العابرة التى تصيب سكانه نتيجة وباء أو حرب • غير أن الجزء الأكبر من أهل روما كان مقضيا عليه بالفاقة وحياة العزوبة دون ما أمل فى التخلص منهما ، ومن ثم فان تناقص السكان كان ظاهرة مستمرة ملموسة ربما دفعت المتحمسين المتشائمين الى توقع انقراض الجنس البشرى فى وقت قريب • ومع ذلك فان عدد السـكان ظل متجاوزا حد الكفاف ، وكان النـاس يحصلون على طعامهم بصورة مزعزعة مقلقلة من محاصيل صقلية ومصر ، وكانت كثرة المجاعات وتكرارها دليلا على اهمال الامبراطور لشئون ولاية بعيدة • وتعرضت أبنية روما ومساكنها لنفس الخراب والاضمحلال ، وتهاوت الصروح البالية بسهولة من جراء الفيضانات والعواصف والزلازل ، واغتبط الرهبان ، الذين كانوا يشغلون أحسن الأماكن ، لانتصارهم الحقير على أطلال العهود القديمة • ومن المعتقد بوجه عام أن البابا جريجورى الأول هاجم معابد المدينة وحطم تماثيلهـا ، وأن مكتبـة تل بالاتين Palatine تحولت بأمر هـذا الهمجى الى رماد ، وأن تعصـبه الأحمق الخبيث كان يستهدف بوجه خاص مؤلفـات المؤرخ الرومانى ليفى • وتدل كتابات جريجورى نفسه على كراهيته العنيدة لآثار العبقريـة القديمة ، فهو يسدد أعنف النقد الى العلم الدنيوى الذى كان يمتاز به أسقف قـام بتعليم فن النحو ، ودرس شـعراء اللاتين ، ونطق بالصوت نفسه تسابيح جوبيتر وتسابيح المسيح • غير أن الدليـل على ثورة غضبه المدمرة هو دليـل قريب العهد ومشكوك فيه ، فمعبد السلام ومسرح مركيللوس قد تهدما شيئا فشيئا بفعل الزمن ومرور الوقت ،

ولو أنه أصدر حظرا رسميا على مؤلفات فرجيل وليفي ، لأدى ذلك الى زيادة نسخ تلك المؤلفات فى البلدان الخاضعة لهذا الدكتاتور الدينى ٠

بابوية جريجورى العظيم

كان يمكن أن يمحى اسم روما من الأرض ، شأنه فى ذلك شأن طيبة وبابل وقرطاجة ، لو لم تبعث فيها الحياة عقيدة حيوية جوهرية أعادت لها مجدها وسلطانها ٠ فقد تناقل الناس رواية غامضة تقول بأن معلمين يهوديين ، أحدهما صانع خيام وثانيهما صائد سمك ، كانا فى سابق العهد قد أعدما فى ساحة (سيرك) نيرون ، وبعد نهاية خمسمائة سنة أصبحت عظامهما الحقيقية أو المزعومة موضع التقديس والعبادة ، على أساس أن هــذه العظام هى حصن روما المسيحية كتمثال الهة الحكمة التى حمت طروادة ٠ وذهب حجاج الشرق والغرب لزيارة العتبة المقدسة ، غير أن الضريحين المقدسين اللذين رقدت فيهما عظام الرسولين كانت تحرسهما المعجزات والمخاوف الخفية ، ولم يكن فى استطاعة الكاثوليك الأتقياء أن يقتربوا من قبلة عبادتهم هذه دون أن يتولاهم الوجل والجزع ٠ وكان لمس جسدى القديسين مميتا ، ومشاهدتهما خطيرة ، وأولئك الذين تجرأوا على ازعاج راحة الضريح ، مدفوعين الى ذلك بأطهر الدوافع وأنقاها ، كانت ترعبهم الأشباح ، أو يعاقبون بالموت الفجائى ٠ وقد رغبت امبراطورة فى أن تحرم الرومان من كنزهم المقدس ، وهو رأس القديس بولس ، غير أن ذلك الطلب غير المعقول قوبل برفض مقترن بأشــد المقت والكراهية ، وأكد البابــا ، ومن المحتمل أنه كان صادقــا فى ذلك التأكيد ، أن قطعة قماش من الأقمشــة المقدسة التى غطى بها جسد القديس ، أو برادة من قيوده الحديدية ، التى كان الحصــول عليها سهلا فى بعض الأحيــان ، ومستحيلا فى أحيــان أخرى ، كانت تمتلك بنفس القدر خاصــية اتيان المعجزات ٠ غير أن قدرة الرسولين وفضيلتهما احتوتهما صدور خلفائهما بقوة حيــة ، وشغل كرسى القــديس بطــرس فى عهد موريس ، نائب الامبراطور ، أول وأعظم البابوات الذين أطلق عليهم اسم جريجورى ٠ وكان جده فليكس قد شغل هو نفسه كرسى البابوية ، ولما كان الأساقفة متلزمين بقانون العزوبة ، فلابد أن رسالته قد سبقها موت زوجته وكان أبوه جورديان وأمه سيلفيا أنبل أسرة من أسرات السناتو ، وأكثر أبناء كنيسة روما ورعا وتقوى ٠ وكان أقاربه من الاناث فى عداد القديسات والعذارى ، وقد رسمت له صورة عائلية مع والده ووالدته تبرع بها لدير القديس أندراوس ، وظلت موجودة قرابة الثلاثمائة عام ٠ وان تصميم هذه الصورة وتلوينها ليدل دلالة صادقة على أن فن الرسم غرسه الايطاليون

فى القرن السادس · غير أن ذوقهم وعلمهم لا يرسم فى الأذهان الا أسوأ الصور ، لأن رسائل جريجورى ، وعظاته ، ومحاوراته انما هى من عمل رجل لم يكن فى لوذعيته تاليا لأى من معاصريه · وقد رفعه أصله وقدراته الى منصب والى المدينة ، وكان يتمتع بميزة احتقار أبهة هذه الدنيا وزهوها· وقد خصص ميراثه الكبير لتأسيس سبعة أديرة ، كان أحدها فى روما وستة فى صقلية ، وكانت رغبة جريجورى هى أن يظل مجهولا فى هذه الدنيا ، وألا يحظى بالمجد الا فى الآخرة · غير أن ورعه ، وربما كان ورعا صادقا مخلصا ، سلك الطريق الذى كان يمكن أن يختاره سياسى ماكر طموح · ذلك أن مواهبه ، والفخامة التى كانت تصاحب رياضاته الروحية جعلته عزيزا على الكنيسة نافعا لها ، وكان فى عظاته يغرس فى الناس دائما أن الطاعة الثابتة هى الواجب الأول للراهب · ومنذ أن أصبح جريجورى شماسا أرسل للاقامة فى البلاط البيزنطى ، حيث كان قاصدا رسوليا للحبر الرسولى ، واتخذ لنفسه فى جرأة ، باسم القديس بطرس، أسلوب صاحب المكانة المستقلة ، الأمر الذى كان يمكن أن يعتبر عملا اجراميا لو اتبعه أبرز العلمانيين · ثم عاد الى روما وقد زادت شهرته عن جدارة واستحقاق ، وبعد أن مارس فضائل الرهبنة فترة قصيرة أخذ من الدير الى العرش البابوى باجماع أصوات رجال الدين ، والسناتو ، والشعب · وكان هو وحده الذى قاوم ، أو تظاهر بمقاومة ، هذه الرفعة ، والتمس فى خضوع من موريس ، نائب الامبراطور ، أن يتفضل برفض اختيار الرومان ، فلم يكن لذلك من أثر الا أنه أضفى على شخصيته رفعة ومجدا فى أعين الامبراطور والشعب · وعندما صدر الأمر الخطير التمس جريجورى عون بعض أصدقائه التجار ، وطلب منهم أن ينقلوه فى سلة من سلالهم الى ما وراء أبواب روما ، وأخفى نفسه بضعة أيام بين الغابات والجبال حتى اكتشف مأواه ، وقيل ان نورا سماويا هو الذى دل عليه ·

وقد دامت بابوية جريجورى العظيم ثلاث عشرة سنة وستة شهور وعشرة أيام ، وكانت تلك الفترة من أعظم الفترات البناءة فى تاريخ الكنيسة · وكانت فضائله ، بل وحتى أخطاؤه ، خليطا عجيبا من البساطة مع الدهاء ، والكبرياء مع التواضع ، وقوة الادراك مع الخرافة ، وكان كل أولئك يتلاءم تلاؤما موفقا مع مركزه ومع طابع العصر الذى عاش فيه · وقد أدان فى منافسه ، بطريرك القسطنطينية ، ذلك اللقب المتعارض مع المسيحية الذى كان يحمله ، وهو لقب الأسقف العام ، الذى كان خليفة القديس بطرس أعلى من أن يعترف له به وأضعف من أن يتخذه لنفسه ، واقتصرت سلطته الكنسية على صفته الثلاثية ، أسقف روما ، ورئيس أساقفة ايطاليا ، ورسول الغرب ··· وكثيرا ما كان يرتقى المنبر ، ويشعل

بفصاحته الفجة ، وان تكن فصاحة شجية ، عواطف سامعية المتجانسة وكان يفسر كلام أنبياء اليهود ويطبقه ، ويوجه عقول الشعب الذى أضنته الكوارث القائمة الى آمال العالم غير المنظور ومخاوفه ، وحدد فى وصاياه ، وبالمثل الذى ضربه ، الطقوس الدينية الرومانية ، وتوزيع الأبرشيات ، وتاريخ الأعياد ، ونظام المواكب ، وخدمة القساوسة والشمامسة ، وتنوع الأردية الكهنوتية وتغيرها · وكان الى آخر أيام حياته يخدم القداس الكنسى الذى كان يدوم أكثر من ثلاث ساعات ، واحتفظ الترتيل الجريجورى بالموسيقى الصوتية والآلات الموسيقية المستخدمة فى المسرح ، وحاولت أصوات المتبربرين الخشنة محاكاة ألحان المدرسة الرومانية العذبة ، وقد علمته التجربة فعالية هذه الشعائر المقدسة المهيبة فى تخفيف محنة عامة الناس ، وفى تثبيت ايمانهم ، وتلطيف حدة طباعهم ، وصرفهم عن حماسهم الأحمق ، وتساهل فى التجاوز عن نزعتهم الى تشجيع حكم الكهنوت والخرافة · واعترف أساقفة ايطاليا المجاورة بالحبر الرومانى مطرانا خاصا لهم ، بل ان وجود الكراسى الأسقفية ، واتحادها ، وتبديلها ، أصبح هو صاحب التصرف المطلق فى تقريرها ، كما أن تدخلاته الناجحة فى ولايات اليونان واسبانيا وبلاد الغال ربما أيدت ما كان للبابوات الذين جاءوا بعده من مطلب أكثر سموا · وقد تدخل لمنع مساوىء الانتخابات الشعبية ، وحافظ بغيرته ورعايته على نقاء العقيدة والنظام ، ودأب هذا الراعى الرسولى على مراقبة نظام الرعاة التابعين له وعقيدتهم · وفى عهده انضم الآريوسيون فى ايطاليا وأسبانيا الى الكنيسة الكاثوليكية ، وكان غزوه الدينى لبريطانيا أعظم تشريفا لاسمه من المجد الذى ناله اسم قيصر بفتح تلك البلاد · فبدلا من الفرق الست التى بعثها قيصر ، أرسل هو الى تلك الجزيرة أربعين راهبا ، وأسف ذلك الحبر لأن واجباته الصارمة منعته من المشاركة فى أخطار حربهم الروحية · وفى أقل من سنتين استطاع أن يعلن لرئيس أساقفة الاسكندرية أنهم عمدوا ملك كنت وعشرة آلاف من الأنجلوسكسونيين ، وأن بعثات التبشير الرومانية ، شأنها شأن بعثات الكنيسة الأولى ، لم يكن لديها من الأسلحة الا قوتها الروحية الخارقة · وكانت سذاجة جريجورى أو فطنته تنزع دائما الى تأكيد حقائق الدين بأدلة الأشباح ، والمعجزات وبعث الموتى ، وقد اعترفت الأجيال التالية لذكراه بنفس الفضل الذى أقره هو لفضيلة جيله أو الجيل الذى سبقه · ولقد كانت الأمجاد السماوية تمنح فى سخاء بسلطة البابوات ، غير أن جريجورى هو آخر شخص من أبناء طبقتهم تجرأوا على تدوين اسمه فى قائمة القديسين ·

وقد نشأت السلطة الزمنية لهؤلاء البابوات من كوارث تلك الأيام ، واضطر الأساقفة الرومان ، الذين أغرقوا أوروبا وآسيا فى الدمار ، الى

أن يحكموا كخدم للصدقة والسلام · ١٠ ـ وقد سبق أن لاحظنا أن كنيسة روما كان لها ممتلكات في ايطاليا وصقلية ، وفي الولايات الأكثر بعدا ، وقد حصل وكلاؤها ، الذين كانوا عادة من مساعدى الشمامسة ، على سلطة القضاء المدنى ، بل والجنائى ، على مستأجريهم ومزارعيهم · وقد أدار خليفة القديس بطرس ممتلكاته الموروثة بخلق المالك اليقظ المعتدل ، وكانت رسائله مليئة بالاشارات النافعة الى تجنب القضايا الكيدية أو المشكوك فيها ، والى المحافظة على سلامة الكيل والميزان ، والى التجاوز عن كل تأخير معقول ، والى تخفيض الخراج المفروض على العبيد العاملين في أراضى الكنيسة الذين اشتروا حق الزواج بدفع غرامة مقررة ، وكانت غلة أو منتجات هذه الممتلكات تنقل الى مصب نهر التيبر تحت مسئولية البابا وعلى حسابه · أما في استخدام الثروة ، فقد كان يتصرف كخادم أمين للكنيسة وللفقراء ، وكان يستخدم في سد حاجاتهم تلك الموارد التى لا ينضب معينها والتى كان يحصل عليها بالتقشف وبالنظام · وقد بقى حساب ايراداته ومصروفاته الضخم في كاتدرائية لاتران أكثر من ثلاثمئة عام كنموذج للاقتصاد المسيحى · وفى الأعياد الأربعة الكبيرة كان يقسم الأموال ربع السنوية المخصصة لها ، على الكهنة ، وخدمة الأديرة ، والكنائس ، والمقابر ، وبيوت البر والصدقة ، ومستشفيات روما ، وبقية الأبرشيات · فى أول يوم من كل شهر كان يوزع على الفقراء ، حسبما يتفق مع الفصل ، نصيبهم المقرر من القمح والنبيذ ، والجبن ، والخضروات ، والزيت ، والسمك ، والمؤن الطازجة ، والملابس ، والمال · وكانت خزائنه تفتح بصورة مستمرة لتسد باسمه المطالب غير العادية التى يتقدم بها أصحاب الحاجة وذوو الجدارة · واذا تبين محنة عاجلة أصابت المرضى أو العاجزين ، أو الغرباء الحجاج ، فان كرمه اليومى ، وفى كل ساعة من ساعات اليوم ، كان كفيلا بتخفيف هذه المحنة واغاثة أصحابها · ولم يكن ليطيب لهذا الحبر أن يتناول أكلة بسيطة الا اذا أرسل أطباقا من مائدته الخاصة الى من يستحقون حنانه وشفقته · وكان بؤس ذلك العصر قد ألجأ نبلاء روما ونبيلاتها الى قبول احسان الكنيسة دون خجل ، وكان هناك ثلاثة آلاف عذراء يتلقين طعامهن وكساءهن من يد هذا المحسن الكريم ، كما أن كثيرا من أساقفة ايطاليا فروا من المتبربرين الى عتبة الفاتيكان المضيافة · ويحق لجريجورى أن يلقب بوالد بلاده ، وكان ضميره شديد الحساسية الى درجة أن موت متسول فى شوارع المدينة كان كفيلا بأن يدفعه الى حرمان نفسه أياما كثيرة من ممارسة مهامه الكهنوتية · ٢٠ ـ وقد كان من أثر المصائب التى حلت بروما أن تورط الراعى الرسولى فى قضايا السلام والحرب ، وربما كان موضع شكه هو نفسه ما اذا كان الورع أو الطمع هو الذى شجعه على الحلول مكان مليكه المتغيب · وأيقظ

جريجورى الامبراطور من سبات طويل ، وكشف ذنب نائبه أو عجزه ، وذنب أو عجز الوزراء التابعين له ، وشكا للامبراطور من أن قدامى الجنود كانوا يسحبون من روما للدفاع عن سبوليتو ، وشجع الايطاليين على حراسة مدنهم وهياكلهم ، وتفضل ، فى أزمة الخطر ، بتعيين التربيونات وتوجيه عمليات القوات الاقليمية • غير أن روحه العسكرية كان يصدها تورعه الدينى والانسانى ، ومن قبيل ذلك أن فرض الجزية ، رغم أن العائد منها كان يستخدم فى الحرب الايطالية ، الا أنه أدان ذلك جهارا بأنه شىء ظالم ممقوت ، وفى الوقت عينه كان ، رغم المراسيم الامبراطورية ، يحمى الجنود الجبناء الأتقياء الذين هجروا الحياة العسكرية ولجأوا الى حياة الرهبنة • واذا جاز لنا أن نصدق التصريحات التى أدلى بها ، فقد كان من اليسير عليه أن يقضى على اللمبارد باستغلال نزاعاتهم الحزبية الداخلية، دون أن يترك لهم ملكا ، أو دوقا ، أو (كونتا) ينقذ تلك الأمة التعسة من انتقام أعدائها • وبوصف كونه أسقفا مسيحيا ، فقد كان يفضل الخدمات النافعة التى تحقق السلام ، ومن ثم فقد توسط لاخماد تمرد الجيوش ، غير أنه كان متنبها لحيل اليونان ولأهواء اللمبارد بدرجة منعته من أن يرتبط بوعد مقدس لضمان احترام الفريقين للهدنة • وقد خاب أمله فى تحقيق معاهدة عامة دائمة ، ولهذا تجرأ على انقاذ بلاده دون موافقة الامبراطور أو نائبه • ولقد كان سيف العدو مسلطا على روما ، فاستطاع الحبر ، الذى استحوذ على احترام الهراطقة والمتبربرين أن يتجنبه بفصاحته الهادئة الرقيقة ، وبمواهبه اللائقة • وقابل البلاط البيزنطى هذه الصفات الحميدة ، التى تحلى بها جريجورى ، باللوم والاساءة ، غير أن هذا الحبر وجد فى تعلق شعبه به وفى اعترافه بفضله ، أنبل ما يجرى عليه المواطن ، وأعظم حق لملك على رعيته •

★★★

يصف جيبون فى الفصل السادس والأربعين نهاية أسرة جستنيان وبدء الأسرة المالكة الجديدة ، أسرة هرقليوس •

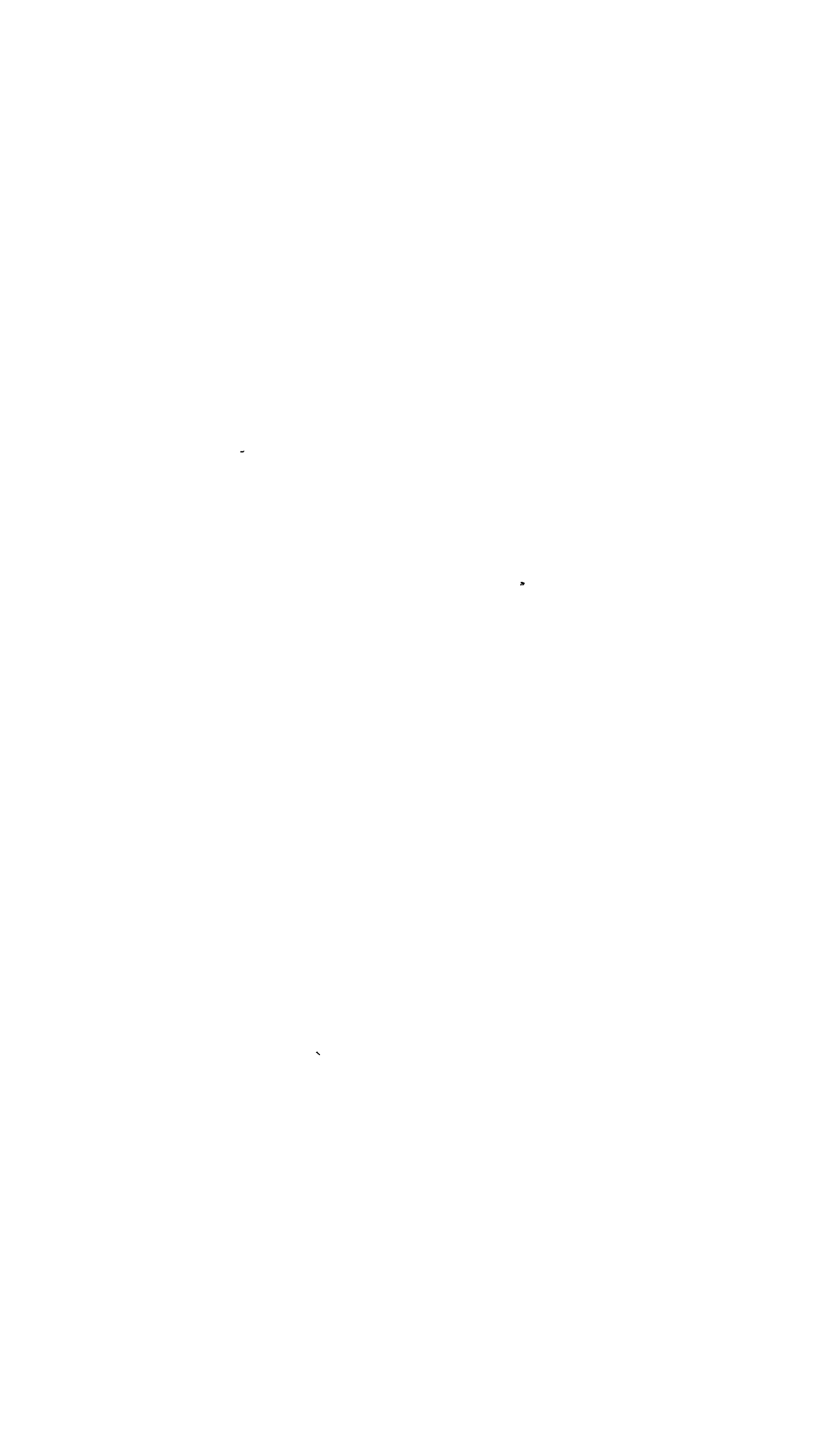
وشاهدت نهاية أسرة جستنيان أولا تحت حكم موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) ، ثم تحت حكم فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠) ، تطور الأمر من حالة الضعف المتناهى الى حالة الفوضى المطلقة تقريبا ، وهى حالة اقترنت بها الغزوات الأجنبية والتفكك بالداخل •

وفى عهد هرقليوس (٦١٠ ـ ٦٤٢) نهب الفرس أورشليم خلال حرب طويلة ، ثم غزوا مصر ، وكادوا يستولون على القسطنطينية بمعاونة

الآفار • الا أن هرقليوس سحق قوة الفرس الى الأبد في سنة ٦٢٨ ، كما صد السلاف فى البلقان •

وفى الفصل ٤٧ يناقش جيبون النظريات التى لا تنتهى الخاصة بالتجسد ، ويبين أن السر فى ذلك يكمن فى الفرق بين عقيدة نيقيا وعقيدة اليعقوبيين التى تقول بأن للمسيح طبيعة واحدة • واستهوت هذه العقيدة الأخيرة شعوب الولايات الشرقية الذين اقروا بان المسيح هو اله متجسد وأن جسمه ذو شكل بشرى ، غير أن طبيعته كانت طبيعة واحدة الهية •

المؤثرات اللاهوتية



الفصل السابع والأربعون
(٤١٢ ـ ٥٦٥)

تاريخ عقيدة التجسد • الابيونيون والغنوصيون • النظريات المضادة التى قال بها كرينثوس وأبوللليناريس ، وكيرلس، ونسطور ومجالس افيسوس الكنسية الأولى • هرطقة يوطاخيوس ومجلس افيسوس الثانى • مجلس خلقدونية • قانون التوفيق الذى وضعه زينون • لاهوت جستنيان •

بعد القضاء على الوثنية ، كان يمكن للمسيحيين أن يستمتعوا بانتصارهم الوحيد فى هدوء وتقوى • غير أن مبدأ الفرقة كان حيا فى صدورهم ، وكان تحمسهم لكشف طبيعة مؤسس دينهم أكثر من قلقهم على ممارسة شرائعه • وقد سبق لى القول بأن النزاعات التى دارت حول التثليث قد أعقبتها النزاعات حول التجسد • وكانت تلك الخصومات شائنة للكنيسة وضارة بالدولة سواء بسواء ، بل ان نشأتها كانت أكثر دقة وغموضا ، وآثارها أكثر دواما • وفى نيتى أن أضمن هذا الفصل الحالى تاريخ حرب دينية دامت مائتين وخمسين عاما وأن أصور الانشقاق الكنسى والسياسى للطوائف الشرقية ، وأن أمهد لوصف صراعاتهم الصاخبة أو الدموية ببحث متواضع فى عقائد الكنيسة الأولى •

الأبيونيون

١ ــ ان الاحترام المشكور لكرامة المهتدين الأوائل يؤيد الاعتقاد ، والأمل ، والرغبة ، فى أن الأبيونيين ، أو على الأقل النصارى ، لا يتميزون الا بمثابرتهم العنيدة على ممارسة الشعائر الموسوية • وقد اختفت كنائسهم ، وطمست كتبهم ، غير أن الحرية التافهة التى تمتعوا بها ربما أجازت القول بأنه كان لهم بعض الايمان ، كما أن عقيدتهم اللينة الناشئة كان يمكن

أن تتشكل تشكلا منوعا بفضل الغيرة أو الفطنة التي دامت ثلاثمائة سنة ٠ ومع ذلك فان أكرم نقد وأسخاه لابد من أن ينكر على أبناء هذه الطوائف أية معرفة بألوهية المسيح الخالصة الصحيحة ٠ فقد تعلموا فى مدرسة النبوءة اليهودية والتعصب اليهودى ، ولم يتعلموا أبدا أن يسموا بآمالهم الى ما هو أكبر من مسيح بشرى دنيوى ٠ واذا كان لديهم من الشجاعة ماجعلهم يحيون ملكهم عندما ظهر فى رداء العامة ، فان مداركهم البليدة لم تستطع تمييز الههم ، الذى دأب على اخفاء شخصيته السماوية تحت اسم وشخصية رجل من البشر (١) ٠ وكان رفاق يسوع الناصرى المقربون اليه يتحدثون مع صديقهم وابن وطنهم الذى كان يبدو أنه من نفس الجنس البشرى الذى ينتمون اليه فى كل الأعمال المتعلقة بالحياة العقلية والحيوانية ٠ وتميز تطوره من الطفولة الى الشباب والرجولة بزيادة منتظمة فى قوامه وحكمته ، وبعد أن تألم عقله وجسمه آلاما مبرحة مات على الصليب ٠ ولقد عاش ومات لخدمة بنى البشر ، غير أن سقراط من قبله عاش ومات مثله من أجل قضية الدين والعدالة ، ورغم أن الرواقى أو البطل قد يحتقر الفضائل الوديعة المتواضعة التى تحلى بها يسوع ، فان الدموع التى ذرفها على صديقه وبلاده يمكن أن تعتبر أنقى وأخلص دليل على انسانيته ٠ ولم تكن معجزات الانجيل موضع دهشة شعب آمن ايمانا جريئا بمعجزات الشريعة الموسوية الأكثر روعة ، فأنبياء العصور القديمة شفوا المرضى ، وأحيوا الموتى ، وشطروا البحر ، وأوقفوا سير الشمس ، وصعدوا الى السماء فى عربة نارية ، كما أن أسلوب العبرانيين المجازى ربما نسب الى اسم قديس وشهيد لقبا اضافيا هو لقب ابن الله ٠

غير أن عقيدة النصارى والأبيونيين غير الكاملة يكاد يلاحظ فيها تمييز بين الهراطقة الذين خلطوا ولادة المسيح بنظام الطبيعة العادى ، وبين المنشقين الأقل ذنبا الذين بجلوا طهر أمه وعذريتها ، واستبعدوا أن يكون قد مسها بشر ٠ وكان انكار الطائفة الأولى لهذه الظاهرة تؤيده الظروف الملموسة التى أحاطت بمولده ، والزواج الشرعى الذى حدث بين والديه الشهيرين ، يوسف ومريم ، وحقه الوراثى فى مملكة داود وميراث يهوذا ٠ غير أن التاريخ السرى الصحيح قد سجل فى عدة نسخ من الانجيل بناء على أقوال القديس متى ، واحتفظ بها أبناء هذه الطوائف مدة طويلة باللغة العبرية الأصلية باعتبارها الدليل الوحيد على ايمانهم ٠ ولقد زالت الريب الطبيعية التى ساورت زوج مريم الذى كان يشعر بطهارته وعفته بفضل

---

(١) يضطر كريسوستوم وأثناسيوس الى الاعتراف بان الوهية المسيح قلما وردت على لسانه أو على لسان حوارييه ٠

التأكيد الذى أوحى اليه (فى حلم) أن زوجته حبلت من الروح القدس ، وبما أن هذه المعجزة البعيدة العائليةلم يكن مستطاعا أن تقع تحت ملاحظة المؤرخ الشخصية ، فلابد أنه استمع الى نفس الصوت الذى قال للنبى أشعيا ان عذراء سوف تحمل فى المستقبل • ولا شك فى أن ابن عذراء يولد من الروح القدس بطريقة لا يمكن وصفها ، كان مخلوقا لا مثيل أو شبيه له ، يسمو عن أبناء آدم فى كل صفة من صفات العقل والجسم • ومنذ دخول الفلسفة اليونانية أو الكلدانية اقتنع اليهود بأن للأرواح وجودا سابقا • كما اقتنعوا بتناسخها وخلودها • وأن الله تعالى قد شاءت ارادته أن تظل هذه الأرواح حبيسة فى سجونها الدنيوية لتكفر عن ذنوبها وخطاياها التى ارتكبتها فى حياة سابقة • غير أن درجات النقاء والفساد تكاد لا تحصى ولا تعد • ومن الانصاف أن نفترض أن أسمى روح من بين الأرواح البشرية ، وأكثر فضيلة ، هى التى نفخت فى خلف مريم والروح القدس ، وأن نزوله من السماء كان بمحض اختياره ، وأن الهدف من رسالته كان تطهير ذنوب العالم لا ذنوبه هو • وعند رجوعه الى موطنه فى السموات تلقى الثواب الأعظم على خضوعه ، وهو مملكة المسيح الخالدة الى الأبد ، التى كان الأنبياء قد تنبأوا بها فى شىء من الغموض ، وصوروها فى صورة حسية يتمثل فيها السلام ، والغزو ، والسيطرة •

واستطاعت قدرة الله على كل شىء أن توسع مواهب المسيح البشرية الى مدى مكانته السماوية ، وفى لغة الأقدمين ، لم ينحصر لقب الله انحصارا شديدا فى الآب الأول ، وحق لرسوله الذى لا شبيه له وهو ابنه الوحيد ، أن يطلب الى العالم الأدنى ، دون غطرسة أو زهو ، أن يقدم له العبادة الدينية ، وان تكن عبادة ثانوية •

الغنوصيون

٢ ـ نمت بذور الايمان رويدا رويدا فى التربة الصخرية الجاحدة لبلاد اليهودية Judea ، ثم انتقلت فى كامل نضجها الى أجواء الأمميين الأكثر هناء وصفاء ، وكان الغرباء عن المسيحية من سكان روما وآسيا ، الذين لم تقع أبصارهم قط على المسيح وهو فى دور رجولته ، أكثر نزوعا الى الايمان بألوهيته • وكان المشرك والفيلسوف ، واليونانى والمتبربر ، قد درجوا ، سواء بسواء على تصور سلسلة لا نهاية لها وتعاقب طويل ، من ملائكة ، أو أرواح ، أو آلهة ، أو قوى منبعثة من الآلهة أو انبثاقات منبعثة من عرش النور • ولم يكن بالشىء الغريب ، أو الذى لا يصدق ، أن أول هذه القوى ، وهو اللوجوس ، كلمة الله الذى هو من نفس جوهر الآب ، ينزل الى الأرض ليخلص أبناء البشر من الرذيلة والخطيئة ،

وليرشدهم الى طرق الحياة والخلود • غير أن العقيدة السائدة عن أبدية المادة والفساد الكامن فيها أصابت بعدواها كنائس الشرق الأولى ، فقد رفض الكثيرون من بين المهتدين الأمميين أن يؤمنوا بأن روحا سماوية ، وجزءا لا يتجزأ من الجوهر الأول ، قد اتحد اتحادا شخصيا مع كتلة من الجسد المدنس الملوث ، وفى غمرة حماسهم لألوهية المسيح أنكروا بشريته بدافع من الورع والتقوى وبينما كان دمه لا يزال حديث العهد على جبل الجلجثة الذى صلب عليه المسيح ابتدعت طائفة الدوكيت(١) Docetes (أى طائفة الخياليين) وهى طائفة متعلمة كبيرة العدد من الأسيويين ، عقيدة الوهم التى انتشرت بعد ذلك على أيدى أتباع ماركيون (٢) ، وأتباع مانى (٣) ، وطوائف الهرطقة الغنوصية الأخرى • وقد أنكروا جميعا صحة الأناجيل وصدقها فيما يختص بروايتها لحمل مريم ، ومولد المسيح ، والثلاثين سنة التى سبقت ممارسته لرسالته • وقالوا ان المسيح ظهر أول ما ظهر على ضفاف نهر الاردن فى صورة الرجولة الكاملة ، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة ، وشكلا بشريا خلقته يد الله القادر على كل شىء ليقلد قدرات الانسان وأعماله ، وليفرض وهما دائما على حواس أصدقائه وأعدائه • وكانت الأصوات الواضحة تتذبذب على آذان تلاميذه ، غير أن الصورة التى انطبعت على أبصارهم استطاعت أن تتملص من الدليل الأقوى وهو دليل اللمس ، وتمتعوا بوجود ابن الله بروحه لا بجسده • وضاع غضب اليهود دون جدوى ضد طيف لا يتأثر ولا يتألم، وتمثلت المشاهد الغامضة المتعلقة بآلام المسيح وموته ، وقيامته وصعوده ، على مسرح أورشليم لمصلحة بنى البشر • واذا قيل ان مثل هذا التقليد الكامل ، والخداع المستمر لم يكن لائقا برب الحق ، فان الدوكيت وافقوا الكثيرين من اخوانهم الأرثوذكس على تبرير هذا الزيف الصالح الورع • وفى عقيدة الغنوصيين ، يعتبر يهوه Jehovah ، اله اسرائيل ، وخالق هذا العالم الأدنى ، روحا متمردة ، أو على الأقل جاهلة ، وقد نزل ابن الله الى الأرض للقضاء على هيكله وشريعته ، ولكى يحقق هذه الغاية السليمة ، نقل الى شخصه فى براعة نبوءة مسيح دنيوى والأمل الذى كان معقودا عليه •

---

(١) طائفة من الهراطقة فى القرن الثانى الميلادى أنكرت بشرية المسيح • وقالت ان جسده كان مجرد صورة ، وانه عاش وتألم فى الظاهر فقط •

(٢) ماركيون من أهل سينوب • مات فى سنة ١٦٥ م •

(٣) مانى من أهل اكباتانا (٢١٥ – ٢٧٦ م) • وكان يقول بان كل شىء انبثق من النور والظلام ، أو الخير والشر •

وثمة واحد من أخبث مجادلى مدرسة مانى أشار فى الحاح الى ما هنالك من خطر ومجافاة للياقة فى الاعتقاد بأن اله المسيحيين خرج من رحم امرأة فى شكل جنين بشرى بعد انقضاء تسعة شهور ، فأصاب هذا المجادل خصومه بفزع منبعث من ورعهم وتقواهم ، فدفعهم ذلك الى انكار أية ظروف حسية تتعلق بالحمل والولادة ، والى التأكيد بأن الاله اخترق مريم كما يخترق شعاع من أشعة الشمس لوحا من الزجاج ، وأن بكارتها ظلت كما كانت حتى فى اللحظة التى أصبحت فيها أم المسيح • غير أن هذا التسليم المندفع من جانبهم شجع طائفة الدوكيت على اتخاذ موقف أكثر ملاينة ورقة ، فقالوا ان المسيح لم يكن طيفا ، بل انه كان مغطى بجسم لا يتأثر بشىء ولا يعتريه الفساد • وفى الحق أن المسيح ، فى رأى العقيدة الأرثوذكسية الأكثر صحة ، قد اكتسب هذه الصفة منذ بعثه ، ولابد أنه كان يتصف بها دائما ، ما دام أنها استطاعت أن تخترق كثافة المادة الوسيطة دون أن تلقى مقاومة أو تسبب ضررا • وبما أن جسم المسيح هذا كان خلوا من أهم خصائص الجسد ، فمن الممكن أن يستثنى من صفات الجسد وعلله • فالجنين الذى استطاع أن يتطور من نقطة غير مرئية الى حالة النضج المكتمل ، والطفل الذى استطاع النمو حتى بلغ قوام الرجولة الكاملة دون أن يستمد أى غذاء من المواد العادية ، يمكن أن يبقى حيا دون أن يعوض عن شىء يفقده يوميا بمادة خارجية يتناولها كل يوم • وقد استطاع يسوع أن يشترك فى وجبات تلاميذه دون أن يشعر بعطش أو جوع ، ولم يتلوث طهره العذرى مطلقا بأرجاس الشهوة الحسية • وهذا الجسم المفرد فى تكوينه انما يثير سؤالا عن الكيفية التى شكل بها فى الأصل وعن المادة التى صنع منها ، وهنا يفاجأ لاهوتنا الأكثر صحة بجواب لم يكن مستغربا على الغنوصيين ، وهو أن الشكل والمادة هما من الجوهر الالهى • وفكرة الروح النقية الخالصة المطلقة هى فكرة هذبتها الفلسفة الحديثة ، فالجوهر اللامادى الذى نسبه الأقدمون الى النفوس البشرية ، والمخلوقات السماوية ، بل والى الله نفسه ، لا يستبعد فكرة الفضاء الممتد ، وقنع خيالهم بأن للهواء أو النار ، أو الأثير ، طبيعة غامضة أكثر كمالا بما لا يقاس من خشونة العالم المادى • واذا حددنا مكان الله ، فلابد من أن نصف شكله ، وتصور تجربتنا وربما غرورنا ، قدرات العقل والفضيلة وهى متمثلة فى كيان بشرى • وقد استطاع الكثيرون من أولئك الذين صوروا الاله فى صورة الانسان ، والذين كثر عددهم بين رهبان مصر وكاثوليك أفريقيا ، أن يجيئوا بالقول الصريح الذى ورد فى الانجيل من أن الانسان صنع على صورة خالقه • وقد تخلى سيرابيون المبجل ، وهو من قديسى صحراء النطرون ، عن تحيزه العزيز عليه ، وهو يذرف الدمع

كالطفل على تغييره التعس لعقيدته ، ذلك التغيير سلبه ربه ، وترك عقله دون شيء مرئى يؤمن به ويعبده ٠

النظريات المضادة التى قال بها
كرينثوس وأبولليناريس

٣ ـ هكذا كانت الخيالات السريعة العابرة التى تراءت لطائفة الدوكيت ٠ وهناك فرض أكثر قربا الى الحقيقة ، وان كان أقل بساطة من تلك الخيالات ، ابتدعه كرينثوس (١) الآسيوى ، والذى تجاسر على معارضة آخر الحواريين ، وقد عاش ذلك الرجل على تخوم عالم اليهود والأمميين ، وعمل جاهدا على التوفيق بين الأبيونيين والغنوصيين ، فاعترف مسيحهم نفسه بأن الانسان والاله قد اتحدا فى شخصه اتحادا خارقا للطبيعة ، وقد اعتنق هذه العقيدة الغامضة بعد أن دخلت عليها تحسينات خيالية كثيرة ، كاربوكراتس ، وباسيليدس ، وفالنتين ، وهم هراطقة المدرسة المصرية ٠ وكان يسوع الناصرى فى نظرهم مجرد بشر ، وابنا شرعيا ليوسف ومريم ، ولكنه كان أفضل أبناء الجنس البشرى وأكثرهم حكمة ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أداة صالحة تعيد عبادة الاله الحقيقى الأسمى على الأرض ٠ وعندما تعمد فى الأردن ، نزل المسيح ، وهو أول قوة منبعثة من الله ، وابن الله نفسه ، على يسوع فى شكل حمامة ، لكى يستقر فى عقله ويوجه أعماله خلال الفترة المحدد لأداء رسالته ٠ وعندما سلم المسيح الانسان الى أيدى اليهود تخلى المسيح الاله ، وهو كائن خالد لا يتأثر بشيء ، عن جسمه الانسانى الأرضى ، وعاد الى عالم الأرواح ٠ غير أننا لابد أن نتساءل فى قوة عن مبلغ العدالة والكرم فى هذا التخلى ، كما أن المصير الذى لقيه شهيد برىء دفعه رفيقه الالهى الى العمل فى بادىء الأمر ، ثم تخلى عنه فى نهاية المطاف ، هذا المصير أثار رثاء الدنيويين وسخطهم ٠ وأسكت تذمرهم ، بصورة مختلفة ، أبناء الطوائف التى اعتنقت وعدلت المذهب المزدوج الذى وضعه كرينثوس ٠ وقالوا ان يسوع، عندما ثبت بالمسامير على الصليب ، منح عقله وجسمه قدرة معجزة على عدم

---

(١) تقابل القديس يوحنا وكرينثوس مصادفة فى حمام عام بمدينة افيسوس ، غير أن الحوارى يوحنا هرب من الهرطوقى كرينثوس لئلا ينهار عليهما البناء ، وهذه القصة السخيفة ، التى نبذها دكتور مدلتون ، يقصها رغم ذلك ايريناوس مستشهدا بما قاله بوليكارب Polycarp ، وربما كانت هذه القصة ملائمة لعصر كرينثوس والمكان الذى وجد فيه ٠

التأثر جعلته لا يحس بآلامه الظاهرة ، وأكدوا أن هذه الآلام المؤقتة ، مع أنها آلام حقيقية ، سوف يثاب عليها ثوابا كثيرا بحكم زمنى قدره ألف عام خصص للمسيح فى مملكة أورشليم الجديدة ، ولمحوا الى أنه اذا كان قد تألم وتعذب ، فانه استحق العذاب ، وأن الطبيعة الانسانية لا يمكن أن تنال الكمال المطلق ، وأن الصليب والألم قد يكفرون عن الذنوب العريضة التى ارتكبها ابن يوسف قبل اتحاده الغامض مع ابن الله ٠

٤ ـ كل أولئك الذين يؤمنون بلامادية الروح ، وهى عقيدة جميلة نبيلة ، لابد أن يعترفوا ، من تجربتهم الحالية بأن اتحاد العقل والمادة شىء يدق على الفهم ٠ واتحـــاد من هذا النوع لا يتعارض مع المواهب العقلية الأكثر سموا ، بل مع أسمى المواهب العقلية ، وتجسد قوة منبعثة من الله أو من ملك من كبار الملائكة ، وهو الذى يعتبر أكثر الأرواح المخلوقة كمالا، لا يتضمن أى تناقض أكيد ٠ وفى عصر الحرية الدينية الذى قرره مجلس نيقيا الكنسى ، كانت كرامة المسيح تقاس بمقياس الحكم الخاص بناء على قانون الانجيــل المطلق ، أو العقــل ، أو العرف والتقليد ٠ ولكنه عندما توطدت ألوهيته الخالصـــة الحقيقيـــة على أنقاض الآريوسية ، اهتز ايمان الكاثوليك على حافة هاوية حيث كان النكوص مستحيلا ، والبقاء خطيرا ، والسقوط مخيفا مريعا ٠ وازدادت متاعب عقيدتهم الكثيرة من جراء سمو طابع لاهوتهم ٠ وترددوا فى القول بأن الله نفسه ، وهو الأقنوم الثانى من بين ثلاثة أقانيم متساوية ومتحدة فى الجوهر ، ظهر فى الجسد ، وأن كائنا يوجد فى كل مكان من الكون قد انحصر فى رحم مريم ، وأن بقاءه الخالد الأبدى كان يقاس بأيام وشهور وسنين من الوجود الانسانى ، وأن القادر على كل شىء جلد بالسوط وصلب ، وأن جوهره الذى لا ينفذ اليه الألم شــعر بالألم والعذاب وأن علمه بكل شىء لم يكن خلوا من الجهل ، وأن منبع الحياة والخلود مات على جبل الجلجثة ٠ وهذه النتائج المزعجة ثبتتها ببساطة صفاقة أبولليناريس ، أسقف لاوديكية (اللاذقية) ، وأحد أئمة الكنيسة ٠ وكان ابن أحـد علماء النحو ، وبرع فى كل علوم اليونـان ، وخصـص لخدمة الدين فى تواضع ، فصاحته ولوذعيته وفلســفته التى برزت فى مؤلفاته ٠ وكان صديقا لأثناسيوس جديرا بصداقته ، وخصما لجوليان جديرا بخصومته ٠ وصارع أتبـــاع آريوس والمشركين فى جراة وبسالة ، ومع أنه اصطنع صرامة التدليل الهندسى ، الا أن تعليقاته أظهرت تشربه بروح الانجيل فى حرفيتها ومجازاتها ٠ وثمة سر غامض ظل مفتقرا الى الوضوح فى عقيدة الشعب استطاع أبولليناريس بمثابرته العنيدة أن يحدده فى صيغة فنية ، فكان أول من صرح بالكلمات المشهودة : « ان للمسيح طبيعة متجسدة واحدة » ، وهى كلمات ما تزال ترددها أصوات

صاخبة عدائية فى كنائس آسيا ومصر وأثيوبيا ونادى بأن اللاهوت اتحد أو امتزج بجسم بشرى ، وأن اللوجوس ، وهو الحكمة الأبدية ، حل فى الجسد مكان النفس البشرية وقام بوظيفتها • ورغم ذلك فان أبولليناريس، شأنه شأن الطبيب الذى انزعج لتهوره هو نفسه ، قد سمع وهو يتمتم ببعض عبارات الاعتذار والتفسير الخافتة • فسلم بالتمييز القديم الذى قال به فلاسفة اليونان بين نفس الانسان العاقلة ونفسه الحساسة حتى يستطيع تخصيص اللوجوس للوظائف العقلية ، واستخدام الصفة البشرية الأدنى مرتبة فى أعمال الحياة الحيوانية الأقل قيمة • وأقر بما أقر به أبناء طائفة الدوكيت المعتدلون من تبجيل لمريم على اعتبار أنها الأم الروحية ، لا الجسدية للمسيح ، الذى جاء جسمه من السماء وكان جسما لا يتأثر بشىء ولا يعتريه الفساد ، أو أن جسمه استوعب فى جوهر الاله أو تحول اليه • وقد لقيت عقيدة أبولليناريس مقاومة عنيفة من رجال اللاهوت الآسيويين والسوريين ، الذين شرفت مدارسهم بأسماء باسيلى، وجريجورى ، وكريسوستوم ، وتلطخت بأسماء ديودوروس ، وتيودور ونسطور • غير أن شخص أسقف لاوديكيه العجوز ، وأخلاقه ، ومكانته ، ظلت مصونة طاهرة ، أما منافسوه ، فبما أننا لا نستطيع أن نرميهم بضعف التسامح ، فربما أدهشتهم طرافة الحجة وجدتها ، وكانوا غير واثقين من الحكم الأخير الذى سوف تصدره الكنيسة الكاثوليكية • وأخيرا جاء حكمها فى صالحهم ، وأدينت هرطقة أبولليناريس ، وحظرت القوانين الرومانية اجتماعات تلاميذه المتفرقة • غير أن مبادئه ظلت مأخوذا بها سرا فى أديرة مصر ، وشعر أعداؤه بكراهية توفيلوس وكيرلس ، وهما اللذان توليا منصب بطريرك الاسكندرية ، واحدا بعد الآخر •

٥ ــ وهكذا نبذ الابيونيون الحقراء ، وأبناء طائفة الدوكيت الخياليون ، ونسيهم الناس ، أما الكاثوليك فقد دفعهم الحماس الحديث ضد أخطاء أبولليناريس الى الموافقة الظاهرة على عقيدة الطبيعة المزدوجة التى قال بها كرينثوس • ولكن بدلا من أن يكون هناك اتفاق مؤقت عرضى ، فانهم أقروا ، ونحن مازلنا نقر ، عقيدة الاتحاد المادى ، الوثيق ، والدائم الى الأبد ، بين الاله الكامل والانسان الكامل ، بين الأقنوم الثانى من الأقانيم الثلاثة ، وبين نفس عاقلة وجسم بشرى • وفى بدء القرن الخامس كانت عقيدة وحدة الطبيعتين هى العقيدة السائدة للكنيسة • واعترفت كل الأطراف بأن طريقة وجودهما المشترك لا يمكن أن تصورها أفكارنا أو تعبر عنها لغتنا • غير أن خلافا سريا مستعصيا نشب بين أولئك الذين كانوا يشعرون باشد الخوف من مزج ألوهية المسيح ببشريته ، وبين أولئك الذين كانوا يخافون أكثر الخوف من فصلهما • وقد دفع

الجنون الدينى كلا من الفريقين الى الهرب بسرعة مشئومة من الخطأ الذى وقع فيه الفريق الآخر والذى يرى أنه يفتك أشد الفتك بالحقيقة والخلاص • وكان القائلون بالمزج والقائلون بالفصل حريصين على حماية عقيدتهم وغيورين على الدفاع عنها ، والى ابتداع تلك الصيغ اللفظية ، والاصطلاحات الرمزية المعبرة عن العقيدة ، التى لا تحتمل الا أقل قدر من الشك واللبس • وأغراهم فقر الأفكار واللغة على البحث فى مجال الفن والطبيعة عن كل تشبيه ممكن ، وكان كل تشبيه من هذه التشبيهات يضلل خيالهم فى تفسير غموض لا يمكن أن يقارن بشىء آخر ، وتحت مجهر الجدل تتضخم الذرة فتصبح وحشا هائلا ، ومن ثم فقد برع كل فريق فى تضخيم النتائج الباطلة أو الملحدة التى أمكن انتزاعها من مبادىء خصومه• ولكى يهرب كل فريق من الآخر ضلوا جميعا طريقهم فى أدغال مظلمة متوهة ، حتى فاجأتهم أشباح كرينثوس وأبولليناريس المخيفة ، وقد وقف هذان الرجلان يذودان عن القضايا المضادة من المتاهة اللاهوتية • وما أن شاهدوا الضوء الخافت المنبعث من العقل والهرطقة حتى تولاهم الفزع ، وعادوا أدراجهم ، واكتنفتهم مرة ثانية ظلمة الأرثوذكس الحالكة • ولكى يطهروا أنفسهم من ذنب الخطأ الملعون ، أو يتخلصوا من اللوم عليه ، أنكروا النتائج التى وصلوا اليها ، وفسروا مبادئهم ، والتمسوا العذر لحماقتهم ، ورددوا بالاجماع أصوات الوفاق والايمان • ورغم ذلك فقد كانت هناك شرارة خفية لا تزال مختبئة بين جمرات الخصومة ، فأشعلتها سريعا أنفاس التحيز والهوى حتى غدت لهيبا عاتيا ، وهزت النزاعات الشفوية التى احتدمت بين الطوائف الشرقية أعمدة الكنيسة والدولة •

كيرلس ، ونسطور ، ومجالس افيسوس الكنسية الأولى

اشتهر اسم كيرلس السكندرى فى قصة الجدل الدينى ، ويعتبر لقب « القديس » الذى لقب به دليلا على أن آراءه وفريقه كتبت لهم الغلبة فى نهاية الأمر • وقد تشرب فى منزل عمه ، رئيس الأساقفة توفيلوس ، دروس الغيرة والسيطرة الأرثوذكسية ، وقضى خمس سنوات من شبابه بصورة مجدية فى أديرة صحراء النطرون المجاورة حيث انكب على الدراسات الدينية بحماس لا يعرف الكلل ، وتحت توجيه الأب سيرابيون، حتى انه فى ليلة واحدة قضاها ساهرا استوعب الأناجيل الأربعة ، والرسائل الكاثوليكية ، والرسالة الى الرومان • وكان يمقت أوريجن Origen ، غير أن كتابات كليمان وديونيسيوس ، وأثناسيوس ، وباسيلى ، كانت لا تفارقه ، وحذق الجدل ، نظرية وممارسة ، وبذلك ثبت

ايمانه ، ولمع ذكاؤه • ونثر في صومعته كتب اللاهوت العريضة التي ترك عليها الزمن آثـاره ، وأمعن فـكره في قراءة كتب القصـص الرمزي والميتافيزيقا التي ما تزال بقاياها محفوظة في سبع مجلدات مطولة ، ترقد في هدوء الى جوار مثيلاتها • وكان كيرلس يؤدي الصـلاة والصيام خلال اقامته في الصحراء ، غير أن أفكاره (وهذا تقريع من صديق له) ظلت عالقة بالدنيا ، وعندما استدعاه توفيلوس الى جلبة المدن والمجامع الدينية بادر الناسك الطموح الى استجابة تلك الدعوة • وشجعه عمه على تقلد منصب واعظ الشعب ، ونال في ذلك الميدان صيتا وشهرة • وازدان المنبر بشـخصه الفخـم المهيب ، ودوى صوته العذب الرخيم في أرجاء الكاتدرائية ، وكان أصـدقاؤه يجلسون هنـا وهناك ليكونوا في مقدمة المصفقين من بين المجتمعين ، أو لتأييد التهليل والتصفيق لهم • ودون الكتبة مذكرات سريعة لأحاديثه ومواعظه التي يمكن مقارنتها ، من حيث أثرها لا من حيث أسلوبها ، بتـلك التي كان يلقيها خطباء أثينا • وقد اتسعت بموت توفيلوس آمال ابن أخيه وتحققت ، وانقسم رجال الدين في الاسكندرية حول المرشح لذلك المنصب ، وأيد الجنود وقائدهم مطالب رئيس الشمامسة ، غير أن الجماهير التي لا تقاوم انتصرت لقضية كيرلس المحبب اليهم ، واستخدمت في ذلك التأييد أصواتها وأيديها ، وبعد فترة قدرها تسع وثلاثون سنة جلس كيرلس على عرش أثناسيوس •

ولاءمت هذه المكافأة أطماع كيرلس • وكان بطريرك الاسكندرية ، كما أصبح يلقب الآن ، قد استغل بعده عن البلاط الامبراطوري ، ورئاسته لعاصمة ضخمة ، فاغتصب شيئا فشيئا مكانة حاكم مدني وسـلطته ، وتصرف بمحض ارادته في صدقات المدينة العامة والخاصة ، وكان صوته يلهب مشاعر الجماهير أو يهدئها ، كما أن أتباعه المتعصبين الكثيري العدد من البارابولاني (١) ، الذين ألفوا في عملهم اليومي مشاهد الموت ، كانوا يطيعون أوامره طاعة عمياء ، وكانت السلطة الزمنية التي تمتع بها هؤلاء الأحبار المسيحيون تخيف ولاة مصر أو تثير غضبهم ، واشتد حماس كيرلس الى اضطهاد الهرطقة ، ووفق في بدء عهده الى التنكيل بأتباع نوفاشيانوس، وهم أكثر أبناء الطوائف براءة وبعدا عن الأذى • وبدا تحريم عبادتهم في نظره عملا عادلا جديرا بالثناء ، فصادر أوانيهم المقدسة دون أن يخشى ذنب تدنيس الأماكن الدينيـة • أما اليهود ، الذين تضـاعف عددهم الى أربعين ألفا ، فقد كان التسامح معهم ، بل وامتيازاتهم ، أمرا كفلته قوانين

---

(١) علمانيون كانوا يساعدون رجال الدين في الكنائس الشرقية في الاشراف على المرضى •

القياصرة والبطالمة ، واقامة طويلة قدرها سبعمائة سنة ، منذ تأسيس الاسكندرية • غير أن البطريرك ، دون أى حكم قانونى ، ودون أي تفويض ملكى ، قاد جمهورا متمردا مثيرا للفتنة فى فجر أحد الأيام لمهاجمة معابدهم • وعجز اليهود عن المقاومة وهم عزل لم يأخذوا للأمر عدته ، فهدمت أماكن عبادتهم وسويت بالأرض ، وبعد أن كافأ المحارب الأسقفى أفراد قواته بأن سمح لهم بنهب بضائع اليهود ، طرد من المدينة من تبقى من أبناء الشعب الكافر • وربما برر هذا العمل بأنهم كانوا مسفين فى الثراء ، وبكراهيتهم المميتة للمسيحيين الذين سفكوا هم دماءهم منذ عهد قريب فى اضطراب خبيث كان مدبرا ، أو حدث مصادفة ، وكانت مثل هذه الجرائم التى ارتكبها كيرلس تستحق لوم الحاكم وتقريعه ، غير أنه فى هذا الاضطراب العنيف ، الذى اختلط فيه الحابل بالنابل ، ضاع البرىء مع المذنب ، وأصاب الفقر مدينة الاسكندرية بفقدانها جالية ثرية مجدة • وتعرض كيرلس من جراء حماسه هذا الى قصاص القانون الجوليانى ، غير أن الحكومة الضعيفة والعصر المتسم بالخرافة جعلاه فى مأمن من العقاب ، بل وضمنا له المدح والاطراء • وقد شكا أورستيس ، حاكم مصر ، غير أن شكاواه العادلة لم تقابل من وزراء ثيودوسيوس الا بالنسيان السريع ، ولكن الأسقف وضع تلك الشكاوى فى أعماق ذاكرته ، ومع أنه تظاهر بالصفح عن الوالى الا أنه ظل يضمر له المقت والكراهية • فعندما كانت عربته تخترق الشوارع هاجمها فريق مكون من خمسمائة راهب من رهبان صحراء النطرون ، فهرب حراسه أمام وحوش الصحراء هؤلاء ، وقوبلت احتجاجاته بأنه مسيحى وكاثوليكى بسيل من الأحجار ، فسالت الدماء من وجهه ، وسارع مواطنو الاسكندرية المخلصون إلى نجدته ، واستطاع أن يشبع عدالته وانتقامه على الفور ضد الراهب الذى جرحه ، ووقع أمونيوس قتيلا بعصى الجلاد • فما كان من كيرلس الا أن أمر برفع جثته من الأرض ، ونقلها فى موكب مهيب الى الكاتدرائية ، ثم غير اسمه الى توماسيوس « المذهل » ، وزين قبره بنصب الاستشهاد ، ثم ارتقى البطريرك منبر الكاتدرائية ليشهد بشهامة راهب ثائر وقاتل • وكانت مثل هذه الأمجاد كفيلة بدفع المؤمنين الى القتال والموت تحت أعلام القديس ، وسرعان ما شجع الناس على التضحية بعذراء اعتنقت ديانة اليونان ونالت صداقة أورستيس ، أو قل ان هذه التضحية صادفت منه قبولا • ذلك أنه كانت هناك فتاة اسمها هيباشيا Hypatia ، ابنة العالم الرياضى ثيون Theon وقد حذقت دراسات أبيها ، وشرحت بتعليقاتها اللوذعية هندسة أبوللونيوس وديوفانتوس ، وكانت تدرس علانية ، فى أثينا والاسكندرية ، فلسفة أفلاطون وأرسطو • ورغم أن هذه العذراء المتواضعة كانت بارعة الجمال ، ناضجة الحكمة ، الا أنها رفضت عشاقها

وعلمت تلاميذها ، وتلهف أشهر الناس مقاما وجدارة على ريادة تلك الفيلسوفة . وكان كيرلس يشاهد بعين الحقد والحسد ذلك الرتل الفخم من الجياد والعبيد الذين اصطفوا على باب أكاديميتها . وسرت أشاعة بين المسيحيين تقول بأن ابنة ثيون هى العقبة الوحيدة فى طريق التوفيق بين الوالى ورئيس الأساقفة ، وفى يوم مشئوم من فصل الصيام الكبير المقدس، انتزعت هيباشيا من عربتها ، وجردت من ملابسها ، وجذبت الى الكنيسة حيث ذبحت كالشاة بيد قارىء الصلوات ، بطرس ، وفريق من المتعصبين المتوحشين قساة القلوب . ثم انتزع لحمها من عظامها بقشور المحار ، وألقيت أطرافها المرتعدة فى لهيب النار . وأوقف البطريرك سير التحقيق والعقاب العادل بالهدايا المناسبة ؛ غير أن قتل هيباشيا وصم أخلاق كيرلس السكندرى وديانته بوصمة عار لا تزول ولا تمحى .

ومن الجائز أن تكفر الخرافة عن دم عذراء بصورة أكثر رقة من تكفيرها عن نفى قديس ، وكان كيرلس ، فيما مضى قد صحب عمه الى مجمع « البلوط » الجائر الظالم . وعندما أعيدت ذكرى كريسوستم وحظيت بالتقديس ، ظل ابن شقيق توفيلوس ، على رأس حزب منقرض ، متمسكا بعدالة الحكم الذى كان قد صدر ضده ، ولم يذعن لرغبة العالم الكاثوليكى الا بعد مماطلة متعبة ومقاومة عنيدة . ولم تكن عداوته لأحبار بيزنطة نزوة من نزوات الهوى ، بل احساسا بالمصلحة ، فكان يغبطهم على مركزهم السعيد فى أضواء البلاط الامبراطورى ، وكان يخشى أطماعهم الحديثة التى جارت على عواصم أوربا وآسيا ، وغزت ولايات أنطاكيا والاسكندرية ، وجعلتهم يتطلعون الى أن تكون حدود الامبراطورية مقياسا لاتساع مجالهم الأسقفى . وتوقفت عداوات البطاركة الشرقيين بفضل الاعتدال الطويل الأمد الذى أظهره أتيكوس ، المغتصب الرقيق لعرش كريسوستوم . غير أن كيرلس استيقظ فى نهاية الأمر بتأثير الرفعة التى نالها منافس أجدر بتقديره وبكراهيته . ذلك أنه بعد عهد قصير تولى فيه سيسينيوس أسقفية القسطنطينية ، هدأت ثائرة أحزاب رجال الدين والشعب بعد أن وقع اختيار الامبراطور فى هذه المناسبة على رجل غريب ليكون أسقفا ، وقد دفعه الى هذا الاختيار ذيوع شهرته وما اتصف به من فضل وجدارة . ذلك الرجل هو نسطور ، من أهل جرمانيكيا وأحد رهبان أنطاكيا ، وقد زكته لهذا المنصب خشونة حياته وفصاحة عظاته الدينية ، غير أن أول عظة ألقاها أمام الامبراطور الورع ثيودوسيوس نمت عن حماسه الحاد الذى لا يتوانى ولا يصبر . وقد قال فى تلك العظة : « أعطنى الأرض أيها القيصر ! وقد طهرت من الهراطقة ، وسوف أعطيك فى مقابل ذلك مملكة السماء . استأصل معى شأفة الهراطقة ، وسوف أقضى معك على الفرس » .

وفى اليوم الخامس • وكأن المعاهدة قد وقعت ، اكتشف بطريرك القسطنطينية اجتماعا دينيا سريا لأتباع آريوس ، ففاجأهم وهاجمهم ، ولكنهم فضلوا الموت على الخضوع ، وأشعلوا النار بدافع اليأس فى مكان الاجتماع ، وسرعان ما امتدت النار الى المنازل المجاورة • وخيم على انتصار نسطور اسم « خالق الفتن » • ولقد فرضت قوته الأسقفية على جانبى الدردنيل تعليمات صارمة مشددة تتعلق بالعقيدة والنظام ـ وكان أى خطأ فى الترتيب التاريخى فيما يختص بعيد القيامة يعاقب عليه مرتكبه على اعتبار أنه جريمة ضد الكنيسة والدولة • وقد طهرت مدن ليديا وكاريا ، وساردس وميليتوس بدماء « الكوارتودسيمان » Quartodecimans (١)، المتشبثين (الذين احتفلوا بعيد القيامة فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان) • وقد اشتمل مرسوم الامبراطور ، أو قل مرسوم البطريرك ، على ثلاث وعشرين درجة وتسمية لذنب الهرطقة وعقابه • غير أن سيف الاضطهاد الذى استخدمه نسطور بمثل هذه الوحشية سرعان ما ارتد الى صدره ، وكانت الديانة هى العذر الظاهرى الذى ادعاه الأسقف لتبرير هذه الحرب الدينية ، غير أن الطمع هو الذى كان الدافع الحقيقى لتلك الحرب ، كما قرر أحد رجال الدين الصالحين فى ذلك العصر •

•

وقد تعلم نسطور فى مدرسة الفكر السورية أن يمقت عقيدة امتزاج الطبيعتين ، وأن يفرق بدقة بين بشرية سيده المسيح وبين ألوهية الرب يسوع • وكان يبجل ويقدس العذراء المباركة على أنها أم المسيح ، غير أنه كان يستاء لسماع اللقب الحديث الطائش ، أم الله ، الذى أطلق عليها بصورة غير محسوسة منذ بدء النزاع الآريوسى • ومن فوق القسطنطينية ، أخذ أحد أصدقاء البطريرك ، ثم البطريرك نفسه ، يهاجم فى عظاته المرة بعد الأخرى استعمال ، أو اساءة استعمال كلمة أم الله التى لم يعرفها الحواريون ، ولم تقرها الكنيسة ، وهى كلمة تزعج المتخوفين ، وتضلل البسطاء ، ويتسلى بها الكفار ، وتبرر تسلسل النسب القديم الى اولمبيوس، بطريق التشابه الظاهرى • وكان نسطور ، فى لحظاته الأكثر هدوءا ، يعترف بأن هذه الكلمة يمكن التسامح فيها أو التجاوز عنها باتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية واختلاط لفظيهما ، غير أن التناقض فى هذا الأمر كان يثيره ويدفعه الى التنصل من عبادة وليد حديث ، واله طفل ، والى أخذ تشبيهاته غير المناسبة من المشاركات المدنية ومشاركات الزواج

---

(١) أولئك الذين كانوا يحتفلون بعيد القيامة فى الرابع عشر من شهر نيسان دون اعتبار ليوم الأسبوع • وكانت الكنائس الغربية تحتفل به فى يوم الأحد التالى لليوم الرابع عشر بمقتضى قرار مجمع نيقيا (٣٢٥م) ـ (الترجمة) •

التى تحدث فى الحياة ، والى وصف رجولة المسيح بأنها رداء ألوهيته ، وأداتها ، ومظلتها • وقد اهتزت لهذه الأصوات الكافرة أعمدة الكنيسة ، وانغمس منافسوه الفاشلون فى سخطهم الدينى أو الشخصى ، واستاء قساوسة بيزنطة فى دخيلة أنفسهم من تطفل رجل غريب عنهم ، ولقى كل ما كان خرافة أو حمقا تأييد الرهبان وحمايتهم ، وانصرف اهتمام الشعب الى مجد سيدتهم العذراء • وكانت عظات رئيس الأساقفة والطقوس الدينية أمام المذبح ، تقابل بالصخب المثير للفتنة ، كما أن محافل دينية مختلفة نبذت سلطته وعقيدته ، وكانت كل ريح تنشر حول الامبراطورية أوراق النزاع والخصومة ، وترددت أصداء صوت المتخاصمين المتجادلين على ذلك المسرح الصاخب فى صوامع رهبان فلسطين ومصر • وكان من واجب كيرلس أن يثقف حماس رهبانه العديدين وينير جهلهم • وكان فى مدرسة الاسكندرية قد تشرب عقيدة تجسد طبيعة واحدة واعتنقها ، ومن ثم فان خليفة أثناسيوس استلهم كبرياءه وطموحه عندما هب للقتال ضد آريوس آخر ، هو أعظم قوة وأشد اجراما من آريوس نفسه ، وهو نسطور المتربع على العرش الثانى للحكم الكنسى • وبعد مراسلة قصيرة أخفى فيها الأسقفان المتنافسان كراهيتهما فى لغة الاحترام والمحبة الجوفاء ، وكشف بطريرك الاسكندرية للحاكم والشعب ، وللشرق والغرب ، عن الأخطاء الملعونة التى ارتكبها الحبر البيزنطى • وقد تلقى من الشرق ، وخاصة من أنطاكيا ، نصائح مبهمة تدعو الى التسامح والصمت وجهت الى الطرفين المتنازعين مع أنها تميل الى جانب قضية نسطور • غير أن الفاتيكان فتح ذراعيه لرسل مصر ، وأرضى النداء غرور البابا الرومانى سلستين ، Celestine كما أن الترجمة المغرضة التى قام بها أحد الرهبان جددت عقيدة البابا ، وكان هو والقساوسة اللاتين يجهلون لغة اليونان وفنونهم ولاهوتهم • فرأس سلستين مجمعا ايطاليا ، وبحث حقائق القضية ، ووافق على عقيدة كيرلس ، وأدان شخص نسطور ومشاعره ، وأنزل الهرطوقى من منصبه الأسقفى ، ومنحه مهلة عشرة أيام للتوبة وسحب أقواله ، وخول لعدوه تنفيذ هذا الحكم الطائش غير القانونى • غير أن بطريرك الاسكندرية ، مع أنه أطلق رعود اله ، الا أنه كشف عن أخطاء انسان وأهوائه ، وما تزال لعناته الاثنتا عشرة تعذب الأرقاء الأرثوذكس الذين يقدسون ذكرى قديس دون أن يخسروا ولاءهم لمجمع خلقدونية • وهذه التأكيدات الجريئة مخضبة بألوان هرطقة أبولليناريس التى لا تمحى ، غير أن المعتقدات الخطيرة ، وربما الصادقة ، التى قال بها نسطور قد أرضت رجال لاهوت العصور الحالية الأكثر حكمة والأقل تحيزا •

غير أنه لا الامبراطور ولا أسقف الشرق كانا على استعداد لطاعة أمر كاهن ايطالى ، وأصبح المطلوب بالاجماع أن يجتمع مجلس كنسى للكنيسة الكاثوليكية ، أو قل الكنيسة اليونانية ، على أساس أن ذلك هو العلاج الوحيد لتهدئة هذا النزاع الكنسى ، أو للفصل فيه • ووقع الاختيار على مدينة أفيسوس لتكون مكانا للاجتماع لسهولة الوصول اليها بالبحر وبالبر ، كما حدد يوم عيد العنصرة موعدا له • وأرسلت دعوات الحضور لكل عاصمة ، وعين حرس لحماية الآباء والاحاطة بهم الى أن يفصلوا فى أسرار السماء وعقيدة الأرض • وجاء نسطور كقاض ، لا كمجرم ، وكان يعتمد على مكانة أساقفته ووزنهم أكثر من اعتماده على عددهم ، وكان عبيده الأشداء ، الذين أحضرهم معه من حمامات زيوكسيبوس ، مزودين بالأسلحة وعلى استعداد لأية خدمة يؤدونها ايذاء لغيرهم أو دفاعا عن أنفسهم • غير أن خصمه كيرلس كان أقوى منه فى الأسلحة التى تصيب الجسد والروح ، وقد رفض الانصياع لأمر الاستدعاء الملكى فى حرفيته ، أو على الأقل فى معناه ، وجاء الى المدينة متبوعا بخمسين أسقفا مصريا ينتظرون من ايماءة بطريركهم الهام الروح القدس • وكان كيرلس قد عقد تحالفا وثيقا مع ممنون ، أسقف أفيسوس ، واستطاع هذا الرجل ، وهو رئيس أساقفة آسيا صاحب السلطة المطلقة ، أن يضمن الى جانبه ثلاثين أو أربعين من أصوات الأساقفة ، وتدفق الى المدينة جمهور من الفلاحين بالاضافة الى عبيد الكنيسة ، لكى يؤيدوا ، بالصخب وبالضرب ، جدلا ميتافيزيقيا ، وأكد الناس فى حماس مجد العذراء التى رقد جثمانها داخل أسوار أفيسوس (١) وكان الأسطول الذى أقل كيرلس من الاسكندرية محملا بنفائس مصر ، وأنزل منه عددا كبيرا من البحارة ، والعبيد والمتعصبين ، الذين جندوا تحت راية القديس مرقص وأم الله • وأشاع هذا النظام العسكرى رهبة وخوفا فى نفوس آباء الكنيسة ، بل وفى نفوس الحراس ، أما خصوم كيرلس ومريم فقد أهينوا فى الطرقات ، أو هددوا فى بيوتهم ، وتضاعف عدد أنصار كيرلس كل يوم بفضل فصاحته وسخائه ، وسرعان ما قدر الأسقف المصرى أنه يضمن حضور مائتى أسقف وأصواتهم ، غير أن مؤلف اللعنات الاثنتى عشرة أدرك مقدما معارضة يوحنا أسقف أنطاكيا ، وكان يحسب حسابها ويخشاها • وكان ذلك الأسقف يتقدم فى بطء من عاصمة الشرق البعيده ومعه حاشية صغيرة

---

(١) كان مسيحيو القرون الأربعة الأولى يجهلون موت مريم ودفنها • ويؤكد المجمع الرواية المتعلقة بمدينة أفيسوس ، ومع ذلك فقد طغى عليها ادعاء أورشليم ، كما أن ضريحها الخاوى ، كما رآه الحجاج ، أوجد قصة بعثها وصعودها الى السماء ، وهى القصة التى اعترفت بها الكنائس اليونانية واللاتينية •

محترمة من المطارنة ورجال الدين • ونفد صبر كيرلس لهذا التأخير الذى وصمه بأنه تأخير متعمد يستحق اللوم ، فما كان منه الا أن أعلن افتتاح المجلس بعد ستة عشر يوما من عيد العنصرة • أما نسطور ، الذى اعتمد على قرب وصول أصدقائه الشرقيين ، فقد أصر كما سبق أن أصر سلفه كريسوستوم على اغفال قضاء خصومه ، وعصيان استدعائهم • ولكنهم عجلوا بمحاكمته ، وجلس متهمه على منصة الحكم • وقد دافع عن نسطور ثمانية وستون أسقفا ، واثنان وعشرون من رتبة المطارنة ، باعتراض متواضع معتدل ، فاستبعدوا عن مجالس اخوانهم • وطلب حاكم المدينة ، كانديان ، باسم الامبراطور ، تأجيل المجلس أربعة أيام ، فطرد ذلك الحاكم الدنيوى من اجتماع رجال الدين بصورة تتمثل فيها الاهانة والاساءة • واستغرقت كل هذه العملية الخطيرة يوما واحدا من أيام الصيف، وأدلى الأساقفة بآرائهم المستقلة ، غير أن تماثل أسلوبهم دل على وقوعهم تحت تأثير أو سطوة سيداتهم بشراء دليل علنى يستند الى أعمالهم وتوقيعاتهم • وقد أقروا جميعا ودون أن يشذ صوت واحد بأن رسائل كيرلس تتضمن عقيدة نيقيا ومذهب آباء الكنيسة ، أما المقتطفات المغرضة التى أخذت من خطابات نسطور وخطبه، فقد قوطعت بالشتائم واللعنات، وجرد الهرطوقى من منصبه الأسقفى والكنسى • وكتب عن هذا الحكم فى خبث وحقد أنه حكم على يهوذا الجديد (الذى أسلم المسيح الى أعدائه اليهود) ، وعلق الحكم على الجدران وأعلن فى طرقات أفيسوس • وعندما خرج الأساقفة المجهدون المكدودون من كنيسة أم الله ، حياهم الناس بوصف كونهم أبطال العذراء ، واحتفلوا بانتصارها باضاءة الأنوار، وانشاد الترانيم ، والصخب والضجيج طوال الليـــل •

وفى اليوم الخامس اكفهر جو ذلك النصر بوصول أساقفة الشرق وبما أظهروه من غضب وسخط • وقبل أن يستريح يوحنـــا ، أسقف أنطاكيا ، من وعثـاء السـفر ، اسـتقبل فى غـرفته بالفنـدق الوزير الامبراطورى كانديان الذى قص عليه ما بذله عبثـا من مجهودات لمنع الأسقف المصرى من القيام بذلك العمل المتسم بالعنف والعجلة ، أو لالغاء ما حدث • وبنفس العجلة والعنف اجتمع المجلس الشرقى المكون من خمسين أسقفا ، وجرد كيرلس وممنون من مقامهما الأسقفى ، وحكم على اللعنات الاثنتى عشرة بأنها السم الزعاف الذى نفثته هرطقة أبولليناريس، ووصف الأسقف السكندرى بأنه وحش ولد وتعلم لكى يدمر الكنيسة ويقضى عليها • وكان عرشه بعيدا ولا يمكن الوصول اليه ، فقرر أعضاء المجلس الشرقى على الفور أن يمنحوا رعية أفيسوس بـــركة راع مخلص أمين • غير أن ممنون استطاع بيقظته أن يوصد الكنائس فى وجوههم ،

ودفع بحامية قوية الى داخل الكاتدرائية وتقدمت القوات بقيادة كانديان لمهاجمتها ، واستطاعت أن تهزم الحرس الأمامى وتقتل أفراده ، غير أن المكان كان منيعا لا ينال ، فانسحب المحاصرون ، وتبعتهم حامية الكاتدرائية بهجوم قوى فقدوا فيه جيادهم وأصيب كثير من الجنود بجروح خطيرة من الهراوات والأحجار • وهكذا لوثت أفيسوس ، مدينة العذراء ، بالهياج والصخب ، وبالفتنة والدماء • وقذف كل من المجمعين خصمه باللعنات وقرارات الحرم الكنسى ، ووقع بلاط ثيودوسيوس فى حيرة وارتباك من جراء الروايات المتعارضة المتناقضة التى نقلتها الأحزاب السورية والمصرية • وحاول الامبراطور ، خلال فترة عصيبة حافلة بالجهود قدرها ثلاثة أشهر ، أن يسوى هذا النزاع اللاهوتى ، واستخدم فى ذلك كل وسيلة الا الوسيلة الأكثر فعالية ، وهى الاحتقار وعدم الاكتراث • وحـاول عزل الزعماء أو تخويفهم باصدار حكم مشترك بالتبرئة أو الادانة ، ومنح ممثليه فى أفيسوس سلطة كبيرة ، وقوة عسكرية كافية ، واستدعى من كل فريق ثمانية مندوبين منتقين لحضور مؤتمر حر صادق صريح يعقـد الى جـوار العاصـمة بعيـدا عن عدوى الجنـون الشعبى • غير أن الشرقيين رفضوا الاذعان ، كما أن الكاثوليك ، اعتزازا بعددهم ، وبحلفائهم اللاتين ، رفضوا كل شروط الاتحاد أو التسامح • وهنا نفد صبر ثيودوسيوس ، فأمر غاضبا بانهاء تلك الضجة الأسقفية التى انتحلت منذ ثلاثة عشر قرنا طابع المجمع المسكونى الثالث • وقال الملك التقى : « فليشهد الله على أنى لم أكن خالق هذا الشعب • وهو الذى يعلم من المذنب ويوقع به القصـــاص • فعودوا الى ولاياتكم ، وانا الندعو الله أن يجعل من فضائلكم الخاصة ما يعوض عن الضرر والعار الذى أحدثه اجتماعكم » • وقد عادوا الى ولاياتهم ، غير أن الأهواء نفسها التى ألهت مجلس أفيسوس انتشرت فى العالم الشرقى . وبعد ثلاث حملات عنيدة متكافئة ، تنـــازل يوحنـا الأنطاكى وكيرلس السكندرى بالتعانق وشرح الموقف • غير أن هذه العودة الظاهرية الى الاتحاد لابد أنها كانت وليدة الحرص أكثر من أن تكون وليدة التعقل والادراك السليم ، ولابد أنها جاءت نتيجة شعور الطرفين بالاعياء والملل ، أكثر من أن تكون نتيجة لمحبة المسيحية التى شعر بها البطريركان •

وكان الحبر البيزنطى قد أوغر صدر الامبراطور ضد أخلاق منافسه المصرى ومسلكه • فأرسل اليه مع أمر الاستدعاء رسالة تهديد وقدح اتهمه فيها بأنه كاهن فضولى صفيق ، أزعج بساطة الايمان ، وانتهك سلام الكنيســة والدولة ، وأرســل خطابات ماكرة منفصلة الى زوجـة تيودوسيوس وأخته ، ظنا منه بأن هناك فرقة فى الأسرة الامبراطورية ، أو محاولا بذلك بذر بذور تلك الفرقة • وكان كيرلس بأمر صارم من

مليكه ، قد عاد الى أفيسوس حيث قوبل من الحاكم بالمقاومة والتهديد ، ثم حوصر هناك لمصلحة نسطور والأساقفة الشرقيين ، الذين جمعوا قوات ليديا وأيونيا لقمع حاشية البطريرك المتعصبة المخلة بالنظام • غير أنه لم ينتظر اذن الامبراطور ، بل فر من حراسته ، وركب البحر على عجل تاركا المجلس المعيب ، وعاد الى معقلة الأسقفى حيث الأمان والاستقلال • غير أن رسله الدهاة الماكرين ، فى البلاط الامبراطورى وفى المدينة ، نجحوا فى تهدئة سخط الامبراطور وكسب حظوته • وكان ابن أركاديوس الضعيف يقع تحت تأثير زوجه وأخته مرة ، ويخضع لخصيان القصر ونسائه مرة أخرى • وكانت الخرافة والأطماع هى الاهواء الغالبة على الجميع ، أما زعماء الأرثوذكس فقد حاولوا جاهدين ارهاب الزوجة والأخت ، وارضاء الخصيان والنساء • وكانت القسطنطينية وضواحيها تحمل طابع القدسية بما فيها من أديرة كثيرة ، وكان الراهبان دلماشوس ويوتيكيس قد كرسا حماسهما وولاءهما لقضية كيرلس ، وعبادة مريم ، ووحدة المسيح • ومنذ أول لحظة فى حياتهما الرهبانية لم يختلطا بالدنيا ، أو يضعا أقدامهما على أرض المدينة الدنسة • غير أنهما شعرا فى تلك الفترة الرهيبة التى أحدق فيها الخطر بالكنيسة بأن هناك واجبا أسمى من العهد الذى قطعاه على نفسيهما وأكثر الحاحا ، فتقدما من الدير الى القصر على رأس مسيرة طويلة من الرهبان والنساك يحملون الشموع المشتعلة فى أيديهم ، وينشدون الصلوات لأم الله • وبعث هذا المشهد العجيب غير العادى ايمانا وحماسا فى صدور الشعب ، واستمع الملك الواجف المرتعد الى صلوات وتضرعات القديسين الذين صرحوا فى جرأة بأن أحدا من الناس لن يأمل فى الخلاص الا اذا أعلن الولاء لشخص خليفة أثناسيوس الأرثوذكسى ، واعتنق عقيدته • وفى الوقت عينه نثر الذهب فى كل طريق يؤدى الى العرش ، فقدمت الرشوة الى رجال البلاط ونسائه ، كل واحد منهم حسب قوته وجشعه ، وأطلقت على هذه الرشوة أسماء مهذبة ، فقيل انها اكراميات ومنح مباركة • غير أن طلباتهم التى لم تقف عند حد استنزفت معابد القسطنطينية والاسكندرية ، ولم تستطع سلطة البطريرك أن تسكت التذمر الصادق الذى أبداه رجال الدين من أنهم قد اقترضوا ستين ألفا من الجنيهات للانفاق على هذا الفساد الشائن المعيب • وكانت بولكيريا التى أراحت أخاها من أعباء الامبراطورية ، أقوى عمد الأرثوذكسية وبلغ التحالف بين رعود المجمع وهمسات البلاط درجة من التفوق ضمنت لكيرلس الظفر والنجاح ما دام قد استطاع أن يعزل خصيا ويضع مكانه خصيا آخر يرضى عنه ثيودوسيوس • غير أن الأسقف المصرى لم يستطع أن يفاخر بنصر مجيد حاسم ، ذلك أن الامبراطور تمسك ، فى ثبات غير

مألوف ، بما سبق أن وعد به من حماية لبراءة الأساقفة الشرقيين ، وكان من أثر ذلك أن خفف كيرلس من لعناته ، واعترف فى غموض واحجام بأن للمسيح طبيعة مزدوجة ، قبل أن يسمح له باشباع انتقامه ضد التعس المنكود ، نسطور ٠

وقبل انتهاء المجمع أصبح الأسقف المتهور العنيد ، نسطور ، يواجه اضطهاد كيرلس ونميمة البلاط ، دون أن يلقى الا تأييدا ضعيفا من أصدقائه الشرقيين ، ودفعه احساس بالخوف أو السخط الى التظاهر ، قبل فوات الوقت ، بأنه يبغى نوال مجد التنحى عن منصبه ، وأجيب على الفور الى رغبته ، أو على الأقل الى رجائه ، ورحل مكرما عن أفيسوس الى ديره القديم فى أنطاكيا ، وبعد فترة قصيرة ، نصب خليفتاه ، ماكسيميان وبروكليوس ، أسقفين شرعيين للقسطنطينية ، غير أن البطريرك الذى جرد من رتبته لم يستطع أن يعود فى صمت صومعته الى براءة حياة الرهبنة وأمانها ٠ فقد أسف على ماضيه ، وتذمر من حاضره ، وكان له الحق فى أن يخشى مستقبله ٠ وفصل الأساقفة الشرقيون قضيتهم عن اسمه المكروه ، واحدا بعد الآخر ، ونقص ، يوما بعد يوم ، عدد المنشقين الذين كانوا يحترمونه ويرون فيه راعى العقيدة الذى نذر نفسه لها ٠ وبعد أن أقام أربع سنوات فى أنطاكيا خط ثيودوسيوس بيده مرسوما يضع نسطور فى مرتبة الساحر سيمون ، ويحظر آراءه ويحرم أتباعه من حماية القانون ، ويحكم على كتاباته بالحرق ، ويقرر نفيه الى البطراء فى بلاد العرب ، ثم فى نهاية الأمر الى واحة فى الصحراء الليبية ٠ وظل الرجل المنفى معزولا عن الكنيسة والدنيا ، تطارده سورة التعصب الأعمى والحرب التى شنت عليه ٠ واقتحمت عليه سجنه المنعزل قبيلة مرتحلة من البليميين أى النوبيين ، وعند انسحابهم أطلقوا سراح عدد من الأسرى الذين لا قيمة لهم ، غير أن نسطور ، ما كاد يصل الى ضفاف النيل ، حتى تمنى لو أنه هرب من مدينة رومانية أرثوذكسية الى عبودية الهمج ، وهى عبودية أهون وأقل قسوة ، واعتبر هربه جرما جديدا يعاقب عليه ، وأثار عليه البطريرك سلطات مصر المدنية والدينية ، فأخذ الحكام والجنود والرهبان يعذبون ، بدافع من التقوى ، عدو المسيح وعدو القديس كيرلس ٠ وتعرض الهرطوقى الى الدفع والجذب من مصر الى حدود أثيوبيا حتى تحطم جسمه الذى نالت منه الشيخوخة ، بفعل المحن والحوادث التى تعرض لها فى هذه الرحلات المتكررة ٠ ورغم ذلك ظل عقله مستقلا ثابتا ، ولقيت خطاباته الرعوية احترام رئيس مدينة طيبة ، وامتد به العمر بعد أن مات طاغية الاسكندرية الكاثوليكى ٠ وبعد فترة نفى دامت ستة عشر عاما ، كان من

الجائز أن يعيده مجمع خلقدونية الى مناصب الكنيسة ، أو على الأقل الى أخويتها • غير أن موته منعه من تلبية دعوتهم الكريمة ، كما أن المرض الذى أصيب به قد يجيز قبول الرواية المشينة التى تقول بأن لسانه الذى نطق بالكفر ، كان غذاء لديدان الأرض • ودفن نسطور فى مدينة من مدن مصر العليا اسمها خمنيس ، أو بانوبوليس ، أو أخميم ، غير أن ما أضمره له اليعقوبيون من حقد لا تخبو ناره جعلهم يثابرون عصورا طويلة على قذف قبره بالأحجار ، وعلى ترويج الرواية الحمقاء التى تقول بأن ذلك القبر لم تروه أمطار السماء مطلقا ، وهى التى تنزل على الأبرار والأشرار سواء بسواء • وقد تذرف البشرية دمعة على مصير نسطور ، غير أن العدالة ينبغى أن تقول انه عانى الاضطهاد الذى أجازه وسامه الناس •

هرطقة يوتيكيس
ومجلس افيسوس الثانى

مات الأسقف السكندرى ، بعد عهد دام اثنتين وثلاثين سنة ، وترك الكاثوليك يتمادون فى رعونة الحماس وسوء استغلال النصر ، ونادى رجال الدين فى قوة بعقيدة الطبيعة الواحدة المتجسدة ، وذلك فى كنائس مصر وأديرة الشرق . وحمت قدسية كيرلس عقيدة أبولليناريس البدائيـــة ، وأطلق اسم يوتيكيس ، صديق كيرلس المحترم ، على الطائفة التى عارضت أشد المعارضة هرطقة نسطور السورية • وكان منافسه يوتيكيس رئيسا لدير يضم ثلاثمائة راهب ، غير أن آراء ذلك الناسك البسيط الأمى كان يمكن أن تتلاشى فى الصومعة التى رقد فيها أكثر من سبعين سنة لو أن حنق الحبر البيزنطى ، فلافيان ، أو نزقه ، لم يدفعه الى عرض تلك الفضيحة أمام أبصار العالم المسيحى • وذلك أنه عقـــد على الفور مجمعه المحلى ، وتلوثت تصرفات الأعضاء بالصخب والخدع الماكرة ، وأوقع بالهرطوقى الشيخ فيما يشبه الاعتراف بأن المسيح لم يستمد جسده من مادة العذراء مريم • وقد رفع يوتيكيس هذا القرار المغرض الى مجلس عام ، وأيد قضيته تأييدا قويا ابنه فى المعمودية كريسافيوس ، الذى كانت له السيطرة على خصيان القصر ، وشريكه ديوسكوروس الذى كان قد ورث عرش كيرلس ، ابن شقيق توفيلوس ، كما ورث عقيدته ، ومواهبه ، ورذائله • وتضمن الأمر الخاص الذى أصدره ثيودوسيوس بعقد مجلس أفيسوس الثانى أن يتألف المجلس بصورة حكيمة عادلة من عشرة مطارنة وعشرة أساقفة من

كل من الأبرشيات الست للامبراطورية الشرقية · وبفضل بعض الاستثناءات التى دعت اليها المحاباة أو الجدارة ازداد عدد المجلس الى مائة وخمسة وثلاثين عضوا ، ودعى برسوماس السورى الى الجلوس والتصويت مع خلفاء الحواريين بوصف كونه رئيس الرهبان وممثلهم غير أن استبداد البطريرك السكندرى سيطر مرة ثانية على حرية النقاش ، واستخدمت نفس الأسلحة الروحية والمادية المأخوذة من ترسانات مصر ، وخدم الجنود الأسيويون القدامى ، وهم فرقة من رماة السهام ، تحت أوامر ديوسكوروس ، كما أن الرهبان الأشد بأسا ، الذين لا يعرفون التعقل أو الرحمة ، حاصروا أبواب الكاتدرائية ، وقبل آباء الكنيسة عقيدة كيرلس ، بل ولعناته ، بأصوات عامة لا ضابط لها ولا كابح لجماحها ، وأدينت بصورة رسمية هرطقة الطبيعتين ممثلة فى أشخاص الأساقفة الشرقيين وكتاباتهم · وعبرت هذه الكلمات عن الرغبات الكريمة التى أبداها مجلس كنسى مسيحى : « ان من يشطرون المسيح ليستحقون أن يشطروا بالسيف ، وتقطع أجسادهم قطعا قطعا ويحرقوا أحياء » · وأقر المجلس دون تردد قدسية يوتيكيس وبراءته · غير أن الأساقفة وخاصة أساقفة تراقيا وآسيا ، لم يرغبوا فى عزل بطريركهم بسبب استخدامه ، أو حتى سوء استخدامه ، لقضائه الشرعى · فما كان منهم الا أن قبلوا أقدام ديوسكوروس وهو واقف على كرسى عرشه وقد بدا عليه مظهر التهديد ، واستحلفوه أن يغفر ذنوب أخيه ، ويحترم مكانته ، فقال الطاغية الصارم : « أتريدون اثارة فتنة وتمرد ؟ أين الضباط ؟ » وعند هذه الكلمات اقتحم الكنيسة جمهور ثائر من الرهبان والجنود يحملون الهراوات والسيوف والقيود ، واختبأ الأساقفة الواجفون وراء المذبح ، أو تحت المقاعد ، ولما كانوا مفتقرين الى حماس الاستشهاد ، فقد وقعوا تباعا على أوراق بيضاء ملئت فيما بعد ، بادانة الحبر البيزنطى · وسلم فلافيان على الفور الى الوحوش الضارية التى غصت بهم هذه الساحة الروحية · ودفعهم صوت برسوماس والمثل الذى ضربه ، الى الانتقام للاساءات التى وجهت الى المسيح · ويقال ان بطريرك الاسكندرية أهان أخاه أسقف القسطنطينية ، وصفعه ، وركله ، ووطئه بأقدامه · ومن المؤكد أن الأسقف الضحية مات فى اليوم الثالث متأثرا بالجروح والكدمات التى أصيب بها فى أفيسوس ، قبل أن يصل الى منفاه · وقد استحق المجلس الكنسى الثانى أن يوصم بأنه عصابة من اللصوص والقتلة ، وأن أولئك الذين اتهموا ديوسكوروس بالغوا فى تضخيم عنفه وقسوته ليخففوا من جبن مسلكهم وتذبذبه

مجلس خلقدونية الكنسى

هكذا سادت عقيدة مصر ، غير أن الفريق المهزوم لقى سندا من البابا نفســه الذى واجه دون خوف غضب أتيلا وجنسريك العدوانى · وكان لاهوت البابا ليو ، الذى ضمنه رسالته الشهيرة عن سر التجسد ، موضع اهمال مجمع أفيسوس ، وأهينت سلطته وسلطة الكنيسة اللاتينية فى أشخاص مبعوثيه ، الذين فروا من العبودية والموت ليقصوا القصة المحزنة لطغيان ديوسكوروس أسقف الاسكندرية واستشهاد فلافيان · وقد ألغى مجمعه الاقليمى الاجراءات غير القانونية التى اتخذت فى أفيسوس ، ولكن لما كانت هذه الخطوة نفسها غير قانونية ، فقد طلب عقد مجلس عام فى ولايات ايطاليا الحرة التى تدين بالمذهب الصحيح · وكان الأسقف الرومانى لا يخشى خطرا وهو يتحدث ويعمل من فوق عرشه المستقل على اعتبار آنه هامة المسيحيين · وكتبت أوامره فى ذلة وخضـــوع بلاكيديا ، (ابنة ثيودوسيوس الأول) ، وابنها فالنتينيان اللذان ناشدا زملاءهما فى الشرق أن يعيدوا للكنيسة هدوءها ووحدتها · غير أن العظمة الجوفاء التى اتسمت بها الملكية الشرقية هى أيضا حركتها يد الخصى بمهارة مماثلة ، واستطاع ثيودوسيوس أن يعلن ، دون تردد ، أن الكنيسة هادئة وظافرة فعلا ، وأن القصاص العادل الذى ناله نسطور قد أطفأ النار التى اندلعت أخيرا · ومن الجائز أن اليونان كان يمكن أن يتم ادخالهم فى هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة لو أن جواد الامبراطور لم يتعثر به ويسقط الامبراطور من فوق ظهره ، وكان ذلك من حسن حظ اليونان ، فمات الامبراطور ، وخلفته أخته الأرثوذوكسية بلكيريا ، ومعها زوجها الذى كان زوجا بالاسم فقط · وأحرق كريسافيوس ، وألحق العار بديوسكوروس ، وأعيد المنفيون الى وطنهم . ووقع الأساقفة الشرقيون رسالة البابا ليو · غير أن البابا خاب أمله فى مشروعه الذى كان يعتز به ، وهو عقد مجلس لاتينى · وازدرى أن يرأس المجمع اليونانى الذى انعقد على عجل بمدينة نيقيا فى بيثينيا ، وطلب مبعوثوه بلهجة قاطعة حاســمة حضور الامبراطور ، ونقل الآبــاء المجهدون الى خلقدونية تحت أبصار ماركيان وسناتو القسطنطينية مباشرة·

وعلى مسيرة ربع ميل من بوسفور تراقيا ، كانت كنيسة القديسة يوفيميا Euphemia مشــيدة على قمــة منحــدر متــدرج شاهق ، واشــتهر مبناها الثلاثى بأنه معجزة من معجزات الفن ، وكان منظر الأرض والبحر الذى لا تصل العين الى نهايته كفيلا بأن يسمو بعقل رجل الدين الى تأمل خالق الكون · واصطف بنظام فى صحن تلك الكنيسة ستمائة وثلاثون من الأساقفة ، غير أن بطاركة الشرق وقفوا خلف مبعوثى البابا ، وكان ثالث

هؤلاء المبعوثين قسيسا عاديا ، وخصص مكان الشرف لعشرين من العلماء ممن هم فى مرتبة القناصل وأعضاء السناتو · ووضع الانجيل فى مكان متوسط بارز ، غير أن ممثلى البابا والامبراطور ، الذين رأسوا الجلسات الثلاث عشرة التى عقدها مجلس خلقدونية ، جددوا قانون الايمان ، وأخرس توسطهم الجزئى تلك الصيحات واللعنات الهوجاء التى تحط من الوقار الأسقفى · غير أن الاتهام الرسمى الذى وجهه مبعوثو البابا الى ديوسكوروس أرغمه على النزول من عرشه الى مستوى مجرم أدين بالفعل فى نظر قضاته · أما الشرقيون ، وهم أقل عدواة لنسطور منهم لكيرلس · فقد قبلوا أن يأتيهم الخلاص على أيدى الرومان ، وثار غضب تراقيا وبنطس وآسيا لمقتل الأسقف فلافيان ، أما البطاركة الجدد للقسطنطينية وأنطاكيا فقد وطدوا مراكزهم بالتضحية بولى نعمتهم · وكان أساقفة فلسطين ومقدونيا واليونان يؤيدون عقيدة كيرلس ، غير أن زعماءهم ، فى مواجهة المجمع وفى حرارة المعركة ، اتجهوا من الجناح الأيمن الى الجناح الأيسر ، تتبعهم حاشيتهم الخاضعة المنقادة ، وحققوا انتصار ذلك الفريق بهذه الخيانة التى جاءت فى وقتها المناسب · أما مساعدو الأساقفة السبعة عشر الذين أبحروا من الاسكندرية ، فقد أمكن اغراء أربعة منهم على التخلى عن ولائهم ، وارتمى الثلاثة عشر على الأرض يلتمسون رحمة المجلس بالدموع والتأوهات قائلين فى حزن انهم اذا أذعنوا ، فسوف يذبحهم الشعب الحانق عند عودتهم الى مصر · وسمح لشركاء ديوسكوروس بالتوبة المتأخرة للتكفير عن ذنوبهم أو أخطائهم ، غير أن آثامهم تراكمت فوق رأسه ، ولم يطلب هو العفو أو يأمل فيه · وضاع اعتدال أولئك الذين التمسوا عفوا عاما وسط صيحة النصر والانتقام السائدة · ولانقاذ سمعة أنصاره السابقين ، أذاع خصومه فى مهارة بعض اساءات شخصية اقترفها ، كقرار الحرمان الطائش غير القانونى الذى أصدره ضد البابا ، ورفضه المتسم بالعصيان والتمرد (عندما كان مسجونا) تنفيذ المثول أمام المجلس · وجىء بشهود لاثبات الحقائق الخاصة التى تدل على كبريائه وجشعه وقسوته ، واستمع آباء الكنيسة فى مقت وكراهية الى أن صدقات الكنيسة كانت تنفق فى سخاء على الراقصات ، وأن قصره وحمامه ، كانا مفتوحين لعاهرات الاسكندرية ، وأن العاهرة يانصوفيا ، أو ايرين كانت تكرم علانية كخليلة البطريرك ·

من أجل هذه الذنوب الشائنة عزل المجمع ديوسكوروس ونفاه الامبراطور ، غير أن نقاء عقيدته أعلن فى حضور آباء الكنيسة وبموافقتهم الضمنية · ودفعهم الحرص الى التسليم ، دون التصريح ، بهرطقة يوتيكيس ، الذى لم يستدع للحضور أمام محكمتهم ، وجلسوا فى صمت

وخجل عندما رمى أحد اليعقوبيين (أنصار الطبيعة الواحدة) كتابا من تأليف كيرلس تحت أقدامهم ، وتحداهم أن يلعنوا فى شخصه عقيدة القديس . واذا نحن قرأنا بامعان قوانين خلقدونية كما سجلها الفريق الأرثوذكسى ، فسوف نجد أن أكثرية كبيرة من الأساقفة كانوا يؤمنون بوحدة المسيح البسيطة ، أما التسليم المبهم بأنه « كان مكونا » من طبيعتين ، أو أنه « تكون » من طبيعتين ، فقد يعنى بالنسبة لهاتين الطبيعتين وجودا سابقا ، أو امتزاجا لاحقا ، أو وجود فترة خطيرة بين الحبل بالانسان وبين صعود الاله . وكان اللاهوت الرومانى أكثر قطعية ودقة ، واستخدم العبارة التى نفرت منها أسماع المصريين أشد النفور ، وهى أن المسيح كان موجودا « فى » طبيعتين ، وهذه النقطة الخطيرة (التى ينبغى أن تعيها الذاكرة أكثر من أن يعيها الادراك) كادت أن تخلق شقاقا بين الأساقفة الكاثوليك . وكانوا قد وقعوا رسالة البابا ليو فى احترام ، وربما فى صدق واخلاص ، غير أنهم اعترضوا فى مناقشتين متعاقبتين بأنه ليس من الأمور المجدية أو القانونية أن يجاوزوا الخطوط المقدسة التى تقررت فى نيقيا ، والقسطنطينية وأفيسوس ، طبقا لقانون الكتاب المقدس وللتراث . وفى نهاية الأمر أذعنوا لالحاح سادتهم واصرارهم ، غير أن قرارهم الثابت المنزه عن الخطأ ، بعد أن صودق عليه بأصوات حازمة وهتافات حارة ، هدم فى الجلسة التالية نتيجة معارضة مبعوثى البابا وأصدقائهم الشرقيين. وذهبت أدراج الرياح أصوات جمهور من الأساقفة كانت تردد بصورة جماعية : « ان تعريف آباء الكنيسة هو تعريف صحيح لا يقبل التغير ! وقد انكشف الآن أمر الهراطقة ! اللعنة على النساطرة ! فليغادروا المجمع ! فليعودوا الى روما » . وقد وقف مبعوثو البابا موقف التهديد ، وتشدد الامبراطور ، فتألفت لجنة من ثمانية عشر أسقفا قامت بوضع قرار جديد فرض على المجتمعين وهم كارهون . وباسم المجلس العام الرابع أعلن الى العالم الكاثوليكى أن المسيح كان فى أقنوم واحد ، ولكنه فى طبيعتين . وهكذا رسم خط غير مرئى بين هرطقة أبوللیناریس وايمان القديس كيرلس، وأصبح الطريق الى الجنة ، وهو طريق دقيق كحد السيف ، معلقا فوق الهاوية بفضل براعة الفنان واللاهوتى . ولقد ظلت أوروبا خلال عشرة قرون من الجهل والعبودية تتلقى آراءها الدينية من وحى الفاتيكان ، وظل المذهب نفسه ، الذى طلاه صدأ القدم ، يجد له مكانا فى عقيدة المصلحين دون جدل أو مناقشة ، رغم أنهم نبذوا سيطرة الحبر الرومانى . ولا يزال مجمع خلقدونية منتصرا فى كنائس البروتستانت ، غير أن ثورة الجدل هدأت حدتها ، وأصبح أكثر المسيحيين ورعا وتقوى يجهلون فى الوقت الحاضر معتقدهم الخاص فيما يتعلق بسر التجسد ، أو لا يكترثون به .

ولقد كان موقف اليونان والمصريين فى عهدى ليو وماركيان مختلفا عن ذلك اختلافا كبيرا ونفذ هذان الامبراطوران الدينيان بقوة السلاح وبالمراسيم ما كانا يعتبرانه رمزا لايمانهما ، وأعلن خمسمائة من الأساقفة ، بدافع من الضمير أو الشرف ، أن قرارات مجمع خلقدونية يمكن تأييدها من الناحية الشرعية ، بل وبالدماء • ولاحظ الكاثوليك فى رضا أن ذلك المجمع نفسه كان موضع كراهية النساطرة واليعقوبيين على السواء ، غير أن النساطرة كانوا أقل غضبا ، أو أقل قوة ، ووقع الشرق فى حيرة وارتباك بسبب الحماس العنيد الدموى الذى اتسم به اليعقوبيون (المتشيعون للطبيعة الواحدة) • واحتل أورشليم جيش من الرهبان الذين ارتكبوا ، باسم الطبيعة الواحدة المتجسدة ، جرائم النهب والحرق ، والقتل ، وتلوث قبر المسيح بالدم ، ووضعت أبواب المدينة الصاخبة الثائرة تحت الحراسة ضد قوات الامبراطور • وبعد أن لحق العار بديوسكوروس وأبعد عن البلاد ، ظل المصريون يأسفون على أبيهم الروحى ، ويمقتون خليفته الذى اغتصب مركزه ، والذى جاء به آباء خلقدونية • وكان عرش ذلك المغتصب ، بروتيريوس Proterius ، مستندا الى حرس قوامه ألفان من الجنود ، وقد شن حربا دامت خمس سنوات ضد شعب الاسكندرية ، وبعد أن وصلهم أول نبأ عن موت ماركيان ، أصبح ذلك الرجل ضحية حماسهم • ففى اليوم الثالث قبل عيد القيامة حوصر البطريرك فى الكاتدرائية ، وقتل فى مكان العماد ، وألقيت جثته الممزقة فى النار ، وترك رمادها تذروه الرياح ، وقيل ان هذا العمل أوحى به طيف أحد الملائكة • وخلفه فى منصبه وفى آرائه راهب طموح اسمه تيموتاوس القط ، وأشعلت نار هذا التعصب القاتل من الجانبين بفعل مبدأ الثأر وممارسته • وذبح عدة آلاف من الناس فى متابعة ذلك الخلاف الميتافيزيقى ، وحرم المسيحيون من كل مرتبة من متع الحياة الاجتماعية الكثيرة ، ومن البركات الخفية التى تأتيهم من المعمودية ، ومن تناول القربان المقدس • ومن الجائز أن تخفى أسطورة جامحة الخيال ترددت فى تلك العصور ، صورة رمزية لهؤلاء المتعصبين الذين عذبوا أنفسهم وعذب بعضهم بعضا • وفى هذا الشأن قال أحد الأساقفة الوقورين: « فى عهد قنصلية فينانتيوس وكلر تملك شعب الاسكندرية وشعب مصر كلها جنون عجيب شيطانى ، فالكبار والصغار ، والأرقاء والأحرار ، والرهبان والكهنة ، وسكان البلاد الوطنيون الذين عارضوا مجمع خلقدونية ، كل هؤلاء فقدوا عقلهم وقدرتهم على التعبير ، وأخذوا ينبحون كالكلاب ، ويمزقون اللحم من أيديهم وأذرعتهم بأنيابهم هم أنفسهم » •

قانون التوفيق الذى وضعه زينون

وفى نهاية الأمر أسفرت الاضطرابات التى دامت ثلاثين عاما عن القانون الشهير الذى وضعه الامبراطور زينون ووقعه فى عهده وفى عهد أنسناسيوس كل أساقفة الشرق بعد أن هددوا بعقوبة التجريد والنفى اذا رفضوا أو انتهكوا ذلك القانون الأساسى المفيد • وقد يبتسم رجال الدين أو يزمجرون لغرور رجل علمانى يحدد قواعد الايمان ، غير أن ذلك الرجل، اذا كان قد طأطأ رأسه وقبل المهمة المذلة ، فان عقله كان أقل تلوثا بالهوى أو المصلحة وسلطة الحاكم لا يمكن الاحتفاظ بها الا بموافقة الشعب • ولقد بدأ زيبون فى قصة التاريخ الكنسى فى صورة أقل ما يكون مدعاة للاحتقار ، وليس فى مقدورى أن أتبين أى ذنب من ذنوب مانى أو يوتيكيس فى القول الكريم الذى قاله أناستاسيوس انه لم يكن جديرا بامبراطور أن يضطهد عباد المسيح أو مواطنى روما • ولقد اغتبط المصريون كل الاغتباط لقانون زينون ، ومع ذلك فان عيون رجال اللاهوت المتسمين بالغيرة ، بل وبالتحيز ، لم تكتشف فى هذا القانون أقل عيب ، وهو يمثل بصورة دقيقة ايمان الكاثوليك فيما يختص بالتجسد دون أن يقر أو ينبذ الألفاظ أو المبادىء الخاصة التى استخدمتها الطوائف المادية • وقد وجه لعنــة رسمية الى نسطور ويوتيكيس ، والى كل الهراطقة الذين قالوا بانشطار المسيح ، أو بامتزاجه ، أو بأنه طيف وخيال • وأكد فى احترام العقيدة الخالصة التى وضعها القديس كيرلس ، وعقيدة نيقيا ، والقسطنطينية ، وافيسوس ، دون أن يضع تعريفا لكلمــة « الطبيعة » من حيث العدد أو القيمة • وبدلا من أن يبدى قانون زينــون احترامه للمجلس الرابع ، فانه تجاهل هذا الموضوع بأن وجه اللوم والنقد الى كل المذاهب المعارضة ، اذا كانت أمثال هذه المذاهب قد قيل بها فى خلقدونية أو فى أى مكان آخر • وبفضل هذا التعبير الغامض المبهم كان يمكن لأنصار المجلس الأخير وأعدائه أن يتحدوا ويتعانقوا عناقا صامتا • ولقد أقر أكثر المسيحيين فطنة هذا النوع من التسامح ، غير أن عقلهم كان ضعيفا ويعوزه الثبات ، واعتبر خضوعهم ذلة وجبنا فى نظر اخوتهم المتسمين بالجرأة والحماس المتقد • وكان من العسير ، أن يقف المرء على الحياد الدقيق ، فى موضوع شغل أفكار الناس وأحاديثهم ، فأى كتاب ، أو عظة ، أو صلاة ، كانت كفيلة باشتعال نار الخصــومة من جديد ، وكثيرا ما كانت أواصر الأخوة تنفصم ثم تلتئم من جراء العداوة الشخصية بين الأساقفة • وامتلأت الفجوة التى كانت قائمة بين آراء نسطور وآراء يوتيكيس بألوان كثيرة من الآراء والتعابير ، وفى مقدور المرء أن يجد عند طرفى السلم اللاهوتى طائفة

مصر المفتقرة الى الزعامة ، وأحبار روما ، تحدوهم جميعا شجاعة متكافئة . وان كانت قوتهم غير متعادلة · ولقد انفصلت طائفة مصر هذه ، وهى دون ملك أو أسقف ، أكثر من ثلاثمائة سنة عن بطاركة الاسكندرية الذين قبلوا مذهب القسطنطينية دون أن ينتزعوا ادانة رسمية لمجمع خلقدونية · وبالمثل انصبت لعنة البابوات على بطاركة القسطنطينية لأنهم قبلوا مذهب الاسكندرية دون موافقة رسمية من المجمع نفسه · وترتب على استبدادهم العنيد أن أصيبت كنائس اليونان الأرثوذوكسية المتطرفة بهذه العدوى الروحية ، وأنكر هؤلاء البابوات على تلك الكنائس صلاحية قربانها المقدس · أو ساورهم الشك فى صلاحيته ، وأثاروا الشقاق بين الشرق والغرب فترة قدرها خمس وثلاثون سنة ، حتى محوا فى نهاية الأمر ذكر أربعة من أحبار بيزنطة الذين كانوا قد تجاسروا على معارضة سيادة القديس بطرس · وقبل ذلك العهد ، كانت الهدنة المزعزعة بين القسطنطينية قد انتهكها الأحبار المتنافسون مدفوعين بالحماس الدينى · وقد أيد مقدونيوس ، الذى اتهم بالهرطقة النسطوزية ، مجمع خلقدونية ، رغم وجوده فى المنفى ورغم العار الذى لصق به ، وفى الوقت عينه كان خليفة سيرلس على استعداد لشراء انهيار ذلك المجمع برشوة قدرها ألفان من الجنيهات الذهبية ·

وفى حمى تلك العصور كان معنى مقطع لفظى ، أو قل صورة ذلك المقطع ، كافيا لازعاج سلم الامبراطورية بأكملها · فعبارة « قدوس ، قدوس ، هو رب الجنود » Trisigion هى فى نظر اليونان نفس التسبيح الذى تكرره الملائكة والشاروبيم أمام عرش الله ، وهى التى تجلت بصورة معجزة لكنيسة القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس · وسرعان ما أضاف اليها ورع أنطاكيا عبارة : « الذى صلب من أجلنا ! » ، وهذا الابتهال المعبر عن الشكر ، للمسيح وحده ، أو للثالوث كله ، قد تبرره قواعد اللاهوت ، واستخدمه شيئا فشيئا كاثوليك الشرق والغرب · غير أن أسقفا يعقوبيا كان من قبل قد تخيل ذلك التسبيح ورفضت فى أول الأمر هبة ذلك العدو على اعتبار أنها كفر مريع خطير ، وكادت تلك البدعة الطائشة تكلف الامبراطور أناستاسيوس عرشه وحياته · وكان أهل القسطنطينية يفتقرون الى أية مبادىء رشيدة للحرية ، ولكنهم كانوا يعتبرون لون رداء من أردية السباق ، أو مسحة طقس غامضة من الطقوس الدينية فى المدارس ، سببا مشروعا للتمرد · وحدث فى الكاتدرائية ان رتل ذلك التسبيح بهذه الاضافة الممقوتة وبدونها ، فرقتان متعارضتان · وعندما بحت أصواتهم لجأوا الى حجج أقوى ، هى العصى والأحجار . وعاقب الامبراطور المعتدين ، وحماهم البطريرك ، ومن ثم فان ذلك الشجار

لخطر عرض تاج الملك وتاج الأسقفية للخطر · وامتلأت الطرقات على الفور بجماهير عديدة من الرجال والنساء والأطفال ، وسارت على رأسهم فرق من الرهبان فى صفوف منظمة وهم يضربون ويصيحون : « أيها المسيحيون ! هذا هو يوم الاستشهاد ، يجب ألا نتخلى عن أبينا الروحى ، اللعنة على الطاغية الذى يدين بعقيدة مانى ، فانه غير جدير بالحكم » · تلك كانت صيحة الكاثوليك ، واستعدت سفن أناستاسيوس بمجاذيفها أمام القصر حتى عفا البطريرك عن مليكه التائب ، وأسكت شغب أمواج الجمهور الهائج · وسرعان ما صدر الأمر بنفى مقدونيوس ، وبذلك أوقف انتصاره · غير أن حماس رعيته ثار ثانية للسؤال نفسه : « هل صلب أحد الأقانيم الثلاثة ؟ » وفى هذه المناسبة الخطيرة أوقفت وحطمت القسطنطينية الزرقاء والخضراء ما كان هناك من خلاف بينها ، وحطمت السلطات المدنية والعسكرية فى حضورهم ، ووضعت مفاتيح المدينة ، وأعلام الحراس فى ساحة قسطنطين ، وهى مركز المؤمنين الرئيسى ومعسكرهم · وانشغل هؤلاء المؤمنون ليلا ونهارا فى انشاد الترانيم لمجد ربهم ، أو فى سرقة أتباع مليكهم وقتلهم · ورفعت على حربة طويلة رأس الراهب الذى اكتسب حظوة الملك ، وهو الراهب الذى أطلق عليه اسم صديق عدو الثالوث الأقدس · وقذفت مبانى الهراطقة بجذوات النار التى نشرت الحرائق فى تلك المبانى وفى مبانى الأرثوذوكس سواء بسواء ودون تمييز · وحطمت تماثيل الامبراطور ، أما الامبراطور نفسه فقد اختبأ فى احدى الضواحى ثلاثة أيام حتى واتته الشجاعة لالتماس رحمة رعاياه · وأظهر أناستاسيوس على المنصة الملكية فى ساحة السيرك ، وهو مجرد من تاجه ، وفى وضع السائل المتوسل · وأنشد الكاثوليك أمام وجهه دعاءهم الأصلى الصحيح ، وهللوا للعرض الذى أعلنه على لسان المنادى ، بأنه سوف يتنحى عن العرش · واستمعوا الى العظة التى تقول بأنه ما دام الشعب كله لا يستطيع أن يحكم ، فلابد من أن يتفق مقدما على اختيار الملك ، ورحب الناس بدم وزيرين مكروهين لم يتردد مولاهما فى الحكم عليهما بأن يكونا فريسة الأسود · وهذه الفتن العنيفة العابرة لقيت ما يشجعها فى ظفر فيتاليان الذى نصب نفسه نصيرا للعقيدة الكاثوليكية يؤيده جيش من الهون والبلغار الذين كان أغلبهم من الوثنيين · وهذه الثورة الدينية أقفرت تراقيا من سكانها ، وحاصر القسطنطينية ، وأباد خمسة وستين ألفا من زملائه المسيحيين حتى حصل على وعد باعادة الأساقفة وارضاء البابا واقرار مجلس خلقدونية · كما اضطر أناستاسيوس وهو على فراش الموت الى أن يوقع وهو كاره معاهدة أرثوذكسية ، نفذها من بعده عمه جستينيان بصورة أكثر أمانة واخلاصا · تلك كانت قصة أول الحروب الدينية التى شنها تلاميذ رب السلام ، وباسم رب السلام ·

لاهوت جستنيان

لقد سبق أن عالجنا شخصية جستنيان فى نواح مختلفة بوصفه ملكا ، وفاتحا ، ومشرعا ٠ ولا يزال باقيا علينا أن نراه رجلا من رجال اللاهوت ، ولا شك فى أنه من المآخذ التى ليست فى صالحه أن لاهوته كان يشكل سمة بارزة من سمات صورته ٠ ولقد عطف هذا الملك على رعاياه فى احترامهم الخرافى للأحياء والأموات من القديسين ، وجاءت مجموعة قوانينه Code ، ويوجه أخص اضافاته القانونية الجديدة Novels تؤكد امتيازات رجال الدين وتوسعها ، وفى كل نزاع بين راهب وعلمانى ، كان ذلك القاضى المغرض يقرر أن الحق والبراءة والعدالة فى جانب الكنيسة دائما ٠ وكان الامبراطور فى عبادته العامة دءوبا ومثلا يحتذى ، وتمثلت فى صلواته ، وصياماته وسهره الليالى للتعبد ، التوبة الصارمة التى يتسم بها الراهب ، وداعب خياله الأمل فى أن يكون ذا الهام شخصى ، أو الاعتقاد بأنه كذلك ٠ وكان قد ضمن لنفسه رعاية العذراء والقديس ميخائيل ، أحد كبار الملائكة ، ونسب شفاءه من مرض خطير الى العون المعجز الذى تلقاه من الشهيدين المقدسين كوزماس ودميان ٠ وزينت العاصمة وولايات الشرق بآثار ديانته ، ومع أن الجزء الأكبر من هذه الصروح الباهظة التكاليف يمكن أن ينسب الى ذوقه أو زهوه ، الا أن حماس ذلك المهندس المعمارى الملكى ربما دفعه اليه احساس أصيل بالحب والامتنان نحو أولياء نعمته غير المرئيين ٠ وكان لقب « الملك التقى » ، من بين ألقاب العظمة الامبراطورية ، هو اللقب الذى تطرب له أذنه أجمل الطرب ٠ وكان الشغل الشاغل فى حياته أن يشجع مصلحة الكنيسة الدنيوية والروحية ، وكثيرا ما ضحى بواجبه كوالد لبلاده فى سبيل واجبه كحامى حمى الايمان ٠ ولاءمت نزعات ذلك العصر خلقه ومداركه ، ولابد أن أساتذة اللاهوت كانوا يسخرون فى دخيلة أنفسهم من مثابرة رجل غريب عن ذلك المجال على تنمية فنهم واهمال فنه ٠ ولقد قال متآمر جرىء لشركائه : « ماذا تخشون من طاغيتكم الذى أعماه التحمس لعقيدته ؟ انه يسهر الليالى بأكملها فى مخدعه وهو أعزل ، يناقش أصحاب اللحى البيضاء ، ويقلب صفحات المجلدات الدينية » ٠ وتجلت ثمار هذه الدراسات الليلية فى كثير من المؤتمرات حيث كان جستينيان يتالق كأشد المجادلين دهاء وأعلاهم صوتا ، وفى كثير من العظات التى أعلنت للامبراطورية لاهوت المليك تحت اسم المراسيم والرسائل ٠ وبينما كان المتبربرون يغزون ولايات الامبراطورية ، وتسير فرقهم الظافرة تحت أعلام بليساريوس ونارسيس ، كان خليفة تراجان ، الذى لم يره الجنود فى معسكرهم ،

يقنع بالنصر والظفر على رأس مجمع ديني • ولو أن جستينيان دعا الى تلك المجامع مشاهدا عاقلا منصفا ، لعلم « ان الخصومة الدينية وليدة الزهو والحماقة ، وأن الورع الحقيقي يعبر عنه الصمت والخضوع أصدق تعبير ، وأن الانسان الذى يجهل طبيعته هو نفسه ، يجب ألا يتجرأ على تحليل طبيعة الله ، وأنه يكفينا أن ندرك أن القوة والبر هما الصفتان الكاملتان اللتان يتصف بهما الرب » •

ولم يكن التسامح من فضائل ذلك العصر ، كما أن العفو عن الثوار قلما كان من فضائل الملوك • غير أن الملك ، اذا ما انحدر الى طابع الشراسة وضيق الأفق الذى يتسم به المجادل ، أصبح من السهل أن يستثار الى التعويض عن قصور الحجة باظهار قوته الكاملة ، وأن يعاقب دون شفقة أو رحمة معارضيه المفتقرين الى الابصار الذين يتعمدون اغلاق عيونهم حتى لا يروا ضوء الدليل والبرهان • ولقد كان عهد جستينيان مشهدا واحدا للاضطهاد • وان اتخذ هذا الاضطهاد أشكالا مختلفة ، ويبدو أنه بز أسلافه المتراخين المتوانين فى ابتداع القوانين وفى صرامة تنفيذها على السواء • وقد أمهل جميع الهراطقة فترة قصيرة قدرها ثلاثة شهور للارتداد والا كان مصيرهم النفى ، واذا كان قد ظل متغاضيا عن بقائهم المزعزع فى البلاد ، فقد حرمهم ظلمه ونيره ، لا من مزايا المجتمع فحسب ، بل من حقوقهم الطبيعية كبشر وكمسيحيين ، وهى حقوق مشتركة للجميع • وفى نهاية اربعمائة سنة كان أتباع مونتانوس من أهل فريجية لا يزالون ينفثون حماس الكمال والنبوءة الجامح الذى غذاهم به رسلهم الناطقون بالروح القدس ، ذكورا واناثا • وعند اقتراب القساوسة والجنود الكاثوليك رحب هؤلاء الناس فى سرور بالموت والاستشهاد ، وحرق مبنى جمعيتهم الدينية وهلك المجتمعون فى النار ، غير أن هؤلاء المتعصبين البدائيين ظلوا قائمين دون أن يندثروا بعد ثلاثمئة سنة من موت طاغيتهم • وكانت كنيسة الآريوسيين فى القسطنطينية ، تحت حماية الحلفاء القوط ، وقد واجهت قسوة القوانين دون اكتراث أو مبالاة ، وكان قساوستهم يضارعون أعضاء السناتو فى ثرائهم وفخامتهم ، واستولت يد جستينيان الجشعة على ما كان فى الكنيسة من ذهب وفضة ، ولعله اعتبره بمثابة أسلاب الولايات وغنائم المتبربرين ، وكانت هناك بقية من الوثنيين لا يزالون متوارين عن الأنظار ، ويعيش بعضهم فى أحسن الأوضاع الانسانية ، بينما يعيش البعض الآخر فى أخشنها وأبسطها ، وقد أثار هؤلاء الوثنيون سخط المسيحيين الذين ربما كانوا غير راغبين فى أن يكون هناك أى شهود من الغرباء على خلافاتهم ونزاعاتهم الداخلية • ومن ثم فقد عين أسقف ليكون محققا يتحرى شئون

العقيدة ، وسرعان ما اكتشفت عينه اليقظة ، في البلاط وفي المدينـة ، أولئك الحكام ، ورجال القانون ، والأطباء ، والسفسطائيين الذين ما زالوا يعتنقون خرافة اليونان • وقد طلب اليهم في قسوة وجفاء أن يختاروا دون ابطاء بين غضب الههم جوبيتر وبين غضب جستينيان ، وقيل لهـم ان كراهيتهم للانجيل لم يعد ممكنا أن تتوارى وراء قناع فاضح من الالحاد وعدم الاكتراث • وربما كان النبيل فوتيوس هو وحده الذى عقد العزم على أن يعيش ويموت كما عاش آباؤه وأجداده من قبل ، فحرر نفسه بضربة خنجر ، وترك لطاغيته عزاء تافها وضيعا هو عرض جثة اللاجىء الشارد بصورة شائنة بعد ان فقد صاحبها حياته • أما اخوانه الأكثر ضعفا ، فقد خضعوا لمليكهم الدنيوى وأدوا شعائر المعمودية ، وجاهدوا في حماس خارق نحو ريبة الوثنية أو التكفير عن ذنبهـا • وكان البلد الذى نشأ فيه هوميروس ، والذى كان مسرحا لحرب تراجان ، لا يزال يحتفظ بآخر جذوات أساطيره ، وبفضل عناية الأسقف نفسه ، أمكن اكتشاف سبعين ألفا من الوثنيين ، وتم تحولهم الى المسيحية ، في ولايات آسـيا وفريجيا ، وليديا ، وكاريا ، وبنيت للمهتدين الجدد ست وتسعون كنيسة زودها سخاء جستينيان بملابس الكهنة التيلية ، وبالأناجيل والطقوس الدينية ، وبالأواني الذهبية والفضية • أما اليهود ، الذين كانـوا قد جـردوا من امتيازاتهم شيئا فشيئا ، فقد وقعوا تحت وطأة قانون مزعج أرغمهم على الاحتفال بعيد الفصح في نفس اليوم الذى يحتفل فيـه المسيحيون بهذا العيد • وكان لهم الحق في أن يجاروا بالشكوى على أساس أقوى ، وهو أن الكاثوليك أنفسهم لم يوافقوا على التقديرات الفلكية التى أتى بهـا مليكهم ، وأجل أهل القسطنطينية بدء صومهم الكبير أسبوعا بأكمله بعد اليوم الذى قررته السلطات ، وكان من دواعى سرورهم أن يظلوا صائمين سبعة أيام ، بينما كان اللحم يعرض للبيع بأمر الامبراطور • أما السامريون الفلسطينيون ، فقد كانوا جنسا خليطا ، وطائفة غامضة ، ينبذهم الوثنيون بوصف كونهـم من اليهـود ، وينبذهم اليهود باعتبـارهم من المنشقين ، وينبذهم الكاثوليك على أساس أنهم من الوثنيين • وكان فزعهم من الصليب ومقتهم له قد زرع من قبل فوق جبلهم المقدس ، جبل جرزيم ، غير أن اضطهاد جستينيان لم يتح لهم خيارا الا المعمودية أو الثورة ، فاختاروا لأنفسهم الثورة ، وهبوا للقتال تحت راية زعيم يائس مستميت ، وثاروا للأذى الذى لحق بهم بالاعتداء على أرواح شعب أعزل ، وعلى ممتلكاته ومعابده • وفى نهاية الأمر أخضعتهم قوات الشرق النظامية ، وذبح منهم عشرون ألفا ، وباع منهم العرب عددا مماثلا الى كفار فارس والهند ، وكفرت بقية تلك الأمة التعسة المنكودة عن جريمة الخيانة بخطيئة النفاق • وقدر

أن مائة ألف من رعايا الرومان هلكوا فى الحرب السامرية التى حولت الولاية التى كانت من قبل ولاية مزدهرة منتجة الى بيداء قاحلة يتصاعد منها الدخان غير أن جزيرة القتل فى عقيدة جستينيان كانت لا تنطبق على ذبح الكفار ، ومن ثم فقد عمل جاهدا وبدافع من التقوى على اقرار وحدة العقيدة المسيحية باستخدام النار والسيف ٠

وكان من الواجب عليه ، على الأقل ، وهو يشعر بهذه الأحاسيس ، أن يلتزم الحق دائما ٠ وفى السنوات الأولى من حكمه أعلن عن غيرته على الأرثوذوكسية بوصف كونه تلميذها وراعيها ٠ وترتب على الوفاق الذى تم بين اليونان واللاتين أن أصبحت رسالة القديس ليو عقيدة الامبراطور ، وتعرض أتباع نسطور وأتباع يوتيكيس لاضطهاد ذى حدين ، من جانب اليونان ومن جانب اللاتين ، وأقر قانون مشرع كاثوليكى تلك المجامع الدينية الأربعة التى عقدت فى نيقيا ، والقسطنطينية ، وافيسوس ، وخلقدونية ٠ ولكن بينما حاول جستينيان أن يحافظ على وحدة العقيدة والعبادة ، كانت زوجته تيودورا ، التى لم تتعارض رذائلها مع تعبدها ، قد استمعت الى معلمين من اليعقوبيين ، وانتعش أولئك الذين كانوا يناصبون الكنيسة العداء سرا أو علانية ، وتضاعف عددهم بفضل الابتسامة الكريمة التى علت وجه مولاتهم ٠ وتمزقت العاصمة ، والقصر وفراش الزوجية بفعل الخلاف الروحي ٠ ومع ذلك فان صدق الزوجين الملكيين كان أمرا مشكوكا فيه الى درجة أن خلافهم الظاهرى نسبه الكثيرون الى تحالف سرى خبيث ضد ديانة الشعب وسعادته ٠ وهذه الروح الماكرة المراوغة انما يتسم بها اتساما عميقا ذلك النزاع الشهير الذى نشب حول « الفصول الثلاثة » ، وهو نزاع ملأ من المجلدات أكثر مما يستحق أن يملأ من سطور ٠ وكانت قد انقضت اذ ذاك ثلاثمائة سنة منذ أن أكل الدود جثمان أوريجن (١) Origen ، وأصبحت روحه ، التى آمن بأنها كانت كائنة من قبل ، فى يد خالقها ، غير أن كتاباته كان رهبان فلسطين يطالعونها فى شغف ، واكتشفت عين جستينيان النافذة فى هذه الكتابات عشرة أخطاء ميتافيزيقية ، وقرر رجال الدين أن ذلك الأستاذ البدائى لابد أن يكون فى نار جهنم الأبدية التى تجرأ على انكارها ، وهو هناك فى صحبة أفلاطون وفيثاغورس ، وتحت ستار هذه السابقة صوبت ضربة غادرة الى مجلس خلقدونية ٠ وكان آباء الكنيسة قد استمعوا دون ملل الى اطراء أهل موبسوستيا Mobsuestia وكان عدلهم أو تسامحهم قد أعاد

(١) كاتب ومعلم يونانى واحد آباء الكنيسة ـ عاش بين سنتى ١٨٥ ـ ٢٥٤ م ٠

تيودورت أسقف كرخا ، وايبـاس أسقف أذاســا (الرها) الى أخوية الكنيسة ، غير أن شخصيات هؤلاء الأساقفة كانت ملوثة بعيب الهرطقة ، فالأول كان أستاذا لنسطور ، والاثنان الآخران كانا من أصدقائه ، ووجه الاتهام تحت عنوان « الفصول الثلاثة » الى فقرات كتبوها وكانت موضعا لأقوى الشكوك والريب ، ولابد أن ادانة ذكراهم قد أحرجت شرف مجمع ديني كان العالم الكاثوليكي يذكر اسمه باحترام صادق أو مصطنع ، وهؤلاء الأساقفة ، سواء أكانوا أبرياء أم مذنبين ، اذا كانت أشخاصهم قد تلاشت في سبات الموت ، فلم يكن المحتمل أن توقظهـا تلك الضـجة التي أثيرت فوق قبرهم بعد انقضاء مائة سنة ٠ واذا كانوا بين أنياب الشيطان ، فان يد البشر لن تستطيع زيادة آلامهم وعذابهم أو تخفيفها ، واذا كانوا ينعمون بثواب التقوى في صحبة القديسين والملائكة ، فلابد أنهم ابتسموا لذلك الهياج التافه الباطل الذى تملك الحشرات اللاهوتية التي ما زالت تزحف على سطح الأرض ٠ وكان امبراطور الرومان في طليعة هذه الحشرات ، فصوب لدغته ، ونفث سمه ، وربما فعل ذلك دون أن يتبين البواعث الحقيقية لزوجته تيودورا وحزبها الدينى ٠ ولم يعد هؤلاء الضحايا في متناول سلطته ، ولم تستطع مراسيمه بأسلوبها المتقد أن تفعل شيئا أكثر من أن تعلن هلاك هؤلاء الأساقفة ، وتدعو رجال الدين في الشرق الى الاشتراك في صب اللعنات عليهم ٠ وقد استجاب الشرق في شيء من التردد ، لصوت مليكه ، وعقد في القسطنطينية مجلس عام خامس يضم ثلاثة بطاركة ومائة وخمسة وستين أسقفا ، وأعلن ذلك المجلس أن مؤلفي « الفصــــول الثلاثة » والمدافعين عنها قد فصلوا من أخوية القديسين ، وأسلمهم رسميا الى ملك الظلام ٠ غير أن الكنائس اللاتينية كانت أكثر غيرة على شرف ليو وشرف مجمع خلقدونية ، ولو أنها قاتلت كما قاتلت دائما تحت راية روما ، لكان من الجائز أن يسود رأيها في قيمة العقل والانسانية ٠ غير أن رئيسها كان سجينا في أيدى العدو ، وكان عرش القديس بطرس قد ألحق به العار فيجليوس الذى كان يتاجر في الرتب الكهنوتية ، ثم خانه في جبن واستكانة حين أذعن بعد كفاح طويل متقلب الى استبداد جستينيان وسفسطة اليونان، وأثار ارتداده عن العقيدة سخط اللاتين ، ولم يقبل الا اثنان من الأساقفة أن يضعوا أيديهم على رأس شماسه وخليفته بيلاجيوس ٠ غير أن مثابرة البابوات نقلت الى خصومهم بصورة غير محسوسة اسم المنشقين ٠ أما كنائس الليريا وأفريقيا وايطاليا فقد كانت تنوء تحت ضغط السلطات المدنية والدينية ، ولم يخل الأمر من الاستعانة بشيء من القوة العسكرية ، ونسخ المتبربرون البعيدون عقيدة الفاتيكان ، وفي مدى قرن واحد تلاشى الانشقاق الذى حدث من جـراء

« الفصول الثلاثة » في ركن مظلم من ولاية فينيسيا ، غير أن التذمر الديني الذي شعر به الايطاليون كان قد شجع بالفعل غزوات اللمبارد ، ودرج الرومان أنفسهم على الارتياب في عقيدة طاغيتهم البيزنطى ، وعلى كراهية حكومتـــه ٠

ولم يكن جستينيان ثابتا ولا مستقرا على حال في عملية تحديد آرائه المتقبلة وآراء رعيته ٠ وكان في شبابه يستـــتاء لأقل انحراف عن الخط الأرثوذكسي ، ولكنه في شيخوخته تجاوز حد الهرطقة المعتدلة ، وأساء الى اليعقوبيين والى الكاثوليك على السواء باعلانه أن جسد المسيح كان غير قابل للفساد ، وأن رجولته لم تخضع مطلقا لأية حاجات أو علل من تلك التى ورثتهـا أجسادنا الفانية ٠ وقد أعلن هذا الرأى الخيالى في مراسيمه الأخيرة ، وفي لحظة رحيله المناسب عن هذا العالم ، كان رجال الدين قد رفضوا التوقيع بموافقتهم على آرائه ، وكان الملك على استعداد للقيام بأعمال الاضطهاد ، وأصر الشعب على تحمل الاضطهاد أو المقاومة ، وتوجه أسقف من تريف Treves بخطاب الى عاهل الشرق في لغة السلطان والمحبة ، وكان الأسقف اذ ذاك بعيداً عن متناول سلطة الملك ، فقال : « أيها الامبراطور الجليل جستينيان ، تذكر معموديتك وعقيدتك ، ولا تلوث شيخوختك بالهرطقة ٠ أرجع آباء الكنيسة من منفاهم ، وأنقذ أتباعك من الهلاك ٠ انك لا يمكن أن تجهل أن ايطاليا وبلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا ، قد أصبحت ترثي لسقطتك وتلعن اسمك ٠ فاذا لم تحطم ما ناديت به دون ابطاء ، واذا لم تطلق الصـــوت عاليـا وتقول ، لقد أخطأت ، لقد أذنبت ، اللعنة على نسطور ويوتيكيس ، فانك تلقى بروحك الى ألسنة النار التي سوف يحترقان فيها الى الأبد » ، غير أنه مات دون أن يأبه بشيء ٠ واستعادت الكنيسة بموته هدوءها بعض الشيء ، وتميزت عهود خلفائه الأربعة ، جستين ، وتيبريوس ، وموريس ، وفوكاس ، بأن تاريخ الشرق الديني قد خلا من ذكرهم ، وكان ذلك شيئا نادر الحدوث ، وان كان من حسن حظهم ٠

★★★

حاول هرقل أن يسترضي اليعقوبيين بعقيدة المشيئة الواحدة ، وهي القائلة بأن المسيح كانت له مشـيئة واحـدة ، غير أن انتصـاره ولاهوته الدبلوماسي جاءا متأخرين اذ كانت الفتوحات العربية وشيكة الوقوع ٠

في الفصل الثامن والأربعين ، وهو المحذوف ، هنا ، لخص جيبون خطة الجزءين الصـغيرين الأخيرين من كتابه ، وأعطى بيـانا بالتعاقب الامبراطورى في أربع أسرات رئيسية من هرقل (٦١٠ ـ ٦٦٤) الى غزو اللاتين للقسطنطينية في ١٢٠٤ ، والجدول الآتى يحل محله :

أسرة هرقليوس
٦١٠ – ٧١٧ م

هزم هرقل الفرس ووقف أول وقفة ضد الاسلام · وترتب على هزيمته في سنة ٦٣٦ على ضفاف اليرموك أن خسرت الامبراطورية سوريا · وسقطت أورشليم فى سنة ٦٣٨ ، والاسكندرية فى ٦٤٧ (انظر الفصل الحادى والخمسين) ·

وفى سنة ٦٧٩ عبر البلغار الدانوب ، وكان الجزء الأخير من عهد أسرة هرقل فترة انحلال ·

أسرة الايسوريين ٧١٧ – ٨٦٧ م – محطمو التماثيل الدينية

استطاع ليو الثالث الايسورى (٧١٧ – ٧٤٠) ، أن يحبط هجوما كبيرا قام به العرب على القسطنطينية ··

وفى سنة ٧٥٤ أدان المجمع المسكونى السابع المنعقد فى القسطنطينية عبادة التماثيل الدينية وأعادت الامبراطورة ايرين (٧٩٧ – ٨٠٢) مؤقتا استخدام التماثيل · وأقرت هذا الأمر الامبراطورة تيودورا فى ٨٤٣ م (انظر الفصل التاسع والأربعين) ·

وقد تنحو النزاعات التى دارت حول التماثيل الى اخفاء حقيقة هامة وهي أن محطمي التماثيل منحوا الامبراطورية تنظيما مدنيـــا وعسكريا جديدا ، وحاولوا تكييف القانون الرومانى حسب الحاجات القائمـــة ، وتحرير السلطة المدنية من نفوذ الرهبان ·

وانتهت الأسرة الايسورية بمقتل ليو الخامس (٨١٣ – ٨٢٠) · وجاء بعده عهد أسرة فريجيا القصير (٨٢٠ – ٨٦٧) ··

أسرة المقدونيين
٨٦٧ – ١٠٥٧ م

أسس هذه الأسرة باسيل الأول (٨٦٧ – ٨٦٨) · وكان من بين خلفه قسطنطين السابع بورفيرو جنيتوس (٩١٢ – ٩٥٩) ، وزوج أمه رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ – ٩٤٤) ويوحنا الأول زيمسكيس (٩٦٩ – ٩٧٠) الذى أنجب ثلاث بنات ، يودوكسيا الراهبة ، وتيودورا وزوى Zoe · وسيطرت المتاعب الشخصية والسياســية للسيدتين الأخيرتين على المشهد الامبراطورى حتى موت تيودورا فى ١٠٥٦ · وبقيت

هذه الأسرة سنة أخرى تحت حكم ميخائيل ستراتيوتيكوس الذى عينته تيودورا •

وخلال هذه الفترة ظهر تعارض سـياسى جديد فى أوروبا بين الامبراطور والبطريرك فى الشرق من ناحية ، وبين الامبراطور والبابا فى الغرب من ناحية أخرى • وخلق الشقاق بين الكنائس ، وأصبح انشقاقا نهائيا فى سنة ١٠٥٤ • وأصبحت الأمم السلافية أهم من أمم الغرب من الناحية السياحية بالنسبة للامبراطورية الرومانية •

وفى القرنين التاسع والعاشر استعادت الامبراطورية بعض سلطتها وأملاكها • واستحدث قسطنطين السابع اصلاحات فى القانون ، ونهضة فكرية (انظر الفصل ٥٣) • واسترد نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) ، ويوحنا زيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦) ولايتى سوريا والعراق من المسلمين • وحطم باسيل الثانى بولجارو كتونوس : أى ذابح البلغـار ، سلطة السلاف • وبعد موته تدهورت للمرة الثانية قوة الامبراطورية ، واضمحل رخاؤها •

الأسرة الكمنينية
(١٠٥٧ - ١٢٠٤ م)

تنحى عن العرش اسحق الأول كمنينوس (١٠٥٧ - ١٠٥٩) ، وتلت ذلك فترة عصيبة منكوبة تميزت بانتصار الترك السلاجقة فى منزيكرت فى سنة ١٠٧١ ، وكان ذلك مقدمة لفقدان آسيا الصغرى كلها (انظر الفصل السابع والخمسـين) • وأسس ابن شـقيقه اسحق أسرة مالكة فى سنة ١٠٨١ • وبدأ عصرا من الاصلاح • وفى ذلك الوقت اتجه الشرق نحو الغرب ، وتبين الغرب من نواح مختلفة أن هناك فوائد يمكن الحصول عليها من الشرق • وفى سـنة ١٠٩٥ بدأت الحرب الصليبيـة الأولى • وأصيبت الامبراطورية بضربة قاتلة فى سنة ١٢٠٤ عندما أسفرت الحرب الصليبية الكمنينية الرابعة عن الاستيلاء على القسطنطينية ونهبها ، والقضاء على الأسرة المالكة • (انظر الفصل الستين) •

الفصل التاسع والأربعون
(٧٢٦ ـ ٨١٤)

عبادة الصور والتماثيــل • ليو محطم التماثيــل • ثــورة ايطاليا • علاقات بين وشارلمان بالبابوات • اعادة التماثيل والصــور في الشرق • انفصــال البــابوات النهــائى عن الامبراطورية الشرقية • عهد شارلمان وأخلاقه • حكم شارل الرابع ومقارنته بأغسطس •

فى العلاقة بين الكنيسة والدولة اعتبرت الكنيســة تابعــة للدولة فقط ، ومتصلة بها وهذه قاعدة مفيدة ، لو أنها روعيت فى واقع الحال مراعاة دقيقة كما راعيتها فى القصة التاريخية ، ولقد تعمدت أن أترك لعلماء اللاهوت الشغوفين بالمعرفة والتأمل موضــوع فلسفة الغنوصيين الشرقية ، والموضوع المحاط بالغموض الشديد المتعلق بالقدرية والنعمة ، والتحول العجيب للقربان المقدس من الرمز الى مادة جسم المسيح • غير أنى استعرضت فى جد وسرور موضوعات التاريخ الدينى التى كان لها أثرها الملموس فى انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، وموضوعات انتشار المسيحية ، وتكوين الكنيسة الكاثوليكيــة ، ودمار الوثنيــة ، والطوائف التى نشأت من المجادلات والنزاعات الغامضة المتعلقة بالتثليث والتجسد • وفى مقدورنا بحق أن نضع فى مصاف هذه الموضوعات وعلى رأسها ، عبادة التماثيل والصور الدينية ، التى ثار حولها جدل عنيف فى القرنين الثامن والتاسع ، لأن هذا الموضوع الذى تمثلت فيه الخرافة الشعبية قد أسفر عن ثورة فى ايطاليا ، واستحواذ البابوات على سلطة زمنية ، وعودة الامبراطورية الرومانية فى الغرب •

ولقد كان المسيحيون الأولون يمقتون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية واساءة استخدامها ، وقد ترجع هذه الكراهية الى أنهم

كانوا من نسل اليهود ، والى عداوتهم لليونان · وكانت الشريعة الموسوية قد حرمت بشدة وصرامة كل ما يمثل الله ، ورسخت هذه السنة رسوخا قويا ثابتا في مبادىء الشعب المختار وفي تصرفاته وفعاله · ووجه المحاجون والمجادلون المسيحيون ذكاءهم الى مناهضة الوثنيين الحمقى الذين كانوا يحنون رءوسهم أمام ما تصنعه أيديهم ، وهي التماثيل النحاسية والرخامية التي ، لو أنها أوتيت الفهم والحركة ، لكان الأحرى أن تثير قاعدتها الافتتان بالقدرة الخلاقة التي اتسم بها صانعها الفنان · ومن الجائز أن بعض المتحولين الحديثين الى المسيحية من أمثال الغنوصيين ، وهم الذين لم يكن ايمانهم كاملا ، كانوا يتوجون تماثيل المسيح والقديس بولس بالكرامات الدنيوية التي أضفوها على تماثيـــل أرسطو وفيثاغورس ، غير أن ديانة الكاثوليك العامة كانت بسيطة وروحية على وتيرة واحدة ، وورد أول ذكر لاستخدام الصـــور في النقـــد الذى أصدره مجلس الليبريس الكنسى بعد ثلاثمائة سنة من العهد المسيحي · وفي عهد خلفاء قسطنطين ، حين كانت الكنيسة تتمتع بالهدوء والرخاء والظفر ، تفضل الأساقفة الأكثر حكمـــة بالتجاوز عن خرافة واضحة في سبيل منفعة الجمهور ، وبعد أن اندثرت الوثنية لم يعد يكبلهم الخوف من خـــرافة ممقوتة مماثلة · وتمثلت أول عبادة للرموز في تبجيل الصليب وبقايا القديسين ، وتصور الناس أن القديسين والشهداء الذين يطلبون شفاعتهم كانوا يجلسون الى يمين الله · غير أن الكرامات والأفضال الخيرة ، الخارقة للطبيعة في كثير من الأحيان ، والتي كانوا يعتقدون أنها تنهمر حول أضرحتهم ، كانت تبرر بصورة أكيدة مسلك الحجاج الأتقياء الذين كانوا يزورون تلك الآثار الخالية من الحياة ، ويلمسونها ، ويقبلونها ، على اعتبار أنها آثار فضائلهم وآلامهم · غير أن الأثر التذكارى الأهم من جمجمة الراحل صاحب الكرامات هو وجود صورة صادقة لشخصه وملامحه من خلق فن الرســم أو النحت ، وأمثال هذه الصور ، التي تتفق مع المشاعر البشرية وتلائمها ، كانت في كل عصر من العصور موضع الترحيب والاعزاز بفضل حمية المحبة الفردية أو الاجلال العام · ولقد كانت تماثيل أباطرة الرومان موضـــع التكريم المدنى ، بل والديني ، غير أن تماثيل الحكماء وأبطال الوطن كانت تمنح احتراما أقل زهوا ولكنه أكثر اخلاصا وصدقا ، وهذه الفضائل الدنيوية ، أو قل هذه الذنوب الرائعة ، تلاشت الى جانب أولئك المقدسين من الناس الذين ماتوا من قبل في سبيل الملكوت السماوى الدائم · وفي بادىء الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل في حرص وتورع ، واتجه استخدام الصـــور المقدسة في شيء من الحكمة الى تهذيب الجهلة ، وايقـاظ ذوى الايمان الفاتر ، واشباع تحيز المهتدين الوثنيين · ثم تطور الأمـر تطورا بطيئا ،

وان يكن حتميا ، فانتقلت أمجاد الأصل الى الصورة ، وأخذ أتقياء المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القديس ، وتسربت الى الكنيسة الكاثوليكية شعائر الوثنية المتمثلة في الركوع ، وايقاد الشموع ، وحرق البخور ٠ وصمت صوت العقل أو التقوى أمام دليل قوى جاءت به الرؤى والمعجزات وسرى الاعتقاد بأن الصور التى تتكلم ، وتتحرك ، وتنزف الدم ، لابد أن تكون قد وهبت قوة الهية ، ويمكن اعتبارها موضعا صحيحا للعبادة الدينية ٠ ولا شك في أن أجرأ قلم قد يرتعد ويهتز اذا تملكه التهور وحاول أن يرسم الروح اللانهائية غير المحدودة وهى الآب الأزلى الأبدى الذى يسرى في الكون كله ويحافظ عليه ٠ غير أن العقل الذى سيطرت عليه الخرافة استباح لنفسه في سهولة أن يصور الملائكة ويعبدهم ، وفوق كل شيء صورة ابن الله ، في الشكل البشرى الذى تنازلوا باتخاذه ٠ ولقد كان الأقنوم الثانى من الثالوث مغطى بجسد بشرى حقيقى ، غير أن ذلك الجسد صعد الى السماء ، ولولا أن أعين تلاميذه شاهدت شبهه ، لتلاشت عبادة المسيح الروحية أمام بقايا القديسين المنظورة وصورهم ٠ وكان من اللازم والمناسب أن يحدث مثل ذلك التجاوز فيما يتعلق بالعذراء مريم ، اذ كان القبر الذى دفنت فيه مجهولا ، وصدق اليونان واللاتين أن روحها وجسدها صعدا الى السماء ٠ ورسخ استخدام التماثيل والصور ، بل وعبادتها ، قبل نهاية القرن السادس ، وكان الخيال الخصيب الذى تمتع به اليونان والآسيويون يتقبلها ويرحب بها ، وازدان البانثيون والفاتيكان برموز خرافة جديدة ٠ غير أن المتبربرين الخشنين ورجال الدين الآريوسيين في الغرب تقبلوا بفتور تلك الخرافة التي تشبه عبادة الأوثان ٠ أما خيال اليونان المسيحيين وضميرهم فقد نفرا من التماثيل الضخمة الصارخة المصنوعة من النحاس أو الرخام ، وكان في رأيهم أن طلاء هادئا من الألوان يعتبر أسلوبا للمحاكاة أكثر لياقة وأقل ايذاء للنظر ٠

وتتوقف ميزة الصورة وأثرها على مشابهتها للأصل ، غير أن المسيحيين الأولين كانوا يجهلون الملامح الأصلية الصادقة لابن الله ، وأمه ، وحوارييه ، ومن الأرجح أن تمثال المسيح في مدينة بانياس Paneas بفلسطين كان تمثالا لمنقذ أو مخلص دنيوى ٠ وقد نبذ الغنوصيون وأدينوا هم وتماثيلهم الدنسة ، ولم يجد خيال الفنانين المسيحيين ما يسترشد به الا أن يقلد بطريقة سرية بعض النماذج الوثنية ٠ ثم تكونت خرافة جديدة على أساس شعبى من قصة سورية تحكى أمر الرسالة التى

أرسلها المسيح الى أبجاروس Abgaros (١) ، وهى قصة ذاع خبرها فى أيام يوسيبيوس (٢) ، وتخلى عنها أنصارها الحديثون على غير رغبة منهم • وقد سجل أسقف قيصرية هذه الرسالة ، ومن العجب العجاب أنه نسى صورة المسيح ـ وهى انطباعة كاملة لوجهه على قطعة من القماش ، أشبع بها المسيح ايمان ذلك الملكى الغريب الذى كان قد استنجد بقدرته على الشفاء ، وعرض مدينة أذاسا القوية لتحميه من حقد اليهود • وتفسير جهل الكنيسة الأولى بهذا الموضوع هو أن الصورة ظلت حبيسة فترة طويلة من الوقت فى فجوة باحدى الجدران ، وبعد أن نسيت هناك خمسمائة سنة أخرجها أحد الأساقفة الحكماء ، وبدأ يعبدها أبناء تلك العصور ، وأول مأثرة لتلك الصورة ، بل وأعظم مآثرها مجدا ، هى أنها أنقذت المدينة من جيوش كسرى أنوشروان ، وسرعان ما لقيت الاحترام والتبجيل على اعتبار أنها ضمان للوعد الالهى بأن أذاسا لن يستولى عليها عدو أجنبى مطلقا • ومع أن النص الذى أورده المؤرخ بروكوبيوس ينسب انقاذ المدينة مرتين الى ثراء وشجاعة مواطنيها الذين اشتروا تغيب الملك الفارسى ، وصدوا هجمات جيوشه ، الا أن المؤرخ الدنس كان يجهل الشهادة التى اضطر الى الادلاء بها فى التاريخ الدينى الذى ألفه ايفاجريوس (٣) ، وهى أن تمثال البلاديوم Palladium (٤) كان مكشوفا فوق الحصن ، وأن الماء الذى نثر على الوجه المقدس ألهب حماس المحاصرين داخل المدينة بدلا من أن يطفئه • وبعد هذه الكرامة الجليلة بقيت صورة أذاسا موضع الاحترام وعرفان الجميل ، واذا كان أهل أرمينيا قد نبذوا الأسطورة ، الا أن اليونان الذين هم أكثر تصديقا عبدوا الصورة التى لم تكن من صنع بشر ، بل من خلق الأصل الالهى مباشرة • وهناك نشيد بيزنطى يبين أسلوبه والمشاعر التى يعبر عنها الى أى مدى كانت عبادة هؤلاء الناس بعيدة عن الوثنية الفاضحة • يقول النشيد : « كيف تستطيع بعيوننا البشرية الفانية أن نتأمل هذه الصورة التى لا يجرؤ جنود السماء أن يشاهدوا بهاءها الالهى ؟ انه « هو » الساكن فى السماء قد تنازل اليوم بزيارتنا عن طريق صورته

---

(١) أحد ملوك ميزوبوتاميا (العراق الآن) •

(٢) أسقف قيصرية (٢٦٠ ـ ٣٤٠ م) •

(٣) مؤرخ الكنيسة (٥٣٦ ـ ٦٠٠) • وكان مستشارا قانونيا لجريجورى بطريرك أنطاكيا ، ودافع عنه فى القسطنطينية ضد التهم الموجهة اليه • وله كتاب اسمه التاريخ الكنسى فى ستة مجلدات •

(٤) تمثال باللاس اثينا Pallas Athena الذى قيل ان بقاءه كان ضمانا لأمان طروادة وكان موجودا فى كثير من المدن الاخرى •

المقدسة ، انه « هو » الجالس على عرش الملائكة قد زارنا اليوم بصورة رسمها الآب بيده الطاهرة وشكلها بطريقة لا يمكن وصفها ، وهى صورة نقدسها ونعبدها فى خوف ومحبة » . وقبل نهاية القرن السادس انتشرت فى معسكرات الامبراطورية الشرقية ومدنها تلك الصور التى لم ترسمها يد بشرية (وقد عبرت اللغة اليونانية عن هذه العبارة بكلمة واحدة) ، وفى ساعة الخطر أو الشغب والهياج ، كان وجودها المقدس ينعش الأمل فى صدور الفرق الرومانية ، أو يذكى شجاعتها ، أو يهدىء من ثورتها وغضبها . وكانت أكثر هذه الصور من صنع ريشة البشر ، ولم يكن فى مقدور صانعها أن يزعم الا أنها تحمل للأصل شبها ثانويا ، ولهذا لم يكن الاسم الذى يطلق عليها مناسبا . غير أنه كانت هناك صور أخرى جاءت من مصدر أسمى وأعلى ، واستمدت شبهها من اتصال مباشر بالأصل ، ووهبت من أجل ذلك قدرة معجزة مثمرة . وكانت أكثر هذه الصور طموحا تتطلع الى الارتقاء فى محاكاتها لصور أذاسا من شبه الابن لأبيه الى شبه الأخ لأخيه . وهذا شأن صورة المنديل فى روما ، أو أسبانيا ، أو أورشليم ، وهو المنديل الذى مسح به المسيح عرقه الدموى وهو فى ذروة ألمه ، ثم أعطاه للقديسة فيرونيكا . وانتقلت هذه السابقة المثمرة الى العذراء مريم ، والى القديسين والشهداء . ففى كنيسة ديوسبوليس بفلسطين ، نقشت ملامح أم الله نقشا عميقا على عمود من الرخام . وازدان الشرق والغرب بصور من ريشة القديس لوقا ، وهذا الحوارى الانجيلى ، الذى ربما كان طبيبا ، اضطر الى ممارسة مهنة الرسم ، التى كانت مهنة دنسة ممقوتة فى نظر المسيحيين الأولين . ومن الجائز أن يبعث تمثال جوبيتر القائم على جبل أولمبوس والذى خلقه شعر هوميروس ونحته المثال فيدياس، روح الورع والتعبد فى عقلية فلسفية فترة من الوقت ، غير أن تلك الصور الكاثوليكية رسمها فنانون من الرهبان بطريقة لا تأثير لها وتدل على أشد الانحطاط فى الذوق والعبقرية (١) .

« ليو » محطم التماثيل

تسربت عبادة الصور والتماثيل الدينية الى الكنيسة شيئا فشيئا وبطريقة غير محسوسة . وكانت كل خطوة صغيرة تبهج العقل المؤمن بالخرافات لأنها تمنحه العزاء والبرء من الذنوب . ولكن فى بدء القرن

(١) « ان أشكالك المعيبة تكاد تبرز من القماش ، وهى لا تقل عن التماثيل فى رداءتها » . هكذا أطرى قسيس يونانى ، فى جهل أو تعصب ، صورا قدمها له الرسام تيتيان ، وكان القسيس قد طلبها منه ثم رفض قبولها .

الثامن ، حين كان سيرة استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته ، أيقظ اليونان الأكثر تهيبا خوفهم من أنهم ، تحت ستار المسيحية ، قد أعادوا ديانة آبائهم وأجدادهم وسمعوا في حزن وملل وصمهم بالوثنيين — وهي تهمة وجهها اليهم بصورة مستمرة اليهود والمسلمون الذين استمدوا من شريعة موسى ومن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوتة ولكل عبادة لغير الله . ومن الجائز أن عبودية اليهـــود كبحت حماســهم وأضعفت سلطانهم ، غير أن المسلمين الظافرين ، الذين حكموا دمشـــق وهددوا القسطنطينية ، ألقوا في ميزان التأنيب والتقريع وزنا ثقيلا متراكما ، هو وزن الحق والنصر . وكانت مدن ســوريا وفلسطين ومصر محصنة بصور وتماثيل المسيح ، وأمه ، وقديسيه ، وعللت كل مدينة نفسهــا بالأمل في دفاع معجز أو بأنها وعدت بذلك الدفاع . وفي غضون عشر سنوات استغراقتها فتوحات العرب السريعة ، أخضعوا تلك المدن وتغلبوا على تلك التماثيل ، وكان في رأيهم أن رب الجنود قد أصدر حكما فاصلا بين عبادة هذه الأوثان الصماء الخالية من الحياة وبين ازدرائها واحتقارها . وقاومت مدينة أذاســا فترة من الوقت هجمات الفرس ، غير أن المدينة المختارة ، عروس المسيح ، أصابها الدمار المشترك ، وأصبحت صورته الالهية أسيرة في أيدى الذين لا يؤمنون به وشاهدا على انتصارهم . وبعد استرقاق دام ثلاثمائة سنة أعيد تمثال البلاديوم الى القسطنطينية المتعبدة نظير فدية تقدرها اثنا عشر ألف جنيه من الفضة واطلاق سراح مائتين من المسلمين ، وعقد هدنة دائمة لاقليم أذاسا . وفي هذه الفترة التي سادتها المحنة وطغى عليها الخوف والفزع استخدم الرهبان فصاحتهم في الدفاع عن الصور والتماثيل ، وحاولوا أن يثبتوا أن خطيئـــة الجزء الأكبر من الشرقيين والشقاق الذى حدث بينهم قد أفقدهم عطف هذه الرموز الثمينة وقضى على قيمتها وميزتها . غير أن هؤلاء الرهبان بدءوا الآن يجابهون تذمر الكثير من بسطاء المسيحيين أو عقلائهم الذين استشهدوا بالنصوص ، والحقائق ، وبما كان يجرى في العصور الأولى وكانوا في دخيلة أنفسهم يرغبون في اصلاح الكنيسة . وبما أن عبادة الصور والتماثيل لم تكن قد أقرتهــا أية قوانين عامة أو وضـــعية ، لهذا كان نموها في الامبراطورية الشرقية بطيئا أو سريعا تبعا لاختلاف الناس والعادات ، ودرجة الرقي المحلي ، وأخلاق وشخصيات الأساقفة . ومن ثم فان تلك العبادة الرائعة كانت موضـــع الترحيب في العاصمة التي اتسمت بالرعونة والطيش ، وشجعتها العبقرية المبدعة التي اتصف بها رجال الدين البيزنطيون . أما أقاليم آسيا البدائية النائية فقد كانت غريبة على تلك البدعة من الترف المقدس . ولقد احتفظت جماعات كثيرة من الغنوصيين والآريوسيين بعد تحولها الى المسيحية بتلك العبادة البسيطة التي سبقت انفصالهم ، وظل

اهل أرمينيا ، وهم أشجع رعايا روما ، لا يطيقون رؤية الصور والتماثيل حتي القرن الثانى عشر • وظلت هذه الطوائف المختلفة من الناس تختزن معينا من الكراهية لها والتحيز ضدها ، وكانت تلك الكراهية قليلة الأثر والأهمية فى قرى الأناضول وتراقيا ، ولكنها ربما كانت في أغلب الأحيان تؤثر في مستقبل الجندى ، أو الأسقف أو الخصى •

وكان الامبراطور ليو الثالث أسعد هؤلاء المغامرين حظا ، وهو الذى جاء من جبال أيسوريا ليرتقى عرش الشرق ، وكان يجهل الأدب الدينى والدنيوى ، غير أن تعليمه ، وعقله ، وربما اتصاله باليهود والعرب ، كل أولئك بعث فى الفلاح العسكرى كراهية الصور والتماثيل ، وكان يعتقد أن واجب الملك يحتم عليه أن يفرض على رعيته ما يمليه ضميره • غير أنه فى بدء عهد غير مستقر ، وخلال عشر سنوات من الكدح والخطر ، خضع لحقـــارة النفـــاق ، وانحنى أمام الأصنام التى احتقرها ، وأرضى الحبر الرومانى بأن كان يجهر سنويا بأرثوذوكسيته وغيرته الدينية • وعندما بدأ اصلاح الديانة كانت خطواته الأولى معتدلة وحريصة ، فجمع مجلسا كبيرا من الأساقفة والسناتو ، وأصدر بموافقتهم قانونا يقضي بنقل كل الصور والتماثيل من المحراب والمذبح الى مكان مرتفع فى الكنيسة ، حيث تستطيع الأبصار رؤيتها ، وحيث تكون بمنأى عن خرافة الشعب • غير أنه كان مستحيلا من هذا الجانب أو ذاك كبت الحافز السريع ، وان يكن حافزا متعارضا ، وهو حافز التقديس من ناحية ، والكراهية من الناحية الأخرى ، فالصور المقدسة ظلت في ذلك الوضع المرتفع تُغْنِى أنصـــارها وتشين الطاغية ، وقد ثار هو نفسه لتلك المقاومة ولهذا الاتهام العنيف ، وأتهمه حزبه بأنه لم يقم بواجبه كاملا ، وألح عليه بأن يحذو حذو الملك اليهودى الذي لم يتورع عن تحطيم الثعبان النحاسي الذى كان في الهيكل • فأصدر مرسوما ثانيا حرم فيه وجود الصور الدينية واستخدامها سواء بسواء • وعلى هذا طهرت كنائس القسطنطينية والولايات من الوثنيـــة ، وأزيلت صور المسيح ، والعذراء ، والقديسين ، أو طليت جدران المبني بطبقة رقيقة من الطلاء • ولقد لقيت طائفة محطمي الصور سندا وتأييدا من ستة أباطرة يحكمون بأمرهم ويفيضون حماسا ، واشتبك الشرق والغرب في صراع صاخب دام مائة وعشرين عاما • وكانت خطة ليو الايسورى أن يصدر حكما يدين فيه الصور على أن يكون ذلك الحـــكم جزءا من العقيدة ، وبمقتضي سلطة مجلس عام ، غير أن دعوة مثل هذا المجلس كانت من نصيب ابنه قسطنطين (١) • ورغم أن التعصب الدينى الظافر قد وصم ذلك المجلس

---

(١) هو قسطنطين الخامس (٧٤١ ــ ٧٧٥) •

بأنه اجتماع يضم الحمقى والملحدين ، الا أن القرارات المغرضة المبتورة التى أصدرها هؤلاء الناس انما تحمل الكثير من علائم التعقل والتقوى • وقد أسفرت مناقشات وقرارات كثير من المجالس الكنسية فى الولايات عن دعوة مجلس عام عقد فى ضواحى القسطنطينية ، وتألف من عدد محترم من أساقفة أوربا والأناضول بلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين أسقفا ، لأن بطاركة أنطاكيا والاسكندرية كانوا عبيد الخليفة ، كما أن الحبر الرومانى كان قد أبعد كنائس ايطاليا والغرب عن الاتصال باليونان • واحتل ذلك المجمع البيزنطى مرتبة المجلس العام السابع واتخذ سلطاته ، ومع ذلك فان هذا الاسم نفسه كان بمثابة اعتراف بالمجالس الستة السابقة ، التى عملت جاهدة على بناء صرح العقيدة الكاثوليكية • وبعد مناقشات خطيرة دامت ستة أشهر أصدر هؤلاء الأساقفة قرارا اجماعيا حمل توقيعاتهم ، وهو يقضى بأن كل الرموز المرئية ، الا فى القربان المقدس ، تعتبر الحادا أو هرطقة ، وبأن عبادة الصور هو افساد للمسيحية وتجديد للوثنية ، وبأن الذين يرفضون تسليم الأشياء التى تعبدها خرافتهم الخاصة ، انما يقترفون جريرة عصيان سلطة الكنيسة وسلطة الامبراطور • وهلل الأساقفة فى أصوات عالية مخلصة ، وأشادوا بفضائل فاديهم ومخلصهم الدنيوى ، ووكلوا الى غيرته وعدالته تنفيذ أحكامهم الروحية • وفى مجلس القسطنطينية ، كما فى المجالس السابقة ، كانت ارادة الملك هى سنة الايمان الأسقفى ، غير أنى ، فيما يختص بتلك المناسبة ، أميل الى الشك فى أن أكثرية كبيرة من الأساقفة ، قد ضحوا بضمائرهم الباطنة مدفوعين بالأمل أو الخوف • وكان المسيحيون فى الفترة المظلمة الطويلة التى سادت فيها الخرافة قد ابتعدوا كثيرا عن بساطة الانجيل ، ولم يكن من السهل عليهم أن يتبينوا الدليل ، ويعودوا ادراجهم خارجين من منعطفات تلك المتاهة • وامتزجت عبادة الصور امتزاجا كاملا ، على الأقل فى خيال أصحاب الورع ، والتقوى ، بالصليب ، والعذراء ، والقديسيين وآثارهم ، وغطت الأرض المقدسة سحابة من المعجزات والرؤى ، وتخدرت أعصاب العقل ، وحب الاستطلاع والميل الى الشك بعادات الطاعة والتصديق • وقد اتهم قسطنطين نفسه بأنه أجاز باذن ملكى الشك فى أسرار الكاثوليك ، او انكارها ، أو السخرية منها ، غير أن تلك الأسرار كانت راسخة فى عقيدة أساقفته العامة ، ولم يكن فى مقدور أجرأ محطمى الصور والتماثيل الدينية أن يهاجم آثار العبادة العامة الا وهو يشعر بالفزع والرهبة فى دخيلة نفسه ، تلك الصور والتماثيل التى كرست لمجد سادته السماويين• وفى حركة الاصلاح التى قامت فى القرن السادس عشر كانت الحرية والمعرفة قد وسعت مواهب الانسان ومداركه ، وطغى التعطش الى التجديد

على احترام القديم ، واستطاعت حيوية أوروبا أن تحتقر تلك الأشباح والأطياف التي كانت تزعج ضعف اليونان المتسم بالذلة والمرض .

ولا يمكن أن تنكشف فضيحة هرطقة مجردة الا اذا أعلنها للناس صوت النفير الديني ، غير أن أكثر الناس جهلا يستطيعون رؤية تدنيس آلهتهم المرئية وسقوطها ، كما أنه أقلهم حسا لابد أن يشعروا بذلك . وقد وجه ليو أول هجماته العدائية الى تمثال مرتفع للمسيح في مدخل القصر وفوق بابه ، وأعد سلما للقيام بهذا الهجوم ، غير أن جمهورا من المتحمسين والنساء طوحوا به في عنف وقسوة ، وشاهد هؤلاء الناس في نشوة دينية زبانية التدنيس وهم يسقطون من ذلك الارتفاع ويرتطمون بالأرض ، واستشهد هؤلاء المجرمون الذين استحقوا قصاص القتل والثورة ، وأساءوا بذلك الى أمجاد الشهداء القدامى . وقام الناس بالكثير من الهياج والشغب في القسطنطينية وفي الولايات لمقاومة تنفيذ القرارات الامبراطورية ، وتعرض شخص الامبراطور للخطر ، وذبح ضباطه ، وبذلت السلطات المدنية والعسكرية أقوى الجهود لقمع ذلك الحماس الشعبي . وكانت الجزر الكثيرة في الأرخبيل ، أو البحر المقدس ، مليئة بالتماثيل الدينية والرهبان . ولم يتورع أنصار هؤلاء الرهبان وتلك التماثيل عن نبذ عدو المسيح ، وعدو أمه وقديسيه ، وسلحوا أسطولا من القوارب والغلايين، ورفعوا أعلامهم المقدسة، وأبحروا في جرأة وبسالة صوب مرفأ القسطنطينية لكي يجلسوا على العرش شخصا جديدا يكون مقربا لله وللشعب وكانوا في ذلك الهجوم يعتمدون على عون يأتيهم بمعجزة ، غير أن معجزاتهم كانت عديمة الجدوى أمام « قذائف النار اليونانية » ، وبعد هزيمة أسطولهم واحتراقه ، تركت الجزائر العارية لرحمة الفاتح أو عدالته . وقام ابن ليو ، في السنة الأولى من حكمه ، بحملة ضد العرب ، وفي أثناء غيابه استولى قريبه أرتافاسديس Artavasdes بطل العقيدة الأرثوذكسية الطموح ، على العاصمة والقصر والعرش . وأعيدت عبادة الصور والتماثيل في ظفر وانتصار ، وتخلى البطريرك عن ريائه ، أو أخفى أحاسيسه ، واعترفت روما الجديدة والقديمة بالحق العادل للمغتصب . وهرب قسطنطين الى الجبال التي نشأت فيها أسرته ، غير أنه هبط ثانية على رأس مريديه من الأيسوريين الشجعان ، وأزعج انتصاره الحاسم ، جيوش المغتصبين وتكهناتهم . غير أن عهده الطويل ساده الصخب والفتنة والتآمر ، والكراهية المتبادلة ، والانتقام الدموي ، وكان اضطهاد الصور والتماثيل دافعا من الدوافع التي أوغرت صدور أعدائه ، أو ذريعة تذرعوا بها لمناصبته العداء ، واذا كانوا قد خسروا تاجا دنيويا ، فقد كافأهم اليونان بتاج استشهاد ، وفي كل عمل من أعمال الخيانة السافرة أو الخفية

كان الامبراطور يشعر بما يضمره له الرهبان من عداوة لا تعرف الصفح ، لأنهم عبيد أمناء للخرافة التى يرجع اليها الفضل فى ثرائهم ونفوذهم • فكانوا يصلون ، ويعظون ، ويصفحون ، ويثيرون النفوس ، ويتآمرون • وانهمر من فلسطين الموحشة سيل من الاتهام ، وجرى قلم القديس يوحنا الدمشقى (١) ، آخر الآباء اليونانيين ، يطلب الهلاك للطاغية فى هـذه الدنيا وفى الآخرة • وليس لدى فسحة من الوقت لبحث الى أى مدى كان الرهبان هم السبب فى خلق آلامهم الحقيقية أو المصطنعة ، والى أى مدى بالغوا فى تلك الآلام ، أو لمعرفة عدد من فقـدوا حياتهم أو أطرافهـم ، أو عيونهم أو لحاهم ، نتيجة قسوة الامبراطور • ولقد انتقل الامبراطور من معاقبة الأفراد الى الغاء طائفة الرهبان كلها ، وبما أن تلك الطائفة كانت غنية ولا نفع منها ، فمن الجائز أن سخطه قد أثاره الجشـع وبـررته الوطنية ، وكان الاسم المخيف « التنين » ، الذى أطلق على رجل يتولى مهمة التفتيش العام ، مصدر فزع وكراهية لأصـحاب الأردية السوداء (الرهبان) ، وقد حلت الجماعات الدينية ، وحولت مبانيهم الى مخازن وثكنات ، وصودرت أراضيهم وأمتعتهم ، ومواشيهم ، وان سوابقنا الحديثة لتؤيد الاتهام الموجه الى الامبراطور أن آثار الأديرة ، بل والكتب الموجودة فيها ، قد تعرضت لتخريب عابث داعر ، أو خبيث حاقد • والى جانب تحريم مهنة الرهبنة وردائها ، حرمت عبادة الصـور والتماثيل تحريما صارما ، سواء أكانت العبادة خاصة أم عامة ، ويبدو أن الامبراطور قد أجبر رعايا الامبراطورية الشرقية أو على الأقل رجال الدين منهم ، على نبذ الوثنية والاقلاع عنها •

ثورة ايطاليـا

نبذ الشرق الصابر صوره وتماثيله الدينية مرغما كارها ، غير أن حرص الايطاليين المستقلين دفعهم الى تقبل هذه العبادة بشغف ، والى الدفاع

---

(١) كان يوحنا او منصور ، نبيلا مسيحيا من دمشق يشغل منصبا كبيرا فى خدمة الخليفة ، وعرضه حماسه لقضية الصور لسخط الامبراطور اليوناني ودسيسته ، وقد اشتبه فى أنه على اتصال خائن بأعداء الخليفة ، فقطعت يده اليمنى ، ولكن العذراء أعادتها له بصورة معجزة • وبعد هذا الانقاذ استقال من منصبه ، ووزع ثروته ، وانزوى فى دير القديس ساباس ، بين أورشليم والبحر الميت • والقصة شهيرة ذائعة ، غير أن المؤلف الذى كتب عنه ، وهو الأب لكوين Lequien اثبت لسوء الحظ ، أن يوحنا الدمشقى كان راهبا فعلا قبل حدوث النزاع حول حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية •

عنها فى عزم وقوة • وكان بطريرك القسطنطينية وبابا روما متساويين من حيث المقام والاختصاصات الدينية ، غير أن الحبر اليونانى كان عبدا أجيرا تحت عين سيده ، الذى يستطيع بايماءة من رأسه أن ينقله من الدير الى العرش الأسقفى ، أو من العرش الى الدير • وكان أساقفة اللاتين يعيشون وسط متبربرى الغرب فى مكان ناء محفوف بالأخطار ، وأثار ذلك فيهم شجاعة وحرية ، وكان انتخابهم الشعبى يحبب الرومان فيهم ويقربهم الى قلوبهم ، وكانوا يستخدمون دخلهم الكبير فى التخفيف من فاقة الأفراد والجماعات • وأرغمهم ضعف الأباطرة واهمالهم على الاهتمام بأمان المدينة الدنيوى ، سواء فى السلم أو فى الحرب • وفى مدرسة المحنة والشدة كان الكاهن يتعلم بصورة غير محسوسة فضائل الحاكم وطموحه ، وكان الايطالى ، أو اليابانى ، أو السورى ، الذى يجلس على كرسى القديس بطرس ، يتخذ طابعا واحدا ويسير على سياسة واحدة ، وبعد أن فقدت روما جيوشها وولاياتها ، أعادت لها عبقرية البابوات وثرواتهم تفوقها وسيادتها • ومن المتفق عليه أن سلطانهم قام فى القـــرن الثامن على الثورة ، وأن هرطقة محطمى الصور والتماثيل الدينية هى التى أحدثت تلك الثورة وبررتها • غير أن مسلك جريجورى الثانى وجريجورى الثالث فى هذا الصراع المشهود قد فسرته رغبات أصدقائهما وأعدائهما تفســيرا مختلفـــا • فالكتـــاب البيزنطيون يعلنون بالاجماع أنهما ، بعد تحذير عديم الثمرة ، قررا انفصال الشرق عن الغرب ، وحرما الطاغية الذى دنس الأماكن المقدسة من دخل ايطاليا والسيادة عليها • ولا يزال اليونان ، الذين شاهدوا اكتمال الانتصارات البابوية ، يعبرون فى وضوح أكثر عن حرمانهم من أخوية الكنيسة ، وبما أنهم أكثر تعلقا بدينهم من تعلقهم ببلادهم ، فانهم يمتدحون حماس هذين الرجلين الرسوليين (البابوين) وأرثوذوكسيتهما بدلا من توجيه اللوم اليهما • أما أنصار روما الحديثون فانهم يتوقون الى قبول هذا المديح وتلك السابقة ، وهذا المثل المجيد العظيم لخلع هراطقـة ملكيين يشـيد به الكاردينـــال بارونيوس والكاردينـــال بللارمين (١) ، واذا سئلا عن السبب فى عدم توجيه نفس التهديدات الى أشباه نيرون وجوليان من الأقدمين ، وأجابوا بأن ضعف الكنيسة الأولى هو الذى كان السبب فى صبرها على ولائها • وفى هذا الشأن لا تختلف آثار المحبة عن آثار الكراهية ، وانا لنرى البروتستانت المتحمسين ، الذين يسعون الى اثارة سخط الملوك والحكام واثارة مخاوفهم ، يسهبون فى وصف وقاحة جريجورى الثانى والثالث وخيانتهما لمليكهما الشرعى •

---

(١) كاردينالان عاشا فى القرن السادس عشر •

ولم يدافع عنهما الا الكاثوليك المعتدلون ، وأغلبهم ينتمون ، الى الكنيسة الغالية ، وهم الذين يحترمون القديس دون الموافقة على الذنب • وهذان المدافعان عن تاج الملك وتاج البابوية يحيطان صـــدق الحقائق بقواعد العدالة ، والكتاب المقدس ، والقول المأثور ، ويستشهدان باللاتين ، وبسير حياة البابوات أنفسهم ورسائلهم •

وما تزال هناك رسالتان أصليتان كتبهما جريجورى الثـانى الى الامبراطور ليو ، واذا كنا لا نستطيع اطراءهما كأصبق نماذج البلاغة والمنطق ، فانهما ترسمان صورة لمؤسس المملكة البابوية ، أو على الأقل تبينان القناع الذى اختفى وراءه • يقول جريجورى : « لقد تذوقنا خلال عشر سنوات صافية موفقه عزاء رسائلك الملكيه السنويه ، التى تحمل توقيعك مكتوبا بخط يدك بالحبر الأرجوانى ، ووعودك المقدسة بالتمسك بعقيدة آبائك الأرثوذوكسية • فياللأسف على التغير ، ويالجسامة الفضيحة! انك الآن تتهم الكاثوليك بالوثنية ، وانك بهذه التهمة انما تظهر جهلك وبعدك عن التقوى • وقد اضطررنا الى أن نستخدم خشونة الأسلوب والحجج لكى تتفق مع هذا الجهل • ان المبــادىء الأولى للأدب المقدس انما تكفى لاحراجك ، ولو أنك دخلت مدرسة أوليـة وجـاهرت بعدائك لعبادتنا ، لقذف الأطفال السذج الأتقياء بكتبهم التى يتعلمون منها القراءة والهجاء فى وجهك » • وبعد هذه التحية المهذبة اللائقة يتناول البابا بيان الفرق العادى بين الأوثان القديمة وبين الصور والتماثيل الكاثوليكية ، فالأولى هى صور خيالية لأشباح أو شياطين ، فى وقت لم يكن الرب الحقيقى قد أظهر شخصه فى أية صورة مرئية ، أما الثانية فهى أشكال صادقة للمسيح ، وأمه ، وقديسيه ، وقد وافقت هذه الأشــكال ، بما أتت من معجزات كثيرة ، على براءة هذه العبادة النسبية وفضلها • وفى الحق أن جريجورى لابد أنه كان واثقا من جهل ليو ، حيث انه أكد أن استخدام الصور كان مستمرا منذ عهد الرسل ، وأنه كان لها وجود مبجل محترم فى المجالس الكنسية الستة التى عقدتها الكنيسة الكاثوليكية • ثم لجأ البابا الى حجة أكثر تمويها تستند الى ما للصور من سيطرة حاليـــة ، والى ما جرى بشأنها حديثا : وقال ان انسجام العالم المسيحى يقوم مكان طلب عقـد مجلس عام ، ويعترف جريجورى بأن مثــل هذه المجالس لا يكون لها نفع الا تحت حكم أمير أرثوذوكسى ، وينصح ليو الفاجر المتجرد من الانسانية ، والذى يعتبر مذنبا أكثر من أن يعتبر هرطوقيا ، ينصحه بالهدوء والصمت والانصياع المطلق لمرشديه الروحيين فى القسطنطينية وروما • ويحدد الحبر حدود السلطة المدنية والسلطة الدينية ، فيخصص الجسد للأولى ، والنفس للثانية ، ويقول ان سيف العدالة فى يد الحاكم ،

أما رجال الدين فقى يدهم سلاح القوى وأمضى ، وهو سلاح الحرمان من الكنيسة ، وأنهم فى ممارسة مهمتهم الالهية لا يستطيع الابن الغيور أن يبرىء أباه المذنب ، ومن ثم فان خليفة القديس بطرس يستطيع معاقبة ملوك الأرض • ومضى يقول : « أيها الطاغية ، انك تهاجمنا بيد عسكرية من لحم ودم ، ونحن العزل البسطاء لا يسعنا الا أن نتوسل الى المسيح ، ملك الجنود السماويين ، أن يبعث لك شيطانا يحطم جسدك وبذلك يتاح لنفسك الخلاص • لقد أعلنت فى زهو أحمق : « سوف أرسل أوامرى الى روما ، وأحطم تمثال القديس بطرس قطعة قطعة ، وأجىء بجريجورى الى موطىء العرش الامبراطورى مبعدا عن البلاد ومكبلا بالسلاســـل كسلفه مارتن » ، وانى لأدعو الله أن يسمح لى بأن أحذو حذو القديس مارتن ! ولكنى أحذرك من أن مصـــير الامبراطور كونســتانز ينتظر مضطهدى الكنيسة • ولقد أصدر أساقفة صقلية حكما عادلا بالادانة على ذلك الطاغية ، وبعد ذلك قتله أحد خدم القصر وكل ذنوبه فوق ظهره ، بينما لا يزال القديس موضع التبجيل والاجلال من الأمم السكوذية التى أنهى بينهـــا فترة نفيه وحياته • غير أنه من واجبنا أن نعيش لكى نعلم الشعب المؤمن وثقف الى جوارة ، وليس هناك ما يضطرنا الى المخاطرة بحياتنا اذا نشب بيننا وبينكم قتال • ورغم أنك لا تستطيع الدفاع عن الرعايا الرومان ، فان موقع المدينة البحرى قد يعرضها لنهبك وسلبك ، غير أننا نستطيع أن ننتقل الى أول قلعة فى بلاد اللمبارد على بعد أربعة وعشرين (ستادبا وهو ما يساوى ٦٠٧ أقدام انجليزية) ، ولك عندئذ أن تطارد الرياح • هل تجهل أن البابوات هم رابطة الوحدة ووسطاء السلام بين الشرق والغرب ؟ ان عيون الأمم مركزة على شخصنا الضعيف المتواضع ، وهى تقدس الحوارى القديس بطرس كاله على الأرض ، وهأنت تهدد بتحطيم تمثاله • ان ممالك الغرب الداخلية النائية تقدم ولاءها للمسيح ولنائبه ، وها نحن نتأهب لزيارة ملك من أقوى ملوكها يرغب فى أن يتلقى من أيدينا سر المعمودية المقدس • لقد خضع المتبربرون للانجيل • ولم يبق هناك أحد غيرك يصم أذنيه لصوت الراعى • لقد اتقد الغضب فى صـــدور هؤلاء المتبربرين الأتقياء ، وهم متعطشون للانتقام ممن سلط سيف الاضطهاد على الشرق ، فاذا أصررت على موقفك فنحن أبرياء من الدماء التى سوف تسفك فى الصراع ، وليقع ذنب هذه الدماء على رأسك » •

وأول هجوم قام به ليو ضد التماثيل الدينية فى القسطنطينية كان قد شاهده جمهور من الغرباء من ايطاليــا والغــرب ، ثم رووا فى حزن وسخط ذلك العمل الدنس الذى قام به الامبراطور ، ولكنهم عندما تلقوا قراره التحريمى تولاهم الخوف على آلهتهم المحلية • وقد ألغيت من كل

كنائس ايطاليا تماثيل المسيح ، والعذراء ، والملائكة ، والشهداء والقديسين ، وعرض على الحبر الروماني أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ، فاما رضاء الملك ثمنا لموافقته ، واما التجريد والنفي قصاصا على العصيان . ولم تسمح له الغيرة ولا السياسة بأن يتردد ، وتبين لنا اللهجة المتشامخة التي خاطب بها الامبراطور ثقته في صدق عقيدته أو قوة مقاومته . ولم يعتمد الحبر الروماني على الصلوات أو المعجزات ، بل امتشق الحسام ضد العدو العام ، وحذر الايطاليين في رسائله الرعوية من الخطر المحدق بهم ، ووجه نظرهم الى الواجب عليهم . وعند هذه الاشارة هبت مدن رافنا ، وفينسيا (البندقية) ، وبنتابوليس ، والمدن الخاضعة لنائب الامبراطور ، هبت كلها لتأييد قضية الدين ، وكانت أغلب قوتهم الحربية بالبحر والبر تتألف من الوطنيين ، وسرت روح الوطنية والحماس في الجنود المرتزقة الغرباء ، وأقسم الايطاليون أن يعيشوا ويموتوا دفاعا عن البابا والتماثيل المقدسة ، وكان الشعب الروماني مخلصا لأبيهم الروحي ، وحتى اللمبارد أنفسهم كانوا طامعين في نوال نصيب من فضل حربه المقدسة ومزيتها . وكان أكبر عمل من أعمال الغدر بالامبراطور هو تدمير تماثيله ، غير أنه كان في الوقت عينه عملا انتقاميا واضحا أكثر ما يكون الوضوح . أما أشد اجراءات الثورة فعالية ، وأكثرها ارضاء للثوار فهو أنهم امتنعوا عن دفع الجزية المفروضة على ايطاليا ، وحرموا الامبراطور بذلك من قوة أساء استخدامها منذ عهد قريب بفرض ضريبة جديدة . وكان انتخاب الولاة والحكام من العوامل التي حافظت على شكل من أشكال الحكم ، وبلغ السخط العام حدا جعل الايطاليين على استعداد لانتخاب امبراطور أرثوذوكسي ونقله على رأس أسطول وجيش الى قصر القسطنطينية . وفي ذلك القصر أدين ، جريجوري الثاني وجريجوري الثالث أسقفا روما ، بخلق الثورة ، وبذلت كل محاولة ، بالتدليس أو بالقوة ، للقبض عليهما وقتلهما . ولهذا زار المدينة ، أو هاجمها ، ضباط الحرس ودوقات ، ونواب الامبراطور ، من أصحاب المناصب الرفيعة أو المهام السرية ، ونزلوا الى البر مع قوات أجنبية ، وحصلوا على بعض المساعدات الداخلية ، ولا شك في أن أهل نابولي المتعصبين لخرافاتهم الدينية قد يستشعرون الخجل من أن آباءهم الدينيين كانوا على اتصال بقضية الهيراطقة . غير أن شجاعة الرومان ويقظتهم صدت هذه الهجمات السرية أو السافرة ، فهزم اليونان وقتلوا ، ومات زعماؤهم بصورة شائنة ، ورفض البابوات رغم نزوعهم الى الرحمة والشفقة ، أن يتوسطوا من أجل هؤلاء الضحايا المذنبين . وفي رافنا كانت أحياء المدينة الكثيرة تعاني من عداء دموي وراثي ، ووجدوا في الخصومة الدينية غذاء جديدا للفتنة ، غير أن انصار التماثيل كانوا أكثر عددا أو اقوى روحا وشجاعة ، عندما حاول

نائب الامبراطور أن يصد التيار فقد حياته في شغب شعبي . وأرسل الامبراطور أسطولا وجيشا لمعاقبة هذا العمل الفاضح الفاحش ، وبعد أن تعرض اليونان لخسارة كبيرة وتأخير طويل بسبب الرياح والأمواج . نزلوا جوار رافنا ، وهددوا بابادة العاصمة المذنبة ، وبأن يحذوا حذو جستنيان الثاني ، أو يفوقوه فيما فعله حينما أراد عقاب ثورة سابقة ، فاختار خمسين فردا من سكانها البارزين وقتلهم ، وارتمي النساء ورجال الدين على الأرض يتلون الصلوات وهم يلبسون الخيش ، وقد علا وجوههم شحوب الموت ، وحمل الرجال السلاح للدفاع عن بلدهم ، وألف الخطر المشترك بين الأحزاب وفضل كل هؤلاء خوض المعركة على شقاء الحصار الطويل . وحينما كان القتال على أشده بين الجيشين ، وكل منهما يتقدم مرة ويتأخر مرة أخرى ، ظهر طيف ، وسمع صوت ، وانتصرت رافنا لأن الطيف أكد لها النصر . وعاد الغرباء الى سفنهم ، غير أن شاطيء البحر الزاخر بالناس امتلأ بعدد كبير من القوارب ، وتلوثت مياه نهر البو بالدماء الى درجة أن الناس ، تحيزا منهم ، امتنعوا عن أكل سمك النهر طوال ستة أشهر ، وأصبح ذلك النصر موضع احتفال سنوى ساعد على دوام عبادة التماثيل وكراهية الطاغية اليونانى . وفي وسط انتصار الجيوش الكاثوليكية عقد الحبر الرومانى مجلسا من ثلاثة وتسعين أسقفا ضد هراطقة محطمى التماثيل الدينية ، وأصدر بموافقتهم حرمانا عاما ضد جميع من يهاجمون الآباء الدينيين وتماثيل القديسين ، سواء بالكلام أو الأعمال . وانطبق هذا الحكم بصورة ضمنية على الامبراطور . غير أنه اعترض اعتراضا أخيرا عديم الجدوى ، ويفهم من هذا أن اللعنة ظلت مسلطة على رأسه المذنبة . وما أن حقق البابوات سلامتهم ، وعبادة التماثيل ، وحرية روما وايطاليا حتى تراخوا فى شدتهم وتجاوزوا للبلاط عن بعض بقايا السلطة . ودفعتهم آراؤهم المعتدلة الى تأخير انتخاب امبراطور جديد ثم الى منعه ، ونصحوا الايطاليين بألا ينفصلوا عن جسم الملكية الرومانية . وسمح لنائب الامبراطور بأن يقيم فى رافنا أسيرا أكثر منه سيدا ، وظل حكم روما وايطاليا يمارس باسم خلفاء قسطنطين حتى لبس شارلمان تاج الامبراطورية .

ولقد سبق أن قاست حرية روما من ظلم جيوش أغسطس وفنون دهائه وها هى الآن تخلع عن نفسها ، بعد سبعمائة وخمسين سنة من الاسترقاق ، نير الامبراطور ليو الأيسورى واضطهاده . وكان القياصرة قد قضوا على الانتصارات التى حققها قناصل روما ، وعندما اضمحلت الامبراطورية وسقطت كانت حدودها المقدسة قد تراجعت شيئا فشيئا

وابتعدت عن المحيط ، ونهر الراين ، ونهر الدانوب ، ونهر الفرات ، وعادت روما الى حدودها القديمة ، من فيتريو الى تراتشينا ، ومن نارنى الى مصب نهر التيبر • وعندما استبعد الملوك وانتهى عهدهم ، ارتكزت الجمهورية على ذلك الأساس الراسخ المتين الذى شادته حكمة الرومان وفضيلتهم • وأصبحت السلطة الشرعية الدائمة مقسمة بين حاكمين سنويين ، وظل السناتو يمارس سلطة الادارة وسلطة الشـــورى ، ووزعت السلطة التشريعية فى مجالس الأمة حسب مقياس متناسب من الملكية والخدمات ، ولقد كان الرومان الأوائل يجهلون فنون الترف ، فارتقوا بعلم الحكم وعلم الحرب ، وكانت ارادة المجتمع مطلقة ، وحقوق الأفراد مقدسة وكان الدفاع عن الفتوحات موكولا الى مائة وثلاثين ألفا من المواطنين المسلحين ، وهكذا تشكلت عصابة من اللصوص والخارجين على القانون وغدت فى قالب أمة تستحق الحرية وتطمع فى المجد • وعندما تلاشت ســيادة الأباطرة اليونان ، تمثلت فى أنقاض روما صورة محزنة للتدهور ونقص السكان وأصبح استرقاقها عادة ، وخريتها عابرة تجىء بها الصدفة ، وكان ذلك كله وليد خرافتها الدينية ، وموضع دهشتها وفزعها • واندثر من ذاكرة الرومان ، ومن حياتهم العملية ، آخر أثر من مادة الدستور ، بل ومحيت أشكاله نفسها ، ولم تعد لديهم المعرفة ، أو الفضيلة التى تمكنهم من بناء صرح دولة لهـا كيانهـا • وكانت بقيتهم الضئيلة ، وهى ذرية العبيد والغرباء ، موضـع الازدراء والاحتقار فى أعين المتبربرين ، وكلما كان الفرنجة أو اللمبارد يعبرون عن احتقارهم الشديد المرير لعدو من أعدائهم كانوا يسمونه رومانيا ، وتحت هذا الاسم كما يقول الأسقف ليوتبراند Lieutprand ، « نضم كل ما يتسـم بالحقارة والجبن والخيـانة ، وكل ما يتصف بالتطرف فى الجشـع والترف ، وكل رذيلة تحط من قـدر الطبيعة البشرية » • وبحكم الضرورة التى أملاها وضع سكان روما عليهم انصبوا فى قالب فج من الحكم الجمهورى ، واضطروا الى انتخاب بعض القضاة فى وقت السلم ، وبعض القادة فى وقت الحرب ، وكان النبلاء يجتمعون للتشاور ، وكانت قراراتهم لا توضع موضع التنفيذ الا بعد اتفاق كلمة الشعب وموافقته عليها • ومع أن السناتو والشعب الرومانى استعادا الطابع القديم ، الا أن الروح لم يعد لها وجود ، وتلوث استقلالهم الجديد بعار الصراع الصاخب الذى يتسم بة الشطط والظلم ، ولم يكن ممكنا أن يستعاض عن الافتقار الى القوانين الا بتأثير الدين ، واســتطاع سلطان الاسقف أن يلطف من آرائهم الداخلية والخارجية • وبفضل احساناته ، وعطاياه ، واتصاله بملوك الغرب وأحباره ، وخدماته الحديثة ، وعرفان الرومان لفضله ، والقسم الذى أقسموه بالولاء له ، كل أولئك عودهم على

اعتبارن الحاكم أو الملك الأول للمدينة . ولم يكن مما يسيء الى التواضع المسيحي الذي اتسم به البابوات أن يطلق عليهم اسم « المولى » Dominus ، وما تزال وجوههم وأسماؤهم ظاهرة على أقدم العملات . أما سلطتهم الزمنية فان ألف سنة من التبجيل والاحترام تؤكدها وتدعمها ، كما أن أنبل لقب شرف يحملونه قد اختاره لهم اختيارا حرا ذلك الشعب الذي أنقذوه من العبودية .

★★★

أخضع اللمبارد مدينة رافنا ، وأنهوا حكم نائب الامبراطور ، ثم هاجموا روما . وأنقذت روما على يد ببين ، ملك الفرنجة ، وفى نهاية الأمر استسلم اللمبارد لابنه شارلمان فى سنة ٧٧٤ .

علاقات ببين وشارلمان والبابوات

تشكل الالتزامات المتبادلة بين البابوات وأسرة كارلوفنجيا حلقة عامة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وبين التاريخ المدنى والتاريخ الدينى . ولقد حظى أنصار الكنيسة الرومانية من غزو ايطاليا بفرصة مواتية ، ولقب مظهرى جذاب ، وتمنيات الشعب ، وصلوات رجال الدين ودسائسهم . غير أن أهم هدية قدمها البابوات الى أسرة كارلوفنجيا هى منصب ملك فرنسا ومنصب نبيل روما Patrician ١ ـ فى ظل مملكة القديس بطرس الكهنوتية بدأت الأمم ترجع الى عادة التطلع الى ضفاف نهر التيبر بحثا عن ملوكها ، وقوانينها ، والمتكهنين بمصيرها . واحتار الفرنجة بين اسم حكومتهم وجوهرها . فكل سلطات الملك كان يمارسها ببين ، ناظر القصر الملكى ، ولم يعوزه لبلوغ منتهى أطماعه الا اللقب الملكى . ولقد سحق أعداءه بقوة بأسه ، وضاعف عدد أصدقائه بكرمه وسخائه ، وكان أبوه (١) هو الذى أنقذ العالم المسيحى ، وتعاقب من هذه

---

(١) هو شارل مارتل الذى كان ناظرا للقصر فى عهد الملك الضعيف ثيودوريك الرابع الميروفنجى ـ (الترجمة) .

الأسرة أربعة أجيال كانوا جديرين بما بلغوا من مكانة بل أنهم أضفوا عليها مجدا وشرفا . وكان الملك الضعيف شلدريك الميروفنجي ، آخر سلالة كلوفيس ، لا يزال محتفظا باسم الملكية وصورتها ، غير أن حقه الملكي الذي عفا عليه الزمن لم يعد يستخدم الا كأداة للفتنة ، وكانت الأمة راغبة في استعادة بساطة الدستور ، كما أن ببين ، وهو فرد من الرعية وحاكم في الوقت عينه ، كان يطمع في تدعيم مركزه ومصير أسرته . وكان ناظر القصر والنبلاء مرتبطين بقسم الولاء للملك الصوري ، ودم أسرة كلوفيس في نظرهم كان دما نقيا مقدسا ، فأرسلوا رسلهم الى الحبر الروماني يطلبون منه ازالة مخاوفهم أو احلالهم من وعدهم . أما البابا زخاري ، خليفة جريجوري الثاني وجريجوري الثالث ، فقد دفعته مصلحته الى تأييد قضيتهم ، وأصدر قرارا بأن الأمة في مقدورها بصورة شرعية أن تجمع في شخص واحد بين لقب الملك وسلطته ، وأن شلدريك المنكود ، وهو ضحية السلامة العامة ، يجب أن يجرد من لقبه ، وتحلق لحيته ، ويوضع في دير طوال الأيام الباقية من حياته . وقبل الفرنجة تلك الاجابة التي لاءمت رغباتهم ، على اعتبار أنها فتوى شرعية ، أو حكم قاض ، أو صوت نبي . وهكذا اختفت سلالة أسرة الميروفنجيين من الأرض ، وارتفع قدر ببين على أسنة الرماح نتيجة انتخاب شعب حر تعود طاعة قوانينه والانضواء تحت لوائها . ثم توج بموافقة البابوات مرتين ، توجه في احداهما القديس بونيفاس ، أشد أتباع البابوات اخلاصا وأكبر رئيس ديني في ألمانيا ، وتوج للمرة الثانية على يد اسطفانوس الثالث الذي اعترف بفضل ولي نعمته ووضع التاج على رأسه في دير القديس دنيس ، ثم مسحه بالزيت المقدس في براعة كما كان شأن ملوك اسرائيل . واتخذ خليفة القديس بطرس شخصية سفير الهي ، وتحول زعيم قبيلة ألماني الى ملك دهن بالزيت الالهي . وانتشر هذا النوع من الشعائر اليهودية في أوروبا الحديثة وظل معمولا به بفضل خرافتها وغرورها ، وهكذا أحل الفرنجة من قسمهم القديم ، غير أنهم هددوا وذريتهم بلعنة رهيبة اذا تجرأوا على معاودة حرية الاختيار نفسها ، أو انتخبوا ملكا لا يكون من نسل الملوك الكارلوفنجيين المقدسين ذوي الفضل والجدارة . ولم يدرك هؤلاء الملوك الخطر المحدق بهم ، فتشامخوا بحصانتهم الحالية ، ويؤكد أمين سر الملك شارلمان أن صولجان الملك الفرنسي قد انتقل اليهم بسلطة البابوات ، وكانوا في أجرأ مشروعاتهم يتمسكون في ثقة بهذا الدليل على السلطة الشرعية الزمنية ، وبعملها الناجح .

٢ ـ عندما تغيرت العادات واللغة أصبح نبلاء روما بعيدين كل البعد عن سناتو روميولوس ، أو قصر قسطنطين ـ عن نبلاء الجمهورية الأحرار ،

أو آباء امبراطور الوهميين • وبعد آن استعادت جيوش جستينيان ايطاليا وأفريقيا ، استلزمت هذه الولايات البعيدة كما استلزم الخطر المحدق بها ، وجود حاكم أعلى ، وأطلق عليه اسم نائب امبراطور أو النبيل Patrician سواء بسواء (١) • وامتدت السلطة الشرعية لحكام رافنا هؤلاء ، الذين أصبح لهم مكان فى تاريخ الملوك ، الى المدينة الرومانية • ومنذ ثورة ايطاليا وزوال النيابة الامبراطورية Exarch استلزمت محنة الرومان بعض التضحية باستقلالهم • ورغم ذلك فانهم ، حتى فى هذا العمل ، مارسوا حق التصرف من تلقاء أنفسهم ، وكانت قرارات السناتو والشعب تمنح شارل مارتل وذريته على التوالى مناصب نبلاء روما• ولا شك فى أن زعماء أمة قوية كان ينبغى عليهم أن يرفضوا مثل هذا اللقب الذليل والمنصب الثانوى ، غير أن حكم الأباطرة اليونان كان معطلا ، وفى هذا الفراغ الذى منيت به الامبراطورية ، استمدوا من البابا والجمهورية تكليفا أكثر فخارا ومجدا • واهدى سفراء الرومان هؤلاء النبلاء مفاتيح ضريح القديس بطرس كعهد ورمز للسيادة ، ومعها علم مقدس كان من حقهم ومن واجبهم أن ينشروه دفاعا عن الكنيسة والمدينة • وفى عهد شارل مارتل وببين ، كان تدخل مملكة اللمبارد يضمن حرية روما ولكنه يهدد سلامتها ، وكان منصب النبيل لا يمثل الا حق هؤلاء الحماة البعيدين وخدمتهم والتحالف معهم • وحطمت قوة شارلمان وسياسته عدوا وفرضت سيدا • وفى أول زيارة قام بها للعاصمة قوبل بكل ألوان التكريم التى كانت تقدم من قبل لنائب الامبراطور وممثله ، واكتسب هذا التكريم شيئا من الروعة الجديدة لأن البابا هادريان الأول قابل الزيارة بالفرح والشكر • فما كاد يعلم بهذه الزيارة الملكية المفاجئة وبمقدم شارلمان ، حتى أوفد حكام روما ونبلاءها لاستقباله بالعلم ، على بعد ثلاثين ميلا من المدينة • وعلى بعد ميل منها ، اصطف على طريق فلامينيا أبناء الجاليات الوطنية من اليونان ، واللمبارد والسكسون ، وغيرهم ، وكان الشباب الرومانى يحمل الأسلحة ، أما الأطفال الأصغر سنا ، فقد حملوا فى أيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون ، وأخذوا ينشدون المدائح لمنقذهم العظيم • وعندما شاهد شارلمان الصلبان المقدسة وأعلام القديسين ، ترجل من فوق جواده وتقدم موكب نبلائه الى الفاتيكان ، وعندما ارتقى السلم أخذ يقبل فى ورع وتقوى كل درج من الدرجات المؤدية الى عتبات الرسل• وكان هادريان فى مدخل الفاتيكان متأهبا لاستقباله على رأس قساوسته • ثم تعانق الرجلان • معانقة الأصدقاء والأنداد ، ولكنهما فى مسيرتهما

---

(١) كان مقره مدينة رافنا •

صوب المذبح اتخذ الملك وضعه الى يمين البابا · ولم يقنع ملك الفرنجة بهذه المظاهر الباطلة الجوفاء التى تعبر عن الاحترام ، ففى الأعوام الستة والعشرين التى انقضت بين غزو لمبارديا وتتويجه الامبراطورى ، خضعت روما ، التى أنقذها بسيفه ، الى صولجان شارلمان كما لو كانت ملكا خالصا له · وأقسم الشعب يمين الولاء لشخصه ولأسرته ، وصكت النقود وأقيمت العدالة باسمه ، كما أن انتخاب البابوات · كان خاضعا لسلطته ، يبحثه ويصادق عليه · ولم يبق هناك أى امتياز ملكى يستطيع لقب امبراطور أن يضيفه الى نبيل روما اللهم الا أن يكون له فى الملك حق أصيل يشعر به فى دخيلة نفسه ·

وكان عرفان الملوك الكارلوفنجيين بالجميل متناسبا مع التزاماتهم ، فلقد قدست أسماؤهم كمخلصى الكنيسة الرومانية وأولياء نعمتها · وبفضل سخائهم وجودهم تحول ميراثها القديم من مزارع ومنازل الى سيطرة زمنية على مدن وولايات ، وكان منصب نائب الامبراطور أول ثمرات فتوحات ببين · ولقد تخلى استولفوس عن غنيمته هذه وهو حزين مكمود ، وسلمت مفاتيح المدن الرئيسية ورهائنها الى السفير الفرنسى ، وقدمها هو بدوره وباسم مولاه أمام قبر القديس بطرس وكان من الممكن أن يمتد نطاق هذه الولاية الكبيرة التى كانت خاضعة لنائب الامبراطور بحيث تشمل ولايات ايطاليا التى كانت قد أطاعت الامبراطور ونائبه ، غير أن حدودها الدقيقة الأصيلة شملت أقاليم رافنا وبولونيا وفيرارا ، ومعها ولاية تابعة لها ولا تنفصل عنها ، وهى بنتابوليس Pentapolis ، التى كانت تمتد على طول ساحل الأدرياتيك من ريمنى الى أنكونا ، وتتقدم فى الاقليم الأوسط حتى سلاسل جبال الأبنين · وفى هذه العملية أدين طمع البابوات وجشعهم ادانة شديدة · ولعله كان حريا بتواضع كاهن مسيحى أن ينبذ مملكة دنيوية لم يكن من السهل عليه أن يحكمها دون أن يتخلى عن فضائل مهنته ، ومن الجائز أيضا أن فردا مخلصا من أفراد الرعية ، بل وعدوا كريما ، كان يمكن أن يكون أقل تلهفا على تقسيم أسلاب المتبربر ، ولو أن الامبراطور كان قد وكل الى البابا أسطفان أن يلتمس باسمه اعادة الاكسرخية لنائبه فانى لا أبرىء البابا من لوم الخيانة والزيف · غير أن التفسير الجامد للقوانين يتيح لكل انسان أن يقبل دون ارتكاب اساءة أى شىء يمنحه اياه ولى نعمته اذا لم يكن فى هذا المنح ظلم لأحد · ولقد تخلى الامبراطور عن حقه فى تعيين نائبه ، أو أنه خسر ذلك الحق ، وتحطم سيف أستولفوس على سيف أقوى هو سيف الملك الكارلوفنجى · ولم يكن ببين قد عرض للخطر شخصه وجيشه فى حملة مزدوجة الى ما وراء

جبال الألب من أجل محطم التماثيل الدينية • فلقد كان سيدا للبلاد التى فتحها ، ومن حقه الشرعى أن يتنازل عنهـــا ، وردا على لجاجة اليونان أجاب في ورع وتقوى بأنه ليست هناك أية اعتبارات انسانية يمكن أن تغريه على أن يسترد الهبة التى خلعها على الحبر الرومانى من أجل غفران ذنوبه وخلاص نفسه • ولقد منحت الهبة الرائعة هشفوعة بسيطرة مطلقة عليا ، وشاهد العالم لأول مرة أسقفا مسيحيا يمتلك امتيازات ملك دنيوى ـ كاختيار الحكام ، وممارسة القضاء ، وعرض الضرائب ، والتحكم فى ثروة قصر رافنا • وعندما تفككت مملكة اللمبارد ، حاول سكان دوقية سبوليتو أن يتجنبوا العاصفة ، فحلقوا شعر رءوسهم على الطريقـة الرومانيـــة ، وجاهروا بأنهم خدام القديس بطرس ورعاياه ، وأكملوا بهذا الاستســلام الاختيارى الحلقة الحالية التى تحيط بالدولة الكنسية • واتسعت تلك الدائرة الغامضة الى حدود لانهاية لها بفضل الهبة الشفوية أو المكتوبة التى منحها شارلمان ، وهو الذى ، فى أول نشوات ظفره ، جرد نفسه وجرد الامبراطور اليونانى من المدن والجزائر التى كانت من قبل ملحقة بمنطقة النيابة الامبراطورية • غير أنه فى لحظات الشرود والتأمل كان ينظر بعين الغيرة والحسد الى العظمة الحديثة التى وصل اليها حليفه الدينى ، فتهرب فى احترام من تنفيذ وعوده ووعوده أبيه ، ومن ثم أكد ملك الفرنجة واللمبارد أن حقوق الامبراطورية لا يمكن التصرف فيها ، وفى حياته وموته اعتبرت رافنا وروما فى عداد عواصم ملكه • وتلاشت سيادة ولاية النيابة الامبراطورية فى أيدى البابوات ، ولكنهم وجدوا فى رؤساء أساقفة رافنا منافسا محليا خطيرا ، كما أن النبلاء والشعب استنكفوا الخضوع لسلطان قسيس ، ولم يكن فى مقدورهم ، وسط متاعب ذلك العصر واضطراباته ، الا الاحتفاظ بذكرى حق قديم استطاعوا فى عصر أكثر ازدهارا أن يحيوه ويؤكدوه •

والخداع هو حيلة الضعف والمكر ، وكثيرا ما وقع المتبربر القوى الجاهل فى حبائل السياسة الكهنوتيـــة ، وكان قصر الفاتيكان وقصر اللاتيران ترسانة ومصنعا أنتجا أو أخفيا ، وفقا للظروف ، مجموعة منوعة من الأعمال الزائفة أو الصادقة ، والفاسدة أو المريبة ، حسبما كانت تلك الأعمال تخدم مصلحة الكنيسة الرومانية • وقبل نهاية القرن الثامن ألف كاتب رسولى ، من الجائز أنه ايزيدور السيىء السمعة ، قصة الأحكام التى أصدرها قسطنطين والهبة التى منحها ، وهما العمودان السحريان اللذان ترتكز عليهما مملكة البابوات الروحية والدنيوية • وهذه الهبة المشهودة عرف بها العالم فى رسالة كتبها البابا هادريان الأول الى شارلمان يحضه فيها على تقليد سخاء قسطنطين العظيم واحياء اسمه • وتقول القصة أن

قسطنطين ، أول الأباطرة المسيحيين شفى من مرض الجذام ، وتطهر في ماء المعمودية ، على يد الأسقف الروماني ، القديس سلفستر Silvester ، فكافأ الأسقف مكافأة لم يحظ طبيب بمثل عظمتها ومجدها • ذلك أن المهتدي الملكي انسحب من مقر القديس بطرس ومن أرضه الموروثة ، وأعلن عزمه على تأسيس عاصمة جديدة في الشرق ، وترك للبابوات السيادة المطلقة الدائمة على روما ، وايطاليا ، وولايات الغرب • ولقد أثمرت هذه الرواية أنفع الثمار ، فاتهم ملوك اليونان بجريمة الاغتصاب ، وأصبحت صورة جريجورى حقا يطلب بمقتضاه ميراثه الشرعي • وتخلص البابوات من دين العرفان بالجميل ، وأصبحت الهبات الضئيلة التى وهبها الملوك الكارلوفنجيون لاتعدو أن تكون ردا عادلا لا رجعة فيه لجزء صغير من الدولة الكنسية • ولم تعد السيادة على روما وقفا على اختيار شعب متقلب ، وتقلد خلفاء القديس بطرس وقسطنطين حلة الملك التى كانت للقياصرة ، كما اكتسبوا امتيازاتهم ولقد بلغ من جهل تلك العصور وسذاجتها أن أسخف قصة خرافية قوبلت بالاحترام نفسه في اليونان وفي فرنسا ، وما تزال مسجلة بين قرارات القانون الكنسى • ولقد عجز الأباطرة والرومان عن تبين تدليس قوض حقوقهم وحريتهم ، ولم يعترض عليه الا رهبان دير في سابين Sabine أنكروا فى بدء القرن الثانى عشر صحة وصدق هبة قسطنطين • وفى أثناء حركة احياء اللوم وانتعاش الحرية دحضت كتابات لورتنيوس فاللا هذا التصرف الموهوم ، وهى كتابات جرى بها قلم ناقد بليغ رومانى محب لوطنه • وكم دهش معاصروه فى القرن الخامس عشر لجرأته الدنسة ، ولكن تلك هى شيمة العقل فى تطوره الصامت الذى لا يقف فى طريقه شيء ، حتى ان المؤرخين والشعراء ، قبل نهاية العصر التالى أنكروا فى احتقار تلك الخرافة ، كما نبذها المدافعون عن الكنيسة الرومانية صراحة أو نقدوها فى أسلوب معتدل • بل ان البابوات أنفسهم كانوا ينظرون في ابتسامة ساخرة الى سذاجة الدهماء ، ولكن ظل اللقب الزائف البائد يكسب حكمهم قدسية ، وبقى الصرح قائما بعد أن قوضت الأسس التى كان مرتكزا عليها ، وانتهت الى المصير نفسه الذى انتهت اليه الأحكام البابوية وتكهنات العرافين الغامضة •

اعادة التماثيل والصور الدينية فى الشرق

بينما كان البابوات يوطدون حريتهم وسلطانهم فى ايطاليا ، كانت الصور والتماثيل الدينية ، وهى أول أسباب ثورتهم ، قد أعيدت فى الامبراطورية الشرقية • وفى عهد قسطنطين الخامس ، كان اتحاد السلطة

المدنية والسلطة الدينية قد طوح بشجرة الخرافة دون أن يستأصل جذورها ، ولقيت الأوثان ، وقد اعتبرت الصور والتماثيل الدينية اذ ذاك أوثانا ، لقيت تلك الأوثان صدرا رحبا من طائفة الرهبان والنساء ، وهما أكثر الناس نزوعا الى التعبد ، وحاز التحالف الوثيق العزيز بين هؤلاء وهؤلاء نصرا نهائيا على عقل الرجال وسلطتهم • وحافظ ليو الرابع على ديانة أبيه وجده بصورة أقل صرامة ، غير أن زوجه ايرين الجميلة الطموح كانت قد تشربت حماس الأثينيين ، ورثة الوثنية ، أكثر من تشربهـا لفلسفة أجدادهم • وعندما كان زوجها على قيد الحياة ، أشعل الخطر والرياء نار هذه الأحاسيس ، ولم يكن فى وسعها الا أن تعمل على حماية وتشجيع بعض المقربين اليها من الرهبان الذين أخرجتهم من كهوفهم وصوامعهم ، وأجلستهم على العروش الأسقفية فى الشرق • ولكن ما أن حكمت باسمها وباسم ابنها ، حتى تولت القضاء على أعداء التماثيل الدينية بصورة أكثر جدية وخطورة ، وكانت أول خطوة خطتهـا على طريق اضطهادها لهؤلاء الناس فى المستقبل هو أنها أصدرت مرسوما عاما يقضى بحرية الضمير • وعندما عاد الرهبان الى مراكز القوة عرضت آلاف الصور والتماثيل أمام الناس لتكون موضع تقديسهم وتبجيلهم وابتدعت آلاف القصص عن آلامها ومعجزاتها • وعندما كانت تخلو بعض المناصب الأسـقفية بموت أصحابها أو ابعادهم ، كانت أماكنهم تشغل فى حكمة وحذر ، وكان أكثر المتنافسين تلهفا على الحظوة الدنيوية أو السماوية ينتظرون حكم ملكتهم ويتملقونه ، وترتب على ترقية أمين سرها تاراسيوس أن أصبح بطريرك القسطنطينية فى يدها ، وبذلك دانت لهـا الكنيسة الشرقية • غير أن قرارات مجمع عام لا يمكن الغاؤها الا بقرار مجمع مماثل ، وكان أعداء التماثيل الدينية الذين جمعتهم يتسمون بالجرأة فى الدفاع عن آرائهم ، ويكرهون المناقشة ، ومع أن صوت الأساقفة كان ضعيفا الا أن جنود القسطنطينية وشعبها رددوا ذلك الصوت فى صخب أعظم قوة وأشـد بأسا • غير أن المماطلة والدسائس التى دامت سنة بأكملها ، وعزل القوات المتمردة ، واختيار نيقيا لتكون مكانا لاجتماع مجلس كنسى أرثوذكسى ثان ، كل أولئك أزال تلك العقبات ، وأصبح ضمير الأساقفة مرة أخرى فى يد الحاكم ، وفق الأسـلوب اليونانى • ولم يسـمح لهذا المجلس الا بثمانية عشر يوما لاتمام هذا العمل الهام ، وجاء أعداء التماثيل والصور الدينية لا كقضاة بل كمجرمين أو تائبين ، وازدان المشهد بحضور سفراء البابا هادريان وبطاركة الشرق ، وصاغ القرارات الرئيس تارسيوس ، ثم قوبلت تلك القرارات بأصوات الاستحسان من ثلاثمائة وخمسين أسقفا،

وحظيت بتوقيعاتهم . وقد أعلنوا بالاجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع الكتاب المقدس ، ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجلسها . ولكنهم ترددوا فيما اذا كانت تلك العبادة مباشرة أو نسبية ، وفيما اذا كان نفس اللون من العبادة ينبغي تقديمه للرب ولصورة المسيح سواء بسواء . وما تزال قوانين هذا المجلس النيقى الثانى موجودة كأثر عجيب للخرافة والجهل ، وللزيف والحماقة . ولست أريد أن أبدي أية ملاحظـــة اللهم الا عن حكم الأساقفة فيما يختص بالميزة المقارنة التي لعبادة الصور الدينية وللأخلاق . فثمة راهب كان قد عقد هدنة مع شيطان الزنا ، شريطة أن يعترض الشيطان صلواته اليومية التى كان يقدمهـــا لصورة معلقة فى صومعته . غير أن شكوكه دفعته الى استشارة الكاهن ، فأجاب ذلك المفتى قائلا : « من الأفضل لك أن ترتاد كل ماخور فى المدينة ، وتزور كل عاهرة ، على أن تتخلى عن عبادة المسيح وأمه فى صورهما المقدسة » . وانه لمن سوء الحظ نـــوعا ما ، فيما يتعلق بشرف الأرثوذوكســـية ، وعلى الأقل الأرثوذوكسية الرومانية ، أن الحاكمين اللذين عقدا مجلسى نيقيا ملوثان بدم أبنائهما . وكان ثانى هذين الاجتماعين قد عقـد ونفذت قراراته تنفيذا صارما بموافقة الملكة ايرين وبحكم سلطانها المطلق ، وأبت هى على خصومها ذلك التسامح الذى منحته فى بادىء الأمر لأصدقائها . وخلال العهود الخمسة التالية ، التى استغرقت ثمانية وثلاثين عاما ، ظل النزاع محتدما على أشده ، وكان النجاح حليف أنصـــار عبادة الصور الدينية مرة ، ومحطمى تلك الصـــور مرة أخرى ، ولكننى لا أميل الى أن أتتبع بالتفصيل الدقيق تكرار الأحداث نفسها . فهناك نقفور الذى سمح بالحرية العامة فى الأقوال والفعال ، وهذه الفضيلة الوحيدة فى عهده يتهمها الرهبان بأنها سبب من أسباب هلاكه الدنيوى والأبدى . أما ميخائيل الأول فقد اتصم خلقه بالضعف والخرافة ، غير أن القديسين والصـــور والتماثيل الدينية عجزت عن تدعيم مركز نصيرهم على العرش . وعندما كان ليو الخامس يشغل منصب صاحب الحلة الأرجوانية ثبت اسم أحـد أبناء أرمينيا وأكد ديانته ، وأزال الأوثان ، وحكم على أنصارها المشاغبين بالنفى للمرة الثانية . وكان يمكن لاستحسانهم أن يضفى صفة القدسية على قتل طاغية مارق ، غير أن قاتله وخليفته ، ميخائيل الثانى ، كان ملوثا منذ مولده بهرطقات فريجيا . ولقد حاول أن يتوســـط بين الأطراف المتنازعة ، غير أن روح الكاثوليك العنيدة قذفت به الى الكفة المضادة دون أن يشعر وكان الجبن صنونا لاعتداله ، غير أن ابنه توفيلوس كان لا يعرف الخوف ولا الرحمة ، وكان آخر أعداء الصور الدينية ، وأشدهم قسوة وجرى تيار الحماس عنيفا قويا ضدهم ، وعندما حاول هؤلاء الأباطرة صد

ذلك التيار ، لم يقابلوا الا بالكراهية العامة التى ضاعفت آلامهم • وبعد موت توفيلوس تحقق النصر النهائى للصور الدينية على يد امرأة ثانية هى أرملته تيودورا التى تركها وصية على الامبراطورية ، وكانت اجراءاتها فى هذا الشأن جريئة حاسمة • وقد ابتدعت قصة تقول ان زوجها قد ندم وتاب عما فعل توبة متأخرة ، وبذلك أنقذت سمعة زوجها الراحل ونفسه ، وخففت الحكم على البطريرك عدو الصور من فقء عينيه الى جلده مائتى جلدة • فارتعدت فرائص الأساقفة ، وعلا صراخ الرهبـــان ، واحتفلت الأرثوذكسية سنويا بذكرى انتصار الصور والتماثيل الدينية • ولم يبق الا سؤال واحد ، وهو ما اذا كانت تلك الصـــور والتماثيل تمتلك أية قدسية حقيقية كامنة فيها • وقد أثار اليونان هذا السؤال فى القـــرن الحادى عشر ، وبما أن هذا الرأى يتسم بأعظم قدر من السخف ، فانى لأعجب من أنه لم يلق ردا صريحا بالايجاب • وفى الغرب قبل البابا هادريان الأول قرارات مجمع نيقيا وأعلنها ، وأصبح الكاثوليك الآن يبجلون ذلك المجمع على اعتبار أنه المجمع السابع بين المجالس الكنسية العامة • وانقادت روما وايطاليا لصوت أبيها الروحى ، غير أن الجزء الأكبر من المسيحيين اللاتين كان شديد التخلف فى سباق الخرافة • أما كنائس فرنسا ، وألمانيا ، وانجلترا ، وأسبانيا ، فقد اتخذت طريقا وسطا بين عبادة الصور وتدميرها ، فقبلوا وجودها فى معابدهم لا كأشياء يعبدها الناس ، بل كآثار تذكارية حية نافعة تذكرهم بالايمان والتاريخ • ولقد ألف باسم شارلمان كتاب شديد اللهجة عن هذا النزاع ونشر على الناس ، وعقد تحت سلطته فى فرانكفورت مجلس كنسى من ثلاثمئة أسقف وجهوا اللوم الى حدة محطمى الصور وعنفهم ، غير أنهم وجهوا لوما أشد الى خرافة اليونان ، والى قرارات مجلسهم المزعوم الذى كان موضع احتقار متبربرى الغرب فترة طويلة • ولقد تقدمت عبادة الصور بين هؤلاء المتبربرين فى صمت وبصورة غير محسوسة • غير أن هذا التردد والتأخر من جانبهم انما تعوض عنه تعويضا كبيرا تلك الوثنية الفظة التى تتسم بها العصور السابقة للاصلاح ، ودول أوروبا وأمريكا التى ما تزال غارقة فى ظلام الخرافة •

انفصال البابوات عن
الامبراطورية الشرقية نهائيا

بعد مجمع نيقيا ، وفى عهد الامبراطورة ايرين التقية أكمل البابوات انفصال روما وايطاليا (عن القسطنطينية) بنقل الامبراطورية الى شارلمان الذى كان أقل تمسكا بالعقيدة الصحيحة (الأرثوذكسية) • لقد كان لزاما عليهم أن يتخيروا أى جانب ينحازون اليه من بين الأمم المتنابذة ، ولم يكن

هو الدافع الوحيد الذى يحدد اختيارهم هذا ، وفى الوقت الذى غضوا فيه الطرف عن سقطات أصدقائهم ومواطن الضعف فيهم نراهم ينظرون فى امتعاض وريبة الى فضـــائل أعدائهم الكاثوليكية • ولقد ثبت الاختلاف فى اللغة والعادات جذور العداوة بين العاصمتين ، كما باعد بينهما النفور اللدود الذى دام سبعين عاما • وتذوق الرومان فى غمرة هذا الشقاق طعم الحرية ، كما ألف البابوات مظاهر السيادة ، وكان من الجائز أن يعرضهم خضوعهم لانتقام طاغية حقود ، وكانت ثورة ايطاليا قد فضحت عجز البلاط البيزنطى وطغيـانه معا • وكان الأباطـــرة اليونان قد أعادوا الصـــور والتماثيل ، ولكنهم لم يعيدوا ضياع كالابريا وأبرشيات الليريا التى كان محطمو الصور قد انتزعوها من خلفاء القديس بطرس • وان البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥) ليهددهم بالحرمان من الكنيسة اذا لم يسارعوا بالاقلاع عن هذه الهرطقة الفعلية • لقد كان اليونان آنذاك أرثوذكسيين ، ولكن ربما شاب عقيدتهم شيء من روح الملك الحاكم ، كما كان الفرنجة متمردين، ولكن النظرة الفاحصة قد تبين أنهم عما قريب سيتحولون من استخدام الصور الى عبادتها • وقد تلوث اسم شارلمان بما اتسمت به مجادلات كتابه من حدة وفظاظة ، ولكن الفاتح نفسه ، بوصفه رجـــل سياسة ودولة ، ساير مختلف عادات فرنسا وايطاليا • وفى المرات الأربع التى زار فيها الفاتيكان أو حج اليه ، عانق البابوات ، باسم الصداقة والتقوى ، وركع أمام قبر القديس بطرس ، وبالتالى أمام صورته ، واشترك ، دون أن يخامره ريب ، فى الصلوات والمواكب وفق الطقوس الرومانية ، فهل تجيز الفطنة أو عرفان الجميل للأحبار أن يتنكروا لولى نعمتهم الذى أحسن اليهم ؟ ، وهل كان لهم الحق فى التنازل عن هبة الولاية أو النيابة التى منحهم اياها ؟ وهل كان لديهم من القوة ما يمكنهم من القضاء على حكمه فى روما ؟ لقد كان لقب « النبيل » Patrician دون ما يستحق شارلمان ودون مستوى عظمته ، وكان احياء الامبراطورية الغربيـــة هو الوسيلة الوحيدة التى يستطيعون بها الوفاء بالتزاماتهم أو الابقاء على كيانهم • وسوف يقضون نهائيـــا بهذا الاجراء على مزاعم اليونان ، ويستعيدون مجد رومـــا • وينتشلونها من وهدتها كمجرد بلدة فى ولاية ، وسوف يتحد المسيحيون اللاتين فى ظل رياسة سامية فى عاصمتهم القديمة • وسوف يتسلم فاتحو الغرب تيجانهم من خلفاء القديس بطرس • وســـوف تكسب الكنيســة الرومانية محاميا غيورا محترما ، وسوف يمارس الأسقف حكم المدينة (روما) ، معززا مكرما مطمئنا ، فى ظل سلطة الكارلوفنجيين •

وقبل القضاء على الوثنية فى روما ، كثيرا ما أسفرت المناقشة على الحظوة بأسقفية غنية ، عن الشغب والهياج وسفك الدماء • وكان الشعب

أقل عددا ، ولكن روح العصر كانت أشد همجية وشراسة ، والجزاء أجل قدرا ، والتطاحن على كرسي القديس بطرس عنيفا بين قادة رجال الكنيسة الذين تطلعوا الى مقام الملك • ولقد جاوز حكم هادريان الأول كل مقاييس الأعصر الخالية والقادمة : فقد كانت أسرار روما ، وأملاك الكنيسة ، والقضاء على اللمباردين ، وصداقة شارلمان كانت هذه كلها دلائل شهرته انه وطد بطريقة غير محسوسة أركان عرش خلفائه ، وأبرز في فترة قصيرة فضائل أمير عظيم • لقد كانت ذكراه موضع الاجلال والاكبار ، ولكن في الانتخابات التالية اختير أحد قساوسة اللاتيران ، وهو ليو الثالث، وفضل على ابن أخي هادريان وصفيه الذى كان قد رفعه الى أعلى مناصب الكنيسة • وتحت ستار من رضاهم أو ندمهم اختفت لأكثر من سنوات أربع ، أبشع وأفظع نوايا الانتقام ، حتى حان يوم أحد المواكب حين فرقت عصابة عاتية من المتآمرين الحشود العزلاء ، وكالت الضربات لشخص البابا وأثخنته بالجراح • ولكن مشروع المتآمرين للقضاء على حياته أو سلبه حريته باء بالخيبة ، وربما كانت هذه الخيبة نتيجة للاختلال الذى دب في صفوفهم أو نتيجة لوخز ضمائرهم • وترك ليو ممددا على الأرض ، وقد حسبوا أنه فارق الحياة • فلما أفاق من اغماءته ، وتغلب على ما غشيه لما نزف من دمه ، استرد قدرته على الكلام والابصار • وارتقى هذا الحادث الطبيعي الى مرتبة المعجزة ، معجزة استرداد بصره ولسانه اللذين سلبه سكين القتلة اياهما مرتين وهرب ليو من سجنه الى الفاتيكان : حيث خف دوق (سبوليتو) لنجدته ، وواســـاه شارلمان وأظهر العطف عليه في محنتـــه • وارتضى ، أو قل التمس ـ وهو في بادربون Paderbown في وستفاليا ، أن يقوم الحبر الروماني بزيارته • وعبر ليو جبال الألب للمرة الثانية ترافقه ، بعثة من الكونتات والأساقفة لحراسته وليكونوا شهود براءته • وفي شيء من الامتعاض أجل فاتح سكسونيا (شارلمان) الى السنة التالية قيامه شخصيا بهذه المهمة الدينية • وفي حجته الرابعة والأخيرة لروما استقبل شارلمان بمظاهر اجلال والتكريم اللائقة به وبوصفه ملكا ونبيلا ، ورخص للبابا ليو في أن يقسم على تطهير نفسه من الجرائم التي نسبت اليه : وأخرست ألسنة أعدائه ، وعوقبت المحاولة الدنيئة المدنسة لقتله بعقوبة خفيفة لا تتناسب مع الجرم هي النفي • وفي يوم عيد الميلاد في آخر سنة من سني القرن الثامن (سنة ٨٠٠) ظهر شارلمان في كنيسة القديس بطرس وارضاء لغرور روما استبدل بملابسه الوطنية البسيطة ملابس النبلاء • وبعد الانتهاء من الاحتفال بالأسرار المقدسة ، وضع ليو فجأة تاجا ثمينا على رأس شارلمان ، وعند ذاك دوت القبة بهتافات الشعب : « فليحي شارل ، النصر لشارل ، أغسطس التقي الورع ، الذى

توج بارادة الله امبراطورا عظيما محبا للسلام ، على الرومان » · ومسح رأس شارلمان وجسمه بالزيت الملكى ، وقام الحبر الأعظم بمراسم التحية والتكريم لشخصه ، على غرار القياصرة ، وتعتبر اليمين التى أداها شارلمان لمناسبة تتويجه بمثابة وعد بالحفاظ على عقيدة الكنيسة وامتيازاتها ، وكانت الهدايا التى قدمها لضريح الرسول بطرس أول ثمار هذا الوعد · وفى أحاديثه العادلة أعلن الامبراطور جهله بمقاصد ليو ، التى ربما كان فى مقدوره احباطهـــا بتغيبه فى هذا اليوم المشـــهود ، ولكن لابد أن الاستعدادات لهذا الحفل قد فضحت هذا السر ، كما أن رحلة شارلمان تكشف عن أنه كان يعلم به ويتوقعه ، فقد اعترف بأن اللقب الامبراطورى كان منتهى أطماعه ، كما قرر فى مجمع رومانى أن هذا اللقب كان الجزاء الوفاق الوحيد لمزاياه وخدماته ·

عصر شارلمان وشخصيته

ما أكثر ما كان يسـبغ لقب « الأكبر » ، على الملوك والأمـراء ، وقد يكونون أحيانا جديرين به ، ولكن شارلمان هو الأمير الوحيد الذى من أجله اقترن اللقب بالاسم اقترانا وثيقا · ولقد دون ذلك الاسم فى التقويم الرومانى مشفوعا بلفظة « القديس » · كمـــا توج لقب القديس مديح المؤرخين والفلاسفة واطراؤهم فى عصر مستنير ، وفى ابتهاج نادر المثال · ولا شك فى أن بربرية الأمة التى أنجبته وهمجية الزمان الذى نشأ فيه رفعا من شأن جدارته الحقيقية · ولكن المقارنة غير المتكافئة تزيد كذلك من قدر العظمة أو الأهمية الظاهرية لأى شيء · ألست ترى أن جدب الصحراء المحيطة بأطلال تدمر يضفى عليها بهاء عارضا ؟ ولست اقصد قط الى الحط من قدر الرجل الذى استرد الامبراطورية الغربية أو الخفض من شهرته ، ولكننى أرى بعض الشوائب فى قداسته وعظمته · فليست العفة أبرز فضائله الخلقية (١) ، ولكن الشعور العام لم يلحقه ضرر بليغ بزوجاته أو خليلاته التسع ، وبوقوعه المتكرر فى شراك غرام دنىء أو عابر ، وبالعدد الكبير من الأبناء غير الشرعيين الذين وهبهم للكنيسة ، وبحياة العزوبة

---

(١) ان « رؤيا ولتن Weltin » التى ابتدعها احد الرهبان بعد احد عشر عاما من موت شارلمان ، تظهره وهو فى « المطهر » أو « الأعراف » (مكان بين الجنة والنار) ، ومعه نسر جارح يأكل من العضو الاثم فى جسده ، اما بقية الجسد ، أو شعار فضائله ، فكان سليما لم يمس بسوء ·

الطويلة وحياة الفجور التى تردى فيها بناته (١) اللائى كان يشك فى أنه أباهن يحبهن حبا جنونيا جارفا • ولا أكاد أستبيح لنفسى كيل الاتهام لأطماع الفاتح ، ولكن أبنـــاء أخيــه كارلومان Carloman والأمراء الميروفنجيان فى أكويتين Aquitian (ولاية قديمــة فى الجنوب الغربى من الغال) ، والأربعة آلاف والخمسمائة سكسونى الذين ضرب أعناقهم فى المكان نفسه ـ كل أولئك سوف يكون لديهم ما يقولون ضد عدالة شارلمان وانسانيته يوم يقوم الحساب وتوزن الأعمال بالعدل والقسطاس • لقد كانت معاملته للسكسون المقهورين ضربا من سوء الاستغلال لحق الفتح ، كما أن قوانينه لم تكن أقل من أسلحته فتكا وشراسة • وفى تقصى البواعث التى كانت تعتمل فى نفسه يجدر أن ينسب الى مزاجه وطبعه كل ما أسقط من حساب تعصبه • وان القارىء الذى لا يكاد يبرح مكانه ليدهش لما تميز به شارلمان من نشــــاط دائب لا يفتر فى عقله وجسمه ، كما أن رعاياه وأعداءه على السواء لم يكونوا أقل دهشة لظهوره المفاجىء فى اللحظـة التى كانــوا يعتقدون فيهـــا أنه فى أقصى أركان الامبراطورية ، وما كان زمن الحـــرب أو السلم ، ولا فصـــل الصيف أو الشتاء ، أوانا يخلد فيه الى الراحة • وانه لمن العسير على خيالنا أن يوفق بين حوليات حكمه وبين جغرافية رحلاته وتنقلاته، ولكن هذا النشاط كان خلة تميز بها بنو عشيرته عامة أكثر منها ميزة شخصية له خاصة • فقد كان الرجل من الفرنجة يقضى حياته شريدا لا يقر له قرار : فى الصيد أو فى الحج أو فى المغامرات الحربية • ولم تكن جولات شارلمان تتميز عن ذلك بشىء أكثر من حشد ضخم يسير فى ركابه ، وهدف أجل خطرا يسعى اليــه • ويجب الحكم على شهرته العسكرية بامعان النظر فى جيوشه وأعدائه وأعماله • لقد غزا الاسكندر بأسلحة أبيه فيليب • ولكن البطلين اللذين سبقا شارلمان أورثاه اسمهما أو شهرتهما ، وقدوة حسنة يحتذيها ، كما أورثاه رفاق انتصاراتهما • وبطش ، وهو على رأس جيوشه المحنكة المتفوقة ، بالأمم الهمجية المنحلة التى عجزت عن الائتلاف والاتحاد من أجل سلامتها المشتركة ، كما أنه لم يواجه قط أى عدو متكافىء معه فى العدد أو النظام أو العتاد • وكم تدهور علم الحرب ثم انتعش مع تدهور فنون السلام وانتعاشها • ولكن حملات شارلمان لم تتميز قط بأى حصار أو معركة

---

(١) ان زواج اجنهارد Eginhard من اما Imma ابنة شارلمان ، لتدحضه دحضا كافيا فى رأيى ، تلك الفضائح والشكوك التى لوثت هؤلاء الغادات الحسناوات ، دون استثناء زوجته • ولابد أن الزوج كان أقوى من ان يتعرض له المؤرخ بسوء •

ذات مشقة فريدة أو نجاح نادر المثال ، ومن الجائز أنه كان ينظر بعين الحقد والحسد الى الغنائم التى استولى عليها جده من العرب • وبعد حملته على اسبانيا هزمت مؤخرة جيشه فى جبال البرانس (١) ، وليس بمستبعد أن يكون جنوده الذين كان موقفهم عصيبا ، وجرأتهم لا غناء فيها ، قد اتهموا ، وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، قائدهم بأنه كانت تعوزه المهارة والحرص والحذر • وانى لأمس مع الاجلال والاحترام ، قوانين شارلمان التى حظيت فى سهولة ويسر بالثناء والاطراء من جانب قاض وقور ، تلك القوانين التى لم تشكل نظاما ، بل سلسلة من مراسيم طارئة هزيلة : لتصحيح الأخطاء أو تهذيب الآداب العامة ، وادارة مزارعه ، والعنـــاية بدواجنه ، بل حتى وبيع ما تنتجه من بيض • لقد كانت به رغبة الى تحسين قوانين الفرنجة وأخلاقهم ، وان محاولاته فى هذا المجال جديرة بالثناء مهما كانت ضعيفة ، فقد أبطل حكمه أو عدل من مساوىء العصر المزمنة • ولكننى لا أكاد أتبين فى نظمه تلك النظريات العــامة والروح الخالدة ، للمشرع الذى تبقى آثاره من بعده سندا ونفعا للأجيال القادمة • ومن ثم اعتمدت وحدة امبراطوريته واستقرارها على حياة فرد واحد • وأخذ بهذا التقليد المحفوف بالخطر ، ألا وهو تقسيم ممالكه بين أبنائه • وبعد المجالس العامة الكثيرة التى عقدها ، ترك الدستور يتأرجح بين الاختلال الناشيء عن الفوضى والاستبداد • وأغراه تقديره لتقوى رجال الدين وعلمهم بأن يعهد الى هذه الطائفة الطموحة المتطلعة بمقاليد الحكم الزمنى والقضـــاء المدنى • وربما نعى ابنه لويس ، الى حد ما ، على أبيه شارلمان حمقه وعدم تبصره ، حين انتزع الأســاقفة من هذا الابن ملكه وامتهنوه • وفرضت قوانينه العشور لأن شياطين الجن أعلنت فى الهواء أن التخلف عن الدفع كان السبب فى الفاقة التى حلت أخيرا • أما فضل شارلمان على الأدب فيشهد به تشييده للمدارس ، وادخال الفنون ، والمؤلفات التى نشرها باسمه ، واتصاله الوثيق برعاياه وبالغرباء الذين كان يدعوهم الى بلاطه لتعليم الأمير والشعب معا • وكانت دراسته الخاصة مختلفة مضنية ناقصة ، واذا كان قد تحدث باللاتينية أو فهم الاغريقية ، فانه انما اكتسب

---

(١) سقط فى هذا الاشتباك قائد شجاع اسمه رولان لا يكاد التاريخ يعرف عنه شيئا سوى هذا الخبر ، وان كان قد اصبح أبرز شخصية من شخصيات الأساطير ، فبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية ، لا من حيث تفاصيلها الصحيحة ، بل فى حدة المثل الأعلى للفروسية المسيحية ، ونسج منها ملحمة خالدة تسمى بأنشودة رولان Chanson de Roland محورها شخصية شارلمان وعظمة فرسانه •

هذه المبادىء الأولية من المعـــرفة من الحديث لا من الكتب ، وقد حاول الامبراطور جاهدا فى سنى نضجه أن يتعلم الكتابة التى يتعلمها الآن كل فلاح فى طفولته • أما قواعد النحو والمنطق والموسيقى والفلك ، فما كان يتزود بها الا لأنها توابع تخدم الخرافة أو العقيدة ، ولكن حب الاستطلاع الكامن فى العقل البشرى ، لابد أن يتجه فى النهاية الى النهوض به • وان تشجيع العلم والمعرفة ليعكس على شخصية شارلمان أحسن رواء وأبهجه • وان وقار شخصه ، وطول عهده ، وظفر جيوشه ، ونشاط حكومته ، وتبجيل أقصى أمم الأرض له ، كل أولئك ميزه عن العــدد العــديد من الملوك ، وان أوربا لتعتبر استعادة شـــارلمان للامبراطورية الغربية ، بداية عصر جديد من تاريخها •

فى سنة ٩٦٢ أخضع ملك ألمانيا « أتو » ايطاليا ، ووضع يده على الامبراطورية الغربية • ومن ثم انتقل الآن التاج الامبراطورى الى ألمانيا والأمة الألمانية •

الامبراطور شارل الرابع

يمكن فى القرن الرابع عشر أن نتبين فى أسطع ضوء ممكن حالة الامبراطورية الرومانية فى ألمانيا وتباينها ، تلك الامبراطورية التى لم يعد لها ــ فيما عدا حدود الراين والدانوب ــ الا ولاية واحدة من ولايات تراجان وقسطنطين وكان خلفاؤهما الهزيلون الذين لا يستحقون الذكر هم أمراء (كونتات) آل هابسبرج ، وناسو ، ولكسمبرج ، وشوارتزنبرج • وحصل الامبراطور هنرى السابع لابنه على تاج بوهيميا ، وولد حفيـــده شارل الرابع وسط شعب غريب متبربر ، على حد قول الألمان أنفسهم • وبعد أن حرم لويس أمير بافاريا من رحمة الكنيسة • تلقى (شارل) هدية أو قل وعدا ، بالامبراطورية الشاغرة من الأحبار الرومان الذين زعموا ، وهم فى المنفى أو فى الأسر فى أفينون Avignon ، أنهم يملكون الأرض وما عليها • واتحدت ، بموت منافسيه ، كلمــة هيئة الناخبين ، ونودى بالاجماع بشارل ملكا على الرومان ، وامبراطورهم القادم ، وهو لقب امتهن فى نفس العصر باضفائه على قياصرة ألمانيا واليونان • فلم يكن الامبراطور الألمانى آنذاك أكثر من حاكم منتخب هزيل ضعيف ، على جماعة من الأمراء الأرستقراطيين الذين لم يتركوا له قرية واحدة يمكن أن يقول انها ملك خاص له • ولعل أعظم امتياز له هو حقه فى الرياسة وفى تقديم الاقتراحات

فى مجلس السناتو الوطنى الذى كان يجتمع بناء على دعوة منه • أما مملكته الأولى ، وهى وطنه الأصلى وفيها كان منشؤه ، أى مملكة بوهيميا ، وهى أقل ثراء من مدينة نورمبرج المجاورة لها ـ نقول ان بوهيميا هذه كانت أثبت قاعدة لسلطانه وقوته ، وأكبر مورد لدخله • وكان الجيش الذى عبر به جبال الألب يتألف من ثلاثمئة فارس • وتوج شارل فى كاتدرائية سانت أمبروز بالتاج الحديدى الذى نسبته الرواية المأثورة الى ملوك اللمبارد • ولم يرخص له فى دخول المدينة الا بصحبة رجال غير مسلحين • وأغلقت عليه بعد ذلك أبواب المدينة ، وأخذ ملك ايطاليا أسيرا ـ أسره جنود آل فيسكونتى Visconti الذين دعم سلطانهم فى ميلانو • وتوج شارل مرة ثانية بتاج الامبراطورية الذهبى فى الفاتيكان ، ولكن الامبراطور الرومانى ، تنفيذا لمعاهدة سرية • انسحب على الفور ، ولما ينقض عليه بين جدران روما ليلة واحدة لمجرد الراحة • وان بترارك (الشاعر الايطالى المشهور الذى عاش فى القرن الرابع عشر) صاحب البيان الساحر الذى أحيا خياله أمجاد الكابيتول الوهمية ، ليرثى لهذا الهروب الكريه الذى عمد اليه فتى بوهيميا وينحى عليه باللائمة • وكان فى مقدور معاصريه أنفسهم أن يلحظوا أنه لم يمارس سلطته الا فى بيع الامتيازات والألقاب وهو عمل رابح دون ريب • ولقد ضمن ذهب ايطاليا انتخاب ابنه ، ولكن بلغ الفقر المهين بالامبراطور الرومانى الى حد أن قصابا قبض عليه فى شوارع مدينة ورمز Worms واحتجز فى نزل عام ، ضمانا أو رهينة للوفاء بالتزاماته •

ولنول وجوهنا عن هذا المنظر المخزى الى عظمة شارل نفسه ، تلك العظمة التى برزت فى مجالس الديت فى الامبراطورية • فان المرسوم (١) الذهبى الامبراطورى الذى يقرر الدستور الألمانى قد أعلن فى أسلوب ملك

---

(١) Golden Bull ومعناها المرسوم الذهبى أو الامبراطورى ، لأنه كان يختم بخاتم الذهب • وأقر المرسوم الذى نحن بصدده مركز هيئة الناخبين السبعة وحدده • وهؤلاء هم : ثلاثة أساقفة ، اى أساقفة مينتز ، وكولون ، وتريف ـ واربعة امراء أى أمراء سكسونيا • براندبرج ، البلاتينات ، وملك بوهيميا • ووضع هذا المرسوم قواعد الوراثة فى الامارات الناخبة بصفة دائمة ، على حين حذف اميرى بافاريا والنمسا من قائمة الناخبين ، وهما أعظم الأمراء شأنا من الناحية الاقليمية ، كذلك محا المرسوم ، ضمنا ، ما كان يزعمه البابا لنفسه من شأن فى انتخاب امبراطور ، وان لم ينص المرسوم صراحة على ذلك • وشكل الناخبون هيئة واحدة تعتبر فوق مستوى الأمراء ، وتحد من سلطة التاج ، وتجمع بينها مصلحة مشتركة فى المحافظات على درجة من الاتحاد فى امبراطورية مهددة بالانقسام •

ومشرع • فقد انحنى أمام عرشه مائة أمير ، ..
بما أسبغوا طواعية واختيارا من أمجاد على ر..
المأدبة الملكية قام الضباط العظام الوراثيون وهم
كانوا يساوون الملوك منزلة ولقبا ، قاموا بالخدمة الحقة
القصر • فأختام المملكة المثلثة كان يحملها بصفة رسميه
مينتز Maintz وكولون Cologne وتريف Treves
المستشارين الدائمين فى ألمانيا وايطاليا وآرل • وكان كبير
يمارس مهمته وهو يمتطي جواده ، ومعه مكيال فضى ممتلىء بالـ
ينثره على الأرض ، حتى اذا فرغ من ذلك ترجل لتوه ليشرف على ترتيب
الضيوف • وكان النادل الأكبر (رئيس خدم المائدة) وهو كونت ولاية
بالاتين الواقعة فى حوض الراين يضع الصحاف على المائدة ، على حين قدم
كبير الأمناء ـ حاكم برندنبرج ـ الابريق والطست الذهبيين للغسل بعد
الانتهاء من الطعام • أما ملك بوهيميا وكبير السقاه أو حاملو الأكواب فقد
مثله أخو الامبراطور ، وهو دوق لكسمبرج وبراتانت • واختتم الحفل
بكبار الصيادين الذين كانوا يدخلون بخنازيرهم أو غزلانهم ، وسط
نفخ الأبواق ونباح كلاب الصيد • ولم تكن المكانة السامية للامبراطور
مقصورة على ألمانيا وحدها ، بل ان ملوك أوربا الوراثيين اعترفوا كذلك
بسمو مرتبته ومقامه ، فكان يتصدر الأمراء المسيحيين ، وكان الحاكم الزمنى
للدولة الكبرى فى الغرب • ولقد أضفى على شخصه لقب صاحب الجلالة
لأمد طويل ، وكان ينازع البابا فى ميزة رفيعة واحدة هى صنع الملوك
وعقد المجالس • أما فقيه القانون المدنى ، العلامة بارتولوس Bartolus
الذى كان يجرى عليه شارل الرابع راتبا ، فقد دوت مدرسته بالنظرية
التى تقول بأن الامبراطور الرومانى كان الملك الشرعى للأرض من أقصاها
الى أقصاها ، أو من مشرق الشمس الى مغربها • وحكم على الرأى المعارض
لهذه النظرية • لا بأنه مجرد خطأ ، بل بأنه هرطقة ، حيث ورد فى الانجيل:
« لقد صدر أمر من قيصر أغسطس بأن تفرض الضريبة على العالم كله » •

موازنة بين
شارل الرابع وأوغسطس

اننا اذا أغفلنا فارق الزمان والمكان بين أغسطس وشارل ، فلسوف
يكون التباين شديدا صارخا بين القيصرين ، البوهيمى الذى أخفى ضعفه
تحت قناع من التباهى والتفاخر ، والرومانى الذى ستر قوته تحت مظهر

دان أغسطس وهو على رأس جيوشه الظافرة ،
ن النيل والفرات الى المحيط الأطلسى ، يعلن أنه
ـنو لكل فرد من بنى وطنه · ولقد باشر فاتح روما
ب الشرعية المألوفة : على الناس جميعا ، ولكنه فى اعلان
. صوت السناتو والشعب ، وبمقتضى أوامرهم تقبل مليكهم ،
ـمته أو تفويضـــه الموقوت فى ادارة الجمهـــورية · واحتفظ
. ، فى لباسه ، وفى حيــاته المنزلية ، وفى كل مظاهر الحيــاة
ـتماعية ـ احتفظ بشخصية الرومانى العــادى · ولقـد أكبر فيه أشد
متملقيه دهاء سر حكمه المطلق الثابت ·

اقرأ فى هـذه السـلسلة

أحـلام الاعلام وقصص أخرى	برتداند رسـل
الالكتـرونيـات والحيـاة الحـديثة	ى · رادونسكايا
نقطـــة مقـــابل نقطـــة	الدس هكسـلى
الجغرافيـا فى مائة عام	ت · و · فريمـان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايمـوند وليـامز
تاريخ العـلم والتكنولوجيـا (٢ جـ)	ر·ج· فوربس
الأرض الغـــامضـــة	ليمستردبل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـر الـن
المرشـد الى فن المســـرح	لويس فارجاس
آلهـــة مصــر	فرانسوا دوماس
الانســـان المصرى على الشـــاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القـــاهرة مدينة الف ليلة وليـلة	اولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـــربية	هاشـم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطـق	عـــزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النـوع الأدبى	د· محسـن جاسـم الموسوى
ديـــلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانســـان ذلك الـكائن الفــريد	جـــون لويس
الـرواية الحـــديثة	جـــول ويست
المســـرح المصـــرى المعـــاصر	د· عبـد المعطى شعراوى
على محمـــود طـه	انور المعـداوى
القـــوة النفســـية للأهرام	بـل شـــول وادبنيت
فـن الترجمـــة	د· صـــفاء خـلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلـو
ســـتندال	فيكتـــور برومبير

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين
نظرية الفيلم الكبرى	ج. دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د. جوهان دوشز
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل . باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	داويت سوين
الزمن وقياسه	زافيلكسكى ف . س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س. م. بورا
مركز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الآن كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكراما ساسينج
دراما الشاشة	حسين حلمى المهندس

الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخي عند الاغريق	ارنولد توينبي
قضايا وملامح الفن التشكيلي	د. صالح رضا
التغذية في البلدان النامية	م · هـ · كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا· هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية في اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر

الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كويريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وأخرون
دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى اوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفتريد ج ٠ بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانية	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ ج)	احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب